

تَسْرِحُ الْأَبْصَارُ

فِيمَا حَيَوَى لِبْنَانَ

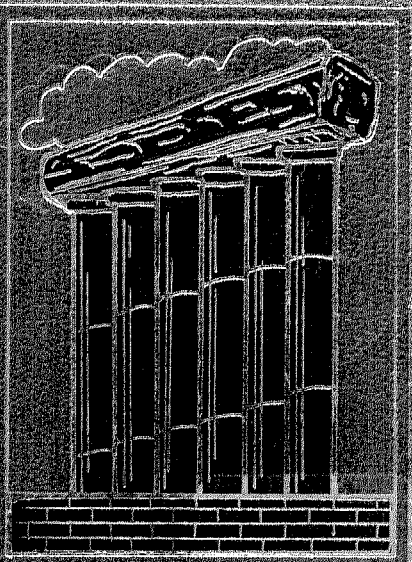
مِنَ الْأَشَارِ

تَأليف

الأب هنري لامنس اليسوعي

٢-١

دار النشر: مكتبة لبنان



Bibliotheca Alexandrina

0121360



General O

تَسْبِيحُ الْإِبْرَاهِيمَ
فِي مَا يَجْتَوِي لِبْنَانَ مِنَ الْأَشْجَارِ

تأليف

الأب هنري لاميس اليسوعي

الجزء الأول

في قسم لبنان الشمالي

نقل عن مجلة المشرق

دار الرائد اللبناني

الحازمية - لبنان
ص.ب. ٩٣

تمهيد

لبنان غني بآثاره التي تشتمل عليها مدنه وقراه ، ولكن معظم هذه الآثار مجهول من الكثرة الكاثرة من أبناء شعبنا ، وهو ما حدا بالمؤلف الأب هنري لاندس اليسوعي الى وضع مجموعة مقالات وأبحاث نشرها في مجلة « المشرق » بعنوان « تسريح الابصار في ما يحتوي لبنان من الآثار » ضمنها من الاخبار التاريخية والايوصاف الجغرافية ما يساعد على الكشف عن آثار لبنان وإلقاء الاضواء الساطعة عليها .

وقد رأت دار الرائد اللبناني انطلاقاً من مبدأ الاهتمام بتاريخ البلاد ومآثر الاجداد أن تقدم الى الأجيال الجديدة هذه المقالات مرة ثانية منشورة في كتاب يحمل العنوان نفسه الذي نشرت المقالات في مجلة « المشرق » به ، ليطلعوا من خلالها على ما مر على مسقط رأسهم من أمم وشعوب مختلفة تركت بصماتها الحضارية في كل مكان منه ، ولتزودهم بقسط من المعرفة يندر أن يقعوا على مثله ، لا سيما وأن المؤلف الى جانب حديثه عن الرسوم والآثار فهو يهتم بالكلام على الأنهار والسواحل والوديان والاعوار والاحوال الجوية والحيوانات المفقودة والمعادن والسكان ومدى انتشارهم فيه واللغات التي كانوا يتكلمون بها .

من البديهي أن لا تشمل هذه البحوث والدراسات ، وقد وضعت مطلع هذا القرن ، ما اكتشف من آثار بعدها ، الا انها والحق يقال قامت بدور مهم وبارز هو أنها حفظت كثيراً من الرسوم والآثار التي درست بعد نشرها ، وكان لها فضل الابقاء على أخبار هذه الآثار وتعريفنا بها وانقاذها من النسيان والغياب في بطون التاريخ والازمنة ، ومن هنا ميزتها . وهذا هو الذي دفع بنا الى أن نبادر الى نشرها لتكون اسهاماً في المكتبة التاريخية اللبنانية وتعريفاً للأجيال اللاحقة بما فعلته الأجيال السابقة .

الناشر

الفصل الأول

قسم لبنان الواقع في شمالي بيروت

إذا ما خرج المسافر من بيروت سائراً نحو الشرق أوّل ما يلقاه في طريقه نهر بيروت . وهو مجرى ماء ربحا اضحى في الشتاء سيلاً جارفاً . واكثر الكتاب المحدثين يرتأون انه هو النهر الذي سماه بلينيوس الطبيعي نهر ماغوراس وانه كان من انهار الفينيقيين المقدسة دعوه بذلك اشتقاقاً من اسم الاله ماقار وهو اسم زحل بلقتهم (١) وقد عارض هؤلاء الكتّبة غيرهم فانكروا ان نهر بيروت هو نهر ماغوراس المذكور (٢) واحتجوا لذلك بحجج لا يسعنا هنا بسطها

وإذا اجترت النهر وجدت في طريقك اوعلى مقربة من الطريق قرى ومزارع نظمتها حديثه العهد اللهمّ الأسنّ الفيل التي ورد ذكرها في تأليف الصليبيين مصفحة بسنسيفيل (Senesfil (٣) . ثم تقطع سهلاً مستطيلاً على سيف البحر يؤدي بك الى نهر انطلياس الذي يجواره موقع القرية المدعوة به

واسم انطلياس كما لا يخفى معرب وقد تضاربت في اصله الآراء فن العلماء من زعم انه نُسب الى النبي الياس واهل القرية يعظمون هذا القديس ويكرمونه ايّ اكرام ويقدمون لكنيسة المشيدة في قريتهم الذبور ويأنفون ان يحلفوا باسمه واذ حلفوا كهوا الحث بايمانهم فقيل ان الضيعة دُعيت لذلك باسم هذا النبي . الا ان في هذا التفسير شبهة لانه لا يبين معنى أوّل لفظة « انطلياس » ولم يحاول بعد احد شرحها . وجاء في تقليد اهل لبنان ان انطلياس دعيت باسم بعض المشاهير او المعبودات ولم يمكننا تحقيق ذلك

ولعلّ انطلياس مشتقة من الكلمة اليونانية (ἀνθράκω) اي مواز للشمس لان انطلياس تقابل الغرب بينما تواجه بيروت جهة الشمال . وهذا الشرح لا يتجاوز حدّ

(١) راجع تاريخ الفينيقيين , Movers : *Phœnicie*, I, 262 et 666

(٢) راجع مجلة العاديات , 1, 13, Note 1, *Revue Archéologique*, 1878, I,

(٣) راجع Rey : *Colonies franques* p. 524



جوار عطفة انطلياس - القارة والبع

الحُدس والرُججان . وعلى كل حال ان انطلياس قرية قديمة العهد يشهد بقدمها ما وجده علماء العاديات من الآثار الجلييلة كهواميسد ذات حجر واحد من الرُخام المحبب ونواويس وبقايا بنايات قديمة . فلا شك ان العمد يدل ان ثمت كان هيكلا للعبادة كما ان النواويس المكتشفة تشهد بوجود مدفن قديم وبقايا الابنية تبين وجود القرية القديمة سواء تدعى بانطلياس او باسم آخر منقود وموقع انطلياس حسن جداً لا بد انه استلقت منذ قديم الزمان انظار الاهلين فسكنوه وعمره ولا نظن ان قراءنا نسوا ما كتبه في اعداد المشرق (١٠٤:١) حضرة الاب زموغن بخصوص محطة انطلياس القديمة وما وجد فيها من الآثار التي تقدمت عهد التاريخ . والذي حمل الاقدمين على ايثار انطلياس وتفضيلها على ما سواها ائماً هو نهرها ذو الماء العذب الزلال الذي يولي البقعة المجاورة للضيعة نضارة وخصباً

وكانت السكة الرومانية الواصلة بين نهر الكلب وبيروت تجدي سكان انطلياس منافع جمة فتسهل لهم نقل كل خيرات المدينة ولا غرو ان الرومان اقاموا هناك نصباً للدلالة على المسافة بين بيروت والقرية التي نحن بصدددها وهي مسافة خمسة اميال اي نحو سبعة كيلومترات ونصف فهذا جل ما نعرفه الآن عن انطلياس . وقد زعم البعض ان هذه الضيعة هي مدينة لاونتوبوليس القديمة (١) وهو رأي واهن لا يمكن اثباته ببرهان صحيح . والصواب ان لاونتوبوليس كانت في جنوبي بيروت على طريق صيدا .

٢ صربا وجونية

ثم تعبر نهر الكلب الذي كان يدعوه الاقدمون ليكوس ومعناه الذئب وتسير مدةً فتصل الى ضيعةٍ موقعها شمالي النهر تدعى صربا وهي منتصبة فوق الصخور المشرفة على حوز جونية . وهو شرم في البحر يُعد من احسن خليجان سوربة ولو اراد احد ان يجول الى مرسى لثيلاً له ذلك دون مشقة . وليس في كل ساحل الشام من غزاة الى الاسكندرونة ميناء طبيعي سواه . وهو في جهته الشمالية

عميق النور فلا بأس على السفن اذا أُلقت هناك مراسيها لان هذه الجهة الشمالية آمن من الجهة الجنوبية التي قعرها رملٌ . وخور جونية بمعدل عن الرياح الخطرة الشديدة الهبوب كريح الشمال وريح الجنوب والصبا . ومع كل هذه الخصائص بقيت جونية قرية لا يُعبأ بها مدة اجيال طويلة ولا علة لذلك سوى صعوبة الوصول اليها وانحصار اطرافها بين جبال عالية تُطلّ عليها شرقاً ومضيتي نهر الكلب والماملتين شمالاً وجنوباً . وعليه لم يمكنها ان تنبسط في السهول المجاورة وتوسع نطاق ارباضها كغيرها من المدن مثل بيروت وطرابلس وصور وصيداء

ورغمًا عن هذه العوائق قد اخذت جونية منذ أمدٍ قريب تحفل بالسكّان وتزيد اتساعاً . وقد نالت نصيباً كبيراً من الحظ منذ أنشئت السكة الحديدية على ساحل البحر إلا أنّها تقتقر لترقى في معارج النجاح الى شيئين اعني الى مياه عذبة يجلبها اليها اهلهما من احد ينابيع القرية والى بعض تحسين سهل في مرفأها بأن يجعل له رصيف لنقل البضائع الى البرّ ونزول الركّاب وتعميق بعض اطراف الخليج . فلو اخرج اهل جونية هذه المشروعات الى حيّز العمل اضحت بلدتهم من ابهج البلاد واشبه شيء مع صغرها بمرفأ نابولي الممدود من ابدع منازة الدنيا

هذا ما يختصّ بمجور جونية أما البلدة نفسها فقد اشتقّ اسمها من خليجها فدُعيت به جونية جونا أو خوراً . ولها ذكر في تواريخ القرون المتوسطة . وكانت في ايام ياقوت الروميّ من اعمال طرابلس (١) . وقال الادريسي (٢) وهو من كتبة القرن الثالث عشر : « انّ جونية حصن على البحر واهله نصارى يعاقبة » . وذكر لها في محلّ آخر كورة (٣) وذلك مما يشير بنوع جليّ الى اهميتها . وقد ورد ايضاً اسم جونية في تآليف الصليبيين وهم يدعونها جوينة (Juine) . أما قدماء الجغرافيين من اليونان والرومان فلم يرووا شيئاً عنها ولا عن صربا التي كانت تُعدّ من ارباضها متعلّقة بها . ولذلك لم نر نحن ايضاً ان نفصلها عن بعضها

قال پلينيوس الطبيعيّ : « انّ بين نهر ليكوس (نهر الكلب) ونهر ادونيس

(١) معجم البلدان (٤ : ١٦٠)

(٢) راجع طبعة غلامبستر ص ١٧



مدخل مقارن انطلياس

(نهر ابرهيم) مكاناً يُدعى باليبيلوس (Palæbyblos) . وزاد عليه ايضا حاً اسطرابون الجغرافي قال: « اذا سرت من بيلوس (جيبيل) جنوباً تلقى في طريقك اولاً نهر ادونيس ثم جبل كليمكس (ὄρος Κλιμαξ) ثم بعدها باليبيلوس واخيراً نهر ليكوس ». فاذا اعتبرنا كلام اسطرابون لا نجد بين نهري الكلب و ابرهيم سوى محلين احزنا لهما في الزمان القديم شهرةً بعدد سكّانها وهما « برجا » و « جونية صربا » . وما من موقع الاهما يحسن ان يكون مربوطاً للسفن . وتعيين المراتي كما لا يُخفى من شأنه ان يبين موقع المدن الفينيقية القديمة لذق الفينيقين بفن الملاحه وتفرغهم للتجارة (١)

واول ما يفيدنا اسطرابون انّ باليبيلوس هذه في جنوبي جبل كليمكس فاذا تحققتنا موقع هذا الجبل استدللنا ايضاً على مكان باليبيلوس . ونظن ان الجبل المذكور هو الجبل المشرف على البحر في شمالي جونية بقرب المعاملتين وهو عبارة عن صخور مرتفعة يتر في وسطها طريق الساحل . وتسمية اسطرابون لها بكليمكس موافق جداً لان كليمكس (Κλιμαξ) باليونانية معناه المرتقى والدّرج . وقد آثر بعض العلماء (٢) رأياً آخر في تعيين جبل كليمكس فقال انه هو الجبل المشرف على جونية الذي تعلوه قريتا حريصة وغسطا . وما فيه من المراتي الصعبة اشبه شيء بدرج السلم فدعى لذلك كليمكس . وكلا الرأيين محتمل فندع لقرائنا ان يرجحوا الواحد على الآخر . وبناء على هذين الرأيين لا بدّ من القول انّ باليبيلوس هي صربا لوقوعها في جنوبي جبل كليمكس

ولا غرو ان يكون موقع جونية و صربا استلقت منذ القدم انظار الفينيقين وهم في حاجة الى نقل بضائعهم بحراً . وعلاوة على ذلك اننا نعلم ان اكثر المدن الفينيقية كانت مبنية في سالف الزمان على نُشوز او على رؤوس تشرف على البحر كما ترى في جيبيل وصيداء وبيروت وصور وهلمّ جراً . فلا ريب اذن ان صربا

(١) راجع مجلّة المباحث (Études, 1861, p. 524) وفيها مقالة ذات شأن في آثار سورية للاب بوركنو اليسوعي . الا اننا لانوافق كاتبها في رأيه عن باليبيلوس . وسيأتي ذكر هذا المبحث في معرض كلامنا عن برجا

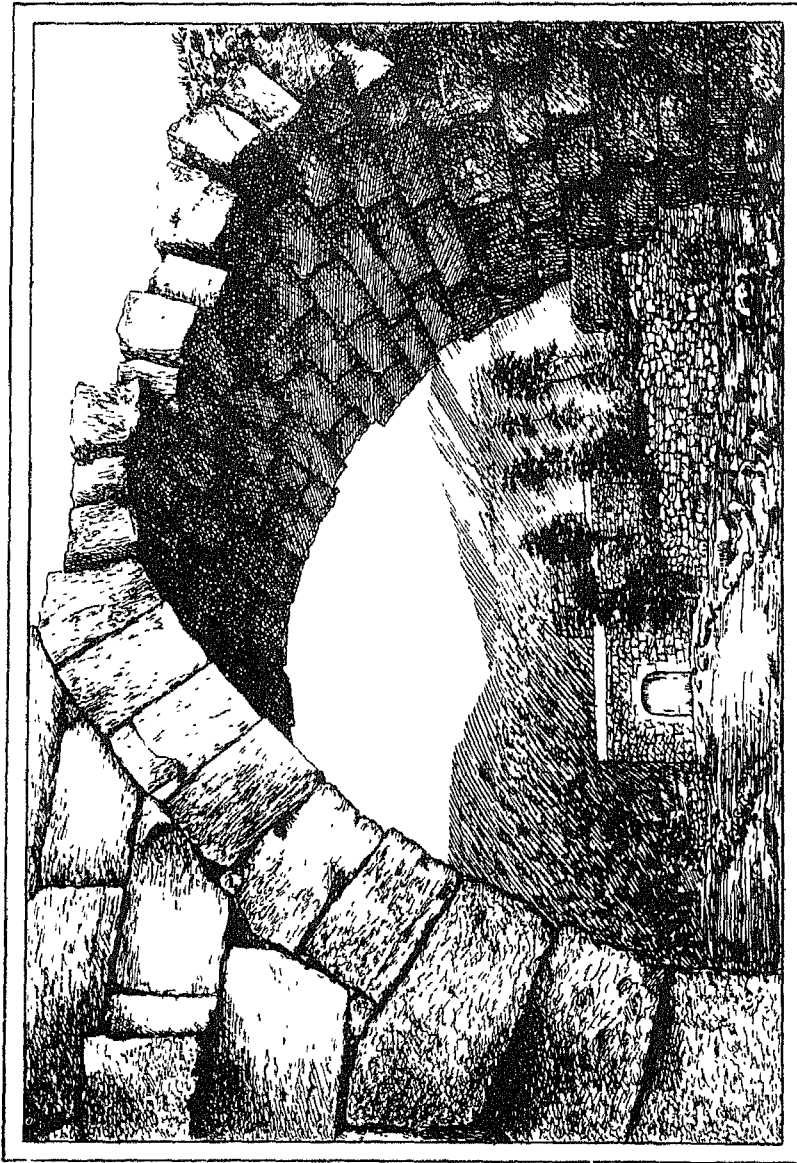
(٢) راجع مجلّة العاديات 15 et 1, 3, 1878, I, Revue Archéolog.,

وجونية اضحنا قديماً مقاماً للفينيقيين ومرفاً لسفنتهم
وما وُجد في هذه السنين الاخيرة من الآثار القديمة بصربا يوئيد رأينا . الأ أن
البنائات الحديثة قد أفتت كثيراً من تلك البقايا الجليلة التي وصفها السائح منذ بضع
عشر سنين . ومن هذه الآثار مغارة يكرم فيها اليوم القديس جرجس ويظهر انها
كانت سابقاً هيكلًا لعبدة الاصنام . ومنها القبر المعروف بقبر بنت الملك وهو
مدفن قديم . ومنها ايضاً قبور ومعاصر قديمة الى غير ذلك من الاخرية الدراسة
ولكن اعظم هذه الآثار قلعة صربا التي لم يبق منها غير قسمها الاسفل وهو
عبارة عن حجارة ضخمة تشبه حجارة دير القلعة . وكان سابقاً بجوار تلك العبارة
اعمدة ورؤوس اعمدة وبقايا آخر من هيكل قديم (١) لان هذه القلعة كانت معبدًا
للوثنيين ولعلها كانت مخصصة لعبادة سيرابيس . وقد اشتق الكاتب كوننا شكليدي
(Ceccaldi) اسم صربا من اسم سيرابيس اله هذا الهيكل . وقد اكتشف ايضاً
في صربا وجونية على مسكوكات فينيقية وتمائيل وكتابات من جملتها كتابة يونانية
في ركن بعض التماثيل كتب فيها (Ζεύς ἑπουράνιος) اي « المشتري السماوي »
فيظهر اذن مما تقدم ان جونية وصربا شيدتا في موضع مدينة قديمة يرجح انها
پاليباوس وكان معظمها فوق الصخور في محل صربا وكانت جونية كمرفاً لها منذ
ايام الفينيقيين

٣ نهر الكلب

ان طريق جونية كما ذكرنا في مقالتنا السابقة يقطع نهراً طاماً ورد ذكره في تاريخ
سواحل فينيقية وهو نهر الكلب . وليست خطارة هذا النهر بعمق غور مياهه او
طول مسافة سيله لان اصله كما لا يُخفى من مغارة في سفح جبل جعيتا تبعد عن
البحر ستة اميال فقط وتختلط مياهه عند خروجه بالمياه المنحدرة من اعالي لبنان من
نوعي اللبن والعسل فيجري من ثم مرغياً مزبداً حتى ينتهي الى البحر فيصب فيه .

(١) وقد نقل البناؤون كثيراً من هذه الحجارة فالتخذوها للبنائات المستحدثة كما فعلوا
في دير القلعة . وهذا امر لا شك يوسف عليه فاذا داوم الاهلون على حرقهم في تحطيم هذه
الرسوم لم يبقوا عملاً قليل في لبنان شيئاً من الآثار القديمة



جسر المامتين الروماني

وانما نهر الكلب شأن في تاريخ الفتوحات العظمى القديمة لأن عند مصبه مضيقاً لا بد من قطعه لمن حاول المرور في سواحل سورية ولذلك اضحى هذا المكان في كل الازمنة كأزق به اصطلت نيران الحروب بين الملوكة الفاتحين وسكان البلد المدافعين عن وطنهم

وقد قدمنا ان اسمه باليونانية « Λύκος » اي ذئب فعرب بنهر الكلب . ولكن أتى له هذه التسمية وما سبب هذا اللقب ؟ نجيب ان الاقاصيص الشائعة بين العامة تروي عن اصل هذا الاسم اموراً غريبة منها ان كلباً هائلاً كالغول كان يحرس هذا الممر الحرج فلا يدع احداً يجتاز ما لم يحل له لغزاً يعرضه عليه . وهذه الرواية اشبه شيء بحكاية اليونان عن ابي الهول (Sphinx) الذي كان يفترس من لم يستطيع الى فك احاجيه سبيلاً . ومنهم من زعم ان النهر دُعي كلباً لأن الوثنيين قديماً نصبوا هناك صنماً على هيئة كلب . يعبدونه ويدعون أنه اذا وافاهم العدو ينبح الكلب فيحذّره من هجائه . ويقولون ان بعض الصخور المجاورة للنهر تتجل جسم هذا الصنم بيد ان رأسه قُطع فألقي في البحر . ولا نظن ان في هذه الاحاديث شيئاً من الصحة لأن العلماء لم يفتقروا بعد البحث على اثر للتمثال المذكور فضلاً عن ان الكتابة الاقدمين لم يذكروا شيئاً من امره . والرأي الصواب عندنا ان النهر يُسمى ذئباً او كلباً لصخابة صوته عند انصبابه في البحر حيث تصطدم مياهه بالامواج المتلاطمة فيسمع له دوي عظيم (١) ويشبه هذه التسمية اسم الليطاني الذي دعاه القدماء نهر الاسد (Λέοντος ποταμός) فعرب بالليطاني وهو الذي يصب في البحر بين صور وصيدا . ويسمى عند مصبه نهر القاسمية

وبالقرب من النهر آثار الطريق الرومانية التي نُحِتت في وسط الصخور المطلّة على النهر جنوباً وقيل ان مرقس اوريلوس انطونينوس الملك (٢) بين سنتي ١٧٧ و ١٨٠

(١) راجع Ritter : *Erkunde*, XVII, 92 ولهذا المؤلف تفسير آخر لا حاجة

لذكره هنا

(٢) قد وهم الشيخ طئوس الشدياق في اخبار الاعيان في جبل لبنان (ص ١٦) اذ نسب هذا المشروع الى انطونيانس قيصر في سنة ١٦٧ والصواب كما ذكرنا . والشاهد على ذلك كتابتان عند مضيق نهر الكلب يُذكر في الاولى تمهده للطريق

وتمّ هذه الطريق ووسّعها فدعاها باسمه « Via Antoniniana »
 أمّا الجسر فكان سبقة الى بنائه انطيوخوس الاول المعروف بسوتير ملك
 سورية في سنة ٢٥٠ قبل المسيح ثمّ هُدم وأصلح مراراً (١) . والمعبر الذي يُعرف
 اليوم بالجسر القديم هو الذي اقامه السلطان سليم خان الاول فاتح الشام كما
 يُستدلّ على ذلك بكتابة عربيّة رُقت في عهده ثمّ جدّد بناءه امير لبنان الشهيد
 بشير الشهابي الكبير . وقيل ان الجسر الباقي هو جسر ثانٍ نصبه الاير بشير
 بقرب الجسر الاول بعد هبوطه (٢)

ومن الاخربة القديمة ما تراه على الضفة الشمالية من الآثار وهي بقايا قناة عظيمة
 كان الرومان بنوها لنقل المياه الى السهول الواقعة بين نهر الكلب وجونية وقد
 اتخذها اصحاب الارزاق في ايامنا جلب الماء الى طواحينهم
 هذا على ان في جوار نهر الكلب آثاراً غير المذكورة آنفاً لها في تاريخ فينيقية
 اعظم شأن . ومن غريب الامور ان كثيرين من الكتبة الى اواسط هذا العصر
 انكروا وجود هذه العاديات (٣) مع انها مكشوفة للعيان يراها كل ابناء السيل .
 وانما يعود الشرف لاثبات وجودها وبيان اهميتها للمرسل الشهيد الاب مكسيميليان
 ريلو اليسوعي (٤) . فنقل رسوماً بكلّ دقّة وبعثها لعلباء اوربة ليجدوا في شرحها
 وهذه الكتابات او الآثار القديمة عبارة عن خمسة عشر اثراً اربعة منها خطوط
 اشورية بالقلم المسماري وُجدت سنة ١٨٨٢ تحت القناة الرومانية فوق الحضيض باثني
 عشر متراً على مقربة الجسر الجديد بميلّة قليلة الى الشرق . لكنّ هذه الكتابات
 مطموسة لم يُستخلص بعد منها فائدة تُذكر

- (١) ومن جملة من اصلحوا هذا الجسر سيف الدين ابن الحاج ارقطاي المنصوري سنة ١٢٩٢
 (٢) راجع اخبار الاعيان ص ١٧
 (٣) لو جمعنا كلّ ما كُتب في هذا الخصوص للمدافعة عن وجود كتابات نهر الكلب
 او انكار ذلك للحصل من هذا المجموع كتاب ضخم الحجم (راجع مجلّة العاديات سنة ١٨٦١
 ص ٦٩) وما يزيدنا عجباً ان المألّمة دي سوسي الكاتب الشهيد لم يقتنع بوجودها مدّة سنين .
 كثيرة مع انه اجتاز بقرجا في غضون سفره الى الشرق
 Ritter, XVII, 534 (٤)



مدخل مغارة حميتا ومنع نهر الكلب

أما بقية الآثار فوقها على ضفة النهر الجنوبية وهي احدى عشرة كتابة ما خلا الكتابين اللاتينيين المذكورين سابقاً

١ فأول هذه الكتابات وردت على صفيحة قديمة كبيرة بالقلم المصري الهيروغليفي تتضمن تقدمةً للاله «فتاح» المصري . وهي الصفيحة التي نُقش عليها ذكر البعثة الفرنسية التي وردت الشام في سنة ١٨٦٠ وهذا الخطّ الفرنسي مع حداثة عهده كاد ان يُطمس رسمه مع بقاء كتابة مرقس اوريلوس بعد ستة عشر قرناً

٢ والكتابة الثانية بالقلم المسماري موقعها بجانب الطريق كالاولى وهي تتبل صورة ملك اشوري رافعاً يده

٣ وبقرب هذه صورة اخرى اشورية تواري معظم رسمها فلا يُعَيَّر منها سوى الرأس

٤ واذا صعدت نحو عشرين متراً فوق الطريق القديمة المشرفة على السكة الرومانية تجد صورة اخرى اشورية طامسة الاثر

٥ و٦ ثم هناك ايضاً كتابتان يونانيتان ذهب الدهر بحروفهما فلا يُرى منها الا اليسير . وقد زعم دليل بيديكرا (١) ان احدهما لاتينية والصواب كما قلنا

٧ وتليهما صورة اخرى اشورية

٨ ثم نُصِبُ مصري يتبل احد الفراغنة منتصباً يقرب قربانه لاله الشمس «راع»

٩ وفي تلك الجهات ايضاً كتابة اشورية مع صورة مالك وكلاهما قد صبر على غابر الدهر

١٠ ثم رقيم مصري فيه صورة بعض الفراغنة والاله عمون

١١ واخيراً صفيحة متقنة الرسم تتبل ملكاً اشورياً ذا لحية طويلة مجمدة لابساً رداءً سابغ الذيل وعلى رأسه تاج ملوك اشور وفي يده اليمنى مقصرة يسندها الى صدره

(١) راجع دليل بيديكرا الطبعة الرابعة الالمانية (Baedeker, p. 331)

فاقدم هذه الكتابات هي الخطوط المصرية التي امر برقمها رعمسيس الثاني فرعون موسى المعروف عند اليونان بسيسوستريس وذلك في آخر القرن الرابع عشر قبل المسيح يصف فيها غاراته وفتوحاته العديدة (راجع المشرق ١: ٨٨٨ و ٨٨٩) .
 أما الكتابات والصور الاشورية فقد اختلف العلماء في تفسيرها قيل ان احداها تمثّل سنحاريب ملك بابل الذي ذكرت التوراة غزوته وسوء منقلبه نحو سنة ٧٠١ قبل المسيح . والمظنون ان بقية الصفائح تتضمن صور الملوك الاشوريين تغلات فلاسر الاول وسلمناصر الثاني واشور بنيبال . وفي كتاباتهم المكتشفة حديثاً في بابل قد بالغوا في وصف غزواتهم لاسيا فتوجههم للشام وقهرهم لسواحل فينيقية . فتكون اذاً هذه الصفائح دليلاً على مرورهم في هذا المضيق وتذكراً لغلباتهم .
 وبقي هذا المضيق في يد ممالك شتى كثيرة الى ان اجتازه انطيوخوس الكبير والجا جيوش البطالسة ان يفرّوا امامه هاربين . وفي تاريخ الصليبيين تكرّر ايضاً ذكر مضيق نهر الكلب ولم يكن للفرنج مناص من عبوره في سيرهم على ساحل البحر . ومما يُجَبّر ان بلدين الاول لما سار من انطاكية الى اورشليم ليخلف اخاه غدريد في الملك كاد يذوق في هذا الممر كأس المنيّة لولا حذقه وشجاعة فرسانه .
 وجاء في معجم البلدان لياقوت (٤: ١٧) انه كانت قلعة فوق رأس نهر الكلب (١) ولاغرو ان ملوك الشام حصّنوا هذا المركز المنيع لدفع هجمات المعتدين ومن غريب ما ذكره الجغرافي اسطرابون ان اهل ارواد كانوا يقطعون نهر الكلب بسفنهم فيصعدون الى داخل البلد . ولعلّه سببه الامر على اسطرابون لانّ هذا النهر كثير الضخور لا يجلو من العقبات سوى عند مصبه . وليت شعري ما الفائدة من الصعود في نهر قصير المسافة لا ترى على جانبيه ضيعة مأهولة (٢) . ومن المحتمل ان هذا النهر كان واسع الاطراف عند مصبه فكانت السفن ترسو عنده كما في ميناء

(١) ويقول ياقوت ايضاً ان هذا الحصن يبعد ستة اميال عن المرداسية على مسافة ثمانية اميال من بيروت . وكذا ورد في تزهة المشتاق للادريسي (ص ١٧ ed. Gildemeister)
 فيتضح من قولها ان المرداسية بين بيروت ونهر الكلب بيد اتنا نجهل موقع المرداسية هذه .
 ويروى : المرداسية



باطن مفارة جديتا وشبع نحر الكلب

فتصونها من الرياح الصخورُ المنتصبة في جهتها الجنوبية . ولا يبعد أيضاً القول ان سفن البحارة الاقدمين كانت تنقل من ثمَّ خشب الارز بعد قطعه في قسم الجبال ودفعه على وجه المياه الى هذا المكان (١)

ويعرف على نهر الكلب من جانبيه قرية بلونة ودير طاميش والظاهر ان في مركزيهما كان هيكل للاصنام فتكون بلونة تصحيف اسم الاله ابلون (Ἀπόλλων) وطاميش منقولة عن اسم الالهة ارطاميس (Ἄρτεμις) وهي المعروفة ايضاً باسم ديانة . وقد وُجدت ايضاً مدافن قديمة قريباً من عين طورة

٤ دير القلعة

ان آثار الاقدمين في مشارف لبنان ليست باقل شأنًا منها في سيف البحر فهياً بنا إليها القاري اللبيب قبل تقصي البحث عن عاديّات الساحل نرقي الاعالي لاستقراء بعض هذه المآثر

وليس في جوار بيروت من هذا القبيل مكان اخطر شأنًا واحسن مقاماً من الابنية المعروفة اليوم بدير القلعة . وهذه الرسوم القديمة موقعها بقرب قرية مشهورة اسمها بيت مري تعلو فوق سطح البحر نحو ٧٣٠ متراً في شرقي بيروت على مسافة ١٨ كيلومتراً منها واليهما يتقاطر اهل المدينة في وقت اشتداد القيظ عند الساحل

ولبيت مري اليوم طريق يوصلها ببيروت تجري عليه العربات غير أن من يركبها يكابد عناء عظيماً ويلتحف بثوب من الغبرة تثيرها قوائم الخيل ودواليب العربات . وما ذلك الا لقلّة الاعتناء بتوثير الطريق ورصّها بالحجارة . ففراراً من آفتها آثرنا مراراً الصعود الى بيت مري مشياً مع علمنا ان في المشي نفعاً للصحة ونزهةً للابصار فان العين تقرُّ هذه المناظر الجميلة والاذن ترتاح لصوح الطيور ويتنسم المنشق الرياح الطيبة في وسط غابات الصنوبر والشربين

وكان آخر مرة توقفتنا الجبل للبحث عن آثار دير القلعة في ٢٤ تشرين الاول سنة ١٨٩٩ صباح يوم هبّ نسيمه وصفا اديمه فما بلغ بنا المسير الى غايتنا حتى اخذنا نسرح الطرف في بقايا هذه العاديّات الخطيرة

والحق يُقال انَّ من يسير بين تلك الرسوم الدائرة والطلول الدارسة لا يلبث ان يدرك ما كانت عليه ابنيته القديمة من العظمة والبهاء قبل خرابها ولكن تُرى ماذا كانت هذه العمارة القديمة التي تُنْبئُ بها هذه الآثار الطامسة المبنية على مسافة كبيرة . ذلك سوَّال لا تُحيره كُتب القدماء وتآليفُ المحدثين وانما تَجِينا عليه الحجارة نفسها فانَّ لها لساناً ناطقاً فصيح المقال . وإن نطقها الآ بالكتابات العديدة التي خُضرت فيها . فاذا أعملنا فيها نظر الفكر وقابلنا بين الافادات المستخلصة من مضمونها وهندسة هذه الآثار القديمة ثمَّ عرضنا ذلك على ما نعرفه من تعبدات الفينيقيين فلا جرم اننا نحصل على معرفة اصل هذه الابنية وغايتها ومُجمل احوالها

ليس من اثر يفيدنا اسم دير القلعة القديم ولعلنا لا نتَّصل الى معرفته في المستقبل امَّا اسمه الحالي فقد اطلقتُ العرب على آثار أُخرى في انحاء سورية فأنهم يدعون بالقلعة كل بناء متسع الارعاء واثق الاركان محكم البنيان . وقد اخبرنا احد فضلاء الرهبان الذين يسكنون الدير المجاور لهذه الاخرية ان اسم هذا المقام «بيروت العتيقة» وجدهُ في صكِّ لمبيع ملكه كُتب في القرن الثامن عشر . فان ثبت على دير القلعة هذا الاسم صحَّ عن بيروت ما اخبره بطليموس الجغرافي عن جبيل اذ قال انه كان لها مقامٌ يُدعى «جبيل العتيقة» (Palæbyblos) وانَّ موقعه بعيدٌ عن الساحل (μεσόγειος) . وهذا قولٌ اوردها هنا على علَّاته ولا نجعل ان آراء العلماء متضاربة في تعيين مكان بيروت العتيقة بل في وجوده لكنَّ تقليد العامة ربَّما كان دليلاً يهتدي به العلماء لمعرفة الآثار القديمة

وعلى كل حال لا يسوغ ان ننسب هذه الابنية لعهد سبقَ زمن ظهور النصرانية فانَّ اقدم كتابة وُجدت في هذه الاخرية نشرها الرحالة ستارين (١) ذُكر فيها الملك «اغريقيا» ترتقي الى نحو القرن الاول بعد المسيح وقد وقفتنا الله الى اكتشاف كتابة نُقشت في حجارة هذه المباني ورد فيها اسم القيصر ادریان في بدء القرن الثاني للمسيح . وليس مرادنا بذلك ان هذا المقام

كان قبل ذلك خالياً من الآثار . كلاً . فاننا على يقين ان الفينيقيين شيّدوا فوق هذه المشارف معبداً كانوا يحجّون إليه او على الاقلّ مندجاً او نصباً في غابة كانوا يقضرون عنده مناسكهم على مثال المشارف والانصاب التي ذكرها الكتاب الكريم (١) فنّمّ نظنّ ان دير القلعة كان يقوم لبيروت مقام هيكل افقا لجليل ومقام هيكل بيتوكيكي (٢) (Bætocece) (حصن سليمان) لجزيرة ارواد . وكما ان هذين المعبدين سبقا النصرانية فكذلك تقدّمها معبد دير القلعة . وما يؤيد رأينا اسم الاله الذي عبده الرومان في هذا الهيكل فكانوا يدعونهُ بعل مرقد (Baal) (Marcod) وهو بلا شك اسمٌ فينيقيٌّ

اما بقايا الهيكل الماثلة الى يومنا هذا فليس فيها ما يدلّ على مثل هذا القدم كما ان الكتابات لا تنبئ بذلك . واذا قابلنا هيئة هذه البنايات والمواد المتخذة لها وطريقة بنائها وجدنا انها تدخل في حيز الابنية المعروفة بالجبارية (cyclopéens) لضخمتها وكبرها . ولا يخلو هذا الهيكل من آثار عجيبة كاعمدة وحجارة عظيمة تضاهي بعض حجارة بعلبك وسوريتها . لكن اصحاب العاديّات يتفقون اليوم على أنّ قدم الابنية لا يناسب دائماً عظمتها وكبرها بل ربّ بناء قديم صبر على ممرّ الزمان بخلاف عمارة اخرى احدث منها ضخمة الحجارة اخنى عليها الدهر فطمس محاسنها

واذا اعتبرت هندسة ابنية دير القلعة لا ترى فيها شيئاً اختصّ به الفينيقيون دون غيرهم . والاخرى نسبتها الى الرومان لان منها تلوّح طريقتهم في البناء ويمكن تمدادها بين الآثار الجليلية التي خلّفوها لنا في القرن الثاني والثالث للمسيح ونزّج كونها سبقت عهد هيكل بعلبك الكبير

واذا تفقّدنا المباني المشيّدّة في قمتة هذه الربوة وقفنا على غايتها الدينية فانّ

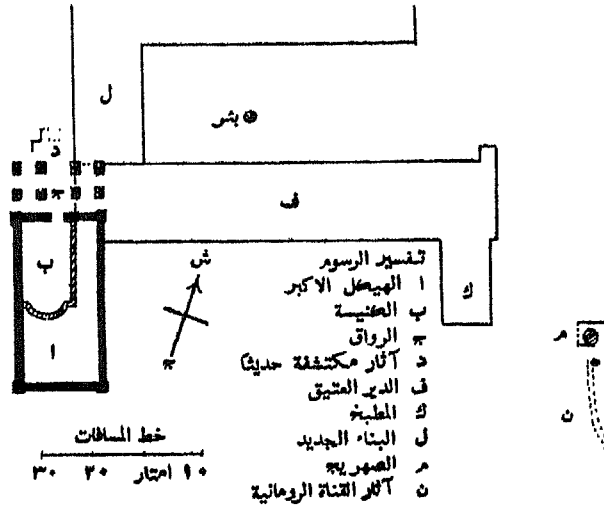
(١) راجع مثلاً سفر الملوك الرابع (١٧ : ١٠) حيث ورد عن بني اسرائيل قوله : « واقاموا لهم انصاباً وغازيات على كل اكمة عالية ونحت كل شجرة خضراء »
(٢) قد تفقّدنا آثار هذا الهيكل الذي وصفه العلامتان راي ودوسو :

Rey : *Archives des Miss. scient.* III, 336 ; Dussaud : *Voyage en Syrie*, p. 15,
Extrait de la Revue Arch. 1897.

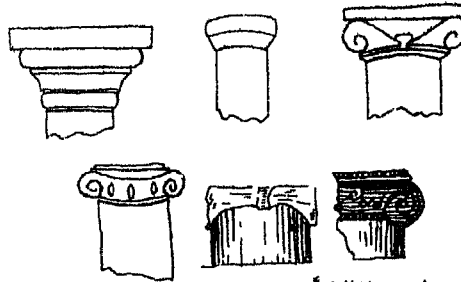
هناك خطوطاً صريحة في هذا المعنى يُستفاد منها انه بُني ثَمَّت هيكل على اسم بعل مرقد (١) اله تلك الناحية . وربما دُعي هذا الاله باسم يوناني (Μηγρον) لم يستدل احد بعد الى معناه . والعلامة الخطير كرمون غانويظن ان هذه الكلمة تدل على اسم الاله الشخصي وان « بعل مرقد » لقبٌ عُرف به في هذا المكان . وألقابه كلها تنبئُ بعظم شأنه عند الفينيقيين وسموه بين مصاف الالهة الفينيقيّة . ويؤخذ من احدي الكتابات المكتشفة هناك ان المأ مجهولاً يدعى أرمثينوس (Αρέμθινος) يحث المتعبدين له أن ينصبوا المذابح لبعل مرقد

ومعنى اسم هذا الاله وسبب تسميته بمرقد يُستخلص من اصل اسمه باللغة العبرانية وهي فرع من الفينيقيّة فان « مرقد » مصدر يشتق من فعل 737 اي رقص وعليه يكون بعل مرقد اله الرقص والبسط . ولا يبعد ان هذا الاله هو نفس اله الرقص المعروف عند المصريين باسم « بيس » (Bès) وان المصريين اتخذوه من الفينيقيين . ومن القابه التي دُعي بها في الكتابات انه ملك المآدب والولائم (٢) (Κοίρανε Κώμαων) ولعل هذا الوصف دليل على ان قدماء الفينيقيين كانوا يجتمعون بقرب هذا الهيكل للقصف وتوفير اسباب الهناء كما يصنع اليوم في تلك النواحي بعض اصحاب الملاهي يحذون بذلك دون ان يشعروا حذو اجدادهم بيناً في ما سبق ان الاله المعبود في دير القلعة كان اسمه بعل مرقد . فلما استولى الرومان على الشام أدرجوا هذا الاله الفينيقي في مصف الهتهم بل اعتبروه كأنه هو معبودهم الكبير « المشتري » لا يفرقه عنه الأسمه فشيّدوا له ذلك الهيكل العظيم الذي حجّه السوريون والرومان معاً . والكتابات اللاتينيّة التي فيها ذكر « المشتري بعل مرقد » كثيرة . وكان اهل بيروت المدعوّة في ذلك العصر

(١) والكتابات منها يونانيّة على صورة تقدمه (Κυρίω γενναίω Βαλμαρκώδι) او (Θεῷ Βαλμαρκώδι) ومنها لاتينيّة يُدعى فيها هذا الاله « المشتري بعل مرقد » (Jovi) او باختصار (J(ovi) O(ptimo) M(aximo) Balmarcodi) . راجع : C. I. L., 155 و Waddington : *Inscrip. gr. et lat. de la Syrie*, nos 1856-1857 وكتاب كرمون غانوي في العاديّات الشرقيّة الجزء الاول ص ٩٥ (٢) راجع Waddington, n° 1855

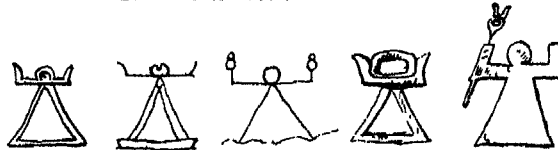
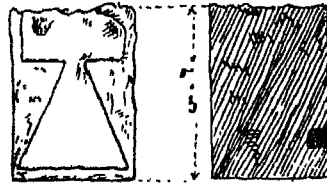


رسم هيكل البعل في دير القلعة



راجع مجلة الماديات سنة ١٨٤٦ (ص ٦٢١ و ٦٢٣)

بقايا اعمدة دير القلعة واشكالها المختلفة



صور المخروطات رمز عشتاروت

« المستعمرة يوليا اوغستا السعيدة » يقيمون فيه انصباً للملك رومية من جملة ذلك نصب للقيصر ادريانس استخرج محطماً من تحت الردم سنة ١٨٩٧ اسعدنا الحظ على قراءة مضمونها كما يأتي (١) :

[Imp.] CAESARI DIVI	[اللابراطور] القيصر الالهي
[Tr]AIANI PARTHICI FIL(io)	وابن [طر] ايانس القرطبي الالهي
DIVI NERV(æ nepoti)	وحفيد نرقا الالهي
TRAIANO HADRIANO AV(gusto)	لطر ايانس ادريانس اوغستس
PONTIFI(ci) MAX(imo) TRIB(unitia)	الحبر الاعظم بسلطة ممثلي الشعب
POT(estate) COS III P(atri) P(atriæ)	قنصل للمرة الثالثة اب الوطن
COL(onia) IVL(ia)AVG(usta) FEL(ix)	المستعمرة يوليا اوغستا السعيدة
B(erytus)	بيروت

ولمّا عدنا الى بيروت فرحين لاكتشافنا هذا وجدنا في مجموع كتابات وادنيغتون (عدد ١٨٤١) في جملة آثار بيروت كتابة تشبه كتابتنا المذكورة كل الشبه كأنها هي الآ في تشمة الالفاظ المقتصرة . فاخذنا من ذلك العجب كيف اتصل وادنيغتون وبعده دوناتي واوربي الى هذه الكتابة مع انها حديثة الاكتشاف كما قلنا . ولعل اهل بيروت رسموا منها نسختين في وقت واحد

وكانت المرتبة الاولى في هيكل دير القلعة بعد المشتري بعل مرقد للالهة « جونون الملكة » (٢) وكانت تعد زوجة للاله وشريكته في جلال عزته . ونزج كون جونون هذه هي الالهة السامية بعلة عشوتوت وحدها الرومان بالهتهم جونون . وكان عبدتها يأتون هيكل دير القلعة ليستشفوا بجابتها ويستقنوا كهنتها كما يستدل على ذلك من بعض الكتابات التي نشرها كلرمون غانو (في كتابه العاديآت الشرقية

(١) وقد وضمتنا بين مكّفين ما يقتضى زيادته

(٢) هذه ترجمة اللفظة اللاتينية (regina) ويوز ترجمتها بالجملة وقد ورد ذكر هذه الالهة في اسفار الانبياء باسم « ملكة السماء » (اربعاء ١٨:٢ الخ) . وكان للرومان في جبل ترييوس هيكل باسم هذه « إلهة السماء العذراء » شاعت عبادتها بعد حرب رومية مع قرطجينة وكان اهل قرطجينة يمتبرونها كإلهتهم العظمى . والرومان جعلوا مشتروت هذه وجونون إلهة واحدة فبدوا الاولى بصورة الثانية (راجع مجلة Acad. des Inscript., Comptes - rendus, 1898, p. 475)

ص ١٠٧). وفي دير القلعة كتابات عديدة لاتينية تتضمّن تقادم ونذوراً من قَبَل
الاهلين لهذه الألهة . من ذلك ثلاث كتابات نقشها جندي روماني يُدعى « غايوس
يوليوس مكسيموس » نشر منها العلامة كلرمون غانو اثنتين (ص ١٠٧ و ١١٠)
ووجدنا الثالثة في جنيئة المرحوم النفس نقاش في بيت مري . وهي مكتوبة على
حجر كُسرت قطعتين فجواها : « انّ الجندي المذكور يُبرز نذره للالهة جونون
بطيب قلب »

ومن عادة القدماء انهم كانوا يكرمون في الهيكل الواحد عدّة آلهة . مثال
ذلك انّ دير القلعة كان إلهها وسيدها الاعظم (١ بعل مرقد ثمّ الإلهة جونون كما
مر . وترى معها ذكر آلهة آخرين ومما وجدنا في جنيئة المرحوم النفس نقاش قطعتين
من كتابة طبع كلرمون غانو قسمها الاخير (٢) اما القسم الاول فاستخرج حديثاً
من الاطلال لم يُنشر بعد بالطبع وهذه الكتابة عبارة عن مقدمة قدّمها شخص
يدعى مرقس سنتيس للسثري اله بعلبك (I. O. M. Heliopolitanus)

ومما نحبّ إلقاء النظر اليه ان اخرية دير القلعة كثيرة الكتابات اللاتينية .
وهي كما لا يخفى على من له ادنى إلمام بالعنائق نادرة جداً في ما سواها من الامكنة
الشامية . والسبب لذلك على ما نظن ان من استعمر بيروت من الجنود الرومانيين
(وكان منهم في بيروت فنتان الحامسة والثامنة) اتخذوا هذا المكان كصيف
يقضون فيه فصل القيظ كالمثريين من اهل زماننا فتركوا ثمّت آثاراً جمّة نبيّ
بسكتاهم وتعبدهم لبعل مرقد . ولو حاولنا سرد هذه الاثار لطالت بنا المقالة
طولاً مفراطاً واكثرها عبارة عن أعلام ليس في ذكرها كبير امر قرائنا . وترى بين
هذه الاسماء أعلام قوم من اهل الحرف والصناعات فضلاً عن الجند ولا يتخلو منها
اسماء بعض الاشراف من اعيان الرومان في ذلك العصر

وغاية ما يمكننا قوله انه كان في جوار هيكل البعل عدّة منازل لسدنة هذا المبد
وكهنته ثمّ للجنود الرومان واهل الثروة ولبعض العمّة . ولا نرانا نتجاوز الحقيقة لو

(١) ونظن ان اسم القرية اشتقّ من عبادة هذا الاله فدُعيت لذلك « بيت مري » من

السر يانية حَمه هُنمًا اي بيت السيد (البعل)

(٢) في كتاب عاديّاته (الشرقية السابق ذكره

قلنا انه كان حول دير القلعة قرية . يستبدل على ذلك بوجود معاصر قديمة ونواويس ضخمة منحوتة في الصخر . وكل ذلك يشهد بان الناس جعلوا سكناهم في تلك الهضاب . امأ بيت مري فلم نسمع ان احدًا وجد فيها شيئاً من الآثار القديمة مع ان البناء فيها متواصل والحفر في الارض كثير

فمأ تقدم يسوغ لنا ان نستعيد بالفكر ونحبي بنظر الفهم حالة دير القلعة في القرن الثاني والثالث للمسيح فنقول ان تلك الرُّبى كانت تكال هأمها غابات وارفقة الظل وكانت على منعطف ذلك الجبل اشجار باسقة الاغصان تحجب اشعة الشمس المتقدة وترطب بفيئها ذلك المقام النَّزه وكان الصنوبر يغلب عليها وقد بقي منه بعض البقايا

وكان لا بد لهذه الغابات مياه غزيرة تروي تربتها وتُسمي جذورها كما ان المياه كانت ضرورية لخدمة الهيكل واهل القرية وللمئين من الحجَّاج والزوار ولغسل الذبائح . فسداً لهذه الحاجة الماسة استجلب القدماء المياه من العيون المجاورة لاسيا من عين عرعر وراء بعبدات وكانوا اصطنعوا لذلك قناة محكمة لا تزال بقاياها ظاهرة الى يومنا هذا . وكان في ساحة الهيكل احواض واسعة تجري فيها المياه وتفور الفوارات على هيثات بديعة تروق النظر . ويشهد على ذلك كتابة يونانية ورد فيها وصف انبوب قدم للهيكل مُصطنع في جزيرة رودس ليُجعل فوارة للماء (١)

ففي وسط هذه البقعة الجميلة المنظر كان هيكلان عظيمان احدهما للبعل والآخر ليونون او عشتروت . وكان للاول رواق رحب الفناء يسنده ثمانية اعمدة ضخمة من الرخام البلدي (٢) وكان يُصعد الى هذا الرواق بدرج يوازيه حسناً وسعة كما اعتاد ذلك الرومان في ابنتهم . امأ هيكل يونون فقد عبثت به يد الحدثنان

(١) راجع مجلّة العاديات سنة ١٨٤٦ ص ٨٠ . وكان اهل رودس يرسلون الى بيروت طرفاً من صناعتهم لتباع فيها (راجع Comptes - rendus de l'Acad. Inscript, 1898, 522)
(٢) وقد زعم رينان (Mission de Phénicie, p. 353) ان هذا الرخام هو الرخام المصري المحسَّب والصواب ما قلنا . وللمسيو رينان في وصف دير القلعة اغلاط شقي لا يسمنا تفنيدها

حتى يصعب على علماء العاديات بيان رسمه وصورته بل وموقعه أيضاً
 وكان هيكل البعل في داخله مزيناً بتمثال الإله نُصب في كوةٍ على جانبيها
 العمد من الرُخام تشبه المظلة . وقد ورد في كتابات دير القلعة ذكر تماثيل أُخرودمي
 لا نعلم أكانت في داخل البناء او في الرواق (١)

أمّا طريقة هندسة الهيكل فان بيان صورتها ليس بسهل فانك ترى بين البقايا
 والاخرية ما يُشعر بالهندسة الكورنثية والايونية معاً كما ترى في الاشكال
 المختلفة المثلة لبعض أعمدة قد رسم نقوش اكلتها حضرة الاب رزقال وكان
 رافقي في هذه الرحلة ودقق البحث عن آثار دير القلعة الا انه بقي مرتاباً في
 بيان صورة هندام الهيكل القديم . ولنا قدرٌ بعد فحص الاخرية الباقية الى يومنا
 هذا ان علو البناء كان يبلغ ٢٥ متراً . وذلك بلا مرأ دليل على عظم هذا المعبد
 وجليل قدره

وكانت الاشجار تمس بافنانها حول هذه البنائات بينما كانت الوف من الطيور
 تصدح فوق رؤوسها وتغرّد طريةً ومن جملتها الحمام البيض رمز الإلهة عشتاروت
 كانت تحلق في الهواء ثم تحطّ في اوكلها ساجعةً . وفي وسط الاشجار كانت
 تماثيل عديدة منتصبةً على ذلك مرتفعةً وهي تتّيل اصناماً وأبطالاً وبينها مذابح
 للضحايا والمحرقات ثم اهرام صغار ومنها حجارة مخروطة الشكل يعلوها شبه رأس
 ويتصل بها شبه ذراعين قد اختلف العلماء في شرح معناها

والمرجح أنّها صورة « تانيت » معبودة اهل قرطجّة وهي عشتروت نفسها
 وقد يراد بها صورة بعل حثون او اله الشمس وكلّها من آلهة القرطجنيين . وقد
 بقي من هذه المخروطات آثار في دير القلعة الى يومنا هذا والواحد منها منصوب
 امام كنيسة مار ساسين بين دير القلعة وبيت مري والذي صورناه على وجهيه في
 اعلى الشكل السابق

تلك كانت هيئة هذا المقام الخطير في القرن الثاني والثالث بعد المسيح فاذا
 زدت على ذلك حركة الزوّار المتقاطرين الى هذه المعابد ترى ما كان لدير القلعة من

الخطارة وعظم الشأن

ولا بدّ لنا قبل الحتام ان نذكر شيئاً عن المدافن التي كانت بقرب دير النلعة لما وُجد هناك من القبور العديدة ففي شرقيّ الدير الحالي على بعد ٥٠٠ متر منه ترى خمسة نواويس غليظة العمل واذا التحدت قليلاً وجدت عشرين نواوساً بقي منها اغطيتهما على شكل جَمَاون فوقه قواعد تُدعى (acrotères) . واذا نزلت الى الجهة الجنوبية بميلٍ الى الشرق بلغت الى مغارة يدعوها الفلاحون « مغارة الحبس » وهو غور طبيعيّ في الصخر عند حضيضه ليس بمُنسَع إلا انه كافٍ لمدفن ثمانية اشخاص

امّا العبادة الجارية في هذا الهيكل فلانعلم من امرها شيئاً ولا نخالها كانت تختلف عن عبادة الفينيقيين المكروهة يغلب عليها الخلاعة والدعارة . وليس بمستبعد أنه قدّمت هناك الضحايا البشرية من الاطفال للبعل كما جرى ذلك في غيره من المعابد الشرقية وشهدت عن صحته التواريخ الراهنة . ولعلّ هذه العوائد المنبئة بسوء دين اهل ذلك العصر هي التي حملت مآلوك الروم المنتصرين على هدم هذا الهيكل كما فعل قسطنطين بهيكل أفقة لما تقرّر عن كهنته الوثنيين من الاعمال الفاحشة فلم يجد سيلاً الى قطع دابر هذه المنكرات إلا بهدم المعبد المذكور

٥ آثار الرومانيين في لبنان

اثنى صاحب سفر المكابيين الأوّل (٨: ١-١٦) الثناء الحسن على الرومانيين واعمالهم فقال فيهم : « انهم ذوو اقتدار عظيم ويُعزّون كلّ من ضوى اليهم وكلّ من جاءهم آثروهُ بمودّتهم ولهم شوكةٌ شديدة . . . وكلّ من سمع باسمهم خافهم . . . ومع ذلك كلّهم لم يلبس احدٌ منهم التاج ولا تودّي الارجوان مباحاةً به . . . وهم يفوضون سلطانهم وسياسة ارضهم بجملتها كل سنة الى رجل واحد وجميعهم يطيعونه وليس فيهم حسد ولا منافسة »

لعمرى انّ هذا مديحٌ نعمًا فاه به الله على لسان الكتّاب الشريف وصدق في وصف أمة تنطق آثارها الباقية الى يومنا عن جاهها وعاوكتها . ولم يُجرم لبنان من شواهد عزّ الرومان وشوكتهم . ولو لم يُخلفوا لنا سوى آثار دير القلعة

الذي مرَّ وصفه في الفصل السابق لكفني به شاهداً على صدق مقالنا اذ بيّنا انه معبد رومانيّ شيّدته مستعمرة بيروت الرومانية . بيد ان للرومان مآثر جمّة في جميع انحاء لبنان غير هذا المعبد فرأينا في ذكرها افادةً للجّمهور ليطلّعوا على اعمال هذا الشعب الذي اضحى اسمه مرادفاً للفخر والعظمة

ولا بدّ هنا من مقدّمة موجزة يقف بها القارئ على احوال سورّية في وقت تغلب الرومان عليها في سنة ٦٥ قبل المسيح . لما قُتل انطيوخوس الثاني عشر ملك سورّية (سنة ٨٥ ق م) صارت البلاد في حالٍ من الضعف اطمع فيها دغران ملك الارمن فرحف اليها بجياله ورجله واستولى عليها غنيمةً باردة لم يقوَ احد على ان يتنشلها من محالبه . فبقيت تحت حوزته الى ان دارت عليه الدوائر في سنة ٦٩ لما غلبه القائد الروماني لوكاوس في واقعة دغرانوكرت . فانتهاز انطيوخوس الثالث عشر هذه الفرصة لينتوي على عرش آبائه الا ان ملكه لم يدُم سوى اربع سنوات . وكانت سورّية في تلك الاثناء قد تضععت قواها وتقهقرت امورها وانتقض جباؤها . وكان يُحدق بها شعوب قاموا لها بالرصاد يتطالون اليها طامعين في ملكها . تحدها جنوباً مملكة اليهود من بني حششاي وهم لا يزالون في قلق متداوم . وكان النبطيون يملكون على حدودها الشرقية ويمكثون على دمشق وضواحيها وعلى جبل الشيخ . اما قبائل البادية فكانت على ثغورها جماء تراحمها وتشنّ عليها الغارات . واما صار الامر الى دغران صرف همته الى عقد العهد مع زعماء هذه القبائل فجعلهم كرواد تجارته مع البلاد المتاخمة واشتهر من جملة هؤلاء سراة القبائل شيخان ملك احدهما على حمص اسمه سميغرام او سميبيكرامس (١) . اما الثاني فيُدعى عزيزاً وكانت دولته على بادية شمالي سورّية

ومن الدول العربية التي اشتهرت في ذلك الوقت دولة الايتوريين ملكت على لبنان وعلى ساحل فينيقية . وكان هذا الشعب محكّكاً في آداب الحرب يُحسن الرمي بالنبال . وكان اصله من الجبال الصخرية التي موقعا في شرقي دمشق المعروفة اليوم بجبل حوران او جبل الدروز واللجأ . فلم يزل امره يعلو ويقوى حتى تعدى

حدود وطنه فاستولى على جبل الشيخ وبقاع الغرير ف ضرب ثمت خيامه واقام له دولة صغرى جعل عين جرّ (Chalcis) كعاصمتها . وما عثم ان تسور قم لبنان وحصنها بالقلع ثم هبط الى سواحل الشام فاتخذ له دولة ايتورية ثانية اضحت طرابلس مركزها . وكان هولاء الغزاة يهبطون كسيل جفاف من مشارف لبنان فيغزون وينهبون دون ان يقوم في وجههم حاجز . واكثر من كانوا يأذونهم بكر و هم اهل جبيل وبيروت فلا يقوون على الذود عن حمى ديارهم ومزروعاتهم وسفنهم . ولا غرو ان الاسماء العربية المحضة الواردة في كتابات يونانية وُجدت في نواحي جبيل وبترون ترتقي الى عهد دولة الايتوريين هولاء (١)

فتلك كانت حالة سورية لما ارسل بيبس قواده ليحتلها وما لبث ان سار اليها هو بنفسه سنة ٦٤ فنظمها في سلك املاك الدولة الرومانية وجعلها اقليماً قائماً بذاته . ثم قلّم اظفار الفتن وفتح معاقل العصاة ورد قبائل البادية الى مساكنها الاولى واعاد السلم والنظام الى مجاريهما . ولما سعى اليه اهل طرابلس متظلمين من ملكهم الايتوري ديونيس امر به فقتل بعد ان تثبت ظلمه ثم واصل بيبس سيره في سواحل سورية ظافراً وتوغّل لبنان واخذ عنوة قلعة جيجرتا (Γίγάρτα) الا تي ذكرها فأخرها كما انه هدم قلعة وجه الحجر (θεουπερὸσωπον) وقوّض ابنية بترون لخلول اصحاب الجبايات في ضواحيها . ولما قدم جبيل مثل ملكها كينيراس كما فعل بصاحب طرابلس ونفس كربة اهلهما وجعل مدينتهم مستقلة تحت حمى الرومان

ثم تخوف بيبس وشك الشتاء فيتم سهل البقاع ورياض دمشق ليحلّ جنده في بساطها الرائعة لينالوا هناك نصيباً من الراحة بعد الاتعاب التي تجشموها . فقطع جبل لبنان (٢) وافتتح في طريقه قلعتي برومة (Borroma) وسنان (Sinnan) الوارد ذكرهما . فما دخلت السنة ٦٣ ق . م حتى اتم الرومان فتح البلاد السورية واستقر لهم الامر في انحاء لبنان

(١) راجع Mission de Phénicie, 199, 200

(٢) لعلّ بيبس تسلق بينوده لبنان من جهة جبيل ماراً بالاقورة فاليسونة

الى بعلبك

ومن شروط المعاهدة التي عقدها الرومانيون مع اهل الشام ان يَازم سكان البلاد شرائعهم وسنتهم ويجروا على نظامهم القديم ولا يُغصّبون في لسانهم ودينهم وعاداتهم . اما المدن الساحليّة فجعل الرومان امرها سُورى يدبر شؤونها نُجبةً من اشراف البلد وابطلوا بذلك ما كان ملوكها من السلطنة المطلقة . ثم ضربوا الجزية على الاهلين يؤديها لهم الذكور منذ سنتهم الرابعة عشرة والاناث منذ الثانية عشرة الى السنة ٦٥ من عمرهم جميعاً (١) وفرضوا عليهم خراجاً جوه من الاملاك يبلغ في المئة واحداً . ورسموا ايضاً ضرائب ومكوساً على الواردات والصادرات من السلع الا ان هذه الرسوم مع ثقلها كانت اخف على عاتق السوريين من المغارم والسُخر التي حملهم اياها ملوكهم سابقاً وكانوا يتقاضونها دون نظام معلوم وفي اي آن شاؤوا

فما مرّ على سوريّة الزمن اليسير حتى التأم صدعها وانجبر كسرهما وانتظم شمل السكّن فرتعوا في مجبوحة الأمن . وكان الرومان قد احيوا معالم العدل واماتوا سنن الجور يأخذون للضعيف من المقتدر وينشطون الجميع على الاعمال الشريفة والمشروعات المفيدة التي تعود عليهم بالمنافع العظيمة لاسيما التجارة والبحارة والصنائع والفنون

اماً لبنان فأصاب من هذه الاصلاحات نصيبه الحسن . وكان هذا الجيل الشهير لمّا فتحه الرومان قليل السكّان فزاد اهله بعد مدة وخصبت تربته (٢) وعاش اللبثانيون في الرغد والهناء في حرمة رومة يشكرون لسياسة ولائهم وينعمون في ظلهم الوارف وهم مع ذلك يجرون على سُنتهم ويتصرفون في تدبير امورهم كيف شاؤوا

ومن ذاك الحين اخذت العوائد الرومانية تتغلّب على البلاد الشامية وانتشرت اللغة اليونانية في المراكز الكبرى حتى نسي كثير من اللغة الفينيقية واللغة الآرامية لاسيما بين الاشراف واصحاب الثروة . اما اللغة اللاتينية فبقيت محصورة في الدوائر

(١) راجع Ulpiani Digesta, Lib. I, leg. 2, n. 3

(٢) وكذلك جرى في حوران . راجع المجلة الفلسطينية 21, XXI, ZDPV

الحكيميّة لم يشع منها بين الجمهور غير مفردات تتعلّق بالموزونات والمقاييس والنقود والادارات السياسية وامور الحرب كهذه : البريد والسجل والرطل والدينار والاقويّة والبرج والاطربون والبوق والقومس والفسطاط والشُرطي وما شاكلها . ولعلّ كثيراً منها وصل الى العرب مجتازاً على ألسنة المتكلمين باليونانية . وفي بعضها مسحة من اللغة الآرامية (١) . وممّا بلغنا من آثار اللغة اللاتينية كتابات قلائد سُطرت على بعض القبور بيدان المستعمرات الرومانيّة في سورّيّة داومت على التكلّم باللاتينية ومن جملتها مستعمرة بيروت . امّا العامّة فلم يزلوا محافظين على لغتهم الفينيقية او السريانيّة يؤخذ ذلك من الاسماء الآرامية الواردة في الكتابات القديمة

ولما كانت السنة ٤٧ ق م قدم الشام يوليوس قيصر فنزل في ساحل عكّة مع جنوده ثمّ سار الى فينيقية ولبنان فتقاطر اليه الشعب واستقبله استقبالا شائفاً عمل في قلبه وحمله على افاضة نعمه على الاهلين فحَفّف من عبّ الضرائب ومنح المدن التي طاف فيها مواهب وأطافاً عديدة وألّف القلوب النافرة واعطى مدينة بترون الاستقلال

وسار نسيبهُ وخلفهُ اوغسطس قيصر على منهاجه واختصّ لبنان بنعم سابغة ووهب جُجبل أفضل الأعمية . فقام اهل بترون وجبيل بمفروض الشكر لولي نعمتهما وأرخوا نقودهما بتاريخ اكسيوم (٢) ذكرًا الانتصار اوغسطس على خصمه انطونيوس (٣١ ق م)

ومن اجل آثار الرومانيين في فينيقية اتخذهم بيروت كمستعمرة رومانية . فلما كانت السنة ١٦ ق م قدم الشام اغريبا صهر اوغسطس قيصر وهو مقلّد بالسلطان

(١) راجع ما قلنا عن اصل هذه الالفاظ في كتابنا الفروق . اطلب ايضاً المقالة التي حرّرها في المشرق (١ : ٤٤٠ - ٤٤٨) . ونزيد هنا عن اصل كلمة « الشُرطي » اننا وجدناها في كتابة يونانية مكتوبة بصورة (Χώρη) منقولة اليها من اللاتينية (cohors) . وهي قريبة من لفظة « الشُرطي »

(٢) ورد هذا التاريخ في كتابة جُجبلية تُعرف بكتابة البلاط (Mission de Phénicie, 224) . وقد وجد الدكتور جول روفيه نقوداً أخرى تثبت هذا الامر لجبل والبترون ممّا

المطابق على كل أنحاء سورّية . فكان أوّل ما صرف إليه نظره ان يقيم مستعمرة يُجِلُّ فيها الجنود المتقاعدين مَنّ امتازوا في خدمة الوطن . فلم يجد موقعاً اصلح شأنًا والنسب مقاماً من بيروت فجعلها سكنى لثنتين (١) من الجند وهما الخامسة والثامنة المعروفتين بالفئة المقدونية والفئة الاوغسطية . وكانت كتاتهما أبلت بلاء حسناً في واقعة أكسيوم فأثابها القيصر باقطاعها مدينة بيروت

ولعلّ الكتابة التي وجدها سيتزين (راجع ص ١٤) بين اطلال دير القلعة والوارد فيها اسم اغريبا تُشير الى هذا القائد منشيّ مستعمرة بيروت . ويُحتمل ايضاً نسبتها الى الملك هيرودس اغريبا الاول الذي زين بيروت بعد ذلك بحدّة بالابنية الفاخرة فتكون هذه الكتابة اثرًا يشهد لاهل المدينة بمعرفة الجميل والشكر

وما لا يُخْتَف في صحّته ان صهر اوغسطس اعاد لبيروت زهاءها القديم بعد ان عبثت بها ايدي الزمان واخرها الطاغية تريفون . فاوزع الى جنده بان يشيدوا فيها المباني الحسنة ويوقروا فيها اسباب الهناء . فباشروا بذلك في السنة ١٥ ق م وواصلوا شغلهم بهمة ألقها الرومانيون في كل اعمالهم . وما عثمت بيروت ان صارت مركزاً خطيراً لادارة شؤون رومة في البحر المتوسط الذي كان غلب عليه سابقاً النفوذ اليوناني واصبحت مرقباً يرصدون منه كل من يعادي فتوحاتهم الجديدة فيقطعون للحال دابر اصحاب الفتن (٢)

وكان الفضل في رفع قدر بيروت لاغريبا المذكور ولعلّه هو الذي تولى بنفسه هذا العمل الاثير وانجزه بوقت قريب (٣) ودُعيت بيروت منذ ذلك الوقت « المستعمرة يوليا اوغسطا السعيدة » خصّها الملك اوغسطس بهذه الاسماء المشعرة باسم يوليوس قيصر وابنته يوليه واسمه الشخصي واطاف الى ذلك لقب « السعيدة » مؤذناً بحسن موقع بيروت وصفاء جوّها وكثرة خيراتها . وُضربت في بيروت نقود المستعمرات تمثّل جندياً يفلح الارض

(١) وأرسلت فرقة منها الى بعلبك لتستعمرها فاحتلت هذه المدينة الشهيرة

(٢) راجع تاريخ الرومانيين للعلامة مُسين Mommsen : *Röm. Geschichte*, V, 459

(٣) راجع ما كتبه في ولاية اغريبا في الشام المؤرخ جراح H. Gerlach : *Die röm. Statthalter in Syrien u. Judaea* p. 16

فلم يرضَ على بيروت إلا زمن قليل حتى امتزج سكَّانها الاقدمون بالمستعمرين الرومان امتزاج الماء بالراح فكان من يمتلّ البلدة يحسبها مدينةً رومانيةً لتغلب عوائد الرومان ولسانهم واسماؤهم عليها . والشاهد على ذلك الكتابات اللاتينية العديدة المكتشفة في بيروت . ولا ترى من المخطوطات اليونانية إلا اليسير وهي احدث عهداً من الكتابات اللاتينية (١) . بل ظهر ايضاً في بيروت نفوذ آلهة رومة فاخذ الفينيقيون شيئاً من شعائرهم الدينية كما اثبتنا ذلك في اثناء كلامنا عن دير القلعة

ولم تكن الاقطاعات الموقوفة على المستعمرة البيروتية منحصرة في ضواحي البلدة والبسائط المجاورة بل كانت تشمل الجبال المشرفة على المدينة وتمتد من ثم الى ان تبلغ قسماً من البقاع الى جهات منبع نهر العاصي ونالت بيروت بارتقائها الى رتبة مستعمرة رومانية امتيازات عديدة منها ان اهله لم يدفعوا الجزية ومنها استقلالها عن حكم والي الولاية . فاضحت كأنها دولة صغيرة في ضمن الاملاك الرومانية في الشرق تنصرف باحكامها كالعاصمة نفسها . وكان لها على مثال رومة حاكمان (duumviri) يرجع اليهما في التدبير يجلان ويعقدان ويأمران وينهيان كقنصلية رومية السنويين ولها دار ندوة يجلس فيه للبحث عن صوالح المدينة مئة من رؤساء الاعشار (decurions) . ومما ازدانت به المدينة من البناءات على شبه رومية ساحة كبرى (forum) يجتمع فيها الجمهور وملعب للملاهي العمومية ولعلها ايضاً نُصِّت بهيكل كهيكل المشتري في رومة (Capitoile) . وكان الاهاون يجتارون بنفسهم ولاتهم وحكامهم دون ان تتداخل العاصمة في شئونهم ما لم يضطرها الى ذلك الشعب واقتراق الكلمة بين السكَّان

فكل هذه الامتيازات التي ظفرت بها بيروت اثارت في اهل المدن المجاورة لها الرغبة في نوال رتبة الاستعمار

(١) وقد عثرنا بعد ذلك على كتابتين جديدتين على مقربة من البلد نشرناهما بالطبع

وقد زعم بعض الكتبة ان مدرسة الفقه الروماني التي اشتهرت بها بيروت بعدئذٍ (١) كان انشاؤها في هذا الزمان . الا أننا نرجح قول الذين ذهبوا الى ان هذه المدرسة اقرب عهداً فأُنشئت في اواسط القرن الثالث للمسيح . وانما كانت بيروت منذ حلول المستعمرين فيها محطاً للطلبة الدارسين وصار منذ ذلك الحين لمدارسها شهرة عظيمة . ومن جملة الفنون التي كان يعكف الاحداث على اتقانها العلوم الادبية بفروعها . وقد اصاب احد اساتذة بيروت اسمه مرقس قاليريوس يرويس قصة السبق بين علماء زمانه في المعارف وفنون الادب (٢) حتى ان بيروت عدت بسببه كحاضرة العلوم في المشرق (٣)

وكان الرومان يتقاطرون الى بيروت لترويج النفس يورثونها على ما سواها من المدن الساحلية . وفيها كان ولاية الشام يقيمون الحفلات والمحاكم القضائية كما فعلوا في قضية سيلاي (Scillai) وهيروودس الكبير فقتلوا على سيلاي وهو وزير ملك النبط عبوداس ان يدفع لهيروودس خمسين وزنة فضة (٤) وان يكبح جماح قبائل البدو من العرب . وفي بيروت ايضاً قضى هيروودس المذكور ظلماً على اسكندر وارسطابولس ابنيه من مريثة المكابية

ومن المدن التي نالت من سجال فضل الرومانيين مدينة جبيل وان كانت حصتها دون حصّة بيروت بكثير وآثار الرومانيين في المدينة العادية بيّنة من جملتها خطوط لاتينية وجدت بين اطلالها الدارسة (٥)

وكذلك ترى في قرية جونيه مع ما يحيط بجورها من الضياع دلائل تنبئ بمرور الرومانيين بها فمن ذلك الانصباب التي كانت تقام في جوانب الطرق للدلالة على المسافات ومنها جسر المعاملتين الذي سيأتي ذكره . وفي اسامي القرى دلائل اخرى على الآثار الرومانية واليونانية في لبنان مثل غسطل (Augusta) ودفنة (Δάφνη)

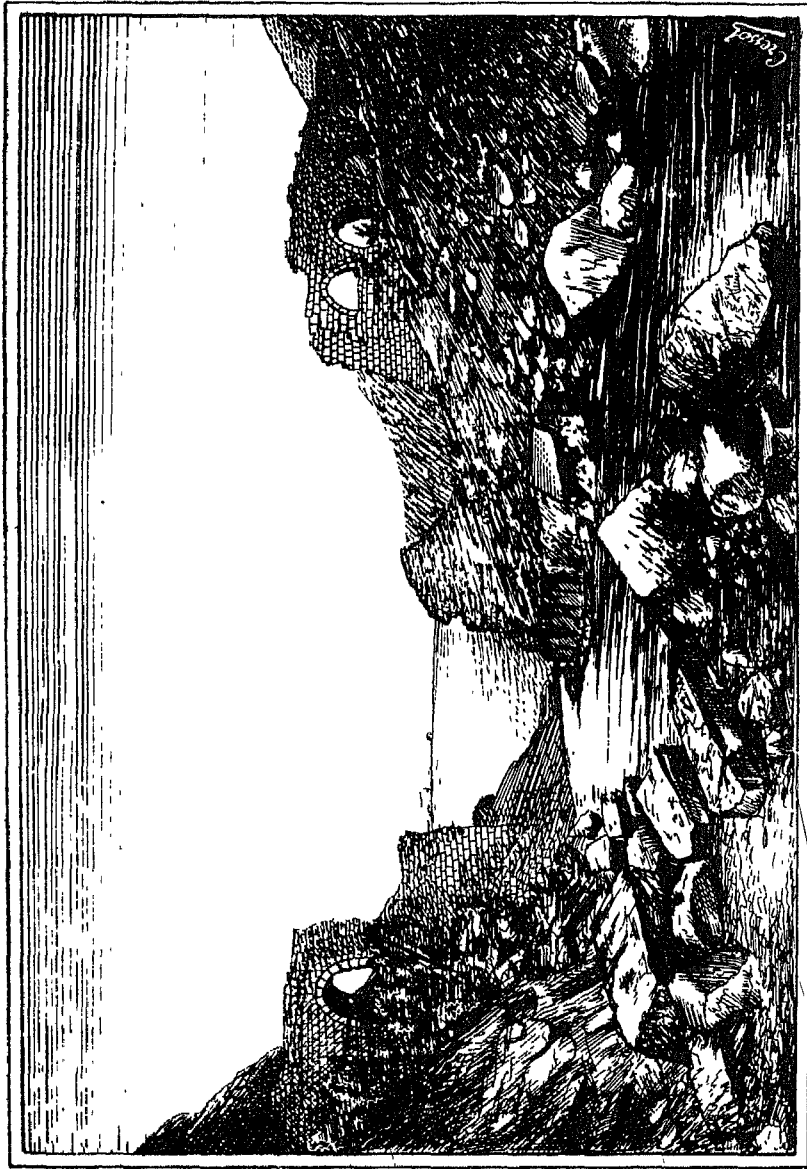
(١) راجع Nonnus : *Dionysiaques*, 391-398

(٢) راجع تاريخ سويتون *Suetonius : De illustr. Grammaticis*, XXIV

(٣) راجع المؤرخ مسين *Mommsen, l. c. 459*

(٤) كانت وزنة الفضة تساوي في ذلك العهد ٦٧٢٠ فرنكاً

(٥) راجع *Mission de Phénicie, pp. 164, 192, 280*



قناة نهر بيروت (قناة زبيدة)

وبلونة . ومن ذلك أيضاً نواويس عليها كتابات لاتينية تُرى في لبنان . وفي دير بيت خشبو واحد منها (١)

الأ ان الرومانيين لم يكتفوا بتدوين الكتابات الدالة على ملكهم . فلما كان الله جبلهم على السياسة والعمل لم يكتفوا بلداً دون ان يباشروا فيه اشغالات خطيرة واعمالاً اثيرة تؤول كلها لمنفعة رعاياهم كالقني تجلب بها المياه الى اهل المدن من منابعها البعيدة . وقد سبق لنا ذكر قناة دير القلعة (ص ١٠)

وفي لبنان قني غير هذه المذكورة بل هي اعظم منها شأناً وامتن بنياناً . فن ذلك القناة الضخمة التي كانت تجري بها مياه نهر بيروت وتُعرف اليوم بقناطر زبيدة وهي بلا شك من آثار الرومانيين

وقد بُنيت هذه القناة بنحيت الحجارة الكبرى وكانت تمر بوادي النهر فوق جسر عظيم ذي ثلاثة صفوف قناطر رابطة بعضها فوق بعض لا يزال منه الى يومنا بقايا حسنة تبعد نحو سبعة كيلومترات عن بيروت في شماليها بيد ان الصف الثالث من القناطر قد تهدم وهبط ايضاً وسط الجسر فلا سبيل الى ان تجري فيه المياه . وكان علو هذا الجسر يبلغ عند تمامه خمسين متراً وطوله ٢٤٠

اما زمان بنائه فليس من دليل عليه فانه لم يُكتشف حتى يومنا شيء من الكتابات المترجمة عن احواله . الا ان متانة شغله وهياة بنائه المحكم تنطق بلسان حالهما عن اصله الروماني ومما يبين ان هذه القناة بقيت قروناً طويلة تجر المياه الى بيروت ان في مستودعها وجدرانها الداخلية راسباً سميكاً من المواد الكلسية التي ابتقتها المياه في مرّها . ولعلها خربت في الزلزلة التي حدثت في ايام يستينان الملك لما صارت بيروت ردماً تنعق عليها الغربان

وكانت المياه بعد ان اجتازت الجسر المذكور تلج في نفق (سرب) ينفذ في الجبل مسافة طويلة وينتهي الى السهل حيث صبرت منه بقايا على الزمان وكانت تجري المياه في منعطف الاشرافية فوق مسير السكة الحديدية الحالية . وكانت القناة تفضي

(١) Ibid., p. 328. راجع ايضاً في تاريخ منسيين (ص ٤٤٧) الفصل الذي بوين

ما كان لاقليم سورية عند الرومانيين من الاعتبار والحظارة

الى المدينة مارّةً تحت مدرسة الحكمة للموازنة . وقد حسب حضرة الاب جوليان اليوسعيّ ان هذه القناة كانت تغني البلدة في كل ثانية بمتر مكعب من الماء اعني خمس عشرة مرّة أزيد من ادوات الشركة الانكليزية حالاً (١)

وكان الرومان قد ابتنوا في سورية قناة رابعة كانت غايتها اجتلاب المياه من نهر ابرهيم الى جبيل الآ ان آثارها ليست كآثار قناة بيروت

وما يحسن بنا قواه ان الرومان لم يكونوا ليرضوا بالمياه المجلوبة في قنيتهم الآ ان تكون صافية نقيّة من كل الاقذار ولذلك كانوا يباشرون بعملها عند رؤوس الينابيع وينقرونها بالصخر الاصمّ او يبنونها بحيث لا يدتسها شيء من الاوساخ فيغطونها بصفائح الحجارة . وفي عملهم هذا عبرة للشركات الحالية لتصون المدن من جراثيم الامراض التي تسببها الاقذار الداخلة في القناة لاسيما بعد امطار الخريف حين تجرف السيول الى القناة اجساماً غريبة تثبتُ بالخلالها في المياه كل انواع الجراثيم الفاسدة

فيظهر ممّا تقدّم ظهور الشمس في رابعة النهار ان الرومان مجلبهم المياه من الينابيع النازحة اخصبوا البلاد التي مدّوا فوق رواقها حمايتهم . ولعلهم لم يكتفوا بذلك بل اقتسوا المياه في المدن فجعلوا لكل دار قسطاً كما تفعل في زماننا شركات المياه . ولنا شاهد على صحّة ذلك بكتابة وُجدت في مستعمرة رومانية من اعمال افريقية كانت اصغر شأنًا من بيروت وقد ذكر فيها صريحاً هذا تقسيم المياه على بيوت الاهلين (٢) . فلانظن ان بيروت حُومت ما لم تحرمه غيرها من المستعمرات وهي اعظم منهنّ قدرًا

ومن افضال الرومانيين التي لا تُنكر السكك والطرقات . فانهم ما نشبوا ان احتأوا ربوع الشام حتى سعوا باصطناع السكك فيها . وكانت غايتهم الاولى ذلك ان يهدوا الطرق لجيوشهم ثمّ ينشطوا بين رعاياهم التجارة والمعاملات . ولم يثنِ عزهم ما لقوه في لبنان من المسالك الوعرة والصخور المرتفعة فان هتتهم

(١) راجع مجلّة الرسالات الكاثوليكية 430-420 p. Missions Cath., 1894, وفيها

لهُ مقالة حسنة عن قناة بيروت الرومانية

(٢) راجع مجموع الكتابات اللاتينية (C. I. L., VIII, 51)

لم تعرف الكلال فوئروا الطرق ومهدوا السبل في جميع أنحاء البلاد التي فتحوها . وكانت السكة المارّة على سواحل فينيقية من عهد قدماء المصريين في القرن الخامس عشر قبل المسيح كما تشهد عليه المكاتبات المكتشفة حديثاً في تلّ العمارنة (١) وقد جاء فيها ذكر العجلات الحربية التي لا يمكن ان تسير دون سكك منظمة . بيد ان هذه السكة القديمة لم يبق لها أثر بخلاف سكة الرومان فان بقاياها لا تزال الى يومنا ظاهرة على الساحل . وكذا قل عن جميع السكك التي تولوا صنعها في لبنان

أما الذين كانوا يقومون بهذه المشروعات الجليلة فهم جنود الرومانيين . ومصداق ذلك في كتابة لاثينية نُقشت عند معبر نهر الكلب . على ان التاريخ ينشأ بأن لهؤلاء الجنود في كل البلاد التي فتحها رومة اعمالاً تُعدّ من اعمال الجباية . فكم من قصور وقلاع شيّدوا وجسور عظيمة عمروا وخنادق حفروها واسوار ضخمة ابنتوها . وكان يسير في عداد الجنود قوم من المهندسين والصنّاع يقومون بهذه الاعمال

ومما امتازت به السكك الرومانية الوثاقة والمتانة مع توفير اسباب الراحة لبني السابلة . فكانوا يجعلون وسط السكة مرتفعاً عن الحضيض يفرشونه بصفايح كبرى من الحجارة البركانية او ما شاكلها صلبة . ولئلا تنخسف بها الارض كانوا يضعون لسندها ثلاث طبقات متوالية اسفلها من الحصباء والرمل ووسطها من دقيق الحجارة المعجونة بالكلس . اما الطبقة العليا فكان سمكها ١٥ سنتيمتراً تتركب من كبريات الحرف والآجر بينها الملاط الشديد . وكان على جانبي الطريق مسلك للسابلة (Trottoirs) برفعة قليلة عنها وعلى طرفيه حجارة ضخمة

وكان الرومان يضمنون الامان لسككهم بان يقيموا من مسافة الى اخرى مراكز لجندهم وخانات للسفر ومرابط للحيل ومحطات للبريد

(١) راجع كتاب الاب ديلاتر (Diatre) اليسوعي المعلنون : Le Pays de Chanaan, province de l'empire égyptien, p. 39.

وكانوا ينصبون من ميل الى آخر انصاباً من الحجارة فيها ارقام تدلّ على مسافات الطريق وبعدها المكان عن حواضر المدن . وربما كانوا ينقشون في هذه الانصاب اسم القيصر الذي امر بنهج الطريق او اصلاحها . وهذه الانصاب مكنت اهل البحث والتنقيب من تتبّع آثار سكك الرومانيين . و تراها ملقاةً على ساحل البحر غائصةً في الرمل او مطمورة بين الردم وهي تدلّ على السكّة الساحليّة التي مرّ ذكرها . والحقّ يقال ان هذه السكّة كانت طرفة من عجائب البنايات و تراها الى اليوم منقورة في الصخر بقرب نهر الكلب وجونية . وعند ممرّ السيول والانهار ترى آثار الجسور العظمى التي كانوا اصطنعوها . نخصّ منها بالذكر جسر المعاملتين الذي لم يزل صابراً على آفات الدهر

ومن سككهم الناطقة بفضلهم الطريق التي اصطنعوها من جيل الى بعلبك وهي تمرّ في اعالي لبنان فوق العاقورة وهناك شعب بين جبلين تحرقه الطريق فتفضي الى بركة اليثونة ثمّ تتسع وتمتدّ فتصبح من احسن السكك الجليليّة واتقنها لكن آثارها في منعطف لبنان الشرقيّ دارة . ولعلّ هذه الطريق سبقت عهد الرومان وما لا مشاحة فيه انّ الرومان تولّوا اصلاحها وتوسيعها كما يؤخذ ذلك من كتابه لدوميطيانس قيصر في آخر القرن الاول للمسيح ووجدت عند المكان المسّمى بدرّاجة مار سمعان

هذا ومهما توغلّت في لبنان وجدت للرومانيين مآثر وكتابات ونقوشاً . مثال ذلك الكتابات التي تراها في الوهاد الواقعة بين الصنّين وغابة الارز لاسيا في مقاطعات العاقورة ونثورين وقرطبة حيث تجد كتابات عديدة خطّ فيها مراراً اسم ادريانس الملك وحروف هذه الكتابات تبلغ نصف ذراع طولاً وقد اعتبرها بعض اهل تلك النواحي كأرصا د تحتها كنوز دفيئة بجشوا عنها بعد نقر الحجارة وتحطيم الكتابات . امّا سبب تكرار اسم هذا القيصر الرومانيّ فلكونه قضى في بلاد الشام سنين طويلة وكان يصحبه في اسفاره عددٌ غفير من النقباشين وارباب الصنّاعة والحرف . ومن المرجح انّه مرّ بمدينة جيل وزار معابد الزهرة في لبنان .

ومما يعود فضله الى الرومان فيستوجبون له الشكر العميم عنايتهم بنصب

الاشجار في لبنان . وقد مرّ لنا في المشرق (١: ٧٢٨) كلام في ذلك وبيناً هناك ان لبنان كان في القرون الحالية مجتلاً بالغابات تعلو قممهُ ضروبٌ من الاشجار . واثبتنا ايضاً ان الحكومة الرومانية كانت احتكرت لها اربعة اصناف منها وهي العرعر والارز والسرو والصنوبر (١) وكلها من اشجار الجبال المتينة الخشب الوارفة الظل اختصها الرومان بانفسهم لئلا يتصرف بها الاهلون فيقطعوها بلا حكمة . وكان الرومان يتخذون منها الخشب لتجهيز سفنهم وابتداء مساكنهم في سورية . ومما يُجبر عن پمپيوس القائد الروماني فاتح الشام انه اصطنع له اسطولاً من خشب لبنان فقطع دابر القرصان الذين كانوا يتجولون في بحر الروم متلصقين . ولما انتشبت الحرب بين پمپيوس المذكور ويوليوس قيصر تولى كاسيوس من اصحاب پمپيوس قيادة اسطول الشام وأجر بها الى صقلية لمحاربة سفن قيصر واحرقها (٢) وكل ذلك دليل على اهتمام الرومانيين بزراعة لبنان وتوفير غاباتها

ومن كل ما سبق يفهم القارىء ما للرومان من المشروعات الطيبة والاعمال الجليلة التي لم نذكر منها سوى برضٍ من عدد . وفي تئمة مقالاتنا عن آثار لبنان سياقي ذكرهم غير مرة . وفي ما سبق كفاية لتقدير اعمالهم

وخلاصة قولنا عن الرومان أنهم في ولايتهم كانوا يهتمون بصالح رعاياهم ويوفرون لهم اسباب الثجاج ويوسعونهم أماناً وراحة ونال اهل سورية بهمتهم

(١) وقد ارتأى العلامة الاب مرتينوس اليسوعي في تاريخ لبنان ان الكتابة التي تدلّ على احتكار الرومان لهذه الاشجار والتي شرحناها في المشرق (١: ٧٢٧) انما كان لها معنى آخر . فظنّ الاب المذكور ان الرومان كانوا خصصوا هذه الاشجار للالهة عشتروت او الزهرة . قال : « ومما يوئيد رأبي ان احتكار هذه الاشجار لم نجد له أثراً سوى في بلاد جبيل حيث كانت عبادة الزهرة متغلّبة شائعة . ثم كثيراً ما ترى على الحجارة التي وردت فيها الكتابة المذكورة حروفاً ثلاثة غيرها باللاتينية وهي D F S معناها على ظنّه D(eæ) F(ecit) S(acrum) « خصصها بالالهة » . اي ان ادريان الملك خصص بمباداة الزهرة الاربعة الاصناف من الشجر المذكور . (قلنا) وهذا شرح غير ثابت كما بينته حضرة الاب جلابرت (Mélanges de la Fac. Orientale. IV. 209 seqq) ومعنى هذه الحروف Definitio sylvarum اي تحديد الغابات (المحتكرة)

(٢) راجع تاريخ يوليوس قيصر (Caesar, Bell. Civil. III)

قسماً وافيةً من ذلك السلام الذي نُسب الى رومة (pax romana) متّعنا الله بمثله
في ظلّ دولتنا العليّة آمين

٦ الصّين

قد سبق ان القائد الروماني پمپيوس اخرب في اثناء محاربة لبنان قلعةً تُدعى بورومة . ولكن لم تتعرّض للبحث عن موقع هذا الموضع . فانّ من اصحاب العاديّات من ظنّ انها سمار جبيل وقيل قلعة الحصن في نواحي دوما وقيل غير ذلك . وقد فات هؤلاء الكتبة انّ الجغرافيّ اسطرابون في كلامه عن بورومة جمع بينها وبين قلعة اخرى دعاها « سنّان » وسنّان على الرأى الارجح قلعة قريبة من جبل صّين فينتج عن ذلك ان قلعة بورومة ليست بعيدة منه ايضاً . واذا طلبنا في جوار الصّين موضعاً في اسمه شبهً بقلعة بورومة لانجد غير برمانا . ومن المحتمل ان الاقدمين لحسن موقع هذا المكان كانوا سيّدوا هناك حصناً حريزاً يشرف على الوديان المجاورة وعلى سواحل بيروت . على اننا لم نجد في برمانا اثرأ لهذه القلعة ولعلّ پمپيوس قوّض اساسها او اتت على بقاياها مصائب الدهر فابادتها
اماً قلعة « سنّان » فع كونها على مقربة من جبل صّين لم تكن في مشارفه العليا لانّ البرد هناك قارسٌ والسكنى في الشتاء شاقّة وانما كانت على منعطف رباه . والارجح انّ هذه القلعة كانت مبنيةً فوق احدى السكك في الوديان الفاصلة الصّين عن جبل الكنيسة او الحاجزة بين جبل الباروك وجبل الكنيسة اعني بقرب سكّة الشام الحالية . وهذه المواقع خطيرة لانها كضيق يُفضي الى بطاح سورّيّة المجوّفة

واما اسم قلعة سنّان (Σεννών) المذكورة في كتاب اسطرابون فانه اسم الصّين بعينه لكنّه على صورة لفظه القديمة

وقد ارتأى بعض الكتبة المحدثين نقلاً عن تقليد شائع في لبنان انّ جبل صّين هو الجبل المدعو « سنير » المذكور في الكتاب الكريم . وقد هموا بمشابهة الاسماء مع انّ سفر تثنية الاشتراع (١٠: ٣) ينفي صريحاً هذا الرأى ويدعو حمون سنير عند قوله : « وحمون يسميه الصيدونيون سريون والاموريون سنير » .

والمأشبه الأمر على البعض لوجودهم في سفر نشيد الاناشيد اسم سنير مقروناً باسم لبنان حيث يقول العروس لعروسته السرية (نش ٤: ٨) «هَلَيْيَ مَعِي مِنْ لَبْنَانَ مِنْ رَأْسِ أَمَانَةَ مِنْ رَأْسِ سَنِيرٍ» (١) . وزعم هؤلاء ان امانة اسم الجبل المشرف على حمّانا . وكل هذه الاقاويل مزاعم لا سند لها وان لم تكن محالاً . واسم لبنان في التوراة لا يُطلق فقط على الجبل المعروف اليوم بهذا الاسم بل يدل أيضاً على جبل الشيخ الذي بازائه الأ إذا زاد الكتاب صفة ما تبين نية الكاتب الكريم كقوله مثلاً (يوشع ١٣: ٥) : «لبنان جهة مشرق الشمس»

وأما اسم «سنير» فتجده في كثير من كتبة العرب كالمسعودي فإنه يقول (في كتاب التنبيه ص ١٥٣) في اثناء كلامه عن الموارنة : «انّ اعرهم مشهور بالشام وغيرها اكثرهم في جبل لبنان وسنير وحمص واعمالها» . وفي كتاب المسالك والممالك لابن حوقل (ص ١١٤) مدلول سنير على جبل الشيخ او على الجبال الواقعة في شمالي غربي دمشق . وجاء في الصبح الاعشى للقلقشندي (ص ١١٣١ من نسخة مكتبتنا الشرقية) : ثم يتدّ (لبنان) الى الشمال ويجاور دمشق واذا صار في شماليها سمي جبل سنير . وكذا في مختصر كتاب البلدان لابن الفقيه الهمداني وغيرهم . لكنّه يؤخذ من قول ياقوت في معجم البلدان (٣ : ١٧٥) انّ سنير تدلّ أيضاً على قسم من لبنان او على الجبال الواقعة «بين حمص وبعلبك» . اما لفظة «صنّين» فيظهر أنّها حديثة العهد لم نجد لها ذكراً في تأليف العرب القديمة

ومن يتسلّق قمم صنّين العليا يجد ثمّت آثاراً من بناء مربع مشيد بنحيت الحجارة . وعلى مشارف جبل الكنيسة بناء آخر مثله . ولا يكفينا ان نحكم على اصل هذه الابنية حكماً قطعياً ولعلّها من مآثر الفينيقين بنوها مباشرة مناسكهم الدينية . والله اعلم

٧ ساحل علما

فلنواصل الآن سيرنا الى جهات الشمال بعد ان استطرادنا الى ذكر اعالي لبنان واعمال الرومانيين في أنحاءه . وفي كسروان آثار قديمة وصفنا منها قسماً في الفصول السابقة وهاك ما بقي علينا وصفه

ومما يستلفت الانظار في اسفل كسروان متحجرات على شبه السمك تجد منها شيئاً كثيراً في ساحل علما . وهذه الآثار قد ورد ذكرها في اسفار قدماء الرحّالين وقد ذكرها المسافر الشهير منكونيس (Monconys) في رحلته المكتوبة في القرن السابع عشر (ج ٢ ص ٧١) وكرّر بعده اصحاب الاسفار وصفها . وجاء في ترجمة القديس لويس التاسع ملك فرنسا للسيردي جوائيل عن اسمك متحجرة جمعها قوم من لبنان ما تعريبه (١): «ولما كان الملك في صيداء اتى اليه قومٌ بحجر غريب ذي قشر وفلوس . وكان اذا نزع عنها قشرة وجد بين كل حجرتين شبه سمكة بحرية متحجرة لا ينقصها شيء من هيئة الاسماك وتركيبها وزعانفها وحسكاتها والوانها كأنها اسمك حية . وقد اعطاني الملك منها حجراً فوجدت فيه سمكة من نوع الشبوط تأمة البنية ذات لون اسمر » . وفي متحف عاديّات مدرستنا الكلية عدد كبير من هذه المتحجرات التي يرتقي عهدا الى الازمنة السابقة التاريخ

هذا وفي ما مرّ (راجع الصفحة ٥) قد اتينا بذكر قرى كسروان المجاورة لخور جونية . فلنذكر الان القرى العليا من هذه المقاطعة . واوّلها غزير يوجد في اسفلها مدافن ومعاصر قديمة . اما قصبه كسروان فلم نر لها اثرًا ينبي بوجودها قبل القرون المتوسطة . الا ان اسمها سرياني (ܟܣܪܘܳܳܢ) كاسماء اغلب قرى لبنان ومعناه «القطيع» او «المقطوع» (٢)

وقد وجد بعض الرحّالة في «فتقا» على بعد ساعة من غزير شمالاً كتابات عديدة

(١) راجع Joinville, *ch. 118, ed. Wailly, p. 330*

(٢) لا «قطيع النعم» كما زعم ف. ابي حلقة في جغرافيته (راجع المشرق ٤: ٤٧٥)

يونانية احداها من سنة ١١١ للمسيح يُستفاد منها انه كان هناك هيكل . وهذا دليل على ان فتنا كانت موضعاً معتبراً

٨ معراب

معراب مزرعة على عطف الجبل بين دلبتا وعين ورقة تبعد نحو كيلومتر ونصف من عين ورقة في شرقها بجهة ريفون . فيها آثار ماثلة يعرفها اهل تلك الضواحي بقلعة معراب او يدعونها بمطلق اسم القلعة . والارجح ان هذه الاخربة احد المعابد العديدة التي اقامها ارباب الدين القديم على مشارف لبنان تعريزاً لديانتهم . وهو نعم الموقع يمتد منه البصر جنوباً الى بيروت وبجورها اللازوردي وشمالاً الى جبيل وبطامحها الخضراء . والآثار الباقية عبارة عن جدران ضخمة الحجارة طولها ٢٥ متراً في ١٠ امتار عرضاً و ٦ امتار علواً . وقد قيست بعض الحجارة فاذا طولها



آثار قلعة معراب.

آثار لبنان

ة امتار بنيت في عرض مترين . وفي البناية حجارة منسعة محفورة في
ت حافة ينفذ فيها سقاية لعلها جعلت قديماً لتجري فيها دماء الذبائح
التقادم . وهذه غاية ما نعلمه عن هذه البناية التي أعلن أولاً امرها
ن في غزير فأرشدوا إليها رينان ايام سياحته في لبنان فذكرها في كتابه «بعثة
١) ولم يصفها (راجع تاريخ الموارنة للدويهي ١٦ و ١٢٦)

٩ غينة

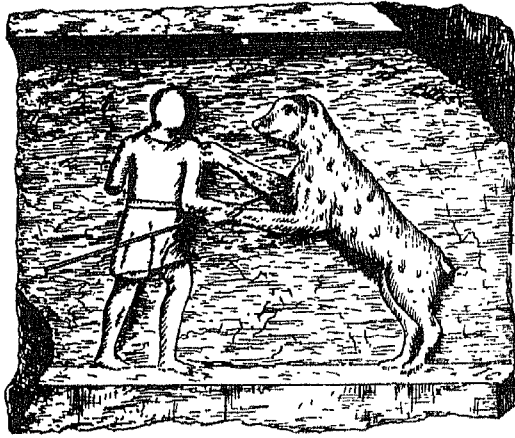
١ انحدرا الآن من مزرعة معراب وعبرنا وادي غزير ثم اتجهنا الى ناحية
٢ حيث تنتصب قمة مستديرة الشكل تُعرف برأس الكنيسة وجدنا على
تو كياومتين منها بجوار قرية غينة صخرة منفردة يبلغ علوها بضعة امتار
صخرة المذكورة وجهان الشمالي والشرقي قد نحتها القدماء فنقشوا في
هما ثلاث تصاوير نائثة طمس الدهر قسماً منها وحطّم منها قسم عمداً .
من وقف من العلماء على هذه النقوش الغريبة الابوان اليسوعيان بوركو
(Bourquer) وروز (Roze) في سنة ١٨٥٢ ورسم صورها في مجلة
(٣)

لجهة الشرقية وهي الكبرى تمثّل بطلاً عبّال الذراعين شديد الجسم في يده
مشرع كأنه متحفّز للقتال وقد صوّب بسنانه الى صدر حيوان ضارٍ هجم
سند احدى قوائمه الى كتفه كأنه يحاول اقتراسه . والشخص المنوّه به لأبس
يفاً وهو شعار يكاد يبلغ ركبته تضئّه حُبكة عند وسطه . اما هيئة
(فهي اقرب الى الدبّ منها الى الاسد . وقياس القسم المنحوت من الصخر
تراً و ٩٦ سنتيمتراً علواً ومترين و ٨٨ س . عرضاً
بقرب الصورة الموصوفة آنفاً نقش آخر اصغر منه يمثّل امرأة رشيقة القدّ جالسة

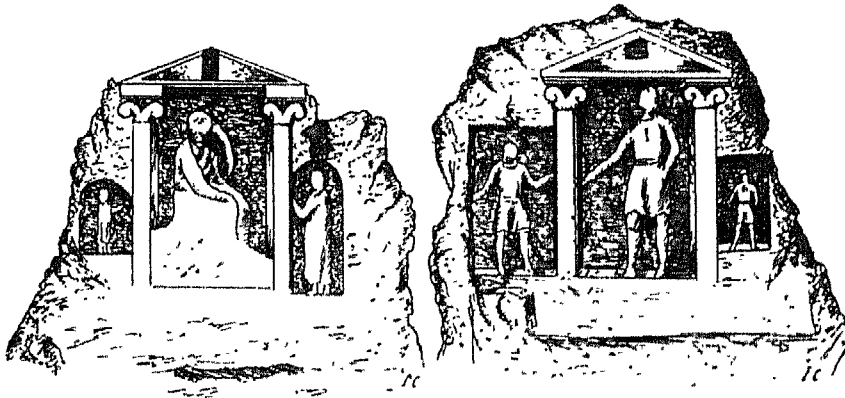
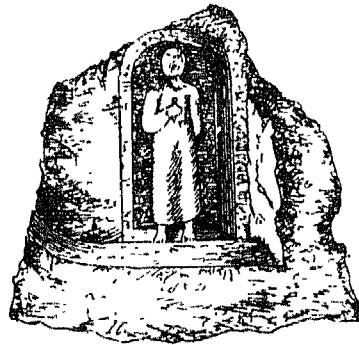
راجع Mission de Phénicie, p. 328

١ راجع ما ورد عن كفور في الكتاب السابق ذكره (ص ٣٤٧)

١ راجع Etudes Religieuses, 1861



آثار غينة



آثار المشقة

على مقعد تراها كسيفة البال كئيبة رافعة يمينها الى وجهها وبصرها مائل الى صورة
البطل المقاتل . وعلى رأسها منديل يبلغ طرفاه الى وسطها . اما رجالها فتسندهما
الى مسند نقوشه على مثال المقعد التي هي جالسة عليه

وفي الجهة الثانية من الصخر على شمال هذه التصاوير رسوم اخرى بيد أنها
دائرة مطبوسة . ومما يظهر منها جلياً صورة شخص منتصب يتكى الى شبه سهم
او صولجان تلوح على وجه امارات السكينة والوقار . امماً بقية التصاوير فلا سبيل
الى وصفها او اثبات رسوما لاندثارها وما لا شك فيه ان ثم صورة حيوان ولعلها
وحشان . وللاب العلامة بوركتو (١) مزاعم في شرح تصاوير هذا النصب الثاني
لا يوافقها عليها العلماء

وما من شأنه ان يكشف عن سر معنى هذه النقوش ان تحت رسوم الجهة
الشرقية مغارة نُحِتَتْ في الصخر

ولا ريب ان هذه البقايا تدبى بآثار تعبد اهل فينيقية لادونيس او تموز (٢) .
ولعل الاحاديث الشائعة بين القوم كانت تشير الى قرية غينة وتروي عن موت هذا
الاله انه قُتِلَ في هذا المكان فباحث عليه امه الزهرة او عشتاروت . اما المدفن
فالمرجح انه نُحِتَ تخليداً لهذه القصة لا لتمثيل قبر حقيقي

وما يحسن ذكره هنا ما ورد عن ماتم تموز في سفر حزقيال اذ رأى هذا النبي
رجساً في الهيكل فوصفه بقوله (حز ٨: ١٤) : « واتى بي الى مدخل بيت الرب . . .
فاذا هناك نساء جالسات يبكين على تموز »

على ان هذه الرسوم الدينية لا يتضح معناها تماماً الا بمقابلتها بآثار اخرى صبرت
على الايام عند قرية المشنقة

١٠ المشنقة

موقع مآثرها الجليلية في وادي نهر ابراهيم على ربوة ذات قطع عمودي مشرقة

(١) راجع مجلّة الابحاث Etudes, 1861, p. 945

(٢) ومدلول كلا الاسمين واحد

على النهر وتلك الضواحي منظر يجمع بين الحسن والغرابة . اما الآثار التي تستلفت الحلاظر في المشنقة فاربعة :

(الاولى) عبارة عن سور او حميّ مربع مستطيل تكسيده ٩٥ متراً طولاً في ٥٠ عرضاً . وباب البناء من جهة الشرق . والظاهر ان هذا التربع كان يحدّ سابقاً المعبد والابنية اللاحقة به كما ترى في قلعة فقرا وفي حصن سليمان في بلاد النصيرية وغيرها . وحائط السور قليل السمك بسيط البناء يستند في جهته الشماليّة الى صخر . وفي داخل السور في الجهة المقابلة للباب بقايا اساس مربع بُنيت فوقه عواميد لم يبقَ منها غير حجارتها السفليّة . وقد اتخذ جانب من أخربة هذا البناء لعارة حديثة

وإذا احفينا في البحث عن اصل هذه الاطلال وجدنا انها كانت هيكلًا يتوسّط السور الذي ذكرناه . وكان لهذا الهيكل اعمدة من الطراز الهندسي القورنثي يعلوه شبه هرم مخروط الشكل بقي منه حجران منقوشان نقشاً بديعاً والآثار (الثانية) على شمال السور الموصوف تبعد عنه ١٢٠ متراً . فهناك مجاز قد نُحِت في الصخر ونُقش على جانبيه رسوم قديمة . وفوق هذا الصخر نواويس ضخمة منقورة في الحجر على شكل أجران مستطيلة لها اغطية مخروطة الجوانب . اما النقوش فهي باثرة وهي سبعة عدداً ففي مدخل المجاز المذكور صورتان عظيمتان متقابلتان من كل جانب وهما منقوشتان في ضمن إطار او كوى من صنف الهندسة الايونية ويلاصق هاتين الصورتين من جانبيهما صورتان اخريان اصغر منهما ولكل منها اطار منقوس كما ترى في الصور التي رسمناها . والصورة السابعة وهي متوسطة في الكبر نُقشت في الصخر منفردة عن بقية التصاوير من جهة الشرق

واحدى الصورتين الكبيرتين التي عن يمين العابر في الصخر تمثّل بطلاً لبسه كالشخص الذي وصفناه في نصب غينة . ولعلّ الصورة الموازية والدارسة لقدمها تمثّل امرأة تنوح . واما اشخاص الصور الصغرى التي على طرفي الصورتين الكبيرتين فن تبعة الشخصين المتوسطين تراهم يمدجونها بالنظر ويتأثرون بحركاتها ومعنى هذه التصاوير اذا قوبلت بتصاوير غينة يتضح جلياً وانما تمثّل نبذة



تمثال الإهرة المعبودة في لبنان

من ترجمة تموز اعني موته ومناحة الزهرة عليه . قال مكروب المورخ اللاتيني (١) :
« الزهرة مصورة في لبنان مقنعة الرأس كشيبة الوجه تسند رأسها الى شمالها المحتجة
بردائها » (٢)

والاثر (الثالث) من آثار المشقة على مسافة عشر دقائق شرقاً من باب السور
فهناك ساحة بُني فيها في القرون الغابرة معبد صغير اخربهُ بعض طلاب الكنوز منذ
سنين قليلة . وبين الردم نُصب أُقيم ذكراً للبعل وفي رأس النصب اكليس وعلى
طرفيه نقوش تمثل الصاعقة (٣)

اماً الاثر (الرابع) فهو في شمالي غربي السور الاعظم فهناك ابنية من ضيعة
سكنها قديماً النصارى والدليل على ذلك ان من جملة الاخربة كنيسة على هيئة
الكنائس البوزنطية . ولعل النصارى احتلوا الى ايام الفتح الاسلامي

هذا وقد بحثنا عن اسم المشقة القديم فلم نجدهُ وكذا قل عن اسمي غينة
ودير القلعة فان التواريخ القديمة لم تُفدنا من امرها شيئاً . وما لا شبهة فيه ان هذه
المعابد التي وصفناها اُقيمت لآرام تموز إله الجليليين وكان ذكرهُ شائعاً في تلك
الانحاء وكثرت الهياكل على اسمه . يُستدل على ذلك من اسم نهر ابراهيم عند القدما .
وكانوا يدعونه ادونيس (Adonis) وهو تموز . امأ عهد هذه الابنية فجهول
ايضاً لكنهُ على الاصح لا يسبق زمن تملك الرومان على سورية ولبنان

١١ الديانة الفينيقية في لبنان

قد اشرنا في الفصول السابقة الى دين اهل لبنان ومناسكهم وهياكل آلهتهم
المشيدة في مشارف الجبل كدير القلعة وغينة والمشقة . وعددنا اسما آلهتهم كالبعل
وعشتاروت وتموز . الا اننا احببنا ان نفردها فصلاً خصوصياً لهذا البحث الهام
ونلخص كل ما ثبت لدى العلماء من هذا القبيل فان هذا النظر العام من شأنه ان

(١) راجع كتابه Saturnales I, 21

(٢) وقد رسنا صورتها الموصوفة هنا

(٣) راجع بشة فينيقية Pl. XXXII Mission de Phénicie,

يوضح كثيراً من احوال لبنان ويكشف ما استغلقت فهمه من امور اهل الاقدمين وقد شاء الله ان يكون الفينيقيون قوماً وسطاً بين الشعوب الشرقية القديمة والامم الغربية التي خلفتها . ولا تخرج ديانتهم عن هذا الحكم بل تراها بعد الفحص المدقق أنّها تُشبه في كثير من امورها ديانة مصر وآشور وان آلهة الفينيقيين هي الهة ممالك النيل والفرات استعارها منهم بعدئذ اليونان فكساها شعراؤهم بضروب من المحسنات الخيالية وزوّقوها بمسحة من الرونق والجلال

ومن خواصّ ديانة الفينيقيين أنّهم كانوا يتعبّدون لآوثانهم دون ان يُجهدوا فكرهم في تنظيم آلهتهم وبيان العلاقات التي تربط الهأ بأخر كما ترى في ديانة الاشوريين واصنام اليونان فإنّ بين الهة هؤلاء الشعوب بعض النظام بحيث يتسلسل صغيرهم من كبيرهم وينتمي بعضهم الى بعض بخلاف آلهة الفينيقيين فإنّ في معبوداتهم تشويشاً ما ولعلّ هذا الاختلاط ينجم عن حالة اهل فينيقية السياسيّة واستقلال مدنهم . وربما وجدت المعبود الواحد متّصفاً في مدينة بصفات لم يُعرف بها في مدينة اخرى قريبة منها

وما لا مشاحة فيه انّ عبادة البعل كانت تعمّ كلّ انحاء فينيقية . ومعنى اسمه في اللغات السامية الربّ والسيد وإنّ ذلك الأصفة عامّة لجميع آلهة الفينيقيّة كانوا ينعتون بها معبوداتهم الخاصّة في كل مدينة فيقولون « بعل صيدون وبعل بريث وبعل طرسوس وبعل لبنان وبعل حرمون » وهلمّ جرّاً . واسم الجمع بعليم وردت غير مرّة في اسفار العهد القديم . غير انّ مدلول هذه المستيات في الغالب اله واحد كانوا يُختصّونه في كل مدينة بعبادة محلية تبين بعض صفاته . ثمّ خُدع القوم بهذه الصفات الخاصّة فجعلوها آلهة ثانوية قائمة بذاتها دعواها البعليم وكلّها منبتق من الاله الاعظم الاصليّ تشترك بقسم من كمالاته وقواه . وامسى الاله الواحد منقسماً الى آلهة متعدّدة

الآن تقسيم الذات الالهية كثيراً ما كان يتبع تخطيط البلدان فيني فيني مثلاً اهل مدينة هيكلاً للاله العظيم فلا يلبثون ان يعتبروا ذلك المقام كسكن لبعض قوى الاله ثمّ يتخذونه كمعبود مستقلّ . وعلى هذه الصورة تعدّدت البعليم في صور وصيدا ولبنان وحرمون وصارت لاحقة بالبلد الاوّل والبعل الاعظم

أما إذا استقصينا البحث عن هذا البعل الأول المذكور فيظهر جلياً انّ المعنى به أنّما هي الطبيعة الهيوآية بكلّ قواها تُبدع وتُفني . وتخلق وتلاشي . وتحيي وتميت . وكانوا يعرفون هذا الاله باسماء مخصوصة في كلّ حالةٍ من حالاته فأدّت بهم اسماؤه الى ان اعتبروه كآلهة شتى

وكانوا اذا حسبه كعلة الموجودات ومولد الكائنات يدعونه بعل تموز او أدون ومنه اشتقّ اليونان اسم ادونيس (١) (Adonis) . ومن المحتمل ان يكون ادون هذا هو المعروف ايضاً باسم بعل لبنان . اما تكتيته ببعل سمائم او بعل السماوات فكان يراد به اله النور وجرم الشمس . وكان لكل البعل علاقة مع بعض النجوم السائرة الا ان الاله « تموز ادونيس » معبود مدينة جبيل كانت علاقتها مع الاجرام الفلكية اعظم من غيره . وكان الفينيقيون في زمن الدولة اليونانية يزعمون ان ادونيس المشار اليه انما كان شاباً يتصيد في الشام وانه كان ابناً اشتهرت ففي بعض الايام خرج سائحاً الى جبال لبنان ليتصيد في غاباتها المشرفة على جبيل اذ وثب عليه خنزير بري فقتله

الا ان هذه الحرافقة على زعمهم كانت رمزاً عن الشمس وتقلباتها من حالة النور الى الظلام في بعض فصول السنة . فكانوا اذا قدم الخريف يحتفلون باعياد يدعونها جنازة ادونيس (Adonies) ففي تلك الايام كنت ترى نساءهم يلبسن الحداد ويذهبن الى نهر ابرهيم المخصّص لذكر ادونيس فيجلسن على ضفتيه باقيات معولات يرثين موت الاله ومحاسن الطبيعة التي يعبر عنها (٢) . وكان البعض منهنّ يُسغن ذيوهنّ ويسدن شعورهنّ ويسرنّ في شوارع جبيل مغبرات شعناً يطمئن وجوهنّ ويولولن على تموز ويفغين الاغاني الشجية المبكية

اما اذا انتهى فصل الشتاء وزهت الدنيا بقدم الربيع وانقشاع الغيوم عن الشمس فكانوا يقيمون لذلك مواسم تنبي بفرط سرورهم وعظم افراحهم

(١) ولعلّ هذه الصيغة هي صيغة النسادى بدلاً من « ادوني » اي سيدي . وكانوا اذا اتهلوا شفاعة البعل يدعونه بهذا الاسم
(٢) راجع آية حزقيال النبي وما ذكرناه في الفصلين السابقين عن نقوش غينة والمنشقة (ص ٢٨ - ٤١)

ومن تعبدتهم للأجرام الفلكية المنيرة نتجت عبادتهم للنار وكان الفينيقيون يعظمونها كاحدى اركان الطبيعة ويقدمون لها الذبائح فيحرقونها وربما اتخذوا لمحرقاتهم اطفالاً صغاراً لا يرثون حالهم
ومما يشعر بتعبدتهم للأفلاك عبادتهم للبعل حامون اي المحرق وكان اسمه شائعاً عند القرطجيين وللبعل رصف (Reseph) وهو اله الصاعقة ونار السماء .
وكذا كان اهل صور يعبدون بعل ملكوت المهم الاعظم على صورة حجر منيرة .
ومن ذلك أيضاً تعبدتهم للرجوم او الحجارة الواقعة من السماء

وزد على ما سبق ان عبادة الحجارة كانت من خواص دين الفينيقيين فكانوا يقيمون انصافاً ينحتونها ويدعونها بيت ايل (١ اي بيت الله يزعمون ان الذات الالهية تحل فيها وتسكنها . واكثر ما كانوا يختارون لعبادتهم حجارة الرجوم لاسيما تلك التي رأوها ساقطة من الهواء على شكل شهب نارية فيعدونها لذلك هبة سماوية . واذ كانت هذه الرجوم مركبة من مواد بركانية ذات لون اسود وتوفر عددها في لبنان فلذلك شاعت عبادتها في أنحاءه . ومما كان يزيد في اعتبارها عند القوم ان يروها على شكل محروط لا يجدون في هذا الشكل من الرموز الدينية كما اثبتنا ذلك في بعض فصولنا السابقة (٢)

وكان البعل او الطبيعة الاله معتبرا عند الفينيقيين كذي مبدأين ممتازين احدهما مبدأ الخائفة الفاعل والاخر مبدأها المفعول . ومن المبدأ المفعول نتجت الالهات الإناث وليست الأنثى عندهم سوى إعلان لقوة الاله الذكر تظهر خواصه وتقبله .
وكما ان البعل كان الاله العظيم كذلك كانت عشتاروت الالهة الكبرى وهي تنقسم اقساماً عديدة على مثال البعل فترى لكل بعل خاص يعبد في بعض المدن بعلة من جنسه . وحيثما كان البعل ممثلاً الشمس كانت البعلة تمثل القمر . وبعل السمائم الهة توازيه يدعونها ملكة هالسمائم . ومن الأزواج المذكورة في الكتابات الفينيقية بعل

(١) ومنها اشتق اليونان لفظهم Βασιλεύιον . راجع قاموس التوراة لفيغورو

(٢) راجع المشرق (٣ : ١٢٧) ومقالتنا السابقة في دير القلعة

صيدون وعشتاروت في صيداء وتموُّز وبعلة جَبَل (١) في جُبَيْل . وكثيراً ما يُطلق على بَعلة جبل اسم البعلة بلا اضافة وكان هيكلها من اشهر الهياكل تحجج اليه الزوّار من كل صوب

وكانت عشتاروت والبعل وملكرت كصنف من التثليث الالهى في صور . وكان لهذا الثلاث مرتبة عليا بين الآلهة يدعن له بقية المعبودات الثانوية . واتخذت صيدون لها ثالوثاً آخر يتزكب من عشتاروت والبعل واسمون . امّا الجبيليون فكان ثالوثهم إيل وتموُّز وبعلة . وبعلة هذه هي التي يدعوها المورخون في زمن الدولتين اليونانية والرومانية زهرة لبنان اشتهرت عبادتها في أفقة كما سيأتي وكان للفنيين ما خلا هذه الاصنام آلهة أخرى من الطبقة الثانية وردت اسمائهم في الخطوط القديمة

وخلاصة الكلام ان دين الفينيقيين كان مرجعه الى تأليه قوى الطبيعة وتعزيرها . امّا مناسكهم الدينية الظاهرة فتعلّبت عليها الفطائع والارجاس حتى انهم كانوا يعدون اعمال العهارة والفجور كافعال تقوية يتقربون بها الى آلهتهم النجسة ولم يأنف كهنتهم من المجاهرة بالفحش فانهم كانوا يتخذون لكل هيكل نساء من المومسات يدعونهن عالمات (عوامل) او قدسات يعرضون بهن لكل ضروب الفحشاء

ومن قبائحهم ان كهنة البعل وعشتاروت في بعض المواقع كانوا يتخضنون فيلبسون لباس النساء ويطاون وجوههم بالعمرة ويعرون اعضاءهم ويسرون في المدينة جموعاً فنههم من يشهر السيف والقأس ومنهم من يضرب الصنوج والطبول ويذمر بالزمارة وكانهم يولولون ويرقصون كرقص الدراويش في ايامنا فتارةً يجلفون بين ارجلهم وتارةً يجنون صدورهم وحيناً يقفزون قفزاً وطوراً يزحفون على الحضيض وهم يسحبون على الارض شعورهم المتشعبة . ثم كانوا يعمدون الى المدى والسكاكين والحراب والسيوف فيخدشون وجوههم ويشرحون ابدانهم ويقطعون

(١) وبعلة جبل هذه ذكر في مراسلات تلّ العبارة المكتشفة حديثاً التي يرتقي عهداها الى القرن الخامس عشر قبل المسيح

قطعا من لحومهم ويطنون بطونهم فاذا سالت دماؤهم واصطبغت اجسامهم قدّموا ذلك ضحية لطواغيتهم . وقد ورد في سفر الملوك الثالث (الفصل ١٨ الآيات ١٦-٣٠) ذكر كثير من هذه الامور وفيه وصف ضحية كهنة البس على جبل

الكرمل في عهد الياص النبي الحيّ ومن فظائهم التي ألغنا الى ذكرها في معرض كلامنا عن دير القلعة التقادم البشرية التي كانوا يضخونها لاصنامهم وكانت هذه الضحايا احسن موقعا عند المهتمم يأنسون اليها ويتنسسون منها رائحة الرضى . وكانوا يوثرون لهذه المذابح الفظيعة الاولاد الابكار لاسيا الاطفال الصغار بعد ولادتهم يزعمون انّ هذه البواكير تستجلب بركات الآلهة على اصحابها

تلك كانت اعمال الدين الباطل التي لم تزل سائدة معززة رغما عن اقوال الانبياء وغيره اولياء الله في العهد القديم حتى ظهر ابن الله وضاعت انوار النصرانية في العالم فاقشعت هذه الظلمات المدممة وخذلت عبادة الاصنام واخربت هياكل الشرك على يد ملوكها العظمين كقسطنطين وثاودوسيوس

١٢ اليمونة

اليثونة قرية على عطف جبل منيطرة من جهته المشرفة على سهل البقاع بينها وبين افقة بعض الشبه . واسم اليثونة مشتق من السريانية (مُعهنا) معناها البحيرة دُعيت بذلك لانّ بقربها حوضا تجتمع فيه مياه تلك النواحي يدعوها الياهوون بركة اليثونة . اما قول المسيرينان في كتاب بعثة فينيقية (ص ٣٠٧) انّ البحيرة اشتقت اسمها من اسم القرية فهو خلاف الواقع كما ترى

والبحيرة المذكورة في غور عميق تكتنفه الجبال العالية من كل صوب ما خلا الجهة الشمالية الشرقية . فانّ في هذه الجهة ربوة صغيرة تقوم في وجه المياه وتصدّها عن السيلان . اما وطأ الارض الذي تمتدّ فيه البحيرة فتربته مرصوفة من الحواريّ الشديدة البياض فاذا دخل فصل الصيف نضبت مياه البركة ويبس غورها البالغ طوله نيفا و كيلومترين في عرض نحو الف متر . فيسير السائر في تلك البطحاء على

هونه لا تزلُّ به الرجل ولا تغوص في وحل وكل ذلك دليل على ان المياه وقت اجتماعها لا تتصفي في ذلك الوطأ وانما تغور في الارض كما سنذكر

وفي شمال البحيرة عند سفح الجبل المنتصب عليها ترى نبوعاً عديدة تنفجر في الارض ماؤها زلال عذب اصفى من الدمعة . يتجمع في مسيل عرضه بين مائتين وثلاثة امتار فيجري عند طرف البركة الشرقي ثم يجتاز البحيرة في عرضها الى ان يبلغ حوضاً قليل السعة كانه بركة في بركة كبرى . وهذا الحوض الصغير غير منتظم الجوانب لا يتجاوز ٤٠ متراً في اوسع امكنته . اما عمقه فيبلغ في شهر ايلول خمسة امتار ثم يأخذ بالتقصان الا ان هبوطه لا تكاد العين تلاحظه لكثرة ما يجري اليه من المياه

وما لا ريب فيه ان المياه المتجمعة في الحوض الصغير تسيل من منفذٍ خفيّ يدعوه الاهاون بالوعا وهو محبوب عن العيان تحنيه الحجارة وركام من الحصى والرمل . فتسيل المياه من هذه الشقوق الى سرب تحت الارض

واول من عرف الاوربيين بهذه البحيرة السائح الفرنسي بولس لوقاس (Paul Lucas) زارها في اثناء القرن السابع عشر وهو يزعم في رحلته ان هذه البحيرة حديثة العهد . وهو زعم مردود يشهد على بطلانه اسم اليثونة السرياني وهو اقدم من ذلك العصر بكثير

ثم تردّد كثيرون من السياح الى لبنان وزاروا البحيرة المذكورة وبعضهم صَفَحُوا اسمها ببحيرة ليمون (Laimoun) (١)

ومما يجدر بالذكر ان سطح مياه بركة اليثونة مع صعوده وهبوطه سنوياً لم يبلغ الى نضوب البحيرة تماماً حتى سنة ١٨٧٠ . فلما دخلت السنة المذكورة ساخت الارض بطبقة الوحل والرمل التي كانت في قعر البالوع فانتسعت فوهة المنفذ الداخلي وانحطت مياه البحيرة على حين غفلة وجرت من هذه النافذة . وكانت سابقاً تنض في الارض نضياً

هذا ثم تعود مياه البحيرة عند الاعتدال الربيعي فيرتفع سطحها وتتدفق جوانبها

(١) راجع كتاب ريتّر (Ritter : *Erdkunde*, XVII, 301)

الى ان تبلغ معظم ارتفاعها بعد شهر من الزمن وذلك ان المياه تتبجس من مغارة قريبة في منعطف الجبل فتسيل الى البحيرة وتغمرها . وهي لا تزال تجري من تلك المغارة بقوة شديدة الى انقلاب الشمس الصيفي وهو منتهى ذوبان الثلوج على رؤوس الجبال فتقطع المياه اذ ذاك بقتة وتأخذ البحيرة بالانضوب شيئاً فشيئاً للسبب السابق ذكره حتى لا يظهر من البحيرة الاقعرها . على ان هذه اليوسة الناجمة اليوم عن نفوذ المياه في قعر البالوع كانت سنة ١٨٧٠ جزئية لان الارض المنخفضة في ذلك العام مع كونها شجرة كانت من ذي قبل تمسك قسماً من المياه حتى في اوان حمارة القيظ

واعل القارى يسأل وماذا يحدث بالمياه المتوارية من بحيرة اليثونة والى اين مجراها؟ اجبتا ان هذه المياه تنفذ في قلب الجبل فتجري الى جهة الغرب وتخرج من مغارة أفقة وعند قرية العاقورة منحدرة نحو ١٥٠ متراً عن سطح بحيرة اليثونة ومن هذه المياه يتكوّن نهر ادونيس المعروف اليوم بنهر ابراهيم . وهذا الامر قد ثبت الآن عند العلماء لا يرتابون في صحته لان مياه اليثونة لا اثر لها في منعطف الجبل الشرقي من جهة البقاع وزد على ذلك ان الجبل الفاصل بين وادي نهر ابراهيم وبطحاء اليثونة قليل الاتساع في باطنه مغاور عديدة يسهل نفوذ المياه اليها

وان سرت بضعة اميال الى جنوبي بحيرة اليثونة على منعطف الجبل الشرقي وجدت وادياً كثير الاشجار في وسطه بحيرة صغرى جميلة المنظر تدعى بركة الزينية طولها نحو كيامتر في عرض ٥٠٠ متر مياهها صافية كالزلال وليس في هذه البركة من السمك شي وانما تسبح في مياهها الضفادع والحيات المائية بخلاف بركة اليثونة التي يتوفر فيها السمك

وبحيرة الزينية تحف بها التلال المرتفعة وتسيل اليها المياه المتجمعة من الثلوج الذائبة وتصب فيها جداول عديدة تجري في تلك الاصقاع . وقعر المياه من المواد الكلسية النخرة الكثيرة التفتت الشائعة في اعالي لبنان فتنفذ منه المياه وتغور كما تنضب مياه بركة اليثونة فتقفل الارض وتيبس بالتأم وعلو هذه البحيرة الصغيرة عن سطح البحر نحو ١٨٠٠ متر كأنها في حسنها احدى مجيرات جبل الالب (راجع

ومن الآثار القديمة التي تُرى في اليثونة دكةٌ مرّبعةٌ من الحجارة المنحوتة بُنيت على طرف البحيرة في وسط النبع المتفجّرة التي تُحدّق بها . وهناك بقايا من أسوار وأعمدة وأفاريز وصفائح ضخمة من الحجارة تدلُّ على أنّ كان هيكلاً رومانيّاً أباده الدهر . ولا أثر هناك لكتابات قديمة

وقد حاول بعض المحدثين ان يثبتوا أنّ هيكلاً أفقا الذي ذكره القدماء كان في جوار بحيرة اليثونة . إلّا أنّ هذا الزعم لا سند له كما بيّن الامر رينان في بعثة فينيقية (١) والصواب ان القدماء اتخذوا لهم هيكلين احدهما على مقربة من بحيرة اليثونة والآخر عند نبع مغارة افقة وكان بين الهيكلين تناسب يعدّهما القوم كعبديّ إله واحد لما بينهما من الشبه في خروجها من حوض واحد . ولعلّ هذا الوفاق بين الهيكلين حمل المورّخ اليوناني زوزيس (٢) على ذكر بحيرة بقرب هيكلاً الزهرة عند افقة . وأنما قال ذلك توسعاً لا يريد بلفظة « πησόν » اليونانية « المجاور القريب » بل مطلق الاقتراب فقط . ومن الممكن ايضاً أنّ هذا المورّخ لم يتنبّه الامر بنفسه بل اورده عن سماع (٣)

هذا ثمّ ان الطريق المؤدية الى بركة اليثونة الى بعلبك كثيرة الاثار فيها كتابات عديدة إلّا ان أكثر هذه الخطوط دراسة مطموسة لا حاجة الى ذكرها في هذه الخلاصة

١٣ أفقا

كرّرنا مراراً اسم افقة (ويقال افقا) في فصولنا السابقة على اننا لم نخصّها بعد بالذكر . فرأينا ان نفرّد لها باباً خاصّاً لتفيد قرأنا ما بلغنا من امرها قلنا ان وادي نهر ابراهيم كان يُعدّ في القرون الخالية كارض مقدّسة تعبد فيها الفينيقيّون لسموز (ادونيس) فاقاموا له المزارات والابنية الدينية يحجّون اليها ويتبركون بها . وقد امتاز بين هذه المعابد هيكلاً افقا الشهير جعلوه عند رأس نهر ابراهيم في موقع يفوق مجسته جميع مناظر لبنان ويأخذ بالابصار لحسنه الفتان هكذا

(١) Renan : *Mission de Phénicie*, 308

(٢) Zozime : *Hist.* 309 seqq.

(٣) راجع في هذا الصدد مقالة حسنة نشرها مسيو شرل غليردو بك في مجلّة مصر ومولفها

العلامة المسيو بلنّس هذا عنوانها (Les eaux d'Adonis au mont Liban, p. 12, seqq.)

وصفه رينان في كتابه الموسوم ببعثة فينيقية وبيّنناه في مقالتنا عن جبال الالب ولبنان
(المشرق ١ : ٧٢٢)

يشتق العلماء اسم أفقا من السريانية *أفقا* اصلها *أيهقا* او *أهقا* معناها « المخرج » يريدون بذلك « مخرج المياه » او ينبوع . فنه دُعي المعبد الذي نحن في صدره وكان مبنياً لأكرام « زهرة أفقا » يتقاطر إليه الحجاج من كل نواحي الشام . وكان اهل تدمر يقصدونه في كل سنة لمناسكهم . لكنه لم يبق من هذا الهيكل التدمري غير بقايا ضخمة تنبئ بعظم شأنه . وهذه الاخربة منتشرة فوق سطح بُني على ركائز متدرجة بازاء العين ميمية الى الجنوب ومن يتأمل هذا البناء يجد بينه وبين هيكل فقرا تشابهاً في بعض اقسامه . ومن جملة الآثار الباقية الى يومنا هذا من الصوان وكثير من الحجارة الكبرى المنحوتة

وقد خرب هذا الهيكل مرتين . هُدم مرةً اولى بايعاز قسطنطين الكبير بعد تنصّره لاسباب ذكرها اوسابيوس القيصري في تاريخ هذا الملك حيث قال (١) :
« لما استولى قسطنطين على منصة الملك رقب من سمو عرشه ما نصبه ابليس من الاشراك في فينيقية لصيد النفوس . فوجد من ذلك على هضاب لبنان في موضع قفر لا تطرقه السابلة معبداً تحديق به غيضة . وكان المعبد المذكور أُقيم لبعض الاصنام الدنسة يدعى الزهرة . يتوارد اليه البغايا واهل الفجور فاضحى بذلك اشبه بماخور منه بمعبد ديني . ومع ما كان يجري في ذلك المكان من الآثام الفظيعة والارجاس الشنيعة كان الامر باقياً محجوباً عن عيان ارباب السلطة لانه لم يتجاسر احد من اهل الفضل ان يدخل المعبد ليتحقّق صحّة ما تناقلته الالسن . بيد ان قسطنطين وقف على حقيقة الامر فأمر من أخص واجباته ان يقوّض اركان ذلك الزون النجس . فتقدّم الى عمّاله بان يهدموا ذلك المقام ويكسروا اصنامهم ويتلفوا ما نُحمل اليه من الهدايا النفيسة . فأرسلت الى أفقا فئة من الجند وتمّموا اوامر الملك فلم يُبقوا ولم يذروا » . وكان ذلك سنة ٣٢٥ للمسيح امّا سكان افقا فأمروا بان يبارحوا سكتانهم فتوطّنوا بعلبك

(١) راجع الجزء الثالث من ترجمة قسطنطين لاوسابيوس الفصل ٥٥ وتاريخ سوزومان في مجموع الالب اليونان (بين ٦٢ ص ٢٤٨)

ولكن بعد وفاة قسطنطين عاد سدنة هيكل الزهرة وحاولوا بناء الهيكل ثانية . ولعلهم حققوا امانهم على عهد يليانوس المعروف بالجاحد فبقيت عبادة الزهرة مدّة من الزمان الى عهد ثاودوسيوس الكبير . ونظنّ أنّ هذا الملك شدّد الاوامر فردّ الفينيقيين عن هذه العبادة النجسة كما أبطل عبادة الاوثان في أنحاء كثيرة من مملكته . والارجح ان الاخربة الباقية الى يومنا هي بقايا الهيكل الثاني المتوهّ بذكره وخرابه بسبب احدي الزلازل التي دهمت سواحل الشام كما وصفنا ذلك في المشرق (١: ٣٤٧، ٣٠٣ و ٢: ٩٧٠) . وما يؤيد ظننا ان بعض الجدران سقطت دفعة واحدة مع بقائها على نظامها الاول . وقد وجدت الزلازل مساعداً لفعل الخراب بما كان يجري من المياه تحت الهيكل . فأنهار البناء لذلك عند حدوث الزلزال والله اعلم

١٤. مجري المياه في لبنان

لا يتمّ وصفنا السابق لينايع أفقة ولبحيرة اليثونة إلّم يُحطّ قرأونا علماً بجالة لبنان من حيث مسایل المياه في جهاته المختلفة وذلك فن يلحق بفنّ الجغرافية يدعوه الفرنج الهيدرغرافية اي رسم المياه وفي تعريف مجري المياه في لبنان فوائد مرتبطة بتاريخه ارتباطاً لا تنفصم اواريه . وقد ادرك الاقدمون ما في هذا الامر من الشأن الخطير حتى انهم اعتبروا بعض عيون لبنان ومياهه المتفجرة كآلهة حيّة اكرموا اكرامهم لعبوداتهم المختلفة . وقد أثينا بشواهد على ذلك في ذكر عين أفقة ونهر ابراهيم المخصّصين لآكرام الزهرة وقموز

ومن المعلوم ان لا خصب للتربة في الشرق اذا ما انقطعت عنها المياه او قلت كتيّتها بحيث لا تفي بحاجة الزراعة . وما بلغ لبنان من العمران ما بلغ الألفزارة مياهه وكثرة مسائله

ومن لطف الخالق ان طبقات لبنان العليا تتركّب من عناصر كلسية كثيرة التفتت نخرة ينساب الماء فيها دون عائق ويتسلسل في منافذ ضيقة ثمّ يتجمّع في مغاور تحت الجبال كأنها خزانات للباء يفيض منها الى اسافل البلاد . ومن السواعد التي تمّد الى تلك الاحواض الطبيعية المياه المتكوّنة من الثلوج الذائبة في قم

لبنان ومادتها لا تكاد تنقطع عنها ابداً فانّ جبل صَبِين مثلاً ووادي الارز والثَّرّ المحيطة بهما عبارة عن احواض من الثلوج يبلغ عمقها من ٣٠ الى ٧٠ متراً وطولها من ٧٠ الى ٣٠٠ متراً عرضاً فلا يزال مددها متواصلاً يجري الى المغاور والاوशल التي منها تحصل الجداول والانهار والبُحيرات الموجودة في باطن الجبل

وقد اخبر المهندسون الانكليزيون الذين عُهد اليهم سنة ١٨٧٣ فحص مياه نهر الكلب انهم ركبوا قارباً وتتبّعوا مجاري هذا النهر في اعماق الارض . فلما قطعوا ١٢٠٠ متر وصلوا الى بحيرة واسعة غزيرة المياه يبلغ عمقها بضع مئات من الامتار وكان ماؤها زلالاً شديد الصفاء والبرودة . وكان يتدلّى من سقف المغارة عُمد لطيفة من الماء المتحصّر (stalactites) وكانت عُمد أخرى (stalagmites) تعلو عن حضيض الارض وجوانب البحيرة فتتنصب مرتفعة كَشُوع . فحاولوا ان يقطعوا تلك البحيرة ويتقدّموا في اسراب الجبل فلم يقووا على ذلك فانفتلوا راجعين

واجتهد غير هؤلاء الانكليز من ارباب الهندسة ان يزوروا مغاور أفقة فتقدّموا في منافذها المتعددة ووجدوا جداول واحواضاً من الماء لكنهم لم يبلغوا الى نهايتها وهذا ممّا يؤيد رأي من قال ان بين افقة وبركة اليمونة وصلة تجمع بينها وهذه المياه الوافرة المخزونة في اعالي الجبال واوشالها الباطنة تنصب شيئاً فشيئاً الى الأهوية والبطاح على حسب اعطاف الجبل واسراه المختلفة . وربما وصلت المياه الى سفح الجبال بشدة غريبة فتنفجر وتفور صاعدة في الجو ثم تجري من نبعها كماها النهر في كثرة مياهه . ترى ذلك في نبع نهر بيروت وانظلياس وجعيتا وخصوصاً في نبع نهر العاصي عند خروجه من مغارة مار مارون بقرب الهرمل . وليس في الشام كهذا النبع يتفجر بقوة عجيبة من بين الصخور كأنه مدفوع بمضخة (طلبيا) قوية ثم يمتد في مسيل عرضه ١٥ متراً الى ١٧ م

ومن خواص عيون لبنان انقطاعها في بعض فصول السنة . وقد ذكرنا هذا في غضون كلامنا عن بحيرة اليمونة . وقد لحظ الاهلون مثل ذلك في نبع نهر بيروت المعروف بالديشونية كما ورد في المشرق (١: ٢٣٧) حيث علل اسباب هذا الانقطاع حضرة الاب صالحاني . وعلته يوجد سبب آخر لوقوف مياه هذا النهر وذلك اذا

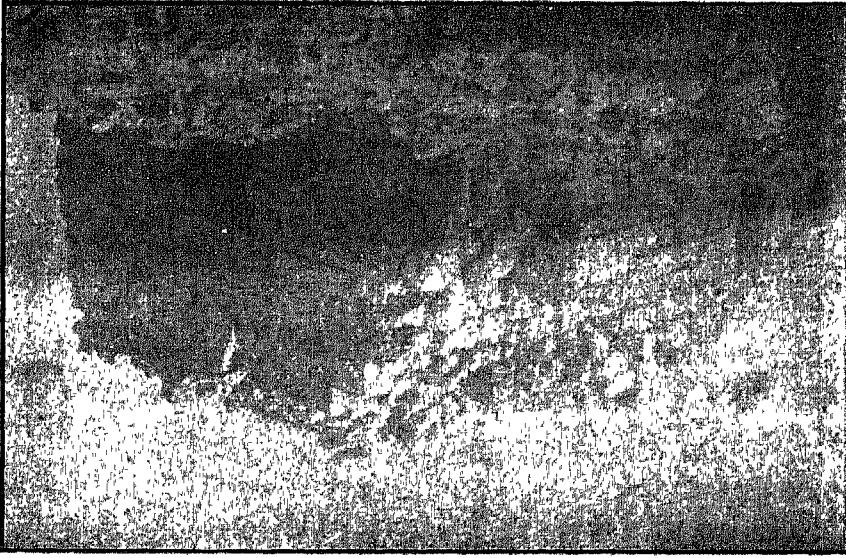
انهيار شيء من الردم والصخور فحال مدةً دون مجرى المياه . ففي غرة سنة ١٨٣٧ لما اصاب مدينة صغد زلزال هائل نقض ابنيته وهدم بيوتها انقطعت بغتة مياه نهر بيروت ولم تعد الى مسيرها الا بعد مدة وكان لونها ضارباً الى الحمرة ففهم الناس ان قسماً من الجبل تهوّر في المياه الداخلية وحجز دونها . وقد ذكرنا في البشير (في تاريخ ٢٣ ت ١ سنة ١٨٩٩) ان بعض التراب والصخور انهارت من سقف المغارة التي يخرج منها نهر الكلب فتناقصت المياه من جراء ذلك مدة ساعتين الى ان دفعت المياه الحاجز من طريقها وعادت كما لوف عادت . هذا وفي تقسّم المياه على جوانب لبنان فائدة كبرى تجدي نفعاً كل بلاد الشام فضلاً عن الجبل وحده . فكما ان النيل يجيي البلاد المصرية كلها كذلك لولا لبنان لأصبحت بلاد الشام كصحراء غامرة لا خير فيها كصحارى جزيرة العرب . فان لبنان يمتص فوق رباه نداوة البحر ويجذب الانجزة التصاعدة الى الجوّ فتتكاثف وتنزل على قمه امطاراً وثلوجاً تتوزع من ثم على جميع انحاء الشام على هيئة ينابيع وجداول ومجيرات . فلو توارى لبنان من انكون لنضب نهر العاصي والليطاني بل لبيست كل مسابيل سواحل فينيقية . وما كنت لتجد شيئاً من حدائق طرابلس ورياض بيروت وبساتين صيدا وبطاح البقاع المخصبة بل كنت ترى مغازات مقفرة تمتد مدى البصر وهي جرداء صلعاء ليس في أرمالها ديار ولا نافخ نار . فحيا الله لبنان وبياه ونفعنا بفضله وجدواه

١٥ قلعة فقرا

ان سرت صاعداً من مزرعة كفرديان ميمماً شمالها الشرقي على مسافة ساعة ونصف منها وجدت في منتصف الطريق المؤدية الى ميروبا على جنوبها ربوة قروية من جسر الحجر ورأس نبع اللبن يبلغ علوها فوق سطح البحر ١٦٠٠ متر . وعلى هذه الربوة اخربة تفوق بسعتها كل آثار لبنان لا يماثلها بامتدادها الا اخربة عين عقريم المعروفة بالناووس في مقاطعة الكورة على ان عين عقريم مع سعتها دون قلعة فقرا . هذا واننا لا نرى حاجة الى تعداد ردوم هذه القلعة كلها وانما نكتفي بأهمها وهي اربعة :

١ الهيكل . هو من المآثر الجليلة . ومن خواصه ان بُنائه نحتوا بادىً بدء

في نفس الصخر مساحةً كبرى جعلوها كأساس الهيكل واتخذوا الحجارة المنحوتة في الصخر كوادٍ لبنائهم فاقترضوا بذلك في نفقة نقل الحجارة ولعلهم قصدوا غير ذلك . وما لا ريب فيه ان الفينيقيين اتخذوا هذه الطريقة ديدناً وجروا عليها في ابينتهم المختلفة . وقد بلغ الفينيقيون في نحت الحجارة مبلغاً بعيد الشأ حتى يحال للمعتبر ان صلاب الصخور صارت طوع ايديهم يقطعونها كما ارادوا



قلعة فقرا

هذا ولم يتخذوا كجدار الهيكل ما مثل من الصخور لان الجدران لا تلاصق الصخر لأن بينها وبينه دهليزاً يفضلهما . والهيكل طوله ٣٤ متراً في عرض ١٤ متراً . وحجارة البناء متوسطة الكبر غير ان افريز الهيكل والمراقي التي بها كان يصعد الزوار والسواري المائلة في مدخل المعبد كانت فاحمة عظيمة الشان يعمل منظرها في عين الجمهور . وبقايا هذه الاخوة تنبئ بضخامتها فان هناك اركاناً وقطعاً من المعبد منحوتة في قلب الصخر لكنّها متراكمة فوق بعضها بغير نظام وعلى اسوأ حال

وأمام الهيكل ساحة رجة الجوانب طولها ٣٨ مترًا في عرض ٣٠ يُجدق بقسم منها الصخر المنتصب فوقها عمودياً . وكان سابقاً في مقدّمة هذه الساحة رواق يستند الى عمد والشاهد على ذلك ما ترى هناك من الاعمدة المحطّمة . وكانت عادة الفينيقيين ان يبتوا هياكلهم في وسط باحة رجة كما يظهر الامر في هيكل بعلبك وهيكل حصن سليمان في بلاد النصيرية . غير ان موقع فقرا لم يسمح بذلك لما يحيط بالمكان من الصخور العالية فجعلوا باحتهم بازاء الهيكل وما يقضي بالعجب عند مرأى هذا الهيكل العظيم انه بُني على قمة الجبال حيث لا ترى اثرًا للقري فان اقرب الضياع المسكونة اليوم هي اسفل من هذا المكان بنيف وثلثمائة متر

٢ البرج . وفي شمالي الهيكل برجٌ عظيم مربع الشكل والمرجح انه كان ينتهي سابقاً ببناء مخروط على هيئة الاهرام . ومن جال في داخله وجد عدّة دهايز واسراب ودرجاً يُصعد منه الى اعلى البرج المذكور (١) . وعلى جرانبه كتابتان يونانيتان يأتي ذكرهما . اما الغاية من تشييد هذا البناء فبهمة ولا نعلم أهو مرقب لرصد الاعداء في وقت الحرب وبمجرد فحس البناء لا يُستدل على شيء من ذلك . ولعاهة قبرٌ لبعض الماوكة لانّ الخاصّة لم يتأتّقوا عادةً هذا التأتّق في بناء قبورهم . على انّ الكتابتين اللتين ألعنا اليهما تنفيان هذا الافتراض لان الواحدة تذكر القيصر الروماني كلاوديوس وتعلمنا الثانية ان مشيد هذا الاثر هو احد سدنة الهيكل ابناه « على نفقة خزانة الاله العظيم » وعلى ظننا انه مشهدٌ اقيم كقبر لتموز اله الفينيقيين ولا يعتاص علينا في تقرير هذا الامر غير الدهاليز المجاورة له . ولكن من المحتمل ان هذه الاسراب احفرت لغاية دينية او بالاحرى ليتسّر فيها ارباب تلك الديانة في بعض حفلاتهم الدنسة كما مرّ بك في ذكر هيكل أفقة . وكانت هذه الفواحش تجري غالباً بجوار المعابد الدينية المخصّصة لذكر تموز

(١) وقد وصف هذا البرج وصفاً مطوّلاً هنري غويس (Guys) في كتابه الفرنساوي الحنون (Relation d'un séjour à Beyrouth et dans le Liban, II, 8) والسائح سيتزن (Seetzen) في كتاب اسفاره المكتوب في بدء عصرنا هذا (Reisen I, 248)

٣ البنية المربعة . وبازاء الهيكل الموصوف بقايا حسنة من بناية مربعة يظهر من شكلها أنّها كانت مشهداً او قبراً وهذه البناية محكمة العمل وحجارتها ضخمة

٤ البناء المستطيل . وعلى مسافة نحو مائة قدم من الهيكل من جهة الجنوب اثرٌ آخر لا نعلم من غاية بنائه شيئاً وهو على شكل مستطيل ذي جوانب متوازية وتراه منقسماً الى قسمين كبيرين او ردهتين لهما باب يصل بينهما من داخلها ليكون هذا البناء هيكلاً او كنيسة كما زعم رينان في كتاب بعثة فينيقية (ص ٣٣٧) ذلك امرٌ لا يمكن الجزم به فان هندسة هذا الاثر تخالف هيئة الهياكل القديمة والكنائس المسيحية . وزد على ذلك ان باب الكنائس كان يوجّه في القرون الماضية الى الغرب بخلاف باب هذا البناء . وقد استولى الخراب على آثاره فطمس محاسنه وذهب برونقه فتراه في حال اسوأ من بقية الاخرية المجاورة له هذا وقد سبق القول ان على مشارف فقرا غير هذه الاثار . فمن ذلك اطلال بيوت دارسة ومعاصر وقبور منحوتة في الصخر وهلم جرا . وكل هذه المباني تشهد على ان هذا الموضع كان عامراً في الاعصار الحالية وان قوماً من السكّان كانوا يقطنون بجوار الهيكل محدقين به

ولسائل ان يسأل الى اي عهد يرتقي تاريخ هذا الهيكل . جوابنا : ان الامر مبهم اذ لم يجد احد من العلماء كتابة قنبيّ بقديم هذا البناء . الا ان البرج الذي مرّ وصفه مزدان بكتابتين الاولى على جلف الباب والثانية على احدى زوايا البرج . والكتابة الاولى مطموسة لا يكاد يُقرأ منها سوى سطرها الاول يستفاد منها ان البرج شيد اجلالاً للقيصر كلاوديوس الذي جلس على منصة الملك من سنة ٤١ الى ٤٥ بعد المسيح . اما الثانية فيؤخذ منها ان تاريخ البناء وقع سنة ٣٥٥ لليونان (١ اعني ٤٣ سنة بعد المسيح وانه بُني « على نفقة الاله العظيم »

(١) ان هذا التاريخ مكتوب بالحروف الابدية ENT وقد رسم فوقها خطّ بسيط دلالة على انها اسفار عديدة لا حروف عادية . وكان السائح سيترن لاحظ ذلك في غضون زيارته لهذا الاثر وقد تحققنا نحن ايضاً الامر بنفسنا في خريف سنة ١٨٩٨ لما تفقدنا هذه الآثار . يد لنا وجدنا اللون اللاتينية (N) هيئةً قريبة تقرّبها الى الميم M

(ἐκ τῶν τοῦ μεγίστου Θεοῦ) فُزى من هو الاله المذكور ؟ على رأينا انه تموز بنفسه وقد ورد اسمه في كتابات جبيل مصحوباً بلقب العظيم (μέγιστος) ولقب الاكبر (ὀψίστος) ومن ثمَّ يجوز القول ان هيكَل فقرا كان احد المعابد المشيدة لاكرامه . ويستنتج من لقبه بالكبير او الاكبر ان الفينيقيين كانوا يعظمون في جملة آلهتهم إلهاً سما عزراً وفاق فضلاً على سواه ولعله كان في اول الامر معبودهم الوحيد ففسدت ديانتهم بعدئذٍ وتعددت آلهتهم

فما تقدم يظهر ان بناء البرج حدث في السنة ٤٣ للمسيح . امّا تاريخ الهيكَل فاننا لا نعلم شيئاً من امره . نعم ان رينان جزم بان هندسته تشبه هندسة البرج فاستنتج من ذلك انها بُنيت في زمن واحد . لكننا نحن لا نرى في قول رينان برهاناً كافياً لتقرير هذا الامر كما اننا لم نجد في هندستها شياً ظاهراً . امّا الآثار الباقية الموجودة في فقرا فعلى رأينا انها من اجيال متباينة والله اعلم

١٦ الساحل بين جونية وجبيل

(برجا وعين ماحوز ونهر ابراهيم)

قد حان لنا بعد ذكر الآثار القديمة الموجودة في مشارف كسروان ان نعود الى الساحل فنواصل سيرنا من جسر المعاملتين شمالي خور جونية الى جبيل . ومن سلك هذه الطريق وجد عدة ابراج ينسبها العامة الى القديسة هيلانة الملكة . وهي في الحقيقة اقرب منا عهداً قد ابتناها اصحابها بعد عهد الفرنج المعروفين بالصليبيين لمراقبة الساحل

ومما يستلفت انظار ابناء السبيل مرسى صغير يُدعى برجا او بالاحرى طبرجا مشتق من لفظة يونانية (τοπαρχία) يُراد بها قصبه المعاملة او المديرية . وكان لبرجا في سابق الزمان اسم آخر فينيقيّ نَمَت كانت تنسب اليه القصبه فيقال « طبرجا المحل الفلاني » (τοπαρχία X) كما نقول مديرية كذا . فلم يبق اليوم سوى الاسم الدال على رتبة البلدة ومقامها . وهذا الامر يصحّ ايضاً عن قرية أخرى تُدعى باسم برجا (او طبرجا) موقعها جنوبي بيروت عند خان النبي يونس

وُيُستدلّ من اسم برج المذكور على انها كانت على عهد ملوك القسطنطينية . بل لنا دلائل على انها وجدت قبلهم بزمان . ألا وهي المغاور والاسراب والمدافن العديدة التي يشاهدها القوم على مقربة من مرساها الصغير فوق الرُّبى المحدقة بالقرية على جانبيها . وهذه المدافن القديمة تشغل مكاناً متسعاً قلماً تجد مثله سعةً في غيرها . ولا شطط ان وكّدنا في القول انه كان ثَمَّت للفينيقيين مدينةٌ صغرى ومرسى برجا حرج قليل الاتساع وهو شبه جون تراه في الغالب بأمن من سورة الرياح . ولا بدع في ان السفن الفينيقيّة كانت تأوي اليه في الانواء وممّا ينبئ بشأن برجا في السنين الغابرة بقايا قناتها التي بها كانت تجري المياه منحدرةً اليها من الاودية المشرفة على غزير

وان سرت من برجا بعيداً عنها وجدت بئراً او عيناً يدعوها اهل تلك النواحي عين ماحوز . وقد ذُكرت في التواريخ الصليبيّة مصفحةً بَمَوْس (Maus) (١) . ولعلّ اصلها يرتقي الى ايام الفينيقيين . وهذه العين من الاعمال القديمة الحظيرة يُنزل اليها بدرج محكم الاتقان نُقر في الصخر . وكان بقرب هذه البئر في القرون المتوسطة حصن كما يشهد على ذلك الشريف الادريسي (٢)

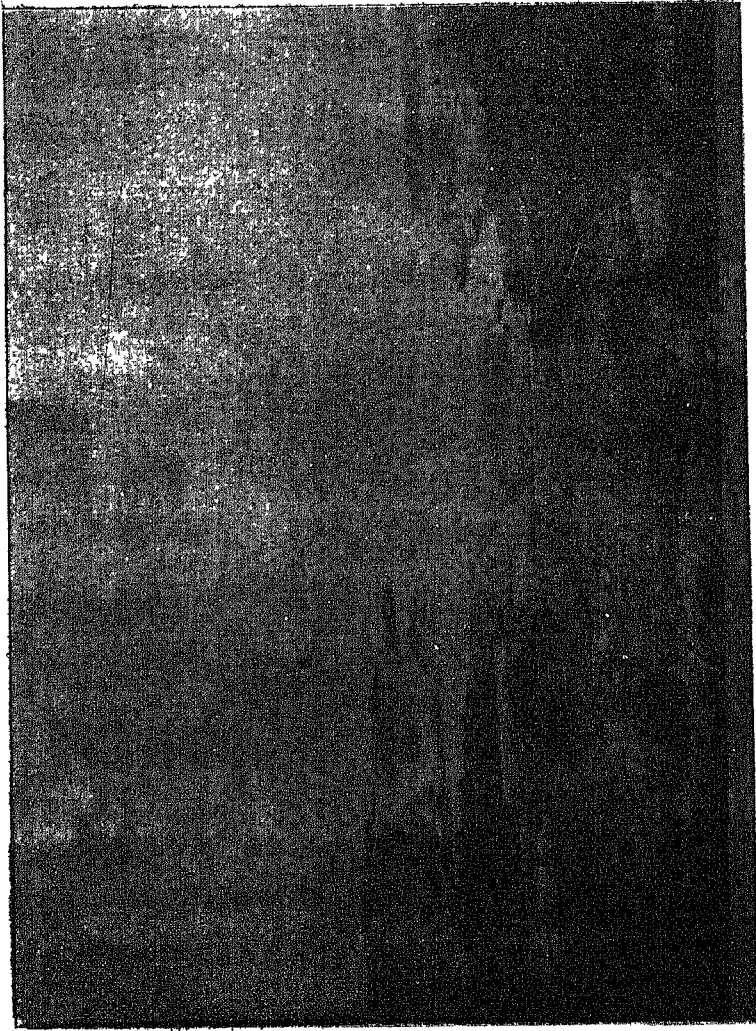
وفي شمالي عين ماحوز بقرب قريّتي بوار و صُفرة مدافن متسعة منقورة في الصخر . لها مداخل عديدة في جوانب تلك الوديان . وهذه القبور تدلُّ على وجود قرية قديمة هناك ما لم يُقلَّ أنّ بلدة برجا كانت تمتدّ الى تلك النواحي وتتّصل بها وان تابعت المسير بلغت نهر ابراهيم . وهنا مُشكل في تعريف اصل هذا الاسم الذي ورد ذكره اولاً في جغرافيتي الادريسي والدمشقي (٣) . والتقاليد المحليّة تزعم ان ابراهيم الذي نُسب اليه النهر كان اميراً على المرّدة . وما لا شبهة فيه ان الاسم القديم كان ادونيس (تموز) . وقد مرّ لنا في الصفحة ٤٣ انه اسم

(١) راجع غيليموس الصوري ك٧٢ ف ٢٢

(٢) وصف الشام (ص ١٧ ed. Gildmeister) . واعلم انّ الادريسي يذكر بين جونية وماحوز مكاناً يدعوّه « عطفة سلام » يقول عنه انه « جون كبير يبعد عن جونية عشرة ايمال »

(٣) طبعة بطرسبرج (ص ١٠٧)

احد آلهة الفينيقيين يقيم لذكور اهل جبيل عيداً سنوياً يدعونه ادوني (Adonies) ومصوب هذا النهر جميل المنظر يُدرك من رآه كلف الفينيقيين باختلاق الخرافات المتعلقة به . وفي فصل الشتاء بعد الامطار كانت المياه تطمو فيضحي لونها كمداً ضارباً الى الحمرة فكان الاهاون يزعمون ان ذلك هو دم تموز المسفوك فينوحون عليه



صورة برجا

١٧ جُبَيْل

ليس من شأننا ان نسردهنا اخبار هذه المدينة الشهيرة او نلخص تاريخ احوالها فان ذلك يقتضي كلاماً مطولاً يخرج بنا عن الحدود التي افترضناها على نفسنا في مقالتنا (١) وانما نكتفي بان نذكر فقط آثارها الجليلة التي صبرت على عمر الزمان

كانت جبيل مدينة الفينيقيين المقدسة يحجّون اليها كما يحجّ الى المزارات الشهيرة. اما موقع المدينة القديمة فان جمهور العلماء لا يرونه مختلفاً عن مكان البلدة الحديثة. وقد ورد ذكر جبيل منذ القرن السادس عشر قبل المسيح في الرسالات التي اكتشفت حديثاً في تلّ العارنة. ومما جاء هناك من الافادات التاريخية أنّها كانت على سيف البحر ولها عمارة بجرية وانّ أهلها كانوا من حذاق الملاحين. وفي نبوءة حزقيال (ف ٢٧) وتواريخ الاقدمين ما يؤيد تقرير هذه الكتابات الجليلة الشأن كما اوضحه الدكتور جول روفيه (٢) وكل هذه الشواهد تنطبق على موقع المدينة الحديثة

بيد ان جبيل القديمة كانت رحبة الجوانب واسعة الارزاء تمتد اكثر من المدينة الحالية امتداداً بالغاً. ولنا على ذلك البينات الواضحة منها قطع عديدة من العواميد وبقايا ابنية فخيمة تراها في خارج سور جبيل الحديثة. ثم ان السور الحالي ليس بقديم ولا يتجاوز عهد الصليبيين بل هو من اعمالهم. فوجود الآثار القديمة في خارجه لا يدل على انها في الاعصار السالفة لم تكن متصلة بالبلدة. ولما استولى الفرنج على المدن الساحلية في القرون المتوسطة وجدوا جبيل في حالة من الخراب يروى لها. فاخذوا في ترميمها واستعانوا لتشييد المدينة وتحصينها بمواد أخربة

(١) ومن اراد الوقوف على تاريخ جبيل فعلياً بالتحلصة التي صنّفها الدكتور جول روفيه فقرأها على مسامع نخبة من اهالي بيروت في حفلة عقدت في مسرح كليتنا ثم نشرها بالطبع في المجلة الكتابية (Revue biblique, VIII, 553) بهذا العنوان:

Gébal-Byblos, son histoire dans l'antiquité et sa nécropole phénicienne.

(٢) راجع المقالة المذكورة (ص ٢)

البنائات القديمة التي وجدوها قريبة دانية . ولعل ندره وجود الآثار القديمة في جيبيل مسيئة من اتخاذها للابنية المستحدثة . وفي عصرنا هذا تلف كثير منها في ابنية قرية عمشيت فكان اهلهما ينقلون من جيبيل كل ما يصلح لبناء مساكنهم . وهذا لعمرى مما يوجب الاسف لان بقايا ترقى الاقدمين وتقدمهم يلاشيها التمدن الحديث فيصبح لها بمثابة نواب الحدثان ومصائب الزمان بل اوخم عاقبة منها كما بين ذلك الدكتور جول روفيه

واذا زدنا على هذه عوامل الحراب الزلازل التي تلاعبت بكثير من آثار جيبيل (١) فهمنا كيف ان هذه المدينة ام المستعمرات الفينيقية لم تُبق لاجل من مآثرها السابقة الا النزر القليل

واول ما يستلفت النظر من آثار جيبيل برجها فان بقاياها الضخمة لم تعمل فيها صروف الزمان . وهو لا يزال منتصباً ينيء بعظم شأن بُنائته وموقع البرج المذكور في جنوبي شرقي المدينة له منظر خطير يأخذ بجماع لباظنه . وهو مبني بحجارة كبيرة ولعل ذلك الذي حمل أغلب الكتابة على ان ينسبوه الى الفينيقيين زعمهم الباطل ان قدم الابنية يُعرف بعظم حجارتها ووضخم موادها . وكانوا يزيدون على هذا تأييداً لرأيهم ان على البرج المذكور مسحة من العتاقة تشهد بقدومه

بيد ان ذوي الخبرة من المهندسين واصحاب العاديات اُبتلوا هذا الزعم بعد الفحص المدقق وبيّنوا بدهاين مقنعة ان هذا البرج من عمل الصليبيين في القرون المتوسطة . وسندهم في ذلك الى ما يجحد بالبرج الكبير من الابنية الثانوية وهي عبارة عن بروج صغرى لا سبيل الى نسبتها الى الفينيقيين لا يدخل في تركيبها من المواد المأخوذة عن ابنية اقدم عهداً شادها اليونان والرومان كاعمدة من الصوان أُدرجت في جدران هذه البروج . وهذا الامر شائع في ابنية الصليبيين بخلاف الامم السابقة لعهدهم . اعني انهم كانوا اذا دخلوا بلداً انتفخوا بخرائب آثاره القديمة كالمياكل والقصور فيتخذون موادها لابنيتهم الجديدة ويستغنون بذلك عن

نقلها من المقاطع . فاذا ثبت ان هذه البروج الصغرى هي للصليبيين يصح القول ان البرج الكبير هو ايضاً من آثارهم لما بينه وبينها من الشبه في هيئة الحجارة وطريقة التّحت فان حجارة كليهما نتواً متشابهاً ولهيئتها عتاقة واحدة (١) مع ما ترى بين حجارتها من الاختلاف في الكبر . وهناك ايضاً عدة تفاصيل هندسيّة عُرف بها الصليبيون دون غيرهم منها شعار البتّائين وعلاماتهم وقطع كتابيّة يونانيّة ورومانيّة أُقحمت في البناء بلا نظام

هذا واننا لانكر ان الحجارة الكبيرة التي تُرى في البرج الكبير هي من نُحت الاقدمين وقد بيّنا غير مرّة لاسيما في خلال كلامنا عن دير القلعة انهم كانوا يخبون اتخاذ مواد ضخمة لبنائاتهم . لكن الصليبيين نقلوا هذه الحجارة التي وجدوها فاتخذوها لشؤونهم الخاصّة

امّا آثار قدماء الجليليين فقليلة جداً . منها عدد كبير من العواميد تراها في كل انحاء البلدة حتى يسوغ ان ندعو مدينة جبيل مدينة العواميد . وقعر ميناها الصغير مفروش كلّهُ بهذه العواميد . وهي من الصوان الصلب قد نُقلت من بلاد مصر بجرّاً . ولا نشكّ في انها كانت داخلةً في الهياكل والمعابد العديدة التي كان يتباهى بها اهل جبيل لانّ مدينتهم كما سبق لنا القول كانت مركز الديانة الفينيقيّة يحج اليها اهل البلاد ليتيمّنوا بزارها . وكان للبلد ايضاً اروقة واسعة قائمة على مثل هذه العمد في صدر الشوارع الكبرى كما كان شأن المدن الرومانيّة في ذلك العهد

ومّا يستحق الذكر ايضاً بعض قوائم ومساند كانوا يضعون فوقها التماثيل . ومنها ايضاً مذابح صغيرة وحجارة عليها كتابات لا يسعنا هنا تعدادها ووصفها واكثرها قد نُشر بالطبع في اوربة . وقد اسعدنا الحظ على وجود بعض منها كتبت باليونانيّة لم تسنح لنا الفرصة حتى الآن بنشرها

(١) وهذه العتاقة ليست بدليل قاطع على قدم هذه الابنية وانما هي لاحقة بصف الحجارة الرملية التي تستعمل في (الساحل . فان ابخرة الحجر والرطوبة تعملان فيها عملاً سيئاً فيظنّ من يراها انها عريقة في القدم مع انها حديثة . وترى مثل ذلك في بعض بنايات بيروت التي لا يتجاوز عهدها ٣٠٠ سنة

فهذه غاية ما نرى الى ذكره سبيلاً عن عاديّات جيبيل الباقية في ضمن سورها . وهي لعبري نزره بالنسبة الى شأن هذه المدينة وخطرها . ولا غرو ان تحت ردمها آثاراً جليلة وكنوزاً علمية سوف يطلعون عليها المستقبل اذا ما تيسر للعلماء ان يحفروا حيث شاوروا . وما يزيدنا ثقةً بهذه الاكتشافات ان اهل جيبيل كثيراً ما يجدون في املاكهم امتمّة شتى غالية الثمن يبيعونها خفيةً للاجانب كالتماثيل والنقود والقطع المعدنية الى غير ذلك ممّا لا يمكن ضبطه وتدوينه في كتب آثار بلادنا ومن ابنية الفرنج في جيبيل كنيسة مار يوحنا المارونية . وهي كانت سابقاً ارحب منها اليوم وعلّمها كانت مزينة برواق في صدرها . وهندستها كهندسة كنائس الصليبيين ذات ثلاثة اقسام مقيّنة تنتهي بمخايا . ونقوش اكلّة عمدها في قسمها الكبير تجمع بين الطرزين الهندسيين الفوتي والكورنتي .

وبقرب الكنيسة جرن للعماد غاية في اللطف والدقة وهو عبارة عن قبة كئصف كرة تستند الى اربع اقواس على شكل بيضوي وتري فوق ثلاث اقواس منها اشغالاتاً هندسية وزيناً حسنة . اما القوس الرابعة فلا تُرى لانها مستندة الى جدار الكنيسة (١)

واذا ما خرجنا من سور البلدة لقينا كما في داخلها كمية وافرة من عواميد صوان متكسرة . ومما اكتشف حديثاً في ارض تخصّ عبد الواحد افندي اساس بناء فخيم اشبه بهيكل . والاساس المذكور بالغ العمق يدخل منه الى اسراب غريبة الشكل لا تُعرف غايتها . وفي المكان عينه وُجدت قطع تماثيل ونقوش من الرخام الابيض

مدافن جيبيل

ومن آثار جيبيل الغريبة قبورها القديمة ومدافنها وكان موقعها خارج البلدة ليس بعيداً عن اسوارها . الا ان هذه المدافن المعروفة اليوم ليست مدافن الفينيقيين وانما هي احدث عهداً كما ارتأى ذلك الدكتور روفيه في بحثه السابق الذكر ولعلنا نسمع

عمّا قليل بشرى اكتشاف نواويس جبيل الفينيقية فينتفع بها العلماء كما انتفعوا
بأكتشاف نواويس صيدا.

واليوم يصعب علينا ان نُقدّر سعة مدافن جبيل وشكلها بعد ما حلّ البلدة
من التقلبات المتواترة وامتداد الرمل على قسم كبير منها . والارجح ان مكانها
المخصوص بها كان في شرقي البلدة وجنوبها

وفي هذه المدافن لم يُكتشف الى يوم تاريخنا شيء من الآبار التي كان الفينيقيون
يؤثرونها لقبور موتاهم كما ترى في صيدا وغيرها من المدن الساحلية . على ان عدم
اكتشافها ليس بسبب كافٍ للجزم بعدم وجودها كما زعم المسير ريثان (بعثة
فينيقية ص ٢٠٦) . واننا نرجح مع المسير رؤيته وجود مثل هذه الآبار ولو لم
يتوصّل احدٌ بعد الى اكتشافها . لكنّ جبيل لا تخلو من المغاور المخصوصة
بدفن الموتى الاقدمين . وقد وجدوا ايضاً حفراً منقورة في الصخر ونواويس لهذه
الغاية نفسها

اما المغاور فعلى ضربين منها طبيعية وجدها الانسان فاستخدمها لدفن امواته .
ومنها صناعية حفرها بيده لهذه الغاية . وبين المغاور الطبيعية ما كان عهدهُ قديماً
جداً يشبه الكهوف السابقة لزمان التاريخ التي وصفها حضرة الاب زومفن في
المشرق (١ : ٩٧ و ٣٥٣) احسنها المغارة التي تُشرف على مسيل ماء في لُح ف ضيعة
قصبية على مسافة نصف ساعة من شرقي جبيل . وهي قريبة الشبه بمغارة انطلياس
(المشرق ١ : ١٠٢) المرتقية الى طور الطران . وقد نُقر في جوانبها الداخلية
مخادع كانت تجعل فيها الموتى . وفوق احداهما نقش يمثّل محاراً من الصدف الملثوي
لعلهُ من عهد الرومان

ومداخل هذه المدافن تنفتح عمودياً او ببعض انحراف في وجه الصخور . ومنها
كثير في الوديان المجاورة لجبيل وفي الصخور التي تطلّ على البحر . وفي بعض
الآونة ترى لهذه المدافن نقشاً قليلاً ويدخل اليها على سواء الرجل وربما وجدت لها
حجرة او أكثر كانت تشتمل سابقاً على نواويس انتهك حرمتها قومٌ من طالبي الحبابا
وباطعي العاديات لم يبقوا منها الا قطعاً محطمة . وفي الغالب لا تجد في هذه المدافن
الا حفراً كالأفران منقورة في الصخر

وتاريخ هذه المدافن لا يمكن تعيينه بالضبط لاسيا بعد ان نُزعت منها اجهزة الدفن وُسلبت امتعته كما سبق ولو بقيت لاستطاع العلماء ان يستدلوا بها على عهدها . اما الكتابات فلا يرى منها الا النذر القليل وهي كلها يونانية ورومانية . وعليه فلا يتفق علماء الآثار العاديّة على تعريف عهد هذه المدافن . ومنهم من زعم انها سبقت فتح الرومان للشام . وقد ارتأى رينان ان بعضها يرتقي الى ايام الكنعانيين

امّا الدكتور روثيه فانّ رأيه ان هذه الكهوف كلها من عهد الرومان . وقد دعم قوله بحجج حسنة ترجح رأيه دون ان تزيل كل الشبهات . ومن براهينه انّ ما وُجد من العاديّات في هذه المدافن منذ ٥٠ سنة لا تصح نسبتها الى غير الرومان فيستنتج من ذلك انّ المكتشفات السابقة لهذا التاريخ كانت ايضاً رومانية . (نقول) ان هذا الدليل لا يخلو من القوّة لكنّه ليس بجازم لان كثيراً من هذه العاديّات لا تزال مخفية لدى فاتحي هذه المقابر . وكذا نقول عن البرهان الثاني حيث بينّ الدكتور ان الثواويس والنقود التي وجدت في هذه الكهوف كلّها من عهد ملوك الرومان . فأننا نسلّم لجنايه بقوّة هذه البيّنة لكننا لا نجسر ان نحكم في ذلك حكماً فصلاً ريثما يتمّ البحث المدقّق في مستودعات هذه الكهوف . كما انه لا يجوز ان نبني على هذه الاكتشافات الجزئية احكاماً عموميّة عن عادات الجيبيليين في دفن موتاهم

هذا واننا نوافق المسير روثيه الموافقة التامة في نسبه بعض المدافن الى الطور اليوناني الروماني وهي : ١ المدافن ذات الطبقتين الواقعة في الرملة التي تُرى جنوبي الطريق المؤدية من جيبيل الى بيروت . ولكل قبور هذه المدافن منافذ على شكل أقواس . ٢ المغارة الواقعة على مقربة من المدافن السابق ذكرها اتخذها ايضاً القدماء كمقبرة وحضيضها مبلّط بالفسيساء . ٣ بعض كهوف اخرى طليت باللاط ومنها ما هو مزين بالتصاوير . فهذه بلا شك ليست من اعمال الفينيقيين ولكن من المحتمل ان تكون سبقت تاريخ الميلاد بقرن واحد او ازيد على مثال صفائح القبور التي وجدت في صيداء قبل سنين قليلة وقد نشرنا كتاباتها في محلّة

العاديّات (١) . ٤ بعض مدافن مقبّية . ومن المعلوم ان الفينيقيين الاقدمين لم يستعملوا القبر

نواويس جبيل

نواويس جبيل كنواويس غيرها من المدافن الفينيقيّة . لكنهم لم يجدوا حتى الان فيها الا نواوساً واحداً يتّخذ هيئة الجسم البشري (Sarcophage anthropoïde) وهو اليوم في متحف اللوفر . والنواويس الحشويّة لا اثر لها في جبيل مع كثرتها في غيرها من المدن الساحليّة . اما النواويس من الرصاص والآجر والحجارة والرخام البلدي مع اطباقها المحدثّة فهي اشبه بشيء بنواويس بلاد فينيقيّة من حيث هيئتها ونقوشها

وقبل ختام هذا الباب لا بدّ ان نثبت هنا قولاً لرينان بخصوص اثقاب وشقوق مختلفة الشكل وفي الغالب مستديرة تُرى في قعر النوافذ الداخلة في قلب الارض . فظنّ المسيورينان انّ العملة الذين كانوا يحفرون هذه المقابر كانوا يسبرون متانة الصخر بادواتهم قبل حفره ليعلموا ما سيلقون في شغلهم من المشقّة وقد ردّ الدكتور روييه على زعم رينان بما لا يُنقض من الحجج فيبين انّ هذه الاثقاب ليست بصناعيّة وانما هي صدوع طبيعيّة كثيراً ما تحدث في الحجارة الرملية كما يُستدلّ على ذلك حيثما شاعت هذه الحجارة وقد رأينا كمثل هذه الشقوق في جبيل نفسها خارجاً عن المدافن

فهذا نظراً عموميّاً لخصنا فيه ما يُعرف عن جبيل وآثارها . فعاديّاتها كما ترى قليلة ولكن لا يجوز للعلماء ان يياسوا من وجود آثار غيرها . ولقد اساء رينان لمّا قال عن جبيل انّه لا يؤمل اكتشاف شيء جديد فيها . وكان دأب هذا الرجل ان يبحث دون تروّ كافٍ عن العاديّات ولمّا لم يعثر في جبيل على ما كان ينتظره جزم بان هذه المدينة خلوة من المآثر القديمة

اما نحن فنؤثر رأي الدكتور روييه حيث قال في خاتمة مقاله عن جبيل :

« انشأنا نعتبر جيبيل ومدافنها الفينيقية كأنها مجهولة تماماً . ونظن ان آبارها المتخذة لدفن الموتى قد سُدت أفواهاها مع صفائح قبورها بالرمل والتراب المنقول الى هذه المدافن من التلال المجاورة فأُخذت تلك التلال كجنائن وبساتين وصارت المدافن مطمورة في قعر الارض . ولكن لنا الامل الوثيق ان سيتوصل عمّا قليل اصحاب الهمة الى هذه القبور المكونة في اعماق الارض . ولنا ضمير لتحقيق آمالنا في ما شاهدناه في مدافن صيدا التي فيها وُجد قبر الملك تبنيت وعدة من نفاس الآثار تحلب عقول الزوار في متحف الاستانة العلية . والفضل في اكتشافها عائد الى سر مهندس ولاية بيروت السابق بشارة افندي

« ولعل سعة حدود هذه المدافن الباقية في العمق كسعة المدافن التي أُخذت بعدئذ بدلاً منها . اذ مركزها فالارجح انه على مسافة ١٠٠٠ او ١٥٠٠ متر من المدينة على منحطف الرُّبى المجاورة . هذا ما يظهر لنا بالحدس والتخمين وهو سيل ننهجه لمن يأتي بعدنا باحثاً في عاديّات جيبيل (١) »

١٨ بلاد جيبيل

بلاد جيبيل شأن خطير في التاريخ وعلم العاديّات . وذلك لان قاعدة تلك الانحاء كانت اصبحت في عهد الرومان مركزاً لعبادة تموز فصارت الضواحي التابعة لها كحرم لا يجوز انتهاكه . وكانت الجماهير تحج الى هذا القطر لتكرم الاماكن التي تحيلتها كموقع لما تموز واعماله المختلفة . ولذلك لم تكدرية من الرُّبى التي تجاور مدينة جيبيل تخلو من معبد تنبى آثاره الباقية بعظم شأنه . ومما كان يزيد هذه النواحي حسناً وبهجة ان لبنان كان في ذلك العهد مجالاً بابهي حلل الطبيعة تزينه الغابات الكثيفة وتظللها الاشجار الباسقة فكان اشبه بجبال الالب التي هي اليوم فخر سويسرة ومصدر ثروتها (راجع مقالتنا في جبال الالب ولبنان . المشرق ١: ٧٢١) . فكنت ترى لكل معبد غيضة تحقد به وقد

(١) وفي الواقع قد وُجدت في جيبيل بعد كتابتنا لهذه الفصول آثار أخرى قد وُصفت في

فوقه افنانها الوارفة كما ترى اليوم في بلاد النصيرية المزارات والمقامات على آكام
تكتنفها ضروب الاشجار كأنها قلاند الزمرد
اما الاثار الباقية فمنها ما هو مطور في الارض ومنها ما تحذه الخلق لبنايات
مستحدثة كالكنائس والبيع يدل عليها كتابات قديمة طُمس بعضها او نقوش
متقنة الصنع تراها في الجدران او صفائح محطمة ألقى حطامها في زوايا الكنيسة
او انصاب مخروطة وعتبات مستطيلة الى غير ذلك بل وجدنا مذابح بعض
الكنائس مبنيةً بججارة المذبح القديم نفسه . واذا طُفت حول هذه الكنائس
رأيت آباراً او صهاريج او احواضاً او قبوراً منقورة في الصخر كلها شاهد على
الازمنة الخالية

بَلَّاط

موقع هذه القرية على مقربة من قصوبة في جنوبها . كنيستها على اسم النبي
العظيم مار الياس وهي مبنية بججارة هيكل قديم كان هنالك . وفي جدرانها بعض
قطع من تماثيل رومانية متحطمة وفي داخلها اربع كتابات يونانية يستفاد منها ان
الهيكل القديم الذي قامت الكنيسة مقامه كان على اسم الاله العظيم (Δὴ μὲν(σθῶ))
وهو البعل كبير آلهة الفينيقيين او تموز قرينه ونائبه في بعض الامكنة (راجع المشرق
٢ : ٦٢) . ولهذا الكتابات تاريخ يقضي باعتبارها كاقدم الكتابات اليونانية في
لبنان فانها ترتقي الى السنة ١٩ قبل المسيح
ولبلاط مدافن قديمة وقبور منقورة في الصخر أحكمها صنعا ما يُرى غربي
المدينة . وهي عبارة عن ستة اجران متلاصقة متجانسة الشكل غاية في الاحكام
نُقرت في الصخر بعد قطعه وتسويته واهل بلّاط يجدون عدداً وافراً من
العاديات في قريتهم وضواحيها . ولو باشر العلماء . ثم حفريات منظمة لوجدوا فيها
ما يسرهم ١)

ادّه

هي في شمالي حبوب وشرقي شمالي جبيل . من آثارها القديمة مواد كنيستها

(١) راجع كتاب بثة فينيقية ل لبنان ص ٢٢٣ ورحلة دوسو الى سورية سنة ١٨٩٥ ص ٥٠

القائمة على ذكر القديس جاورجيوس . فانّ هذه المواد قد استخرجت كلها من ابنية عادية . ومن اعتبر جدرانها وجد في خلالها قطعاً شتى من العمّد والحجارة المطلّفة . وقد انتزع المسيو رينان عتبة الكنيسة وارسلها الى متحف اللوفر في باريس . وعليها يُرى نقش من الرموز الشائعة في الدين الفينيقي وهو يتّكّل كوة ملتفة حولها حياّت تجتمع اذناها من فوق . والكرة المذكورة بين جناحين منتشرين على جانبيها . وكان لبيت العماد الذي قرب كنيسة جبيل حجر فيه مثل هذه النقوش الا انه احدث عهداً من العتبة السابق ذكرها (راجع ص ٦٣) . وهذا الحجر نقله ايضاً رينان الى باريس

وفي نواحي اده معابد كثيرة كانت في سابق الدهر هياكل للاصنام ومنها ما هو مزدوج . وسنعود ان شاء الله الى ذكرها عند كلامنا عن كنائس لبنان المارونية القديمة

عمشيت

عمشيت قرية جديدة بالنسبة الى غيرها من القرى المجاورة . وليس فيها من اثر ثابت يوذي بالقول الى وجودها في الطور اليوناني الروماني وهي اليوم بلدة معتبرة اخذت في النمو منذ اوائل القرن الحالي . اما الكتابات العديدة التي يجدها الناس في عمشيت فكلها منقولة اليها من جبيل او ضواحيها (١)

عبادات

فاذا رقبنا الان الى مشارف لبنان وجدنا في طريقنا كنيسة شامات المزدوجة التي فيها آثار هيكل من الطرز الايوني (ionique) ترى عمدها من داخل الكنيسة . وفوق شامات على . سافة نصف ساعة منها عبادات او عبيدات ترى في جدران كنيستها عند بابها الخارجي كتابة يونانية كتبت في ايام انطونينوس (٢)

(١) راجع بثّة فينيقية ص ٢٣١ ورحلة دوسو ص ٦

(٢) هذا الاسم مشترك بين انطونينوس المعروف بالبسار و مرقس اورليوس انطونينوس

قيصر وهي ذات شأن لتاريخ الديانات في لبنان . والكتابة على اسم « المشتري السماوي الاعظم السارناتي » (Σαρνατος) المشفع ، وقد اختلف في شرح الصفة « سارناتي » والارجح انه نسبة لاسم هذه الضيعة القديم فدعي به البعل المعبود فيها وفي تراكم هذه النوعت والصفات اشارة الى معبود اعظم متفرد بالجلال هو الرب سبحانه وتعالى الذي لا إله غيره كان القدماء اشركوا به معبودات ثانوية فتأهوا في بيداء الشرك

بجديدات

في بجديدات ايضاً آثار قديمة متعددة . سيأتي الكلام عن كنيستها ونقوش جدرانها . اما مذبحها الحالي فهو المذبح القديم نفسه الذي كان الوثنيون يقدمون عليه تقادمهم . ومثل هذا المذبح في كنيسة مار اما بجوار اده . ولا تخلو بجديدات من الكتابات القديمة اليونانية لكن اكثرها مطموس لا يسعنا هنا ان نذكر ما ورد في شرحها من الآراء المتباينة بلا فائدة للقراء

جربتا

في جربتا وهي قرية قريبة من بجديدات اجمل نقش حفره القدماء في لبنان على وجه الصخر . وهذا النقش عبارة عن نُقْرة مستديرة ترى في اعلاها شلو بعض الآلهة وتحت التمثال المذكور مذبح وعلى الجانبين شخصان رجل وامرأة واقفين في هيئة السجود وترى شخصين آخرين يسوقان الضحية ويحملان كل لوازم الذبيحة . وهذه الصورة قد صبرت على ممر الدهر الا ان رأس الاله قد حطم فيها عمداً . ورسمها حسن يشهد لمصورها بالحذق ودقة الصناعة فانه اجاد كل الاجادة بتتمثيل حركات الاشخاص ولبسهم وهيئاتهم المختلفة . ومن فوائد هذا الاثر انه يدلنا على لبس قدماء الفينيقيين فضلاً عن تعريفه لديانتهم . وعلى مسافة قريبة من هذه الصورة كهوف ومدافن منها اشقت جربتا على الاصح اسمها اليوناني (Κρούστη) اي مغارة

فيجوز ان تنسب الكتابة لكل منها فيكون تاريخها اما سنة ١٥٤ - ١٥٥ او ١٧٧ - ١٧٨ بعد المسيح

معاد

لا ريب أن معاد كانت في سالف الاعصار ضيعةً مهمةً ومركزاً خطيراً . وفي القرون المتوسطة بُني لها قلعةٌ . وكنيستها نعدُّها طرفةً من طرف الايام نذكرها في جملة الكنائس القديمة المعتبرة . وممَّا اكْتُشِف فيها كتابة يونانيةٌ للاله سَتراپ تاريخها السنة الثامنة قبل المسيح ارسلها رينان الى باريس . ومن خواصها كثرة اغلاطها . مما يدلُّ على ان حافر الكتابة كان يرسم الرسم دون ان يفهم مضمونه . وهذا كثير في الخطوط اليونانية القديمة المكتشفة في لبنان كما ترى مثلاً في كتابة دوما . وهو من البراهين التي تنبئ بان الفينيقيين لم يتقنوا التكلم باللغة اليونانية

وان سأل سائل تُرى من هو هذا الاله سَتراپ . اجبنا ان السَتراپ عند اليونان كالمرزبان عند العرب وكلاهما يدلُّ على رئيس الفرس وسيدهم المتولي امورهم بالنيابة عن الملك . فيكون الاله المذكور في كتابة معاد دُعي بذلك ايام دولة الفرس في فينيقية . فسَمَّوه سَتراپاً اي سيداً كما سمَّوا غيره من الالهة « بعلأ وملوخاً » وكلاهما بمعناه يراد بهما السيد والملك . وان اعترض المعارض بقوله ان المرزبان دون الملك مقاماً فكيف دعي به الاله العظيم . قلنا ان المرزبان كان في عين الشعب كالوالي والحاكم الاكبر الذي يعودون اليه في كل امورهم ابعد الملك الاعظم عنهم . فاعتادوا اكرام الوالي المذكور حتى صار لديهم بمنزلة الملك عينه . ثم نسبوا اليه قسماً من الصفات الالهية كما كانوا ينسبونها للملوك . وكذلك ترى كثيراً من الصفات الالهية كانت في بادئ الامر تدلُّ على رتبة مقصودة ثم نقلها العامة شيئاً فشيئاً للدلالة على السلطان المطلق والاله الاعظم كما ترى في غير ذلك من اسماء اللاهوت كالبلع وأدون وملوخ وكلها انتقلت عند الفينيقيين بالمجاز من معناها الاصيلي الى معنى الاله الكبير المتعالي

مها كان من امر هذا اللقب فانه من المقرر ان اسم الاله سَتراپ لم يُر ذكره في غير هذه الكتابة الحجرية . على ان بوزانياس المؤرخ كان ذكره في كتابه

السادس (ف ٢٥ و ٢٦) جَاءَ اِكْتِشَافُ هَذِهِ الْكِتَابَةِ مُوَيَّدًا لِقَوْلِهِ (١) وَتَرَى مِنْ
ثُمَّ مَا فِي دَرَسِ الْآثَارِ الْقَدِيمَةِ مِنَ الْفَوَائِدِ لِمَعْرِفَةِ التَّارِيخِ . وَلَا يَقُولَنَّ قَائِلٌ أَنَّ هَذِهِ
الْأَشْيَاءَ زَهِيدَةٌ لَيْسَ تَحْتَهَا كَبِيرٌ أَمْرٌ . أَجْبَنًا أَنَّ الْعِلْمَ فِي الْغَالِبِ مُتَوَقِّفٌ عَلَى مِثَالِ
هَذِهِ الدَّقَائِقِ فَإِذَا جُمِعَ شَتَاتُهَا نَجْمٌ عَنْهَا فَوَائِدٌ لَمْ تَكُنْ فِي الْحِسَابِ فَكَأَنَّهَا اشْعَثَةُ
النُّورِ تَبِيدُ إِذَا ضَمَّ بَعْضُهَا إِلَى بَعْضِ سُلْطَانِ الظَّلَامِ وَتَقَرَّرَ اسْمُ الْحَقَائِقِ وَأَجْلَاهَا



١٩ احوال لبنان في القرن الرابع عشر قبل المسيح

وفقاً لما ورد في مراسلات تلّ العارنة

كثيراً ما اشرنا في سياق كلامنا عن آثار لبنان الى مراسلات تلّ العارنة .
فأحببنا ان نستطرد الى وصفها لما ينجم عن معرفتها من الفوائد الجمّة المربة عن
احوال بلادنا قبل تاريخ الميلاد باربعة عشر قرناً . فان هذا العمري عهد قديم ما
كنّا نلجؤ قبل عشرين سنة ان نقف على شيء من اخباره . فأتى هذا الاكتشاف
في حين لم تهجس فيه الضمائر ولم يخطر على بال . أمّا الفوائد التي تُستخلص من
المكاتبات فقد ألحقتها بأثار بلاد جُبيل لكثرة ورود اسم هذه الناحية فيها
فنقول :

ان تلّ العارنة مزرعة صغيرة مجاورة لوادٍ موقعه جنوبي مدينة النيا في الصعيد
على مسافة ٨٠ كيلومتراً منها عند ضفة النيل الشرقية . والوادي المذكور تحيط به
الصخور وهو يُدعى باسم المزرعة المئوه عنها . وفي هذا الوادي بقعة واسعة تمتد
مباشرة من قرية « شيخ قنديل » وكان على وجهها أطلال وأخربة قديمة . اما
الصخور المجاورة فكانت قد نُفرت فيها مدافن ترينها النقوش والكتابات
الهيرغليفية استنتج منها العلماء انّ ثُمّت ازهرت مدينة « خوت اتن » او « خوت

(١) راجع بحثنا ههنا ورد في المجلّة الاسيوية الفرنسية عن الاله سناب المذكور

(J. A., 1877² p. 157)

ناتن (١) « كرسى ملك فرعون مصر المدعوّ امينوفيس الرابع وكان هذا الملك بنى تلك المدينة نحو سنة ١٣٨٠ قبل الميلاد وبقيت مدّةً الى ان خربت بعد وفاته ولما كانت بعض شهور سنة ١٨٨٨ بينا كان قومٌ من الفلاحين يحفرون بجوار هذه الاخربة اذ عثروا على صنابير خشب مملوءة من قطع الاجر كلها مكتوبة على وجهها باسطر متلاصقة ناعمة . فسُـرّ الفلاحون بهذا الاكتشاف واملوا من بيعه ربحاً طائلاً . وحملهم طمعهم الى ان كسروا اكبر هذه الالواح فجعلوها قطعاً ليزيد بذلك عددها ورجحهم معاً . ولعلّ جهلهم كان اودى بهذه الكنوز الدينية لولا ان الخبر بلغ مسامع اولى الامر فبادروا حالاً الى تلافي الضرر وضبطوا ما وجدوه من الاجر ومنعوا كسره وتشتيت قطعه . وقد نال المتحف البريطاني النصيب الاوفر من هذه الكتابات فانّ منها هنالك ٨٠ آجره كبرى حسنة . اما المتحف المصري فاصاب منها نيفاً وستين قطعة . وفي دار عاديّات برلين منها ١٨٠ قطعة دون القطع السابقة كبراً وكذلك تمكّن بعض الخواصّ لحصلوا على قطع صغرى ابتاعوها لنفوسهم

وما عتّم العلماء ان عرفوا ان الكتابات المرقومة على الاجر هي الكتابات المسمارية البابليّة وانها تشتمل على سجلّات الدولة في ايام امينوفيس الرابع وابيه امينوفيس الثالث فكان لهذا الاكتشاف احسن وقع لدى المستشرقين وان سأل سائل كيف دخلت اللغة البابليّة في سجلّات ملوك مصر ؟ أجبنا ان الامر لا يخلو من بعض الشبهة . وقد ذهب قومٌ من العلماء الى ان اللغة البابليّة كانت في ذلك العهد اللغة الرسميّة بين الدول الشرقية كما ترى اللغة الفرنسية في ايامنا . وذهب غيرهم كالاب ديلاتر اليسوعي الشهير (٢) الى ان اهل الولايات الشامية في زمن مكاتبات تلّ العمارنة كانوا يتكلّمون باللغة البابلية وهو عندنا الرأي الارجح . على اننا بقولنا هذا لا ننفي وجود لسان غير اللسان الاشوريّ اخذ منذ ذلك الحين

(١) لم يتفق العلماء على كتابة الاعلام الواردة في رسائل تلّ العمارنة فاتبعنا ما رأيناه اقرب الى الصواب

(٢) راجع كتابه في بلاد كنعان على عهد الدولة المصريّة :

Le pays de Chanaan, province de l'ancien empire égyptien, (p.26 - 30)

يترج بلغة بابل يزيد بذلك اللغة الكنعانية التي يظهر منها بعض الآثار في رسائل تل العمارنة . وهذه اللغة الكنعانية هي التي تغلبت بمدنئذ في أنحاء الشام وطلمست (بفرعيها العبرانية والفينيقية) آثار لغة اشور . وهذا يطابق ما نعرفه من احوال بلادنا فان اهله كانوا قبل عهد المسيح بثلاثة آلاف سنة قبائل سامية من البابليين ثم لم يزل يهاجر الى سورية جيل من الناس نُسبوا الى الكنعانيين حتى غلب هذا العنصر الكنعاني العنصر البابلي وقام مقامه (١)

وعليه ان اول فائدة تُستفاد من مكاتبات تل العمارنة انما هي شيوع اللغة البابلية في لبنان مع ابتداء انتشار الفينيقية . وترى التراكيب الفينيقية في رسائل اهل الساحل لاسيا جليل وبيروت اكثر منها في غيرها . فيؤخذ من ذلك ان سورية كانت وقتئذ كضمار يتجارى فيه شعبان كبيران : البابلي وهو المتولي على الارض المالك عليها تحت سيطرة فراغنة مصر . والكنعاني الذي ينمو ويزداد يوماً فيوماً الى ان ثبتت دعائمه وامتدت اطنابه واستولى على السيادة بدلاً من خصمه المدحور وغلب اغتته على لغته

*

ومن بعد هذه المقدمة يترتب علينا ان نبحث عن مضمون مكاتبات تل العمارنة فنقول ان هذه المراسلات تُقسم الى قسمين : الاول يشتمل على الرسائل التي بعث بها الى فراغنة مصر أقيالُ آسية وملوكها غير الخاضعين لدولة المصريين كالحثيين وملوك العراق وبابل واشور . اما القسم الثاني فانه يتضمن رسالات انفذها الى ملوك مصر او وزرائها ولاة وامراء عديدون من سورية وفلسطين . وكانت بلادنا في ذلك العهد تحت حكم مصر فيستشف من مطاوي كلام الكتبة التذلل والتواضع كما يكتب العمال الى سادتهم بل العبيد الى اولياء امرهم وفي مقدمة هذه الرسائل اسم الكاتب على هذه الطريقة : « عبدك فلان » او « فلان عبدك من مدينة كذا » او ايضاً « فلان كلب الملك » . ولا ترى احدًا من هؤلاء الكتبة يلقب نفسه بملك او امير بل يكتبني باسم « خزانو » وهو

(١) راجع كتاب المعلم فنكلر H. Winckler : Die Völker Vorderasiens

الحاكم أو الوالي . وقد ورد في رسالة حاكم جبيل « ريب أدّي » أو « ريب أدّي » قوله للفرعون : « لاي سبب جعلني الملك خزانو » فاستدلّ المستشرقون من هذا الكلام ومن غيره أنّ رتبة « الخزانو » كان ملك مصر يقلدها بنفسه الولاية فيخلفهم فيها اولادهم من بعدهم . ويستدلّ من هذه المكاتبات ان النساء كنّ يتلنّ رتبة الخزانو كالرجال وهو امر غريب لم نجد له شبيهاً في تاريخ الشام سوى ما ورد عن زينب في تاريخ تدمر (١)

وتحتوي الفاتحة ما عدا اسم الكاتب ذكر الفرعون والقابله على هذا المنوال : « الى الملك سيدي والهي ونوري وشمس السماء فلان . . . عبدك وتراب قدميك وسانس خيلك . اني اخو على اقدم سيدي سبع دفعات وأنطرح سبعا على صدري وظهري » وفي بعض الرسائل يبالغ الكاتب في التذللّ والخنوع الى ان يجعل نفسه « كلباً اهلاً بان يطأه سيده تحت اقدامه » ثمّ يلي هذه المقدمة فحوى الكتاب

أمّا رسائل الملوك فقدّماتها تُشعر بمرتبته اصحابها مثال ذلك ما كتبه « دوسرتا ملك ميتاني » اي بلاد ما بين النهرين وكانت اخته زوجة لأمينوفيس الثالث وابنته لابنه امينوفيس الرابع :

« الى الملك العظيم ملك بلاد مصر اخي وصهري (وفي الاشوريّة ختني) الذي يجيني وانا اجبه كتبت هذا لافيدك . انا دوسرتا الملك العظيم صهرك الذي يجبك ملك ميتاني اخوك اني على احسن حال . واقرأ عليك السلام وعلى آل بيتك وعلى اختك وحرملك وعلى اولادك وعلى عجلاتك وخيلك ووزرائك وبلادك وكلّ مالك . سلامٌ للجميع يكون اطيب سلام

وفي مكاتبات تلّ العارنة اعلامُ مُدن كثيرة نكتفي بذكر ما له بعض العلاقة مع اخبار لبنان وهي : عكا (كما تُكتب اليوم) وصوري (صور) وصيدونا (صيدا) وبيروتا او بيرونا (بيروت) وجبله (جبيل) وسمورا او سموري (وهي بلدة تُرى اخريتها على مسافة كيلومترين من مصبّ نهر الكبير شمالاً)

(١) وقد اخبر المسيو دوسو في رحلة حديثة الى جبال النصيرية انه وجد امرأة كانت متولية رتبة المختار في ضيعتها

واروادا (جزيرة ارواد) . ومن المدن الداخلية المذكورة في هذه الرسائل . دِمَسْقًا
او دِمَسْقِي (١) (دمشق) وقطنا في جوار دمشق (ولعلها قرية قطننة)
ولا ترى في مكاتبات تلّ العارنة ذكرًا لجبل لبنان لاسيا جهاته الداخلية الّا
نادرًا . وقد زعم الكولونل الانكليزي كُنْدَر (Conder) انه وجد فيها اسماء
البترون وجونية وشكّة وشتورة ومكسة في البقاع (٢) بيد ان العلماء الاثبات لم
يوافقوه على رأيه حتى الآن

ومن الاعلام المذكورة اسم مدينة أَمِيَا ذهب الاب ديلاتر اليسوعي الى ان
موقعها وراء لبنان او في جهته الشمالية . وقد زعم كُنْدَر ان أميا هذه هي اميون
الحالية في معاملة الكورة . فان صحَّ قوله تكون اميون أقدم بلدة نعرفها في
داخل لبنان . والرسالة التي ورد فيها هذا الاسم كاتبها احد العمّال المصريين يطلب
من صاحب أميا ان يسلم اليه عددًا من العبيد مع ابنة الشيخ ويرسل له فضّة
وعجلات وخيلًا ثمَّ يجتمَّ قوله بما نصُّه : « اعلم ان الملك على احسن حال كالشمس
في السماء وان جيشه وعجلاته على ما يرام من الصلاح »

وقد جاء ايضًا مرارًا في هذه الرسائل اسم بلدة تدعى « نخاسه » يظنّ العلامة
نيبور (٣) انها كانت في شمالي شرقي لبنان . أمّا الاب ديلاتر (٤) فيجعلها قريبة من
حمص . ففي اقوال العلماء كما ترى تباين ظاهر

ولكن ان كانت افادات رسائل تلّ العارنة قليلة عن احوال لبنان الداخلية
فانها كثيرة التفاصيل عن المدن الساحلية خصوصاً جبيل . ولوالها « ريب اذّي »
وحده نحو خمسين رسالة في مجموع رسائل تلّ العارنة

واوّل ما يستلفت انظار مطالع هذه الرسائل ان مدن ساحل الشام كانت
فائزة بنصيب من العمارة والتقدم فكانت التجارة البحرية فيها على قدم . وكثيراً
ما ورد ذكر سفن جبيل وبيروت وصيداء التي كانت تبحر عباب البحر المتوسط

(١) راجع مقالنا في اسماء دمشق (المشرق ٣ : ٦٥٨)

(٢) راجع كتابه The Tell Amarna Tablets, 2^o ed. London, 1894

(٣) راجع C. Niebuhr: Die Amarna-Zeit, p. 26

(٤) راجع كتابه السابق ذكره ص ٤٧

وتنقل محصولات البلاد الى اماكن شتى . وما هو اعجب من هذا ان المدن المذكورة كانت قد اتخذت لها بوارج حربية . والدليل على ذلك ما ورد في رسائل « ريب ادى » الى فرعون قال : « ان اهل ارواد عندك الان فاضبط سفنهم التي هي في مصر » . وقال في رسالة اخرى عن سفن بيروت وصيدا : « أليست هاتان المدينتان تحت ولايتك فولّ عليهما رجلاً يمكنه ان يجهز سفناً لبلاد اموري (١) » . وزاد في رسالة ثالثة ان سفن صيدا وبيروت بلغت ساحل بلاد اموري وقبضت على احدي مراكبها ثم اردف هذا الخبر بقوله : « وهذه السفن قادمة الآن لتستولي على بعض سفني »

*

ولا عجب من هذا الخصاص الواقع بين مدن مجاورة فان رسائل تلّ العمارنة تثبتنا بان امر بلادنا كان وقتئذٍ فوضى لا تجتمع اهلها كلمة . وفي ما يأتي ادلة على ذلك

اما تجارة الفينيقيين البرية فكانت تبلغ الى تخوم مملكة آشور وكانت قوافلهم تعرف حق المعرفة كل الشعوب التي تملك على الاقطار المتوسطة بين بلادهم وبلاد بابل . وقد ورد ذكر هذه الممالك في رسائل تلّ العمارنة . وكان البابليون والميتانيون يزاولون صناعة المعادن وخصوصاً صيغة الجواهر الكريمة ثم يبيعونها للفينيقيين والفينيقيون ينقلونها الى الامصار البعيدة . وكان تجار فينيقية يعاملون ايضاً الحثيين في آسية الصغرى ويحلون الى عيلام اي بلاد فارس . ولا غرواً فانه يستدلّ من الكتابات الاشورية التي سبقت عهد رسائل تلّ العمارنة ان العيلاميين غزوا بلاد فينيقية فتكون الصلات بين الأمتين نشأت منذ ذلك الحين

اما الجهات الجنوبية فكان الفينيقيون اعلم بها من غيرها فكانوا يبحرون بلا انقطاع الى القطر المصري تارة ليدفعوا الجزية للفرعون واخرى لمصالحهم الخاصة فيبيعون سلمهم ويستبدلونها بذهب مصر الشهير الذي ورد عنه في رسائل تلّ العمارنة « انه كثراب الارض كثرة » . والمظنون ان المصريين كانوا جلبوا هذا

(١) ذكر هذه البلاد وارد في ما يأتي والآراء متضاربة في تعيينها

الذهب من بلاد النوبة التي غزوها واستولوا على معادنها
ثم ان تاريخ الازمنة التابعة يشهد على ان سليمان الحكيم وفراعنة مصر
في عهده كانوا يستخدمون الفينيقيين لتاجراتهم وعندنا ان الامر كان كذلك في
القرن الخامس عشر والرابع عشر قبل المسيح . وان الفينيقيين لم يجهلوا جنوبي
جزيرة الهند

واما اسفار الفينيقيين الى شمالي غربي البحر المتوسط فلا ذكر لها في مكاتبات
تلّ العبادنة . وانما ورد فيها اسم بلاد « آسيا » والمرجح انها توافق بلاد قرمانية
الحالية او احد الاقطار الواقعة في شمالي سورية . ومن اوصافها انها كانت من
البلاد الساحلية . وما لا مرأى فيه ان الفينيقيين كانوا يعرفون من ذلك العهد
جزائر الارخبيل وسواحل آسية الصغرى وكانت قفولهم البرية تتردد الى هذا
القطر للمتاجرة

*

فما تقدّم يلوح للقراء ان فينيقية كانت بلغت في القرن الرابع عشر قبل
المسيح مقاماً عالياً من حيث تجارتها الواسعة وثروتها الوفيرة . وكانت المعادن
الثمينة كالذهب والفضة تُصاغ في جبيل فتجديها ارباحاً كثيرة يدلّ على ذلك
كتاب حرره واليهاريب ادّى السابق ذكره . وكذلك كانت الزراعة والفلاحة
في حال زاهٍ رائع . وكان الزيت والحمر من جملة ما يقدمه الفينيقيون للملك مصر
لاداء الجزية . ولعل الحمر اللبنانيي اشتهر من ذلك الحين قبل ما يذكره هوشع النبي في
سفر نبوته ٨: ١٤ . وقد ذكرت ايضاً رسائنا « الاشجار الكبيرة » التي وهبها ازيرو
احد امراء الشام ولما كان هذا يملك على قسم من شمالي لبنان فعلى ظننا ان
الاشجار الكبيرة المذكورة انما المراد بها شجر الارز . وهذا يصح ايضاً عن جبال
بيروت وجبيل التي منها قطعت اخشاب هيكل اورشليم في زمن حيرام وسليمان .
ومما يدل على عمران بلادنا في ذلك العهد ذكر العجلات الحربية . لان وجود
العجلات ينبي بوجود طرق موثورة وفي توثير الطرق ما لا يخفى من الرقي لان ذلك
لا يخلو من الصعوبة في جبال كجبال لبنان (١)

(١) راجع ما كتبناه في هذا الصدد في اثناء كلامنا عن السكك الرومانية في لبنان

وقد جاء في رسالة لاحد ولاية بيروت اسمه أمونيرا ما تعريبه: «لمّا ورد امر سيدي وشسي عليّ انا عبدهُ و تراب قدميه . قائلًا لي اذهب الى مساعدة انصار سيدك الملك للحال اطعتُ امرهُ وهاءنذا لاحق باصحاب سيدي الملك مع خيلي وعجلاتي وكل مالي» . ولهذا الكاتب رسالة اخرى يذكر فيها عجلاته الحربية وما بينه وبين ريب ادّي من الصلات الودّية (١)

هذا ولا تكاد رسائل ريب ادّي العديدة تخلو من ذكر الحرب التي اصلاها عليه « عبد الشرى وابنه ازيرو صاحب امورّي الشديدان» ويؤخذ من سياق كلامه أنّ سلطته كانت تمتدّ على ساحل جبيل الى طرابلس او مصبّ نهر الكبير شمالاً والى نهر الكلب جنوباً مع ما يجاور هذا الساحل من لبنان . امّا والي بيروت أمونيرا فكان نهر الكلب يحدّ ولايته شمالاً

ومن تصفّح رسائل ريب ادّي ادرك انه كان قليل البخت لم تسعده الايام . ومن المبكيات المضحكات ما كتبه اليه احد عمّال مصر بسبب قطع من الحمير كان الفرعون عهد اليه بجراسته بقرب مصبّ نهر الكبير في بلدة سميرة: «... عمّ الطاعون بلدة سمري فامات الرجال واهلك الحمير .. ويلا لك من كان يناظر الحمير ان انت لم تهمّ بها .. تقول ان الحمير وحرّاسها قد أُصيدوا بالطاعون وان مواشي سيدي الملك قد هلكت فاذن يُقتضى عليك ان تطلب غيرها للملك ..»

فهذه الرسالة تفيدنا بان فراعة مصر كانوا اتخذوا لهم وسطاء من جلدتهم يناظرون ولاية المدن وامراء البلاد ويوقفون الملك على احوالهم وكان هؤلاء المناظرون يبلّغون مروّسيهم اوامر الفرعون . وربما لاموهم عن اعمالهم كما رأيت او دافعوا عنهم في وقت الحاجة او اصلحوا ما حدث من الخصام بين اصحاب مدينة وجارتها

ودونك كتاباً آخر من ريب ادّي لبعض المناظرين المصريين اسمه امانياً يعرض له فيه تشكياته من اخصامه :

الى امانياً ابني الصنير من ولده ريب ادّي . اني انطرح على اقدام ابني الصنير . ثمّ أسأله

(١) الا ان هذه الملائق الودّية لم تدّم زمنًا طويلًا كما سترى وقد مرّ ان سفن بيروت استولت على سفن جبيل

ثانية: ألا تستطيع ان تنفذني من ايدي عبد الشرى . . . لا يبالي بامرئ احد من ولاة المدن ولعلمهم جميعاً متفقون معه ولذلك قد استفحل امره . امأ انت فاجبتني : أرسل في صحبتي ساعياً الى بلاط الملك فان رضي الملك اعدته اليك مع الجنود ليدافعوا عن حياتك . فكان جوابي : افي لا اتأخر عن ارسال الساعي ولكن ليبقى ذلك سرّاً لا يعلم به عبد الشرى لان ينهماون (وهو ناظر آخر كان ملك مصر) قد ارتثي . فأجبت : أرسل سفينة الى يارمينتسا فيأتيك منه فضة وحل . . . ويلاه من يخلصني فاذا لم تسرع الجنود الى نجاتي ساترك المدينة وانجو بنفسي »

وفي رسائل اخرى يطلب حيناً اربعة رجال وعشرين عجة وحيناً اربعين جندياً (١ . . . ١٠٠٠) وتارة متنين من المشاة وفتنة من الحياالة . الا ان المناظر المصري لم يجب الى طلبة ريب ادى ولم يبالي بامرهِ وعليه فلم يزل عدوه يغزو اياله وتتقوى شوكتهُ حتى ضبط كل النواحي المجاورة لبلاد جبيل ولم يترك لصاحبها غير مدينته . والعدو المذكور هو ازيرو وكان مالكاً على البلاد الواقعة شمالي دمشق وعلى قسم من وادي العاصي اي البلاد المتوسطة بين بعلبك وبيجة حمص فطمع في املاك جاره صاحب جبيل واخذ منه ما اخذ في بقعة طرابلس وجبل عكار ولبنان ثم تفاقم الامر حتى بلغ مسامع ملك مصر . وفي رسائل تل العمارنة ما يشعر بغضب الملك على ازيرو لتعديهِ حدود ولايته . الا ان ازيرو المذكور كتب الى الفرعون ليزكي نفسه ويلقي تبعة الامر على صاحب جبيل . وكتابه غريب في بابهِ احببنا ان نثبتهُ هنا :

« الى الملك العظيم سيدي وإلهي وشمسي من ازيرو عبده اني اقبل الارض امامك سبع مرآت . . . اعلم سيدي اني انا عبدك متعفر في التراب امامك ملكي ومولاي . ثم اني انجمر واقول لمرآتك لا تُعر سمك الى الاعداء الذين رموني عندك بالزور والبهتان فاني عبدك الخاضع الى الابد »

لكن الفرعون لم يرض بقول ازيرو واستدعاه الى مجلسه ليدافع امام الملك عن نفسه . والظاهر انه سُجن في مصر ومات في حبسه

اما ريب ادى فلا نعلم عن وفاته شيئاً . وغاية ما يُستفاد عنه من رسائل تل العمارنة انه عمّر زمناً طويلاً وأنه تولى على جبيل في أيام امينوفيس الثالث وابنه

(١) وفي الاصل يطلب الكاتب ان يكون عشرون منهم مصريين وعشرون من بلاد « ميلوخا » وميلوخا هذه مقاطعة واقعة عند تخوم مصر والشام

امينوفيس الرابع . وفي رسائله دلائل على انه كان يطلب خير رعيته وانه كان متعبدا لعشتروت « بعله جيبيل (١) » يذكر اسمها في مقدمة أكثر رسائله . ويوضح أيضاً من كتاباته هذه ان أسرته كانت مالكة على جيبيل وضواحيها منذ قديم الزمن لانه يشكو الى فرعون مصر امره ويقابل حالة السيئة بحسن حال اجداده فيقول : « ان الملك كان سابقاً يرسل الى اجدادي دراهم وغير ذلك مما كانوا يحتاجون اليه وكان يسير لهم جنوداً امأ انا فارسلت الى سيدي الملك ساعياً ليساعدني ببعثة من الجند فلم يرسل اليّ احداً »

فما سبق يتضح لقراءنا ما تتضمنه مكاتبات تلّ العارنة من اخبار لبنان وسواحل الشام . لكن اهميتها الكبرى مبنيّة على قدمها لانها كتبت قبل موسى الكليم وقبل سفر التوراة وفيها عدّة تفاصيل تثبت صحّة اقوال الكتاب . ومنها ايضاً يتبين ما في درس اللغتين المصريّة والبابليّة من الجدوى للعلوم التاريخية . وفي ما اكتشفه المستشرقون منها حتى الآن ضمّين عن فوائد اكتشافات المستقبل ان شاء الله (٢)

٢٠ كنائس لبنان القديمة

فحال قرّاءنا قد اشتاقوا الى مطالعة وصف الكنائس القديمة في لبنان بعد ما كررنا ذكرها في فصولنا السابقة . وليس مرادنا ان نستوفي الكلام في هذا البحث لأننا لسوء الحظّ لم نتمكّن من زيارة كل كنائس لبنان القديمة . ثم ان كثيراً من هذه البيع قد خربت في مدة هذه السنين الاخيرة او ذهب عنها رونقها القديم وذلك لغيرة محمودة في اهل لبنان حملتهم على تجديد بناء كنائسهم او ترميمها لولا انهم حرمونا من بعض الآثار الجليلية الناطقة عن احوال سلفائهم الافاضل وعليه فقد

(١) راجع فصلنا السابق عن الديانة الفينيقية في لبنان

(٢) ان اردت كلاماً مطوّلاً عن مراسلات تلّ (العارنة) فراجع مقالات مسهبة كتبها الاب ديلاتر . ومن حملتها نبذة افرنسيّة دعاها : « اكتشاف تلّ العارنة » . ثم اردفها بمقالة اخرى وسمها « بكتابات تلّ العارنة » . وللمستشرق الشهير هالفي (J. Halévy) مقالات في الموضوع نفسه في المجلّة الاسيويّة الفرنسيّة (J. A. 8^e série, XVI-XX)

اسرعنا الى كتابة هذه المقالة قبل ان تمتد يد الحراب الى الكنائس الاخرى
العهدية . وغايتنا من هذه النبذة ان نبين للقرأء اجمالاً ما اتّصفت به هذه البنايات
المقدّسة وما هي خواصها التي تفرّدت بها في لبنان
لا مشاحة في ان لبنان يتفاخر على غيره من الاصقاع بوفرة كنائسه . فانك
لا تكاد تدخل قرية منه بل مزرعة من مزارعه دون ان تلقى لها كنيسة لها ولعلك
تجد في القرية الواحدة اللهم اذا كانت متوسطة في الكبر كنيسةين واكثر
واغلب هذه الكنائس لا يرتقي عهدها الى ما فوق المئتي سنة تراها في هندستها
اشبه بيوت القرى لا تختلف عنها الا بسعتها . فانها على هيئة مكعب مستطيل
مبنية بالحجارة والملاط لها على جوانبها ابواب ونوافذ . وفوقها سطح ترى على
احدى حافتيه قبة للجرس لا تظهر بينه وبين الكنيسة علاقة هندسية . وقد
استبدل السطح منذ عهد قريب بسقف منغطي بالآجر الاحمر فزادت بذلك
الكنائس بعداً عن هيئة المعابد الدينية . وان سألت هل لهذه الابنية طرز هندسي
اجنبا أنّنا نجهل ذلك ولعلّ بناها انفسهم لم يدرؤا اي طريقة هندسية جروا عليها
في هذه العبارات

لكن الامر لم يكن كذلك في سالف الاعصار . ولو بحثنا لوجدنا لاهل لبنان
في القرون الغابرة طريقة هندسية في بناء كنائسهم كما نود لو يجيها المهندسون
المحدثون في المعابد التي يشرعون بتشبيدها او يستجدون بناءها
فأرى اين نجد امثلة لهذه الابنية العتيقة ؟ أفي جنوبي لبنان او مقاطعة المتن ؟
كلاً لانّ الموارنة لم يدخلوا هذه الاصقاع منذ زمن مديد . وتزيد على ذلك ان
دخولهم في نفس كسروان ليس بتقديم كما بيننا الامر سابقاً في المشرق في نبذتنا عن
فراغريفون (المشرق ١: ٥٦) ثم في ردنا على مقالة « لاحد العلماء » أدرجت في
الروضة . وعندنا ان الموارنة لم يتوطّئوا كسروان قبل القرن السادس عشر وهو قول
يمكن تأييده بأدلة عديدة لعلنا نذكرها في مطاوي مباحثنا هذه عن آثار لبنان .
وحسبنا اليوم ان نقول انه لا يوجد بين اديرة كسروان العديدة دير واحد يسبق
عهده القرن السابع عشر (١) وكذلك لم نطلع في تواريخ الموارنة على ذكر رجل من
(١) راجع كتاب الحوري منصور طنوس الحوري في المقاطعة الكسروانية ص ٢٨ .

مشاهيرهم اصله من كسروان قبل القرن السادس عشر . واذا جاء ذكر الموارنة في تأليف الصليبيين فلا نراهم يذكرونهم الا في البلاد الواقعة بين طرابلس وجبيل اما جنوبي نهر ابراهيم فلا نرى لهم فيه اثرًا . وكذا قل عن اديرتهم القديمة وكنائسهم فانها كلها في شمالي نهر ابراهيم كما ان اصل قدماء بطاركتهم واساقفتهم من البلاد نفسها

فيتضح من هذه الحقيقة امران : الاول ان لآثار كسروان اليونانية الرومانية شأنًا اعظم من آثار المارونية . والثاني ان من يطلب امثلة تطلعه على هندسة الموارنة القديمة لكنائسهم الاجدر به ان يطلبها خارجاً عن كسروان وفي واقع الحال اذا اجتزنا نهر ابراهيم وتوغلنا في بلاد جبيل وجدنا عدداً وافراً من هذه الكنائس وهذا العدد يزيد على قدر مسيرتنا الى الشمال . ولا غرو لان هذه الاصقاع هي مهد الامة المارونية وموطنها الاول درجت منه فامتدت في النحاء لبنان فجهات سورية فأقطار المشرق حتى بلغ ابناؤها في عهدنا بلاد الغرب ودخلوا العالم الجديد . فان وجد شيء من آثار ابنيته الدينية القديمة فهي عند مركزها الاول وفي محل عزها

*

قد اجمع علماء العاديات ان لهندسة الكنائس المسيحية منذ بدء النصرانية خواص مشتركة تشمل كل البلاد إن غربية وإن شرقية مع ما يبرى فيها من الاختلافات الطارئة عليها بسبب تقلب الاحوال ودواعي الظروف . ومن هذه الخواص تقسيم الكنائس المسيحية سالفاً الى ثلاثة اقسام الحنية او المحراب (abside) ثم السوق (nef) ثم الرواق او الدهليز (portique) . وبيع الموارنة القديمة لا تشذ في ذلك عن غيرها من معابد المسيحيين العهيدة

فاذا اعتبرنا اولاً هيئة الحنية وجدناها شبيهة بالحنايا اليونانية اي انها مجوفة في الداخل ناتئة في الخارج على شكل مستدير كما ترى في كنائس اهدن وكفرحي ومار نهرا وسيدة سر جبيل ومار ضومط في تولا ومار الياس (كنيسة واقعة بين

تولا وعبدلّه (ومسرح ومجديدات وآده (في بلاد البترون) وآده (في بلاد جبيل)
وفي جوار آده هذه عدّة معابد وبيع بُنيت على هذا المثال
هذا ولم ننظم داعل في سلك القرى المذكورة مع ان كنيسة المتهدمة ذات
حنيّة ظاهرة الى عهدنا . لاننا نظنّ ان هذه الكنيسة كانت في الاصل هيكلًا
للانعام ثم حوّلها الاهلون الى معبدٍ مسيحي على اسم القديس تادروس الشهيد .
وبين ردمها جدران ماثلة حسنة البناء فيها آثار خطوط كوفية مطموسة . وترى
مثل هذه الخطوط في حلتا في كنيسة السيدة القديمة . وكنيسة داعل المذكورة
يزورها المتأولة ويكرمونها ولهم عند اطلالها سندية كبرى لا يسها احد
ولو أردنا ان نسرّد اسماء كل الكنائس القديمة المارونية التي تُجعل لها حنيّة
مستديرة اطلال بنا الكلام . ولعلّ المشكاة التي يجعلها الموارنة وراء المذبح
الكبير مثال صغير لهذه الحنايا القديمة اتخذوها كذكر لها . ولا ريب ان الموارنة
اهملوا بناء الحنايا في كنائسهم يوم اخذوا يتقرّبون في مناسكهم وطقوسهم من
الكنيسة اللاتينية (١) ويقتدون بها في شؤون كثيرة . كما لحظ ذلك مرارًا
مؤرّخو الموارنة انفسهم (٢)

هذا وقد اسفنا على ان البناء الذين سعوا في ترميم بعض الكنائس القديمة هدموا
الحنايا السابقة او غيروا صورتها ما امكن . فترى مثلاً الحنايا الثلاث التي كانت في
كنيسة مار دانيال في حدث الجبّة قد باد اثرها تماماً
ومن خواصّ البيع المارونية القديمة قببها . ومما استحسناه من هذا القبيل قبّة
كنيسة مار الياس بين عبدلّه وتولا وهي تشبه قبّة كنيسة جبيل . بيد ان هذه
الكنيسة مهملةٌ يتنازع ملكها اهل القرينتين
والكثير من الكنائس دهليز او رواق مقبّب الشكل كما ترى في كنيسة
كفرحي وفي كنيسة مجديدات اعني مار نيقولا ومار تادروس وفي كنائس مار
يوحنا المعمدان في آده (جبيل) ورشكيدا ومسرح

(١) ومذ ذاك العهد ايضاً ترك الموارنة بعض العادات الجارية عند اليونان وباقي الطوائف
الشرقيّة . ولعلّهم تحيّلوا انّ بناء الحنايا من الابنية المخصوصة باليوم
(٢) راجع مقدّمة كتاب الدويهي المعنون بمنارة الاقداس (ص ٧)

هذه الهمات الثلاث اي الحنيّة والقبّة والرواق هي التي تعمّ كنائس الموارنة قديماً اللهمّ ألاّ الدهليز فاننا لم نجدّه في قسم منها

*

هلمّ نعتبر الان ما اختصّت به بعض هذه الكنائس دون غيرها . فمن ذلك ان بعضها كان ذات ثلاثة اسواق ككبيعة جبيل وان اعترض علينا احد بان هذه الكنيسة من بناء الصليبيين فلا علاقة لها مع كنائس الموارنة أحنّاهُ الى مثل كنائس أُخرى بُنيت في وسط المقاطعات المارونيّة كبيعة معاد ورشكيدا ومار جرجس في اهدن

فكنيسة معاد من اجمل كنائس لبنان بناءً وهندسةً لولا انّ مُرتميتها لم يعرفوا قدر الآثار القديمة فانهم لم يحسنوا إصلاحها وطمسوا كثيراً من محاسنها وازالوا حنيتها ومحتوا نقوشها البديعة وكان لهذه الكنيسة ثلاثة اسواق غير انها اقصر من كنيسة جبيل ودونها في العلوّ . ولعمدّها رؤوس اكلّة من الطرزين الهندسيّين الاقدمين اي الطرز الايوني (ionien) والدوري (dorique) . اصلها من بقايا هيكلٍ قديمٍ مع آثار أُخرى راجع ما كتبناه عن معاد (ص ٧١) . وفي الكنيسة المذكورة قبور ترتقي الى متوسّط القرون . وبازاء معاد قرية تدعى صفار لها كنيسة ذات سوقين في اعلاهما حنّتان

اما كنيسة رشكيدا فتستحقّ ذكرًا خصوصياً لقلة شهرتها . والحقّ يقال ان الدهش اخذ منّا مأخذهُ لما صادفنا هذا المبدع الجميل في مزرعةٍ حقيرةٍ مجهولة يسكنها المتأولة على مسافة عشر دقائق من عبرين

فلكنيسة رشكيدا رواقٌ واسعٌ كانت سعته في سالف العهد اعظم منها اليوم . والمكان باسم القديس جاورجيوس الشهيد له ثلاثة اسواق مثل كنيسة معاد والسوق الاوسط ينتهي بجنيّة وراءها قبة كبيرة او بالاحرى ثلاث حنايا يندهب لمرآها الناظر . فطلبنا لهذه الصورة الهندسيّة الغريبة شرحاً يكشف لنا سرّها المكتون فغلب ظنّنا ان الكنيسة كانت سابقاً اكبر منها اليوم فرمها البناء واقتصروا منها على هذا القم الباقى . ولاثبات هذا الظنّ أدلّةٌ تتبادر الى ذهن

زائرها ولولا خوف الاطالة لعرضناها هنا . ونكتفي اليوم بأننا عرفنا القراء بوجود هذه التحفة الهندسيّة وسنلمح اليها في مطاوي الكلام غير مرة (١)
 ومن الكنائس القديمة الجديدة بالاعتبار كنيسة حدتون كان بقي منها بعض الاخرية قبل سنين قليلة . فلما بُنيت البيعة الجديدة تضرعت تلك البقايا دون ان يمكنّا أنثذّ زيارتها . ولريثان في وصفها فقرة موجزة اثبتتها في بعثته الفينيقيّة (ص ٢٥٥) فزاد بمطالعتهما أسفنا على فقد هذا الاثر البهيج . وكان في هذه الكنيسة عمودان ترينهما الكتابات القديمة التي رسمها ريثان رسماً لا يكاد يُستخلص منه معنى . وكلُّ هذه الآثار من عمود وجدران قد طُمست وقت البناية الجديدة

وقد تفضّل حضرة الحوري نعمة الله نصّار فارسل الينا كتاباً ضمّنه عدّة افادات عن هذه الكنيسة الجميلة فقال في وصفها « انها كانت ذات أسواق وفيها سبعة ابواب ثلاثة لجهة الغرب ضمن دهليز متقن وباب لجهة الجنوب وله ايضاً دهليز خاص وباب للشمال ضمن دهليز طبيعي منقود في الصخر وبابان على جانبي الحنية وهي كانت غاية في الحسن تقوم على ذاتها ووراءها الموفه (السكرستيا) ففتح له نافذة جنوبية . وكان لهذه الكنيسة اربع قناطر رفيعة اثنتان للجانب الايمن واثنتان للأيسر يتعلّق طرف الواحدة بجانب الحنية وطرف الاخرى بالحائط الغربي »

فهذه التفاصيل تثبتنا بأن كنيسة حدتون لم تُشبه غيرها من الكنائس السابق ذكرها وهي كلها مقببة ذات باب واحد ليس الا . اما العواميد التي كانت في داخلها فنرجح ان اصلها من بناية قديمة كهيكل وثني او غير ذلك وكان حضرة الاب نعمة الله سألنا في كتاباته مراراً ان ندلّه على اسم اي قديس شيّدت هذه الكنيسة لانه تحفّي في السؤال عن الامر لدى العامة وبحث عن تقليد الشيوخ فلم يفز بالمرام

(١) زعم ريثان في بعثه فينيقية ان في جدار هذه الكنيسة كتابة قديمة استدلّ عليها . وعندنا ان لا وجود لهذا الاثر لان الاهلين يجهلونّه مطلقاً

قلنا اننا نحن ايضاً بحثنا عن هذا في ما تيسر لنا من التأليف فلم نلاحظ بالمقصود . ولعل ذلك يمكن استخلاصه من كتابة يونانية دلتنا عليها اهل حدتون . وهذه الكتابة كانت مكتوبة على طوق من النحاس كانت تُنَاط به ثرياً او ما شاكلها . ومضمون الكتابة ما تعريبه : « في عهد حنا كاهن مار الياس » يريد كنيسة مار الياس . فيتزجج من هذا ان الكنيسة المذكورة كانت على اسم القديس اليّا النبي لان لحدتون كنيسة أخرى قديمة مخصصة بالعدراء الطاهرة وهي باقية الى اليوم

*

هذا وان سياق كلامنا عن رشكيدا ومعاد وحدتون قد بلغ بنا الى ان نبسط المقال عن النقوش التي كانت الكنائس المارونية مزينة بها . ولا مراء ان تصاوير كنيسة معاد كانت بديعة جداً كما ينبت على ذلك ما بقي منها على جدرانها وقد ذهب اكثرها بترميم محراب الكنيسة . ومما افادني شيخ القرية انهم لو ازالوا الردم الذي هناك لوجدوا امثالا تصويرية حسنة من حملتها صورة مار يوحنا مارون وفي تاريخ الموارنة للدويهي ما يؤيد زعمهم قال (في حاشية الصفحة ٣٦٨) : « وفي جنايبهما (يريد كنيستي معاد ومجديدات) مكتوب « ان الله صباوثوت » ومصور على حيطانهما مار مارون ومار قبريان بالتيجان على رؤوسهما والدروع على اكتافهما » فياليت اصحاب الامر يتولون هذا العمل وينزعون التصاوير من تحت الردم ولنا الامل انهم يلقون مع التصاوير كتابات قديمة بالحظ الاسطرنجيلى تفيدهم علماً عن اخبار قديسي الكنيسة المارونية . اما تصاوير كنيسة رشكيدا فقد باد اكثرها الا ما يراه الناظر في جهة المحراب وهي رؤوس متقنة التصوير تدل على ما كان ثمت من النقوش الجميلة

ومن الكنائس المزخرفة بالتصاوير كنيستان على اسم مار جرجس في اهدن وعبدله وكنيسة مار تادروس في مجديدات قد صبرت على عوارض الزمان ولو اراد السكّان لاكثرهم ان يجدوها بعد ازالة الملاط الذي يججب قسماً منها مع صيانتها عن الرطوبة . ومما يرى في جدران مار تادروس صور الكروبيم يحملون بين ايديهم تسبحة التقديس (Trisagion) مكتوبة بحروف اسطرنجيلى ولبقية

تصاوير هذه الكنيسة كتابات سريرية تُعرّف موضوعها واسماء الاشخاص المصورين فيها . فلا يخلو البحث عنها من الفائدة

وكنت ارفع كثيراً في زيارة كنيسة مار سركيس المجاورة لشبطين لاني كنتُ قرأتُ في بعثة فينيقية لرينان (ص ٢٥١) ان هذه البيعة مجمّلة بتصاوير بديعة ظنّ انها ترتقي الى القرن السابع او الثامن تمثّل على زعم السيد المسيح ورسله الابرار وأردف ان وراء الهيكل قد بقي منها صورٌ رؤوس جميلة . فزرتُ الكنيسة الا اني لم اجد لهذه التصاوير اثرًا البتّة

وفي كفرشليان معبد صغير غريب الشكل نُقر في الصخر يدعى سيدة نايا (١) وقد تبين لنا من فحصها انها كانت سابقاً مدفناً ثمّ جعلت معبداً (٢) . استدللنا على ذلك بصغر المعبد وهيئته وارتفاعه فوق الحضيض بعدة اذرع . وترى في سقف هذا المعبد فوق مذبحه وعلى جناحي الهيكل نقوش وتصاوير اسودّ قسم منها بسناج السرج وهبوة البخور الذي يوقد امام صورة العذراء هنالك . وفي الزاوية القريبة من الباب صليب في تربيعة كتابية يونانية مؤداها : « قد انتصر يسوع المسيح » . وعلى شمال الصليب صورة رام بالقوس . وعلى يمينه وحش غريب لعلمهم ارادوا به الشيطان الرجيم فيكون المصور اشار بذلك الى انتصار المسيح على قووات الجحيم بصليبه

وقد ذكر الدويهي في تاريخه كنائس أخر تزينها التصاوير القديمة لم يبقَ اليوم منها شيء . وما يزيدنا اسفاً على فقدتها ان نقوش بعضها كانت مؤرخة كبيعة مارنهر في اده من بلاد البترون فانّ تاريخها كان يرتقي الى سنة ١٥٧٥ لليونان اي ١٢٦٣ للمسيح (راجع الدويهي ص ١١٢)

وان سأل سائل من اي طرز كانت النقوش والتصاوير التي سبق ذكرها اجبتنا أنّها كانت كلها من الشكل البوزنطي فانّ من يقابل بينها وبين النقوش

(١) لعلّ هذه اللفظة يونانية الاصل « vεα » اي جديدة فيكون المعنى « السيدة الجديدة »

(٢) وبقر السراية المبنية حديثاً في قرية اميون كنيسة مثل كنيسة كفرشليان على اسم القديسة ماريانا كانت ايضاً مدفناً ثمّ حوّلت الى معبد

البوزنطية من حيث طريقة التصوير والالوان وهيئات الاشخاص لا يرى بين الطرزين اختلافاً يُذكر فيحكم بلاشك ان مصوري هذه التصاوير اخذوا الفن عن البوزنطيين كما تلمح الى ذلك الكتابة اليونانية التي في معبد كفرشليان . امّا اصل هؤلاء المصوّرين فنظن انهم كانوا من الشام كفى دليلاً على ذلك الخطوط السريانية المحدقة بالصور

وقد بقيت عادة الموارنة على نقش كنائسهم في لبنان زمناً طويلاً . اخبر الدويهي (ص ١٨١) في تاريخ سنة ١٥٨٧ ان الخوري انطون من بيت الجميل بنى كنيسة مار عبدا في قرية بكفياً وصورها على يد الشدياق الياس الحصري واتفق عليها الف قبرسي ما عدا اكلاف اهل بكفياً وغيرهم من المحسنين . ولا بدع ان هذه التصاوير كانت محكمة الصنع لعظم المبلغ الذي صرفه بابي الكنيسة

كذلك زين الحبر الجليل اسطفان الدويهي كنيسة قنّوبين بالتصاوير والنقوش . بقيت منها الى اليوم صورة العذراء ام الله ترى عند اقدامها بطاركة الموارنة جاثن امامها . بيد ان هذا التصوير ليس بمتقن لكنّه يابوح من خلاله ان صاحبه يحاول تقليد المصوّرين الفرنج

ويلحق بهذا الباب نقوش أخرى كان الموارنة يحبون ان يزینوا بها كنائسهم اعني الفسيفساء . فهذه العادة وان كانت شائعة في بلاد كثيرة كانت في بلاد الشام أشيع وأعمّ حسبنا ذكر الفسيفساء المكتشفة قبل ٥٠ سنة في مادبا في متصرفية الكرك وقطر الموابيين القديم قد نُقش فيها رسم بلاد فلسطين

وكذلك كان صحن كنائس كثيرة للموارنة مجمّلاً بالفسيفساء وقد وقفت على صحّة هذا الامر بنفسي في كنيسة القديس جاورجيوس في مسرح فان آثار هذه النقوش باقية حتى الان . وكان ايضاً لكنيسة كور التي هدمت منذ قريب ترصيع من الفسيفساء . افادنا الامر حضرة الابوين المرحوم الخوري بطرس ارسانيوس رئيس مدرسة مار يوحنا مارون والخوري بولس طعمه ومولد كليهما في هذه القرية امّا كنيسة حدتون فقد افادنا عن فسيفسائها حضرة الاب نعمة الله بما يلي قال : وكانت الكنيسة مبأطة بصغار الحجارة المنقوشة وكان اجمل هذه النقوش

في السكرستيا ملونة باللون عديدة كالاحمر والاخضر والازرق والاصفر
والمانجوني الخ والحجر فيها لا يكبر قطعاً عن السنتيمتر المكعب . ويستدل على
حسن رسومها واحكام صنعها من ذات تركيب الحصى . اما ارض الكنيسة
فكانت مبلطة بهذه الفسيفساء الا انها اقل اتقاناً . منها ايضاً دهليز الخارج فان
حجره يكبر سنتيمترين»

هذا بعض ما تسمى لنا جمعة عن فسيفساء الكنائس في لبنان ولا شك ان
بيعاً أخرى قديمة كانت مزينة بها

*

ومما قد اذهلنا في قرى عديدة من لبنان انا وجدنا في جانب كنائسها كنيسة
أخرى لاصقة بها او قريبة منها بحيث تضحى الكنيسة كبنية واحدة . مثال ذلك
كنيسة مار يوحنا وكنيسة مار تادروس في اده (جبيل) . ومثلها كنيسة شامات
وتولا الخ

ولكثير من كنائس لبنان في داخلها صهاريج (١) ونوافذ ضيقة مستطيلة في
جدرانها بقرب مدخلها كما في تولا واده (البترون) . وترى في صغار في دار الخواجا
انطون جرجس التي كانت كنيسة قديمة صهريجاً في داخلها ومرامي في جدرانها
ويستدل بهذه الآثار الهندسية على ان الاهلين كانوا في سالف الاعصار يتحصنون
في الكنائس فتصير لهم الكنيسة شبه قلعة لكثافة جدرانها ومتانة بنائها فيشربون
من مائها ويرمون القذائف من نوافذها

وفي هذه الكنائس أثر آخر يرتقي الى القرون المتوسطة وهو انهم كانوا
يجعلون في جدرانها قطعاً من العواميد ظناً منهم ان البنيان يزيد بها شدة . وزي

(١) وفي اماكن عديدة نرى الصهاريج خارج الكنيسة عند الدهليز مثلاً . ويحتدل انما
تكون حُفرت ليُنْفَسَل بِمائها قبل مباشرة الاسرار. قال الدويهي في منارة الاقداس (ص ٥٧) :
«مذ انتشرت النصرانية اخذ ابناء الايمان يبنون الكنائس ويمرون امامها منابع الماء او يصفرون
الابار ليستحم بها الداخلون . . . فقد رُسم على الكهنة في بدء النافور وآخره ان يفسلوا اناملهم
طلباً للطهارة وتوقيراً للاسرار»

مثل هذه العادة جارية عند العرب في ابنتهم القديمة لنا شواهد على ذلك في بعض
الحصن قلعة جبيل . وتغلّبت عليهم هذه العادة حتى انهم كانوا اذا لم يجدوا عموداً
يدخلونه في بنائهم ينحتون دائرة نائثة في حجر كبير يثلون بذلك صورة رأس
عمود . كما ترى في قلعة حلب وفي الباب الشرقي في دمشق الخ (١) . وقد جرى
مهندسو الكنائس المارونية على هذه العادة فانّ لكنيسة مار ضومط في تولا ولمار
جرس في عبدله ولكنيسة السيدة في سمر جبيل ولكنيسة رشكيدا مثل هذه
العواميد المتداخلة في بنائها

*

ليست قبة الجرس في الكنائس الشرقية كما تُرى في الغرب . فانّ الغربيين
جعلوا هذه القبة قسم معتبر من ابنتهم الدينية فتراها مُدمجة بالبيان متصلة به
اتصالاً غير منفصم بخلاف الشرقيين فانّ قبة الجرس عندهم من العوارض ليس
بينها وبين كنائسهم رباط هندسي ولو خلت هذه الكنائس منها لبقيت هندستها
الاصلية بحسبها وهندامها . والبيع المارونية القديمة لا تشدُّ عن هذه القاعدة العمومية .
فانّ من يحدق بنظره اليها يرا لوقته انّ قبة الجرس من الملحقات التي زيدت على
هذه الكنائس بعد بنائها . وادراك علّة ذلك سهل وهو انّ الاجراس المعدنية
حديثه العهد بين الموارنة لم يألفوا قرعها الا بعد مجيء الفرنج الى بلاد الشام (٢) .
قال العلامة الدويهي في تاريخ طائفته (ص ١٠٣) : « وفي سنة ١١١٢ اخذ
الموارنة في الجبل يدقون التواقيس من النحاس بدل الخشب للصلاة »

ومن خواص لبنان كثرة كهوفه واغواره التي تُرى في اكنافه . وقد اتخذ اهل
لبنان الاولون هذه المغاور كساكن لهم احتلّوها فعاشوا فيها في قديم الزمن (٣) ثم
ابتنى اللبناثيون لهم القرى وشادوا البيوت فبقيت هذه الكهوف خالية خاوية حتى

(١) راجع بثّة فينيقية لربان ص ١٥٩ و ٥٤٧ إلا ان هذا الكاتب قد اساء بنسبته ذلك
الى الصليبيين

(٢) راجع المشرق (١: ٥٨)

(٣) راجع مقالة الاب زمرن في الطور الحجري في فينيقية (المشرق ١: ٩٧)

انتشرت في هذه البلاد انوار النصرانية فلجأ اليها قوم من النساك انقطعوا فيها الى العبادة والتأله وعاشوا ثم عيشة اشبه بعيشة الملائكة وجعلوا بتمادي الأيام غير أنهم كنائس كان يقضي فيها السكان المجاورون لهم فرائضهم الدينية . فن ذلك الكهوف الواقعة في وادي قزحياً وفي سيده القطين التي تُعرف اليوم باسم سيده البراز . وهي لا تبعد عن قرية صغار في وادي مُقفر فأن هناك ديراً صغيراً اذا طبقات متعدده ملتصقة كلها في الجبل وللدير سورٌ حصين فيه منافذ ضيقة كان النساك القدماء يرصدون منها حركات العدو فيطردونه اذا ما فاجأهم . ولعبد هذا الدير حنيتان عاديتان وكان العباد اذا جمّلوا سكتناهم في هذه الأغوار يتخذون اكبرها لمناسكهم فيجعلونها بيعاً كسيده قنوبين وسيده القطين وقزحيا الخ .
ونما يلحق بهذه الكنائس معبد كفر شليان المنقور في الصخر وقد مر ذكره .
ومثله معبد مار سرقيس للاباء الكرمليين في بشراي . وكذا كنيسة مار بطرس في العاقورة فأنها كلها منحوتة في الصخر (١) ولها كانت مدفناً للموتى في الايام الغابرة (٢)

*

وقد حان لنا الان بعدما ذكرناه اجمالاً عن كنائس لبنان القديمة من حيث هندستها العموميّة وهيئتها الخارجة ان نبحت عن داخلها فتقف على صورته واحواله . ولنا في كتاب منارة الاقداس للخبير المفضل والكاتب البارع البطريرك اسطفان الدويهي دليل يرشدنا الى المقصود قال (راجع المنارة ١: ١٠٣) : « قسم الآباء القديسون الهياكل الكبيرة الى ثلاثة اقسام اي قدس الاقداس وبيت القدس والدار وفقاً لعدد الاقنيم الثلاثة كما يتبين ذلك من كنانسنا القديمة مثل كنيسة القديس ماما في اهدن التي بُنيت في سنة ٧٤٩ وكنيسة القديس سابا في بشراي سنة ١١١٢ وكنيسة القديس دوميط في تولا من بلاد البترون وكنيسة القديس شربيل في قرية معاد من بلاد جبيل وغيرها » . فلهذه الافادات شأن خطير لاسيما ان المؤلف ذكر تاريخ بعض

(١) راجع الدويهي (ص ٢١٩)

(٢) راجع بعثة فينيقية (ص ٢٠١)

هذه المعابد . وياحبذا لوزاد في تعداد الكنائس القديمة التي لم يكُ بعدُ استولى عليها الخراب في عهد الدويهي

ولتقدمنَّ على تفاصيل كل قسم من اقسام الكنيسة . فالحنية كما سبق القول كانت مجتمعة بانواع النقوش والتصوير التي افادنا الدويهي موضوعها (ص ١٠٤) قال : « وكان الآباء الاطهار يصورون الله الصباوت في حنايا الكنائس جالسا على عرش العظمة . ويثقلون وجوه الحيوانات الاربعة حول العرش مع الملائكة وقوفاً يقدمون له البخور والمصابيح المتلألئة حوله وذلك لكي يرفع الكاهن نظره اليه جلَّ جلاله عندما يقدم الطلبات في سرِّ القداس الالهي »

وكان للموارنة في كنائسهم القديمة تنظيمات اخرى احببنا ذكرها لتتم الفائدة منها توجيه الحنية الى الشرق . وزاد الدويهي في المنارة (١ : ١٠٧) : « وأن يكون فوق الحنية طاقة الى جهة الشرق لان الله ابو النور » لكن بعض الكنائس التي زراها حاو منها . ثم اردف البطريك المذكور : « وأن يكون تحت الطاقة داخل الحنية كرسي عال في كنائس الاساقفة اشارة الى عرش عظمتهم ويُنصب الكرسي في مكان مرتفع لاجل تعليم حقائق الايمان ويجعل درج تحت كرسي الاسقف وتقام حوله مجالس ومساطب متفاوتة لاجل جلوس الحوارة والبرادطة (١) والقسوس ومثلها اوجب الآباء ان تُبنى المذابح من الحجر للدلالة على استمرار الذبيحة ودوامها اوجبوا ان تُبنى الكراسي في الحنية من الحجر ايضاً (٢) »

ومن الكنائس التي ترى فيها كل هذه الشروط مستوفاة كنيسة مار جرجس في اهدن فانها كانت كنيسة اسقفية (٣) . هذا وان نُصِب كرسي الاسقف في الحنية عادة تفرّدت بها البيعة السريانية دون البيعتين اللاتينية (٤) واليونانية كما اشار

(١) جمع البردوط وهو زائر الكنائس . راجع المشرق (٢ : ٦٤٩)

(٢) راجع منارة الانداس (١ : ١٠٩-١١٤)

(٣) المنارة (١ : ٢٩٨)

(٤) اما في الاجيال الاولى فكانت الكنيسة اللاتينية توافق السريانية في نصبها كرسي الاسقف في صدر الحنية (راجع مارتنيني قاموس العاديات المسيحية ص ١٣٧)

الى ذلك العلامة الدويهي

وفي قدس الاقداس ما عدا كراسي الاسقف والكهنة بيتُ القربان او تلبوت الاسرار كما دعاه العلامة الدويهي وهذا نصّ كلامه (ص ١٠١) : « ويجوي تلبوت الاسرار اربعة امور اي جسد الربّ والميرون المقدّس وزيت العماد وماء الدنح »

وهذه افادات أخر عن المذبح المنسوب بازاء الاسقف ننقلها عنه ايضاً (ص ١١٣) : « أمر الآباء المتقدمون كما يتبين في كنيسة مار سابا بمدينة بشرى وفي كنيسة السيدة بمدينة حلب وغيرهما أن يُنصب فوق المذبح في الهياكل الكبيرة قبة جميلة المنظر على اربعة اعمدة بأربع ستائر وفوق الزوايا الاربع اربعة تماثيل تشخص الملائكة او الحيوانات الاربعة التي مرّ الكلام عليها ويُجعل فوق القبة تفتّاحة وفوق التفتّاحة صليب »

ولا بدّ ان يكون المذبح من الحجر مربع الشكل « لانه مائدة ويمتدّ في الطول بين الجنوب والشمال اكثر من امتداده في العرض بين الشرق والغرب لاجل وضع كتاب القداس وحقة البخور والنوافير وغيرها »

ويُحتمّ بان يُجعل امام المذبح درجة او اكثر لكي يرتفع عن الحضيض (الدويهي ١ : ١١٤ و ١٤٤) وينبغي ألا يكون « لاصقاً بالحائط قائماً بعزل عنه » (١) على عكس ما نراه اليوم في كثير من الكنائس المارونية . ومن المحتوم ايضاً ان يجعل المذبح مجوّفاً لاجل رفع الفضلات المقدسة (ص ١٤٤) وتُفتح كوة من جهة الشرق لاجل وضع الذخائر ورفعها عند الاقتضاء . وقد تُنصب اخيراً مطهرة من جهة الجنوب بجانب بعض المذابح كما ترى في كنيسة ماري جرجس كرسي اهدن ليغسل بها الكهنة والروساء ايديهم في خدمة الاسرار » (ص ١٤٥)

وكان امام المذبح دريزين وهو بمثابة الايقونستاس في كنائس الروم وكان له

(١) وجاء في كتاب التكريسات الذي عني بنشره سابقاً (الكاتب المرحوم رشيد الشرتوني ص ١٩) : « يجب دائماً ان يكون المذبح الكبير قائماً بذاته وحوله تصير الزياحات والرتب المرسومة من الاباء ولجل ذلك امروا باقامة الخنية حوله من جهة الشرق حتى لا يضايقه الحائط بتقدمه »

مثله ثلاثة ابواب بيد انه كان يختلف عنه بامور . قال الدويهي امام المؤرخين الموارنة : « اوجب آباؤنا الاطهار ان تكون ابواب الدرزيين مفتوحة وجدرانه غير مسطومة بل مصنوعة بثقوب على مثال شبكة حتى يتمكن الجميع من مشاهدة الاسرار . ولكنهم امروا الشماسة ان يسبلوا الاستار في اوقات معلومة اجلاً للاسرار (ص ١٣٥) »

فكان اذاً الايقونستاس عند الموارنة اشبه بمشك ليس بناء مصمتاً كما في كنائس الروم . ولعلهُ كان « كالشعرية » التي تفصل بين الرجال والنساء في كثير من كنائس لبنان الا انه كان مُتقن الصُنع . وقد شهدنا في كنييسة السيدة في حدوتون قطعة من هذا الدرزيين القديم . ولا علم لنا أبقى منه في بعض الكنائس ام لا . اما في عهد الدويهي فكانت هذه الدرزيين شائعة كما اثبت ذلك في منارة الاقداس (ص ١٢٨)

بقي علينا ان نذكر القسم الثالث من الكنائس المارونية اعني دار الكنيسة او صحنها . فكانت هذه الدار خالية في دائرها من الكراسي التي ترى في الكنائس اليونانية . وقد بين الدويهي سبب ذلك قال (راجع منارة الاقداس ١ : ١٢١) : « آباؤنا اصحاب الكرسي الانطاكي اهملوا نصب الكراسي واوجبوا على نفوسهم ان يصلُّوا وهم قيام كقول الرب : اذا قمتم للصلاة قولوا ابانا الذي في السموات . . . وقد اخبرتنا التواريخ عن تلاميذ ابينا المكرم القديس مارون أنهم قضاوا كل حياتهم منتصبين على اقدامهم ليلاً ونهاراً (١) وانقسموا جوقين امام الباب الملوكي . . . اما الكهنة والشماسة فيستندون الى العكازات لمساعدة الجسد الضعيف ما خلا الرؤساء فاتهم يجلسون على الكرسي للدرجة التي ارتفعوا اليها » وكان المؤمنون خصوصاً الضعفاء منهم يتخذون ايضاً العكازات كما روى ذلك الدويهي في محل آخر من

(١) ورد في التاريخ ان صنعاً من النسك فرضوا على نفوسهم تقشفاً ان يعيشوا طول حياتهم قياماً فدعوا لذلك الرهبان المنتصبين (Stationnaires) راجع مجمع اللاهوت الكاثوليكي (١ : ١١٤٠) . اشهرهم تلامذة مار مارون . (راجع تاودوريطوس : تاريخ الرهبان 1431, 1419, LXXXII, PP. GG. T. ومن هؤلاء النسك من جعل له عموداً فصعد عليه كالقديس سمعان العمودي وغيره

كتاب المنارة (١ : ٦٠, ٦١)

وكانت الدار المذكورة تشتمل على « القراءات والمنابر واجران المعمودية واجران الماء المبارك والمرائي وبيض النعام والنواقيس وما شاكل ذلك » اما ترتيب كل هذه الاشياء فكان على هذا النمط : تُقام أولاً قراءتان امام الدرازين من ههنا وهناك لاجل تلاوة الصلاة الجامعة التي تصير ليلاً ونهاراً وعليها تُتلى الكتب المقدسة وميامر الاباء وسنكسارات الشهداء . (ثانياً) اما المنابر التي تُنصب في الدار فبعضهم يقيمونها في اسفل البيعة وآخرون في وسطها والبعض في شمالي الدرازين لتقرأ عليهما الرسائل والاناجيل والوعظ وزياح الميرون والشهداء وامثالها . . . (ثالثاً) يوضع في الدار جرن المعمودية . وكان يُنصب من قديم بخارج الكنيسة او في دهليزها لكي لا يدخل البيعة الا من كان ابن النور . الا انهم ادخلوه الى الحُرانة لانه هناك يُحفظ تلوت الرازات (اي الاسرار) كما ترى ذلك في هيكل مار سابا بمدينة بشرى (١) . ويُعلّق فوق الجرن تمثال حمامة دلالة على استقرار الروح القدس . ويُتخذ الجرن من الحجر . (رابعاً) توضع في الدار اجران لاجل الماء الذي نباركه في الغطاس وفي تقديس البيعة وغيرهما . (خامساً) تعلّق في الدار المراني المدوّرة وبيض النعام . وهنا للدويهي بعض تفاسير رمزية نُحيل القراء الى مطالعتها في كتابه . ثم قال : « (سادساً) توضع النواقيس في الدار تنبيهاً للمؤمنين للاجتماع للصلاة »

يظهر مما سلف ان الشعب لم يجلس في الكنيسة على الكراسي وانه كان يجزر الاسرار منتصباً . لكن ذلك لم يصدّ المؤمنين عن الركوع . وللبطريك العلامة الدويهي فصل مطوّل (ص ٦١) يبحث فيه عن انواع السجود والركوع . على ان الجثو على الركب كان معتبراً كضرب من التعبد والامامة ولما الانتصاب هو هيئة المصلين الرسمية في الرتب الطقسية

وقصارى القول ان الكنائس المارونية كانت تتفق مع الكنائس اليونانية (او

(١) وجاء في كتاب التكريسات (ص ٢٣) انه يُفتح حينئذٍ باب خارجي « حتى تدخل النساء وتخرج بالسترة »

بالاحرى مع اليونانية واللاتينية معاً) في الخواص العمومية ولها مع ذلك فوارز تفصلها عما سواها بحيث يحكم صاحب الخبرة اذا رأى ما سبق لنا وصفه من طرائق بناء البيع وانواع هندستها الخارجة وتنظيم اقسامها ونقوشها ان الموارنة في سالف الزمان هندسة كنيسة خاصة بهم . وكنا وددنا لو لم يجد بناء الكنائس الحديثة لاسيا منذ مائتي سنة عن تقليد آبائهم القديم . وغاية ما نتمناه ان تحفظ الآثار الباقية منها لئلا يستولي عليها الخراب . وهذا ما حملنا على كتابته هذا الفصل في كنائس لبنان القديمة (١)

وان سأل السائل في اي عهد شاعت في لبنان هذه الطريقة الهندسية القديمة . أجبت ان الامر لا يخوض من الغموض والشبهة . وما يمكننا قوله ان اكثر هذه البيع سُيِّدَت قبل القرن الثالث عشر . وكان بناء بعضها في ايام الصليبيين على مثال كنيسة جليل . وهذا رأينا في كنيسة مار شربل في معاد وغيرها ايضاً من الكنائس كما رواه المؤرخ المدقق الدويهي حيث قال (ص ١٠٣) : « وفي سنة ١١١٢ شرع بعض اهل البرّ يبنون كنائس ٠٠٠ وكان للخوري باسيل البشرياني ثلاث بنات تقلا وصالومي ومريم نذرّ العمة وانفقن جميع ما يملكن على بناء الكنائس . اما تقلا فبنت في بقرقاشا هيكل مار جرجس ومار دومط . وفي بشنين من ارض الزاوية كنيستين احدهما على اسم القديس لبا الرسول (٢) والثانية على اسم القديس سركيس الشهيد ثم رقدت بالرب سنة ١١١٣ . اما اختها مريم فبنت هيكل القديس سابا في قرية بشرّاي . وصالومي انشأت هيكل القديس دانيال في قرية الحدث »

ويرتقي بعض الكنائس اللبنانية الى عهد اسبق فنحن ما بُني في القرن التاسع او الثامن ايضاً كبيعة كفر شليمان التي نعدّها من اقدم كنائس لبنان . ومثلها كنيسة مار ماما في اهدن (راجع قول الدويهي فيها المدرج اعلاه ص ٩٢) . وليس قولنا

(١) وهنا نكرّر طلبنا الى قرّائنا بان يبيدونا علماً عن الكنائس التي لم نذكرها في هذه المقالة ولا بأس ان يستدركوا علينا في ما يرونه مخللاً لنصلحه
(٢) القديس لبا او لبّاوس ويدعى تدّاوس معدود بين تلاميذ المسيح الاثني والسبعين

هذا الأجمالاً . ولو أطلع احد المهندسين الخبيرين على هذه الابنية لامكنة ان يزيد ايضاحاً في تعيين زمن بنائها

✱

هذا ونتميز هنا الفرصة لتكرار ما اثبتناه في السنة الاولى من المشرق (ص ٢٦١) في مقالة حررت تحت عنوان : « هيأ بنا على درس تاريخنا » . فكان من جملة البنود التي اقترحناها على جمعية طلبنا انشاءها في كل طائفة (ص ٢٨٣) « ان تعني بالصور القديمة في الكنائس . . . وتتم بحفظ هذه الكنائس نفسها »

فلم نر حتى الان تشكيل لجنة تقوم بهذا المشروع ولعله لم يفتكر احد في تأليف هذه الشركات الطائفة لتبرز الى حيز الوجود قسماً من هذه المقترحات . اما العلماء الاوربيون فانهم تلقوا فكرنا في تنظيم مثل هذه الجمعيات بما لا مزيد عليه من الرعاية والالتفات وحدا الامر باحد كبار المستشرقين الالمانيين وهو الدكتور ج . كهنباير الذي ذكرناه غير مرة في مجلتنا الى ان كتب فصلاً في « نشرة الاداب الشرقية » (١) استلقت فيه الانظار الى مقالتنا بل زاد على ذلك انه نقل الى الالمانية هذه النبذة وألحقها بملاحظات نورد منها شيئاً ليرى اهل بلادنا ما يبني الاوربيون من الآمال على تأليف جمعية كهذه . قال الدكتور ما تعريبه :

« لا حاجة ان نبين لقرائنا ما ينجم من الفوائد الجمّة من تشكيل جمعية تاريخية في سورية كما وصفها الاب لامنس . بل يأخذنا العجب من عدم انشائها حتى الان لا سيما ان بلاد الشام من الاقطار التي توفرت فيها الاثار التاريخية الدفينة التي يتوق الى كشفها العلماء . فنحن نوافق كاتب هذه المقالة في ما اقترحه من انشاء مكتبة مركزية في سورية لدرس تاريخ البلد وهذه المكتبة لا بُد ان تجعل فيها كل الكتب الادبية واللغوية والجغرافية التي تشتمل على احوال بلاد الشام وان يباحق بها متحف للآثار الى غير ذلك من التنظيمات التي عددها صاحب مقالة المشرق

ولا نشك في ان الذين يبحثون عن شروء البلاد الشامية يتهللون فرحاً اذا ما تحققت اماني حضرة الكاتب

« ونحن الاوربيون نبنى آمالاً طيبة على تنظيم جمعية تاريخية يكون اعضاؤها شرفيين . لان ابناء الوطن يكتنهم ان ينالوا بزمن قليل ما لم يثله الغرباء بعد الجهد الجهد واذا تشكّلت هذه الجمعية الوطنية بادرت الجمعيات الاوربية الى مكاتبها فتقوى بذلك على اتمام مشروعات علمية ذات شأن خطير »

هذه شهادة اثبتناها ليرى القراء ما للعلماء الاجانب من الكآف بامور الشرق .
ويا ليتنا لا نتأخر عن تلبية دعوتهم فلا نجيب آمالهم فينا

وفي ختامنا هذه المقالة التي خصصناها بذكر الكنائس القديمة في لبنان كنّا وددنا لو امكننا ان نوصي هذه الجمعيات التي نطلب انشاءها منذ سنتين بالمحافظة على هذه المعابد القديمة قبل ان يستولي عليها الخراب . وعلى كل حال اننا نوجه دعوتنا الى ذوى الامر طالبين اليهم ان يصونوا هذه الآثار ولا يدعوا يداً اثيمة تصليها باذى . واذا مسّت الحاجة الى ترميمها فليصلحوا منها ما خرب مع مراعاة هندستها القديمة . فان هذه كانت وصية الثلث الرحمت البطريرك بولس مسعد الذي كان حريصاً على حفظ تلك المآثر الناطقة بما فرّقت في غابر الازمان . على اننا نقرُّ بكل سداجة ان معظم خوفنا من البناة المحدثين الذين يتخيّلون ان هذه الابنية لا طائل تحتها فيخربونها لا تحاذ موادها او لتجديدها كما يزعمون وهذه الطامة الكبرى

فيا حبذا لو امكننا بما سطرناه في هذه المقالة عن كنائس لبنان ان نكف يد الدمار عن بقايا الزمن القديم فان اصبنا المرام لا نتأسف على الاتعاب التي تجسّسناها لهذه الغاية الشريفة

٢١ دخول النصرانية في لبنان

لهذا البحث علاقة طبيعية مع بحثنا السابق عن كنائس لبنان القديمة فلا يسعنا إلا الخوض فيه هنا

روى رينان في كتاب بعثة فينيقية عن الموارد أنهم يدعون كون الوثنية لم تشع في وطنهم مطاقاً وهذا افتراء في حق أهل لبنان الذين لم يذهبوا الى مثل هذا القول الباطل . وكيف ياترى يزعم اللبنايون بذلك وكل أنحاء جباهم تنطق بشيوع عبادة الاصنام في القرون الغابرة وفيه من آثار الوثنيين ما سبق وصفه في مقالاتنا وما لا مرية فيه ان لبنان كبلاد الشام جمعاء كان يدين بالشرك بل بقي عزلة موقعه بنوء تحت عبء الوثنية مدّة بعد ان ارسلت النصرانية اشعتها على سورية اجمالاً وعلى فينيقية خصوصاً وكانت مدنها الساحلية على طريق دعاة الدين المسيحي فنالوا من انواره حظاً واثياً قبل سواهم

١ لبنان واول مبشّريه

ارتأى بعض الكتبة ان المسيح وطى ارض لبنان واستندوا في تأييد رأيهم على آيتي متى (٢١: ١٥) ومرقس (٢٤: ٧) حيث ورد عن الرب لذكره السجود انه ذهب الى تخوم صور وصيداء . غير ان هذا الموضع لا يصحّ بذكر الطريق التي سلكها المسيح وقد زادنا القديس مرقس في الفصل ذاته ايضاً اذ قال (٣١: ٧) : « انه خرج من تخوم صور ومر في صيداء وجاء بين المدن العشر الى بحر الجليل » . فان الطريق التي تؤدي توماً من صيدا الى المدن العشر تمر في منصرف لبنان جنوبي شرقي صيداء فتبلغ النبطية او جوارها عابرة على نهر الليطاني عند الجسر المعروف اليوم بالقعقاعية فتنتهي الى جنوبي شرقي بلاد بشارة . وهذه الطريق تسير عليها السابلة الى يونا والطبيعة نفسها ترشد اليها . فلهذا الرأي كما ترى سندٌ ولا حرج على من يقول به (١)

وللكتبة المحدثين قول آخر او تقليد محلي يزعمون بوجبه ان السيد المسيح لم

(١) راجع المشرق (١١: ٨١-٩٢) مقالة الاب القرد دوران في رحلة المسيح الى فينيقية

يدخل فقط صيدا بل بلغ أيضاً حتى ثغر بيروت . والتقليد المذكور اثبتة في القرن الخامس عشر احد الزوار الالمانين يُدعى برينتباخ (راجع المشرق ١ : ١٩١) . ثم اوردته كوارزميوس في كتاب وصف الاراضي المقدسة (١) وذكره احد ادباء الالمان في مقالة طبعها سنة ١٦٩٢ عن بيروت وآثارها . ولعل هذين الاخيرين نقلا ما قاله برينتباخ . وهذا التقليد على ما نظن ايس بثبت ولا نرى وجهاً لتوفيته مع ما رواه الانجيليون

لكن الله منح بيروت نعمةً أخرى يحق لاهلها ان يفتخروا بها نزيد احتلال القديس بطرس هامة الرسل في ربعا . وهو امر يقبله العقل ويؤيده النقل . اما العتل فلان بطرس الصفا انتقل غير مرّة من اورشليم الى انطاكية فترتب عليه ان يجتاز في بيروت وهي اذ ذاك من اعظم مدن فينيقية شأناً . اما النقل فلنا منه شهادة قديمة تعزى الى تلميذ بطرس الرسول وخلفه في كرسيه البابري القديس اقليميس وردت في كتاب الابحاث والميامر (٢) . وهو تأليف قد اختلف العلماء في كاتبه الا انهم يتفقون على كونه سبق اوائل القرن الثالث

وفي الكتاب الموماً اليه فوائد أخر عديدة عن تاريخ النصرانية في فينيقية والانحاء المجاورة لمدينتها الساحلية لكننا لانقل عنه غير ما زاه راهتاً مقررّاً توافقته الشواهد القديمة (٣) . ومن ذلك ما جاء عن جبيل (٤) ان الرسول الهامة اقام لها اسقفاً حنا مرقس احد تلامذته وكان المذكور ولد في اورشليم وهو نسيب للقديس برنابا (٥) وفي بيته نزل بطرس الرسول لما انقذه الرب من ايدي هيروودس (٦) . فسقفه على جبيل كما تشهد على ذلك المنكسارات الشرقية اليونانية والمرايانية المارونية فضلاً عن الكلندار

(١) راجع كتابه Elucidatio Terræ Sanctæ

(٢) طالع مجموع آباء اليونان لمن الجزء الاول والثاني

(٣) وقد عدلنا عن ايراد هذه الامور ليس فقط لان مؤلف كتاب الابحاث مشتبه فيه

بل لاسباب اخرى يوذي بنا ذكرها الى الاطالة

(٤) وقد ذكر عن بيروت ان القديس بطرس سام لها اسقفاً يُدعى كوارتس

(٥) راجع رسالة القديس بولس الى اهل كورنثوس (٤ : ١٠)

(٦) اعمال الرسل (١٢ : ٢١)

الروماني الذي ذكر عيده في ٢٧ ايلول . والمؤرخون الاقدمون يوافقون في ذلك الاثار
الطسبية

فمن ثم تكون اسقفية مرقس المذكور الاثر الاول لدخول النصرانية في لبنان لان
جبيل كما اشرفنا الى ذلك سابقاً (ص ٦٠ و ٦٧) كانت مرتبطة بلبنان ارتباطاً غير
منفصم بل كانت معدودة منه داخلة فيه كما ترى في عهدنا . وبما انها كانت محاطة
ببدة هياكل مقدسة تشرف عليها من الآكام والرؤى المجاورة لاسيا هيكل اققا
والمشنة (ص ٣٩-٤١ و ٤٩-٥١) فكان الفيثيون يعدونها مثل كعبة دينهم
يخرجون اليها من اقطار بعيدة فيتمون فيها مناسكهم الدينية التي باسروها في هياكل
لبنان ويكرمون بزيارتها ادونيس والزهرة

هذا ولا نعلم ما ناله اول اساقفة جبيل من النجاح في تسمية رسالته المتدسة .
الاغرو انه لقي في دعوته عوائق شتى حالت دون رغائبه الخلاصية . وبما لا ينكر
ون في ذلك الوقت عينه اذ بزغت شمس النصرانية في اقطارنا الشرقية صار للدين
الوثني نهضة جديدة في لبنان فان تاريخ بناء بعض هياكل الاصنام فيه يرتقي الى
ذلك العهد كهيكل فقرا (ص ٥٣) وغيره . ولم تزل الوثنية في عز وترق في مطاوي
القرن الثاني للمسيح وفي اوائل القرن الثالث

واشتد ازاد الدين الوثني في لبنان بملك الامبراطور الروماني ادريان الذي زار لبنان
في بدء القرن الثاني وسكن مدة جبيل . وكان هذا القيصر من عبدة الزهرة يظهر
لها التجلة والاکرام وقد بنى لها في رومة معبداً كبيراً وادخل عبادتها في بيت لحم
لمعكسة النصرانية . ومن آثاره الباقية في لبنان الكتابات العديدة التي وصفها اصحاب
العاديات وذكرها في مقالاتنا المرة بعد المرة . ولا نشك انه حج الى معابد الزهرة
وادونيس خصوصاً في اققا ودير القلمة (١) كما انه شيّد بعض الهياكل ورّمس غيرها لاسيا
في جبيل وكانت تُعد في ايامه كاحدى حراضر المدن وامهاتها
وجرى خلفاء ادريان على سنه فعرّزوا في لبنان الشرك والتوثن كيف لا وبعضهم

(١) ولعلّ النصب الذي وصفناه في المشرق (٣ : ١٢٢) قد اقيم حفوةً يوماً زار
هذا المعبد

كانوا ولدوا في لبنان او المدن الملاصقة له فنُحِصَ منهم بالذكر اسكندر ساويرس الذي كان مولده في هيكل الزهرة في عرقا . ولذلك ترى كثيراً من الآثار الدينية النخيمة التي ترى في لبنان حتى يومنا هذا قد سُئِدَت في ذلك العهد . ومنها هيكل بعلبك وحصن سليمان في جبل النصيرية اللذان تشهد على اصلهما كتب المؤرخين . وفي لبنان مبانى أخرى غيرها يُجهل تاريخها والارجح انها بُنيت في الوقت عينه لما فيها من الشبه مع ابنية ذلك العصر كحصن صافيري في الضنية وناس قرب كسبا وبززا في الكورة وغير ذلك مما ستورد ذكره في مقالاتنا

وهذه الغيرة التي زاما في عدة الاوثان في اوائل النصرانية تدلّ دلالة واضحة على انّ المشركين في لبنان أبوا إلا ان يدافعوا عن آلهتهم لأنّ تحطيم ديانة المسيح عن مقامهم الرفيع الذي بلغوا اليه سابقاً

ولكن دعنا نستوفي اخبار النصرانية في لبنان في اواخر القرن الاول . افادتنا التأليف المنسوبة الى القديس اقايميس انّ القديس بطرس احتلّ طرابلس واقام عليها اسقفاً يدعى مارون . وهذا الامر ذو شأن لا نرى في صحته التاريخية مشكلاً وان كان مدون هذا الخبر زاد فيه من الاوصاف الرومية ما لا يقبله العلم الصادق . ويسرنا ان نرى في ذلك العهد اسقفاً جليلاً يتبعن قراوتنا الموارنة باسمه وقد اشتهر في مدينة تطلّ عليها تلك الجبال التي صارت بعدئذٍ مهد طائفتهم العزيزة

ومن الآثار النصرانية التي ترتقي الى القرن الاول استشهاد القديس تادّوس الذي روى عنه الرواة الاقدمون انه رُجِم في بيروت لاجل الايمان وفي تعريف الشهيد المذكور رأيان مختلفان فزعم البعض انه احد تلامذة الرب السبعين وذهب غيرهم الى انه هو الرسول يهوذا او تداوس اخو يعقوب البار . ويصعب علينا جزم الامر لقلة الادلة . وانما جاء في تاريخ البطريرك ساويرس (راجع المشرق ٣ : ١٠٠٤) ان بيروت كانت تحتوي كنيسة باسم القديس يهوذا اخي يعقوب البار في القرن السادس (١) وهذا لعمرى اثرٌ حسن يشهد بقدم التقليد عن القديس يهوذا المذكور

٢ نزاع النصرانية والوثنية

يحصّل من فصلنا السابق ان لبنان لم يحرم من نعمة النصرانية منذ القرن الاول من تاريخها . ولا جرم ان الدين المسيحي نما في القرنين التاليين . الا ان الآثار القديمة لا تكاد تفيدنا عن شوونه شيئاً فنظن ان غمّوه كان بطيئاً لما تصدّى له من العرائق من قبل المشركين الذين كانوا اتخذوا هذا الجبل كمعقل لدينهم فبنوا فيه الهياكل العديدة وشيّدوا الآثار الدينية فلحقوا في اخلاق الجلبيلين وطباعهم الغلظة ما قوى روح التعصب بينهم . وعلاوة على ذلك نرى الشيع الوثنية ليس في الشام فقط بل في كل انحاء المعمور قد التجأت الى مشارف الجبال بعد ان دحرتها النصرانية في المدن العامرة وسفوح البلاد ولنا على ذلك شاهد في جبل برجياوس المعروف في يومنا بجبل النصيرية فان سكانه اصروا على وثنيّتهم الى القرن السادس مع ان هذا الجبل دون لبنان في علوه واسهل منه مرتقى

وهذه الملاحظات العمومية عما لقيته النصرانية في طريقها من العثرات يؤيدها التاريخ القديم الذي لم يذكر الدين المسيحي في لبنان الا نادراً . وكذلك الآثار الكتابية فان الوثنية منها كثيرة امّا النصرانية فهي قليلة جداً . فكل ذلك دليل واضح على ما نال ديانتنا المقدّسة من المقاومات والمدافعات قبل ان ترسخ مبادئها القويمة في ارض لبنان حتى صارت في توالي الاعصار عصمة اللدين لاسيما بعد ان توطنت هذا الجبل الطائفة المارونية المعروفة بجهاستها الدينية

وفي عهد الملك نورمان القيصر الروماني (٢٨٣-٢٨٤) تشرف لبنان بوفاة احد ابنائه شهيداً وهو الطبيب طليليوس (لعله كككل اي مظال ومحبي) وكان استشهاده في قيليقيا وما ورد في ترجمة حياته انه قال للحاكم لما طلب منه نسبة : « اني ادعى طليليوس ومولدي في لبنان واسم ابي بريكوكيوس (لعله كككل اي مبارك) وهو نصراني واحد ضباط الجيوش . وتدعى امي روميانيا واخي يوحنا هو شماس (١) . فحكّم الوالي على طليليوس بقطع الرأس بعد ان مثّل به واذاقه مرّ النكال الا ان

الله عزَّ وجلَّ أشهر قداسة عبده بما اجتزعه من المعجزات الباهرة على قبره حتى ذاع اسمه في اقاصي الشرق

ومن النص السابق يصبح لنا ان نستنتج ان النصرانية كانت اخذت في الامتداد في لبنان منذ اوائل القرن الثالث لاننا نرى العشرات فضلاً عن الافراد يدينون بدين المسيح . وكذلك وجود شماس في أسرة لبنانية يدلنا على وجود الرتب الكنسية وكل ذلك لا يقوم الا بكنائس منتظمة . ثم ان اسماء المذكورين الا واحداً منها آرامية الاصل فذلك بيته على ان لغة اللبنانيين لم تزل بعد آرامية اى سريانية

ولا بد هنا من ملاحظة على موقع لبنان الذي ذكره الشهيد طليليوس فتقول انه لا يدل ضرورة على لبناننا الحالي لان اسمه كان في ذلك العهد يشمل الجبال الواقعة في شمالي نهر الكبير فالهم نجسد في معرض قول الكتبة الاقدمين ما يزيل الشبهة يصعب علينا ان نستدل على جهته المنوية

وفي سنة ٢١١ للمسيح زان الله باكليل الاستشهاد هامة فتارة من عذارى جبيل تدعى اكويلينا فقصفها المعتصبون كغصن رطيب وليس لها من العمر سوى ١٢ سنة . وقد اخبر البولنديون (في اعمال القديسين اليوم ١٣ من حزيران) ان نصارى المدينة جمروا ذخائرهم المقدسة فدفنوها بزيد الاكرام ثم تعدت العجائب على قبرها . الا ان عبادتها اليوم قد اندثرت فلم يبق لها ذكر بين مواطنيها وهو امر غريب لولا ان التاريخ ينبتنا بنقل جسمها الطاهر الى القسطنطينية في القرون التابعة فاصابت هناك من تعبد الاهلين ما فقدته في وطنها

وقد ارتأى الاب مرتينوس اليسوعي في تاريخه المخطوط عن لبنان (ص ٢١٣١) ان ذكر الشهيدة اكويلينا قد امتزج في كرا الاعصار باسم قديسة اخرى تعرف بمرتينا التي يكرمها اهل جبيل اكراماً عظيماً وفي جوار بلدتهم معبد شيدوه على اسمها يججون اليه من كل اوب والزوار يأخذون من ترابه شيئاً فيعتبرون به . واكثر ما يأتيه المؤمنون في ايام قطف دود القز

وتشرفت ايضاً طرابلس في ذلك العصر بشهادتها منهم الشهيدان مغداليتيس (راجع البولنديين في ١٢ حزيران) ولوسيان اولوسيوس (راجع السنكسار الروماني في ٢٤ كانون الاول) . ولا نعرف من امر لوسيوس المذكور الا اسمه كما صرح بذلك

العمر يُدعى افيان أو أمفيان كان اصله من ليقية ودرس في بيروت ثم استشهد سنة ٣٠٥ في قيسارية فلسطين وله من العمر ٢٠ سنة فقط (١) . وفي ايامه مات في سبيل الايمان في انطاكية الكاهن زينوبيوس وكان اصله من صيدا . وقد روى اوسابيوس في تاريخه (ك ٨ ع ٣) انه كان طبيباً وانه اتقن الطب حتى برز فيه واخذت النصرانية بعدئذ تروى وتنتشر في مدن فينيقية الساحلية حتى ان الاسر الشريفة نفسها صارت تدين بدين المسيح . وقد انبأنا التاريخ بذكر شاب بيروتي كريم المحدث اسمه پنفيل كان درس على اشهر اساتذة وطنه حتى اضحى نسيح وعدم في العلوم الدنيوية لكنه آثر عليها درس الاسفار المقدسة فانتقل الى قيسارية حيث رقي الى درجة الكهنوت وأنشأ له مكتبة حافلة بالتأليف القديمة . وكان موته استشهاده سنة ٣١٠ (٢)

وفي ذلك العهد ايضاً ألع التساريخ الى بعض النصارى الذين حكم عليهم المقتصرون بتعدين معادن لبنان . والمرجح انهم ارادوا بهذه المعادن مناجم الحديد التي اشتهرت في بعض المعاملات لاسيا البترون وكسروان والمستن الى اواخر الترون المتوسطة . وفي ذكرها بين اعمال الشهداء ما يوقفنا على تاريخ المعادن في لبنان على ان النصرانية لم تلبث بعد هذه المهن ان تنتصر على اعدائها فخرجت ظافرة مجهزة على يد قسطنطين الكبير ودخلت في طور جديد ولم تزل منذ ذلك في ترق متداوم بينما كانت الوثنية تتقهقر وتهبط حتى انتشع ظلامها ودرست آثارها لكن عبادة الاصنام أبت ان تنكص على الاعقاب دون المدافعة والنزاع . فان الشرك بقي زمناً طويلاً حتى بعد تنصر قسطنطين وربما سعى في رد غارات دين المسيح . وكان كثير من عبدة الاوثان لم يزالوا يترددون الى هياكل الالهة الباطلة . وكان سدنتها يعرفون علانية باسم كهنة الاصنام تدل على ذلك كتابة وجدت في دوما جاء فيها ذكر كاهن يُدعى كاستور يلقب نفسه بكاهن اله الطب اسكولاب والهة الصحة

(١) راجع اوسابيوس في تاريخ شهداء فلسطين واعمال البولنديين في ٢ نيسان

(٢) راجع التاريخ الكنسي لاوسابيوس (ك ٨ ع ١٤) واعمال القديسين للبولنديين في

١٦ شباط و ١ حزيران وكتاب القديس ابرونيوس في المشاهير (العدد ٢٥)

وقد اثبتنا في مقالة سابقة عن افكسا ان قسطنطين الملك دمر هيكل الزهرة فيها . والظاهر ان الوثنيين انتهزوا الفرصة في عهد يليان الجاحد ليجددوا بناء هذا المعبد فانما زى عبدة الاصنام في القرن الخامس المسيح ينجون اليه لاقامة مناسكهم الدينية (١)

وان تتبعنا التقاليد الشائعة في بلاد الشام وجدنا من الآثار ما يعزوه اللبنانيون الى القديسة هيلانة ام قسطنطين كبعث البروج المبنية على ساحل البحر يزعمون انها اقامتها لتبلغ ابنا اخبار الاراضي المقدسة واكتشاف الصليب . الا اننا بيننا ان هذه التقاليد لا صحة لها (راجع الصفحة ٥٧) وان هذه البروج شيدت بعد ايام الصليبيين لمراقبة الساحل ورد غزوات الفرنج . ولم تك هيلانة لتحتاج الى مثل هذه البروج لمخاطرة ابنا مع ما كان لديها من البريد برا على السكك الرومانية ومن السفن بحراً وهي تستطيع ما شاءت ان ترسل ابنا في وقت وجيز . ثم ان التاريخ يفيدنا عن ام قسطنطين انها قدمت فلسطين بحراً وآبت راجعة كذلك دون ان تتلبث في مدن فينيقية وتزور لبنان

ومما لا شبهة فيه ان الدين النصراني كان فاز السهم المعلى في الساحل الفينيقي في اواسط القرن الرابع مع ما تحأف فيه من بقايا الوثنية فضلاً عن جماعة من اليهود كان اكثر سكانهم في بيروت وصيدا . وقد روينا في مقاتلتنا عن الزلازل في بيروت (المشرق ٢ : ١٧١) ان عدداً غفيراً من المشركين طلبوا العباد بعد زلزلة ٣٤٩ لكن ارتدادهم كان عائله الخوف فعادوا بعد زوال الخطر الى ضلالهم وابدعوا شيعة خاطوا فيها الدين المسيحي والوثني وابتدوا لهم معبداً اقاموا فيه رتبهم المستهجنة ولم يعرض على ذلك زمن يسير حتى اقام الله لكنيستهم انصاراً اجتذبوا اهل الضلال الى النصرانية باهتالهم اكثر منهم بكلامهم . وان هولاء الا النساءك والحبساء الذين أروا الى مناوئهم الى اديرة اضعحت بهتهم كمنائر سطع منها ضياء الدين المسيحي فبددت ظلام الوثنية تماماً

(١) راجع مقالة الدكتور ج. روفيه المعنونة 16. 15. Le temple de Vénus à Afka, p.

في مبادئ العيشة الرهبانية في لبنان

قال القديس ايرونيوس في ترجمة القديس هيلاريون (ع ١٤) : « لم يعرف احد من اهل الشام ناسكاً قبل هيلاريون » فمن ثم يظهر ان ارسسس الذي سبق لنا ذكره مات ولم يقتدر بنسكو احد الى عهد القديسين انطونيوس الكبير وهي هيلاريون وليس هذان الناسكان هما اللذان انشأ العيشة النسكية في لبنان كما يروي تقليد بعض اللبنانيين خلافاً للتاريخ الصادق . وزد على ذلك ان القديس انطونيوس لم يخرج قط من القطر المصري والصواب ان مثلهما حمل نصارى الشام على التشبه بهما

ولا غرو انه بوشر منذ ذلك العهد بانشاء المحابس في لبنان بيد ان التاريخ لم يذكر من امرها شيئاً لثقة اعتبارها . وانما روى اخبار مناسك أخرى تُدعى منسدة (μασδα) ومعناها حضيرة النعم كان العباد يجتمعون فيها تحت رئاسة بعض اكابرهم يدعونهُ لذلك ارشيمندريتا اي رئيس المنسدة . وربما كانوا يدعون ايضاً هذه المناسك لورا (λωρα) او قيشوبيون (κισυβιον) ومعناها المتدى والمجتمع . وكان اسم المنسدة شائعاً في مصر وجنوبي فلسطين اما الاسمان الاخران فاشتهرا في سورية . ولعل منسدة احدي مزارع البتاع بمجوار تغنايل اشتقت اسمها هندا من دير كان سابقاً بقربها (١)

لو تفتينا آثار الكتب التاريخية لوجدنا ذكر بعض هذه الاديرة القديمة الراقية الى اواخر القرن الرابع واوائل الخامس . منها عدلون بين صيداء وصور ليس بعيداً من صرْفند . فان فيها عند البحر صخرًا عاليًا حفر فيه نحو ٢٠٠ كهف . ولعل هذه المغاور كانت في بادئ الامر مدافن للموتى ولكن لدينا من الأدلة ما يجعلنا على القول ان الرهبان اتخذوها لهم كمساكن أووا اليها . من ذلك ما ترى فيها من اشارات النصرانية

(١) وكذا دُعيت بعض المدن في اوروبا باسماء الاديرة المجاورة لها مثل موتيار او موستيار Moustier او Moutier في فرنسا ومُنستر Munster في المانية الخ وكلها مشتقة من monasterium اي دير

وفيها صهاريج محكمة الصنع ومراقي منقنة يُصعد منها الى طبقات المغاور العليا وتجمع بين القلايى . ومن اعتبر هذه المساكن الغريبة لا يشك في انّ الرهبان وحدهم امكثتهم الاقامة فيها ويؤيد ذلك ما درّته المؤلفون في تراجم بعض الابهاء انهم كانوا يعيشون في المقابر . وهذه المقابر كانت عبارة عن مغاور مختلفة الكبر اتخذها الاقدمون لموتاهم . والمرّجح عندنا ان عدلون من هذا القبيل . فمضى ان يجد العلماء نصّاً تاريخياً يزيل عنّا كل شبهة في الامر

وايس بمستبعد ايضاً ان الاغوار المنقورة في الصخر في وادي مطّل على بلاد البقاع بقرب قرية فرزل شمالي زحلة كانت مأوى السياح . يستدل على ذلك بدلائل عديدة . وهذه الكهوف تشبه في ترتيبها مغاور عدلون والاهلون يدعون موضعها الحبيس ويزعمون استناداً الى تقاليد قديمة ان سياح القرون الغابرة سكنوها وفي سفح هذه المغاور جدول ماء صافٍ يتفرق سائحاً

ومن جملة الاماكن التي يُشار اليها بالشواهد المنقولة أنّها كانت في سالف الزمان كمعاهد للرهبان مغارة عند قرية هرمل على مقربة من اكبر روض نهر العاصي . ولهذا التقليد اثر في كتبة القرون المتوسطة كالي الفداء والفاقشندي وغيرها وهم يدعون هذا المكان باسم مغارة الراهب . والموارنة يدعونها « دير مار مارون » . ولا يزال الجبل المطلّ عليها مع الاملاك المجاورة لها خاصة رهبان لبنان الانطونيانيين ويسكن البعض منهم هذا المكان في عهدنا الحاضر مع ان سكان هذه الايالة كلهم من المتناولة . وهؤلاء يعرفون هذه المغاور باسم القصور وما لا ريب فيه انّ الناس تحصّنوا فيها سابقاً يُستدل على ذلك بما اقاموه من الابنية في مدخلها للمدافعة عنها فزادوها منعة على حصانتها الطبيعية

ومغارة الراهب تفوق مغاور عدلون وفرزل بحاسنها . وكانت في الاصل طبيعية سكنتها كما يظهر قبائل عادية في الاعصار السابقة التاريخ واملّ هذه القبائل فضّاتها على سواها لحسن موقعها قرب نهر كبير . ألا انّ الخلف حسّنوا عمل الطبيعة وأضافوا اليه منتديات تقروها في الصخر على احسن هتدام مع قبة ذات حنية مقووسة ودرجٍ داخليّ يُصعد منه الى الطبقات العليا وبئر عميق الغور يبلغ الى مياه النهر . وكل ذلك منحوت في الصخر الاصم

ومن المنازل التي احتلتها في العهد القديم نساك لبنان وادي قزحيسا والقاديشا . وبقايا العيشة الرهبانية فيها ظاهرة حتى الان صبرت على الايام وتقلبات الدهر . وكان بعض الرهبان يعيشون فيها عيشة عموميّة فيجتمعون للصلاة والشغل في كهوف واسعة منقورة في الصخر ترى واحداً منها اكبر من سواه في وسط الوادي . وبعضهم كانوا يفصّاون العزلة التامة فيعيشون منفردين في مغاور متفرقة في جانبي الوادي منحوتة في صخره تجري منها ينابيع صافية ويجدق بها النبات وكلها غاية مايرام لعيشة العباد وفي بيرة وادي قاديشا دير قثوبين تعريب (κοιτοβιον) يعزو التقليد المحلي بناءه الى الملك ثاودوسيوس الكبير . والامر ممكن الان النصرص التاريخية لا تنفيذنا في ذلك علماً . وعلى رأينا ان ثاودوسيوس منشى هذا الدير ليس هو القيصر الشهير بهذا الاسم بل احد كبار آباء الطريقة النسيكية . وقد عرف بهذا الاسم في ذلك العهد رجلان عظيمان تكرمهما الكنيسة بين اولياء الله . احدهما ثاودوسيوس الانطاكي انشأ في قيليقية ديراً كبيراً والاخر اصله من قبادوقية اشتهر في فلسطين وابتنى ديراً واسعاً تقاطر اليه الرهبان من كل فجّ وأوب كان بينهم يونان وارمن وصقالبية . ولا جرم بان السوريين واللبنانيين تتلذذوا له ايضاً . وكان ثاودوسيوس المذكور قسّمهم اقساماً على حسب اصلهم ليستجوا الله في لغاتهم المختلفة وساسهم الى ان توفي في اوائل القرن السادس وله من العمر ١٠٥ سنين . ومن اطلع على ترجمة هذا القديس لا يرى فيها صريحاً انه قدم لبنان ولعله زار هذا الجبل في رحلته الى مقام سمعان العمودي (١) . ولكننا نعلم من تاريخه ان تلامذته انشأوا اديرة عديدة في النحاء شتى . فلا نرانا نتجاوز حدود الحق ان قلنا عن احدهم انه احتل قثوبين فأسس فيها ديراً نسبة الناس بعده الى القديس ثاودوسيوس استاذه ثم اشبهه الاسم على الخلف فقلنا ان المنشى هو ثاودوسيوس الكبير الذي اشتهر بتقواه وتذكركه الكنيسة اليونانية في عداد قديسيها . وما يؤيد هذا الرأي اننا نرى الطائفة المارونية تكرم ثاودوسيوس ابا الرهبان اكراماً خصوصياً وتعدّه بين مشاهير النساك (٢) . وهذا لعمرى شاهد واضح على ان اسمه كان ذائعاً في لبنان

(١) راجع اعمال البولنديين في تاريخ ١٦ كانون الثاني (ص ٦٨٠)

(٢) راجع تاريخ الطائفة المارونية للدويهي (ص ٢٢)

ترقي النصرانية في القرن الرابع

حان ان نعود الى تاريخ انتشار النصرانية في لبنان بعد استطرادنا الى ذكر مبادئ العيشة الرهبانية فيه

لما تبوأ قسطنطين الكبير منصّة الملك اخذت قدم النصرانية ترسخ في لبنان ولعلها كانت طمست آثار الوثنية لولا بدعة آريوس التي بذرت في قلوب المؤمنين وخصوصاً بين الاساقفة بذر الشقاق والنفور فجعل الآريوسيون يفرغون كنانة الجهد في مطاردة الرعاة الاورثوذكسيين ومعاكستهم لا يهتّمهم شيء من امر الوثنيين وانارتهم بضياء الايمان . بل كان المشركون يزيدون تباعداً عن الكنيسة لا يرون في احبارها من تفرّق الكلمة في اكبر عقائد النصرانية اعني لاهوت المسيح ومساواته لابيهِ في الجوهر

ثم تملك جليان الجاحد فأولى الوثنية انتصاراً لم يكن في حسابان اهلها . فاستأنف المشركون فتح الهياكل المقلدة ورّموا ما تهدّم من المعابد . والمرجّح ان هيكّل الزهرة في افقا جُدد بناؤه في ذلك العهد كما أصلح قسم من معبد المشنقة (١) وعاد الوثنيون فاحتفلوا باسرار ادونيس اي تموز باهية عظيمة كألوف عادتهم سابقاً . ونال بيروت نفسها اضطهاد عبدة الاصنام فان الكنت مغنوس قدم هذه المدينة ومعه فريق من الجند واليهود فاخربوا كنيستها الكبرى ولاغروان كنائس لبنان اصابها ما اصاب كنيسة بيروت من حريق ودمار

ولكن الله اللطيف بعباده جازى وشيكاً جليان على كفره وأقام خلفاً له يُقيان وكان رجلاً تقياً مبغضاً للمشرك فامر الكنت مغنوس بان يشيد كنيسة بيروت على نفقته ولولا حاتم الملك لقطع رأسه واصاب الجزء عما جنت يده من الآثام العديدة وممن اشتهروا في ذلك العهد ناسك لا يزال ذكره مكرماً في لبنان وهو القديس موسى الحبشي الذي اختارته ماوية ملكة العرب اسقفاً لقومها وسامته

القديس اثناسيوس الاسكندري فتولّى رعاية العرب المقيمين في شبه جزيرة سينا وفي جنوبي فلسطين

ولما صار زمام الملك الى يد ثارودوسيوس الكبير أصيبت الوثنية في سواد قلبها فان هذا العاهل الشهير امر كبير قواده سنة ٣٨٤ بان يُفصل هياكل الاصنام ليس فقط في لبنان بل في الشرق بأسره . وفي سنة ٣٩٢ في العشر الاول من تشرين الثاني سنّ شريعة ثانية كان مؤداها ان تبطل عبادة الاوثان فلم يتجاسر الوثنيون على متاومة السلطة . لكنّ بعضاً منهم ثبتوا على عاداتهم ومارسوا دينهم خفية في القرى المنفردة والجبال القاصية . وكان القياصرة مع ذلك لم يهدموا هياكل الاصنام بل اكتفوا بان يبطلوا فيها المناسك الدينية . والدليل على قولنا ان الدستور المعروف باسم ثارودوسيوس يتضمّن عدة شرائع سنّها الملك النصراني تقضي بمعاينة الذين يسمعون في خراب الهياكل الوثنية وكانت غايتهم بذلك ان يحافظوا على آثار الاقدمين لحسن هندستها (١) وكانوا في الغالب يخصّصون هذه الابنية لخدمة الدين الحقيقي فيجعلونها كنائس مسيحية (٢) . الا ان ذوي الامر اضطروا في بعض المواطن الى استعمال القوة الجبرية وتقويض المعابد الوثنية خصوصاً في بلاد فينيقية ولبنان . فمن جملة الابنية التي اجاءتهم الاحوال على نسفها زونُ الزهرة في افق لان سدنته كانوا اتخذوه كهاخور يجترحون فيه الفحشاء وافطع الارجاس باسم دينهم الباطل

ومن بدء القرن الخامس للمسيح لما استولى القديس يوحنا فم الذهب على كرسي القسطنطينية (٣٩٨ - ٤٠٧) اراد ان يستأصل من لبنان شأفة الشرك فارسل قوماً من دعاة الدين ليرشدوا اهل لبنان الى طريق الهدى (٣) وقد لاقى هؤلاء

(١) راجع P. Allard ; *L'art païen sous les empereurs chrétiens*

(٢) راجع كتابات سورية وهوران لوادنغتون (ع ٢٤٩٨) . ومن الهياكل التي جعلها النصراني كنائس هيكل بعلبك المعروف باسم تريليتون (Trilithon) وكنيسة مار يوحنا في دمشق المعروفة اليوم بالجامع الاموي

(٣) راجع تاريخ ثارودوريطس (ك ٥٥ ع ٣٩) ورسائل القديس يوحنا فم الذهب (ع ١٢٣, ١٢٦) الا ان هذه الرسائل مع ذكرها لبنان لا توضح جلياً أيرادُ بو لبنان الحالي او جبال النصيرية ولعلّ المقصود منها هذه الاخيرة

المسلمون في تنفيذ دعوتهم مشاكل عديدة فطرد الاهلون بعضاً منهم وقتلوا آخرين . على ان هذه المعاملة السيئة لم تكن لثني عزائمهم فواصلوا الانذار والتبشير وبالغوا في ملاطفة السكّان حتى اجتذبوهم الى عبادة الاله الحقيقي . وبمّا اتخذوا من الوسائل لإبطال الوثنية انهم جعلوا لاهل لبنان الاعياد واقاموا المواسم احتفاءً بأسرار الدين النصراني الطاهرة فعدلوا بهم عن الحفلات الوثنية الى العبادات والناسك الخلاصية

تنظيم الكنائس في لبنان

وفي مطاوي هذا القرن الخامس جعلت كنائس لبنان على نظام قانوني فقسّمت الى قسمين كنائس فينيقية الساحلية وكنائس فينيقية لبنان وفقاً للتقسيم المدني الذي جرى عليه أولاً ديوقلسيان (راجع المشرق ٣ : ١١٠٣) . وقد ذكرنا هنا هذا التنظيم لإزالة اللاتباس لأن الكراسي الاسقفية اصابتها بذلك بعض التغييرات وُعدت من اياالة غير التي كانت معدودة منها سابقاً . وما يهتّمنا نحن في مقالاتنا عن آثار لبنان انما هي فينيقية الساحلية اما فينيقية لبنان فانها كانت تشمل الجبل الشرقي ومنعطف لبنان من جهة الشرق وعليه فانها لا تدخل في حيز مباحثنا

وُجعت صور رأس ولاية فينيقية الساحلية واضحي كرسيها لهذا السبب متقدماً على بقية كنائس الولاية فدُعي لذلك بالكرسي الاول (*προσθρονος*) في بطريركية انطاكية وُجعت تحت حكمه كراسي اسقفيات عديدة نذكر من جملتها ما لهُ علاقة مع لبنان الحالي وهي :

- ١ صيدا . ٢ دِيفيريون
٣ جبيل او بيبالوس . ٤ البترون او بتريس . ٥ غيفرتا (٢)
٦ ترياريس (Trierès) وهي المسماة اليوم أنفة (٣) . ٧ طرابلس .

(١) وسنعود الى ذكر آثارها

(٢) أما موقع هذه المدينة فسنبينه ان شاء الله

(٣) هذا الصواب وليس كما ورد في المنار (ص ١١٤ من السنة ١٩٠٠) انما « حصن ساحلي شمالي طرابلس ربما القليعات »

٨ عرقا (١) . ٩ اورثوسياس (٢) . اما بيروت فع كونها واقعة في ولاية صور الكنسية كانت مستقلة عنها . ورتي اسقفها الى رتبة مطران ولكن لم يكن له اساقفة تحت حكمه (٣)

هذا ولا نشك في ان بعض قرى لبنان الكبرى كاهدن وبشرأي واميون (في الكورة) كان لها رؤساء وروحيون من درجة الخورسقفوس . وكانت هذه الرتبة شائعة في ذلك العصر . ولنا شاهد في ما ذكر عن القديس باسيليوس اسقف قيسارية انه كان تحت امره خمسون خورسقفواً الا ان هذا المنصب الكنسي ابتدل لكثرة شيوخه فامتزج بدرجة رعاة القرى . وما اسم « الخوري » الا اشتقاق من اسم الخورسقفوس

وفي هذا العهد اينما انتظمت الطقوس الكنسية المهمة الى ان صارت بعد زمن على هيئتها التي نأفها اليوم . ومن ساعدوا على تنسيق هذه الطقوس بعض القديسين الاجلاء كالقديس يوحنا فم الذهب والقديس باسيليوس الكبير الا ان هذه الطقوس لم تنس ما كان سبق اليه القدماء من الرتب الدينية كالطقوس الرسولية والرتب التقليدية منها الليتورجيا الشريفة المنسوبة الى القديس يعقوب وغير ذلك

اما اللغات الكنسية فكانت محصورة في اللغتين اليونانية والسريانية ولم تشع اللاتينية كلغة طقسية وانما كانت لغة الدولة الرسمية فقط . وقد استعملها اهل بيروت مدة ثم انحصرت في ضمن مدارسها الفقهية الشهيرة . الا انها اهللت شيئاً فشيئاً حتى اُبطل استعمالها وكانت كنانس المدن الساحلية تؤثر في طقوسها اللغة اليونانية اما كنانس الجبل فكانت السريانية هي الغالبة على السنة كهنتها (راجع المشرق ٣ : ٢٦٧) . وزادت السريانية انتشاراً في لبنان لما صارت السيطرة فيه للطائفة المارونية

(١) واخرتها تُعرف الى اليوم بهذا الاسم

(٢) تدعى اليوم اورتوزي بجوار نهر البارد

(٣) خلافاً لما جاء في مقالة المنسار السابق ذكرها (ص ١١٤) . وهذه المقالة تستدعي عدّة اصلاحات . نقول ذلك رعاية للحق مع ما نعرفه من فضل كاتبها الذي اختبرنا لطفه يوم زرنا دير البلمند

انتصار النصرانية نهائياً على الوثنية في لبنان

بعد وفاة القديس يوحنا فم الذهب قدم لبنان من مدينة الرها احد الناسك فتوطنه وجعل يسعى في هداية اهله الوثنيين . ذكر ذلك البولنديون في تاريخ ١٤ شباط . ولعل المراد بلبنان في ترجمة الناسك المذكور انما هو جبل عكار لان النص الوارد فيه اسم هذا العابد يشير الى مدينة حمص وهي كما لا يخفى مجاورة لجبل عكار وكذلك تكرر ذكر لبنان في ترجمة حياة القديس سمعان العمودي فان رواية اخباره يقول عنه انه انجز هداية اهل لبنان فرجعهم الى الدين القويم بما اصطنعه من المعجزات الباهرة . لكننا هنا ايضاً لا يمكننا القطع بان المراد بلبنان الجبل المعروف اليوم بهذا الاسم . ونحن نعلم ان هذا القديس اشتهر في ولاية حلب في الجبل المسّمى اليوم بجبل سمعان . على ان الذي يُعمن النظر في اقوال مؤرخيه لا يرى ما ينفي لبناننا الحالي لان الزوار كانوا يتقاطرون الى عامود القديس من بلاد بعيده فكان العرب يأتونه من اقاصي البادية ليستمعوا تعاليمه . ثم ان اوصاف لبنان في تواريخ هؤلاء الكتبة توافقت جبلنا منها ذكر الغابات والوحوش الضارية ومعابد الاصنام وتعلق الاهلين بعبادتها بحيث لا يردلون خدمتها الا بعد نظر العجائب التي تجري على يد القديس سمعان . فكل هذه الاوصاف تصدق عن جبل لبنان الحالي . غير ان اسم لبنان وحده ليس بكافٍ لتجزم بهذا الامر وقد قلنا سابقاً ان هذه التسمية كانت تشمل في القرنين الخامس والسادس جبلاً آخرى

وان قال قائل ان المراد بلبنان انما هو لبناننا الحالي لانه ورد في اثناء ذكر لبنان اسم احدى قرأه وهي قرية انداريس (Andaris) الموافقة لقرية عين دارا في معاملة العرقوب الشمالي . اجبنا ان هذه الموافقة بين الاسمين ليست مقررة ثم انه مُحتمل ان ضيعة تدعى عين دارا اشتهرت سابقاً في جبال غير لبنان الحالي مما كان يُعرف ايضاً باسم لبنان كجبل النصيرية وجبل الشيخ . فترى من ثم ان هذه الافادات ليست بكافية لتدوين هذه الاخبار في تاريخ النصرانية في لبنان

ولما ظهرت بدعة نسطور وجدت في بعض اساقفة لبنان صدقاً لتعاليمها الفاسدة . فان افراداً منهم انحازوا الى النسطورية . وفي بيروت التسام المجمع الذي حكم

على ايباس اسقف الرها احد انصار نسطور . وكان ذلك حسب منطوق اعمال المجمع « في بيروت المدينة الفاتحة الجمال في دار اسقفها الحديثة بجوار الكنيسة الجديدة المقدسة »

اما بدعة اوطيخا فكان لها في لبنان عاقبة اوخم من النسطورية ففشاستها في بلاد الشام وألحقت باهلها مدة زمن مديد اضراراً لا يُسبر لها غور . وكان اوستات اسقف بيروت تشيخ جهازاً لاوطاخي . فجازاه ملك الروم بان اصدر براءة ورد فيها انه « يخول مدينة بيروت المزداية بالفضائل اسم حاضرة (métropole) مع الامتيازات التي تُعطى لأُمهات المدن » . فظن اوستات ان رقيم القيصر كافر ليمد سلطته الروحية على اساقفة جبيل والبتون وطرابلس وغيرها من الاسقفيات الواقعة في شمالي فينيقية الساحلية . الا ان مطامعه رذلت بعد زمن قليل في عهد مرقيان الملك

وقد تطرّف لبنان بفضائل بعض القديسين في اواسط القرن الخامس للمسيح منحصر منهم بالذكر القديسة مطرونا وُلدت في آسيا الصغرى ثم اقامت ديراً في حمص وانتقلت اخيراً الى بيروت فانارت حجاً غفيراً من النساء الوثنيات بانوار الايمان

ومنهم القديس ربولا السّيساطي قدم بيروت في ايام الملك زينون ثمّ تعبّد لله في جبال لبنان المعتزلة . وجاء في تاريخ قديم (راجع اعمال القديسين اللبوانديين ١٥ شباط ص ١٢٦) « ان ربولا المذكور شيّد بمساعدة زينون القيصر ويوحنا حاكم بيروت ديراً كبيراً في وسط الجبل . وكان يعيش مع رهبانه بين الجبلين وهم وقتئذ متسكّون بظلمة الوثنية فعرض عليهم اسرار الديانة وردّ حججهم واجتذبتهم الى الدين القويم الا نغراً قليلاً منهم » . فيؤخذ من هذا الكلام ان عبادة الاصنام لم تُطمس بعد آثارها في لبنان نحو مئة سنة بعد ثاودوسوس الكبير

ولهلّ القارى يسأل وما هو الدير الذي عمّره ربولا الراهب ؟ قال الاب مرتينوس اليسوعي في تاريخ لبنان (ص ٢٣٨٩ من تاريخه المخطوط) : « ان الدير الموما اليه هو دير القصر » . لكننا لا نرى على اي حجّة بنى الاب مرتينوس زعمه هذا . وغاية ما نعرف عن دير القصر ان ذكرها ورد في تاريخ الصليبيين ولكن هذا ليس ببرهان مقنع . لاسيا اننا نرى في لبنان قري غيرها دخل في تركيب اسمها اسم الدير

فيصح فيها قول الكاتب المنزه به وبعضها ليس بعيداً عن بيروت لان النص يشير الى دير قريب منها

وزادت بدعة اوطيخاً انتشاراً في سورية لما ظهر ساويرس الانطاكي . وكان المذكور قضي سنين عديدة من عمره في بيروت حيث درس الفقه ثم تعمّد في طرابلس (١) وصار بطريكاً دخيلاً على انطاكية وتفانى في نشر الشيعة الاوطاخية . لكن الله اقام لدينه الحلي محامين يدافعون عنه لاسيا في عداد الرهبان . والكنيستانتان الشرقية والغربية تحتفلان في ٣١ تموز بعيد ٣٥٠ راهباً قُتلوا في سبيل الايمان سنة ٥١٢ . كان المبتدعون كمنوا لهم يوماً وهم سائرون الى كنيسة القديس سمعان العمودي التي موقعها في جبل بركات شمالي غربي حلب . وقد ذكرناهم هنا لان اللبنانيين يقيمون لهم عيداً حافلاً ولو كان استشهادهم قد جرى خارجاً عن لبنان وعن فينيقية . وانما اصلهم كان من ولاية سورية الثانية التي حاضرتها افامية (قلعة المضيق) وموقعها شمالي ايلة فينيقية لبنان . اما فينيقية لبنان هذه فقد سبق ان حاضرتها كانت مدينة حصص وانها تشمل قسماً من لبنان الشرقي على ان معظم جبل لبنان داخل في فينيقية الساحلية

وكان هولاء الشهداء ينتمون الى دير مار مارون . وكان هذا الدير مبنيّاً في جوار افامية في وادي نهر العاصي (٢٠٢٠ قال المسعودي في كتاب التنبيه والاشراق (ص ١٦٣) يعرف موقعه انه : « شرقي حماة وشيّر ذو ببيان عظيم حوله اكثر من ثلاثمائة صومعة فيها الرهبان وكان فيه من آلات الذهب والفضة والجواهر شي . عظيم فخر ب هذا الدير وما حوله من الصوامع بتواتر الفان ٠٠٠ وهو بقرب من نهر الارنط نهر حصص وانطاكية » . ولدينا العريضة اليونانية التي ارسلها رهبان هذا الدير للبابا هرمز داس يجبرونه باستشهاد اخوانهم وقّعوا عليها بما نصه : « نحن الحقرام الارشيمندريين ورهبان سوريا الثانية » . امّا رئيسهم فقد وقّع الرقيم كاتباً : « انا ارشيمندريت مار مارون » . فما سبق ترى ما كان لهذا الدير من الخطورة والشأن

(١) راجع المشرق ٣ : ١٠٠٣ وكتاب الاب نو Opuscles maronites II, 49 seq.

(٢) راجع كتاب الاب نو (l'abbé Nau) السابق ذكره (ج ٢ ص ٢٢)

وعدد الرهبان . اما الاسباب التي حملت الموارنة على اكرام هؤلاء الشهداء فهي ثلاثة ذكرها صاحب مروج الاخياد : « اولاً لان اكبر اديار هؤلاء الشهداء الطوباويين كان معروفاً باسم القديس مارون وارشيمنديت هذا الدير كان اسمه اسكندر وهو اول من امضى الرسالة التي رفعت الى البابا هرمزداس القديس . ثانياً لان كثيرين من هؤلاء القديسين كانوا يتشجعون على الثبات في الايمان والاستشهاد امام ذخيرة هامة القديس مارون الشينة التي كانت بهذا الدير . وثالثاً بما ان هؤلاء الرهبان القديسين كانوا اشجع المناضلين عن الايمان الكاثوليكي الذي يبارله الموارنة غير لانهم كانوا خاضعين اتم الخضوع لكرسي هامة الرسل . والطائفة المارونية تفتخر بانها تقتني آثارهم في ذلك »

وقبل ذلك بزمن قليل (سنة ٥١١) كان الملك انتاس طرد من القسطنطينية عدداً غفيراً من الراهبات المستقيمات الايمان فقصدهن لبنان واتخذنهن سكناً وعطرنه يعرف فضائلهن . وفي اختيارهن لبنان للعزلة دليل على ان اهله كانوا يرذلون الشيعة الاوطيخية

والارجح ان كنيسة دير پرفيريون (اليوم برجا او النبي يونس) بُنيت في ذلك القرن السادس . وكذلك كنيسة القديس فوقا على مشارف الجبل (١) . وقد ورد ذكر هاتين الكنيستين في تاريخ الابنية للمورخ پروكوب . وكان بانيهما الملك يوستيان الذي اشتهر بغيرته على بناء الكنائس . وليس بمستبعد ان اقدم كنائس لبنان المعروفة اليوم تشيبت في عهده او على يد المهندسين الذين جروا على طريقة بنائه . مثال ذلك كنيسة اهدن وكفر شليمان اللتان تشبهان كل الشبه الكنائس البوزنطية المنسوبة الى هذا الملك . واهل كنيسة حدوتون المهذومة التي ذكرناها في الفصل السابق (ص ٨٦ و ٨٩) هي ايضاً من هذا القبيل فيكون بناؤها سبق دخول الموارنة في لبنان . لنا في تأييد قولنا بعض الحجج منها وجود كتابتين يونانيتين الواحدة اكتشفها رينان واكثر حروفها مطموسة والاخرى وقف عليها الفقير كاتب هذه

(١) راجع پروكوب (ك ٥٥ ج ٩) . على ان پروكوب بقوله « مشارف الجبل » لم يذكر لبنان وانما يوخذ ذلك من قرينة كلامه لانه ذكر الجبل بعد ذكر پرفيريون والساحل النينقي

الاسطر (١) وفي كليهما ما يشير الى قدم هذه الكنيسة . ومنها الطرز الهندسي والتقوس وضروب الفسيفساء فان كل ذلك يُلمع الى عهد يوستينيان
 فترى مما تقدم ان النصرانية في القرن السادس لاسيا واوره لم تغلب فقط على
 المدن الساحلية بل بان شأوها على كل اخصامها في لبنان . وكانت مدينة بيروت حافلة
 بالكنائس (٢) واهلها معتصمين بجمال الدين . وكذلك تفيدنا ترجمة البطريك
 ساويروس السريانية ان المعاملة اللبنانية المجاورة لبيروت كانت مستوثقة بعروة الدين
 وهناك اشهر احد الرهبان العاموديين الذي كان يسكن في قرية لم يُذكر اسمها
 قريبة من البلدة . وكان هذا الراهب شديد التمسك بالدين الاورثوذكسي يدافع عن
 الايمان الكاثوليكي مدافعة الشهام . وبما رُوي عنه ان بعض اشياخ اوطيخا من الطلبة
 الذين اتوا من الاسكندرية الى بيروت ليدرّسوا الفقه زاروه يوماً فلامهم عن تشبّثهم
 بتعاليم الهرطقة . وفي خبر هذه الواقعة ما يُشعر بان الشيعة يعقوبية لم تُفرد بعد
 لاصحابها كنيسة في بيروت (٣)

ومن الشواهد اللامعة الدالة على انتشار النصرانية في لبنان العيد الحافل
 الذي أُقيم فيه لما عاد هرقل ظافراً ومعه الصليب المقدس الذي انقذه من يد القرس .
 فأقيم في لبنان حفلات بهيجة جعلها اللبنانيون سنّة لهم يعيدون ذكرها في كل عام
 في ١٤ ايلول

الا ان هرقل الملك كسف شيئاً من بهاء انتصاره بما اعاره من المساعدة لهرطقة
 المونوتلّيتين اي القائين بالمشيئة الواحدة في المسيح . فكانت هذه المضافة الملكية
 سبباً لفشو هذه البدعة في سورية وخصوصاً في وادي العاصي . لكن هذا الواء لم
 يسر حتى لبنان وكفاه بذلك شرفاً

وممن تصدّوا لهذه العدوى القديس صوفرونيوس الدمشقي الاصل بطريك
 اورشليم . وقد زعم البعض انه وُلد في لبنان في قرية بسري . وهو قول تردّه الادلة
 العديدة كالميناون والبولنديين (في تاريخ ١١ اذار) بل يقنده القديس صوفرونيوس

(١) راجع مجلّة الشرق المسيحي ١٨٩٩ ص ٥٦٥، ٥٦٩

(٢) راجع في المشرق (٣ : ١٠٠٤) ما ورد في النشرات المارونية للاب نو

(٣) مجلّة الشرق المسيحي ١٨٩٨ ص ٢٨٠

نفسه في قصيدة له وردت في مجموع اعمال الآباء (مين ج ٨٧ ص ٣٤٢١) قال عن نفسه انه من مدينة دمشق التي تكللها قمم لبنان (Διβανοστέφανος) فقاوم هذا الاب القديس الجليل الشيعة المونوثانية التي جعلت الدولة البوزنطية على قاب قوسين من هلاكها في سورية . لكن الله كفى لبنان شرها وجعل منذ ذلك هذا الجبل معتصماً لاذ باهدابه انصار الحق الى يومنا

بلاد البترون

من تتبّع الآثار اليونانية او الرومانية في بلاد البترون لا يجد منها ما يجده في مقاطعتي كسروان وجبيل . وسبب ذلك ان موقع البترون في سفح جبال شاهقة ابي الاقدمون ان يتخذوها كسكنى لهم اللهم الا قليلاً منهم حتى ظهرت الامة المارونية فاستعمرت تلك الجهات وجعلتها كمركز انتشرت منه الى البلاد المجاورة . والدلائل التاريخية المنبئة بذلك كثيرة نشير اليها في مطاوي كلامنا ان شاء الله ولقاة الآثار القديمة في البترون ونواحيها عدّة أخرى وهو بعدها عن امّسات المدن كبيروت وصيداء . ووقعها خارجاً عن دائرة امكنة الفينيقيين المقدسة كجبيل . ولذلك ترى في جنوبي لبنان ووسطه من الكتابات والاخرية ما لا تجده في البترون وتوابها

٢٢ مدينة البترون

البترون احدث عهداً من جبيل وبيروت وكان الانكليزي كندر (Conder) زعم انه وجد اسمها في مراسلات تلّ البارنة (راجع الصفحة ٧٦) الا ان علماء العاديات فنّدوا هذا الزعم . وكذلك لو تصفّحنا تواريخ الفينيقيين واليونان والرومان لما وجدنا عن البترون الا النثر القليل الذي لا يُشفي منه غليل . وذلك دليل واضح على انها لم تكن ذات شأن خطير

على اننا لا نريد بذلك ان نبخس البترون حقها فان هذه البلدة لا تخلو من البقايا والاطلال القديمة لولا انّ الابنية الحديثة التي تعالوها اليوم لا تسمح بتقدير هذه الاخرية وتعريف تاريخها . ولنا ايضاً شاهد آخر على مقام البترون سابقاً وهي المسكوكات

والنقود التي ضربها اهلها ايام استقلالهم فترى لها تاريخاً خاصاً بها كبقية مدن الساحل .
وقد بين ذلك الدكتور جول روفيه في مقالته عن تاريخ مسكوكات البترون (راجع
المشرق ٢ : ٤٧٦)

والشائع عن اصل هذه المدينة ان بانيها ايتوبعل ملك صور في القرن العاشر قبل
المسيح كذا روى المؤرخ اليوناني ميناندر وصادق عليه يوسيفوس المؤرخ اليهودي الشهير
ومن آثار الفينيقيين في هذه البلدة سورٌ مئتين نحتوه في الصخر الاصم من جهة
البحر وقد بقي منه بقايا الى يومنا مع اعمال أخرى تنطبق على ما نعرف من حداقتهم
في قطع الحجارة . ومنها أيضاً بعض قبور ونواويس قديمة كما ترى في غيرها من المدن
الساحلية

ولا غرو ان الرومان بعد فتح سورية شيّدوا في البترون الابنية وجعلوها من القلاع
الحريزة وازهرت في ايامهم الى ان خربت في زلزال سنة ٥٥٠ م
وقد بقي من عهد الرومان نقوش وقطع وكتابات رأى منها رينان طرفاً كما اثبت
ذلك في بعثة فينيقية (ص ٢٤٩) يقول انه وجدها في انقاض حصنها وقد بجثنا عنها
فلم نشاهدها

اما الحصن المذكور فقد شيّده اصحابه في القرون المتوسطة واتخذوا لبنائه ما
عثروا عليه من الابنية السابقة . وقد ذكر العرب هذا الحصن منهم ياقوت الحموي في
معجم البلدان (١ : ٤٩٣) قال : « بَترُون (١) بالتحريك والراء حصنٌ بين جُبَيْل
وأفّة على ساحل بحر الشام » وقال الادريسي (طبعة غلدميستر ص ١٧) : « ومن
مدينة جبيل على البحر الى حصن بَترُون عشرة اميال وهو حصن حسن »

وعلى مقربة من البترون في المكان المسمّى مراح الشيخ ملعبٌ قديم من بناء
الرومانيين له مقاعد على شكل درج مستدير منحوتة في الصخر وكل ذلك ظاهر
حتى يومنا . وحول هذا الملعب قطع من الرخام وحجارة منقوشة تراها مبثوثة في
الارض يتخذها الاهلون للتكليس

(١) كذا ضبطها ياقوت والادريسي . وسُتت في تواريخ الصليبيين « Le Boutron »
اما اليونان فكانوا يسمونها بَتريس (Botrys) وكان يقيم فيها اسقف (راجع الشرق المسيحي
ليوكيان «

وان سرت من البترون ليس بعيداً عنها الى شمالي نهر الجوز ترى كنيسة قديمة تُدعى كنيسة مار يعقوب بُنيت بأنقاض هيكل قديم . وعلى بعض حجارها كتابة يونانية طُمس اكثرها فلم يبقَ منها الا حروف قليلة (١)

وعلى مسافة بضعة امتار من هذه الكنيسة من جهة الشمال الغربي كنيسة اخرى منتصبة فوق اكمة تعرف باسم « سان سابور » وهي لا تزال على حال مرضية تجد في بنائها ما يذكر بطريقة الصليبيين في الهندسة . ولهذه الكنيسة عيد يُقيمهُ اهل البترون في اليوم الـ ٦ من آب وهو يوم عيد التجلي . وعلى رأينا ان اسمها مصحّف عن كلمتين افرنسييتين معناهما الطور المقدّس (Saint-Thabor) . اما سبب اطلاق هذا الاسم على الكنيسة المذكورة فهو لانها كانت لاحقة بالدير الذي شيده الصليبيون على جبل الطور . وكان لهذا الدير اوقاف عديدة واملاك واسعة منها في الكورة وقرب طرابلس (٢) نعم ان هذا المحلّ لم يُذكر في قائمة تلك الاملاك بيد ان اسم الكنيسة الاعجمي وشكل هندستها ووقوع عيدها في يوم التجلي كل ذلك يويد رأينا . ومهما كان من امر هذه الكنيسة لا شك انها تستحق الذكر لانها مثال حسن عن طريقة اهل لبنان في الهندسة الكنسيّة

٢٣ سمر جبيل

هي من اقدم قرى بلاد لبنان واعظمها شأناً من حيث آثارها . موقعها شمالي جبيل وكانت في القرون المتوسطة احد مراكز الملة المارونية استوطنوها فتحصّنها فيها لدّهجات اعدائهم وفيها كنائس عتيقة ذكرناها سابقاً . الكبرى منها مشيدة على اسم القديس نهرأ وهي حسنة البنيان يصلي فيها القوم حتى يومنا . وعلى جدارها الخارجى كتابة سريانية ذهب الدهر بقسم منها مفادها ان كاهناً قُبر هناك . اما اسم الدفين وتاريخ وفاته فقد طُمس . وكان رينان نقل هذه الكتابة سنة ١٨٦٠ (ص ٢٤٦) وقد أخذنا مؤخراً رسمها الشمسي فلم نكد نجد منها الا القاطن قليلة . ولسمر جبيل كنيسة اخرى قديمة لم يبقَ منها غير ردهما

(١) راجع بعثة فينيقية (ص ١٤٨)

(٢) راجع المحلّة الفلسطينية الالمانية (ZDPV, X, 235)

وإول ما يستدعي إليه نظر الداخل في سمر جبيل قصرها المبني فوق الصخرة .
 وجدان هذا البناء الجليل الماثلة ترتقي إلى الأجيال المتوسطة فقط لكن أركانه
 السفلى وأساس بروجها وخنادقها المنحوتة في الصخر تدل على قدم عهده وعظم أثره
 وترى المدخله عتبة ذات درجتين منقورة في الصخر . ولا يبعد أن الفينيقيين قاموا
 بهذه الأعمال فانهم كانوا مولعين بنحت الصخور كأن عزمهم أشد صلابة منها وكانوا
 مع ذلك يعملون الصخر كقطع يتخذون منه حجارة ابنتهم كالقلاع وغيرها . وفي
 داخل هذا القصر وعلى مقربة منه آبار وصهاريج عجيبة الصنع محكمة التجهيز بعيدة
 الغور كلها في الصخر الأصم لا نظن أن الرومان مع جلدتهم وأعمالهم الجبرية تولوا
 نقرها بأنفسهم

ومما يرتقي أيضاً في هذا القصر إلى عهد قديم النقوش التي يراها الزائر عند جهته
 الشمالية في أسفل الصخر الذي أقيم فوقه البناء . غير أن هذه النقوش دائرة يصعب
 تعيين زمنها ورسم صورتها

وفي سمر جبيل آثار أخرى من العاديات منها المدافن الواقعة في شرقي القصر .
 وقد كتبت باليونانية فوق بعض قبورها أن امرأة عمرها ١١٠ سنوات دفنت مع ابنها
 في قبر واحد وتاريخ هذه الكتابة في القرن الثالث للمسيح وهو حسن الرسم
 لا إشكال في قراءته . وفيه دليل على سن طاعة قل ما يبلغها الشيوخ المعتمرون .
 أما البالغون سن الثمانين إلى التسعين فعددهم ليس بقليل في لبنان تشهد على ذلك
 الكتابات منها كتابة لاتينية محفوظة في كنيسة بيت خشبو يُستفاد منها أن بعض
 الشيوخ توفي وله من العمر ٨٧ سنة (راجع أيضاً بعثة فينيقية ص ٣٨٥ و ٣٨٦)

فهذه الآثار التي وصفناها تنبئ بقدم سمر جبيل وخطورتها لكننا لا نعرف شيئاً
 من تاريخها السابق ولعلها إحدى القلاع التي خربها بيموس عند فتحه بلاد الشام
 (ص ٣٤) والله أعلم . وما أثبتته الدويهي في تاريخ الموارنة (ص ٢٠٢) ما
 حرقه : « وفي سنة ١٦٣٠ في الخامس والعشرين من تشرين الثاني نهار الأحد
 حدثت زلزلة مريعة . وفي الساعة الثالثة من الليل حلت في قلعة سمر جبيل وهدمت
 البرج الأوسط من جوانبه الأربعة وخربت جميع ما كان في القبو التحتاني المركب
 على البئر »

هذا وفي بلاد البترون عدة امكنة تستحق الذكر لآثارها فان الباحث يجد فيها من النواويس والنقوش ونحيت الحجارة ما هو دليل على اصلها القديم أخصها كفرحتنا ومسرح وشبطين وكفر شليان التي تكرّر ذكرها غير مرة في اثناء مقالتنا عن كنائس لبنان والحق يقال ان العملة الاقدمين قد احسنوا في هذه القرية نقر صخورها . من ذلك ثلاث حُجَر نقرها في الصخر على احسن هندام وآثار آلات النحت فيها مع قدمها بيّنة كأنها نُقرت منذ زمن حديث

ومما عاينّا في مسرح نقوشٌ محفورة في الصخر اكثرها دارس مطبوس بقي منها صورة ثور وبقرة مستحمة وموقع هذه النقوش فوق اقبية تنمّية . وقد شاهدنا ايضاً تمثال شخص يُرجّح كونه امرأة وهي لابسة ثوباً رافلاً وفي يدها اليسرى رمانة وعنقود عنبر

٣٤ قلعة الحصن

اذا ملتَ عن الساحل سائراً من البترون انتوغل في لبنان من جهة دوما رأيتَ بعد قليل صخرة عالية مكشوفة للنظر كأنها السارية المنحوتة نحاً عمودياً وفوقها قلعة قديمة الآثار تدعى قلعة الحصن موقعها بين دير الموارنة المعروف بدير مار يعقوب وقرية بشعلي (١) . ومن رقي فوق هذا المرقب تتمتع بمنظر غاية في البهجة والرونق فان العين تبصر غرباً البحر وسواحله وترى شرقاً القرى الممتدة الى جهات ارز لبنان . اما جهتها الشمال والجنوب فلا حاجز يحول دون مرأى سهولها . وليس لهذا المقام مجاز آخر الا من جهة بشعلي وهي الجهة التي عني القدماء بتحصينها لتكون القلعة حريضة منيعة لا يقوى على فتحها العدو من كل انحاءها

اما القلعة فان بقاياها ليست من العظمة والبهاء على شيء بخلاف ما يظن المسافر اذا ابصرها عن بعد . فان موادها واخربتها لا تختلف عن غيرها ولا تنبئ بما اعتاده الفينيقيون والرومان من الابنية الجبارية . وعندنا ان هذه الاطلال صرحٌ بني في الاجيال المتوسطة فوق جدران اقدم عهداً بقي منها بعض آثارها

(١) راجع مقالتنا المعنونة « سياحة في بلاد البترون » المشرق ٢: ١٩٦٠

وَمَا يَرَى دَاخِلَ هَذَا الْقَصْرِ آثَارَ بِيوتٍ كَانَ يَسْكُنُهَا السَّكَنُ سَابِقًا . وَفِي اسْفَلِ الْقَلْعَةِ نَوَاطِيسٌ عَدِيدَةٌ وَمَدَافِنٌ نُحِتَتْ فِي الصَّخْرِ الْأَصَمِّ وَجَدَ فِيهَا الْأَهْلُونَ نَقُودًا وَمَصْكُوكَاتٍ نَادِرَةً

وَمَنْ غَرِيبٌ مَا شَاهَدْنَاهُ فِي أَعْلَى هَذِهِ الْقَلْعَةِ حَجْرٌ كَبِيرٌ وَسَطُهُ مَشْقُوبٌ وَهُوَ مَنفَصَلٌ عَنِ الصَّخْرِ الَّذِي تَحْتَهُ وَفِيهِ جَدُولٌ لِلْمَاءِ لَا تَظْهَرُ وَجْهَةً جَرِيهَةً . وَقَدْ أَعْمَلْتُ الْفِكْرَ لِأَعْرِفَ مَا الْعَايَةُ مِنْ نَصَبِ هَذَا الْحَجَرِ فَلَمْ يَثْبُتْ لِي الْأَمْرُ

وَأَنْ اسْتَطَعْنَا طَلْعَ التَّارِيخِ لِنَسْتَدَلَّ عَلَى أَخْبَارِ قَلْعَةِ الْحَصْنِ وَجَدْنَاهُ سَاكِنًا لَا يَفِيدُنَا عَنْ أَحْوَالِهِ فِتْيَالًا . لَكِنْ مَوْقِعَ هَذَا الْبِنَاءِ يَنْسَبُ أَيُّ مَنَاسِبَةٍ لِلْأَعْمَالِ الْحَرْبِيَّةِ كَيْفَ لَا وَهُوَ يَطَّلُ عَلَى قِسْمٍ مِنَ الْأَخْضَابِ مَعَاطِفِ لُبْنَانَ فَلَا يَبْعُدُ أَنْ الْقَدَمَاءُ اتَّخَذُوا هَذَا الْقَامِ الدَّفَاعِ عَنْ مَوَاطِنِهِمْ وَأَعْلَاهُ كَانَ هُنَا قَلْعَةٌ قَدِيمَةٌ أَبْتَنَاهَا الْفِينِيقِيُّونَ فَأَخْرَجَهَا بِمِيسُوسَ الْقَائِدِ الرُّومَانِيَّ عِنْدَ فَتْحِ بِلَادِ الشَّامِ كَمَا ذُكِرَ آنفًا

أَمَّا «بِشْعَلِي» الَّتِي هِيَ بِقُرْبِ قَلْعَةِ الْحَصْنِ فَلَا تَزِيدُ فِي وَصْفِهَا شَيْئًا عَلَى مَا كَتَبْنَاهُ سَابِقًا فِي الْمَشْرِقِ فِي مَقَالَتِنَا الْمَعْنُونَةِ «سِيَاحَةٌ فِي بِلَادِ الْبِطْرُونِ» (٢ : ٨٧٠) . وَفِي بِشْعَلِي رَأْسٌ عَمُودٌ عَلَى أَرْبَعِ جِهَاتِهِ كِتَابَةٌ يُونَانِيَّةٌ خَشْنَةٌ ذَهَبٌ أَكْثَرُهَا فَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا سِوَى بَعْضِ حُرُوفٍ لَا يَظْهَرُ لَهَا مَعْنَى شَافِرٍ (١) وَأَمَّا وَجُودُهَا هُنَاكَ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْقَرْيَةَ سَبَقَتْ عَهْدَ الْعَرَبِ . وَقَدْ جَاءَ ذِكْرُ بِشْعَلِي فِي آثَارِ الصَّلِيبِيِّينَ وَهُمْ يَدْعُونَهَا «Betzaal» وَكَانَتْ دَاخِلَةً فِي حَكْمِ امِيرِ جَبِيلِ (٢)

وَمَا رَأَيْنَا فِي «تَرْتِج» عِنْدَ زَاوِيَةِ كَنِيسَتِهَا صَفِيحَةٌ مِنَ الْحِجَارَةِ طَوَّلُهَا مِتْرٌ وَنِصْفٌ وَعَرْضُهَا سَبْعُونَ سَلْتِمِيتْرًا وَهِيَ دَاخِلَةٌ فِي الْحَائِطِ عَلَيْهَا صُورَةٌ نَاتِنَةٌ تَمَثِّلُ حَيْوَانًا تَهْتَمُّ بِرَأْسِهِ وَلَمْ يَبْقَ سِوَى ذَنِبِهِ الذِّيَالِ فَلَمْ تَثْبُتْ أَيُّ حَيْوَانٍ هُوَ

(١) وَلَوْلَا هَذِهِ الْكِتَابَةُ مِنَ الْإِتَارِ الَّتِي لَمْ يَجِدْهَا رَيْنَانُ بَعْدَ أَنْ بَحَثَ عَنْهَا فِي شِعْلِي كَمَا أَخْبَرَ بِذَلِكَ فِي كِتَابِ بَعْتِي إِلَى فِينِيقِيَّةِ (ص ٢٥٧)

(٢) رَاجِعِ الْمَجْلَةَ الْفَلَسْطِينِيَّةَ (ZDPV) الْجُزءَ الْعَاشِرَ ص ٢٥٦

٢٥ دوما

لا نرى داعياً لتكرار ما كتبناه سابقاً عن حسن موقع هذه البلدة وعظم شأنها حالياً (راجع المشرق ٢: ٨٦٩)

أما عاديّات دوما فهي نواويس ومدافن قديمة ثم كتابتان يونانيتان الواحدة منهما محفورة في الناووس الذي قرب عين القرية وهو اليوم حوض ماء يُستقى منه قعي وسطه دائرة كان فيها نقشٌ أخنى عليه الزمان . والكتابة المعلقة عليه كثيرة الخشونة كان النقاش الذي نُحِتَها لم يدرك معناها ولم يُجسّن نقلها بل ترك منها الفاظاً فصار معناها مُغلّطاً . فإذا تداركنا هذا الخلل واصلحنا ما يجب اصلاحه وجدنا ان تاريخ الكتابة سنة ٣١٧ للمسيح يُستفاد منها ان هناك دُفن كاستور وكان كاهناً وثنياً لإله الطب اسكولاب وإلهة الصحة (Ἰγνεία) . وفي آخر الكتابة تهديد لمن يهكون حرمة هذا المدفن فان فعلوا وجب عليهم اداء ٢٠٠٠٠٠ دينار لبيت المال

فهذه الكتابة اليونانية من احدث ما نعرف من اثار الوثنية في لبنان . اما ما جاء فيها من الوعيد ضدّ تاقضي حرمة القبور فثمة كثير في الكتابات الضريحية القديمة (١) . وليس المبلغ المذكور في الكتابة هو من المبالغ الفاحشة لان الدينار كان وقتئذٍ قليل الثمن . وهذه الكتابة مهمة لتاريخ دوما القديم لان منها يُستفاد ان هذه البلدة كانت اقامت هيكلًا معتبراً للإلهي الصحة وان سدنة الهيكل كانوا من الذوات كما يظهر ذلك من الناووس الذي دُفن فيه هذا الكاهن . وهو جميل حسن النقش . ولعمري قد اصاب الاقدمون لما جعلوا هذه القرية مقاماً لعبد الصحة لان علوّها نحو ١١٠٠ متر فوق سطح البحر وهواءها الطيب ومناظرها البهجة المطلّة على سهول كفرحلا المنحسبة توافق الصحة وتنعش القوى

أما الكتابة الثانية فهي على حجر داخل في جدار كنيسة الروم الاورثوكس (المشرق ٢: ٨٧٠) وقد اخذتُ رسمها بعد افراغ الجهد الجهد إلا ان هذه الكتابة

(١) راجع Reinach : *Manuel d'épigraphie grecque*, p. 429

مطموسة لا يُفهم منها سوى كونها ضريحاً لعدّة اشخاص ذهبت اسمائهم الأواحداً منهم . وقد درس ايضاً تاريخُ الكتابة فلم يُعد لها شأن كبير
ومن قرى بلاد البترون التي تشتمل على بعض الاثار قرية « بقسمية » . فأننا نقدر
انها كانت مزدانة بهيكل وثني في سالف الأعصار والكنيسة الحالية مبنية بمواد ذلك
البناء . فترى حجارها كبيرة حسنة النحت . وابواب الكنيسة اكثرها من ذلك المعبّد
القديم لها العتبات المنقوشة وجوانبها قطعة واحدة . وان دخلت الكنيسة وجدت
آثاراً غير السابقة كالنقوش المحطمة المعترضة في وسط البناء . ولويجث الاهلون او
نزعوا هذه البقايا لوجدوا بلا شك كتابات قديمة ترشدنا الى تاريخ القرية بيد انهم حتى
الآن لم يقدموا على ذلك وما رأيناهُ عتبة معبد السيدة الملاصق للكنيسة
فانها تُبرز للمعيان بقايا كتابة لم يمكننا قراءتها

وبقسمية من القرى التي احتلها الروم الملكيون زمنًا طويلاً كما سنيّن ذلك
في مقالنا الآتية عن دير مار يوحنا مارون . والروم لم يسكنوا فقط جهات
الكورة حيث كان عددهم وافراً بل احتلوا ايضاً قسماً من بلاد البترون التي تُعدُّ
كعهد الامة المارونية . ولنا في كل ذلك تفاصيل نعرضها ان شاء الله عند
سنوح الفرصة

٢٦ كفرحي ومدرسة مار يوحنا مارون

كفرحي مزرعة صغيرة موقعها فوق رابية جنوبي نهر الجوز على مسافة ثلاث
ساعات من البترون في شرقيها . وكان لكفرحي شأن اعظم في ما سلف من الاعصار
كما يُستدل على ذلك من الآثار القديمة وشواهد الكتبة من المزارنة
وفوق المزرعة كنيسة مار سابا الذي سبق ذكرها . وفي ظننا انها سُيّدت في
مكان معبد وثني قديم . وعند مدخل الكنيسة قطعة نصب نُقش في واجهته الكليل
الآنهُ خلُو من الكتابة واذا دخلت البيعة رأيت صفيحة عليها كتابة ذهب قسم
منها وهي ترتقي الى سنة ٢٧٠ للمسيح . ومضمون الكتابة ان رجلين يُدعى احدهما
مونيوس (Μονιμος) والآخر سيناس (Σιννας) اقاما هذا المذبح لاحد الآلهة لم
يبق من اسمه الأحرف الا الاولى الثلاثة (ΔΙΙ. ΑΡΑ.)

واسم مونيوس نفسه اسم إله كان يتعبد له خصوصاً أهل الرها يشركونه بمعبود آخر يدعى عزيزاً (Ἐζίζιος). إلا أن عبادة ذلك الإله لم تكن محصورة في الرها ترى ذكره في الكتابات المكتشفة في حوران. وقد وجدنا اسمه مدوناً في عدة آثار وقفنا عليها في حمص ثم غنينا بنشرها. وما اسم مونيوس على رأينا سوى تصحيف لاسم آرامي يوافق في العربية «منعم» من الأسماء الحسنى عندهم كما يستدل على ذلك بتقديم العبد فيقولون «عبد المنعم» وهو اسم بعض المقدمين في بشرأي في القرن الخامس عشر (١). وما يؤيد رأينا بل يزيل عنه كل شبهة أن العلامة رينه دوسو (R. Dussaud) وجد اسم «منعم» (δδδδδδ) بين اعلام كتابات الصفا (٢) وكانوا يريدون به الإله الكريم الوهاب. ويمثل هذه الصفات وصفه الكتيبة اليونان والرومان عند ذكرهم هذا الإله ورفيقه عزيزاً

أما مدرسة مار يوحنا مارون فلا تبعد عن كفرحي أكثر من ربع الساعة مقامها شرقي القرية. والتقليد المحلي مُجمع على أن هذه المدرسة بُنيت في مكان الدير الذي بناه القديس المذكور في نهاية القرن السابع. قيل أن هذا البطريرك زين كنيسة ديره ب ذخيرة ثمينة وهي هامة القديس مارون الناسك الشهير أبي الطائفة المارونية وأن الدير دُعي مدّة من جرّاء ذلك دير رأس مارون (قُصم مدّ). وبقيت الذخيرة هذه في مكانها إلى سنة ١١٣٠ فنقلها أحد الرهبان البنديكيتين إلى مدينة فولينيو من أعمال إيطاليا

ولا يخفى على من له الملم بتاريخ الطائفة المارونية كم هي نادرة التفاصيل الراهنة عن أصل هذه الأمانة الجليلة واحوالها في الأعصار الأولى بعد ظهورها. وغاية ما نعرفه من هذا القبيل قد باعنا بالأحاديث الشفاهية التي لم تدوّن إلا منذ عهد قريب فلا بدّ أذاً من شواهد كتابية قديمة لتؤيد هذه الأخبار الموقولة (٣). على أننا لا

(١) راجع تاريخ الطائفة المارونية للدوبيي (ص ١٤١) وروايتنا المعنونة «حيس ببيعة قدس»

(٢) راجع كتابه Voyage archéolog. au Safa, N° 78,83,412

(٣) فليراجع الكتاب الذي نشره حديثاً سيادة المطران يوسف دريان المعنون «لباب البراهين الجليلة عن حقيقة امر الطائفة المارونية»

نياس من اكتشافات مثل هذه الآثار الصادقة في زمن توفرت فيه الوسائل وانفتحت الحزانات الادبية وظهر للعيان ما لم يكن قبلاً في الحسبان . واملنا او طدي في اهل هذه البلاد فانهم اذا بحثوا لدى الحاصّة وفي الاديرة القديمة وفي خزائن الدار البطريركية او الكراسي الاسقفية القديمة لا نشك ان مساعيهم تتكامل بالتحجّاج فيجدون في الروايا خبايا (١)

واذا عدنا الى تاريخ دير مار يوحنا مارون لا نجد لذكره اثرًا قديمًا . وانما يروي الرواة ان منشئه عاش ودُفن فيه وقد عُني مراراً اصحاب الهمة بالحفر فيه لعلهم يقفون على قبره . لكن هده الابحاث لم تأتِ حتى الان بشرة مع ما وجد هناك من المدافن

وفي سلسلة بطاركة الطائفة المارونية (المشرق ١: ٢٥١) ان خلفاء مار يوحنا مارون سكنوا هذا الدير وفيه قبر كثيرين منهم . ولهذا المقام ذكر في تاريخ الصليبيين (٢) يدعونه مار مارون كفرحي (S. Maron de Caphrai)

ثم نُقل الكرسي البطريركي الى دير سيدة يانوح وبقي فيه الى عهد البطريرك دانيال الشاماتي فاعيد الى كفرحي . ثم جرى بعدئذ على هذا الدير ما جرى من حروب ونكبات وبلايا كادت تذهب باآثاره

قال الدويهي في تاريخ سنة ١٦٣٤ (ص ٢٠٧) : وبسبب كثرة الحكمّ والاعراض كثر الظلم وكلفوا الرعايا بدل المال مائنين وقبضوا على الرساء في القرى . . . وكان القس يوحنا الاجبعي مترسلاً على دير القديس مارون في قرية كفرحي فوشى به اهل قسيميّة الى ابن سيفا حتى قبض عليه واهانه وسامه ما هو فوق طاقته فترك الدير من ثمّ وارحل ومن ذلك الوقت خرب الدير وخربت بقسيميّة التي كانت لطائفة الملكية «

وبقي ذلك الدير خراباً صنفصفاً الى ان جدّد البطريرك يوسف اسطفان بناء ما كان متهدماً فيه في اوامر الجليل الثامن عشر واسكن فيه بعض رهبان . وكان ذلك بعد

(١) وما نُشر مؤخراً في هذا الصدد كتاب الخوري نو الافرنسي (Opuscles maronites) وكذلك مرّ في المشرق (٢: ٢٦٥, ٣٦٥, ٤٥١) بعض مقالات في هذا الصدد

(٢) راجع Rey : Colonias franques. p. 359

رجوع البطرک المذكور من الكرمل وعند زيارته الرعية فلنا مرّ على الدير المذكور لم يجد سوى آثار دراسة واطلال طامسة فحرّكته الغيرة الدينية على ارجاعه الى رونقه القديم فوجه اليه القس يوسف الحدّاد والقس الياس من ريفون ليعتينا بتجديده

وفي آبان زيارة المطران جومانوس ثابت لابرشيتيه جبيل والبترون رأى افتقار رعيته الى المدارس فارتأى تحويل الدير المذكور الى مدرسة يتعلّم فيها من كل مقاطعة في لبنان ولدان . فصادق البطريرك يوحنا الحلوع على هذا المشروع في سنة ١٨١١ وعضده القاصد الرسولي السيد لويس غندلني

وفي سنة ١٨١٨ اجمع البطريرك والاساقفة على ان يجعلوا مقام مطران جبيل والبترون في مدرسة مار يوحنا مارون . او الاحرى ان يقال ان ابرشية جبيل والبترون صارت ابرشية البطريرك الخاصة فيجعل له فيها نائباً احد الاساقفة الذي مركزه في مدرسة مار يوحنا مارون . ومتمّن زادوا هذه المدرسة رونقاً ووسّعوا نطاق تعليمها الطيب الذكر المطران يوسف فريفر الذي ترأس عليها مدّة وافرخ كل مجهوده في نجاحها فصارت في طبقة المدارس الثانوية التي ينتخر بها الوطن منذ نصف قرن . وقد عزّز المرحوم المنسيور بطرس ارسانيوس رئيسها السابق دروسها بعد وفاة السيد يوسف فريفر فبلغت في هذه الايام اوج عزّها فحفلت بالتلامذة وازدهت بالعلوم . ومما سرّنا ان طلبتها لا يدرسون فقط اللغة العربية واللغات الاجنبية بل يتقنون ايضاً اللغة السريانية فيكتبونها ويتكلّمون بها (١) . ولولا خوفنا من ان نخرج عن الحدود التي تحريتها في مقاتلتنا لانبسطنا في وصف هذه المدرسة ومحاسنها لا زالت راقية في معارج التقدّم والفلاح

٢٧ جبة بشرأي

بلغ بنا تبئنا لآثار لبنان الى مشارف هذا الجبل وما نحن ذا في معاملي اهدن

(١) ونعتنم هذه الفرصة لتقديم فروض الشكر لروّاء مدرسة مار يوحنا واساتذتها الافاضل لما لقينا عندهم من الحفاوة والاکرام كلما حللناه في رحلنا الى بلاد البترون . كما اننا نشكر لحضرة الحوري بولس طمبه لطفه لما افادنا به من المعلومات عن كفرحبي ومدرستها وقرى بلاد البترون . وبعض الفوائد التي دونّاها في مقاتلتنا قد استفدناها من فضله

وبشري . على ان هذه الجهات دون السواحل الفينيقية من حيث ما أثرها القديمة وانما هي معتبرة لسبب آخر « لكونها اصبحت مهداً للطائفة المارونية » (قال ذلك رينان) فنمت هذه الامة الكريمة في ارجائها واتسعت منذ نحو ١٢٠٠ سنة
 اما اذا ضربت صفحاً عن نشأة الموارنة في تلك الاصقاع فلا تكاد تعثر على امر ذي بال يستدعي التفات العلماء اليها . وكانت بلاد بشري في سالف الزمان قليلة الاهلين تمتد في معاطف جبالها غابات الارز الباسقة . ومن المحتمل ان تكون ظهرت فيها بعض القرى ومن جملتها بشري . لكن الامر محمول على الحدس فقط . ولا احد من العلماء حتى الان وجد فيها اثرًا يرتقي الى عهد اليونان او الرومان
 اما اسمها بشري ويكتبه البعض بشرة وبشري فقد اختلف في معناه . قيل (١) ان اصله بيت الشرى يراد به بيت عشوت . فان صح هذا الاشتقاق دل اسمها على قرية عريقة في القدم عبد فيها اللبنانيون لآلهة السماء الفينيقية كاهل جيل والمرجح ان مؤرخي الصليبيين ارادوا هذه البلدة في تأليفهم لما ذكروا قرية يدونها Buissera و Bussera وهي من القرى التي كانت لاحقة باملاك صاحب طرابلس واليهما تُنسب احدى الأسر الفرنجية الشريفة كما روى « راي » في كتاب مستعمرات الفرنج (٢٠) اما تاريخ الامة المارونية فانه يجعل في بشري وجوارها الحوادث التي جرت في أول ظهور الطائفة غير ان هذا التاريخ لم يدون قبل ابن القلاعي في اواخر القرن الخامس عشر

ومما ذكره صاحب اخبار الاعيان (ص ٢٠) ان مولد القديس صفرونيوس بطريك اورشليم في القرن السابع كان في بشرة وقد كان سألنا احد السائلين في المشرق (٣٠٨:٤) هل صحيح ان هذا القديس وُلد في « بسري » كما يزعم اهل التقليد . ولا نعلم اي التقليدين هو الصواب أبشرة كما قال الشيخ طئوس الشدياق او بسري كما زعم السائل وعلى كل حال فقد بينا هناك ان القديس صفرونيوس وُلد في دمشق لا في لبنان واستندنا في قولنا الى شواهد لا تُنقض
 ولنا في تاريخ اهدن ما يزيد ثقتنا بقدم عهدها . على اننا لا نسلّم بالتقليد الذي

(١) راجع كتاب فلسطين لإبرس وغوتي Ebers und Guthe: *Palästina* II.448
 (٢) راجع Rey: *Colonies franques* p., 363 . وراجع أيضاً ZDPV, X, 211, 204

يجعل الفردوس الارضي في اهدن (١) . ومن روى ذلك يزعم ان اهدن هي جثة عدن وان اسمها مشابه للبرانية «٦٦» . وهذا قول لا سند له وكذلك قد وهم الذين ظنوا ان اهدن هي المدينة التي ذكرها بعض القدماء . ودعاها *Triparadeisos* و *Paradeisos* لأن موقع هذه المدينة في جنوبي حمص على مسافة ست ساعات من حمص ونصف الساعة من ربله وكانت قرب العاصي في مكان قرية جوسية الجديدة كما اثبت الامر السائح العلامة موسيو دوسو (راجع المشرق ٣ : ٣٤ ، ٣٥)

وقولنا هذا لا يبخص شيئاً من حقوق اهدن ونحن اول من يقرّ بحسن موقع القرية وطيب هوائها وجمال مناظرها الفاتنة اما الادلة على قدمها فكتابات ثلاث وجدت فيها اثنتان منها باليونانية والثالثة بالسريانية . فالكتابة اليونانية الاولى قد طمسها الدهر ولم يُبق منها الأسطرين في آخرها وهناك تاريخ تسطيرها وهي السنة ٥٨٤ للاسكندر توافق السنة ٢٧٢ م . والكتابة اليونانية الثانية مرقومة على قبر مجاور لكنيسة القديس ماما . وهي مطموسة لا يسمح سوء حالها من تفسيرها وليس لها تاريخ ظاهر وفي رأسها صليب صغير يعلوها ولكن هذا لا يكفي لان نسب الكتابة للتصاري لانه امكن المسيحيين ان يحفروا هذا الصليب بعد ذلك بقرون عديدة . وقد اخذنا رسم هاتين الكتابتين عن الحجر ولكن لم يمكننا ان نصلح في شيء ما اثبتة رينان في كتاب بعثة فينيقية . وهو ايضاً ذكر الكتابة الثالثة المكتوبة بالسريانية بالحرف الاسطرنجلي وهذا تعريب ما بقي منها : « بسم الله الذي يُحيي الموتى في سنة ١ — للاسكندر . . . وقد ومات مرقس . . . »

وفي اهدن كنائس قديمة ذكرنا في مقالة سابقة ما لها من الخواص الهندسية فلترجع

وترى على مقربة من اهدن عدة قرى كالحلدث وحصرون وغيرها من الضياع التي لا نجد فيها شيئاً من الآثار الناطقة عن قدمها . الا انها مذكورة في اخبار الطائفة المارونية كما نقلها الينا التقليد فيكون ابنا مارون اول من خول هذه الاماكن ذكراً تاريخياً ولعلمهم هم الذين انشأوها فسكنوها والله اعلم

(١) ذكر هذا التقليد العلامة الدويهي في تاريخ الطائفة المارونية (ص ١١٦)

٢٨ أرز لبنان

لا يسعنا في وصف آثار لبنان ان نضرب صفةً عن شجر اختصَّ به هذا الجبل دون غيره يزيد شجر الارز الذي نُسب الى لبنان نسبةً غير منقصة . لكننا لانبسط الكلام فيه الا لنورد ما يفيدنا عنه علماء تاريخياً وأثرياً ونذع لارباب الطبيعة ما هو أحقُّ بوصفهم

غني عن البيان ان الارز المذكور في الاسفار المقدسة هو هو ارز لبنان كما تشهد تسميته العبرانية والعربية التي لم تختلف منذ القدم حتى الان . وكذلك يوافق ارزنا الذي نعرفه ما جاء فيه من الاوصاف في الكُتب المزلّة مثل بُسوقه (اشعيا ٢ : ١٣ حزقيال ٣١ : ٣ و ٨ عاموس ٢ : ٩) وامتداد اغصانه الفنواء الوارفة الظلّ (حز ١٧ : ٢٣) ورائحته الرائحة التي تعطر الارحاء (نشيد ٤ : ١١ هوشع ١٤ : ٧) وحسنه الذي يجعله فخرًا للبنان (اشعيا ٣٥ : ٢ و ٦٠ : ١٣) ووفرة في هذا الجبل (مز ٩٢ : ١٣ و ١٠٤ : ١٦ اشعيا ١٤ : ٨) قال حزقيال (٣١ : ٣ - ١) ملخصاً كل هذه خواصّ الارز وهو يشبه به ملك اشور : « هوذا اشور ارزة بلبنان بهيجة الانان غيباء الظلّ شامخة القوام وقد كانت ناصيتها بارزة بين اغصان ملتفة . المياه عظمتها والنمر رفعها . انهارها جرت من حول مغرسها ومجارها ارسلتها الى جميع اشجار الصحراء فلذلك عند نشأتها ارتفع قوامها فوق جميع اشجار الصحراء وامتدت فروعها من كثرة المياه . في اغصانها عسّشت جميع طيور السماء وتحت فروعها ولدت جميع وحوش الصحراء . وفي ظلها سكنت جميع الامم الكثيرة وصارت بهيجة في عظمتها وفي طول عذباتها لان اصلها على كان ميام غزيرة . . . فكل شجر في حنة الله ياتلها في بهجته فاني صنعتها بهيجة بكثرة عذباتها فغارت منها جميع اشجار عدن في حنة الله » فله من وصف يطابق الواقع لاسيا في عهد النبي اذ كانت كل قمم لبنان مكللة بغابات الارز . وفي قول حزقيال احسن تنفيذ لاراء احد المحدثين من الفرنج واسمه اوجين دي لاسال (١) الذي زعم ان الارز غرس في لبنان على عهد السلطان صلاح الدين يوسف الايوبي

هذا والأرز خشب صلب صقيل اصفر فاقع ذو خطوط حمراء عطر الرائحة لا يفعل فيه الزمان ولا تقربه الأرضة والسوس ولذلك اعتبره قداماء البنائين (راجع سفر الملوك الثاني ٧: ٧ و ١ اخبار ١٧: ٦ واش ٩: ١٠ وارميا ٢٢: ١٤) واستعماله منذ عهد عهد في الابنية كان اعظم الاسباب التي أدت الى ملامشاته وقد ذكر الطبيعي بلينيوس (١) ارز سوربة كخشب لا يصيبه الفساد وروي ان سقف هيكل ديانة في افسس الذي التهمته النيران بعد تشييده بنحو ٤٠٠ سنة كان من هذا الخشب . وكذلك كان قداماء الشعراء يشبهون الاعمال المخددة بالارز (٢) . وما يشهد لهذا الشجر بالبقاء ان لايرد (Layard) وحد بين عادات اشور تزويرهال في غرود اخشابا من الارز صبرت على آفات الدهر نيفاً و ٢٧٠٠ سنة فاخذها واعاد صقلها فكانت كأنها قطعت حديثاً . وفي المتحف البريطاني قطع من هذه الاخشاب القديمة حسنة المنظر صفراء اللون بارزة العروق . وقد ألقى شيء منها في النار ففاح عرفها الذي اطراه القداماء (٣)

اما استعمال الارز في البناء فكان متنوعاً يتخذه المهندسون لعبات الابواب وعوارضها وسقوف البيوت (راجع سفر النشيد ١ : ١٤ و ٨ : ٩ وارميا ٢٢ : ١٤ وصفنيا ٢ : ١٤) بل ربما التجأوا الى الارز لتصفيح جدران القصور والهياكل بالواحه . وكذا فعل سليمان في هيكل اورشليم قال في سفر الملوك الثالث (٦ : ١٥ - ١٧) انه « بنى على جدران البيت من داخل الواح أرز . . من ارض البيت الى جوائز السقف » وقد احب القداماء ان يصفحوا الجدران بهذه الالواح لان حجارة فلسطين وسورية هي في الغالب كلسية نخرة لا تروق العين كالرخام والصوران والحجر المسانع فلتلاني هذا الحلل كانوا يصفحون الجدران بصفائح من ذهب او فضة او خشب ثمين وكانوا يفضلون الارز لبقائه . وكان داود قبل ابنه سليمان طلب من حيرام ملك صور ان يرسل له كمية من اخشاب الارز ليبنى بها بلاطه في اورشليم . فلما صار الامر الى

(١) راجع تاريخه الطبيعي (ك ١٣ : ١١ و ١٦ و ٧٦ و ٧٩)

(٢) راجع Horace, *Epist. ad Pisones*, 32 و Perse, *Satires* I, 41

(٣) راجع الشاعر فرجيل Eneid. VII, ١3 والتاريخ الطبيعي بلينيوس ك ١٣ ف ١

وتأليف لايرد Niniveh and Babylon, 367

ابنه فاراد ان يشيد للرب هيكلًا يُعبد من عجائب العمود فضل الارز على سواء
لتتميم هذا المشروع الخطير
وكذلك صنعوا داخل الهيكل الثاني في اورشليم بخشب الارز (١) وهكذا ايضا
جعلوا سقف الهيكل الذي جدهه هيودس (٢)

امّا الابنية الاولى المسيحية التي شيدتها الملكة هيلانة مثل قبة القبر المقدس
وسقف كنيسة بيت لحم فقد اتخذوا لها ايضا خشب الارز الى ان جدها الصليبيون .
هذا فضلا عن انهم كانوا يستعملون خشب الارز فينحتونها كما قال قائل واصناما
اشعيا (٤٠ : ١٤) وقد قال مثله ايضا كل من يوساناس وپلينيوس (٣)

ثم ان خشب الارز كان معتبرا ومستعملا في خارج سورية وفلسطين لان
سنحاريب ملك اشور يفتخر بانه صعد جبال لبنان وقطع منها شجر الارز (٤) وفي
الكتابات المسمارية ايضا يفتخر ملوك بابل واشور بمثل هذه المأثرة لانهم كانوا في
الغالب يتقاضون جزية من خشب الارز . وكثيرا ما يرد في النص الاشوري ذكر
الارز موصوفاً بطيب العرف ومقولاً عنه ان ملوك نينوى وبابل كانوا يتخذونه جسورا
اوروافد في هياكلهم وقصورهم (٥) وكانوا يكثرون جدا من استعمال الارز حتى ان
النبي اشعيا (١٤ : ٨) في معرض كلامه على سقوط بابل يصور الارز فرحا مجورا
بجراها . وكذلك كانت قصور ملوك فارس في عاصمتهم من خشب الارز (٦)

وقد عرف المصريون الارز وخواصه العجيبة وكان الفينيقيون ينقلونه الى سواحلهم
مجرأ (٧) فاتخذه الفراعنة لابنتهم الفخيمة كالتصور الملكية والهياكل الدينية وقد
اقتدى بمثلهم الملوك السلوقيون في سورية وقد اصطنعوا منه ايضا اثاث بيوتهم لعدم
فساده . وذلك ما حدا الى ان يثثوا من نشارته على موتاهم في تخنيطهم ويطلوا

(١) عزرا (٣ : ٧)

(٢) يوسيفوس في حرب اليهودية (٥ : ٥ و ٢)

(٣) لتاريخ الطيبي (١٣ : ١١١)

(٤) ملوك رابع (١٩ : ٢٢) واشعيا (٣٨ : ٢١)

(٥) Schrader مجموع كتابات اشورية وبابلية (ك ١ ص ٦٨، ١٠٨، ١٤٠) الخ

(٦) راجع المؤرخ اللاتيني كورتيوس روفوس (٥، ٢٢)

(٧) راجع تاريخ الصناعة في القدم لپيرو (Perrot) الجزء الاول (ص ٥٦٧)

برائتيجِه خارج التواييت كما يشاهد ذلك في مدافن المصريين

*

فيؤخذ من كل ما سبق ان تجارة الارز اللبناني كانت متمعة النطاق . على اننا لم نذكر الأقساماً صغيراً من الابنية التي كانت تجهز بهذا الحُشب . فانّ الادوات الحربية والمجانيق كانت في الغالب تُصطنع من الارز . ولا شك ان السدّ الذي اقامه الاسكندر بين الشاطئ والجزيرة المنيّة عليها مدينة صور دخل فيه شيء كثير من خشب الارز

وقد روى المؤرخ ديودورس (ك ١٩ ف ٥٨) ان انطيفون الملك حاول حصار المدينة المذكورة في سنة ٣١٥ ق م . فاراد ان يجهز له اسطولاً قوياً فأتى بثمانية آلاف عامل عهد اليهم ان يقطعوا من ارز لبنان ما كان كافياً لتجهيز ٥٠٠ سفينة حربية . فنقل الحُشب المقطوع على ظهر الف دابة الى مصانع صيداء وجميل وطرابلس حيث أنجز العمل . قال الراوي : « وكان الحُشب المذكور من الارز المرتفع القوام الباهر العظيمة » فترى من هذا المثل الوحيد كم عاثت الحروب بارز لبنان . ولكن كم عبت به من الحطّابين غير الثمانية آلاف الذين ذكرناهم . ولو اردنا لأوردنا امثلة عديدة تؤيد قولنا . ويؤخذ من رواية ديودورس ان كل قم لبنان كانت تردهي باشجار الارز من الشمال الى الجنوب يستدلّ على ذلك من ذكر المدن الساحلية التي نقل اليها الارز لعبارة اسطول انطيفون . واذا استغرب القارى وجود الارز جنوبي لبنان فلينذكر خبر حيرام ملك صور المشار اليه سابقاً

ومما يؤسف له ان الحكومة المحلية لم تسن السنن لقطع هذه الغابات بنظام . وعلى رأينا ان الرومان اول من فكّر في هذا الامر الخطير كما يظهر ذلك من كتابات لأدريان الامبراطور اوردناها مراراً مفادها ان الحكومة لا تسمح بقطع اربعة اصناف من الاشجار (١) من جملتها الارز . ومع ما دهم الارز من العيث والفساد ترى المؤرخين الرومانيين يذكرون غاباته الكثيفة من جملتهم تاقيتس المؤرخ (ك ٥ ف ٦) . وروى اوسابيوس القيصري (ك ١٠) ان سقوف البيع كانت تتخذ عادة من خشب

(١) قد وردت هذه الكتابة في المشرق (١: ٧٢٩) على خلاف هذه الرواية . والصواب ما ندونه هنا

الارز في القرن الرابع

على ان السنن الرومانية لم تحفظ للبنان فخر غاباته إلا زمنًا قليلًا فان بروكوب المورخ (١) يعبر عن يوستينان الملك انه بحث البحث الطويل قبل ان يجد الارز الضروري لتشييد كنيسة مريم المكيّة في اورشليم . وبعد التنقيب والتفتيش عثر البناؤون على ما كانوا يطلبون اي سوري باسقة الطول كافية لعوارض سقف البيعة

وإذا تدبّعنا تاريخ الارز من ذلك الحين وجدنا يد التلف تسطو على غاباته حتى لم تكدر تترك منها غير اثر بعد عين . فقد ذكر تاوفان المورخ في تاريخ سنة ٦٤٠ للعالم ان معاوية اول خلفاء بني امية ابني ١٧٠٠ سفينة شرعية واتخذ موادها من جبل لبنان . ولم تضر سنوات قليلة بعد ذلك حتى جهز ايضاً اسطولاً ثانياً أكثر عددًا واشد هولاً من الاول وقد حذا حذوه غير واحد من الخلفاء في مسألة الانشاءات البحرية وكانوا يجعلون اخص دور الصناعة وهي التي تسمى اليوم بمحلات الورشات او الترسانات في مدينة طرابلس نظرًا لقربها من غابات الارز . وما عاون ايضاً على تلف الارز وكان من حملة اسباب قطعه صناعة استخراج الحديد ومعالجته التي كانت اثناء القرون المتوسطة شائعة في كثير من نواحي لبنان كما يؤخذ من تاريخ ابن بطوطة والادريسي والقلقشندي . ثم ان الجهات التي اقيمت فيها مسابك الحديد وكانت في مبادئ القرن التاسع عشر زاهية بالغابات والاحراج الملتفة أصبحنا ولا زى فيها اليوم نبتة خضراء . فهذه الطريقة والحالة هذه نستطيع ان نعلل سرعة فناء الغابات في جبل لبنان

اما الان فلم يزل شجر الارز موجوداً في اربعة اماكن من انسان لانك تجد منه اولاً في شمالي لبنان بين قريتي الحداث ونيحا غابة يبلغ طولها نحواً من ساعة ونصف . نعم ان اكثر اشجارها فتية وليس في كل اماكن الغاب بملتفة ولكن اذا اتخذ ما ياتزم من الاحتياطات لصيانتها لا تلبث ان تصير بتادي الايام حرجاً من اللف الاحراج وانقها

وثانياً في اعالي قرية سير ببلاد الضنية في اعالي وادي النجاص فهناك كثير من

(١) راجع كتابه De Aedif., Justiniani. (ك • ف • ٦)

شجر الأرز على ارتفاع ١٩٠٠ متر عن مساواة البحر . وتجد الأرز أيضاً بين سير ونسع السكر ثم في الغابة الواقعة خلف وادي جهنم (١) والقوم في تلك الناحية يسمونه تنوب (٢)

ثالثاً في لبنان لقيف ثالث من شجر الأرز لا يعرفه إلا القليلون ثابت في الجبال المشرفة على قرية الباروك وعلى مسافة ساعة ونصف من الجنوب الشرقي وهو هناك بهيئة غابة غيباء تمتد على مسافة ساعة طولاً غير أن شجر الأرز في المحل المذكور يوجد ألقافاً ينصل بعضها عن بعض في الغالب بمسافات خالية أو مشغولة بأشجار أخرى من جملتها السنديان وهو من نوع السنديان الذي يذبت في شمالي اوردية واهل البلاد يسمونه اللك ويسمون الأرز الأبهل . وارز الباروك بوجه الاجمال فتي ولكن قد تُصادف فيه بعض اشجار عتيقة غير انها اقل سمواً وارتفاعاً من الأرز الموجود بناحية بشراي لان ثقل الثلوج في مثل هذه النواحي العالية كثيراً ما يكسر قمم الشجر كما ان شدة الريح تمنهبها حتى تجعلها منبسطة كالظلة على هوى الريح . فضلاً عن ان الجذوع تنفرع عادة الى فروع فتصير عظيمة وكبيرة . اما متى كانت الشجر مجتمعة لفاً واحداً ترى جذوعها سامقة مستطيلة وخالية من الفروع غير انها تكون اقل ضخامة نظراً لشدة قربها بعضها من بعض . على ان ارز الباروك بما فيه من الشجر الكبير والصغير والفتي الثابت على اصول القديم يمثل للعين غابة حقيقية اكثر من ارز بشراي

ولكن حياة هذه الغابة الحبيبة زواها لسوء الحظ مهددة كل ساعة بالفناء والدمار لانها لما كانت ملكاً لقرية الباروك كانت بلدتها تأذن بالقطع منها لقاء بعض دريهمات تنفع بها فن ثم نستلفت الى هذا الامر انظار الحكومة اللبنانية اما اشهر لقيف من شجر الأرز فغابة بالقرب من قصبة بشراي وموقعها على علو ١٩٢٥ متراً فوق مساواة البحر في سفح الجبل المعروف بظهر القضيبي . والتربة الثابت فيها الشجر المذكور كلسية ولكن الورق الذي يتساقط منه ادى شيئاً فشيئاً الى

(١) وقد ذكر ارز الضنية الرحالة سيترن (١ ص ١٧٩)

(٢) راجع المجلة الفلسطينية الانكليزية سنة ١٨٩٣ (ص ٢٢٠)

تكوين قشرة من التراب الاسود . وفي قلب هذه الغابة كنيسة صغيرة للموارنة
يقيمون فيها الاحتفالات كل سنة يوم عيد التجلي
واعظم شجر الارز ثابت في جوار الكنيسة المذكورة ومنه ارزة يبلغ محيط جذعها
اربعة عشر متراً و ٥٦ سنتيمتراً ثم ارزة أخرى تقاربها في هذه الضخامة . والارزتان
المذكورتان هما اقدم شجر الغاب وقدّر بعضهم ان عمرها لا يقلّ عن ثلاثة آلاف
سنة (١) . قال بذلك الجيولوجي الشهير الدكتور فراس الذي بنى حسابه على العقد
المختلفة الموجودة في الشجرتين

واكبر ارتفاع تبلغه هذه الشجر لا يتجاوز ٢٥ متراً وفي جملتها شجرات يتراوح
ارتفاعها بين اربعة عشر واثنين وعشرين متراً والباقي يقلّ ارتفاعه عن اربعة
عشر متراً

واما جملة شجر الغابة فهو نحو ٣٩٧ شجرة يدخل فيها الشجر الصغير الذي لا
يتجاوز ارتفاعه سبعة امتار وهو مما رقب الشجر الكبير في سبيل نموه مانعاً عنه الهواء
اللازم لذلك . وفي الغابة ايضاً شجرات اشندت قربها الى بعضها كثيراً حتى تلازمت
جذوعها واصبحت كأنها جذع واحد

ومن يقابل بين اخبار السياح والحوالة الذين زاروا هذه الغابة يرّ ان ارز بشراي
قد زاد عدداً في ايامنا . لان الارز المذكور كان في القرنين السادس عشر والسابع عشر
قد تناقص بل اوشك ان يتلف لولا عناية بطاركة الموارنة الذين تهددوا بالحرم كل من
يدّ اليه يداً عادية

واول من تكلم عنه هو بيلون (٢) الافرنسي وعدّ منه ثمانية وعشرين ارزة
قديمة . ثم السائح الالمانى فوريرفون هايمندروف (٣) سنة ١٥٦٦ وعدّ منه خمساً وعشرين
ارزة . ثم العشاب راولف (٤) الذي زاره سنة ١٥٧٥ ولم يعدّ منه غير اربع وعشرين

(١) راجع المجلة الفلسطينية الالمانية (ZDPV) مجلد ١٠ ص ٩١ وكتاب ايبس وغوته
مجلد ٢ ص ١٤) المنون Palestina im Wort und Bild
(٢) Belon
(٣) Führer von Haimendorf
(٤) Rauwolf

ارزة . ومن بعد هذا التاريخ كثر الذين اخبروا عن الارز من جملتهم الاب ايرونيوس دنديني اليسوعي قاصد الكرسي الرسولي الى الموارنة فانه زاره سنة ١٥٩٩ وعد منه ثلاثاً وعشرين ارزة . ومنهم دارفيو (١) الذي زاره ١٦٦٠ ومنهم روجه وغيره ولم يجدوا اذ ذلك غير اثنتين وعشرين شجرة . ومن بعد هؤلاء زاره المؤرخ دي لاروك سنة ١٦٨٩ فوجد فيه عشرين شجرة والانكليزي موندريل سنة ١٦٩٦ ثم بوكوك وعد الاوّل ست عشرة والثاني خمس عشرة فقط . غير ان الشجرات الفتية قوية لحسن البخت في اثناء هذه المدّة على ان تنمو تدريجاً وتعوّض عن الارزات القديمة

وفي تضاعيف القرن الثامن عشر تجددت الغابة شيئاً بعد شيء وترتقي اعمار الشجرات الفتية الى هذا التاريخ ومن ينظر الى ما فيها من العقد يُقدّر ان اعمارها لا تزيد على قرنين

وفي ٢١ تموز سنة ١٨٠٥ جعل سيّزن عددها ثلاثمائة ارزة بنوع التقدير اذ يظهر انه لم يعدّها واحدة فواحدة . وفي سنة ١٨١٠ احصاها بورخارد ثلاثمائة ارزة صغيرة وخمسين متوسطة وخمس وعشرين ضخمة وحجمه ذلك ٣٧٥ ارزة . وقد ذكر هذا العدد نفسه تقريباً الجيولوجي فراس الذي زار الغابة سنة ١٨٧٤ ممّا يدلّ على ان عدد الارزات قد بقي في زماننا على حاله

ومع كل ذلك لا يتنوع تكثيرها وفرازاً من تكرار ما سبق لنا ايراده في هذا الشأن نحيل القارىء على المشرق (١ : ٢٢٧ و ٣ : ٩٧٦) حيث أفضنا الكلام في الارز وأقنا المقابلة بين لبنان وجبال الألب

وقد مرّ القول انّ الارز يوجد ألقافاً متفرقة ما بين كبيرة وصغيرة في اماكن مختلفة من جبل لبنان . وهذا يثبت انه يقوى على النجاح والنمو فيه . بقي ان نقول ان الارز يوجد ايضاً في تمنائيل التابعة البقاع وذلك في ارض الاباء اليسوعيين الذين امتحنوا زراعته عندهم فافلحوا . اما في خارج لبنان فيوجد الارز بكثرة في جبال قرمانية وجبال جزائر الغرب وكل هذا من شأنه ان ينشط مساعي الذين

يهتمون بحفظ الاشجار الجميلة التي كانت زينة وحلية لهامة لبنان منذ الدهر القديم (١)

٢٨ الكورة

الكورة من اخصب انحاء لبنان تجمع بين ارفاق السهل والحبل . ولا مرأ ان الناس سكنوها منذ القرون الغابرة . ولو بيننا الحكم على ما يوجد من التشابه بين اسم قريتها « اميون » وعلم آخر « اميا » ورد ذكره في مكاتبات تلّ العمارنة (المشرق ٣: ٧٨٩) لصحّ القول انها اقدم مقاطعة في داخل لبنان احتلها السكّان . وفي الكورة آثار ترتقي الى عهد اليونان والرومان كما سترى

٢٩ دار بعشتار - بزيزا - ناوس

اذا ما قطعت نهر الجز الفاصل بين مقاطعتي الكورة والبترون لقيت بادناً دار بعشتار . وهي قرية فيها شيء من بقايا القرون الوسطى منها كنيسة ذات حنية محكمة العمل تكنتها اخرة قديمة من العهد نفسه . غير ان اسم دار بعشتار جدير بالاعتبار . وهو مركّب من لفظتي بيت وعشتار . وعشتار هذه هي إلهة الفينيقيين الشهيرة . فيستدلّ بذلك على ان هذه القرية كانت سابقاً هيكلًا لعشتروت يعبدها فيه اهل لبنان

واذا يمتّ الشمال الشرقي بلغت بعد قليل قرية بزيزا ولعلّ اسمها منحوت من بيت عزيز . فالباء اختصار لفظة « بيت » شائعة كبعديدات ومجدون وبزمار . اما عزيز فاحد الالهة الساميين مرّ ذكره في المشرق (٤: ٧٢٩) . وفي بزيزا هذه هيكل صغير قديم العهد حسن البناء لم يضععه حدثان الدهر . ولما تنصّر الاهلون جعلوا الهيكل كنيسة وأضافوا اليها حنايا آثارها باقية حتى اليوم . وهم يدعونها كنيسة العواميد او سيدة العواميد لما يزين واجهتها من الاعمدة . وليس هناك كتابة تهيئنا عن امر هذا البناء القديم وغايته

(١) اما طريقة تكثيرها فراجع في شأنها ZDPV ; X. 93

وقس على ذلك قرية ناوس التي موقعها شمالي شرقي يزيزا على مسافة اربعة كيلومترات منها . وهي فوق ربوة قريبة من عين عقريم الحالية . وما ناوس الا تعريب اللفظة اليونانية *vócos* يراد بها الهيكل . واذا استثنيت بعلبك وآثارها الجبّارية لا تجسد في كل لبنان ما يضاها بقايا ناوس واطلاها اتساعاً وعظمة . اما نقوشها فهي ايضاً دون نقوش بعلبك دقة واحكاماً وفيها مسحة من الصناعة السورية . وهي من عهد الرومان كابنية بعلبك

وفي ناوس اخربة هيكلين كبيرين يلاصق احدهما الآخر يحدق بهما سوران رحبان وفي وسط كل منهما معبد قليل الاتساع تزينة اعمدة مُصمّنة تراها على صورة هيكل حصن سليمان في جبل النصيرية (١) واركان الابواب التي يُدخّل منها الى حرم الهيكل من الحجارة الضخمة وهي منتورة على شكل درج . وآثار هذا الدرج باقية حتى يومنا . ولا ريب انه كان في الزمن القديم لهذين الهيكلين منظر يأخذ بالابصار . وكان التاظر يكشف من هذه الاكمة المرتفعة نحو ٦٠٠ متر فوق سطح البحر على كل الساحل من البترون الى ما وراء طرابلس . وهو يرى سهول الكورة ومزارعها الجميلة ممتدة امامه

واذا لحظتُ النقوش التي على الهيكل الشرقي وجدتها خشنّة غليظة . وليس هناك من الحجارة الضخمة سوى مساند الابواب والصفائح المثانة الزوايا التي تعلوها . اما بقية الحجارة فهي متوسطة الكبر كحجارة افقا وقلعة فقرا . وفوق باب المدخل صورة كفة مجنحة تزينة وقد ألف الفينيقيون مثل ذلك في هياكلهم (راجع وصفنا للقرية اده في الصفحة ٦٨)

اما الهيكل الآخر الذي موقعه جنوبي عربي الهيكل السابق ففيه بقايا حسنة من نقوش ابوابه . وقد وجدنا بين ردم الهيكل عمالاً نصفياً يمثل البعل وعلى رأسه شعاع الا ان نقشه خشيب ونظن انه سقط من الكورة التي تعلو مدخل المعبد . ولهذا الهيكل سور حجارته جبّارية تشبه حجارة دير القلعة يبلغ طول بعضها ستة امتار

ونضرب صفحاً عن المدافن الجميلة والمقاطع المتسعة والثوایس المنقوشة التي تُرى حول قرية نائوس لثلاث نعوذ الى ذكر آثار وصفناها مراراً . على ان هذه المدافن والمقاطع تدلُّ دليلاً بيّناً على ان تلك الانشاء كانت في الاجيال الخالية عامرة حافلة بالسكان وان لم يُفدنا التاريخ من امرها شيئاً . وكذلك لم يكتشف احد حتى الآن بين هذه الاخربة كتابة تفيدنا علماً عن اخبار السلف

٣٠ اميون

قد سبق لنا القول عن اميون وقدمها . اما الآثار الباقية فيها فقليلة لا يُعبأ بها . من ذلك صخر منحوت نُقرت فيه كوى او مشاكٍ . ومنها كهفٌ يُرى اليوم تحت السراية الجديدة كان في ما سلف من الزمان مدفناً ثمَّ جعل معبداً لذكر القديسة مارينا . وقرب الكهف اخربة كنيدية عتيقة بقي منها حنيئتها وكان معبد القديسة مارينا تابعاً للكنيسة معدوداً كأحد مصائبها

وقد تكرر ذكر اميون في تاريخ الموارنة القديم . وكانت اذ ذلك مركزاً مهماً للملكيين كما هي اليوم . ومن ذكروا اميون الشريفُ الادريسي في كتابه نزهة المشتاق اماً الصليبيون فلم نجد اسمها في تأليفهم وهم يصفون مع ذلك غيرها من قرى الكورة (ويدعونها La Core) ومن املاكهم في هذه المقاطعة كفرقاهل (Caphrahael) وبثوراتيش (Boutourafig) وبطرومين (Bertrandimir) وبديهون (Bethamum) وغير ذلك من الاسماء التي شوَّهها الفرنج باللفظ ويسهل اصلاحها

٣١ المُسليحة

للبترون الى طرابلس طريقان الواحدة على ساحل البحر والاخرى جبليّة فن سار في طريق الجبل . جاريّاً لوادي نهر الجوز (وهي اليوم طريق العربات) وصل بعد مدّة قليلة الى حصن يُدعى المُسليحة وهو حرزٌ منيع موقعة فوق صخرة منتصبة على الوادي عمودياً . والوادي في هذا المكان ضيق خرج المنعطف

اما تاريخ هذا البناء واخباره فجهولة لم يرشدنا اليها احد من الكتبة . ولعلّ

الى ان يقدموا الى زيارة هذا الجبل الصَّرد. ولو زارهُ الجيولوجيون والجغرافيون لوجدوا فيه ما يُجديهم علماً
فلنباشرن بوصف القسم الشمالي من هذا الجبل اعني رأس الشتعة فنقول: انَّ هذا
الرأس ينتصب كصخرة صماء ويدخل في غمر البحر مشرفاً على كل البلاد المجاورة وعلوهُ
يبلغ ٣٠٠ متر. واذا نظر اليه المسافر القادم من جهة طرابلس رأى شكله اشبه بدارعة
هائلة قائمة فوق ثبج البحر لا تبدي حراكاً في رأسها مهجأزٌ مربع لمناوله عدوها. وفي
جوانب هذا الرأس اخاديد تشهد بما دهمه من الزلازل في كرور الاجيال فتضعضت
اركانه وتقطعت اوصاله. نخصي منها بالذكر الزلزلة التي حدثت في عهد يستنيان الملك
ومرّ لنا وصفها في المشرق (١: ٥٠٣). وهذا الزلزال غير هيئة رأس الشتعة بل ألحق
اهواله بالجبل المجاور لهذا الرأس فشوه صورته

وكان القدماء (١) يطلقون على هذا الرأس اسماً غريباً في معناه فيدعونه وجه الله
(Θεοπροσωπον). أمّا النصارى اليونان فابدلوا اسمه باسم وجه الحجر (Λιθοπρο-
σωπον) وهو اسم قرية مجاورة له موقعها فوق سطح الجبل جنوباً. وممّا يفيدنا التاريخ
ان الإلهة تانيت معبودة الفينيقيين كانت تدعى باسم «وجه بعل» أفلا يسوغ لنا ان
نستنتج من هذه الدلائل ومن المقابلة بين هذه الاسماء ان الفينيقيين كانوا اختصوا هذا
الجبل بعبادتهم لا سيما ان صورته الغربية تستلفت الانظار. وهذا الظن يتأيّد بمثل جبال
اخرى في ساحل بحر الشام كان القدماء يعظمونها تعظيمهم للإلهة كجبل الكرمل والجبل
الاقرع شمالي اللاذقية وغيرها. وكان جبل لبنان نفسه مكرماً كاله يعبدونه ويدعونه
بعل لبنان. أمّا تسمية الكتبة الفرنج لهذا الجبل برأس مادون (Cap Madonne)
فليس هو كما زعم رينان اثرأ لعبادة الإلهة تانيت بل «مادون» تعريب كلمة
«السيدة» فقيل له رأس السيدة اشارة الى سيدة النورية التي بُني هناك ديراً باسمها.
وقد ذكر الجغرافي اسطرابون ان في زمانه كانت قلعة مشيدة في اعلى رأس «وجه الله»
وان في هذا الجبل ليس بعيداً من البترون اغواراً وكهوفاً يأوي اليها اللصوص وقطاع
الطريق كانوا يعيئون في البلاد حتى اجتث يومهيبوس دابرههم واستاصل شأفتهم. ولعل

(١) راجع الجغرافيين كاسترابون (ك ١٦ ف ٢) وبوليبيوس وغيرها

هذه المغاور هي الاغوار التي تُرى في يومنا هذا وراء قرية « قبة » قريباً من قرية وجه الحجر وهي واسعة تُشرف على البحر (١)

واذا سرت من البترون على ساحل البحر قاصداً حشوش تمرّ باء مزرعة تدعى سلعاتا عندها نبع جارٍ. وهذه المزرعة لم اتفقّد آثارها في رحلتي. واني أتأسف اليوم على فوات الفرصة لانه يُحتمل ان سلعاتا هي في مكان بلدة قديمة دعاها القدماء Σάλατων او Iovασίτιοι Σάλατων وقالوا عنها انها كانت كرسياً استقياً وجهلواها مع جيغرتا وأنفة (٢) ولكن لا بد من تحقيق الامر والاستطلاع على آثار المكان. وعلى كل حال لا يخاف وجود نبع في هذا الساحل الرملي القفر من الدلالة على مقام قديم

وراء سلعاتا هذه جون صغير يفضي اليه مسيل ماء ناشف يدعى وادي غميقي. والطريق التي تمرّ حول هذا الجون منقورة في الصخر كالطريق الرومانية التي تُرى عند نهر الكلب. وعلى جانب هذه الطريق صخرة قد كُتب على وجهها أقيماً باليونانية ما تعريبه: « هنا ينتهي مُلك ديوسترات. وقد اتفقنا على ذلك ». وهذه الكتابة ضخمة الاحرف طولها ٣٠ سنتيمتراً وهي كما ترى نصبٌ جعل للدلالة على حدود الاملاك ومثلها كثير في منعطف لبنان الشرقي بين بحيرة البسونة وبعلبك



وبازاء هذه الكتابة على الصخر العمودي الذي

بجوارها رسم ترتيب بعروتين على هذه الصورة وليس ضمن الترتيب شيء ولعله كان فيها سابقاً كتابة طمسها الدهر لكنني لم اجد فيها اثراً للحروف كالسيّاح الذين سبقوني الى هذا المكان

وهذه الكتابات مع نقر الصخور تدلّ على ان القدماء مرّوا في تلك الانحاء. ولا ريب ان الطريق كانت تجتاز في هذا المكان ولعلها هي الطريق الرومانية التي كانت تتبع ساحل بحر الشام تنعطف بانعطافاته مرّة حول رأس المشقة. والمرجح ان الجيوش الرومانية كانت تسير في هذه الطريق الساحلية لان الطريق الجبلية الحالية كثيرة

(١) راجع الرحالة ستزن (Seetzen I , 231)

(٢) راجع ريلند (Relandi Palæstina , p. 216) والمجلّة الفاسطينية (المانية ZDPV)
XXII , 143) يد انا لا نبثّ حكماً في ما قدّمنا

الوعورة صعبة المرتقى وليس فيها شيء من الآثار الدالة على اعمال الاقدمين . ولم يكن قبل طريق العربات الخديشة طريق غيرها تصل بين طرابلس واوراسط لبنان . امّا الطريق القديمة على وادي عميق وحنوش ورأس الشقمة فلم تعد مسلوكة . والارجح ان الزلزلة التي جرت في عهد يوستينان دمرت هذه السبيل واخربتها

٣٣٣ حنوش

اذا عبرت من ثمّ وادي عميق بلغت بعد زمن قليل حنوش . وحنوش هذه هي اليوم عبارة عن دير صغير للرهبان الموارنة البلديين يجذب به بضعة بيوت لسكنى الشركاء . ولكنها سابقاً كانت قرية ذات شأن (١) كما يؤخذ من الآثار العديدة التي تراها مبثوثة في السهل المجاور لها بينها معاصر وحجارة رحيّ وروؤس اعمدة . وهناك رسم كنيسة قديمة من الطرز البوزنطي تُعرف اليوم بكنيسة القديس يوحنا طولها ٢٣ متراً و ٥٠ سنتيمتراً في عرض ١٥ متراً . والمرجح انها كانت مثلثة الاسواق وحواليها قطع اعمدة من الرخام مع صليان منقوشة وبقايا كتابات يونانية ذهب اكثرها فضاعت معانيها بيد ان هذه البقايا تشير الى خطر ذلك المقام الديني وعظم قدره . وكذلك ترى من جهة الشرق مدافن نُقرت في الصخور قد اتلفتها الايام

واغرب ما يوجد في حنوش من الآثار جرن متقن العمل قطره ٤١ متر و ٤١ سم وعمقه ١,١٥ يبلغ وزنه ٢٣٠٠ كيلوغرام يستدير به نقشٌ نالئٌ ذو كتابة يونانية مطحوسة يُستدلّ من الفاظها الباقية ان فلاناً ابن فلان اصطنع هذا الجرن من ماله الخاص هبةً للمشتري (πῆ Δῆ) وكلا العَلَمين الواردين في هذه الكتابة سامي الصورة والاصل يُدعى احدهما انيلوس (Ἀννῆλος) وهو اسم ارامي بجحت والاخر نارس (Νααρῶς) يشبه الاسماء اليونانية المنقولة عن العربية مما ورد في كتابات حوران . وفي تعريف اصول هذه الاعلام فائدة كبرى للوقوف على سكّان هذه الامكنة وغيرها ايضاً فانها تدلّ على ان الاهلين كانوا آراميين جنساً وان كانت اللغة اليونانية اضحت لغتهم الرسمية

(١) وقد وصفها حديثاً سيادة المطران بطرس شبلي في المجلة الكتابية (R. Biblique, 1901) 583 واتقد على ما كتبه رينان بهذا الصدد

فان الاعلام اصدق اثر يني باصل القوم وذكر اجدادهم . وامثال ذلك عديدة فقبائل الفرنك . مثلاً بعد استيلائها على بلاد غالية ابدلت لهجتها الجرمانية باللغة اللاتينية . لكن كثيراً من اعلامها بقيت على مسجتها الاصلية فكذلك بها دليلاً على تشعب الفرنك من العنصر الجرمانى

وقد وجد البعض آخرًا في جوار حنوش نقودًا كثيرة من الذهب عليها كالم صورة يوستينوس الملك . وفي هذا ايضاً دليل على ان هذا المكان في سالف الدهر كان احمل بالسكان منه في ايماننا . ولكن ماذا يا ترى كان اسم المحل سابقاً ؟ فجييب ان في تعريف اسمه القديم لبحثاً مفيداً لجرافية لبنان اعني تطبيق هذا المقام مع بلدة قديمة تدعى جيفرتا

٣٤ جيفرتا

اذا عملنا النظر في تاريخ القديما . وجدنا في اسطرابون (ك ١٦ ف ٢) ما لم يف بالغرض المقصود . فان غاية ما يعلمنا به هذا الكتاب ان جيفرتا حصن حرير يحتمل الايتوريون موقعه عند البحر قريباً من البترون ورأس الشقعة (θεοπερώσιον) . على ان في هذا الوصف بعض الابهام اذ لم يفدنا عن جهة موقع جيفرتا لتكون شمالي البترون ام جنوبيها . وهذا الالتباس يزيد المؤرخ پلينيوس (ك ٥ ف ١٨) ومن قوله يتضح ان جيفرتا شمالي البترون وجنوبي تياريس (وهي انفة كما سترى) . وكذلك قد ورد اسم جيفرتا في قائمة قديمة للمدن الاسقفية التي موقعها على الساحل الفينيقي في اثر البترون وتدعى هناك قرية (Κώμη) (١) وهذا مما يبين ان جيفرتا كانت خاملة الذكر على أيام ملوك القسطنطينية . ولا يبعد انها اخذت في الانحطاط منذ زمن يستينان الملك بسبب الزلزال الذي اخرج الطريق القديمة واضطراً أهل السابرة ان يجرؤا في مضيق المسيلحة . وهذا ايضاً يعلل سكوت المؤرخين العرب عن جيفرتا

ومما يطلعنا على خطر جيفرتا في أيام دولة الرومان كتابة لاتينية اثبتها رينان في بعثة فينيقية (ص ١٤٨) يُستدل بها على سعة حدود تلك البلدة . وقد وجدت هذه

(١) راجع Relandi Palaestina, 160. وامل كنيسة مسار يوحنا في حنوش هي

الكنيسة الكاتدرائية التي اتخذها اساقفة جيفرتا

الكتابة في عبرين وقيل انها نُقلت اليها من المسيحية او من الهري فوق شكاً وعلى كل حال انما ينبي وجودها في احد هذين المكانين بان جيغرتا المذكورة لم تكن بعيدة من راس الشقعة وعن شمال البترون لان مثل هذه الحجارة لا تُنقل عادة الى مكان قاص.

وهذه الملاحظات اذا عاها المتقدمون بالتحققوا ان جيغرتا ليست بزغرتا كما ظن بعض العلماء كفورر (Fürer) (١) وهو لم يسند رأيه الى برهان آخر غير التشابه اللفظي بين الاسمين مع ان موقع زغرتا لا يوافق وصف الاقدمين لجيغرتا بعد زغرتا عن البحر في شمالي انفة ووقعها في وسط سهول خصبة لا تصلح للتحصين بخلاف ما جاء عن حصن جيغرتا المشرف على البحر. وعلاوة عن ذلك لم نسمع ان احدًا وجد في زغرتا شيئًا من العاديّات. على اننا لا ننكر كون زغرتا من القرى القديمة التي استلقت انظار الامم الغابرة بحسن موقعها في بطائح مخصبة وادوية غناء يسقيها ماء نهر غير لكننا لا نرى فيها مناعة القلاع وليست هي جديدة بان يتحصن بها لصوص الايتوريين وقطاع الطريق كما جاء في وصف جيغرتا

وكذلك لا يصح تطبيق جيغرتا مع غرزوز لبعده غرزوز جنوبًا عن البترون. ولا مع شكاً لوقوعها في السهل او في منعطف آكام قليلة الارتفاع. ولا مع الهري لخلوها من الآثار القديمة وان كان وصف الاقدمين يوافقها بعض الموافقة من حيث الموقع الا انه لا يجوز ان ينسب الى قرية اصل قديم قبل ان يكتشف فيها شيء ينبي بقدمها اما حنوش فتصدق فيها كل الادراف التي وردت عن جيغرتا من حيث قدمها وكثرة آثارها واتصال السكة القديمة المقورة في الصخر عند وادي غميق بمقامها فضلًا عن موقعها في لحف راس الشقعة قرب البحر بين انفة والبترون. وترى من خلفها صخورًا عالية مقطوعة قطعًا عموديًا تصلح قسماً لتكون معنلاً لقوم من الصعاليك وعشاً لاهل الغي والفتن يعيشون بها دون ان يهابوا مباغتة العدو. وقد شهدنا بالعيان وعودة هذا المكان وصعوبة مسلكه اذ ادركنا الليل ونحن فوق هذه الصخور المرتفعة تحديق بنا من كل جهة المهاوي والوهاد العميقة فاثرتنا ان نقضي ليلنا في العراء من ان نلقي

(١) راجع المجلة الفلسطينية الالمانية (ZDPV, VIII, 19)

بانفسنا في المخاطر بمواصلة السير بين تلك الجاهل. وهذا ونظن ان اهل الفساد من الجيفرتين بعد الفتح الروماني واستتاب السلام نزلوا من مأويهم الحصينة فسكنوا في السهل الممتد بين البحر والصخور حيث توجد الاخربة القديمة
 أما اسم جيفرتا (باليونانية Γίγαστος و Γίγαστα و Γίγαστος فنظنهُ ساميً الاصل يوافق العبرانية גיגרת والسريانية ܟܝܓܪܬܐ ومعنى كلاهما المضيق ويشعب الجبل وهو ينطبق على موقع المكان ولغة ساكنيه القديمة اي الارامية وهي لغة الاثوريين الاصلية. وهذا المعنى على راينا انسب للمقام من اشتقاق الاسم من اليونانية γίγαστος وهو ثغل العنب (راجع بعثة فينيقية ص ١٥٠)

٣٥ أنفة

انفة ما وراء راس الشقعة في اخر السهل الذي بُنيت فيه شكاً وهي مركز لدرس العاديّات. والقرية الحاليّة موقعها بقرب راس مستطيل دقيق يشبه البرزخ. وقد خُذَ هذا الراس في عرضه بشبه خندقين نُقرا في الصخر تقراً حجبياً متسعاً يبلغ سطح البحر. ومن اعتبر هذين الخندقين اخذه الاندهاش من شدّة عزيمة الاقدمين في مباشرة مثل هذه الاعمال الجبّاريّة كيف نحتوا الصخور الصماء كأنّ صلابتها تلين بين ايديهم او كانت لديهم ادوات قاطعة غير ادواتنا الشائعة اليوم. وبين هذين الخندقين والقرية ترى اعمالاً اخرى غريبة في شكلها على جانبي الراس الموما اليه وكلها منقورة في الصخر ويالحق بهذين الاخدودين بقايا ابنية ضخمة متصلة بهما ذات حجارة كبيرة مستندة الى الصخر. وهي آثار جدران تشبه جوانب قلعة جبيل شهباً عظيماً في توت حجارتها والتحام هذه الحجارة بعضها ببعض بحيث لا يشك الناظر انّ ثمت كان حصن مشيع ويؤيد ذلك التقليد اهل انفة الذين يدعون هذا المكان بالقلعة
 وبين الخندقين المذكورين والقرية ترى في الصخور من الآثار المنحوتة المحكمة العمل ما يندر مثله في لبنان والحمامات والمدافن والاحواض وكلها اطراف وافاريز جميلة حسنة النحت. وهناك ايضاً رحيّ ومعاصر عديدة مبهتة في الحضيض. وللصخر طبقات منظمّة يُنزل منها الى البحر بما بر على جوانبها شبه الدرايزين. وفي مداخلها ثقب لمرالج الابواب ورزاتها. وفي جانبي الحائط أغوار عديدة منحوتة في الصخر عمودياً

ومنها ما هو ممتن الهندام يصلح للسكنى. وكذلك المدافن فإن لها مسحة من القدم وهيئتها غريبة

أما بُناة القلعة فنرجح انهم الصليبيون لما بين آثارها واثار جبيل من الشبه. وقد اثبتنا سابقاً ان قلعة جبيل من ابناء الفرنج (راجع الصفحة ٦١). وفي تاريخ بروكرد ما يشير الى هذه القلعة فإنه وصف للفرنج في انفة « قلعة كان معظم جوانبها داخلاً في البحر ولها اثنا عشر برجاً وهي شديدة الحرارة »

لكن الخندقين الفاصلين الراس عن الساحل على رأينا ليسا من اعمال الفرنج فانهما اقدم عهداً يرتقيان الى عهد الرومان ان لم نقل الفينيقيين. والفينيقيون كما لا يخفى كانوا اتخذوا في ساحل بحر الشام كل الرؤوس البارزة ليجعلوها محاصن يرقبون منها البحار ويدافعون بها عن سفنهم الراسية بقربها كما جرى لهم في عكا وصيدا. وبيروت وجبيل فلا نظن انهم استبنوا من هذا الحكم راس انفة فتكون هذه المتاريس والحنادق ممّا حصّنوا به قلعتهم وقد رغّبهم في حفر هذه الاخاديد انهم اتخذوا منها موادّ بنائهم فكانت بمثابة مقالع لحجارة القلعة

ونرى كذلك ان بقية الآثار الموجودة في انفة ممّا نقر في الصخر اقدم عهداً من

الصليبيين

وكان اسم انفة قديماً تيراريس (Tiraric) ذكرها المؤرخون سكيلكس ويوليبيوس واسطرابون وغيرهم من كتبة عهد الدولتين اليونانية والرومانية وقد ورد اسمها في لائحة الاستقيآت القديمة. أما اسمها تيراريس فقليل انه مشتق من اليونانية ومعناه « المثلثة الزوايا » لشكل راسها الشبيه بالمثلث المستطيل (١). وكذلك معنى انفة بالعربية يراد بها الراس. والشريف الادريسي يدعوها « انف الحجر » ولعله التبس عليه

(١) هكذا زعم البعض لكننا لم نجد في قولهم حجة قاطعة. وعلى كل حال اتنا نرى ان هذه الاسماء اليونانية التي اتخذها اليونان أيام دولتهم للدلالة على بعض مدن ساحل فينيقية وقرى لبنان كبطوليس (عكا) وبيبلوس (جبيل) وثاوبروسوبون (راس الشقمة) وغير ذلك لم تبت زمناً طويلاً وانما كانت اسماء رسمية استعملها عمال الدولة فلما سقطت عادت الاسماء السامية الشائعة على لسان الشعب الذي لم تؤثر فيه لغة الدولة واصطلاحاتها الرسمية. وهذه الملاحظة العمومية تصدق في تيراريس التي أهمل اسمها اليوناني وعاد اليها اسم انفة السامي

اسمها واسم قرية وجه الحجر في راس الشقعة وليس من غرضنا ان نلخص في هذه المقالة تاريخ انفة في القرون المتوسطة وما قال عنها كتبة الفرنج وجغرافيو العرب لكننا نكتفي باثبات ما جاء عنها في معجم البلدان قال ياقوت (١ : ٣٩٠) : « انفة بليدة على ساحل بحر الشام شرقي جبل صهيون بينهما ثمانية فراسخ » وفي قوله غلط ظاهر يريد غربي جبل صهيون او بالحري جنوبي غربي صهيون . وقد جاء في مرصد الاطلاع بدلاً من « شرقي جبل صهيون » شرقي جبيل وهو اصح . وقد افادنا شمس الدين الدهشقي في كتاب عجائب البر والبحر (ص ٢٠٧ و ٢٠٨ مع الحاشيتين a b) ان « للنصارى في انفة كنيسة عظيمة البناء . وبها بيت يزعمون انه اول بيت وضع باسم مريم في الشام وان البيت الثاني المشيد بعده لذكرها كان في انطربوس » . وهذه افادة جلية لتاريخ النصرانية في سورية . وكانت انفة على عهد الصليبيين من الاملاك اللاحقة بكنية طرابلس وكان الفرنج افسدوا اسمها باللفظ فدعوها نفين (Nephin) . أما قلعتها فقد امر السلطان قلاوون بهدمها

٣٦ قلمون

اذا سرت من انفة متوجهاً الى طرابلس بلغ بك المسير الى قرية بهجة المنظر تدعى قلمون موقعها في وسط حديقة كثيرة الزرع غزيرة المياه . واسم قلمون يطلق في الشام على عدة امكنة منها جبل قلمون المشرف على دمشق ومنها قرية قلمون (Calamon) بجوار الكرمل وحيفا (١) وجبل قلمون في شبه جزيرة سينا . وقد ذكر الادريسي قلعة تدعى قلمون بين صيدا ونهر الدامور وقلمون هذه قد دعاها القدماء قلموس (Calamos) وممن ذكرها المؤرخان پوليبوس وپلينيوس وغيرهما وربما جعلوا اسمها مع اسم جارتها تيرياريس وان لم يكن لها من الشأن ما كان لانفة . وكانت قلمون في القرون الوسطى قلعة ورد ذكرها في الادريسي وفي رحلة والكاتب الفارسي نصري خسرو الخ

(١) راجع كتاب فلسطين لريلند (Relandi Palaestina, 230,678) وكذلك راجع اسطرابون (Strabon, notes 916)

وفي قلمون وضواحيها عدة اثار قديمة كمقالع ومعاصر ورحي وبقايا اعمدة وغير ذلك ممّا يدل على قدمها. بيد اننا لم نجد في هذه الآثار ما يجدينا علماً عن احوالها ومن ثمّ لا زى داعياً لاطالة الكلام فيها

٣٧ دير البلمند

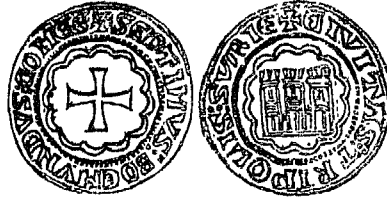
في الجبل المشرف على البحر بين انفة وقلمون على يمين السائر الى طرابلس دير شهير لا يمكن ضرب الصفح عنه زريد به دير البلمند للروم الارثوذكس حيث كان يدرس المترشحون للكهنوت من البطريركية الانطاكية . قال المنار (في عدده الصادر في ٢٩ لك ١٩٠١) : « البلمند من اعظم اديرة الشرق فخراً واضخمها بناء واطرفها موقعا وابعدها شهرة وزمن بناه مجهول وقد نابه ما ناب اكثر اديرة الارثوذكسية في سوريا وفلسطين في غزوة الصليبيين »

قد صدق كاتب هذه الاسطر بقوله انه يجهل زمن بناء دير البلمند لكنه ساء ظناً بترقيته هذا البناء الى زمن سبق عهد الصليبيين ونسبته اليهم ما هم براء منه وكان الاولى ان يشكرهم على تشييد هذا الدير اذ لولاهم لما رأى عالم الوجود . ومصداقاً لقولنا نورد هنا مختصر تاريخ دير البلمند ليقف عليه كتبة الروم

كان انشاء دير البلمند في ٣٠ ايار من سنة ١١٥٧ . وقد تولى بناءه رهبان القديس برزس المعروفون بالسستريسين (١) وجعلوه تحت حماية البتول الطاهرة سيدة بلمنت (Abbatia Belimontis) . وبلمنت لفظة لاتينية منحوتة من كلمتين معناهما الجبل الجميل . وربما ورد اسمه في كتبة الصليبيين على صورة الفرنسية القديمة «Beuleu» وهي بمعنى «Beaulieu» اي المقام الجميل وهو اسم يطابق المسمى ولذلك قد اتخذ اهل طرابلس الى يومنا كمصيف يقضون فيه فصل القيز . ثم افسد القوم بلمنت فجعلوها « بلمند » . ومما يدل على اصل اشتقاقها انها وردت في كتاب مختصر تاريخ

(١) لنا على ذلك شواهد عديدة منها مناشير للاخبار الرومانيين ذكرها روريت (Roehricht dans ZDPV, X, 35) . امّا ما كتبه الاديب جرجي افندي في تاريخ سورياً (ص ٤٩١) عن مائدة هيكل كنيسة البلمند ان عهدها يرتقي الى سنة ١١١٣ م فلم تتحققه بنفسنا وكناً وددنا لو اثبت جنابه هذه الكتابة بنصها . ولعل هذه المائدة نُقلت الى البلمند من مكان قريب

لبنان (من مخطوطات كليتنا) على صورة بلعوند . وعليه فلا صحّة لما قاله البعض (١) ان بلمند مشتقة من اسم البرنس بويند صاحب طرابلس سيدها على زعمهم كمنزله له في سنة ١٢٨٧ . ثمّ ان تاريخ بويند السابع (١٢٧٤ - ١٢٨٧) لا ينطبق على هذه الرواية لان بويند قضى السنين الاخيرة من حياته في عاصمته لم يمكنه الخروج منها وكان السلطان قلاوون يضايقه فيها الى ان توفي في ١٩ تشرين الاول سنة ١٢٨٧ فما كان له اذ ذاك ندحة في تشييد القصور والمنزهات . هذا فضلاً عن انه لدينا نصوص ورد فيها اسم بلمند قبل هذا التاريخ كما سيأتي



مسكوكات بويند السابع صاحب طرابلس

وبراءات الاحبار الرومانيين في دير البلمند كثيرة (٢) نخصّ منها بالذكر براءة غريغوريوس التاسع سنة ١٢٣٨ واينوكت الرابع سنة ١٢٥٠ واوربانوس الرابع سنة ١٢٦٢ . ويظهر من هذه المناشير ان دير البلمند كان اكبر اديرة الفرنج في كنيّسة طرابلس . ولما خرج الصليبيون من الشام صار هذا الدير الى يد اليعاقبة وكان عددهم كبيراً في طرابلس لهم فيها اسقف يرعاهم وفي تواريخ الفرنج اسما بعض رؤساء هذا الدير ورهبانه . فمنهم الرئيس بطرس الالاماني (Pierre l'Aleman) ورفيقه « سيمان الطرابلسي » . وممن ترأس على دير البلمند احد اساقفة بيروت اللاتينيين لعله استقلّ من كرسيه فاعتزل في هذا الدير وصار رئيساً عليه . وهذا ممّا يُطلعنّا على عظم شأن المكان ولا نعلم من امر الدير شيئاً بعد تملك اليعاقبة عليه . وانما روى مكاتب النار انه بعد الصليبيين « تشبّت شمل رهبانه . وخرّب » وبقي خراباً الى سنة ١٦٠٣ وفيها

(١) راجع الدوجي في تاريخ سنة ١٢٨٧ وبمئة فينيقية لريّان (ص ١٢٨)

(٢) راجع مجلّة الجمعية الفلسطينية (ZDPV, X, 35)

جدده السيد يواكيم ابن الخوري جرجس وطران طرابلس. وللبلمند بعد هذا العهد اخبار طويلة لا حاجة الى استقصائها

واليوم لم يبق من هذا الدير العظيم سوى اثار لا تُذكر واذا اعتبرت ابنته الحديثة لا ترى شيئاً من تلك المباني النخيمة التي كانت تزين هذا المحل وتنطق بفضل بناته الذين عارضوا الرومان والفيانيقين بأترهم حتى ان كثيراً مما كان ينسبه العلماء سابقاً لتلك الامم ثبت اليوم انه من عمل الصليبيين

وقد بقي في البلمند من ابنته القديمة قسم من طبةته السفلى منها ردهة جميلة مربعة حسنة الاثاث طولها اربعون متراً وهي اليوم مطحورة في الارض لارتفاع الحضيض بما هبط فوقه من ردم الدير القديم. اما الغاية من ابقنا هذه الحجرة فليست بظاهرة. وفي بقية النحاء الدير الحالي قناطر وقوش من طرز القرون المتوسطة وهذه الاثار مع قناتها تنبئ باصل الدير قتبين جلياً ان الصليبيين هم الذين شيدهو ويتأيد بذلك ما نقلناه في صدره من شواهد التاريخ مع بيان اشتقاق اسمه الاعجمي من اللاتينية فتاهيك بهذه الأدلة عن تعريف اصل هذا الدير واصحابه الأوّلين

وفي الختام يسرنا ان نبدي لجناب الفاضل غطاس افندي قندلقت مدير المدرسة عند مرورنا عواطف الشكر لا اظهره من الانس لا استقبلنا في هذا الدير. وقد اطلعنا على خزانة كتبه التي تحتوي اليوم على مطبوعات حديثة العهد وبعض المخطوطات التي ليس تحتها كبير امر قد جمعها حضرة المدير ونظمها لثلاثاً تأخذها يد الضياع. وكانت هذه المكتبة قديماً حافلة بالمخطوطات ولا نشك ان في عدادها كانت تأليف عديدة سرمانية كما ترى في غيره من اديرة الروم كمكتبة دير جبل سينا ودير مار سابا حيث وجد زوار الفرنج مصنفات سرمانية قديمة غالية الثمن. وكذلك كان دير صيدنايا غنياً بدخائر الاداب السريانية قبل ان يحرقها وكلاؤه كما ذكر ذلك الشاب الاديب حبيب افندي زيات في خبر رحلته الى هذا الدير (راجع المشرق ٢: ٥٨٦). الا ان اليونان الذين تملكوا زمناً طويلاً دير البلمند اثلفوا ما وجدوه من هذه الكنوز النفيسة واورثوا قلوبنا الاسف على فقدها

فهرس

تسريح الابصار

في ما يحتوي لبنان من الآثار

الصفحة	تمهيد
٣	الفصل الأول قسم لبنان الواقع شمالي بيروت
٤	رسم مدخل مفارة انطلياس
٤	رسم جواد انطلياس: ١ المغارة ٢ النبع
٥	٢ صربا وجونية
٨	٣ نهر الكلب
٩	رسم مدخل مفارة نهر الكلب
١١	رسم داخل مفارة نهر الكلب
١٣	٤ دير القلعة
١٧	رسم هيكل البعل في دير القلعة
١٧	رسم بقايا اعمدة دير القلعة واشكالها المختلفة
١٧	صور المخروطات رمز عشائروت
٢١	٥ آثار الرومانيين في لبنان
٢٥	قناة نهر بيروت (قناطر زبيدة)
٢٧	جسر الماملتين الروماني
٣٤	٦ صئين
٣٦	٧ ساحل علما
٣٧	٨ معراب
٣٧	آثار قلعة معراب

الصفحة		
٣٨	٩	غينة
٣٩		رسم آثار غينة - آثار المشتقة
٣٩	١٠	المشتقة
٤١	١١	الديانة الوثنية في لبنان
٤٣		تمثال الزهرة المعبودة في لبنان
٤٦	١٢	اليسونة
٤٧		رسم بركة اليسونة
٤٩	١٣	افقا
٥١	١٤	مجارى المياه في لبنان
٥٣	١٥	قلعة فقرا
٥٤		صورة قلعة فقرا
٥٧	١٦	الساحل بين جونية وجبيل (برجا وعين ماحوز ونهر ابراهيم)
٥٩		صورة برجا
٦٠	١٧	جُبَيْل
٦٣		مدافن جبيل
٦٦		نواويس جبيل
٦٧	١٨	بلاد جبيل
٦٨		بلاط
٦٨		اذه
٦٩		عمشيت = مبادات
٧٠		مجديدات = جربتا
٧١		معاد
٧٦	١٩	احوال لبنان في القرن الرابع عشر قبل المسيح
٨١	٢٠	كنائس لبنان القديمة
١٠٠	٢١	دخول النصرانية في لبنان
١٠٠		١ لبنان واول مبشرينه
١٠٤		٢ نزاع النصرانية والوثنية
١٠٩		٣ في مبادئ العيشة الرهبانية في لبنان

١١٢	٤	ترقي النصرانية في القرن الرابع	
١١٤	٥	تنظيم الكنائس في لبنان	
١١٦	٦	انتصار النصرانية خائياً على الوثنية في لبنان	
١٢١	٢٢	بلاد البترون - مدينة البترون	
١٢٣	٢٣	سَجَرُ جُبَيْل	
١٢٥	٢٤	قلعة الحصن	
١٢٧	٢٥	دوما	
١٢٨	٢٦	كفرحي ومدرسة مار يوحنا مارون	
١٣١	٢٧	جَبَّةُ بَشْرَاي	
١٣٤	٢٨	الرز لبنان	
١٤٢		الكورة	
١٤٢	٢٩	دار بعشتار - بزبوا - ناس	
١٤٤	٣٠	اميون	
١٤٤	٣١	المسيلة	
١٤٥	٣٢	جبل رأس الشعة	
١٤٨	٣٣	حنوش	
١٤٩	٣٤	جيفرتا	
١٥١	٣٥	انفة	
١٥٣	٣٦	قلمون	
١٥٤	٣٧	دير البلمند	
١٥٥		مسكوكات بيومند السابع صاحب طرابلس	

تَبَيُّنُ الْإِبْصَارِ فِي مَا يَحْتَوِي لِبْنَانُ مِرْكَزَ الْأَشَارِ



القسم الثاني

جغرافية لبنان وتعريف الأمم التي سكنته



١ اسم لبنان وسعة نطاقه في التاريخ

قد بلغ بنا تقصينا لآثار لبنان الى تخومه الشماليّة فرأينا ان نخطّ برهة عصا التسيار لنبحث في قسم ثانٍ عن بعض احوال هذا الجبل الشهير ممّا يشمل تاريخه اجمالاً ويعمّ شؤونه من حيث تقاسيمه الجغرافيّة مع تعريف الأمم التي سكنته في سالف الاعصار. وهو امرٌ يفيدنا لادراك ما بقي علينا من وصف آثاره في جهاته الأخرى لاجرم ان القارئ اللبيب قد لحظ في خلال فصولنا السابقة ان اسم لبنان لم يُطلق في كل اطوار التاريخ على شعور معروفة وربما اتسع او انحصر معناه على اختلاف الظروف ونزعات الكتاب. فاحسّر لثام الشبهات وازالة كل العضلات رأينا ان نبين حدود لبنان في الازمنة الغابرة بما امكن من التدقيق ليس من احد يجهل اليوم موقع لبنان ونواحيه الاربع وكلّ يعرف ان المراد به

تلك السلسلة الجبلية الممتدة بين البحر المتوسط او بحر الشام والنهرين الشهيرين النهر الكبير والليطاني

بيد ان معنى لبنان لدى القدماء لا ينطبق على مفهومنا به في عهدنا . واول ما ينبغي استفتاؤه من كتب التاريخ الاسفار المقدسة فان هذا الاسم ورد فيها على صورة لبُنون (٦١٥٥) وهكذا عرفه ايضا الفينيقيون . اما الاشوريون فيدعونه لبناو . وما يستفاد من الكتاب الكريم ان لبناو جبل شاهق فضخم في شمالي نهر الليطاني يحد ارض الميعاد من تلك الجهة

وقد تكرر ذكر لبنان في صُحف العهد القديم وان كان هذا الجبل خارجاً عن ملك بني اسرائيل . واكثر ما ورد اسمه في اوصاف الكتاب الشعرية كما اثبتنا ذلك في مقالتنا عن ارز لبنان (المشرق ٤ : ٩٣٠ - ٩٣٨) . وذكروا بين خواصه الثلوج الغراء التي تكمل هامتة (راجع سفر ارميا ١٨ : ١٤) فيئنا بهذه الاوصاف انهم ارادوا لبناو دون سواه

ومأ جاء ذكره ايضا في الكتاب الكريم وادي البقاع المخصب الذي يفصل لبنان عن جبل الشيخ وهو يدعى هناك « مدخل حماة » او « الطريق الى حماة (١) » وهو اسم يطابق المسعى لان سهل البقاع اشبه بطريق لاجبة تنفذ بين جبلين عالين . وفي هذا الاسم ما يشعر بخطر مدينة حماة وعظم شأنها وهي اول مدينة كبرى كان بنو اسرائيل يلقونها عند خروجهم من تخومهم الشمالية الشرقية . اما اليونان (٢) فيدعون البقاع باسم ماسياس (Massyas) او مرسياس (Marsyas) وربما دعوها ايضا بسورية المجوفة (Célésyrie) لانعطفها بين الجبلين على شبه الجوف (٣) ويؤخذ من سفر الملوك الثاني (٨ : ٨) ان لبنان كان غنياً بحدادن النحاس والمرجح

- (١) راجع سفر العدد ١٣ : ٢٢ و ٣٤ : ٨ ويوشع ١٣ : ٥ الخ وحزقيال ٢٧ : ٢٠ الخ وعاموس ٦ : ١٤ الخ
 (٢) راجع تاريخ بوليب ك ٥ ف ٤٥ ، ٤٦ ، ٦١ ، وجغرافية اسطرابون ك ١٦ ف ٢ و ١٠ الخ
 (٣) راجع معجم الكتاب المقدس لفيكورو في المادة جغرافية فلسطين القديمة لبول (Ruhl) ص ٨٢

ان موقعها كان على العطف الشرقي من لبنان الحالي بازاء سهل البقاع على ان اصحاب الصحف الكريمة لا يفرقون بين لبنان الغربي والشرقي فاطلقوا على كليهما اسم لبنان . وهو امرٌ يسهل ادراكه لانّ الجبلين متشابهان تشابهاً تاماً يسيران على خطين متوازيين الى وجهة واحدة وطولهما واحدٌ على التقريب وهما يتركبان من صخور كلسية متجانسة . ولا غروَ انها كانت في القرون الخالية جبلاً واحداً ففصل بينهما طارئٌ جيولوجي غير هيثهما فانخسفت بينهما الارض وليس وادي البقاع الا نتيجة هذه القارة . ومن ثمّ لا حرج على كتبة الاسفار المقدسة اذا اعتبروا هذين الجبلين كطود واحد وان كانوا لم يدققوا في تعريفهما كما يفعل اليوم الجغرافيون . وليس الامر كذلك في تعريف اسطرابون لوقعهما فانه قد وهم وهماً جسيماً في بيان وجهتهما كما سترى

واول من احكم الفصل بين الجبلين السابق ذكرهما كتبة اليونان فانهم قد افروا بينهما وخصوا احدهما باسم لبنان ودعوا الآخر انتيليبانوس (Antiliban) (Ἀντιλίβανος) ومعناه الجبل القائم بازاء لبنان وكلا الاسمين شائع حتى ايامنا بين الكتبة . ومما يدل على قدم اسم انتيليبانوس ان اصحاب الترجمة السبعينية في القرن الثالث قبل المسيح نقلوا اسم لبنان العبراني الى اليونانية باسم انتيليبانوس لما رأوا ان مدلوله الجبل الشرقي لا لبنان احالي وذلك في خمسة اماكن من الاسفار الالهية (١) . وكذلك ورد في النص اليوناني من سفر يهوديت (٧ : ١)

وقد تصفحنا تأليف يوسيفوس اليهودي فوجدناه متردداً في تعريف لبنان كأنه لم يطلع على اصطلاح اليونان وهو يكتب في لغتهم فتراه اذا ذكر جبل حرمون والجبال المجاورة لدمشق دعاها كلها باسم لبنان

وما لا ريب فيه ان كتبة العهد القديم اذا ما ذكروا لبنان وارادوا به الجبل الموازي له انما مرادهم فقط القسم الجنوبي من هذا الجبل المعروف اليوم باسم جبل الشيخ وذكره كثيرٌ في التوراة . وقد دوننا في بعض مقالاتنا السابقة (٢) اسماء جبل حرمون عند

(١) ثنية الاشرع ١ : ٧ و ٣٥ : ٣ و ١١ : ٢٤ و يوشع ١٤ : ١ و ٩ : ١

(٢) راجع الجزء الاول . ص ٢٤

قبائل سوربيّة وفلسطين فلا حاجة الى التكرار والى بيان صحّة هذه الاسماء لئلا نخرج عن الموضوع
 أما اتساع لبنان وحدوده فانّ الكتاب المقدّس لا يذكر غير حدّه الجنوبيّ اعني
 شمال نهر الليطاني . ومن ثمّ لا بدّ من نقل نصوص قدماء اليونان لتعريف بقيّة
 الحدود

*

لعلّ المؤرخ پوليب (١) أوّل من سبق فبيّن بضبط وتدقيق تخوم لبنان . وهو
 يفصله عن الجبل الشرقي فصلاً صريحاً ويذكر بين السلسلتين سهل البقاع ويجعل في
 هذا السهل مخرج نهر العاصي . وممّن اجادوا في تعريف اتساع لبنان ديودور
 الصقلّي (٢) في القرن الاول قبل الميلاد حيث قال انّ لبنان يمتدّ من صيداء الى جبيل
 وطرابلس وانّ غابات الأرز تظلّل قممهُ (٣)

أما معاصره اسطرابون فانّ في كلامه لبساً وابهاماً وهالك تعريب ما كتب قال :
 « انّ سوربيّة المجوّفة واقعة بين جبلين تفصلهما على التقريب مسافة واحدة في طولهما .
 وكلاهما يبتدئ قريباً من البحر أما لبنان فانّ أوّلهُ عند طرابلس وجبل ثيوروسوپون
 (راس الشقعة . راجع تسريح الابصار ١ . ص ١٤٠) . وأما جبل انتيليانوس فبدههُ
 بقرب صيداء (كذا) وهما ينتهيان عند الجبال العربيّة التي تُشرف على اقليم دمشق .
 وفي الفصل ذاته قد اثبت اسطرابون انّ منتهى لبنان عند رأس الشقعة وهو يروي
 انّ اعالي لبنان كصنّان وبوروما يأوي اليها قوم من اللصوص وقطّاع الطرق . وكذلك
 يزعم انّ هؤلاء الأوباش يملكون على البترون وجيفرتا ويسكنون الكهوف المشرفة
 على البحر وحصن الشقعة (٤)

فترى ممّا تقدّم انّ اسطرابون يفرق بين لبنان والجبل الشرقي ويجعل بينهما سهل
 البقاع وكذلك لم يشذّ عن الصواب اذا دلّ على حدود لبنان الشماليّة وهو يجعلها تقريباً

(١) في كتابه الخامس (ف ٤٥ ، ٥٩ ، ٦٩)
 (٢) راجع الجزء الأوّل ص ١٣٧
 (٣) الجزء الأوّل ص ١٤٦
 (٤) ك ١٩ ف ٥٨

عند طرابلس لأنّ جبل عكّار يُعدّ ايضاً من لبنان فيتّصل به ويمتدّ بعض اميال الى النهر الكبير الذي يجز لبنان عن جبال النصيرية . غير انّ اسطرابون وهم وهماً جسيماً بزعمه ان كلا الجبلين يبدأ بقرب البحر عند صيدا . وهو خطأ لا صحّة له في انتيليانوس . وكذلك قد اخطأ بقوله انّ الجبلين ينتهيان عند دمشق وهذا لا يصدق عن لبنان وقد ساء ظنّه في الجبلين اذ وصف سيرهما من الغرب الى الشرق اي من البحر الى داخل بلاد الشام وهما في الحقيقة يسيران من الشمال الى الجنوب فيجاريان سيف البحر

امّا التفاصيل التي ذكرها اسطرابون عن لبنان ولصومه فقد مرّ ذكرها في محلّها مع بيان ما صدق منها

وفي وصف پلينيوس (١) للبنان ما هو اقرب الى الحقيقة من سواه . وهو يجعل أوّل لبنان عند صيدا ثمّ يذكر امتداده شمالاً الى مدينة سيرة القديمة اعني واء مصبّ النهر الكبير بقليل حيث يتندى جبل برجياوس وهو جبل النصيرية . وناهيك بهذه الافادة تدقيقاً وضبطاً . وكذلك لم يتندّ في وصفه لبنان وتمييزه له عن الجبل الشرقي وذكر البقاع وذكر العيون التي يتكوّن منها العاصي

ومن ذكروا لبنان من قدماء النصارى اوسايبوس القيسري في كتاب الأعلام (Onomasticon) . وتبعه القديس هيرونيموس وكلاهما يقول انّ لبنان سلسلة الجبال الغربية المحاذية لبحر فينيقية اما السلسلة الشرقية من جهة دمشق فجبل انتيليانوس اي الجبل الشرقي

فترى من ثمّ ان القدماء في حدود القرن الرابع كانوا وقفوا على حقيقة . وقع لبنان وافرزوه عن الجبل الذي هو قائم في وجهه ويثّروا وجهة امتدادهما غير ان كتّبة القرون التالية عادوا فخلطوا بين الجبلين . ومأ حدا بهم الى هذا اللبس التقاسيم السياسية التي ادخلها ملوك الروم في ذلك العهد فاختلطت الاسماء وصارت الاعلام تدلّ على غير ما وضعت له سابقاً

فن ذلك سوروية المجوّفة التي كانت تدلّ في اول الامر على سهل البقاع ليس

الآن أصبحت اقليماً واسعاً يمتدُّ شمالاً الى ما وراء انطاكية بحيث اوضحت هذه المدينة قصبته له . وكذلك لم يعد اسم فينيقية يُطلق على الساحل المنحصر بين لبنان والبحر بل صار يعني بلاداً متسعة تبلغ حدودها الى دمشق وحمص وتدمر وعلى هذا المنوال تعلب اسم لبنان الشهير على جبل النصيرية المجاور اذ لا يفصل بينهما الا وادي النهر الكبير . فأبطل اسم برجيلوس الذي خصّه به يوليوس السكاتب واعتبر كأنه لاحقٌ بلبنان

ومن غريب ما جرى وقتئذٍ من التقلبات في تقسيم الايالات ان الاقليم المعروف بفينيقية اللبنانية لم يضم في دائرته لبنان العربي وأدخلت فيه تدمر مع بعدها عن لبنان . وكفى بذلك دليلاً على ان اسم لبنان لم يؤخذ بمعناه الاصلي او انه كان ادلّ على جبل انطليبانوس منه على لبنان لاسيا بعد ان جعلت مدينة دمشق كعاصمة فينيقية اللبنانية . ولذلك ترى في اعمال القديس صوفرونيوس الدمشقي انه دعا وطنه « المتوج بلبنان » (Λιβανοστέφανος) ولعلّ هذا اللقب حمل البعض على الظن بانه لبناني الاصل وعُدت حمص قبل دمشق مدّة كقصبه ولاية فينيقية اللبنانية فصار الاهلون يدعون الجبال الواقعة بازائها وفي شمالها باسم لبنان وهكذا شمل هذا الاسم جبال النصيرية . وفي تاريخ سوزومين (ك ٣ ف ١٥) ترى اسم لبنان محتصاً بالجبال المحاذية لمدينة افامية واغرب من ذلك ان تاوفانوس المؤرخ في اثناء كلامه عن المردة اطلق اسم لبنان على كل جبال الشام الواقعة بين مصب نهر العاصي وبلاد فلسطين (١) . وقد جرى بقبّة المؤرخين البوزنطيين على هذا الاصطلاح تخصّص منهم بالذكر المؤرخ قدرينوس

*

ولمّا ظهرت دولة العرب حفظ ملوكهم التقاسيم الجغرافية الجارية قبل عهدهم ولذلك ترى الكتابة السريان كابن العربي (٢) وجغرافيين العرب يتأثرون اعقاب الروم في وصفهم جبل لبنان فرموا اصابوا او اخطأوا كاسلافهم . فالمقدسي مثلاً يقول في كتاب معرفة الاقاليم (ص ٦٠) ان لبنان جبل ساحلي مشرف على صيدا وطرابلس . امّا ابن

(١) راجع تاريخه في اعمال الاباء اليونان لمن (ج ١٠٨ ص ٧٢١)

(٢) راجع تاريخه المدني بالسرانية (ص ٢٨٢)

الغقيه الهمذاني (ص ١١٢) فإنه يزعم « انّ لبنان بدمشق وانه متصل ببلاد الروم » يريد قيليقيّة . وبوصفه هذا اطلق اسم لبنان على جبل الشيخ وعلى كل الجبال الواقعة شمالي سورّيّة حتى اللكّام وقسم من جبل طورس وهو تعريف واسع لم يخطر على بال كتّبة الروم

وقال ابن جبير في رحلته (ص ٢٥٦) : « وراء العرّة جبل لبنان وهو سامي الارتفاع ممتدّ الطول يتصل من البحر الى البحر وفي صفحته حصون للملاحدة الاسماعييّة وجبل لبنان حدّ بين المسلمين والافرنج لانّ وراءه انطاكية واللاذقيّة وسواهما من بلادهم » فترى من قوله هذا انه ادخل في لبنان بلاد الاسماعييّة الواقعة في جبل النصيرية بين اللاذقية وحماة وهناك كانت حصونهم كمصياد والرصافة وخراي وكهف والعليّة

واياقوت في تعريف لبنان أقوال غريبة قال (٢ : ١١٠ : ٤ و ٣٤٧) : « لبنان جبل مطلّ على حصص يجي من العرج الذين بين مكة والمدينة حتى يتصل بالشام . . . و يمتدّ الى ملطية وسميساط وقالقالا الى بحر الخزر » فيجعل كل هذه الجبال جبلاً واحداً تختلف اساميه باختلاف الامكنة . واختصاصه باسم لبنان يبتدىء في حلب وينتهي في حماة وحمص

وقد ذكر شمس الدين الدمشقي في كتابه عجائب البر والبحر غير مرّة اسم لبنان وكلامه في الغالب مصيب الا انه يجعل حدوده الشماليّة الى اللاذقية ويعتبر لبنان كقسم من سلسلة عظمى اولها في جنوبي بلاد العرب

اما ابن بطوطة (١ : ١٨٥) فيلوح من ظاهر كلامه انه يُطلق اسم لبنان على الجبل الممتدّ بين اللاذقية وطرابلس حيث وجد النصيريّة فوصفهم . وكان النصيرية وقتئذ يسكنون ايس فقط الجبل المعروف باسمهم وجبل عكّار بل ايضاً البلاد المجاورة لطرابلس والبترون حتى نواحي العاقورة وكسروان وذلك الى القرن الرابع عشر للمسيح كما سنبين الامر في مقالة آتية . ولهذا السبب قد امكن ابن بطوطة ان يدعو باسم لبنان كلّ بلادهم (١)

وأضبطُ العربُ وصفاً للبنان الكاتب الشهير أبو الفداء صاحب حماة ولا غرو اذ كانت سكناهُ في بلاد تجاور لبنان فيُؤرَّ في تقويم البلدان (ص ٦٨ و ٢٢٩) لبنان عن جبل دمشق وقد دعا طرف هذا الجبل الجنوبي باسم جبل الثلوج ويدعو باسم سنير طرفه الشمالي وهو أنثيلييانوس . وسنير احد الاسامي الواردة في التوراة يراد به حرمون وأطلق حسب رأينا على كل القسم الشمالي من هذا الجبل . وذلك امرٌ يستتج من كُتبة العرب وهم شهود صدق على التقليد القديم

وقد جعل أبو الفداء لبنان بازاء جبل الثلج يمتدُّ الى شرقي طرابلس فاذا تجاوزها عُرف بجبل عكار . وهو قول صواب جرى عليه ايضاً القلقشندي من بعده . اما الجبل الواقع في شمال جبل عكار فان ابا الفداء يدعوهُ جبل اللكَّام (ص ٦٨) وهكذا ايضاً قد جعل الاصطخري وابن حوقل حدود لبنان الشمالية بالقرب من مدينة حماة هذه بعض نصوص نقلناها عن جغرافيتي العرب تبين ان هؤلاء الكُتبة اصابوا في كثير من اقوالهم عن لبنان وان هموا في بعض الامور اخذوها عن كُتبة الروم دون ان يتحققوها بانفسهم لاسيما في ما يختص بتعريف حدود لبنان الشمالية . فسبحان من تترَّه عن كل خطأٍ وعيب

٢

ما تستفيد سوربةً من لبنان

بعد تعريفنا للبنان وتطبيق اسمه مع قوال المؤرخين لا نرى بدءاً من استلفات النظر الى فوائد هذا الجبل من حيث طوره الطبيعي على أننا قد اشرنا الى هذا الامر في مقالتنا السابقة (راجع الجزء الاول ص ٥١) واثبتنا ان لبنان بالنسبة الى سورية كائسبل بنسبته الى مصر اذ انه كحوض عظيم تتفجر منه المياه التي تسقي النواحي المجاورة اماً على هيئة الامطار واما بطريقة المجاري المائية او بتكاثف الاجرة وسقوطها على صورة الندى . ولولا هذا الجبل لاضحت سورية اشبه ببادية جرداء او رمة صلعاء تابعة لمفاوز جزيرة العرب التي هي متصلة بها من جهتها الجنوبية الشرقية

ومما سبق لنا ايضاً في وصف لبنان أننا قابلنا بين هذا الجبل المنيف وجبل الالب (المشرق ١ : ٧٢١) فبيننا ما خصَّ به الله الطود السوري من المناظر الجمية والمرافق

العديدة قترى فيه الرُّبى المكثَّة بالغايات والغياض الزاهية بضروب الأشجار والنبات والادوية العليلة النسيم ذات الظل الظليل مع جداول متفرقة وسيول جاحفة وشلالات مزبدة ومجيرات كالمرايا الصقيية الى غير ذلك من المحاسن الطبيعية التي زين بها الخالق تلك المشارف الزهية التي اطرب الانبياء في اوصافها وعددوا في الاسفار الكريمة معانيها والطاقها

على ان لبنان يُورث سورّية غير هذه المنافع ممّا يستلفت نظر ذوي العبرة، ولو تحرّينا تعدادها لكتبنا فصلاً رائعاً جديراً بان يُنظّم في سلك فلسفة الجغرافية من شأنه ان يوسّع نطاق اهل الرويّة ويبين لهم عجائب الكون وهذه الفوائد الجيئة التي تستفيدها سورّية من لبنان على اربعة اصناف منها هيدروغرافية وجيولوجية ومنها نباتية ومنها جوية ومنها ما يرجع الى الامزجة والاجسام.

*

١) لا حاجة الى ان نستدل في الكلام عما يجدي لبنان القطر السوري من المنافع الهيدروغرافية اذ اتنا وصفنا سابقاً ما يختص بمجري المياه في لبنان (راجع الجزء الاول ص ٥١) وغاية ما نقوله هنا اننا لم نعال في وصفنا المذكور وكفانا لتأييد مقالنا ان اكبر انهار سورّية وهو العاصي ينبجس من لبنان فيجري الى شمالي سورّية ويخصب نواحيه . وذلك ما حمل القدماء على انشاء مدن عظيمة في تلك الجهات كحصص وحماة وانطاكية ولولا هذا النهر لاصبح وادي العاصي قفراً مقفراً لا يؤوي اليه سوى قوم من عرب البادية . وهو به جنة غناء يتلقب فيها الوف وريوات من البشر في خصب دائم وعيش رفيه

وما قلناه عن وادي العاصي يصحُّ ايضاً في سهل البقاع وفي ساحل البحر من طرابلس الى صور فان هذه البطائح معروفة اليوم بوفرة خيراتها وريع مايتها ونضارة حدائقها وإن ذلك الامن فضل لبنان الذي يفيض عليها مياه ينابيعه النميرة مع دسم تربته التي تتحد من السيول وترسب في قاع الارض فتخصبها وتستمنها

وتزيد على ذلك ان التربة التي جرفتها المياه من مشارف لبنان هي التي صارت اليوم بطحاء فسيحة الارحاء زاهية الزروع تمتد من طرابلس الى مصب النهر الكبير ولولا ان مجاري المياه تسحو هذا الطين اللزج من معاطف الجبل لكان هذا السهل

جوداً تعمره مياه البحر كما ترى في جهات اخرى . لانه من النواميس الثابتة تمام الموازة والمقابلة بين السلسلة اللبنانية والشواطىء البحرية اي ان لبنان كلّمَا امتدّ نحو البحر اصبح رأساً داخلاً في المياه واذا اندحر استبطنته المياه فصارت في بطنه خليجاً . امّا هذه نواحي طرابلس فانّ انهار لبنان وجبل عكّار كالي علي والنهر البارد ونهر عكار وعلى الاخصّ النهر الكبير انحدرت اليها وملاّت بالتربة التي سقطتها الجونّ الذي كان هناك وهو يُعرف حتى اليوم بجون عكّار دلالة على اصله لكتبه في الوقت الحاضر خبت منفسح ذو نعومة وخصب

*

٢ وليس لبنان اقلّ فائدة من حيث الملك النباتي . فان ارباب الطبيعة يقضون العجب من سوربة لما فيها من اصناف النبات وضروب الاشجار . فانّها تجمع بين نبات الاصقاع الشماليّة ونبات الاقاليم المفرطة الحرارة في اواسط افريقية . والنباتي اذا تفرّع لبنان وجد في اعاليه اعشاب الصرود التي لا ترى الا في شمالي اوربّة وقمم الالب . اما حشائش البلاد الحارّة فهي نامية في سفح لبنان عند وطي مجيرة الحولة وهناك من نبات البردي الذي لا يرى اليوم الا في اواسط افريقية عند البلاد المجاورة لينابيع النيل . والى لبنان يعود الفضل من هذا القليل لما يوجد من الاختلاف بين برد رأسه الملتق في العنان المعتم بالثاوج وحرارة حضيضه البارز لانوار الشمس واشعثها الحامية فسوغ للنباتي في سوربة ان يجمع في بضع ساعات من اشكال الاعشاب ما لا يجده في غيرها الا بعد مشقة النفس والعناء الطويل

وهذا التباين العظيم بين نبات بلاد مختلفة لا يروق فقط عين الناظر اذ يرى الاشجار الجليّة كالسنديان والارز والاشجار الصحراوية كالنخل والبردي لكنه ايضاً يجدي الزارع نفعاً حيث يمكنه ان يستغني عن كثير من محصولات البلاد الاجنبية . كيف لا وهو يجدي في وطنه تربة ملائمة لاصناف المزروعات والاشجار المثمرة وضروب الاخشاب وفي كل ذلك ايرادات طيبة توفر اسباب الغنى وتفتح ابواب الرزق لطالبيه . فياليت شعري كيف يسوغ لنا ان ننسكى من فقر بلادنا وقحطها وفيها كل ما يلزم ليعني شعوباً جتّة . ولو شاء اصحاب الثروة لرأوا ان هذه البلاد يدرّ منها اللبن والعسل كما في أيام بني اسرائيل لا ينتصها لذلك الأرجال جدّ وإقدام من لا يستكفون

من العمل ولا تثنى عزائمهم المصاعب . فلا يمرّ على بلادنا ثلاثون سنة حتى يصير لبنان اغنى من بلاد نروج بغاباته وتسمي السهول الساحلية اشبه ببطانح الهند وخط الاستواء .

*

٣ وان انتقلنا الان من ذكر النباتات الى وصف الهواء اذن لوجدنا ان حطّ اهل سورِيَّة لأسعد من سواهم لوقوع لبنان في وسط بلادهم . وذلك ممّا لحظّه الكاتب الشهير فولناي (Volnay) في اواخر القرن الثامن عشر قال : « ان بلاد الشام تجتمع تحت سماء واحدة احوالاً جوية مختلفة وتندخّر في اقطار ضيقة الارحاء مرافق لا تُرى في غيرها من البلاد الا متفرقة على مسافات قاصية . ففي غيرها من الاصقاع ترى فصول السنة تفصلها الشهور واما سورِيَّة فمصدق القول فيها ان فصول سنتها لا تقسم بينها الا بضع ساعات فقط فان اثقلك توقد الحرّ في صيداء او طرابلس ايام القيظ فما لك الا ان تمشي نحو ست ساعات فتجد في الجبال المجاورة هواء لطيفاً كهواء شهر اذار (١) »

فهذا الاختلاف في درجات حرارة الجوّ الذي تعبطنا بسببه البلاد المجاورة للشام كبلاد الجزيرة ومصر انما اصابه القطر الشامي بواسطة لبنان ليس بامتداد عرض الذي يبلغ نحو تسع درجات . ولا لاجل طوله البالغ ١١٠٠ كيلومتر بل لاجل ارتفاعه فوق سطح البحر . ولولا علو جباله لما كان فرقٌ يُذكر بين شمالي سورِيَّة وجنوبها . فانتنا نرى ان حالة الجوّ في غزّة لا تختلف كثيراً عن حالته في الاسكندرونه وان الحرّ في دمشق كما هو في حلب . لكنّ الفرق العظيم انما هو بين السواحل ومشارف لبنان بحيث نجد في الجرد لطف هواء الاصقاع الشماليّة

وممّا يساعد ايضاً على تكييف الجوّ وتلطيف لهوات الحرّ هيئات تركيب لبنان المختلفة واوديته ووجهة تقاطيعه فان الارواح بهبوبها في بطون الارض وشجونها تتغير احوال الهواء كما تؤثر في السحب والامطار التي تحملها الرياح . وترى بخلاف ذلك بعض منمعطقات لبنان لحسن موقعها مصونة من رياح الجنوب والشمال تنحدر الى البحر انحداراً لينا وهي امكنة تنهأ فيها العيشة للطف نسيحها وتشبه جنوبيّ فرنسا برطوبة هوائها

ولا عجب ان اضحي لبنان بعد زمن قليل كمستشفى الاعلاء يتقاطرون اليه لعلاج ادواتهم كما يهرع اليه المصيفون لينجوا فيه من وقعات القيث ويستبدلوا روائح المدن المستكرهة بالريح الطيبة . أما الشتاء فيجد ذوو العاهات امكنة في لحف لبنان يدفعون فيها برده القارس ويقضون فصله في مأمن من اذاه اذ يحميها لبنان من نفع الرياح وشدة العواصف وهي تقوم لاهل بلادنا مقام مدينتي « نيس » و « كان » وسواحل فرنسا الجنوبية التي يزدحم فيها شتاء الاوربيون والاميركيون فراراً من صبارة القرب . فياليت شعري أليس خور جونية وما يحذق به من المزارع مقاماً شتوياً يضاهي خور نابولي . ألا ترى كيف ان ريفه العجيب بارز لاشعة الشمس ولصفاء هواء البحر المنعش وهو مع ذلك في حمي من السموم والرياح الشمالية . فلو شاء اصحاب الامر لجهلوا جونية محطاً لذوي الامزجة النحيفة ومزلاً للناقهين . وهذه البلدة تفضل من وجوه عديدة وادي النيل وفضتيه حيث المناظر قليلة والهواء يتقلب تقلباً كبيراً فيلي النهار التوهج الحر زمهرير الليل وصرده . أما في واطى لبنان فترى للآفاق محاسن متجددة من جبال شاهقة وبحار زاخرة وهواء رطب قليل الاختلاف . وهي لصبري

منافع كبرى لا تخفى طويلاً على ذوي الخبرة

ولعل منتقداً يعارض علينا بقوله ان منعطف لبنان الغربي كثير الرطوبة لتكاثف الاجرة المتصاعدة من البحر في جوانبه . والرطوبة كما هو معلوم لا توافق مزاج كثيرين من الناس الذين يؤثرن على المقامات الرطبة الهواء المنازل اليابسة

أجل ولكن لا يخالو لبنان من منافع المراكز اليابسة ايضاً وذلك في منعطفه الشرقي فاذا تسنمت اعالي هذا الجبل لا تلبث ان تبلغ بعد ساعات قليلة الى نواح جافة الهواء لا يشوب ساءها غيم ولا يقرب منها ندى البحر لتوسط لبنان بينها وبينه فان لبنان يقسم بلاد الشام من حيث الهواء قسمين مختلفين احدهما ساحلي ندي الجو لين النسيم معتدل الهواء دون حر محتدم ولا برد شديد . والآخر شرقي بري تختلف فيه الانواء وتتوالى الفصول التباينة وهو يجدي بعض الامزجة قوة وصلابة . وعلى كل حال مهما افتي الناس في تفضيل الهواء اليابس او الرطب فان العناية الصمدانية لم تحرم لبناننا من خواص الهوائين فيختار كل منهم ما يشاء

*

٤ ولهذا الاختلاف في احوال الهواء نفع آخر وهو تأثيره في بنية الجسم وغني عن البيان ان طريقة العيش في زماننا وكثرة الالتبائك بالاشغال ومداوله الامور والتهافات الى رشف ابناء المذات كل ذلك ممّا يضعف بنية الناس ويفقر الدم ويحط بالنسل. وهذه المضرّات في الاقطار الحارّة الكثيرة الرطوبة كما ترى في مدننا الساحليّة اوفر منها في سواها من البلاد لاذحام الناس في البيوت الضيقة والتراكم الاقذار في الاسواق وقلة تغيير الهواء. فاذا بقي اهل المدن على ذلك زمناً قليلاً فسد لا محالة دمهم ونضب ماء حياتهم لولا ان اهل لبنان يهاجرون الى السواحل فيأتون بدم جديد يسري في عروق الجمهور فينعش اجسامهم ويشدد قواهم. وكما ان هؤلاء القادمين من مشارف لبنان يوتون اهل الحضرة دماً جديداً كذلك الاهلون اذا ما قضوا شهوراً من سنتهم في فصل العيف فوق رلى لبنان تجددت عزائمهم او تقوّت اعصابهم فيعودون الى ديارهم وثقي الاركان مضطرب الحلق تتدفق منهم مناهل الحياة هذه بعض ملاحظات ابديناها لنفيد مواطنينا عن فوائدها لبنان من حيث مقامه الطبيعي. فلا ريب انه لو فقدت لثافت ارضه اكثر ارفاق بلادنا وقمرت المواطن واصبحت التربة عقيمة خاوية لا تأتي بغلاتها فكانت اشبه بفياف جرداء لا يرى فيها سوى بعض تلال من الرمل خلوة من النبات لا ماء يجري فيها ولا انهار ترويسا يسكنها قوم من صعايك البادية يتنقلون فيها اطلب كلاً الربيع ثم يرحلون عنها. وبوجيز القول ان بلاد الشام لولا لبنان كانت كالبوادي التي تجاورها من جزيرة العرب ونواحي تدمر واقفار ما بين النهرين في جنوبي حرّان ونصيبين

٣

انهار لبنان : منافعها واسماؤها

١ منافع انهار لبنان جغرافياً واقتصادياً

ذكرنا غير مرّة غنى لبنان بينابيع المياه وما يتركب على ذلك من الفوائد المدروغرافية فنقول الآن ان من اعتبر هذا الجبل ورأى هيئته وموقعه فهم ان قربه من البحر لا يسمح للانهار الجارية منه ان تتسع احواضها اتساعاً كبيراً.

والاخرى ان يقال ان اغلب انهار لبنان سيولٌ لا تتجاوز مسافة سيرها بضعة كيلومترات وهي تنحدر من مشارف الجبل وتندفع دفعةً واحدة الى البحر. وليس بين هذه الانهار نهر واحد يمكن زورقاً ان يجري فيه لكثرة انحراف هذه الانهار وما يتخللها من الصخور في مسيرها . ونحن لا نذكر في هذا الباب من انهار لبنان الا ما ينضب ماؤه في فصل التيط مباشرة من الشمال الى الجنوب (١) . وكذلك ضربنا صفحاً عن بعض التفاصيل الجغرافية التي تصلح لاحداث المدارس ليس في ذكرها كبير امر

١ النهر البارد شمالي طرابلس على مسافة بضعة كيلو مترات منها . وهو الفاصل بين لبنان وجبل عكار = ٢ نهر ابي علي وهو المعروف بنهر قاديشا (٢) = ٣ نهر ابراهيم = ٤ نهر الكلب = ٥ نهر بيروت = ٦ نهر الدامور

وليس لهذه الانهار كلها من الجدوى سوى انها تسقي بعض السهول الساحلية فتخصب تربتها في مجاريها المختلفة الطول . وربما كان هذا الخصب الناجم عن مياهها بليغاً . ولو اراد اهل بلادنا لاتفعموا من هذه المياه لغاية اخرى وذلك بان يجعلوها كحرك لادوات كهربائية يتخذونها لمعاملهم ولذلك سمى البعض قوة المياه في تحريكها بالفحم الابيض يريدون انها تقوم مقام البخار ومواقد الفحم الحجري . ولما كان مهبط هذه المياه شديداً وكميتها وافرة لا غرو ان ينجم عنها قوة تناسب احصنة بخارية عديدة كافية لتحريك ادوات ضخمة . وقد بلغنا آخر ان شركة لبنانية نالت امتيازاً لتوليد الكهرباء بمياه نهر بيروت لتسير القرى الساحلية حتى الله الاماني

على اننا نرى في مجاري هذه الانهار خللاً فان مصبها يتسع اتساعاً كبيراً وذلك لما تأتي به المياه من الطين المجروف ولما يدفعه البحر الى الساحل من الرمل فتتكوم هذه المواد في وجه النهر بحيث لا تقوى مياهه على خرقها فتندفق جوانبه وتسيل المياه ذات اليمين وذات الشمال على مسافة واسعة . وربما استنقعت هذه المياه فحدث عنها حُسيات ملاربية خبيثة . وهذا الانحراف في مجاري الانهار قد لحظه العلماء في البحار التي يضعف فيها المد والجزر . لكن هذا الخلل يسهل استدراكه بان يُحفر للنهر مسيل عند مصبه . وكذلك تُنصب اشجار الاوكالبتوس على ضفافه لتزول بها وخامة الهواء

(١) ان نهر العاصي يستمد اكثر مياهه من لبنان لكن مسيله خارج عنه

(٢) لا نذكر نهر الجزر قرب النورون لان ماءه ينقطع في فصل الصيف

وفي مقالاتنا السابقة بيّنا ان النهرين البارد و ابا علي بما سخّواهُ من التربة من اعالي لبنان طمًا جَوْن عَكَار و كَوْنَا سهل طرابلس المعروف بجودة مزرعاته . ولعلّ نهر بيروت اتي بما هو اغرب فعلاً منهما

فكلُّ يعرف ان مدينة بيروت مبنية على شبه جزيرة يتصل بها البحر شمالاً وغرباً وجنوباً غريباً . وقد ارتأى بعض العلماء ان هذه الحاضرة انما كانت في سالف الزمان جزيرة تحدد بها المياه من كل جهاتها (١) فصارت مياه نهر بيروت والجدول المجاورة له كوادى غدير ووادي شويقات تأتيها بالطين والتربة حتى ملأت البوغاص الذي كان في جهة بيروت الجنوبية الشرقية بينما كانت الرياح الغربية تحمل اليها رمالها فاصبحت بيروت متّصلة بالبرّ وجرى لها ما جرى لمدينة صور لما ابني لها اسكندر ذو القرنين سدًا عظيمًا وصل بينها وبين البرّ فتراكمت الرمال على هذا السدّ فصارت شبه جزيرة بعد ان كانت المياه تكتنفها من كل اطرافها . ولا عجب فان انتشار الرمل على سواحل سورية امرٌ ظاهرٌ فتري الرمل يتقدّم دون انقطاع . وممّا شهد الثمّة على صحته ان معدّل امتداد الرمل في كل سنة بين مدينتي غزّة و يافا يبلغ مترًا على التقريب

هذا وان اهل بيروت كانوا يتخذون قديماً ألواء الرمل سكناً لهم ويزرعون فيها المزارع لان التربة التي يغطيها هذا الرمل طيبة دسمة . والدليل على سكنى الاهلين فيها ما يجده الحافرون من الخرف وقطع الزجاج القديم والمعادن والنواويس . والرمل قد نشر عليها كلها رداءً وهو لا يزال يجري الى الامام . ومن يلحظ حركته المتواصلة يتأكد بانه في مدّة ربع قرن قد اخفى عن العيان املاكاً منسمة لبعض الوجاه فالتهمها . ومنذ عهد قريب قد وجد البعض آثار بلدة توارت تحت كسبان الرمل . وممّا أثبتّه الشاعر نوّس (٢) عن الطريق التي يسير فيها السائر عند خروجه من بيروت ميتماً صيداء أنّها « رمليةٌ تظللها الاشجار ودوالي الكروم » على ان الشاعر لم يذكر التلال الرملية التي تتخللها في يومنا هذا فتجري في وسطها وذلك دليلٌ على أنّ الرمل لم يسطُر عليها بعد . ومن الثابت المقرّر ان العوامل الطبيعية لا تزال تدرّي هذه الرمال فتجرف مياه

(١) راجع كتاب رينر (ص ٤٣٠)

(٢) راجع كتاب شعره (45 - 40 ، v. 41 ، ch. Dionysiaques)

البحر وتنسفها الرياح حتى نكاد نرى حركتها رأي العين فما قواك بعملها على مرور
الادهار لاسيما اذا اضفت الى هذه العوامل ظواهر أخر خارقة العادة كالزلازل
والاهتزازات الارضية التي ربما رفعت بحضيض الارض ومسيل الاودية . وفي سواحل
فينيقية من آثار هذه الزلازل ما هو مشهور (راجع مقالتيينا عن الزلازل في المشرق
١ [١٨٩٨] : ٣٠٣ و ٢ [١٨٩٩] : ٩٧٠)

ومما يشهد على ما اصاب بيروت ونواحيها من الطوارئ الجيولوجية ان هذه
المدينة كانت في سالف الزمان مزداقة بعدة جزائر لا نرى اليوم منها اثرا . فان الشاعر
اليوناني نونس المذكور (١) اشار اليها في جملة وصفه لبيروت فدعا هذه المدينة « الجميلة
الجزائر εὐνησος » وهي لعمرى شهادة حسنة اتى بها شاهد عين سكن بيروت ردحا
من الدهر لم يفته شيء من احوالها . وقد جاء في خارطة لاتينية يرتقي عهدنا الى
القرن الثاني عشر رسم جزيرتين متوسطتين في الكبر قريبتين من بيروت (٢) . وكذلك
ورد في تواريخ الصليبيين ان الرهبان المعروفين باسم پريمونترى (Prémontrés)
كانوا يسكنون ديرا موقعا في جزيرة على مقربة من بيروت (٣) . وفي هذه الشواهد
ما يدل على ان هذه الجزر غير الصخور الثلاثة او الاربعة التي نراها اليوم عند راس
بيروت او عند مصب نهرها

ولكن متى توارت هذه الجزائر ؟ ليس لنا في ذلك نص صريح ومن المرجح
انها انحسفت في الزلزال الذي ذكره المقرئزي في تاريخ الممالك (٤) في تاريخ سنة ٦٦٠ هـ
(١٢٦١ م) حيث قال ان سبع جزائر بين عكّة وطرابلس غاصت في لبح البحر .
وقوله هذا يطابق الآثار التاريخية التي لم تعد تذكر فيما نعلم الجزائر المجاورة لبيروت
بعد القرن الثالث عشر

والنهران الاخيران اللذان يجريان في جنوب لبنان هما الاولي وهو نهر صيدا
ثم الليطاني الذي يحد لبنان في جنوبيه وهو نهر صور . ولكلا النهرين علاقة مع المدينة

(١) راجع الكتاب السابق ذكره (Chant 41, v. 15)

(٢) راجع المجلة الفلسطينية الالمانية (ZDPV, XVIII)

(٣) راجع المجلة ذاتها (ج ١٠ ص ٣١٠ و ج ٢١ ص ١١٦)

(٤) راجع طبعة كاترمار 145, 1^{re} partie, p. 145 Quatremère : Sultans Mamlouks, I,

التي يجاورها وقد اغناها بمنافع الجمة الاقتصادية . ونهر الاولي يجري في منعطف لبنان الغربي ولا يتجاوز طوله ٤٥ كيلومتراً اما الليطاني فينفذ في وسط هذه السلسلة ويتخللها . ومنبعه في البقاع بين الجبلين الغربي والشرقي وطول مجراه ١٥٠ كيلومتراً . وخطره عظيم من حيث الزراعة والاقتصاد لانه ليس فقط يفتح طريقاً في خلال الجبل كما يفعل الاولي ولكن ايضاً لان هذه الطريق توصل ساحل مدينة صور بسهولة فيحاء وبطائح غناء كالبقاع وغوطة دمشق ووادي العاصي . ولا غرو ان تجار صور من الفينيقيين قدروا هذه المنافع قدرها ونهجوا هذه الطريق رغبة في الارباح البالغة

أما وادي الاولي فهو دون وادي الليطاني شأنًا وخطراً الا انه اغني منهُ واخصب وفي مسيره على ضفتيه مسالك وطرق تُقضي الى البقاع والى عدة قرى كان الاهلون يقضون فيها فصل الصيف ويتاجرون بعلاتها كما يفعل اهل صيدا في أيامنا في القرى الواقعة قرب الباروك وجنوبي جزين

ولولا الاولي والليطاني لما وجدت صور وصيدا فان بُناتهما اختاروا مصب هذين النهرين لما كانوا ينتظرونه منهما من العوائد التجارية وهو الامر الذي جعل لهاتين الحاضرتين شأنًا تجاريًا لم تبلغه بيروت وجبيل لحاوتها من نهرين يجديانها من المنافع ما احزته صيدا وصور بنهرهما

٣

اسماء انهر لبنان قديماً وحديثاً

قلنا ان اول أنهر لبنان شمالياً نهر البارد . والمظنون انه هو النهر الذي دُعي قديماً بروثس (Bruttus او Brutus) وان اشتقاقه من اصل سامي

ولكننا نجعل الاسم الذي عُرف به عند القدماء النهر الثاني اي ابو علي . كما اننا لم نجد في كتب العرب سبب هذه الكنية او الرجل الشهيد الذي اعاره اسم ابي علي

أما نهر ابراهيم فقد مر ذكره في مقالة سابقة (راجع الجزء الاول ص ٥٨) حيث اثبتنا ما يختص باسمه القديم ادونيس (اي تموز) وباسمه الحديث

وكذلك لا حاجة الى تكرار ذكر نهر الكلب وتعريف اسمائه وقد سبق لنا في ذلك فصل مطوّل (تسريح الابصار ج ١ ص ٦)
وان تحطّينا الى نهر بيروت وجدنا ان اسمه مشبوهٌ به وان كان الرأي الشائع انه هونهر ماغوراس الذي ذكره پلينيوس في تاريخه الطبيعي (ك ٥ ف ١٧) فجعله في جوار بيروت . وفي قوله هذا نظر اشرفنا اليه في اول مقالاتنا عن آثار لبنان (تسريح الابصار ج ١ ص ٤)

وممّا حمل العلماء على القول بانّ ماغوراس هذا هو نهر بيروت ان پلينيوس جعله على مقربة من بيروت وليس لهذه المدينة نهر آخر ألاّ النهر المنسوب اليها فضلاً عن اننا نعرف الاسماء القديمة التي أطلقت على الانهر الواقعة جنوبيّ بيروت وشمالها ما عدا اسم نهرها

على أنّ بعض العلماء شكّوا في ذلك وظنّوا ان مقصود پلينيوس بنهر ماغوراس انما هو نهر الدامور لانه في وصفه لمدن الساحل مباشرةً من الجنوب الى الشمال ذكر ماغوراس قبل بيروت كأنه جعله جنوبي هذه المدينة وهو كما لا يخفى في شماليها . ولأنّ پلينيوس ضرب صفحاً عن ذكر الدامور ظنّوا انه دعا هذا النهر باسم ماغوراس هذا الرأي لا يجازو من شبه الصحة بيد اننا نفضّل القول بانّ پلينيوس لم يُراعِ النظام الطبيعي فقدّم ذكر النهر على ذكر المدينة بدلاً من ان يؤخره . ومثل هذا التقديم والتأخير كثير في كتب القدماء . او يُقال انّ هذا الامر جرى على يد النساخ سهواً منهم . ومن ثمّ فإنّ الرأي الاصحّ عندنا ان ماغوراس هو نهر بيروت ليس نهر الدامور . فعسى العلماء ان يجدوا كتابةً تؤيد رأينا وتزيل كلّ شبهة عن نصّ پلينيوس وهو الكاتب الوحيد الذي ذكر اسم ماغوراس

هذا وان نهر الدامور قد تكرر في كتب القدماء وهم يدعونهُ تاميراس وقد عرفهُ المؤرخ پوليبوس باسم داموراس (Δαμορασ) والمشابهة بين الاسم القديم والحديث ظاهرة . وكذلك لا شبهة في تعريف اسم « الاولي » القديم . فان الكتابة قد دعوه بُسترينوس (Bostrenus)

بقي آخر انهار لبنان جنوبياً وهو الليطاني فانّ في تعريف اسمه القديم مشكلاً عظيماً ولعلّ القدماء لم يتعرّضوا لذكره وقد شاع اليوم عند الكتّبة المحدثين ان

الليطاني هو نهر لاونتيس (Leontès) او نهر الاسد (Λέοντος ποταμός) الذي ورد اسمه في بعض تأليف اليونان فخرّف بالليطاني . وكثراً نحن ايضاً جنحنا الى هذا القول (راجع الجزء الاول ص ٩) لما فيه من شبه الحقيقة . لكن في هذا الرأي عقبات كما سترى

فلنباشر اولاً بذكر الاشياء المقررة التي لا يُختلف في صحّتها

من المعام ان اسم هذا النهر حالياً الليطاني ويُدعى عند مصبه بالقاسميّة . وعلى الاصح انه عُرف بذلك لزار هناك يدعى النبي قاسم . وزعم البعض ان القاسميّة مشتقة من القسّم كانّ النهر قاسمٌ بين صور وصيدا او بين بلاد الشقيف وبلاد بشارة وهو رأي باطل لا سند له والدليل على بطلانه انه لا يُطلق عليه هذا الاسم تحت قلعة الشقيف لما يلتوي عن سيره الجنوبي فيجري الى البحر بل عندما يتجاوز جسر القعقيّة . فلو كانت نسبتُهُ الى قسّم البلدين لصدق الاسم عن كل مجراه الجنوبي لا عن مصبه فقط . ثم ان هذا الاسم معروف منذ بضعة اجيال ذكره خليل الظاهري في كتابه زبدة كشف الممالك والمقريري في تاريخ الممالك (١)

اما اسم الليطاني فانه قد ورد في اوصاف البلدان لكتبة العرب على صورة « ليطة » فكذا دعاه شمس الدين الدمشقي (ص ١٠٧) وابو الفداء في حاشية على تقويم البلدان وصاحب التعريف في المصطلح الشريف (ص ١٨٢) وقبلهم الشريف الادريسي في كتاب نزهة المشتاق (٢) . ويروي ايضاً في بعض النسخ « نطّة » بدلاً من ليطة وليس لليطاني ذكر في جغرافي العرب غير هولاء . ولا عجب فان العرب قلماً كتبوا في أنهر لبنان فلا تكاد تجد من اسمائها في تأليفهم سوى ثلاثة او اربعة

وان بحثنا عن الليطاني في مصنّفات سابقة لمهد مؤلفي العرب اي قبل القرن الثاني عشر وجدنا كتبة اليونان والرومان اقل صراحة من العرب ولعلهم ضربوا عنه صرفحاً . وانما نستثني منهم اسطرابون الذي اشار الى الليطاني اشارة صريحة حيث قال: « ويجري قرب صور نهر » بيد انه لم يُفدنا عن اسمه شيئاً . وان استطلعت بقميّة المؤلفين

(١) Quatremère : *Sultans Mamlouks*, II, 1 partie, p. 174

(٢) راجع طبعة غلديستد ص ١٢

كسكيلاكس وبمبونوس ميلا وپلينيوس وبطلميوس لا ترى لهم كلمة عن هذا النهر كما انهم لا يذكرون البتة نهر الزهراني الذي يجري جنوبي صيدا.

قلنا ان كتبة اليونان لم يذكروا الليطاني . أجل لكن بعضاً منهم ذكروا نهر لاونتوس (Λέοντος ποταμός) فلم لا يكون هذا النهر هو الليطاني فيكون جرى على الاسم اليوناني بعض تحريف لما نقل الى العربية . نجيب اننا لم نكن لتزدد في تصويب هذا القول لولا ان بطلميوس (ك ٥ ف ١٤) جعل هذا النهر بين بيروت وصيدا وهذا لا يوافق الليطاني كما لا يخفى . وكذلك نرى تشويشاً عظيماً في ما كتبه هؤلاء المؤلفون في « لاونتوس » التي نُسب اليها هذا النهر فهم يقولون انه كان في ساحل فينيقية مدينة تدعى لاونتوبوليس ومنهم من يجعلها بين بيروت وصيدا جنوبي نهر الدامور . وهو رأي اسطرابون الجغرافي . أما يليليوس فيزعم ان موقع لاونتوبوليس بين بيروت ونهر الكلب . وفي جغرافية سكيلاكس ان هذه المدينة جنوبي صيدا . وهذه كلها آراء متضاربة واقوال متباينة لا يستفاد منها شيء صريح في اسم الليطاني عند اليونان أما لاونتوبوليس فسيأتي ذكر موقعها قريباً

ومن غريب الامور ان الاسفار الالهية لم تنوّه باسم الليطاني مع انه كان على الرأي الارجح احد حدود الاراضي المقدسة (١) . فترى ممّا سبق ان تعريف موقع هذا النهر واسمه وتاريخه القديم لمن المعضلات التي استغلق بابها على الباحثين في مجاري المياه اللبنانية

ولكن دعنا ننظر لفاك هذا المشكل في الكتابات التي سبقت عهد بني اسرائيل فلعلنا اذا رقينا في سلم الادهار وقفنا على حقيقة الامر كما ان مياه الانهار تزيد صفاء اذا قربت من مخرجها

واعلم انه قد ورد في الكتابات المصرية الميروغليفيّة اسم قديم يدعى « رطنو » و « رنتو » و « رتينو » موقعه شمالي فلسطين وحيث اليوم سهل البقاع الذي فيه يجري الليطاني . ثم ان الراء في اللغة المصرية من الحروف الذائق التي كثيراً ما تبدل

باللام فتكون « رطنو » و « لطنو » عبارة عن اسم بلد واحد (١١) . ومن ثم فليس
بمستبعد أن يكون اسم الليطاني اشارة لهذا القطر ومعناه « النهر الجاري في بلد لطنو »
فقيل اختصاراً « ليطاني » كما تقول نهر بيروت ونهر عكار دلالة على البلد الذي يجري
فيه هذان النهران

وعلى رأينا ان هذا الشرح اقرب الى الحقيقة في تعريف اصل اسم الليطاني القديم
أما اسمه اليوناني فلا سبيل الى توفيقه على ما كتبه اليونان بخصوص نهر لاوتوس .
والله اعلم

٤

سكنى لبنان في قديم الزمان

ان لبنان من احفل ولايات الدولة العلية بالسكان فان معدل أهليه يبلغ ٦١
نفساً في كل كيلومتر مربع . وهو لعمرى عددٌ بليغ لا تتجاوزه الأ ولاية دار
السلطنة وجزيرة ساموس . فان معدل قاطني الولاية الاولى هو ١٦٢ شخصاً في كل
كيلومتر مربع أما ساموس فاهلها ١١٣ نفساً في الكيلومتر . الأ انه لا يجوز المقابلة
بينها وبين لبنان لأن ولاية دار السعادة تشمل الاستانة العلية وهي كما لا يخفى من
حواضر المدن واكثرها سكناً فيزداد بعدد اهلها معدل اهل الولاية التي هي داخلة فيها .
وكذلك ساموس فانها جزيرة كثيرة الخيرات حسنة التربة ليس فيها جبال عالية
فلا عجب اذا تقاطر اليها الناس ليستوطنوها . أما لبنان فعبارة عن سلسلة جبال
عالية كثيرة الصخور قليلة الخصب ومع ذلك ترى مصانعهُ وقراه متقاربة كثيرة
الاهلين بحيث يصح القول انه لا يوجد في قطر آخر جبل يربو عدد سكّانه على
سكّان لبنان

على ان الامر لم يكن كذلك في سالف القرون فان لبنان طالما كان فقراً مقفراً
لا يأوي اليه الأكواسر الوحوش وابيان ذلك ها نحن نبحت في هذا الشأن لترى كيف
احتل لبنان سكّانه أوّلاً قبل عهد النصرانية ثم ثانياً في زمن الرومان واخيراً منذ

(١) راجع في مجلة اللاهوت الكاثوليكي، 1902, (Zeitschrift f. kathol. Theologie, 1902, p. 402) بحثاً حسناً في ما نحن بصدده للدكتور شندا تزيل كليلتنا سابقاً

دخول الموارنة فيه وهي اطوار ثلاثة توافق احوال هذا الجبل الثلاث من حيث السكن فنمت الاهلون الى ان بلغ عددهم الى ما نراه اليوم

*

اعلم انه ممّا لا يختلف فيه اثنان ان جبل لبنان كان في الاعصار الغابرة قليل السكان ولا غرو فان وضع هذا الجبل وهيشته واحواله الطبيعية والجغرافية ممّا يمنع عن توارد السكان اليه . فان مشارفها العليا صرود لا يمكن سكناها لبردها ليس ققط في فصل الشتاء لكن ايضاً في بقية السنة . وهي المنطقة التي تعلو ١٨٠٠ متر فوق سطح البحر . فان القسم الذي يعلو هذا الخط يُعرف بالجرود لان ارضه جرداء كثيرة الصخور لا ينبت فيها الزرع الا ضاويًا وبعد عتاء ومشقة . وتزيد على ذلك ان لبنان كله لم يقم ققط بمعاش اهله لا سيما في عهدنا مع تراحم السكان فيه . وليس هذا ناجماً عن تغافل اللبنانيين وتكاسلهم لان كل الكتبة لسان واحد على همة قطن هذا الجبل وملازمتهم العمل ومواظبتهم على الفلاحة . وفي جانب آخر ليس للبنان مناجم معدنية يمكنهم الارتزاق بمراقفها تعويضاً عمّا ينقصهم من الغلات . وكذلك ترى اسباب التجارة قليلة في لبنان لا يعباؤها لان الطرق التجارية لا تخترقه فتغنيه قوافل المتاجرين . بل الاخرى ان يُقال ان جباله كسد قائم في وجه الامم الواقعة على عطية فترى بينهما فرقاً كبيراً من حيث الهواء والنبات وكلاهما يختلف في وجه لبنان . واذا استقرت التاريخ وجدت سياسة شعوبها متباينة يعيش كل شعب على حدّة معتزلاً عن الآخر مع كونهم ياتمون كلهم الى عنصر واحد

وممّا يشهد على صعوبة السكنى في لبنان انك لا تجد في خلال جباله سوى مسالك حرجة وشعاب ضيقة لا تُقطع الا بالجهد الجهد . امّا السبل التجارية اللاحبة التي كانت القوافل تسلكها فانها كانت تمر شمالي لبنان وجنوبيه فنمطف في وادي النهر الكبير او تجاري سير نهر الليطاني والطريق الاولى هي التي اغنت طرابلس في الزمن القديم امّا الثانية فكانت مجلبة لثروة صور العظمى . وبعبس ذلك لم تُصب بيروت مقاماً كبيراً في التجارة اذ كان يفصل بينها وبين دمشق والبلاد الداخلية سلسلتان من الجبال المرتفعة الى ان فُتحت طريق الشام بعد السنة ١٨٦٠ هم أنشئت

السكّة الحديدية. فانحصرت الانسان بكّد جبينه على ما اقامته الطبيعة في وجهه من العراقل والعوائق

هذا واذا تصفّحنا أقدم ما سطره المؤرخون عن لبنان وجدناهم يصفون هذا الجبل بغابات كثيفة تزينه . ويوافق هذا الوصف ما ورد في الاسرار المقدّسة واقدم الآثار الاشورية . وقد دامت هذه الحالة قرونًا متواترة كما يشهد على ذلك مؤرخو اليونان والرومان الذين اثبتنا نصوصهم مراراً في مطاوي كلامنا عن الارز (ج ١ ص ١٣٤) وفي مقابلتنا بين لبنان وجبال الالب (المشرق ١ [١٨٩٨]: ٧٢١). ومن عجيب الامور انّ هؤلاء الكتبة لا يذكرون البتّة شيئاً من قرى لبنان وانّما يعدّون فقط المدن الفينيقيّة الواقعة على ساحل البحر . نعم انّ بعض المستشرقين استشفوا من وراء اسم « أميا » الوارد في مراسلات تلّ العمارنة (المشرق ٣ : ٧٨٩) قرية « اميون » ألا انّ الامر ليس بمقرّر فضلاً عن ان اميون واقعة في سهل منبسط طيب التربة قليل الارتفاع وليست هي في وسط لبنان

واوّل ما ورد من اسماء الدساكر اللبنيّة في اساطير المؤرخين انما جاء في جغرافية اسطرابون اعني قبل تاريخ الميلاد بزمان قليل بعد ان فتح بُبسيوس بلاد الشام ألا وهي اسماء ثلاثة حصون او قل بالاحرى ثلاثة عشوش للصوص تدعى جيفرتا وسنان وبرومة (المشرق ٢ : ٥٠٧) ومواقع اخرى مثلها اكثرها قريب من البحر . ومما يستدلّ من مجرد ذكر هذه الحصون انّ سكنى الجبل كانت محفوفةً بالخطار لا يتوطنه الا قليل من السكّان . وسنعود الى ذكر هؤلاء اللصوص عند كلامنا عن الايطوريين وهم قوم من عرب حوران امتزجوا بالعنصر اللبني

أما الكتابات القديمة فهي عزيزة جداً في لبنان وكلّ ما وُجد منها لا يتجاوز قدمه اوائل التاريخ للمسيحيّ وقد اكتُشف معظمها قريباً من الساحل ليس بعيداً من جبيل وبيروت وهذا دليل واضح على قلّة سكّان لبنان قبل المسيح . ولنا ايضاً على قولنا برهان آخر في ما نراه من الاخربة القديمة في لبنان فانك قلّما تجد بينها من الآثار السابقة لعهد النصرانيّة وكذلك النقوش المحفورة على الصخر وفيها كلها من عهد الرومان اللهمّ ألا نقوش وادي بريسا قرب الهرمل وسيأتي ذكرها ومع كلّ هذه الشواهد انّنا نرجح كون لبنان لم يخلُ من بعض المراكز الآهلة

كان موقعها في وسط الجبل اتخذها الاقدمون في بعض الوديان والبطنح الحسنة التربة الكثيرة المياه السهلة الزراعة (١) . وكذلك كنت ترى في خلال الغابات منازل للحطابين كانوا يعدون فيها الخشب لاسيما الارز الذي كان القدماء يقبلون عليه لتجهيز مبانيهم ومنه كان الفينيقيون يعتمرون سفنهم واساطيلهم (٢) . ولعل بعض القرى التي تُعد من اقدم دساكر لبنان كاهدن وبشراي ابتدأت على هذه الصورة فكانت اول امرها كمصانع لتحطيب الارز وغيره من الاشجار الجبلية العظمى . وقد اوردنا في ما مرّ كتابات يونانية وُجدت في اهدن ترتقي الى التاريخ المسيحي ومنها يستدل على ان تلك القرية سبقت عهد النصرانية . اما بشراي فان اشتقاق اسمها على رأي البعض من اسم الالهة عشتار وبه دليل كافٍ على قدم عهدها

ومن القرى التي تُرجح قدمها الهرمل الواقعة على منعطف لبنان الشرقي . ولا غرو فان موقعها في بطحاء مخصصة غزيرة المياه مما يستدعي الى استعمارها وبقرها وُجدت صفيحتان فيها كتابات اشورية قديمة تشير اليها قريباً ومن الامكنة التي نزلها الناس في غابر الاعصار بعض المقامات التي اتخذها الاهلون كنسك دينية منها اليمونة وقرى ودير القلعة ومشنقة . فان هذه المحلات وان لم يرد ذكرها قبل ايام الرومان فان اصلها فينيقي محض لا محالة وعلى هذه الصورة اضحى لبنان شيئاً فشيئاً معداً للسكن . فان الاهلين ضربوا اطناهم اولاً قريباً من المدن الساحلية وفوق رُبى لا يتجاوز علوها من ٤٠٠ متر الى الف متر حيث الهواء لطيف والرزق مضمون . ثم اخذ لبنان يُجرّد من احراجه الكثيفة الدغلة لتجارة الاهلين بجشها فصار الناس يفلحون الاراضي التي نُزعت عنها الادغال ويشيدون المباني للسكن وكان ذوو الثروة من اهل الساحل يتوقفون في فصل القميص مشارف لبنان ترويحاً للنفس وطلباً للراحة بعد ما تجسّموه من الاسفار الشاقّة

*

فاخذ من ثمّ التطين يتوغّلون في لبنان فازداد عددهم وغوا خصوصاً بعد الفتح الروماني . وقد اسلفنا فوصفنا ما نجم عن دخول الرومان في سورية من المنافع الجمة

(١) ومما زرع فيها الجفنة فان هوشع النبي ذكر في كتابه (١٤: ٨) نحر لبنان واطراه

(٢) راجع ما سبق لنا في الجزء الاول في هذا الخصوص

(راجع الجزء الاول ص ٢٠) فان تملكهم رفع بها الى اعلى مقامات العمران والتقدم . فهم الذين قضاوا اجنحة الفن ومثدوا اروقة السلام فوق كل الاهلين على اختلاف اجناسهم . ومن اعمالهم المشكورة انهم استأصلوا شأفة اللصوص الذين كانوا تحصنوا في لبنان فذكرنا معاقلمهم واعادوا الأمن الى السكّان (ج ١ ص ١٤٦) .

فراجت اسواق التجارة واضحت المدن الساحلية محطاً للقوافل ومركزاً للمعاملات لاسيماً جبيل وبيروت وصور فانتشرت منها هذه الحركة الى ضواحي لبنان المجاورة لها . ومثما زاد في خصب الجبل ما ابتناه الرومان من التقيّ جلب مياه لبنان من عيونها فكان ذلك من ادعى الوسائل لنشر الحضارة وتلطيف الهواء في مدن الساحل . ومنها ايضاً السكك الرومانية التي كانت تستدير سائرةً حول لبنان . واحدى هذه السكك كانت تتخترق الجبل في عرضه سائرةً الى جنوب العقورة ومنها الى بعلبك (المشرق ٢ [١٨٩٩] : ٣١٤) . ولما كان لبنان لم يزل بعدُ مزداناً بغاباته سعى الرومان باستثمارها ووضعوا لذلك قوانين مملوّة حكمة اشرنا اليها سابقاً

ولا عجب اذا رأينا لبنان في أيام الدولة الرومانية تعيرت احواله وترقت شوئنه والى ذلك العهد تنتمي عدّة كتابات منها يُستدلُّ على وجود قرى وضياح او بالاحرى مزارع وديساكر . ومن غريب امر هذه الكتابات أنّها لا تحتوي علماً لمكان واقع في قلب لبنان . ومجمل ما تتضمنه اعلام شخصية فقط

وفي ذلك العهد استبدل الرومان المعابد الفينيقية الصغرى بهياكل فخيمة يتولّاها عدد غفير من السدنة وارباب الدين فكان يتقاطر اليها الزوار زرافاتٍ ومنهم من كانوا يختارن تلك الامكنة لسكنائهم فأنشئت عدّة قرى حول هذه المقامات الدينية . وكان لهذه الهياكل اذواقها وغاباتها المقدسة وواقفها وكرومها . ومعلوم انه لا بُدحة للقيام بكل هذه الاملاك من عملة وفلاحين يستثمرونها (١) . فلا غرو ان ضيعاً كثيرة ظهرت على هذه الطريقة الى حيز الوجود نخصّ منها بالذكر قرية دير القلعة التي كان يجيئ الى هيكلها اهل بيروت ويقضي فيها مستعمرو الرومان فصل الصيف والى هذا الزمان ننسب ما اكتُشف في امكنة عديدة من الآثار الزراعية وادوات

(١) راجع قاموس الماديات اليونانية والرومانية لساغليو (Saglio) ك ١ ص ١٥١

الفلاحة كالمعاصر والاجران والرحي الضخمة (المشرق ٥ [١٩٠٢]: ١٠٧) والشواويس ومدافن لا يستقصى عددها منقورة في الصخور وكان الرومان كلفين بغرس الكروم فبعثوا همة الاهلين على فلاحتها فاعتمت صنوف الحجر اللبنانية ان اشتهرت في العالم الروماني فعُرفت بالحور البروتية (راجع پلينيوس ك ١٤ ع ٧ , ٩ وك ١٥ ع ١٧ , ١٨) . ومن ادلة الزراعة انك ترى بين الشونة وبعلبك كتابات عديدة تحذ الاملاك وتفوز بينها . وفي امكنة اخرى كتابات غيرها منها لاتينية ومنها يونانية يُستفاد منها تعدد السكّان وتوفر المنازل . وهذه الكتابات قد اثبتناها في مقالاتنا في مطاوي كلامنا عن كل محل يفردّه فلتراجع . ولدينا غيرها ايضاً سنثبتها ان شاء الله عند بجرشنا عن القرى الواقعة في المنطف الشرقي من لبنان حيث نشأت قرى عامرة بعضها في جوار بعلبك وبعضها في ضواحي زحلة كفرزل ونيحا وجديتسا . ومما يجدر بنا ذكره ان كل هذه الكتابات والعاديات لا تتجاوز القسم المتوسط من لبنان اعني الى نحو ١٠٠ متر من سطح البحر وفي ذلك دليل على ان القسم الاعلى لم يتخذ بعد للسكنى وانما كانت الغابات تكالؤه كما في القرون السالفة

*

وفي اثناء ذلك ظهرت النصرانية ففتح ظهورها باباً جديداً للتمدن والحضارة في لبنان . فان المستعمران الرهبانية التي ذكرناها سابقاً (ج ١ ص ١٠٩) اتخذت لبنان منزلاً لاعمالها النسكية وقد اختارت لذلك اقرم مساجدته من الاودية فصار الناسك يُجيبون فيها يد الحراثة . حتى اضحت هذه المناسك بعد قليل بمراكز اضياع عديدة كما جرى في اوربة حيث ترى مدناً كثيرة كانت في اول امرها ديورة للرهبان اوى اليها القوم فصارت مع قادي الايام بلاداً واسعة ولكن لا يسعنا السكوت عن امر يدهلنا اي اندهال وهو قلة الآثار النصرانية في لبنان قبل القرن السابع فانك لا تكاد تجد اثرًا واحدًا منها يمكن نسبه الى النصارى بلا ريب مع كثرة العاديات الوثنية الموجودة في انحاء الجبل . وكذلك ترى من الكتابات اليونانية واللاتينية قسماً صالحاً وهي كلها لعبدة الاصنام اللهم الا خمس اوست منها باليونانية . فيايت شعري ما السبب في ذلك . أليس هذا دليلاً على ما لاقتنه النصرانية في سبيلها من العراقيل لما حاولت ان تشر تعاليم الخلاص

بين اهل لبنان . ولنا في تعميل ذلك سبب آخر وهو ان الفوز الاخير الذي ناله الدين النصراني في لبنان إنما كان على يد قوم من الآراميين ليس من اليونان ولذلك لا تجد من الكتابات اليونانية النصرانية الأثر القليل
فان تحطينا الآن الى ذكر تاريخ لبنان في القرن السابع وجدنا هذا الجبل قد دخل في طور جديد يظهر المرآة والموارنة الذين لعبوا دوراً مهماً في طوارئهِ المختلفة . وكان قبلهم لم يُفْلَح منه إلا ساحلُهُ ووسطه بعد تجرّدها من غاباتها أما لبنان الاعلى والجرد منه فإنه لم يزل قفراً خالياً من السكّان حتى أوى اليه الموارنة فاضحى معسوراً حافلاً بالقطين كبقية نواحي لبنان . وسنبين ان شاء الله قريباً كيف ترّكبت الأمة المارونية الأنا تقدم على هذا البحث فصلاً آخر في شعوب لبنان القديمة وسكّانه الاولين

٥ الامم البائدة في لبنان

ان بين الامم التي سكنت في سالف الازمنة مشارف لبنان واوديته شعوباً دثر رسمهم وباد اسمهم . ومنهم من خلّفوا لهم ذكراً كبنى كنعان والفينيقيين والآراميين فاحتلوا ربوعه وتوالوا في سكناه فصارت سلالاتهم كنواة هذه الشجرة الكثيرة الفروع والعنصر الاصلي لسكّان لبنان الحاليين . وليس في خاطرنا ان ندون هنا اساطير هذه الامم فانّ ذلك يقتضي كتاباً ضخماً يخرج بنا عمّا تحريته من الخطّة في الكتابة وانما نبحت فقط عن بعض هؤلاء الشعوب الذين يهتئنا ذكرهم ممّن قحموا على لبنان فاستوطنوه ككأه او قسماً منه ردحاً من الزمان ثم درسوا اما بالمهاجرة الى غيره من الاقطار حراماً يفتوح الفتاحين او باختلاط بعض بقاياهم بالعناصر الواردة الى لبنان

وهذا النظر العمومي مع قصره كافٍ ليحيط قرأونا علماً باختلاط القبائل والامم الشتي التي يترّكب منها اهل لبنان وفي بحثنا هذا نتبع آثار شعبٍ فشعبٍ على حسب توالي الازمنة وكرور الاجيال

١ الحثيون

لم يكن ذكر الحثيين مستفيضاً بين العلماء قبل اواسط القرن الماضي . وغاية ما كنّا

نعلم من امرهم ما ورد من اخبارهم في الاسفار المقدسة . فان ابراهيم الخليل عقد معهم عهداً ذكره سفر التكوين (ف ٢٣ ع ١٠ - ٢٠ وف ٢٥ ع ١٠) . وكذلك قد اتخذ عيسو بن اسحاق امرأتين من بني حث (تك ٣٦ : ٢) ومن نسلهم كان اورياً الحثي زوج بقشابع احد قواد جيوش داود . هذا الى اشارات أخرى عديدة يلمح اليها الكتاب الكريم ويؤخذ منها ما كان عليه الحثيون من عظيم الشأن وكبير الامر . على ان بعض الكتبة لم يأنفوا من انكار هذه الامور او الارتباب في صحتها وذلك لانهم لم يجدوا في غير الاسفار المقدسة ما يؤيد صدقها . وكانوا يزعمون انه ليس بين المؤرخين كاتب واحد ذكر الحثيين

وقد شاء الله ان تشهد الاكتشافات الحديثة لصحة ما ورد في كتبه المتزلة وهالك بيان الامر : كان بلغ علماء العاديات منذ اوائل القرن التاسع عشر ان في مدينة حماة صفايح من الحجارة الضخمة عليها كتابات تشبه بعض الشبه الكتابات الهيروغليفيّة المصريّة وهي تختلف عنها . ولم يتسنّ لاحد من الآثاريين ان يفحصها فحصاً مدقّقاً الى عام ١٨٧٢ . فلما تفرغوا لدرسها في تلك السنة اخذ الدهش منهم كل ماخذ اذ تحقّقوا ان الكتابات المذكورة للحثيين وان هي الا آثار الاولى التي تنبئ عن دولتهم العظمى التي أمحى ذكرها (١) . فجعل العلماء ينعمون النظر في آثار تلك الأمة وبيحثون عن دفتان أخرى توقعهم على اسرارهم فما كذبوا ان اكتشفوا بعد زمن قليل عدّة آثار ازال كل الشبهة فوجدوا العاديات الحثيّة متعدّدة في حلب الشهباء وفي سهل عمق شرقي انطاكية وقريباً من الاسكندرونة وفي مرعش وجرابلس على ضفة الفرات وفي جهات أخرى من بلاد الاناضول . وكانت هذه العاديات اما كتابات منفردة واما كتابات مع بقايا ابنية فخيمة او قناثيل او نقوش منقورة في الصخور او خواتيم وغير ذلك مما اطلع اصحاب التمدن على تمدن واسع قائم بذاته . فذ ذلك الحين دخل الحثيون في نطاق التاريخ ولم يعد احد يشكّ في وجودهم

ثم واصل العلماء بجائهم فاطفوا رائد النظر في الكتابات المصريّة القديمة والكتابات

(١) راجع كتاب العلامة ريت W. Wright : *The Empire of the Hittites* ثم الكتاب *The City and the Land*

الاشورية لعلمهم يجدون فيها ما يزيدهم علماً بهذا الشعب المجهول . فما كذب ظنهم بل اطلعوا على افادات عديدة تبيّنوا منها اموراً لا تخصّ بخصوص الحثيين ودواتهم . ولخضرة الاب دي كارا اليسوعي فيهم مقالات مهمّة نشرها تباعاً في مجلّة الآباء اليسوعيين الايطالية التمدن الكاثوليكيّة « احزت له ذكرًا مستفيضاً بين المستشرقين . ومع كل ما كتب عنهم في هذه السنين الاخيرة لا يزال العلماء يجهلون اشياء كثيرة من اخبارهم واسرار تاريخهم وسبقى الامر كذلك ريثما لم يسعد الحظّ احداً من ارباب العلم على قراءة الكتابة الحثية التي لا تزال مجهولة . ولا نظنّ احداً يقوى على قراءتها حتى يجد كتابة بلغتين حثية وغيرها تكون كمنفتح لها كما جرى اشمبوليون عند ما فكّ اسرار اللغة المصرية بواسطة حجر رشيد (راجع المشرق ٣ [١٩٠٠] : ٨٩٢)

ولكن من كان ياترى هؤلاء الحثيون ما اصلهم ما فصلهم ؟ نجيب انّ الحثيين ليسوا من اهل الشام وانما قدموا الى سورية من جهات الشمال . امّا عنصرهم فالرأي الشائع حتى الآن انهم ليسوا من بني سام (١) . ومما ثبت من امرهم انهم كانوا تولّوا منذ القرن السادس عشر قبل المسيح البلاد الواقعة في شمالي سورية بين نهريّ عفرين والفرات . ثم تقدّموا حتى سطوا في القرن الرابع عشر على وادي نهر العاصي وسهل البقاع حتى جنوب فلسطين في جوار مدينة حبرون حيث اجتمع بهم ابراهيم الخليل وبنوه من بعده

وكانت في ذلك العهد حاضرة ملكهم في سورية مدينة قدس التي يظنّ العلماء انّ موقعها كان في المحلّ المعروف اليوم باسم تلّ نبي منند عند بحيرة قطينة قريباً من حمص (٢) ولا يزيد هنا ان نسط الكلام في الحثيين ولما غايتنا ان نذكر ما كان لهم من العلائق مع لبنان

(١) راجع ما كتبه في هذا الشأن العلامة مسيبرو في تاريخه القديم (٢ : ٢٥٢) ثم دي لنتشير (De Lantsheere) في كتابه عن اصل الحثيين وانتم ثم جنس في كتابه من الحثيين والارمن وهو يزعم ان الحثيين قبيلة ارمنية

(٢) راجع مقالتنا المعنونة Notes épigraphiques et topographiques sur



صورة احد غزاة الحثيين (عن اثر قديم)

وان سألت هل احتلّ الحثيون هذا الجبل ؟ أجبنا انه ليس لدينا اثرٌ صريح يفي بهذا الامر ولا غروَ لانه كما قلنا سابقاً لا نعلم الألتزر القليل من تاريخهم واتساع دولتهم . ونرجح كونهم ضبطوا على الاقل جهات لبنان الشماليّة ولعمري كيف يقبل العقل انّ أمة قويّة رجالها مغاوير حروب اتّخذت لها عاصمةً مدينةً قدس لم تمدّ ظلّ سطوتها على شمالي لبنان وليس بينهما إلاّ قاب قوسين اعني سهلاً ضيقاً فقط . ولو اقترضا انّ لبنان في زمانهم كان عبارة عن غابات كثيفة هل اهمل الحثيون امره وفي وسعهم ان يستثمروا خشب ارزو الفاخر ويستخدموه لمبانيهم الكبرى وعمائرهم (١)

(١) راجع مقالتنا في ارز لبنان (ج ١ . ص ١٣٤)

وعلاوة على ما تقدّم لا يمكننا ان نسلّم بان الحثيين تعاوضوا عن احتلال وادي النهر الكبير الذي يفصل لبنان عن جبل النصيرية وهم يعلمون ان هذا الوادي طريق الامم الفاتحة . وذلك يظهر من تاريخ الفراعنة انفسهم اذ ان ديماسب الثاني لما اتى لمقاتلة الحثيين سار الى محاربتهم ماراً بهذه الطريق

فلا بُدّ اذن من القول ان الحثيين بعد ان استولوا على البقاع ملكوا ايضاً عطف لبنان الشرقي والمسالك التي تنضي الى لبنان الغربي . ومما يؤيد هذا الرأي ان سهول البقاع المتوسطة كانت في تلك الازمنة القاصية عبارة عن مستنقعات مائية لا يمكن استيطانها فلزم اذا الحثيين ان يسكنوا الجهات المرتفعة فوق تلك البطاح

على اننا نرى دلائل أخرى باقية الى عهدنا تحملنا على ترجيح هذا الامر وهي اسامي عدة امكنة في سورية تُدعى « حثّا » او « كفرحاتا » فارتأى العلماء ان هذه الاسماء اشارة الى احتلال الحثيين في بلاد الشام لانّ « حثّا » او « حثّا » هو اسم الحثيين نفسه . فان صدق هذا القول ولعلّ فيه شيئاً من الصحة أفليس لنا ان نقول عن القرى الموجودة في لبنان باسم « حثّا » او « كفرحاتا » انها آثار باقية من زمن الحثيين . بيد ان هذا القول ليس بقاطع لانه يمكن اشتقاق « حثّا » من لفظة سريانية « سبلا » التي معناها « الحديثة » او « الجديدة » ويؤيد ذلك ان قرى لبنانية عديدة تدعى ايضاً « حدّث » و « مُحدّثة » ونعدّ « حثّا » اقرب الى السريانية من سواها . ولسيادة المطران بطرس شبلي كلام حسن في هذا الشأن اثبتّه في المجلّة الكتابية (Revue

Biblique, 1901, p. 587)

ومن الاسماء البنائية الكثيرة الورود اسم « شعور » او « شاغور » كهين شاغور في حمّانا وغيرها . وكذلك « جسر الشجر » او « جسر الشعور » في ولاية حلب . وقد ثبت الآن ان شاغور كلمة حثية الاصل وهي فيها « ساغورة » (١)

هذه آثار جمعناها هنا للاستدلال على اقدم الشعوب البائدة في لبنان وهي كما ترى خفيفة الا ان املنا وطيد ان الاكتشافات المستقبلية سوف تطأنا على ما هو اقوى منها حجةً وادلّ بياناً والله على كل شيء عليهم

(١) راجع مقالة لحضرة الكاتب ا. شندا في مجلّة Mitheil, d. Vorderasiat. Gesell.,

٢ اليونان

انتفض جبل الحثيين في الشام (ولبنان معها) بتغلب الفراغة على سورية . ثم تبعهم ملوك اشور الكلدانيين وخلف الفرس الاشوريين . وكل هذه الدول بعد كسرتها تركت من آثارها شيئاً في بلادنا ولا بُدَّ ان يكون تخلف من تلك الامم بعض بقايا امتزجت باهل فينيقية امتزاج الماء بالراح حتى لم يُعد يمكن افراز هذه العناصر الغريبة عن الاهلين الاصليين . وكان لبنان في عهد كل هذه الدول قليل السكان للاسباب التي ذكرناها في مقالاتنا السابقة وان كان عدد المهاجرين اليه لم يزل يزداد يوماً فيوماً بتراحم السكان وحرارة الآكام الواقعة عند منعطف الجبل

ولما كانت او اواخر القرن الرابع (ق م) ظهر ذلك البطل الصنديد والملك العظيم اسكندر ذو القرنين المقدوني فكان اول ما تطلَّ اليه عنقه البلاد السورية وكان يملك عليها وقتئذٍ داريوس ملك الفرس فزحف اليها بمجنوده بعد ان غلب اعداءه في سهول قيايقية قريباً من مدينة ايسوس فما مرَّ عليه بضعة اشهر حتى فتح سواحل فينيقية وخضعت له دمشق ولم يقيم في وجهه الا صور فحاصرها مدة الى ان اخذها عنوة في تموز من سنة ٣٣٢

وكان في اثناء محاربة الاسكندر لصور قد اغتال بعض اجلاف اللبنانيين قوماً من اصحاب الملك فقتلواهم . فسار الاسكندر بقسم من عسكره الى لبنان فلم يلق في وجهه عدواً ثم وصل الى البقاع والجبل الشرقي فعاد بعد عشرة ايام غانماً ظافراً وما لبث ذو القرنين بعد فتح صور حتى اخضع بلاد فلسطين ومصر ثم سار الى

اقاصي المشرق ففتح ما فتح ومات بعد عشر سنوات في بابل سنة ٣٢٣ ق م فصارت سورية من بعده الى احد قواده سلوقوس نيقاطور فتحملها وألحق لبنان بها فدخل هذا الجبل تحت حكم السلوقيين الى ايام الرومان

وهنا مبحث مهم لم نكن نتعرض له لولا ان بعض المحدثين استندوا الى حجج

واهية ليؤيدوا زعمهم الباطل

ودونك القضية المطلوب يانها هل يا ترى لما استوى اليونان على جبل لبنان غلب العنصر اليوناني العنصر الفينيقي او الآرامي بحيث يصح القول ان اليونان من الامم التي استوطنت لبنان

نجيب على هذا القول بالاجمال أننا بيّنا غير مرة انّ العنصر المتغلب على سورّية في عهد اليونان كان العنصر الآرامي لا اليوناني (راجع المشرق ٣ : ٢٦٨) . فان صدق ذلك عن سورّية عموماً فهو اصدق واحقّ عن لبنان خصوصاً فلانّ آرامية سكّانه في ايام الدولة اليونانية اوضح من النهار

وكأني بالمعارض يستوقفني هنا ليردّ على هذا القول بدليلين على زعمه متعنين اولهما اسماء اعلام الامكنة وثانيهما الكتابات اليونانية في لبنان نجيب على الاعتراض الاول أننا اذا استثنينا بعض امكنة من سواحل فينيقية او من مستعمرات اليونان (راجع المشرق ٣ : ٢٧٠) لانكاد نجد اسم قرية في لبنان مشتقّ من اليونانية بل اكثر الاسماء ان لم نقل كلّها آرامي محض مع بعض اسماء عربية احدث عهداً وترى المعابد الكبرى نفسها كدير القلعة والمشقة التي فُقدت اسمائها الآرامية لانعرف لها اسماً يونانياً . وما لا مرأى به انّ المدن الساحلية التي صحّف اليونان اسماءها الآرامية عادت بعد حين الى اسمائها الاصلية

امّا الاعتراض الثاني المستند الى الكتابات اليونانية التي وُجدت في لبنان فانه يظهر لاوّل وهمة اقوى حجة وادلّ بياناً ولكن اذا سبرناه بعميار الانتقاد وجدناه واهناً كالاتراض السابق ولا يثبت البتّة زعم المحتجّ

لاننكر وجود الكتابات اليونانية في لبنان وقد اسعدنا الحظّ على اكتشاف كثير منها ابرزناها الى عالم الوجود في المجلات الاوربية . لكن مجرد وجود الكتابات اليونانية في محلّ ما لا يدلّ على كون اهل هذا المكان من اليونان . نرى اليوم في لبنان عدة كتابات تركية او فرنسية على بعض المباني المستحدثة فهل يستنتج احدٌ من هذه الحطوط انّ اهل لبنان من العنصر التركي او الفرنسي ؟ وكذلك في لبنان عاديّات وكتابات لاتينية كثيرة من عهد الرومان فمن يا ترى زعم لاجل ذلك انّ اهل لبنان كانوا رومانين . وغاية ما يُستدلّ من الامران الرومان ملكوا لبنان او انّ بعض أسرات منهم احتلتّ بعض انحاء الجبل لترويح النفس كما يفعل اليوم كثير من الاوربيين . فكذلك الكتابات اليونانية انما تدلّ على انّ اللغة الرسمية كانت في ذلك العهد لغة اليونان وانّ بعض وجهاء اللبنانيين جنحوا الى آداب اليونان ولقّمهم كما يتفرّج اليوم ابناء الوطن فلا يتكلّمون بغير اللغة الفرنسية ولا يكتبون الا بها

فدليل الكتابات وحده لا يجدي إذا نفعا لبيان عنصر أمة ما اللهم إلا بان يضاف الى ادلة أخرى تاريخية وضعيفة تزيد الشبهات. وقد لحظ ذلك احد علماء عصرنا وهو نلدكه الشهير (١) قال : « انه لا يجوز الاستناد على مجرد وجود كتابات في احدى اللغات او عدم وجودها للقول بان اهل ذلك البلد كانوا من ذلك العنصر او لا ». مثال ذلك مدينة بيروت التي لم يُلقَ فيها حتى الآن كتابة فينيقية أفيسوغ ان نقول انهما لم تكن فينيقية ؟ كلاً. وكذلك لبنان ساء من زعم ان اهله كانوا يونان او رومان لوجود كتابات قديمة فيه من عهد هاتين الدولتين

وعلاوة على ما تقدم أننا نرى الكتابات اليونانية المكتشفة في لبنان مشحونة بالاعلاط مشوهة بالتصحيفات غير تأمة المعاني وكل ذلك دليل على ان النساخ والحقارين كانوا يرسمون الالفاظ رسماً مادياً وهم لا يدركون معانيها (ج ١ ص ١٢٧)

وان قال قائل ان اعلام الاشخاص المرسومة على هذه الآثار يونانية اجنبا مع اكبر العلماء باحوال الروم وهو العلامة الشهير مومسن (Mommsen) في تاريخه (٢) : « ان اغلب هذه الاسماء ليست يونانية او ان كانت يونانية ترى معها الاسم الفينيقي او السامي الذي كان يُعرف به الشخص ». وفي هذا القول بيثة واضحة على ان اليونانية لم تكن سوى مسحة ظاهرة وزي خارجي تزيها به اهل لبنان حباً بالجاه وتشبهاً بتأدي ذلك العصر

ولعلّ المعارض يزيد على ما سبق اعتراضاً ثالثاً بقوله : « ان قيام معبودات اليونان مقام آلهة فينيقية والشام دليل على تغلب اليونان ». اجبنا ان هذا البرهان والحق على طرفي نقيض . فانه لا يوجد بلد حافظ اهلته على معبوداته القديمة مثل لبنان والشام فان الدين الآرامي والفينيقي صبر على كل التقلبات السياسية الى ان فلبتها النصرانية . وكل ما يمكننا ان نسلم به من هذا القبيل ان بعض اسماء الآلهة الفينيقية برزت على صورة يونانية في لفظها . وكذلك اطلق الكتبة اليونان واصحاب الامر على هذه

(١) راجع المجلة الاسيوية الالمانية 1885, p. 333 ZDMG,

(٢) راجع Roem. Geschichte, V, 453



الالهة اسما غريبة فدعوا هذا
« جوبتير » وذلك « ابولون »
اما الالهون فحافظوا على
اسماء آلهتهم بكل حرص حتى
ان المؤرخ مُنسين السالف
ذكره يُبين في تاريخه (ج ٣ ص
٤٥٢) ان اهل سورية لم
يختلطوا باليونان الا اختلاطاً
سطحياً واثبت ذلك بانهم
حافظوا على اديانهم الخصوصية
في حلب واقامية وحمص
وتدمر . وكذا قل عن دير
القلمة حيث شاعت عبادة بعل
مرقد . وهذا البعل كان
مشهوراً وقد ورد اسمه في
الكتابات اللاتينية على لفظ
« جوبتير » لا لكونه الها
رومانياً بل مراعاة للدولة
واستجلاباً خاطر اليونان
والرومان واستدراراً لعطاياهم
اذ كانوا يجفون اليه . ولعل
سدنة بعل مرقد سموه ايضاً
بهذا الاسم دلالة على
امانتهم للسلطة الرومانية
واعتمادهم بحبلها . ولذلك

تمثال المشتري (بعل) البعلبكي في دير القلمة

ترى بعل بعلبك و بعل دير القلعة مملّفين في الكتابات بالقاب جو بتير رومية العظمى المعروف « بجو بتير كايبتولان » فيُدعيان مثله بالاله الصالح الاعظم (Jupiter optimus maximus) وكذلك ترى إلهةً ساميةً مملّبةً باسم إلهة الرومان « جونون الملكة (١) » (Juno regina)

وقد رسمنا هنا صورة تمثال جو بتير بعلبك الذي اكتشفه حضرة الاب رنزفال في دير القلعة ترى كم يختلف الإله الفينيقي عن الإله الروماني في الصورة والهيئة (انظر الصورة في الصفحة السابقة)

وإذا عدلت الى هيكل افقا وجدت كذلك عبادة عشتاروت الفينيقية مستترة برداء الإلهة الزهرة اليونانية وان كانت كل واحدة مختلفة عن الاخرى . وذلك يظهر من شعارها الذي لا يشبه في شيء شعار إلهة اليونان

ومما قلناه عن العنصر الآرامي في لبنان يصح أيضاً عن لغتهم الدارجة فأنها كانت الآرامية . وهو رأي المؤرخ الشهير مُنسن اذ قال (ص ٤٥٢) : « اني اظن ان اللغة الآرامية كانت اللغة السائدة دون غيرها في لبنان على عهد قياصرة رومية » . وان نسب احد هذا الكتاب الى الغلو والمبالغة ورأى انه بنسخ حقوق اليونانية في الشام تصدى له احد ائمة العلماء البرزين وهو نلدك الالماني الذي ليس فقط يوافق وطنية مُنسن بل وجد انه مقصر في حقوق الآرامية وقد اتى مصداقاً لقوله بجمع تثبت شيوخ الآرامية بحيث لا يبقى بعدها ريب (٢)

ثم ولو سلمنا بان اللغة اليونانية طمست في لبنان آثار اللغة الآرامية فلا ينتج من ذلك ان اصل اللبنانيين يوناني . وليست اللهجة وحدها كافية لتعريف الاصل . وإنما ذلك دليل يقتضي تأييده بدلائل أخرى تجلي الحقيقة وتوضحها . فان التاريخ يبيّن بوجود امم عديدة تكلمت بلغة غير لغتها الاصلية . فان اللاتينية مثلاً درجت بين شعوب شتى لم يكن بينها ادنى علاقة . وقس عليها العربية وغيرها

وخلاصة القول ان العنصر اليوناني كان دائماً في لبنان عنصراً زهيداً لا يُعبأ به . ونستطيع القارئ عذراً على اننا اطلنا القول في هذه القضية التي لا يختلف فيها اثنان بين علماء العاديات

٣ الايطوريون

سبق لنا القول (ج ١ ص ١٤٤) ان الرومان لما فتحوا الشام وجدوا لبنان في حوزة قوم من الغزاة كانوا عثشوا في جباله الساحلية الممتدة من طرابلس الى جبيل . وهم الايطوريون

وايس هولاء القوم من لبنان وانما اصلهم من اللجا ومن جبال حوران وكانوا ذوي بأس وطمع فتحاملوا على الجبل الشرقي واتخذوا خيراته كطعمه ثم تشرفوا الى لبنان فاستولوا عليه قبل زمن الدولة الرومانية بقليل

والايطوريون احدى القبائل العربية او الارامية (١) التي كانت منذ ذلك العهد مدت ظل سطوتها على البلاد الواقعة في جنوبي دمشق وشرقيها . وكان شيخ القبيلة اوانشدر يدعى بطلميوس ابن منايوس من اعظم اهل سورية ثروة وقدرًا . وكان يحكم على بلد الايطوريين الاصلي (٢) ويتولى الجبل الشرقي وجهات البقاع الشمالية مع مدينتي بعلبك وكلسيس (Chalcis) وكان له عسكر من الفرسان عدده ٨٠٠٠ فارس

ولما زحف پمپيوس على لبنان وجد طرابلس وما يجاورها من لبنان الشمالي (٣) في قبضة احد الايطوريين من قرابة بطلميوس بن منايوس يدعى ديونيسيوس . فاضطر الرومان لتوطيد دعائم سطاتهم ان يجاروا هولاء الدخلاء حرباً عواناً كانت نتيجةها وبالأعلى اهل ايطورية فاسر پمپيوس قائدهم ديونيسيوس وأسر بقطع رأسه ثم توغل في لبنان فاخرب حصون جيفرتا وستان وبوروما (٤) وكان غزاة الايطوريين يقحمون من هذه المقامات المنيعه على المدن الساحلية فيوسعون اهلها نهباً وقتلاً . وقد حاولنا في مقالاتنا السابقة ان نبين مواقع هذه الحصون فلتراجع

(١) كل الاعلام الايطورية الاصل الواردة في الكتابات القديمة اما عربية واما آرامية . راجع مجموع الكتابات اللاتينية (CIL, III, n° 4371 etc.) راجع ايضاً تفاصيل اخبار الايطوريين في معجم الكتاب المقدس (Vigouroux: Dict. de la Bible, art. Iturée) (٢) ايطورية الاصلية توافق بلاد اللجا وجيدور الحالية . وقد ورد ذكر ايطورية في انجيل لوقا (١٠: ٣) (٣) اعني ما يشمل اليوم قائمقاميات الكورة والبترون وقسم من بلاد جبيل (٤) ان صح قولنا عن وقوع ستان وبوروما في كسروان فيكون ملك الايطوريين بلغ هذه المعاملة ايضاً

وقد حارب بيبسوس مدينة كلسيس الايطورية فدمرها . وكلسيس على الراي
الراجح هي مدينة عين جر التي تُرى اُخرُبُها في سهل البقاع . اماً قول البعض أنّها هي
زحلة فلا نصيب له من الصّحة كما سنبتنه في كلامنا عن هذه البلدة
وخلاصة القول أنّ الآثار تنبئنا بامتداد سلطة الايطوريين في قسم كبير من
لبنان الشمالي . ولما انتصر الرومان عليهم وفتحوا معاقلمهم تتأصّ ظلمهم وباد ذكرهم
من التاريخ ولا ريب أنّ بقاياهم امتزجت باهل لبنان
ومما يدلّ على وجود الايطوريين في لبنان ما وجدنا في الكتابات اليونانية من
الأعلام العربية لاسيّاً في رأس الشّمة وانحاء جليل
وليس الايطوريون القبيلة العربية الوحيدة التي دخلت في عداد اهل لبنان . بل
نجد قبائل غيرها توطّنت ذلك الجبل لاسيّاً التتوخيين (١) . وهذا الامر مهمّ لمعرفة
عناصر اهل لبنان نكتفي اليوم بالاشارة اليه فقط

٤ الرومانيون

استفدنا من الفصل السابق ان الجيوش الرومانية قهرت الايطوريين في لبنان
وكسرت شوكتهم . ولسائل ان يسألنا وهل احتلّ الرومان في لبنان فاستعمروه ؟ اليس
وجود الكتابات اللاتينية المتعددة في هذا الجبل دليلاً على سكنائهم فيه ؟ نقول انّ
جوابنا عن توطّن الرومان في لبنان كجوابنا عن اليونان وقد اثبتنا ان الكتابات اليونانية
وحدها لا تدلّ على أنّ اليونان استخاروا لبنان لسكنائهم . فكذا قلّ عن الرومان فان
الكتابات اللاتينية تشير الى تملكهم على الجبل وتدلّ على انّ اللغة اللاتينية اضحت
اللغة الرسمية في بلاد الشام في القرن الأوّل السابق لهمد المسيح والقرنين التابعين له
هذا ولا ننكر انّ بعض الرومان وخصوصاً اصحاب مستعمرتي بيروت وبلبيك
الرومانيين كانوا يملكون في لبنان اقطاعات كثيرة من جملتها املاك الايطوريين لكنّ
الرومان في الغالب لم يتولّوا بانفسهم زراعة هذه الاملاك وانما كانوا يهدون امرها الى

(١) جاء في كتاب البلدان للياقوتي أنّ لبنان المجاور لصيداء كان يسكنه قوم من
قريش ومن اهل اليمن (راجع المجلّة اللاتينية الفلسطينية 87, ZDPV, IV)

شركاء وطنيين يقومون بشؤونها ويستثمرونها باسمهم . وان وُجد منهم احد في لبنان فالصواب ان يقال أنهم كانوا نفرًا قليلاً . ومن ثمة لا يجوز ان ننظم الرومانيين بين الشعوب اللبنانية القديمة

• المردة

في يهرة القرن السابع اعني سنة ٦٧٧ م يذكر مؤرخو اليونان لأول مرة قومًا يجملون سكانهم في جبال الشام من جبل اللكّام شمالاً الى حدود فلسطين جنوباً وهم يدعونهم مردائين ويعرفهم المحدثون باسم المردة . ومن غريب امر هذا الشعب انه لم يبدُ في بادئ ذي بدء ضعيفاً ضئيلاً بل نراه جاثماً فوق مشارف لبنان ضابطاً مضائقه شاغلاً كل تقطه الحصينة على مدى طولهِ من الشمال الى الجنوب وليس من يقوم في وجهه بل كثيراً ما ينقضُ من مراكزه الحريزة فيغزو المعاملات القريبة منه دون ان يردّ احد هجماته . ولم يزل امر هؤلاء المردة في اشتداد حتى صار كلُّ الملهوفين والمطرودين من اهل الوطن واصحاب الفاقة يلتجئون اليهم ويأوذون بحمايتهم ويزيدونهم عدداً وقوةً . ولا غرو انهم لو ثبتوا مدّة على ذلك لآتوا بالاعمال الخطيرة لولا ان مارك الروم الذين كان المردة يخضعون لهم امرهم بالخروج من لبنان بعد ظهورهم فيه ببضع سنين فاندثر امرهم على فور كما ظهروا بغتة دون ان يبقوا في لبنان اثرًا من مرورهم (١)

فن ذا تُرى هذا الشعب ؟ كيف ظهر فجأة دون ان يذكر احد وجوده في بلاد الشام ولبنان سابقاً ؟ أُلّي خرج ؟ هذه اسئلة اقترحها قبلنا العلماء وحاولوا حل عقدها . ومما يدلّ على ان الامر ملتبس عويص ان العلماء ذهبوا في ذلك مذاهب شتى ندونها هنا دون ان نبدي فيها رأياً تاركين لقرائنا ان يصوبوا الرأي الذي يرونه اصحّ واثبت ولا بُدّ قبل بسط هذه الآراء المتباينة ان نروي اقوال الكتّبة الأولين الذين ذكروا المردة مباشرة لأنّ اقوالهم من شأنها ان تعرف هذه الطائفة وتبين خواصها

(١) زعم ريسان في كتاب بعثة فينيقية انّ قلعة سسر جبيل من آثار المردة في لبنان وهو قول بلا دليل عودنا على مثله هذا الكاتب الذي يتخذ مخبئته حجةً لمزاعمه . وقد بينا غير مرة انه كثيراً ما يرمي الكلام على مواهبه ولا يسنده الى الادلّة

يؤخذ من اقدم ما ورد عن المرَدّة ان لبنان لم يكن مركزهم الأول. قال المؤرخ تاوفانوس عنهم (١) : « ان المرَدّة دخلوا لبنان » . (εἰσῆλθον εἰς τὸν Λίβανον)
وفي هذا القول ما لا شبهة فيه عن مجيئهم الى لبنان من محل آخر. ثم اردف تاوفانوس قائلاً : « والتجأ اليهم الوطنيون » وفي هذا دليل على ان المرَدّة لم يكونوا من اهل لبنان بل غرباً عنه . أما عددهم فكان وافرأ يبلغ « اثني عشر الف رجل » شك السلاح دون النساء والاطفال . وبما يدل على بطشهم انهم في مدّة اقل من نصف قرن ملأوا القلوب رعباً بغزواتهم المتواصلة

والمؤرخون اذا اشاروا الى المرَدّة دعوهم بلفظة عسكرية وهي τάγμα يراد بها فرقة من الجند او الطابور . واسمهم هذا دليل على انهم لم يكونوا شعباً ككبتية الشعوب بل كانوا على هيئة عسكرية ونظام حربي يفلحون الارض وقت السلم وهم على أهبة لمباشرة الحرب في أية ساعة كانت . ولنا مثل على هذا التنظيم في أمة الكرواتيين التي كانت في القرن الثامن عشر تحافظ على حدود النمسا في جنوبيها . وكان للرومان ايضاً فئات عسكرية من هذا الصنف كانوا يقيمونها عند ثغور مملكتهم فيدعونهم لاجل ذلك بالفتات الحدودية (limitanei) اعني انهم يذبون عن الحدود ويدفعون عنها الاعداء . وكان اولادهم يرثون تلك الاملاك من بعدهم ويجرون مجراهم في الدفاع عن ثغور الدولة . وكان الرومان يختارون لمثل هذا المشروع قدماء الجند المحنكين في آداب الحروب ثم وكلوا ذلك بعدئذ الى بعض اهل البلاد المجاورة لحدود المملكة (٢)

وان سألت عن الدولة التي كان المرَدّة يخدمونها اجبتك انهم كانوا تحت حكم ملوك الروم فهم الذين تقدموا اليهم بالمداخلة عن الثغور الشامية وهم الذين صرفوهم عنها واتزلوهم في نواحي آسية الصغرى كما سيأتي
فهذه الافادات عن المرَدّة لا ريب يقر بصحّتها كلّ المحدثين لانها وردت في

(١) راجع تاريخه في مجموع الآباء اليونان المجلد ١٠٨ ، (PG. T. 108, p. 722, 733, 737)
والترجمة اللاتينية هنا لا تزودي المعنى تماماً فقد ترجم « aggressi sunt » اي « هجموا » بدلاً من « ingressi sunt » اي « دخلوا » (٢) راجع معجم العاديات اليونانية والرومانية Saglio et Darenberg : *Dict. des antiquités grecques et latines*, I, 1374

تواريخ مشاهير الكتبة الذين عرفوا هؤلاء القوم ووصفوا احوالهم
 ولكن هنا مسألة أخرى لا يتفق فيها ارباب العلم زيد اصل المردة وجنسيّتهم .
 فقد ارتأى بعض الائمة ومنهم العلامة السمعاني والحاقلاني ومرهج بن غرون والدويهي
 ومن تبعهم من علماء الموارنة وبعض الكتبة الاوريين كبارونيوس ولوكيان وغيرهما ان
 المردة هم الموارنة . واقوى حججهم لبيان ذلك ان المردة كانوا قوماً من النصارى
 يسكنون لبنان ولا تعرف في القرن السابع شعباً يدين بالنصرانية ويسكن لبنان غير
 الموارنة . وان اعترض معترض على اصحاب هذا الرأي بقوله ان المردة كانوا فرقةً جنديةً
 موفدة من مسلك القسطنطينية الى بلاد الشام انكروا الامر قائلين لو كان المردة
 طائفةً من الجند لحجوا من لبنان بعد انعقاد الصلح والامر ليس كذلك فان المؤرخين
 يذكرون انهم داوموا غزواتهم بعد الصلح الذي عقده يستينان الثاني وانهم لم يكفوا
 عن عاداتهم حتى ابرم هذا الملك معاهدةً ثانيةً وارسل الى المردة عصابةً تصرفهم من
 لبنان بالوعد والوعيد الى بلاد الارمن حيث كان الملك وقتئذٍ (١) . فهذا الاحتجاج لا
 يخلو من القوة وهو يبيّن ما في هذا البحث من العضلات

اماً اصحاب الرأي الآخر فينكرون توحيد المردة والموارنة ويسندون رأيهم الى
 كون المردة ليسوا وطنيين كالموارنة بل غرباء عن لبنان اتوه من الخارج كما سبق القول
 ثم استولوا عليه فحصره في وجه العدو مدةً الى ان برحوه بعد زمن قليل
 ومثلاً يدعهم به هؤلاء رأيهم في اختلاف المردة عن الموارنة ان المردة كانوا خاضعين
 للملك الروم . قال ابن العبري في تاريخه السرياني (ص ١١٥) : « ان المردة جنودٌ
 للملك قسطنطين اللحياني ارسلهم الى الشام للمدافعة عنها » . وكل هذا لا يوافق
 الموارنة الذين خلعوا عنهم ربةً ملوك الروم كما يظهر من تواريخهم ومن تصرفهم مع
 ملوك بوزنطية والملكيين انصارها

ويزيد اصحاب هذا المذهب الثاني ان كلام تاوفانوس وقديريوس (Cedrenus)
 وغيرهما ممّا ينفي عن المردة اصلهم اللبناني . والمردة على قولهم كانوا قبل دخولهم في لبنان
 يقطنون بلاد الارمن وولايات آسية الصغرى واليهما رجعوا بعد غزواتهم في لبنان . وقد

(١) راجع ردود الثلث الرحمت المطران يوسف الدبس على الاب الصعودي قاله (ص ٤)
 ورسالته اليان في المشرق (٥ [١٩٠٢] : ٩١٤)

كتب احد علماء الفرنج اسمه انكتيل دويارون (Anquetil-Duperron) مقالتين مطولتين في مجلّة الكتابات والفنون ليثبت ان المرّدة من الشعوب التي كانت قبل المسيح وانهم هاجروا الى بلاد عديدة في مرّ الاجيال ومنهم مرّدة لبنان ومن ثمّ ليسوا بالموارنة (١)

وان سألت الذاهبين الى هذا القول : وما هي على رأيهم جنسيّة المرّدة . اجابك بعضهم أنّهم اصلاً قبيلة ايرانيّة دخل فيها اخلاطٌ من عناصر سوريّة وارمنيّة (٢) والاب مرتين في كتابه المخطوط « تاريخ لبنان » يقول انّ المرّدة من العرب وهو يشتقّ اسمهم من « التمرد » . وهذا رأي ضعيف لان المرّدة لم يأتوا من جزيرة العرب ولا من جهة الشرق وانما دخلوا لبنان قادمين من الشمال . وهذا مما يرجح رأي القائلين بان المرّدة اتوا لبنان من جهة آسية الصغرى . ثمّ لم يُفدنا احد من المؤرخين عن دخول العرب الى لبنان في القرن السابع . وان قال القائل انّ هؤلاء كانوا من نصارى غسان من الذين استعان بهم ملوك الروم اجبنا ان الغسانيين لم يخدموا واثنذر ملوك القسطنطينيّة خدمة تُذكر بل لم يلبثوا ان انحازوا الى العرب مواطنيهم وكلّ ذلك يخالف ما جاء عن المرّدة في كتب المؤرخين . وعلاوة على ذلك انّ الغسانيين كانوا من اليعاقبة وفي عهد المرّدة كان ملوك الروم يطاردون هذه الشيعة ولم يكن المرّدة من قبيلة عربيّة أخرى لانّ العرب كانوا في ذلك العهد من ألدّ اعداء الروم فليس المرّدة اذن عرباً هذا ومن المقرّر الثابت انّ ظهور الموارنة كأمة مستقلة قد اتفق مع عهد حروب المرّدة في لبنان . وان لم يسلم القرّاء بان الموارنة هم المرّدة فأنه لا سبيل الى النكران بانّه وجدت بين الفئتين علاقات وديّة . ومما يتّضح ايضاً من تاريخ ذلك العصر انّ الموارنة عند خروج المرّدة من لبنان لم يتبعوهم في مهاجرتهم الى آسية الصغرى بل ثبت معظمهم في جبالهم

أمّا المرّدة فاجعلوا بعد عودتهم سكناهم في وطنهم القديم بلاد الارمن . وزى منهم من قطن في جوار اضالية . ورحل قسم منهم الى جزيرة قبرس واحتلّ غيرهم بلاد اليونان

(١) راجع Anquetil - Duperron : *Mémoires sur les migrations des Mardes*

Mém. Acad. Inscr., T. XLV, 87 et L. 1 et seqq.

(٢) راجع تاريخ دولة الروم p. 213 Rambaud : *L'Empire Grec au X^e Siècle*,

ومودة ونواحيها . ولم يزالوا في كل هذه البلاد على نظامهم العسكري وكان لهم ضباط يدعونهم كاتيبانو (κατεπάνω) . هذه خلاصة ما ورد في امر المرادة ومن استراد امكته ان يراجع ما كتبه عنهم قدرينوس (ك ١ ص ٧٦٥ و ٧٧١ طبعة بون) وزوناراس في مجموع اعمال الآباء اليونانيين (ج ١٣٤ ص ١٢٩٧) وتاريخ قبرس (ج ١ ص ١٠٦) للعلامة ماس لاتري (Mas-Latrie) والسبعاني في المكتبة الشرقية ومجلة اصدااء الشرق (١٩٠١ ص ١٥٦) وساخاس (Sachas : Μεσαιωνική βιβλιοθήκη, II, 45 seqq.)

٦ الجراحة

قد رأى القراء ما في مسألة المرادة من العضلات التي لم يحلمها حتى الان فطاحل العلماء (راجع الصفحة ٤١ والمشرق ٥ : ٩١٤) على ان هذا المطلب يقودنا الى بحث آخر له معه بعض العلاقة نعني بذلك امّة الجراحة

يفيدنا التاريخ ان في القرن التاسع قبل الميلاد كانت في شمالي غربي سورية مملكة صغرى تدعى جرجومة عاصمتها مرعش . والمرجح ان هذه الدولة أنشئت من بقايا دولة الحثيين البائدة (راجع ص ٢٩ من هذا الجزء) . خلقتها في ولاية قسم من بلادها في زمن لا يمكن تعريفه بالتدقيق . بيد اننا نعلم ان اهل هذه المملكة لم يكونوا من عنصر آرامي لان دولة الآراميين لم تمتد الى تلك الجهات على الاقل في الجيل المذكور . واسم الجراحة وارد في الكتابات الاشورية التي تفيض في احوال هذا الشعب والتقلبات التي طرأت عليه . ولا نجد بعد الآثار البابلية ذكراً للجراحة الى عهد المردة في لبنان اعني القرن السابع للمسيح

قال البلاذري في كتاب فتوح البلدان (ص ١٥٩ - ١٦٣) في مطاري كلامه عن فتح العرب لبلاد الشام : « ان الجراحة من مدينة على جبل اللكّام عند معدن الزاج فيما بين بيّاس وبوقا (١) يقال لها الجرجومة * فيظهر من هذا القول ان الجراحة لم يلبثوا ساكنين في المكان الذي اشارت اليه كتابات الاشوريين قبل خمسة عشر قرناً الا انهم كانوا منحصرين في قسم من اللكّام (ألاً داغ) بين مدينة بيّاس الساحلية ونهر قراؤسو . وكانت مدينتهم الكبرى التي منها اتخذوا اسمهم لا تزال تدعى جرجومة

(١) لم نجد في كتب البلدان الجغرافيّ العربي ما يعرفنا بموقع بوقا ، الا كوخا من عمل انطاكية

ثم يذكر البلاذري تاريخ الجراجمة على ما لوف عادتِه في ذكر غيرهم من الشعوب القديمة فترى في كلامه بعض الابهام لانه يروي في حقهم الروايات المختلفة التي جمعها دون ان يكده ذهنه في ثبات صحتها او التوفيق بينها . الا ان الذي يترى في كلامه ويقابل بين هذه الروايات الشئ يأخذه الاندهال لما يجد بين اخبار الجراجمة والمردة من التشابه . فان ما ذكره المؤرخون اليونان عن قدوم المردة من شمالي سورية الى جنوبها وعن احتلالهم جبل لبنان وسكونهم في جوار حمص وبعلبك ودمشق قد رواه البلاذري عن الجراجمة على عهد الخليفة الاموي عبد الملك وهو على وشك السير الى بلاد العراق . ثم اردف البلاذري قوله بقوله : « وضوت اليها (اي الروم) جماعة كثيرة من الجراجمة وانباط وعبيد اباق من عبيد المسلمين » . وهو كلام ينطبق على قول المؤرخ تاوفان في المردة كان المؤرخين اليوناني والعربي سندا قولهما الى رواية واحدة لا تكاد تختلف حتى في اللفظ

ثم ينتهي امر الجراجمة في تاريخ البلاذري كما ينتهي امر المردة في تاريخ تاوفان اعني بعقد معاهدة بين الخليفة الاموي وملك الروم . وكان من نتيجة ابرام الصلح كما روى البلاذري (ص ٢٦٠) أن « تفرقت الجراجمة بقرى حمص ودمشق ورجع اكثرهم الى مدينتهم اللكّام » وهي ايضا رواية شبيهة برواية تاوفان عن تفرقت المردة ورجوعهم الى وطنهم . اما مدينة جرجومة فيخرت بعد ذلك بزمن قليل

ومما روى ايضا البلاذري (ص ١٦١) في تاريخ سنة ٨٩ هـ (٧٠٨ م) ان « الوليد بن عبد الملك وجه الى الجراجمة مسلمة بن عبد الملك فافتتح مدينتهم على ان يزلوا بحيث احبوا من الشام وعلى ان لا يكرهوا على ترك النصرانية ولا يؤخذ منهم جزية . . . اما بطريقهم فنزل في جماعة معه انطاكية ثم هرب الى بلاد الروم » . وجاء في فتوح البلدان ايضا ان الخلفاء اجروا الارزاق على هؤلاء الجراجمة واستعانوا بهم في حروبهم (١ وما ذلك الا لان موقع بلادهم كان في جبال ومضايق تجري فيها صوائف العرب عند نفوذهم في بلاد الروم . وكل هذه التفاصيل التي ذكرها البلاذري لا نكاد نجد لها اثرًا في كتبة العرب اللهم الا ياقوت في كتاب معجم البلدان في مادة « جرجومة »

وهو ينقل هناك شيئاً مما اثبتهُ البلاذري . ويظهر من كلام ياقوت ان الجراجمة في زمانهِ كانوا امتزجوا بغيرهم من الملل وان جرجومة عاصمتهم لم تزل خراباً . وفي تاريخ حمزة الاصفهاني (ص ٣٩) ورد ذكر « من بالشام وفلسطين من الجراممة (١) والجراجمة » ولا بُدَّ ان يسألنا القارئ هنا عن رأينا في الجراجمة أيكونون من المرّدة او يمتازون عنهم . (قلنا) انّ ما يوجد من الاتفاق بين احوال المرّدة وامور الجراجمة من حيث موقع بلاد الفريقين وبساتنها في الحروب وتواريخها يحملنا على ان نطابق بينهما . ولا غرو فانّ اعظم المستشرقين في المانية وهو العلامة نُلدِك (Noeldeke) يؤكد لنا ان العرب في تواريخهم يدعون المرّدة باسم الجراجمة وانّ كليهما امّة واحدة (٢) ونحن ايضاً نصادق على كلام هذا الكاتب الثقة بعد التروي في ما كتب بهذا الصدّد وان كنا نجد في اقوال البلاذري بعض الاشكال الا انّ ذلك من الامور العرضيّة دون الاصلية

فان صحّ هذا القول نتجت عنه نتائج في امر المرّدة لم ينتبه اليها الكتبة الاقدمون منها ان هؤلاء القوم لم يكونوا من اهل لبنان الاصيلين بل قدموا اليها من شمالي سورية اذ انّ الجراجمة على قول البلاذري كانوا يسكنون جبل اللّكّام الذي يختلف عن لبنان . ومثلاً ثبت انّ هؤلاء الجراجمة لم يكونوا آراميين اي من اهل سورية الاصيلين انّ البلاذري يذكر في جملة من انضوى اليهم الانباط وهو الاسم الذي يدلُّ به كتبة العرب على العنصر الآرامي (٣) . وكذلك اذا فحصنا عن الامر على حسب قوانين علم الجغرافية وعلم اصول الشعوب وجدنا انّ الجراجمة ينتمون الى آسية الصغرى ولذلك نراهم يرحلون بعدئذ الى بلاد الروم ويسكنون قبليقية لقرب موطنهم

(١) الجراممة قوم من انباط او آرامي العراق وقد ارتأى نُلدِك اللاماني الشهير ان كتبة العرب لم يفرقوا بين الجراجمة والجراممة والصواب انّ الجراممة غير الجراجمة . وعندنا ان فرقة من الجراممة استوطنوا الشام كما يظهر من تاريخ حمزة (ص ٣٥ و ٣٩) وياقوت (١ : ٢٦) وكلاهما يذكر « جراممة الشام » ولعلّ « جبلي جرمق » في جنوبي لبنان وبلاد بشارة نُسبا اليهم

(٢) راجع المجلة الاسيوية الالمانية ZDMG, 1875, p. 85 . وقال نُلدِك في ذيل تلك الصفحة « ان العلماء لم يثبتوا حتى الان وحدة المرّدة والموارنة »

(٣) راجع المجلة الاسيوية الالمانية ZDMG, 1871 p. 124-125

منها . وفي فتوح البلدان للبلاذري انهم احتلوا جبل الحوَّار وهو من اعمال قبايقية كما نَبه اليه ياقوت في المادة

ومما يستفاد ايضاً من كلام البلاذري امرٌ آخر ذوبال وهوان قسماً من الجراجمة كانوا ضربوا اطنابهم في لبنان قال في اثناء كلامه عن الجراجمة (ص ١٦٢) : « خرج مجبل لبنان قومٌ شكوا عامل خراج بعلبك فوجه صالح بن علي بن عبدالله بن العباس من قتل مقاتلتهم واقرب من بقي منهم على دينهم وردَّهم الى تراهم واجلي قوماً من اهل لبنان » . وهذا دليل واضح ان قوماً من الجراجمة كانوا قبل هذا العهد في لبنان وليس هذا حدثاً على سبيل التخمين بل امرٌ راهن يثبتهُ المؤلّف نفسه في كلامه عن ميسون الرومي المعروف بالجرجماني الذي كان مولى لبني امّ الحكم اخت معاوية ابن ابي سفيان قال (ص ١٦٠ و ١٦١) : « وانما نُسب الى الجراجمة لاختلاطهم بهم وخروجهم مجبل لبنان معهم » . فكان اذن في لبنان قومٌ من الجراجمة وهذا ما اردنا بيانه

فترى من مجئنا هذا الحاضر ما يؤيد قولنا السابق في ان المردة والموارنة ان لم يكونوا شعباً واحداً قد كانت على الاقل بينهم علاقات متينة . وكذا قل عن الجراجمة ولذلك افردنا لهم فصلاً ونظمتناهم في سلك الامم التي سكنت لبنان . وسنبين قريباً ان هذه الامم كلها امتزجت بعد قليل امتزاج الماء بالراح

٧ العجم

جاء في كتاب البلدان لاحمد بن ابي يعقوب يعقوبي (١) ان الخليفة معاوية لما فتح بلاد الشام وجد مدينتها الساحلية فارغة من السكان فاستقدم قوماً من العجم ليتخذوها لهم سكناً . وقد ذكر ذلك عن طرابلس وجبيل وبيروت وصيداء . بل خصص بذلك ايضاً بعلبك وعرة في بلاد عكار . فصارت كل النواحي المحيطة بلبنان في يد العجم بل اضحى قسمٌ من لبنان في حوزتهم وهي الايلات القريبة من المدن المذكورة كما يصرح يعقوبي بهذا الامر

فقول يعقوبي السابق ذكره يضطرنا الى ان نجعل العجم بين الشعوب البائدة من لبنان التي بقيت منها فيه بعض بقايا امتزجت باهلها . وشهادة يعقوبي المذكور لم نجد

لها ما يؤيدها في سائر التواريخ واصف البلدان (١) ألا انها تستحق الاعتبار وتستوقف الانظار. كيف لا وهي لكاتب من اقدم كتبة العرب عاش في القرن الثالث للهجرة وهو من المشاهير الموثوق بكلامهم وصف في تأليفه احداثاً قريبة من زمانه وما يحملنا على تصديق قول اليعقوبي أننا نجد في لبنان قوماً من الشيعة كالتواولة والنصيريين توطنوا الجبل وبسطوا عليه سطوتهم وخالقوا فيه آثاراً تنبئ بصحة ما سطره المؤرخ الموما إليه . ومن جملة هذه الآثار ما نراه في بعض اهل لبنان من هيئة الجسم وتقاطيع الوجه وسحنة البشرة التي يعرف بها العجم وقد وردت أيضاً في القرن العاشر شهادة اخرى تؤكد قول اليعقوبي وهي في كتاب رحلة احد الاعجام الى بلاد الشام وجزيرة العرب وهو نصري خسرو الذي نشر كتابه العلامة شمل شيفر الشهير. ومما قاله صاحب هذا الكتاب (ص ١٠٠) ان « اهل طرابلس كلهم من الشيعة » وكذا قال عن صور ولا نشك انه يريد ابناء هؤلاء الاعجام الذين استقدمهم معاوية لسكنى بلاد الشام ولم يعد الكتبة بعد هذا العهد يذكرون العجم وعندنا ان امرهم ضعف بعدئذ لا حدث في بلاد الشام من الحروب في القرن الثاني عشر فانتفض امرهم واختلطوا باهل لبنان . ومنهم النصيرية والمتواولة الذين ظهروا بعدئذ.

٦

انتشار الأمة المارونية في لبنان

للأمة المارونية في لبنان مقام ممتاز لتوفر عددها فيه ولما بينها وبين هذا الجبل من العلاقات التاريخية المتواصلة حتى جاز لها ان تعتبر لبنان كوطنها الخاص . ومن ثم لا يسمنا ان نصرنا عنها النظر في غضون تسريح ابصارنا في آثار لبنان وليس كلامنا في الأمة المارونية تاريخياً اذ لم نتوخ في مقالاتنا تاريخ الجبل بل آثاره ولا سيما ان تاريخ هذه الطائفة قد شاع اليوم فلا حاجة الى اعادة ما يعرفه القراء (٢) وعليه فنقتصر في هذا الباب على ما يختص بنشوء الطائفة وانتشارها في لبنان

(١) الآ ابن رسته والبلاذري

(٢) راجع تاريخ الطائفة المارونية للدويجي الذي نشره الاستاذ المرحوم رشيد الشرتوني

فُتحت بهذه الدروس الخاصّة الموادّ لتاريخ اعمّ واكمل . وفي الفصول السابقة توطئة لهذا الباب وفيها ذكرنا الشعوب الذين جعلوا قبل الموارنة سكنناهم في لبنان . ومنهم من خاف فيه شعباً من عنصره كالردة والجراجمة بقي منهم فئات في القسم الثاني من القرن السابع الذي نخصّه الآن بالبحث

وكان الموارنة في ذلك العهد عبارة عن مجموع زمر آرامية لم يمسها العنصر اليوناني وقدّنه تقيم خصوصاً على مقربة من أفامية في جهات دير مار مارون ومنه اتخذوا اسمهم . ومن ثمّ انتشروا في وادي العاصي وخصوصاً في معرّة النعمان وفي شيزر وحماة وحمص كما يظهر من نصّ للمسعودي ورد في كتابه المعنون بالتنبية والاشراف ألمعنا اليه غير مرّة واذا راجعنا اقاويل قدماء المؤرخين كابن العبري في تاريخه الكنسي السرياني (١) وابن بطريق (٢) وغيرهما وجدنا الموارنة في مقامات أخرى اقرب الى الشمال كمنبج وقنسرين والناحية المعروفة بالعوام . ومن المحتمل ايضاً انهم كانوا في انطاكية وجوارها لان انطاكية تعدّ كحاضرة هذه الناحية وفيها تدخل مدينة قورس المتكرّر ذكرها في ترجمة القديس مارون لتاودوريطس اسقف هذه المدينة (٣) . وكتبة الموارنة يوافقون على انتشار طائفتهم في تلك الانحاء وشهادتهم في ذلك صحيحة مستندة الى نصوص وضعية لا تُنكر . ونحن اولّ من يرضى بمثل هذه الشهادات المؤيّد بالبرهان وان سأل سائل هل يُعرف عدد هذه العشائر المارونية المستعمرة في سورية الشماليّة وسورية الوسطى . اجبتا انه ليس في وسعنا ان نعيّن ذلك بالتدقيق نكتة يؤخذ من نبذة سريانية تاريخية اوردها المشرق في سنته الثانية (ص ٢٦٧) نقلًا عن المجلة الاسيوية الالمانية (ZDMG, 1875) ان هذا اللفّ كان ذا عدد وافر اذ حضر بصفة

(١) الجزء الاول منه (ص ٢٧٠ - ٢٧٤)

(٢) راجع تاريخه في مجموع الآباء اليونان (ج ١١١ ص ١٠٧٧ و ١٠٧٨) ومنه في مكتبنا الشرقية نسخة خطية قديمة ويزعم ابن بطريق انه دخل بين الموارنة قوم من الروم لعاه يريد الآراميين المتجنسين بالجنسية اليونانية كما كان منهم كثير في سورية . وان صحّ قوله كان له شأن لتقرير العناصر السورية وغيرها

(٣) راجع كتاب البلدان لابن رسته (ص ١٠٧) وفتوح البلدان للبلاذري وكتاب التنبية للمسعودي وغيرهم من كتبة العرب . وقد تبناهم في كتابة اسم قورس بالسين بدلاً من قورش بالسين وفقاً للفظ الآرامي

فرقة دينيّة امام الخليفة معاوية فجرى بينها وبين اليعاقبة جدال كانت فيه الدولة على اليعاقبة . وكان اصحاب هذه البدعة جبلاً كبيراً في ذلك العهد فلولا ان الموارنة كانوا على نوع ما يعادلونهم عدداً لما حكمهم لهم الخليفة على اخصامهم وكان دخول الموارنة الى لبنان على رأينا في القسم الثاني من القرن السابع هاجروا الى الجبل من وادي العاصي . وكأني هنا بالقارى يتعرّض لي فيقول : مالك تذكر مهاجرة الموارنة الى لبنان أليس أصحّ ان يقال ان سكّان لبنان الاصليين هم الموارنة . فالجواب على ان مبادئ تاريخ الموارنة الديني تشير صريحاً الى كون هذه الطائفة كانت اولاً خارجاً عن لبنان . ومن المعلوم انها تنتسب الى القديس مارون وقد عاش القديس مارون في شمالي سورية في البلاد الواقعة بين انطاكية وقورس ثم تراها مواصلة سيرها في وادي العاصي في زمن لم نسمع لها بذكر في لبنان . ثم بعد ذلك بمدة نجد الموارنة يتوقّفون في هذا الجبل مهاجرين اليه من الشمال ونواحي سورية المتوسطة . فلا بُدّ اذن من التسليم بتنشّل الامة . وفي تاريخ تاوفانوس كما في فتوحات البلاذري اشارة الى هذه المهاجرة كما سنبين آنفاً

ولكن ترى ماذا حمل الموارنة الى مبارحة وادي العاصي واستبدال مقاماتهم فيه ليسكنوا لبنان نجيب ان الرأي عندنا انهم عدلوا الى لبنان تمّصاً من اضطهادات مجاريهم نخصّ منهم بالذكر اليعاقبة اعداءهم . وكان اليعاقبة في ذلك الوقت اصحاب بطش وسطوة لهم في افامية ونواحيها الكعب الاعلى . وكان لهم قريباً من افامية دير عظيم على اسم ماري بأسوس (١) بلغ عدد رهبانه ٦٣٠٠ . ولما كان الفريقان على طرفي نقيض فُضي على الموارنة المهاجرة

وقد بيناً ما كان بين الأمتين من العداوة . ولنا على ذلك برهان آخر اقدم عهداً ارد في تاريخ الكنيسة لابن العبري (المجلد الاول ص ٢٧٠-٢٧٤) قال ان في عهد الملك هرقل حدث بين رهبان مار مارون واليعاقبة مشاحنات (٢) فانتزع الاؤلون من ايدي

(١) راجع مقالة الاب شابو في مار باسوس L'abbé Chabot: *La légende de Mar*

Bassus et de son couvent à Apamée, p. 55, 60, 63.

(٢) ان في هذه المناظرات بين الموارنة واليعاقبة دليلاً واضحاً على بطلان مزاعم بعض

الكتبة الذين نسبوا للموارنة اهلليل يعقوب البرادعي في طبعتي المسيح

اليعاقة كئناسهم برضى ماوك البسطنطينية فحاول اليعاقة استرجاعها في ايام معاوية فلم ينالوا بالمرغوب . ولا غرو ان اليعاقة كانوا يتربصون الفرصة ليزاحموا الموارنة شيئاً فشيئاً ويضطروهم الى ان يخرجوا من اماكنهم فطلب الموارنة لهم ملاجئ حريزة يحصلون فيها على الدعة والسكينة . واهل خراب دير مار مارون حدث في ذلك العهد وكان بعض اليعاقة سبباً لحرايبه

بيد ان هذه المهاجرة لم تكن دفعة واحدة وانما حدثت في ازمنة متوالية فكان المهاجرون ينتقلون الى لبنان زرافات زرافات . وفي عهد المسعودي اي في القرن العاشر نجد منهم بقايا في وادي العاصي خارجاً عن لبنان . اما دخولهم في هذا الجبل فكان في وقت المردة والجراجمة وفيهم يصح خصوصاً قول تاوفانس « ان كثيرين من اهل البلاد احتسوا في ذراهم (اي المردة) » وقول البلاذري في فتوح البلدان (١) « ان جماعة كثيرة من الجراجمة والانباط والبيد الاباق ضروا الى الروم » اراد بذلك الموارنة فدعاهم باسم الانباط دلالة على اصلهم الآرامي

وكان دخول الموارنة الى لبنان من الشمال اعني انهم تبطنوا وادي الأرنط فاجتازوا افامية وحماة وحمص الى ان قرّ قرارهم في الجبل . فسكنوا اولاً جهات الشمالية ثم تقدّموا الى اواسطه ثم بلغوا جنوبه . هذا ما يمكن استخلاصه من النصوص التاريخية التي ورد فيها ذكر انتشار الموارنة في لبنان

وقد بينّا في مقالتنا عن سكنى لبنان في قديم الزمان (راجع الصفحة ٢٣) ان مشارف الجبل والجهات المعروفة بالجرد بقيت الى القرن السابع قليلة السكّان كثيرة الغابات . أمّا « الوسوط » فكانت مأهولة وان كان اهلها اقل عدداً من الارياف والسواحل . فلا مرأ ان الموارنة سكنوا اعالي لبنان لخلوها من السكّان . واحتلّوا اولاً اودية الجبة اعني مقاطعات اهدن وبشري وحدث واهلهم لقوا هناك بعض الدساكر التي كانت سبقت عهدهم على الاصح كقرية اهدن وقرية بشري (٢) وعندنا

(١) راجع الصفحة ٤٧ من هذا الكتاب

(٢) راجع آثار لبنان ج ١ ص ١٢٧ وهناك بيننا ما يختص باهدن وبشري . أمّا الحديث فحن اقدم قرى لبنان ورد اسمها في ترهه المشتاق للادريسي وتكرّر ذكرها في اخبار اصول الطائفة المارونية

انّ الموارنة تولوا ايضاً في بعض اماكن من منحدر الجبل قريباً من البترون عند دير كفرحيّ القديم (١٠٠٠) ولعلّ مدينة البترون نفسها اصبحت من أوّل مساكن الموارنة كلّها او على الاقلّ قسم منها

فيكون اذن أوّل مركز احتلّه الموارنة عند ولوجهم لبنان معاملة الجبّة وقسم من بلاد البترون فهناك كان مهد الامة المارونية كما اشرنا اليه غير مرّة

ومن الحوادث التاريخية الاولى التي جرت بعد سكنى الموارنة في لبنان ما ذكرناه في مقاتلتنا عن الجراجمة وهي شكوى اهل الجبل من عامل بعلبك وكان الامام الشهيد محمّد الازاعيّ مسنّ دافعوا عنهم وانتصروا لهم . قال البلاذري في فتوح البلدان (ص ١٦٢) عن محمّد بن سعد عن الواقديّ قال : خرج بجبل لبنان قومٌ شكوا عامل خراج بعلبك فوجه صالح بن عليّ بن عبد الله بن العباس من قاتل مقاتلتهم واقرّ من بقي منهم على دينهم وردّهم الى قراهم واجلى قوماً من اهل لبنان . فحدثني القاسم بن سلام انّ محمّد بن سعد حدثه ان الازاعيّ كتب الى صالح رسالة طويلة حُفِظَ منها وقد كان من اجلاء اهل الذمّة من جبل لبنان مسنّ لم يكن ممالئاً لمن خرج على خروجه : « مسنّ قتلت بعضهم ورددت باقيهم الى قراهم ما قد علمت فكيف تؤخذ عامّة بذنوب خاصّة حتى يُخرّجوا من ديارهم واموالهم . . . »

ولمّا كثرت عدد الموارنة في القرون الثامن والتاسع والعاشر اخذوا شيئاً فشيئاً في الامتداد الى الجنوب واحتلّوا بلاد جبيل وممّا يشهد على سكانهم في معاملتي جبيل والبترون منذ ذلك العهد عدّة كنائس سبق لنا وصفها في مقاتلتنا عن كنائس لبنان القديمة (راجع الجزء ١٠٠٠ ص ٧٩) وقد لقي الموارنة في تلك النواحي قوماً من اهل البلاد كانوا يسكنون السواحل والوسط . غير انّ عددهم لم يكن متوفراً . وكان اكثرهم نصاريّ يتكلّمون باللغة الآرامية وقيمون فيها طقوسهم الدينية . وعندنا انّ هؤلاء الآراميين لم يلبثوا ان يمتزجوا بعد قليل بالموارنة امتزاج الماء بالراح كما امتزج بهم ايضاً بقايا المرّة والجراجمة الذين تخلفوا في لبنان . وكانت مهاجرة سكّان وادي الأرنط الى لبنان لا تزال متواصلة متتابعة لمزاحمة اليعاقبة واضطهادهم للموارنة

وكان الملكيون مع هذا يقطنون بعض قرى لبنان في بلاد البترون وجبيل مثل كفرشليان وحدتون (١) وبقسمايا (٢) ودوما والقرى المجاورة (٣) وكفور (٤) وغرزوز وغيرها . وكان الملكية في لبنان يتبعون أنشد في فرائضهم الدينية طقس انطاكية اعني على الراجح ليتورجية القديس يعقوب التي ناقضها بعد ذلك البطريرك ثاودوروس بلسمون (٥) واستبدلها بليتورجية القسطنطينية . وفي ما خلا ذلك لم يختلف الملكيون عن بقية الآراميين في اصلهم ولغتهم . وما لا ريب فيه ان الكتابات اليونانية لتصادى لبنان قليلة جداً لا يُعرف منها إلا كتابتان او ثلاث كتابات . أما الكتابات التي تُرى على بعض الصور في سيده نايا بكفرشليان مخطوطة باليونانية فليست هي للوطنيين وإنما كتبها مصورون بوزنطيون او مثلها الوطنيون كما وجدوها في امثلة بوزنطية قديمة

وبعض القرى التي كان يسكنها سابقاً الملكيون نراها بعد ذلك مأهولة بالموارنة إما لأن الموارنة دخلوها فامتزج بهم الملكيون . وإما لأن الملكيين هاجروها فانتملوا الى امكنة غيرها او لاسباب نجهلها

وخالصة الامر أننا اذا استثنينا اليهود نجد في تركيب الأمة المارونية ما نجده في تأليف جميع الامم التي تتكّبت اصولها من عناصر شتى . وكذلك الأمة المارونية اذا اعتبرت في اواخر القرون المتوسطة رأيتها تتألف من اصول مختلفة اولها واعظمها شأناً الموارنة المهاجرون الى لبنان من سورية الشمالية وسورية الوسطى ضوى اليهم قوم من الأباق والطرءاء الذين لاذوا بحمى المردة والجرافة الباقين في لبنان فضلاً عما كان هناك من القطين الاصليين . فهذه العناصر كلها تمازجت بعد حين وصارت أمة كبرى ذات لغة واحدة وهيئة واحدة وغاية واحدة لا يمكن الآن اصحاب النظر معها دققوا في البحث ان يفرزوا جنسياتها الاصلية

(١) راجع في الجزء ١ . ص ٨٦ و ٨٧ مقالنا عن هذين المحليين

(٢) تاريخ الدويجي (ص ٢٠٧)

(٣) منها كفرخلدا وقد وجدت فيها آثار اينية للملكيين

(٤) راجع كتاب خرائن الكتب في دمشق وضواحيها للاديب حبيب افندي زيات (ص

١١٩ الخ) والمشرق (٥ : ١٠٤ و ١٠٦)

(٥) راجع المشرق (٣ : ٢٧٢)

فاذا لحظنا نحو الامة المارونية كما تقدم واعتبرنا ان عدد المواليد يفوق كثيراً عندهم الوفيات لا نعود نستغرب ما ذكره غلياموس الصوري في تاريخ الصليبيين حيث احصى الموارنة اربعين الفاً . وهذا الاحصاء الاجمالي ينطبق على ما روي في تواريخ الاعصار المتوسطة عن الموارنة انهم منتشرون في جهات طرابلس وبلاد البترون وجبيل والجبسة الى نهر ابراهيم . وهو قول صحيح غالباً مع بعض شذوذ كما سترى قريباً عند ذكرنا لقوم من غير المسيحيين سكنوا في ايلات لبنان الواقعة شمالي نهر ابراهيم

وبما ورد ايضاً في التواريخ الصليبية ذكر مقدم ماروني يدعى سمعان تولى عينتاب في شمالي سورية (١) ولا نعلم من اي فرقة من الموارنة كان أمن الذين في لبنان او ممن تخلّفوا في بلاد العواصم . أما كونه من موارنة العواصم فاقرب الى الصواب ونجد قبل هذا العهد قوماً من الموارنة في بلاد ما بين النهرين اشتهر منهم توفيل ابن توما الماروني المنجم الرهاوي قال ابن العبري في تاريخ الدول (ص ٢١٩ و ٢٢٠) : « كان رئيس منجمي المهدي . . . وكان على مذهب الموارنة الذين في جبل لبنان من مذاهب النصارى وله كتاب تاريخ حسن (٢) ونقل كتابي اوميروس الشاعر على فتح مدينة ايلون في قديم الدهر من اليونانية الى السريانية بغاية ما يكون من الفصاحة . وكذلك نجد في عبر دجلة بين الموصل وبعداد جماعة من الموارنة ذكرها في القرن الثالث عشر الراهب ريكولد دي مونكروا (Ricold de Montcroix) وروي ان لها مطراناً يدبرها (٣) . ولعلّ قيساً الماروني المؤرخ الذي اسهب في ذكره المشرق (٣) : ٢١٥ و ٣٥٦ ز ٤٥١) كان من تلك الجماعة . وعلى كل لا نرى احداً من كتبة الموارنة ذكر هذا المطران في ما وراء دجلة . وكل هذا دليل على ان في تاريخ الامة المارونية اموراً عديدة لم يُحسر بعد عنها اللثام . ومن المحتمل ان الكتبة سكتوا عن هذا المطران كما سكتوا عن غيره لان الاساقفة المارونيين كانوا مدة الاجيال السالفة

(١) راجع تاريخ مملكة اورشليم - Roehricht : *Geschichte des Koenigreichs Jerusa-*
lem p. 220, note 6. (٢) وجدت منه بعض مقاطع مختصرة في تاريخ المنجمي
الذي نشره الاب ل. شيخو (ص ٢٦٩)
(٣) راجع Quatremère : *Mémoire sur les Nabatéens*, p. 149

كُتُوبَ للبطرك ومعاونيه دون لزوم كرسي خاص . وانما جُعِلت لهم مراكز منفردة في القرون المتأخرة فقط

وكان القرنان الثاني عشر والثالث عشر قرني نهوض وترقّ في لبنان ، وفي ذلك العهد بُنيت كنائس عديدة على طرزها خاصّ ترينها الكتابات السريانية وفيها من نقوش الفسيفساء والتصاویر المارّنة ما سبق وصفه (١) . وفي هذه الابنية دليل على وفرة عدد اللبنانيين وهمتهم . لم يزل يشمو هذا العدد ويتزايد حتى هاجر قسم منهم الى النواحي المجاورة من فلسطين ولاسيما القدس الشريف وكان لهم فيه عدّة كنائس (٢) . وكذلك انتقلت منهم مستعمرات الى قبرس ثم رودوس . أمّا قبرس فقد سكنوها منذ القرن الحادي عشر وثرى لهم في هذه الجزيرة ديراً (٣) في تاريخ سنة ١١٢٠ . وقد غموا غموا عظيماً حتى انهم كانوا يسكنون منها ثلاثين ضيعة (٤) وكان يرعاهم مطران من طائفتهم . وكان بعضهم في مدن قبرس الكبرى وخصوصاً الماغوصة (٥) وكانت في ذلك العهد واسعة التجارة . أمّا دخول الموارنة في رودس فنظّمته انه جرى على عهد الفرسان المعروفين بالاسپيتالار (Les Hospitaliers) لما احتلوا تلك الجزيرة فتبعهم الموارنة . وكذلك ذهب قسم منهم في القرن السادس عشر مع فرسان رودس الى جزيرة مالطة ولحق بهم بعض من اخوانهم من موارنة قبرس في اواخر ذلك القرن . واهل وجود الموارنة في مالطة ممّا ساعد على حفظ العربية ونشرها في تلك الجزيرة . ومن المعلوم انّ اهل مالطة يتكلمون باللغة العربية مشوبةً بالفاظ دخيلة من اللغات الاجنبية

أمّا حلب فيظهر من نصّ لتوما الكفرطاي ورد في المشرق (٦ : ١١٨) ان الموارنة

(١) راجع في الجزء الاول مقالاتنا عن كنائس لبنان القديمة

(٢) المشرق ١ : ٩٣

(٣) راجع سلمة بطاركة الموارنة للدويهي (الطبعة الثانية ص ٢٢ الحاشية الاولى)

(٤) راجع تاريخ قبرس L. Machéras : *Chronique de Chypre*, trad. f. 16, 16

(٥) وجاء في رحلة يعقوب دي برن (J. von Bern) سنة ١٣٤٦ انه وجد الموارنة في

هذه المدينة يقيمون رتبهم على طريقة الروم . ولانهم ما يعني بذلك ألعلمه يريد ان الموارنة

كانوا يستعملون اليونانية في طقوسهم وهي لغة اهل الجزيرة ؟ فهذا ممكن

كانوا فيها منذ زمن قديم لكن اخبارهم في الشهباء مجهولة الى القرن الخامس عشر حيث اتاهم مددٌ جديد من لبنان (راجع المشرق ٥ : ١٠٣٩ في الحاشية الثانية) ولنعودنّ الان الى الموارنة المستوطنين لبنان فانهم كانوا في نموّ وازدياد يتدوّن شيئاً فشيئاً في النواحي المجاورة . قال الدويهي : « وبسبب ما اشتهر به لبنان اوانتدّ من الامن والطمانينة قصدهُ الناس من الاماكن البعيدة (١) » لسكنى النواحي التي يهجرها المهاجرون الى قبرس وجزائر البحر المتوسط

ومع هذا النمو لا نرى الامة المارونية تتقدّم الى الامام في القرنين الثالث عشر والرابع عشر . أمّا لاجل مهاجرة قسم منها الى قبرس ورودس كما سبق وأما لاجل الحروب التي انتشرت في كسروان في ذلك العهد فبقي الموارنة ما وراء نهر ابراهيم وهذا لا بُدّ من تكرار ما قلناه غير مرّة في مقالاتنا (٢) ان كسروان ليس من المقاطعات التي اوى اليها الموارنة قبل القرن الخامس عشر . وقد اوردنا نصّاً للدريسي ذكر فيه وجود اليعاقبة في جونبة (المشرق ١ : ١٠١٨) . وان سأل القارى ومن كان يسكن اذن كسروان قبل هذا العهد . اجبنا ان معظم اهل هذه الناحية كانوا من المتأولة او من النصيريين . وكان النصيريون قاطنين ايضاً في بعض نواحي لبنان الشماليّة كجبهات البترون ونواحي المنيطرة والعاقورة (٣) ولكن عددهم الاوفر انما كان في كسروان . وقد ذكر صالح بن يحيى صاحب تاريخ بيروت (٤) الغزوات التي باشرها نواب الشام في ايام السلطانين الملك الاشرف خليل بن قلاوون والملك الناصر محمد بن قلاوون فحاربوا النصيرية في جبال كسروان ولم يزلوا يناجزونهم القتال حتى اخرجوهم من كسروان وجعلوا مكانهم قوماً من التركمان على الاقل في بعض النواحي وبقي كثير من المتأولة معهم . هذا وان اموراً كثيرة من تاريخ كسروان لا تزال مجهولة حتى يومنا الا اننا نعلم بلا ريب ان النصارى لم يحتلوا هذا الجبل قبل القرن الخامس عشر

(١) راجع تاريخ الدويهي (ص ١٤٠)

(٢) راجع المشرق (١ : ٥٦)

(٣) ولنا في النصيرية مقالة افرنسية جمننا فيها كل ما يتخصّ بانوار النصيريين واحوالهم وسماها باسم « النصيرية في لبنان » ونشرناها في مجلّة الشرق المسيحي سنة ١٩٠٢

(٤) راجع تاريخ بيروت (ص ٤٤ - ٥١)

ولمّا كانت اوائل القرن الخامس عشر جعل الموارنة يتجاوزون نهر ابراهيم ويصعدون الى كسروان . وكان انتشارهم فيه سريعاً حتى صارت هذه المقاطعة في القرن السابع عشر كلّها لهم . وامتدّ من ثمّ الموارنة الى مقاطعتي المتن والشوف . لكننا نقف عند هذا الحدّ لئلا ندخل في اخبار قريية من عهدنا وليست غايتنا كما قلنا ان نسطر تاريخ لبنان بل ان نبين بوجه الاجمال كيف انتشرت الامة المارونيّة . امّا تفاصيل اخبارها فليست الان من شأننا وقد مرّ منها كثير في ابجائنا السابقة وسنورد ان شاء الله غيرها في ما بعد

بحث جغرافي

في سيرة القديس مارون الناسك

لمكالم لا لبحثنا عن منشأ الطائفة المارونيّة وتكوّنها نضيف الى ما سبق من الكلام بعض افادات تتعلّق بحياة القديس مارون الذي خالف اسمه للطائفة الموما اليها . غير أننا لا نتجاوز الحيز الجغرافي الذي رسمناه فنتكلّم من ثمّ على حياته لا من الوجه التاريخي بل من الوجه الجغرافي لاسيّاً وان هذا الوجه قد كثر تغاضي الباحثين عنه حتى الآن فبقيت فيه مشاكل كثيرة لا بُدّ من تفكيك معضلاتها

*

ليس في ايدينا شيء يروي اخبار القديس مارون غير مصدر واحد اصلي اي الترجمة التي تركها توادوريطوس اسقف قورس (١) وهي تركة جليّة القدر يكفي انتسابها الى هذا المورخ الجليل للحكم على مكانتها من الاهميّة ولولا ايجازها المفرد لما وجدنا فيها مساعاً للانتقاد ونأخذ عليه انه اهمل الوجه الجغرافي اهمالاً تاماً حتى اننا لانجى في ترجمة القديس مارون سوى اسم واحد من اسماء الامكنة وسبب ذلك هو انه دون ما

(١) راجع تأليفه المعنون « تاريخ الرهبان » في مجموع الاباء (يونان) مج ٨٢ وايه نشير في هذه المقالة

دون لحمل معاصريه على ساوك طريق القضيمة بايراد سير الزهاد والقديسين فلم يخطر له في بال ان يشفي رغائبهم في امور كان يفترض انها معروفة عند جميعهم وبناء عليه نأسف كل الاسف على عدم التنازه الى هذا الشأن الذي لو اراد الكتابة فيه لكان وفاه حقه من البيان بغاية الضبط والدقة . وهب انه لم تكن له معرفة شخصية بالقديس مارون فقد كانت له صداقة بليغة مع القديس يعقوب (١) اشهر تلاميذه الذي اطلعه على كل ما يتعلق بن يصفه هذا المؤرخ اليوناني تارة بمارون الكبير وتارة بمارون «الاهلي» (٢) . وكان توادوريطس خشي في كلامه على الابطال المسيحيين الكثيري العدد من تكرار اخبار الحوادث والمعجزات فبالغ في اختصار سيرة القديس مارون بشوع ان من يطالعها تتبادر الى ذهنه في الحال مسائل كثيرة لا يجد لها حلاً وهي : أين ولد القديس مارون وأين عاش وأين دفن وأين هو الدير الذي تسمى باسمه . فالتاماً لهذه النواقص عزمنا على ان نسردها في الصفحات التابعة كل ما تيسر لنا جمعه من المعلومات المؤدية على قدر المكنة الى العلم الكافي باحوال الناحية التي تعطرت باريح هذا الناسك العجيب ولهذا نضرب صفحاً عن الاطناب في حياته متوسمين بوصف البلاد التي صرف فيها أيامه لان ذلك اعون على فهم ترجمته

١

في القسم الشمالي الشرقي من سورية كانت تمتد في ذلك الزمان القديم مقاطعة كوماجينة وهي ناحية منسعة الاطراف يحدها من الشمال جبل طوروس ومن الشرق نهر الفرات ومن الغرب قيليقية . وانما من الجنوب فيصعب تحديدها ويجوز لنا رسمها بخط غير منتسق يذهب من الفرات الى ما تحت هيرابوليس (منبسج) حتى يتصل بجبل امانوس (الما داغ) ماراً تحت مدينة حلب وشمالياً بحيرة العمق بالقرب من انطاكية هذا هو اعظم اتساع ادر كنه كوماجينة عندما كانت تشتمل ايضاً على المقاطعة « القورسية » (٣) التي دُعيت بهذا الاسم نسبة الى مدينة قورس حاضرتها وكان موقع

(١) راجع في تاريخ الرهبان تراجم تلاميذ القديس مارون

(٢) Θεσπέσιος

(٣) وفقاً لبعض قدماء المؤرخين

هذه المقاطعة الثانية في جنوبي الاولى وسنذكر بُعيد هذا مقدار امتدادها (١) لان الكلام عليها لا يخلو من فائدة كبرى للاطلاع على اخبار القديس مارون وحق يكون للقارى تصور صائب بهذه المقاطعة نكتفي الآن من القول ان كوماجينة تنطبق في الحاضر على قسم من ولايتي معمورة العزيز وحلب غير ان الجزء الاكبر من كوماجينة هذه كان في ضمن ولاية حلب اعني انه كان يشمل بالتقريب كل متصرفية مرعش ويدخل فيه من متصرفية حلب المركزية اقصية عينتاب وكأس والباب وحارم وجبل سمعان ومنبج . أما من متصرفية اورفة فما كان يجتوي غير قضائين غربي الفرات اي جزءاً من قضائي بيرجيك وروم قلعة

وكان الذين استوطنوا هذه المقاطعة من بادى الامر قبائل الحثيين ومنها امتدوا بعد ذلك الى بقية سورية . يدل على ذلك ما عثر عليه الباحثون من الآثار التي ابقاها للاجيال الغابرة هذا الشعب الذي لم يُعرف من اخباره حتى الآن شي كثير (٢) . على ان القبائل المذكورة ما لبثت ان اختلطت بالآراميين الذين أسسوا هناك كثيراً من الممالك أخصها بيت عدين وارباد وكانت قاعدة هذه المملكة الثانية مشيدة في موقع تل أرفاد شمالي حلب

وكانت كوماجينة في عهد دولة السلوقيين من جملة مقاطعات الملك الذي اسماه غير انها ما لبثت ان استعادت استقلالها وارجعت ولايتها الى ملوك من اهلها . وبعد وفاة انطيوخوس الثالث في السنة السابعة عشرة للمسيح صارت الى الرومانيين فادخلوها في جملة مستعمراتهم وأنما ذلك لم يدم إلا سنوات قليلة لانها في السنة الثامنة والثلاثين ردت الى ابن الملك انطيوخوس السابق ذكره وبعد مرور اربع وثلاثين سنة اي في السنة الثمانية والسبعين ضمت بوجه نهائي الى المستعمرات الرومانية وكانت سبيساط حاضرة لها (راجع ماركارت في نظام المملكة الرومانية .

ميج ٢ من الترجمة الافرنسية ص ٣٤١ و ٣٤٢)

أما سكان المقاطعة المذكورة فكانوا آراميين أصلاً ولغة . نعم ان الآداب اليونانية

(١) راجع استرابون (ك ١٦ ف ٢) و پلينيوس (ك • •) الخ

(٢) راجع الصفحة ٢٩

كانت قد دخلت البلاد بدخول الساسانيين واصابت نجاحاً جديداً في أيام الرومانيين غير ان هذا النجاح كما نبه على ذلك العلامة نللك لم يتصل الى درجة امتدت معها اللغة اليونانية او الآداب اليونانية امتداداً عظيماً بل كانت غاية ما نالوا منه ان سمناع المغرب وطريقة المعاش فيه قد فازت بشيء من التقدم وان بعض عناصر الحضارة الغربية قد تسربت الى افكار القوم المتمدنين ولعنتهم . قال نللك : « أما القول بان اللغة السريانية قد زالت من المراكز المتهدبة فهو من قبيل المبالغة والنالوان لان الآرامية كانت لغة قديمة استعمالها اهل التمدن في التخاطب والكتابة بينما كان القوم في رومية وارباضها لا يعرفون في ذاك الوقت حروف الهجاء . وفي أيام ملوك الفرس الذين كان شهرهم قورش الملك اتخذت الآرامية لغة رسمية في مصر وفي آسية الصغرى ايضاً اي في خارج موطنها الاصلي . وفي أيام الامبراطرة الاولين الرومانيين نجد الآرامية ايضاً كلغة رسمية لا في تدمر وحدها بل ايضاً في المملكة النبطية حتى بلاد العربية في الجهة التي تعرف اليوم اي في ناحية غربية عن منشأ اللغة المذكورة على ان ذلك لم يكن نتيجة لتعلبها السالف بدليل ان آثار تدمر والنبط تنطق بان هذه اللغة اصابت غواً وانتشاراً فيما بعد أيام ملوك الفرس وعلى ذلك فقد كانت اللغة الحية في سورية وبها كان القوم يتخاطبون ويتكاتبون

« نعم ان اليونانية كانت من زمان قد حلت محلها في الاصطلاح الرسمي لكن القوم في ما خلا ذلك لم يكونوا يكتبون ولا يتكلمون بالآرامية ولا يصح في كل حال تعليق اهمية كبيرة على ما كان يعمله بعض اهل المدن من تكليف معلمي المدارس بكتابة بعض تواريخ يونانية على مدافن امواتهم مع انهم يكادون لا يفقهون منها كلمة واغلب هذه التواريخ مشوهة بالاغلاط فوق ما يمكننا وصفه (١) « انتهى كلام نللك فيستدل مباً مر بياناً ان مقاطعة كوجاجينة كانت كبةية سورية آرامية محضة كما سبق لنا اثبات ذلك في غير هذا الموضع . أما مستخدمو الحكومة وقلياون غيرهم من افراد السكان فكانوا يفهمون اليونانية ويتكلمون بها لا اكثر وفي اثناء القرن الثالث والقرن الرابع تقسمت سورية تقسيماً ادارياً جديداً

وسنذكر تفصيل هذا الامر، واخباره في خلال مقالتنا هذه. اما كوماجينة فقسّمت على إثر التقسيم المذكور بسورية الغراتية نسبة الى الفرات وجمعت هيرابوليس (منبج) قاعدة لها وجرى كذلك بعض التعديل في حدها الجنوبي فتمدد الى الج. ب ولاسيا في النواحي القريبة من الفرات غير انه سُليخت عنها ناحية حلب وألحقت بسورية الاولى وكانت في جنوبي كوماجينة ناحية تُدعى « القورسية » ولا بد لنا من توفية الكلام حقاً على هذه الناحية نظراً لما يترتب على تعريفها من الفائدة في المسألة التي نحن بصددھا

وكان لهذه التسمية كما لغيرها من التسميات الجغرافية امتداد يعظم ويقبل بحسب الازمنة ففي أيام استرابون كانت تُطلق على ارض واسعة تذهب من جبل امانوس الى الفرات وتشمل خلا ناحية قورس ناحيتي حلب ومنبج. غير أنّها بعد ذلك كأيام القديس يوحنا فم الذهب والقديس مارون مثلاً انحصرت بناحية مدينة قورس فعن هذه الناحية الاخيرة نتكلم الآن وازيد التوضيح ندعوها « القورسية الصغرى » وسنبحث عن وصفها في كتب توادوريطوس الشهير الذي تولى اسقيتها مدة طويلة من السنين

كانت مسافة القورسية الصغرى اربعين ميلاً في عرض مثلها وكانت فيها جبال معتدلة الارتفاع بين سبعمائة وثمانمائة متر معظمها كلس. بالغابات. ومع انها ليست بذات ثروة وغنى كان فيها نحو ثمانمائة محل بين دساكر وقرى كبيرة كما يتبين ذلك من رسالة لتوادوريطوس كتبها الى القديس لاون الكبير فيها يجزى البابا المشار اليه انه يعتني بثمانائة كنيسة (١). ولم تكن فيها سوى مدينة واحدة اعني بها قورس التي باسمها تسمت الناحية كلها. وسنذكر كيف كانت المدينة في أيام القديس مارون غير اننا قبل ذلك يجب ان نعين موقعها وموقع الناحية التي كانت قاعدة لها ومركزاً مدنياً ودينياً

على مسافة ستين كيلومتراً شمالي حلب تجد مدينة كلس التي هي قصبة قضاء يسمى باسمها واذا توغلت في الجبال على مسافة خمسة عشر كيلومتراً نحو الشمال الغربي تدلّك الحارطة على شبه وادٍ ففي هذا الوادي كانت مدينة قورس التي كان توادوريطوس اسقفاً لها وحتى اليوم ما زالت خرابها ناطقة بكبرها واتساعها واهل البلاد يسكنونها

(١) راجع الرسالة ١١٢ وفيها يعترف توادوريطوس باولية الخبر الروماني. راجع ايضاً

« قورس » او « كورس » وليس بين ايدينا سوء الحظّ وصف مدقّق لهذه الخرائب والبلاد المجاورة لها لأننا لم نرها كما ان السياح القليلين الذين زاروها لم يتركوا لنا شيئاً من نتيجة بحائهم عنها . وآخر من زارها من السياح هو المسيو برتلمي ترجمان قنصليّة فرنسة في حلب وذلك في شهر ايلول سنة ١٨٩٤ غير أنّنا لم نر من تقريره سوى خلاصة يسيرة ظهرت في نشرة مجمع الكتابات لسنة ١٨٩٥ (١) تتضمّن ثلاثة رسوم شمسية تمثّل « اخربة قورس العظيمة » ووجد ايضاً بين اوراق المستشرق الشهير غيلدميستر مقالة عن قورس لم تُنشر بالطبع (ZDPV, XIV, 82) وكل هذه الناحية التي يهتمّ البحث عنها كثيراً توضيحاً لمنشأ الطائفة المارونية وتاريخ النصرانية في سورية تستحقّ ان يقصدها الباحثون وينقبوا في آثارها بالتفصيل والتدقيق . غير أنّنا استدرأنا كالتقصيرهم بذلنا الجهد حتى نجمع من الكتب كل ما له بالقورسية علاقة قريبة او بعيدة وسنجعل جلّ اعتمادنا في هذه المسألة على مصنّفات توادوريطوس ونستخذه إماماً لنا في بحثنا هذا

٢

اذا تابنا فورير (٢) وجب القول بان قورس من اقدم المدن السورية وانها سبقت دمشق لأنّ هذه على موجب قوله قد أسستها احدى المستعمرات التي اتت من قورس . غير انّ تعليل فورير منقوض لان آية النبي عاموس (٧:٩) التي يعتمد عليها لا تصحّ له الا اذا ثبت أنّها تشير الى مدينة سورية لا الى ناحية من اسية الصغرى مع ان هذا الراي الثاني اقرب واوفر احتمالاً (٣)

وزعم آخرون أنّها تأسست اكراماً واجلالاً لقورس العظيم ملك الفرس ولعلّ هذا الزعم ناجم عن كتابة بعض المؤرخين البيزنطيين الذين كانوا يكتبون Kúpos بدلاً من Kuḗpos . وكان موقع المدينة في ناحية قليلة التضاريس وكان فيها على عهد الرومانيين طريقتان رومانيتان تتّجه أحدهما الى الرها والأخرى الى حماة (٤) ويظهر من التاريخ أنّها

(١) Comptes-rendus de l'Acad. des Inscriptions, 1895, p. 469

(٢) Furrer, ZDPV VIII, p. 39

(٣) راجع قاموس الاداب الكناية لفيكوررو في مادة Cyrène

(٤) كتاب المسالك لانتونين (ed. Parthey, 84, 86, 87) Itinerarium Antonini

كانت اذ ذلك مهمة لأنها احوالت اسمها الى ناحية كبيرة مثل « القورسيّة » التي كانت تشتمل كما سبق القول على نحو النصف من مقاطعة كوماجينة غير ان اتساعها تبدل أخيراً بالضيقة كما تقدمت ايضاً ملاحظة ذلك

ويحتمل ان تكون قورس قد ابتدأت في هذه الفترة تنحط قليلاً عن مقام مجدها غير أنها كانت في أيام توادوريطوس والقديس مارون موقعاً حصيناً يحمي قلاع ناحية الفرات (١) واستمرت كذلك حتى الفتح العربي فألحقت فيه بناحية العواصم (٢) وفي أيام عبد الملك ضربت فيه سكة (٣) مما يثبت انها كانت اذ ذلك صاحبة شأن ومقام وقد استرجعها نور الدين من الصليبيّة ومن بعده لم نعاثر لها على ذكر ونظن انه ما طال الامر حتى أهملت وهجرت غير أننا لا نجسر على متابعة من قال بان نور الدين المذكور هو الذي اخربها . وهذا كل ما نعلمه من تاريخ قورس المدني

وفي أيام توادوريطوس التي نهتم لها بنوع خاص لأنها كانت بالوقت نفسه ايام القديس مارون تظهر قورس كمدينة صغيرة لان المؤرخ المذكور يسميها « $\sigma\lambda\alpha\gamma\eta$ » (٤) غير انه يجب الحذر من اتخاذ هذه التسمية على حرفيتها فكما ان اهالي لندن وباريس الذين يضارعون او بالحري يتجاوزون شعب مملكة او اكثر قد يتزلون سائر المدن منزلة اماكن حقيرة لا اهمية لها هكذا يمكن ان يكون قد خطر مثل هذا الخاطر للمؤرخ توادوريطوس الذي انتلف رؤية محاسن انطاكية وطنه وجزيل اتساعها . ومعلوم انها كانت اذ ذلك تالفة حواضر العالم المتمدن او على الكثير رابعتها . وبناء عليه سترى بعد هذا انه لم ينل عزاء تاماً بسبب اضطراره الى فراق انطاكية والاقامة في حاضرة اقليمية كمدينة قورس التي يشهد باهتمامها الحقيقية ان الحكومة شيّدت فيها سكة للعساكر ما بين طريقين عظيمين رومانين

والظاهر انها لم تحو غير قليل من الآثار التي وفرها التمدن اليوناني الروماني في المدن السورديّة كالاقنية والناهل والاروقة المنطاة المستندة الى اعمدة مما كان يُبنى في

(١) راجع C. R. Acad. Inscript., 1902, p. 513

(٢) راجع فتح البلدان للبلاذري ص ١٢١ و ١٤٩ وقدامة ص ١٥٣ (طبعة دي غوري) أما العواصم فمر ذكرها في المشرق (٦: ١٢١) (٣) المجلة الاسيوية الالمانية, ZMDG.

1889, p. 684 (٤) راجع مجموع آباء اليونان لمن (ج ٨٣ ص ١٢٢١)

الشوارع المهمة ليقمي المارة في ايام الصيف من حرّ الشمس وفي أيام الشتاء من الامطار (١) وكل ما احتوته من هذا القبيل قد تمّ بمساعي وعناية اسقفها العظيم الذي لا نبالغ اذا سمّيناهُ مؤسسها الثاني

قال توادوريطوس المذكور: « اني شيدتُ في قورس من اوقاف الكنائس اروقةً عموميةً وبنيت جسرين عظيمين واعتنيت بالحمامات العمومية ثم انني اتخذت قنّاة واجريت فيها مياه النهر القريب وهكذا منّمت المدينة بالمياه الغزيرة التي كانت محرومةً منها قبلاً (٢) » وكانت قورس خاليةً من طبيب فسعى توادوريطوس كل السعي في حمل احد الاطباء على الاقامة بمدينته الاسقفية (٣) وله غير ذلك ايضاً من الاعمال الدالة على اهتمامه العظيم بالحاجات الزمنية لايّناء رعيته

واننا لتأسف عن عدم تمكننا في هذا البحث الجغرافي خاصةً من الاطناب في مآثر هذا الرجل العظيم الذي يُعدّ من مشاهير عصره ونوابغ دهره فقد كان منسّع المدارك رفيع الفهم محقّقاً حطام الدنيا وكان مع ميله الى المفاخر والعالي يقدم على العظامه ويبدّل كل مقتناه في سبيل الفقراء والاثار النافعة للجمهور. وكان من الذكاء على جانب عظيم يريّاح الى الاطلاع على كل شيء والوقوف على كنهه وحقيقته . ومن الخطابة في اعلى مقاماتها لا يفوقه فيها احد غير فهم الذهب . ومن المنصب الاسقفي في اسمى مراتب المهمة والغيرة والتقى بحيث يصح ان يجعل إماماً وقُدوة لكل الاساقفة في كل عصر (٤) ولهذا كان احقّ مؤرخ بتسديون سير الابطال المسيحيين كالقديس مارون الذي لولا آثار قلمه لجهلنا ترجمته

ان ما نعلمه من الجغرافية الطبيعية لقضاء كلّس يشرح ويتّم وصف القورسية

- (١) كانت كل المدن (السورية المهمة مشتملة على مثل هذه الاروقة كما يتبيّن ذلك من مشاهدة تدمر وجرش (عجلون) . ومن بقايا الاروقة المذكورة السد الكثرية المتراكمة حتى اليوم في ميناء جبيل وشوارعها (٢) تاريخ الرهبان (فصل ٣١ والرسالة ٨١)
- (٣) يتكلم توادوريطوس في الرسالتين ١١٤ و ١١٥ من كاهن اسمه بطرس عالي التطبيق زماناً طويلاً في قورس . واكتشفوا ايضاً في دياميس رومية حجر ضريح لكاهن من المتعاطين صناعة الطب . غير ان القوانين التي ترتبت بعد ذلك حظرت الطب على رجال الاكليروس
- (٤) ان سيرة توادوريطوس هي من السير البالغة حدّ الكمال تستحقّ ان يطالعها كل من اختارهم المولى لحمل عبء الاسقفية الثقيل

مثلاً يفهم من الافادات المنشورة في كتابات توادوريطوس فان البلاد كلها مشغولة بجبل الأكراد وهو عبارة عن أسناد اي جبال صغيرة منفصلة عن سلسلة امانوس الكبيرة ولم ترل هذه الجبال حتى ايامنا كثيرة الآجام والغابات (١) بحيث تدهش جميع السياح الذين اعتادوا النظر الى تعري بقية سورية من الأشجار . غير انهم اذا مجشوا عن القرى الثمانائة التي كانت في القرن الخامس لا يفتون لها على اثر

وقد علمت ان توادوريطوس يتكلم على نهر جرّه الى المدينة وعن جسرين كبيرين شيدهما هناك . وفي الحقيقة انه ترمّ في جوار قورس عدّة انهار منها نهر عفرين اخصّ السواعد الشمالية لنهر العاصي . وبالقرب من قورس يلتقي بالنهر المذكور نهران صغيران احدهما صابون سو والثاني جاموس ديرسي وأعلّ مياه نهر صابون القريب من اخربة قورس هي التي جرّها توادوريطوس الى كرسي اسقفية

ومع قرب الانهر المذكورة كانت بقية الناحية القورسية كبيراً ما تصاب بالجناف وقد ذكر توادوريطوس خبر جناف اصاها في رسالة وجهها الى اريوبنداس يسأله فيها ترك الديون التي له على المزارعين باراضيه الواسعة في القورسية (الرسالة ١٣) ويذكر ايضاً خبر جناف آخر في ترجمة بوليخرونيوس (٢)

هذا ما استطعنا جمعه من المعلومات عن مدينة قورس وجيرتها غير اننا لم نقف على معلومات تُذكر عن سائر اماكن القورسية لان توادوريطوس لا يشير في ما خلفه من الكتابات الا الى قليل منها مثل اسيككا ونيتنس وتيليا وثرغالا وراما وسيتا ونيارا ونيموزا (٣) ولم يلحق بهذه الاماكن شيئاً من الاوصاف ما خلا نيارا فانه وصفها بانها مدينة . وقد رأيت ان لاكثر الاماكن السابق ذكرها اسماء آرامية وهو امر طبيعي في ناحية آرامية خالصة كما مرّ لنا اثبات ذلك في الكلام على كوماجينة إجمالاً وكما سنثبت بعد هذا في الكلام على القورسية خصوصاً

(١) ممّا يجب التنبيه اليه هو انه يوجد بين اشجار هذه الغابات اشجار مشجرة تنبت من تلقاء نفسها . وهكذا كانت الحال في أيام توادوريطوس لانه يُنجر عن القديس يعقوب الناسك الشهير انه كان يقات من ثمار اشجار الغاب (مج ٨٢ ص ١١٠٩)

(٢) راجع مجموع الآباء لمن اليونان (ج ٨٢ ص ١٢٦١)

(٣) في المجلد نفسه ص ١٢٢٩، ١٢٣٢، ١٢٥٣، ١٢٥٤، ١٢٥٧، ١٢٥٩، ١٢٦٠، ١٢٦٤

ولم يكن سكّان القورسيّة من ذوي الغنى والثروة بدليل ان اسقّتهم كان يضطرّ الى اسعافهم والقيام بالاشغال العموميّة لديهم . وكان في بعض المرّات يرفع العرائض من اجلهم الى الامبراطورة يوخرية القديسة وغيرها من كبراء المنصّبين (١) وهي تدلّ من جهة على شهامة قلبه وحنانه ومن جهة ثانية على شقاء الاهالي الذين بهظتهم الضرائب وثقلت عليهم جداً حتى ان الكثيرين منهم لعجزهم عن القيام باعبائها كانوا يوثرون التسوّل وهجر الاوطان (الرسالة ٤٢)

وان قيل ما اللغة التي كان القوم يتكلّمون بها في القورسيّة اجاب الذين يتسرّعون في الاحكام قبل الوقوف على كنه المسائل انها ينبغي ان تكون اليونانيّة لان توادوريطوس اسقف البلاد كتب بها . غير انّ هذا التعليل لا يرضينا ولا يصلح حجّة لاقتناعنا لانّ لدينا من الادلّة الواضحة ما يوئيد العكس (٢)

رأينا في مقالة سابقة (المشرق ٤: ١٠٨٦) ان توادوريطوس مع ان لفته الاصلية هي اليونانيّة (٣) كان عارفاً ايضاً بالسريانيّة . غير ان المقام لم يسمح اذ ذاك بالافاضة في الكلام على هذه المسألة المهمّة ولولا ذلك لآتيننا بشهادة المؤرخ اليوناني ملالا (٢١٠: ١١٠) طبعة اكسفورد) وهو يثبت ان العامّة في انطاكية كانوا يتكلّمون الآراميّة واماّ الباقيون فاذا كانوا لا يتكلّمون بها فكانوا على الاقل يفهمونها . ويثبت الاستاذ العالم كوغنير (Kugener) اثباتاً صريحاً (في الشرق المسيحي ١٩٠٢ ص ٢٠٢) ان السريانيّة كانت اللغة الشائعة في انطاكية وضواحيها

وهنا نستأذن في ان نضمّ الادلّة التابعة الى البراهين التي سبق ايرادها: ان ابوي توادوريطوس كانت لها علائق مكينة مع الناسك القديس مقدونيوس وقد اخبر توادوريطوس بالتفصيل كيف ان تجرّده لخدمة الله كان نتيجة تحريضات الناسك

(١) راجع رسائله ٤٢ - ٤٥ (٢) اذا كان برهاتنا صحيحاً اثبت خروج الذين يأمّون التعليل الآتي من قواعد الاستدلال العقلي وهو قولهم : « ان جملة اساقفة في سورية كتبوا باليونانيّة فاذاً سوربيّة كلها كانت تتكلّم اليونانيّة » وسنثبت في ما يلي من كلامنا عن القورسيّة ان نتيجتهم هي اوسع من المقدمات . وقد سبق لنا تبيان ذلك في كلامنا على ناحية انطاكية (المشرق ٢: ١٠٨٣) التي يحاول البعض ان يصوّروها لنا مثل بلاد يونانية . وفي املنا انا نستطيع اثبات الامر نفسه عن سائر نواحي سورية متى تيسّرت الفرصة (٣) كما قد صرح بذلك راجع مجموع معن (في المجلد ٨٣ ص ٨٤٢).

المذكور فقال ان مقدونيوس كان يتردد على منزلهم في انطاكية فلما ترعرع توادوريطوس اخذ الناسك يرغبه ترغيباً شديداً في خدمة الله (١) والحال ان مقدونيوس لم يكن يعرف غير السريانية (٢) واذ قد ثبت ذلك وكان التسليم صعباً بان مخاطبات هذا الرجل القديس كانت تجري بواسطة ترجمان فيترجح عندنا انه لم يكن توادوريطوس وحده يفهم السريانية بل ان ابويه ايضاً كانا يفهماها وكانت هذه العيلة كما هو معروف من العيال الوجيهة في انطاكية

ولنا في الحادث الآتي بيانه دليل اقوى واصرح فقد اخبر توادوريطوس في تاريخ الرهبان (٣) ان الشيطان ظهر له ذات ليلة في قورس وهو اسقفها فهدهدته تهديداً مخيفاً مرعباً وكان يحاطبه باللغة السريانية وكان احد رفقاته راقداً معه في غرفته فسمع ايضاً الكلام عينه وسمعه كذلك الحشم الذين في المنزل. فن هذا الحادث الذي اقتصرنا على ذكر خلاصته يسوغ لنا ان نستنتج النتيجة الآتية :

ان ظهور الشيطان الذي اخبر عنه توادوريطوس لا يخلو من ان يكون امماً حاملاً مجرداً او رؤياً حقيقية. على ان الظروف التي قارنت الحادث تُرجح انه كان من قبيل الثاني ومع ذلك لا نجد بأساً اذا عددناه من قبيل الافتراض الاول بل انه ربما جاء من هذه الحليئة أوفق وأفيد لما نحن بصدده وعليه اذا قلنا انه كان حليماً مجرداً فبما ان النائم لا يلجم اصلاً بلغة لا يعرفها او بلسان لا يتكلم به الا نادراً ينتج عن ذلك ضرورة ان توادوريطوس كان يتكلم عادة السريانية او بالاقول انه كان يفهما بسهولة. واذا قلنا ايضاً انه كان رؤياً حقيقية يصعب ان نبين كيف ان جميع سكان الدار الاسقفية فهموا مثل توادوريطوس تهديدات الشيطان لو لم تكن اللغة السريانية مألوفة عندهم ويقول توادوريطوس ايضاً (في المجلد ٨٣ ص ٣١٣) انه وجد كتباً كثيرة سريانية من تأليف برديسان والراجح انه لقيها ضمن ابرشيته حيث كانت اقامته او في انطاكية التي كان يتردد اليها حيناً بعد آخر كما سترى في اثناء مقالنا هذه . ولا نجد

(١) تاريخ الرهبان (مين ٨٢ ص ١٢١٤, ١٢١٥)

(٢) راجع المشرق (٥: ١٠٨٣) امماً الناحية الواقعة بين انطاكية وحلب فراجع بشأنها الاباء اليونان المجلد ٨٢ والصنحة ١١٦١ حيث ورد ذكر السريانية كالأمة البلاد

(٣) راجع مجموع الاباء. مين (مج ٨٢: ١٢٤٣ و ١٢٤٤)

ادنى صعوبة للتسليم بالفرض الثاني لانه يدلُّ على انتشار الكتب السريانية في مدينة
قد طالما صوروها لنا يونانية محضة

وكان توادوريطوس يرغب في زيادة النسك الكثيرين بابرشيته وابتدأ بمحدثهم
طويلاً وسنرى بعد هذا انه لم يكن احد من هؤلاء النسك يعرف اليونانية . وبما انه
لا يأتي في كل ما خالفه من الكتابات بذكر ترجمان وجب التسليم بان محادثته التي
كانت تطول في بعض الاحيان اياماً (١) قد كانت تجري بالسريانية وانه كان يعرف
هذه اللغة حتى المعرفة ويشكلم فيها بسهولة

ومما يجب التسليم به وينتج ضرورة عما قدمناه هو ان الاسقف المذكور ما كان
وحده يفهم السريانية بل ان جميع عسراه من سكان الدار الاسقفية كانوا يفهمونها
ايضاً ولا يبعد انهم كانوا يتكلمون بها . واذا صدق هذا الامر على الدار الاسقفية
فماذا ينبغي القول عن سائر المدينة التي كان الاسقف كما سبق القول اعظم شخص
معتبر فيها ؟

ليس الجواب على هذا السؤال بصعب لان كاتب ترجمة توادوريطوس يصرح
دون موارد « بان الجميع تقريباً في قورس وفي القورسية كانوا يتكلمون باللغة
السريانية وان عدد اليونان لم يكن فيها شيئاً مذكوراً (٢) » ويؤخذ من كلامه ان
ذلك كان اخص الاسباب التي حملت توادوريطوس على القبول رغماً عن ارادته
باسقفية هذه المدينة لانه لما كان عالماً بارعاً وخطيباً مفلحاً يضاهاه فم الذهب بل
يكاد يفوقه ايضاً في مسائل تفسير الكتاب المقدس رضي ولكن مع كره ومشقة
نفس بان يدفن كل ما رزق من مواهب العقل في مدينة صغيرة قد لا تأتي فيها هذه
المواهب بغائدة لعدم وجود جمهور من السامعين يقدر على مجاراته في السبيل الذي
يرومه . غير انه ما لبث ان ذلَّ هذه العواطف البشرية وانقطع بكليته الى الاهتمام
بمنفعة وخير القطيع الذي فوض الى تديره

وللقارى ان يعترض بنحطب توادوريطوس ويقول انها كتبت كلها باليونانية فنحن
نتلقى الاعتراض بالقبول غير واجدين شيئاً من الصعوبة في رده . وسبب ذلك ان غالب

(١) راجع في تاريخ الرهبان ترجمة مار يعقوب (الناسك) (ف٢)

(٢) الاباء اليونان لمن (مج ٨٤ ص ١٤٢, ١٤٤)

الخطب التي لتوادوريطوس ألقاها في خارج قورس لأنه كان من محبي الحركة والتنقل وكثيراً ما كان يزائل ابرشيته بدليل انه لما ثارت الحصومات بسبب بدعة نسطور وكان اسقف قورس صديقاً للمبتدع من صباه صدرت له الاوامر من قبل الامبراطور ان لا يبارح مركزه فشق عليه هذا المنع كثيراً كما يتبين ذلك من رسائله ولكن ما لبث المنع ان ارتفع بعد مدة وجيزة فعاد الاسقف المذكور الى اسفاره وكان توادوريطوس يتردد خاصة على اثنتين من المدن اعني بهما انطاكية ويبريه (حلب) وكانت الاولى على مسيرة يومين من مركزه والثانية اقرب من هذه المسافة (١)

اما انطاكية فكانت وطنه ولهذا كان يكثر التردد اليها حتى اضطر الى الاعتذار لروسائه عن طول اقامته بها (٢) واشهر خطبه وافصحها كما هو معلوم عشر خطب موضوعها العناية الالهية وقد شهد في رسالته الى البابا انه ألقاها كلها في مدينة انطاكية ثم انه في رسالته الحامسة والسبعين يذكر خمسة اسباب حملته على اعزاز اهالي حلب وآخ هذه الاسباب هو انهم « كانوا يسمعون خطبه ببلدة مسرة ولهذا كان يبذل جهده في أن يلقي عليهم احسن وافضل ما عنده من هذا الصنف » . ولنا ان نقول بعبارة أخرى انه كان يجب الكرازة في انطاكية وحلب ليقينه بان السامعين في هاتين المدينتين يفهمون خطبه اليونانية ويقدرّون فصاحتها بخلاف الحال في قورس

على انه لا يصح الاستنتاج من هذا ان حلب كانت بلدة يونانية فقد ذكر نلدك (٣) ان الاحوال فيها من الوجه التاريخي كانت شبيهة باحوال الرها ومن المعلوم ان الرها كانت في ذلك العهد ارامية بجنّة بل مركز الآداب الآرامية ولهذا يجب القول ان حلب ايضاً كانت ارامية بسكانها ولغتها ولكنها لما كانت مدينة كبيرة تجارية لم يكن ليصعب فيها وجود جمهور من السامعين يجيدون فهم اليونانية . فان السوريين في كل زمان كانوا يتعلمون كثيراً من الالسنة والامثلة على العارفين بينهم بلغات عديدة لم تفت

(١) اخبر توادوريطوس انه كان يسافر مساء النهار من حلب فيصل الى قورس في صباح اليوم التالي

(٢) اعمال الابهاء اليونان (مج ٨٣ ص ١١٣٥ و ١١٤٦)

(٣) راجع المجلة الاسيوية الالمانية (ZDMG) سنة ١٨٨٥ ص ٣٣٤

قطّ من يلتتمسها . وكما اننا اليوم نجد في المسدن السوريّة عدداً غنياً ممن يفهمون الخطب باللغات الاجنبية هكذا كان الامر في ايام توادوريطوس . ومثلها لا نستطيع ان نستنتج في الوقت الحاضر ان اللغات الاجنبية متعلّبة على اللسان الوطني هكذا القول ايضاً عن خطب اسقف قورس

فاذا كان الذين يفهمون اليونانية في قورس قوماً قليدين فما ظلّك بسائر الناحية ؟ وقد اخبر توادوريطوس ان سكّان المقاطعة الفراتية التي كانت القورسية تابعة لها كانوا يتكلمون السريانية (١)

هذا فضلاً عن ان هيرابوليس (منبج) مركز رئيس الاساقفة الذي كان يخضع له اسقف قورس كانت ايضاً مركزاً مهماً سريانياً . وبعد قليل لوفاة توادوريطوس تولى الكرسي المذكور فيليكسينوس احد مشاهير الكتبة عند السريان . وفي جروانيقية التي تسمى اليوم مرعش كان القوم ينصبون ايضاً على آداب اللغة السريانية

ولقد سبق لنا ايضاح ما كان من هذا القبيل في مدينتي انطاكية وحلب (٢) وعلى ذلك لم يبق من داعٍ للتسليم بان ابرشية قورس وحدها التي كانت في شمالي سورية محفوفة من كل انحاءها بالبلدان الآرامية قد خرجت عن هذه الدائرة . والحق يقال ان هذه الناحية كلها لم تكن لها غير لغة واحدة اي الآرامية التي كان المتأدبون يضيفون اليها معرفة اللغة اليونانية . قال المستشرق ساخو : « من اعظم مرافق النصرانية ان الوعّاظ كانوا يستطيعون ان يكرزوا بلغة واحدة اي الآرامية من حدّ انطاكية حتى بابل »

واذا حصرنا الكلام في المتوحدين الذين كانوا يسكنون صحاري القورسية نرى الادلة متظاهرة على انهم كانوا بالسرهم تقريباً آراميين ينتمون باسماء سريانية مثل مايسياس واشبسياس ومارون وسلامانس وماريس وزابيناس وباراداتوس وتاليلايوس

(١) تاريخ الراهبان (٨٠ ص ٣٢٧ راجع ايضاً المجلد ٨٤ ص ١١٦٣ و ١١٦٤) وفيه يظهر كيف ان رهبان دير على الفرات كانوا يرتلون الزامير بالسريانية التي هي لغتهم الاصلية كما ذكر ذلك بالنص الصريح

(٢) راجع كذلك المشرق (١٠٨٢ : ٤)

ومارانا (١) وقد قال توادوريطوس عن الأوّل اي مايسيماس قولاً صريحاً « انه كان سرينياً بلقته (٢) » أمّا الراهب القديس ابراهيم الذي ترقي بعد ذلك الى اسقفية حرّان في بلاد ما بين النهرين فذكر توادوريطوس في معرض اخباره عن زيارة الامبراطور له مع كل حاشيته ان الموما اليه لم يكن يفهم كلمة واحدة يونانية (٣) . وروى في موضع آخر عند كلامه على الناسك تاليلايوس انه لما زاره تعجب كثيراً « اذ سمعته يجاوبه باليونانية » (٤) لان الناسك المذكور كان على حسب رواية اسقف قورس فيليقيّ الجلس وكل ذلك يدلّ على ان معرفة اليونانية لم تكن شائعة بين السوريين الوطنيين

وان قيل ما هي الليتورجية التي كان اكليروس قورس يجري عليها قلنا ان الجواب على هذه المسألة امر صعب بالنظر لعدم وجود معلومات صريحة بشأنها . ولكن بما اننا قد اثبتنا ان الارامية كانت لغة الناحية ساغ ان نستنتج ان الليتورجية كانت تجري بهذه اللغة ذاتها ولعلها لم تكن تجري بغيرها الا في كنيسة قورس الكاتدرائية . وفي ترجمة الناسك ابراهيم الذي سبقت الاشارة اليه دليل ظاهر على ما نقول فقد كان على ما روى توادوريطوس من ابناء القورسية حيث صرف زماناً طويلاً في الحياة النسكية وفي الحتام شخص الى اثنان وهدى فيه كثيرين من الوثنيين وعلمهم العبادة الالهية الحقيقية . ولا ريب انه كان يخاطبهم بالسريانية لانه لم يكن يعرف سواها ويقيم لهم الليتورجية كما قد شاهدها مستعملة في القورسية وطنه (مج ٨٢ ص ١٢٢٥) قال ساخو : « ان الاراميين نشروا النصرانية في الشرق » وعلى ذلك فان الكنائس التي أسسوها قد علموها بالضرورة ليتورجية آرامية . وكانت السريانية كما هو معلوم أوّل لغة ليتورجية مستعملة (٥) وفي ما اوردها بهذا الشأن كفاية للقارى حتى يتيسر له

(١) راجع تاريخ الرهبان

(٢) راجع مين (مج ٨٢ ص ١٢١٦)

(٣) تاريخ الرهبان ص ١٢٢٨

(٤) هذا تمّا يوجب الافتراض ان الاسقف خاطبه أولاً باليونانية

(٥) راجع في معجم الالهوت الكاثوليكي (١ : ١٤٠٢) مقالة للاب فايه الصعودي الذي

نسب اليه بعضهم رأياً مخالفاً لما نحن فيه

الحكم فبقي علينا ان نبحث عن احوال النصرانية في القورسية وهكذا ننتهـم كلامنا عن جغرافية هذه الناحية

٣

ان القورسية كانت كلها بالتقريب مسيحية في ايام توادوريطوس كما يُنهم ذلك من عدد المائتة كنيـة التي يقول الاسقف المذكور انه كان مكلّمًا بتدبيرها . ويظهر انه كان قد اتخذ بعض اعوان له من الخوارنة الاسقفين لادارة الكنائس الكبرى في ابرشيتيه وفي رسالته ١١٣ يسي اثنين من هؤلاء الخوارنة . وبناء عليه يجوز ان نحسب القورسيّة كلها مسيحية في زمانه اذ لم يكن فيها من الوثنيين الا افراد قلائل (١)

وكان في القورسيّة جماعة من الهرطقة وعلى الخصوص من المرقيونيين . قال توادوريطوس : « ان ثمانى قرى افسدتا هرطقة المرقيونيين مع الاماكن المجاورة لها ارجعتها الى الطريق القويم (٢) . وكانت هناك ايضا قرية اخرى عامرة بالتابعين لمذهب الاونوميين وقرية غيرها اريوسية فتوقفت لاثارة الجميع بالنور الالهى وهكذا بنعمة الله لم اترك في ابرشيتي اثرا للهرطقة ولم يكن ذلك ليستطاع دون اقتحام اخطار وإراقة دم لأنني كثيرا ما تعرّضت لرجم الهرطقة » . ويشهد في موضع آخر (٣) انه عمّد عشرة آلاف من الهرطقة المرقيونيين وإثر هذا الانتصار الاخير على الجحيم ظهر له الشيطان كما سبق الخبر محاولا توقيفه عن قتال الغواية والضلال

أما دخول النصرانية الى القورسيّة فلا نعلمه بالتحقيق ولكننا نظن انه كان في الصدر الاول بالنظر الى قرب هذه الناحية من انطاكية احد مهود الدين المسيحي وقد حضر اساقفتها مجمع نيقية . واما خلفاء توادوريطوس فلا نعلم منهم غير اسماء ثلاثة فقط (٤) ولا ريب ان كرسي قورس فقد اهميته من بعد انتشار بدعتي نسطور ويعقوب البرادعي . ومع ذلك فقد وجدنا في جريدة لاستفتيات بطريكية انطاكية ترقمي

(١) راجع رسالتيه ٦٧ و ٦٨

(٢) الرسالة ٨١

(٣) تاريخ الرهبان ١٣٤٣ الخ والرسالة ١٤٥ و ١١٣

(٤) لوصكيان : الشرق المسيحي (٢ : ١٣٠ الخ)

على ما نظّمه الى القرن الثامن ان قورس كانت معدودةً في ذلك العهد من جملة الكراسي المطروبوليتية لكن لم يكن لها اسقفيات تتبعها (راجع اخبار بطاركة انطاكية والقدس في الاسفار الاورشليمية ص ٣٣٧)

ونعلم ان جسدي الشهيد المعظمين قرما وداميانوس قد دُفنا في قورس ولذلك قد تُسمّى هذه المدينة في بعض الاحيان اكراماً لها بمدينة القديسين . واخبر توادوريطوس نفسه كيف انه في ذات يوم نجي من الحريق الكنيسة المشيدة على ذكر هذين الشهيدين (١) القديسين . وفي موضع آخر يذكر ايضاً في جملة كنائس مدينته الاسقفية كنيسة على اسم الشهيد ديونيسيوس (٢) ويخبر كذلك عن دير قائم بمجداء اخرى كنائس قورس (٣) وفي رسالتيه ٦٦ و ٦٧ يتكلّم على هيكل شيدّه هو وكرسه للرسل القديسين (٤) . وكان في قورس ايضاً مصلياً على اسم الناسك القديس مرقيانوس ومن العجيب انه تشيد في حياة الناسك المذكور (٥)

فكل هذه الآثار الدينية تجيز لنا الحكم بان الديانة كانت في القورسية زاهرة زاهية بأيام راعيها الاثيل واسقفها الغيور

ولنا ايضاً دليل آخر على ازدهار الديانة تأخذهُ من وفرة عدد المناسك في الناحية المذكورة التي كانت احسن البلاد ملاءمةً لحياة الزهد والعبادة لانها كثيرة الجبال بعيدة عن المراكز الكبرى والطرق التجارية وافية بمجاجات قوم يكتفون بالقليل حتى كان يصح ان تُدعى فردوس المتوحدين ونعيمهم وهذا هو السبب الذي من اجله انتشرت فيها كثيراً هذه المهينة الاخيرة من حياة النسك . وفي تاريخ الرهبان لتوادوريطوس الذي خصص منه النصف بتراجهم عظماء الرهبان في القورسية قلماً يأتي بذكر الاديار (٦)

(١) مجموع الالباء (مج ٨٤ : ص ٧٨٦ و ٧٨٧)

(٢) تاريخ الرهبان الفصل ١١

(٣) وكانت الكنيسة على اسم الرسل الاطهار. تاريخ الرهبان ١٢٢٩

(٤) راجع كذلك المجلد ٨٢ ص ١٢٥٠

(٥) راجع المجلد عينه ص ١١٤٧ و ١١٤٨

(٦) في الرسالة ١١٧ يتكلم عن أليوس ويقول عنه انه « اُكسرخوس الرهبان عندنا » وهي مبرة تدل على وجود دير في قورس او في الابرشية التابعة لها . ويذكر ايضاً ادياراً أخرى في المجلد ٨٢ والصفحة ١٢٢٥ و ١٢٦٠ فير ان الاديار كانت هناك قليلة جداً

بل يذكر المتوحدين الذين كان يجتشد حولهم بعض التلاميذ فيقتفون آثارهم ويتهجون نهجهم غير انهم كانوا يعيشون هم ايضاً متوحدين دون ان يجتمعوا ضمن حظيرة دير

وكان توادوريطوس يحب ويكرم هؤلاء الرهبان القديسين الذين كانوا يعطرون ابرشيته بعرف فضائلهم ولهذا كان يكثر من زيارتهم ومحدثهم وكل ما كتبه عنهم في تاريخ الرهبان قد رآه فيهم او سمعه منهم . على ان الرهبان المذكورين قابلوه بمثل عواطفه واثبتوا له ذلك لما أمد عن ابرشيته فانه لم يجد اذ ذاك اصدقاء اشدّ اخلاصاً من هؤلاء القوم الذين كانوا كما قال عنهم « يجتفون هذه الحياة الزائلة متوقعين الحياة الابدية (١) »

وقد سبق لنا تسمية بعض ابطال هذه العيشة النسكية فبقي علينا ان نذكر اخصّ واحد بينهم اعني به القديس مارون وكل ما تقدم من الكلام جعلناه كتوطئة تمهد لنا السبيل لتعيين وطن هذا القديس العظيم والمكان الذي صرف فيه حياته فاذا لم نتوصل دائماً الى نتائج نهائية واذا اكتفينا اكثر الاحيان بالظن والتقدير فالذنب كل الذنب على فقد المعلومات المؤكدة في هذا الشأن . غير ان ما سنسحطه مما يستحق الانتباه وامناً ان يكون محرّضاً لأولي البحث على الجدّ والتنقيب لعلمهم يتوقفون الى ما لم نتوقف اليه . وفي كل حال ليس من غايتنا ان نازم القارىء باتباع آرائنا ولكننا نتوخى من كل ذي ادب ان ينظر فيها منتقداً حتى تنجلي المشاكل وتبدد الغياهب . ومما يسرنا جداً هو ان نداءنا للطوائف المسيحية الشرقية حتى تبذل الجدّ اللازم في الابحاث التاريخية (٢) قد لاقى قوماً يسمعون فهبّ بعض الادباء واخذوا ينقبون في تواريخ طوائفهم ونشروا منها اشياء حريّة بالاعتبار واملنا ان يزدادوا حميّة في هذا الشأن لما يرجى عن عملهم من المنفعة . وفي هذا المقام لا نرى بداً من الشاء على بعض ادباء الطوائف الشرقية لما تحفوا به الدروس التاريخية من التأليف النافعة كما نمدح ايضاً سائر الذين نشروا في مجلّة المشرق اجاثاً مهمة في شؤون طوائفهم وآدابها الطقسية وآثارها القديمة

(١) الرسالة ١٣٥

(٢) راجع في مجلّة المشرق (١: ٢٦١) . مقالنا المعنونة : « هيا الى درس تاريخنا »

٤

اين وُلد القديس مارون؟ هذه مسألة كان في وسع توادوريطوس كاتب ترجمة هذا القديس ان يجاب عليها جواباً شافياً غير انه لسوء الحظ لم يذكر عنها شيئاً في الكلام الوجيز الذي تركه ولهذا وجب علينا ان نسمى بالافصح عما سكنت عنه . على اننا لسنا باوّل من سعى وراء هذا الامر فان حضرة الحوري ميخائيل غبريل يقول في كتابه تاريخ الكنيسة المارونية (ص ٨٤) ما نصّه : « ان القديس مارون ولد . . . في بلدة تدعى مارونيا البعيدة نحو ثلاثين ميلاً عن انطاكية في جوار مدينة قورش » ورد ذكر « مارونية » في ترجمة الراهب مأنس التي كتبها القديس ايرونيوس فقال عنها انها بلدة صغيرة (*haud grandis viculus*) على مسافة ثلاثين ميلاً شرقي انطاكية (١) كانت ملكاً لصديقه ايثاغوريوس الكاهن الذي ارتقى بعد ذلك الى اسقمية انطاكية . وكان القديس ايرونيوس ايام اقامته في انطاكية يتردد الى القرية المذكورة مع صديقه ايثاغوريوس الموما اليه . وهذا برهان آخر على انها كانت قريبة من انطاكية لكن لا يسوغ ان نزيد عليه انها كانت في جوار مدينة قورش اذ كان بينها وبين هذه المدينة الاخيرة مسيرة يومين على الاقل

فالى اي شيء اذا يستند قول من يقولون ان القديس مارون وُلد في قرية مارونية؟ لا علم لنا بذلك لان توادوريطوس الذي هو المستند الوحيد لكل ما كتبه الكتّابون عن القديس مارون لا يذكر شيئاً عن مكان مولده وكل المؤرخين الذين جاؤوا بعد اسقف قورش نقلوا عنه واذ كانوا قد اضافوا بعض زيادات الى كلامه فليس لهذه الزيادات عند اهل التحقيق الا قيمة كاتبها . نعم انهم قصدوا قصداً حسناً فرغبوا في ان يوضحوا ما سكنت عنه توادوريطوس غير انه لا غنى للمؤرخ المدقق في امور كثيرة عن الاقرار بالجهل والقصور . وزيادة على ذلك ان التقليدات التي يتناقلها الموارنة ساكنة ايضاً عن مكان ولادة ابيهم القديس مارون ولو كان شيء من ذلك لما تأخر

(١) وذكر الجغرافي بطليموس ايضاً مكاناً آخر في سورية يدعى « مارونية » لكن يصعب القول انه عن مارونية التي نحن بصدها ونرجح انه يريد بها مركزاً في إقليم قنسرين كما ذهب اليه هرتن 145 ZDPV, XXIII, راجع كذلك Ritter, XVII, 1569

البطريك اسطفان الدويهي عن ايراده . وعليه فاننا نعجب كيف يمكن في هذه المسألة بسط الكلام اكثر من توادوريطوس والدويهي

ثم اردف صاحب تاريخ الكنيسة الانطاكية (ص ٨٤) قوله عن ولادة القديس مارون في مارونية بقوله « انه درس العلوم في احدى مدارس انطاكية » . وهو ايضاً امر لم يُفدنا عنه توادوريطوس وهذا قد اسنده الكاتب الحديث الى المودة التي زعم انما نشأت بين القديس يوحنا فم الذهب والقديس مارون الناسك (١) منذ كان يدرسان معاً في انطاكية . على اننا نقرّ بسذاجة اننا لا نفهم قوة هذه الحجة لا بل نظن ان القديس مارون كبةيسة نساك زمانه في القورسية (٢) كان من اصل آرامي ويجعل اللغة اليونانية ومن ثم انه لم يدرس في مدارس انطاكية . وخلاصة القول ان الاخرى بنا ان نقرّ بجهلنا المكان المعين الذي وُلد فيه القديس مارون

وان طلب منا القارى رأينا في ذلك رجحنا كونه لم يولد في جوار انطاكية . وعلى كل حال لا نرى صواباً في ما اثبتته حضرة الخوري غبريل (ص ٨٧) حيث قال : « ان البرية التي انحاز اليها القديس مارون قبل انها مجاورة لتلك التي رسمها القديس ايرونيوس عندما اعتزل اليها . . . وذكرها في جملة كتاباته » . لان البرية التي اعتزل اليها القديس ايرونيوس معروفة محدّدة الارزاء وهي ناحية متسعة البناء موقعها جنوبي شرقي حلب كانت تدعى كلسيدية (Chalcidène) باسم عاصمتها كلسيس التي تُعرف اليوم باسم قنسرين وهي عبارة عن قفرٍ قفرٍ احرقته الشمس يجاور برية الشام لا يسكنه الا بعض عرب البادية (٣) . ومن راجع وصف هذا المكان للقديس ايرونيوس لا يراه موافقاً لما قاله توادوريطوس عن البلاد التي عاش فيها القديس مارون وهي القورسية كما سبق . فالرأي عندنا ان مولد رجل الله كان في الناحية التي فيها قضى اكبر قسم من حياته كما سيأتي نقلًا عن توادوريطوس . ولو كان مولد القديس مارون في انطاكية او جوارها لكان اختار لزهده احدى البراري

(١) استناداً الى الرسالة ٣٦ من رسائل القديس يوحنا فم الذهب

(٢) وسيأتي بيان ذلك قريباً

(٣) وكانت لغة هذه الناحية (السرانية) . وكان القديس ايرونيوس يفهمها (راجع مجلة

الشرق المسيحي المطبوعة في رومية « Oriens christianus » لسنة ١٩٠٢ ص ٢٠٢)

العديدة الواقعة على مقربة من هذه الحاضرة والمقدّسة بعيشة كثيرين من مشاهير العباد وذلك ما يتّضح من التواريخ البيعية المكتوبة في ذلك العصر (١) كذا شاهدًا على قولنا مثل القديس يوحنا فم الذهب الذي وُلد في انطاكية ثم انقطع الى النسل في دير قريب من موطنه . وكذلك نظنّ أنّ القديس مارون الذي عاش ومات في القورسيّة وُلد ايضًا فيها ما لم يأتنا احد يبرهان جليّ على خلاف هذا الرأي .

أمّا ان القديس مارون صرف حياة في القورسية وقضى فيها نخبه فالامر واضحٌ وضوحاً تاماً بما ورد في تاريخ الرهبان لتوادوريطوس . فان هذا الكاتب العظيم بعد ذكره من اشتهر من النساك في انطاكية وجوارها يعلن جهاراً انه يباشر بتراجم المتسكنين في القورسية (٢) ثم يذكر اعمال ميسياس واشبسياس ويتخّصّ الى ذكر القديس مارون فبيّن بذلك انّ هذا العابد الشهير كان في الناحية ذاتها . وقد زادنا ايضاحاً في اثناء كلامه عن القديس : « انه هو غارس الحديقة (يريد حديقة العيشة الرهبانية) التي ترهوا الآن في القورسيّة (٣) »

هذا ولا نجعل بان توادوريطوس قال في ترجمة ابراهيم الناسك التي ألقها بترجمة القديس مارون « انه هو ايضاً كان ثمرّة نمت في بلاد قورس » ثم اردف قوله بهذه الفقرة قائلاً : « وبها كان مولده » . فلماذا يا ترى ضرب الصفح عن التصريح بوطن القديس مارون ؟ فهل كان ذلك سهواً منه او جهلاً ؟ فهذه مُعضلات امكن توادوريطوس ان يحلّها فلم يفعل . ولكنّه اكتفى بقوله عن ابراهيم « انه هو ايضاً كان ثمرّة نضجت في القورسيّة » ليشير الى انّ اصل القديس مارون الذي سبق ذكره كان كذلك من القورسية فليحكم القراء .

هلمّ بنا الان ننظر في اي مكان من القورسية تألّه قديسنا الجليل . نجيب على ذلك انّ غاية ما اعلمنا به توادوريطوس في هذا الصدد انه « تسلّق الى قمّة جبل كان اقام فيه سابقاً عبدة الاوثان هيكلًا للابالسة » (٤) . والظاهر انّ هذا الجبل كان على

(١) راجع كتاب توادوريطوس في تاريخ الرهبان

(٢) راجع التاريخ ذاته في مجموع مين (ص ١٢١٦)

(٣) راجع الصفحة ١٢٢٢ منه

(٤) فيه (الصفحة ١٢٣٤)

بعض المسافة من قورس كما يلوح من ترجمة القديس يعقوب تلميذ القديس مارون حيث قال عنه توادوريطوس « انه بعد ما سكن مدّة مع معلمه جاء فسكن على جبل يقرب من قورس ثلاثين غاوة » اعني على مسافة ساعة ونصف من هذه المدينة (١) . ولكن في اي جهة كان موقع جبل القديس مارون أفى شمال قورس او جنوبها او جهة أخرى والرأي عندنا انه سكن احد الجبال الواقعة على طريق حلب اعني جنوبي شرقي قورس . ليكون مقام القديس اقرب الى افامية في اقليم سورية الثانية حيث سُيّد بعد ذلك الدير الذي عُرف باسم دير القديس مارون كما سترى في فصالتنا الخامس آنفاً

الآن تعريف الجبل بعينه الذي اوى اليه القديس مارون ليس بممكن مسا لم يبحث عن ذلك اهل البحث في نواحي قورس . ومما يساعد على ذلك فحص اخرية الهياكل الواقعة على قمم تلك الجبال والمقابلة بينها وبين ما يرويه اهل تلك النواحي بالتقليد مع البحث الجغرافي عن مواقع تلك الاصطاع . فلا غرو ان من يتبع هذه الخطّة يأتي ما لم يكن في حسابانه من آثار الامكنة الدائرة في سورية . وما ادراك انه لا يجد كتابة قديمة تيمط السرّ عن عدّة امور غامضة (٢)

ولم يُدْفَن القديس مارون في محبسه فان سكّان القرى المجاورة تنازعوا ذخائره المقدّسة حتى فاز بها اهل بلدة قريبة فنقلوها الى وطنهم واقاموا للناسك القديس هيكلًا جعلوها فيه . ويؤخذ من بعض نصوص توادوريطس ان الهيكل المذكور كان على مسافة من قورس . قال هذا الكاتب الشهير : « ومع اننا بعيدون عن القديس فانّ بركته تشملنا وذكره يقوم لدينا مقام ذخائره » . فعنى بهذا بُعد مدينته قورس عن ذلك المقام . على انّ المكان لم يكن خارجاً عن دائرة ابرشيته قورس لانّ مدفنه كان قريباً من محبسته وقد بيّنا في ما سبق انّ القديس عاش في القورسية . ومن ثمّ صحّ عندنا ان قبر القديس وهيكله الاولين انما كانا في شمالي سورية جنوبي قورس في نحو نصف المسافة بينها وبين حلب

(١) فيه (الصفحة ١٢٢٦)

(٢) كالكتابة المكتوبة بلغتين يونانية فأرامية التي وجدناها في كراد الداسنية شمالي فرني حمص على ناووس قديس يدعى توما لم يكنّا حتى الان بيان احواله (راجع المجلّة الباليستية موزيه (Musée belge, 1901) . وقد نشر حضرة الاب س . رنزال النص الارابي في مجلّة الشرق المسيحي (ROC, 1902)

٥

هياً بنا الان نبحت عن امر آخر لا تفوت فائدته كل بصير اعني مقام دير القديس مارون الشهير . قد تكرر ذكر هذا الدير في اخبار سوريّة واشتهر رهبانه بما ابدوا من البسالة في الدفاع عن الايمان . ولكن تُرى اين كان موقع الدير المذكور هل أُقيم بجوار هيكل القديس « مارون العظيم » (كذا دعاه توادوريطوس في تاريخ الرهبان ص ١٢٥٤) قريباً من ذخائره المباركة كما تُرجح ذلك التقاليد الشائعة او كان بالاحرى موقعه في غير مكان من سوريّة

مهما كان من صحّة احد الرأيين نرى الاجدر بنا ان نتصعّق الآثار القديمة ونستضيء بنبراسها لتعريف موقع هذا المكان الذي في ظله نشأت الطائفة المارونية . ولا شك انّ نصوص القدماء تساعدنا على ازالة الشبهات التي تكاثفت بهذا الخصوص . وقد عددنا ما كتبه المحدثون بهذا الصدد فوجدنا آراءهم متباينة متناقضة فمنهم من يجعل دير القديس عند انطاكية (١) ومنهم من يرجح كونه في ضواحي حمص (٢) وبين البلدين كما لا يخفى مسافة ثمانية ايام بنيف . وربما رأيت الكاتب الواحد مضطرباً متحيراً يجعل الدير تارة في محل وتارة في موقع آخر حتى أنّنا عددنا لبعض كتبة زماننا خمسة آراء في هذا الشأن

وعندنا انّ درس الجغرافية المدقّق يُفضي بصاحبه الى الراي الصحيح ويُرشده الى الطريق المثلى . ولا بُدّ لنا لبيان هذا الامر من تعريف الاقسام السياسية التي كانت عاينها سوريّة الشمالية وسوريّة الوسطى في عهد القديس مارون اعني في القرنين الخامس والسادس فاذا وقفنا عليها تبيننا على التقريب الايالة التي فيها كان موقع هذا الدير المشهور . ثم نضيف الى هذه الاعلامات العموميّة بعض نصوص جغرافية تزيد ببحثنا ايضاحاً

كان الرومان على عهد توادوريطوس يدعون باسم سوريّة الرومانية كل البلاد المتسعة الارزاء الواقعة في وسط النخوم الطبيعية التي يحدق بها البحر المتوسط وجبل طورس

(١) راجع الدويحي (ص ٣٩ و ٦١)

(٢) اعني في وسط الطريق بين افامية وحمص (راجع اصداء الشرق السنة الرابعة ص ٩٦)

وبادية الشام وبرية طور سيناء . وكانوا يقسمونها الى اربعة اقسام كبرى او اعمال اعني سورية وفينيقية واقليم العرب وفلسطين . ومن هذه الاعمال لا يهتأ هنا سوى سورية وفينيقية فنقصر كلامنا عليهما

وكان عمل سورية يُقسم الى ثلاثة اقسام او ولايات يسمونها سورية الاولى او سورية المجوفة ثم سورية الثانية او سورية الطيبة ثم سورية الثالثة المدعوة ايضاً سورية الفرائية

وكانت قاعدة سورية الاولى المعروفة بالمجوفة انطاكية العظمى وهي تمتد من جبل امانوس (اللكام) شمالاً الى مدينتي اللاذقية وجبلة جنوباً ويحدها شرقاً سورية الفرائية . فكانت سورية هذه تشمل القسم الغربي من ولاية حلب الحالية ومصرفية اللاذقية من ولاية بيروت

وكانت سورية الثالثة اي الفرائية تضم كل البلاد المعروفة سابقاً باسم كوماجينه (راجع خريطة سورية) وقد مرّ وضعها فلا حاجة الى اعادة الكلام فيها . وكانت حاضرة سورية المذكورة مدينة منبج (Hierapolis)

أما سورية الثانية (١) المدعوة بالطيبة (Syria Salutaris) فكانت حاضرتها افامية (قلعة المضيق) وكان يدخل في حيزها ابيفانيا او حماة . وكانت حدود هذه الولاية الجنوبية تنحدر الى جوار حصص فيالحق بها اراثوسة ومرمين ورفانية التي موقعها على مسافة ثمان ساعات الى عشر اشياء غربي حمص . وعليه فتكون هذه الولاية مطابقة لتقسم من ولاية حلب في جنوبها الشرقي ولقائمقامية حماة المركزية في ولاية دمشق . وكلامنا في هذه المقالة خصوصاً عن هذه سورية الثانية فلا بُد للقارئ ان يودعها ذاكرته ليتبعنا في بحثنا

وكان عمل فينيقية وهو القسم الثاني من سورية الرومانية يتقسم الى فينيقية لبنان وفينيقية الساحلية

(١) وعليه فلا نرى وجه التدقيق في تحديد بعض المحدثين لسورية الثانية حيث قال : « سمّاها الاقدمون سورية الثانية لتمييزها عن سورية الاولى التي تعم جميع ما هو من عريش مصر الى مصر دجلة »

فبنيقة لبنان التي مدار كلامنا عنها هنا كانت حاضرتها حمص على الاقل مباشرة لأنّ قسماً من سيطرتها بعد ذلك صار الى دمشق . وكفانا هنا علماً ان فينيقية لبنان كانت جنوبي سورية الثانية الطيبة

فلنعردن الآن الى دير القديس مارون لتعريف موقعه . ومما اتفق عليه في هذا الباب لفيق الكتبة ان هذا الدير كان على ضفة نهر العاصي . وكذلك لا خلاف بانّ موقعه كان في سورية الثانية . وهذا امر يلوح كالشمس في رائعة النهار لمن طالع العريضة التي وجهها رهبان هذا الدير الى البابا القديس هرمزداس مع سائر الكتابات الرسمية التي ورد فيها ذكره فانها كلها بلا استثناء تجعل دير القديس مارون في سورية الثانية فان صحّ ذلك بطل زعم الذين مجشوا عن دير القديس مارون خارجاً عن هذه الولاية . ومن ثمّ فلا صحة لقول من ذهب الى انّ هذا الدير كان بجوار انطاكية (١) او قريباً من حمص لانه لو كان في ضواحي انطاكية لكان من سورية الاولى اي المجوفة ولو جاور حمص لعد من فينيقية لبنان

ولكن بقي ان نعيّن مكان هذا الدير ضمن تخوم سورية الثانية في جوار نهر العاصي . وليبان الامر نرى هنا ايضاً اصلاح بعض الاغلاط الجغرافية التي شوشت هذه المسألة وجعلتها مرتبكة مغلقة

فالغلط الاول هو غلط الذين قربوا موقع افامية من حمص فجعلوا المدينتين مجاورتين وهو غلط عظيم ورد في تاريخ سرياني لدير مار باسوس نذكره لنفّده قتال صاحبه : « ودير الشهيد مار باسوس في بلاد افامية على مقربة (كذا) من مدينة حمص الكبرى » . وقد شطّ كاتب هذه الاسطر وسبب شطوطه انه وضع تاريخه في زمن كانت حمص بلغت فيه مقامياً ساماً فبهه نور شهرتها . ومن ثمّ فأننا نعذر الذين استندوا الى هذا القول ليجعلوا موقع دير القديس مارون في جوار حمص بدلاً من

(١) راجع تاريخ الكنيسة الانطاكية (ص ١٠٩) وتاريخ الطائفة المارونية للدوبي (ص ٣٩) وقد روى هذا العلامة (ص ٦٥) نصاً قديماً في سرورم ورد فيه ما نصّه : « قرية سرورم في جبل السويدية على مسافة متساوية بين انطاكية ودير القديس مارون » . قلنا ان كان المراد بالسويدية القرية الحالية المعروفة بهذا الاسم اقتضى القول بان دير القديس مارون كان موقعه بين انطاكية والبحر . وهو زعم مردود

افامية لاسيما ان افامية كانت آتشد خربت بعد ان احرقها كسرى الثاني فزادت حمص بخربها عظيماً

وَمَا يشهد لنا ايضاً على ارتقاء حمص ونفوذها في تلك الاعصار ان العرب بعد فتح الشام لما قسموا سورية الى اعمال متعددة دعوا اجناداً جعلوا حمص جنساً وادخلوا تحت حكمها مدينتي حماة وافامية . وهذا دليل واضح على عظم شأن حمص عند دخول العرب بلاد الشام اذ انها كانت من اكبر مدن سورية في وسطها الشرقي . فلا عجب اذن ان كان البعض اتخذوا حمص كقياس لتعريف المسافات كما انهم حسبوا افامية وحماة قريبتين منها لوقوعها تحت حكمها

والغلط الثاني في هذا الباب ان قوماً خلطوا بين افامية وحماة وجعلوها مدينته واحده وذلك لبعض التشابه بين اسم افامية وابيفانية (اسم حماة اليوناني) . وهو زعم باطل غوي به كتبه عديدون الى غاية القرن الثامن عشر منهم الكاتب دي لاروك في رحلته الى سورية (de la Roque : Voyage en Syrie. I, 239) ولوكيان في الشرق المسيحي وغيرهما كثيرون بعدهما فسرى منهم الوهم الى بعض المحدثين من الكتبة الشرقيين

والصواب في ذلك ان افامية هي كما قلنا سابقاً قلعة المضيق شمالي شرقي حماة . وقد اماط القناع عن هذه الحقيقة للمرة الاولى العلامة بورخردت (Burckhardt) فتبعه العلماء المحققون في قوله بعد ذلك بنحو ربع القرن . وعليه فلا تريب على بعض كتبة الشرق العلماء ان ضلوا في ذلك سواء السبيل

ولعل سبباً آخر دفع هؤلاء الكتبة الى ان يجعلوا دير القديس مارون في ضواحي حمص وهو موقع مغارة الراهب . فان هذه المغارة او بالحري هذه سلسلة المغاور التي وصفناها في الجزء السابق (ص ١١٠ وفي المشرق ٢٦٤ : ٤) موقعها جنوبي حمص عند راس العاصي . ولما كان بعض العامة يعرفونها باسم دير القديس مارون ظن قوم ان المراد بهذا المكان ذلك الدير الاول الذي بُني على اسمه قريباً من افامية فكل هذه الزاعم اوهام لا يجوز القول بها . ومن ثم لا نرى ما كتبه البعض في هذا الصدد مضبوطاً حيث جعلوا دير القديس مارون « على تخوم حمص » او « في بلاد

حمص وحماة» او «بين حمص وحماة» (١) او «في حمص» كما ورد في تاريخ ابي
الغداء (٢) وقد تبعه الاب ميشال جوليان اليسوعي (٣) او في وسط الطريق بين افامية
وحمص على رأي الاب فالويه الصعودي (٤)

والقول الفصل عندنا في ذلك ان موقع دير القديس مارون فُوَيْقِ هذه الامكنة
شمالاً ما وراء حماة . ومثمن كادوا يصيبون الهدف في ذلك العلامة السعودي من
كشبة القرن العاشر للميلاد فإنه عين موقعه بقوله في كتاب التنبيه (ص ١٢٣) : ان
هذا الدير كان « شرقي شيزر . . بقرب نهر الأرُنط نهر حمص وحماة » . وشيزر هذه
تُعرف في عهدنا باسم شَيْجَر وهي في نصف الطريق بين حماة وافامية اي قلعة
المضيق . وقد افادنا الكاتب عينه ان الموارنة كانوا كثيرين في معاملات شيزر ومعرة
النعمان وافامية يسكنون في وسط تلك البلدان . وعندنا ان سبب نمو الموارنة
ووفرتهم في تلك الجهات إنما كان قربهم من هذا الدير العظيم فتألبوا حوله ومنه
قدموا وانتشروا في جهات البترون وجبيل كما بيّننا ذلك في مقالة سابقة

واصدق ما ورد في ذلك إنما جاء في الآثار المارونية التي نشرها الحوري نو (Nau)
الافرنسي (Opuscles Maronites, II, 22) وقد ذكر هناك ان دير القديس
مارون كان « قريباً من افامية في وادي العاصي » . وقد آثرنا قوله على سواه لأن
كاتب هذا الاثر اقدم من سواه عهداً سبق غيره الى ذكره (٥) وقد عرف موقعه
بدقّة وضبط . فمن هذا النصّ مع ما يستفاد من مراجعة اقوال المؤرخين يتّضح لنا
ليس فقط ان دير القديس مارون كان في سورّيّة الثانية بل انه ايضاً كان في نحو مركز
هذه الولاية

ومما يؤيد رأينا ما ورد في تاريخ رهبان القديس مارون المستشهدين . قال كاتب
اخبارهم ان هؤلاء الرهبان بعدد ٣٥٠ خرجوا سنة ٥١٧ يريدون دير القديس سمعان

(١) راجع تاريخ الكنيسة الانطاكية (ص ١٠٩, ١٧٥, ٢٥٧, ٢٦٩)

(٢) راجع تاريخ ابي الغداء (Hist. anteisl., ed. Fleischer., p. 112)

(٣) في رحلته الى سورّيّة وسينا (١٧٨)

(٤) راجع اصداء الشرق (الجزء ٤ ص ٩٠)

(٥) لا يخجل ان عريضة رهبان القديس مارون الى البابا هرمزاس اقدم من كاتب هذه
الآثار المارونية الا ان تلك العريضة لا تنفيذها عن موقع الدير سوى كونه في سورّيّة الثانية

العمودي اذ هجم عليهم المعتصبون فقتلواهم . فيؤخذ من هذه الرواية انه كان بين رهبان الديرين علاقات متواصلة وانهما لم يكونا مبتعدين كثيراً الواحد عن الآخر . على اننا نعلم ان دير القديس سمعان كان واقعه في جبل بركات على مسافة بعض ساعات من حلب غربيها (١) . فلا بُدَّ اذن من القول ان دير القديس مارون كان ايضاً من جهة قريبة من افامية كما سبق . وان اعترض علينا احد ان المسافة بين الديرين لا تزال كبيرة اجبتنا ذلك صحيح لكن الامكنة التي يختارها غيرنا لوقع هذا الدير اذا جعلناه في حصص او حماة تريد هذه المسافة زيادة بالغة بحيث لا يدرك القارئ سهولة هذه المخبرات بين الديرين لاسيما كيف امكن نحو ٤٠٠ راهب (٢) ان يخرجوا في وقت واحد فينتقلوا الى الدير الآخر . ومن ثمَّ لا بُدَّ القول ان دير مارون كان ارقى شمالاً كما تشهد عليه الآثار التي استندنا اليها

وان كانت النتائج السابقة هي صحيحة فيبقى ان تنحصر اجنات العلماء عن دير القديس مارون منذ الان فصاعداً في وادي العاصي قريباً من قلعة المضيق . فينبغي على الاثريين ان يتجولوا في تلك الجهات ويفحصوا الاخربة ويجمعوا التقاليد الباقية بين اهل تلك النواحي ريثما يطأعوا على موقع هذا الدير الجليل الذي احتله مئون من الرهبان الصالحين فقدسوه باعمالهم وبر حياتهم ويشهد على ذلك المسعودي في كتاب التنبه حيث قال (ص ١٩٣) : « ودير مارون بنيان عظيم حوله اكثر من ثلاثمائة صومعة فيها رهبان وكان فيه آلات من الذهب والفضة والجوهر شي . عظيم فخرب هذا الدير وما حوله من الصوامع بتواتر الفتن » . فلا شك ان بناء عظيم كهذا لم يخرب دون ان يبقى منه شي . من آثاره . وان قيل ان خرابه سبق القرن العاشر فيصعب وجود بقاياها . اجبتنا ان هذا الدير كان موقعه بعيداً عن البلاد الآهة بالسكان كما ان قلعة المضيق اصبحت منذ اجيال متعددة معتزلة عن الطرق اللاهبة

(١) وليس كما زعم حضرة الخوري فبريل « حذاء انطاكية » (ص ١٧٥) كذلك لا يمكن ان نسلم بما جاء في ذيل الصفحة نفسها

(٢) قلنا ٤٠٠ راهب . ولعلمهم كانوا اكثر والثابت المقرر ان عدد القتلى المستشهدين منهم كانوا ٣٥٠ وقد فر منهم كثيرون هاربين . وسياقياً قريباً ذكر دير آخر قريب من دير مارون بلغ عدد رهبانه سنة آلاف راهب بنيف

فلم يكثر فيها الحُراب والنهب فلا ريب ان تكون ايضاً آثار هذا الدير الذي عُرف
باسم دير البلور باقيةً بجوارها حتى اليوم

٦

اثبتنا في ما سبق انّ القديس مارون عاش وتوفي في القورسيّة . وفيها دُفن ايضاً
ليس بعيداً عن مكان وفاته . وذلك واضحٌ لمن اعتبر قول توادوريطوس . وقد أدّى
بنا من جهة أخرى مجال البحث في الفصل السابق الى ان نجعل دير القديس مارون
قريباً من افامية اعني على مسافة نحو مئة كيلومتر جنوبياً من قورس . وكأني بالقرى
يستغرب الامر ويجد في تعيين موقع هذا الدير خارجاً عن القورسيّة بعض التناقض
ويشك في صحّة النتائج التي استنتجناها

كلّاً لا تناقض في ما قلنا . وان يكن في الامر مشكل . وانما المشكل اعظم
واقوى اذا ما جعلنا موقع دير القديس مارون في جهات حمص

اعلم انّهُ لا يُعرف نصٌ واحد يذكر صريحاً أنّ جسم القديس مارون دُفن في
افامية . بل في قول توادوريطوس ما هو عكس ذلك . وانما يثبت التقليد انّ
رأس الناسك القديس بعد خواب دير القريب من افامية نُقل الى لبنان

اما ذخائر القديس فلا نعلم أنّقَلت ايضاً بعد وفاته ببضع سنوات الى جهات
افامية ام لا وان كان الامر محتتملاً ولعلّ الباحثين يجدون حلاً لهذا المشكل في
التفاصيل التاريخية النادرة التي كُتبت عن اديار افامية ونواحيها

وكانت هذه الاديار كثيرة قد ذكر منها توادوريطوس في رسالته الـ ١١٩
ديرًا «موقعه على ثلاثة اميال من افامية» طلب ان يعتزل فيه وهو يسميه ديرهُ كأنهُ
عاش فيه العيشة الرهبانيّة (١)

ونعرف فضلًا عن هذا الدير قرب افامية ديرًا آخر شهيرًا وهو دير مار بسوس (٢)

(١) انّ توادوريطوس كان راهبًا الى سنة كهنوته فدخل في جملة آكليرس انطاكية
(٢) راجع كتاب العلامة رونس دوغال في الآداب السريانية (ص ٣٥٣) والمجلة الشرقية
الالمانية (ZDMG, XXX 217)

الذي نشر عنه الخوري شابو كتاباً موسعاً (١) ومما ورد في اثناثه ان عدد رهبانه بلغ ٦٣٠٠ راهب (ص ٦١). ألا ان صاحب هذا الكتاب قد وهم بقوله ان هذا الدير كان في بلاد حمص او قريباً من هذه المدينة (٢) والصواب ان دير مار بسوس كان بجوار افامية . وفي ما سبق اشرفنا الى هذا الغلط وسببه ولا نخال ان الكتبة خلطوا بين دير مار بسوس ودير مار مارون لوقوع كلا الديرين في جوار افامية . والدليل عليه ان الديرين اسماً مختلفاً فضلاً عن ان دير مار بسوس اضحى بعد قليل مركزاً للبدعة اليعقوبية (٣)

فوجد عدد وافر من الاديار في نواحي افامية برهان جديد على ما كان لتلك الناسك من المقام الرفيع والشهرة الذائعة ولا حرج بعد ذلك ان نسلم بصحة ما رواه الرواة عن خطر دير القديس مارون وعظم شأنه

ومما اخبر به توادريرطوس ايضاً ان القديس الناسك مرقيان القورسي ارسل واحداً من تلاميذه اسمه اغاييتس فوكل اليه بان يعمر اديرة عديدة بقرب افامية وبالاخص عند نيقيرتا (Νικερτα) وهي بلدة واسعة كثيرة السكان ابنتى فيها اغاييتس معهدين لتعليم الحكمة السموية دُعي الواحد باسمه . وجمع فيهما فوق اثني راهب تجندوا للفضيلة ولازموا التقي (٤) . وقد ورد اسم نيقيرتا هذه في كتابين يونانيتين تراهما في مجموع الكتابات اليونانية (٥) تحت العددين ١٨٥٥ و١٨٧٧ وفي جدول المخطوطات السريانية المصونة في المتحف البريطاني (Wright, Cat. 756. c. 2) اسم رئيس تولى رئاسة دير نيقيرتا . أما نيقيرتا المذكورة فليس لدينا نص صريح يفيدنا عن موقعها بالتدقيق في جوار افامية لثقل ما نعلم من امور تلك الناحية (٦)

(١) J.-B. Chabot: *La légende de S^t Bassus et son couvent à Apamée*, راجع

1893

(٢) قد جاء في مجلة الشرق المسيحي ذكر دير ثالث في افامية (KOC. p. 1902, 611.)

(٣) راجع ايضاً مقدمة الخوري شابو (ص ٩٥ و ٩٠)

(٤) راجع تاريخ الرهبان في مجموع مين (ج ٨٢ ص ١١٢٨)

(٥) CIG, 9877 et 9875

(٦) طالع ما كتبه في هذا الصدد الاستاذ هرمان (ZDPV, XXIII, 145)

ولعلّ سائلاً يطلب او ليس دير القديس مارون احد الاديار التي ابتناها القديس اغابيتوس في جوار افامية؟ اجبتا ان هذا لرأي سبقنا اليه حضرة الاب جوليان اليسوعي في كتابه عن جبل سينا وسورية (١) « ولا نرى داعياً لانكاره اذ ان درس الامكنة ومواقعها لا يخالف هذا المذهب وله سند في التاريخ لان وفاة القديس اغابيتوس وقعت بعد وفاة القديس مارون . على أننا لا نوافق حضرة الاب جوليان في زعمه بان « دير القديس مارون كان بين افامية وحصص على ضفة العاصي ليس بعيداً عن حصص في المكان المعروف اليوم بالدير الكبير (٢) »

قد مضى علينا نحو ثلاث سنوات منذ زرنا هذه القرية الواقعة على مسافة ساعة ونصف من حصص في شالها الغربي على ضفة العاصي الغربية ووجدنا فيها آثاراً قديمة بيد ان نظرها لم يُعدل بنا عن رأينا وفي حججنا السابقة ما هو كاف لبيانها . وعندنا ان حضرة الاب جوليان خُذع بما كتبه المؤرخ الشهيد صاحب حماة الملك المؤيد ابو الفداء وهو يجعل الدير في حصص نفسها . ثم غرّه ايضاً اسم « الدير الكبير » الا ان سالنامة ولاية سورية روت اسم هذه القرية على صورة اخرى فدعتها « الدار الكبير » ولعل الصواب « الظهر (الظهر) الكبير » كما سمعناه او فهمناه من اهل القرية وهذا الاسم يوافق المسمى لان القرية على ظهر ربوة

وقد ذهب الاب مرتينوس اليسوعي في تاريخه المخطوط عن لبنان الى رأي آخر نستلفت اليه نظر القارى . قال المؤلف المذكور الذي وقف كل حياته على البحث عن لبنان وتاريخه : « لا يبعد ان القديس ماري (Marès) الراهب القس في ناحية افامية الذي وجه اليه القديس يوحنا فم الذهب رسالة (٣) هو القديس مارون عينه (٤) لان الاسمين ماري ومارون لا يختلفان عند كتبة اليونان في سورية وليس ماري سوى مارون مع اختلاف حركة الاعراب في اليونانية فشاع هذا الاسم في الناحية . اما تلقيه

(١) P. M. Jullien s. j. : *Sinai et Syrie*, p. 178

(٢) فيه صفحة ١٧٨

(٣) هي الرسالة ٥٢ وهي غير رسالته الى مارون الكاهن

(٤) هذا زعم لا يمكننا التسليم به اذ ان فم الذهب يثبت في هذه الرسالة ان ماري عاش في مقاطعة افامية خلافاً لما نعرفه عن القديس مارون

بالقديس فقد جرى على ذلك رهبانته تبجيلاً له فاقتدى بهم فم الذهب
 « ومثالنا في ذلك مثال ديرين آخرين في جهات افامية عُرف الواحد منهما باسم
 القديس سمعان والآخر باسم القديس اغابيتوس (١) وتؤيد هذا الراي المخالف للراي
 العمومي رواية توادوريطوس في تاريخه (٢) الذي يفيدنا ان جمهور الرهبان الذين اتوا
 من القورسيّة الى بلاد افامية لينشئوا فيها الاديار كانوا تلامذة للقديس الناسك
 مارقيان ليس تلامذة القديس مارون لأن المؤرخ المذكور افادنا انه لم يخرج احد
 من رهبان القديس مارون من بلاد قورس (٣) . ولا يبعد ان تلاميذ القديس
 مارقيان وكان اصلهم من بلاد قورس (٤) دعوا احد الاديرة التي شيّدوها في بلاد
 افامية باسم القديس مارون لآكرامه الا ان كلام توادوريطوس صريح في القديس
 مارقيان حيث قال : « ومارقيان الالهي هو الذي انشأ كل اديرة بلاد افامية (٥) »
 فلا يمكن اذن ان يُنسب انشاء احد هذه الاديرة لتلامذة القديس مارون . . . ومن
 ثم لا نستغرب القول بان ماري الذي اوفد اليه القديس يوحنا فم الذهب برسائله
 كاحد رؤساء الدير مع القديس سمعان (٦) هو منشي السدير وان عُرف باسمه اولاً
 دير القديس مارون . هذا ونقر ان الافادات التاريخية في هذا الخصوص لمخلة جداً .
 ومن المحتمل انهم لم يميزوا بين القديس مارون والقديس مارقيان الذي ورد مكتوباً
 في بعض النسخ ماريان (٧) »

هذا ما رواه الاب مرتينوس في تاريخه وهو زعم نوره على علّاته دون ان نحكم
 فيه (٨) . وما يزيدُه بعض الرجوح شهرة القديس مارقيان فان اسم هذا القديس كان
 ذاتعاً مستفيضاً حتى ان معاصريه شيّدوا بيعة على اسمه قبل وفاته أفيستغرب احد

(١) راجع توادوريطوس في تاريخه المذكور (ج ٨٢ ص ١١٢٨)

(٢) في المجلد والصفحة عينهما

(٣) راجع تاريخ الرهبان (ع ١٦ و ٢٥)

(٤) او على الاقل كبارهم الذين شيّدوا الاديرة

(٥) تاريخ الرهبان (ع ٣)

(٦) راجع رسالة القديس يوحنا فم الذهب الـ ٥٥

(٧) راجع تاريخ الاب مرتينوس الصفحة ٢٢٢٨ و ٢٢٢٩

(٨) الا زعمه بان ماري ومارون اسم واحد فأننا لا نسلم به

ان يكون رهبانه حاولوا بعد مجيئهم من بلاد قورس الى النحاء افامية ان يتخذوا ذكرهُ بابتداء دير على اسمه . وعلى كل حال لو صحَّ هذا الرأي لفضَّ المشكل الذي نحن بصدده ويظهر لكل العيان كيف دُعي احد اديرة افامية باسم القديس مارون الذي توفي في القورسيَّة . وما لا شبهة فيه ان في السنين الاولى من القرن السادس كان الدير المذكور لا يُنسب الى غير القديس مارون وان افترضنا ان رهبان الدير حصلوا على قسم من ذخائر القديس مارون او على جسمه الطاهر كله فلا عجب ان يكون التبعُد للقديس امتدَّ الى كل جهات بلاد الشام

امَّا ما حدث بعد ذلك لدير القديس مارون فيفيدنا به ابوالفداء اذ يعلمنا في كتاب تقويم البلدان (ص ١١٤) ان الملك مرقيان وسَّعه في السنة الثانية للملكه اعني سنة ٤٥٢ . ولما تحامل اليعاقبة على ابنيته فاخربوها (١) في اوائل القرن السادس اعاد بناءه الملك يوسطنيان الكبير (٢) الذي ضبط زمام الملك من سنة ٥٢٧ الى ٥٦٥ . وقد اخبر سعيد بن بطريق في تاريخه ان هرقل الملك تفقَّد هذا الدير سنة ٦٢٨ لما رحل ظافراً الى سوريَّة فوقف عليه اوقافاً عديدة (٣) . وفي عهد هذا الملك جرت بين اليعاقبة ورهبان دير مار مارون مخاصمات ذكرها ابن العبري في تاريخه الكنسي وقال ايضاً ان الموارنة اخذوا من اخصامهم عدَّة كنانس أبي هرقل ان تُردَّ الى اليعاقبة (٤) . ولم يزل هذا الدير زاهراً في سنة ٧١٥ كما ورد في نص سرياني نشره الحوري نوترجته بالفرنسيَّة (٥)

والمظنون ان خراب هذا الدير تمَّ في القرن التاسع فاضطَّر رهبانه ان يأتوا الى لبنان مع سكَّان الناحية المجاورة له . وفي قول المسعودي الذي اوردناه سابقاً ان دير القديس مارون كانت اغتالته في عهده (اعني في اواسط القرن العاشر) يد الزمان

(١) وقيل انه خرب بزوال

(٢) راجع كتاب پركوپيوس في الابنية (ك ٤ ف ٩)

(٣) راجع اعمال آباء اليونان لسين (PG, CXI, 1089) وراجع الصفحة ٢٦ من الجزء الثاني من تاريخ ابن بطريق 269 Eutychius, ed. Cheikho, II

(٤) Chronicon Eccl. I, 270-274

(٥) Bulletin de S. Louis des Maronites, Janvier, 1903, p. 346

فخرب . ثم لا تعود ترى له من بعد ذلك اثرًا في التاريخ حتى ان ياقوت الرومي لم يذكره في معجم البلدان مع انه افاض في وصف اديرة كثيرة اشتهرت في بلاد الشام منها خربة ومنها مأهولة بالرهبان . وكذلك تصفحنا تأليف جغرافي العرب المتعددة لعلمنا نجد شيئاً عن دير القديس مارون فذهبت مساعينا سدًى ولم نقف على ضالّتنا مع ان هؤلاء الكتبة كروا مراراً اسماء الاديار الشامية ورووا من ابيات الشعراء ما ورد فيه ذكرها

وهذا لعمرى من الامور الغريبة ان ديراً طار اسمه في البلاد مدّة القرنين السادس والسابع فاصاب من الشهرة ما اصاب في تاريخ سورية الديني يصبح بعد مجده نسبياً منسياً لاسيما ان دير القديس مارون لم يكن ديراً منقطعاً لا نفوذ له بل كان يدخل تحت حكمه اديار اخرى تعرف له حقوق السيادة كما كان شأن الاديرة في سورية الشمالية وسورية الوسطى فان اديرتها الرهبانية كانت ترتبط بين بعضها بروابط متينة بحيث تكون السيطرة لدير اعظم تخضع لرئاسته بقية الاديار المجاورة له (١) . وهو امرٌ يصدق في دير القديس مارون الذي امتدت رئاسته على سائر اديار سورية الثانية . غير انه يعزّ علينا ان نبين حدود هذه الرئاسة وسعة نطاقها . فلا نعلم اكانت هذه الرئاسة شرفية محضاً او كان لرئيس الدير الكبير بعض السلطة على بقية الاديرة . كما انه يصعب علينا ان نبين اصل هذه السلطة فلا ندري اكانت ناتجة عن تفرع دير من آخر او بارادة منشي الاديرة او بخروج مستعمرة رهبانية من الدير الاكبر فكل هذه المباحث عويصة لا يُستطاع حلها سهلاً

وعلى كل حال ان تقدم دير مار مارون ورئاسته على بقية الاديار لمن الامور الحربية بالاعتبار فان ذلك يبين لنا كيف امتدت سريعاً الطائفة المارونية ليس فقط في بلاد افامية لكن في الايلات الخارجة عنها ايضاً . وعلى راينا ان كل دير من هذه الاديار المنوطة بدير القديس مارون اضحى بعد مدّة مركزاً لقلة من المؤمنين الذين غوا عدداً بعد حين وانتسبوا الى القديس مارون . وفي مقاتلتنا السابقة عن انتشار الموارنة رأينا كيف خرج منهم فئات دخلوا لبنان واستعمروا الجهات الموافقة

(١) راجع ما كتبه في ذلك العلامة نلدك (ZDMG, 1875 p. 423, note)

لنموهم وازديادهم
 فيرى القارى ان هذا البحث الجغرافي عن سيرة القديس مارون يرتبط بالبحث
 السابق اعني اصل الطائفة المارونية وكيفية انتشارها (١) وهذا ما حملنا على التدقيق
 في تعريف الامكنة التي نشأ فيها القديس مارون كيف لا وهو ابو طائفة تُعدّ من
 اعظم الامم اللبنانية عطرها هذا الرجل العظيم بعيشته وموته

*

وفي الختام احببنا ان نلجس للقراء ما اتسعنا في بيانه في هذه المقالة لتبقى
 خلاصتها في ذاكرتهم :

١ لا مرا. ان القديس مارون. عاش ومات في القورسيّة
 ٢ ان الرأي الاصوب في مولده انه وُلد ايضاً في القورسيّة وليس في جوار

انطاكية

٣ دُفن القديس مارون في حدود القورسيّة الجنوبيّة
 ٤ كان موقع دير القديس مارون مهّد الطائفة المارونيّة بين نهر العاصي
 وافامية . وهذا ممّا لا ريب فيه

٥ امّا كيف دُعي هذا الدير باسم القديس مارون وكيف نُقلت اليه ذخائره
 فامر ان لا يمكن القطع بها فتسنى ان يحكم غيرنا فيهما حكماً فصلاً فيصرح الحق
 عن محضه

٧

في لغات لبنان القديمة

قد استدلل القارئ من الابحاث السابقة (١) ان لبنان مع ما طرأ عليه من تقلبات الاحوال وتماقُب الامم في سكنائه لم يزل مقاماً لشعب اصلي كان سامياً يغلب عليه العنصر الكنعاني والآرامي . ولنا في درس اللغات المستعملة في لبنان ما يؤيد هذه النتيجة فان التاريخ والبحث اللغوي يثبتان صريحاً ان اللغة الشائنة في لبنان كانت ابدأ لهجة سامية

ولنا في اكتشاف مراسلات تل العمارنة التي وصفناها سابقاً (٢) ما يرقى حجبتنا من هذا القبيل الى القرن الخامس عشر قبل المسيح . فان في هذه المكاتبات عدة تقارير ارسلها ولاة صيداء وجبيل وبيروت الذين كان لبنان تحت حكمهم الى فراعنة مصر وكأها باللغة البابلية التي كان ينطق بها هؤلاء الامراء وعملهم اجمعون . وهو لصري اصري ذو بال يؤخذ منه ان اللغة الاشورية كانت شائعة بين اهل لبنان ان لم تكن لغتهم الوحيدة . فيسوغ اذن القول بان اول لغة شهد التاريخ على وجودها في لبنان انما كانت لغة سامية اعني البابلية . وقد حاول المقتطف (١١٠٣ ص ١٧٥) في وصفه لكتاب تاريخ بيروت ان ينكر ذلك حيث قال : « ان استعمال اللغة الاشورية في المكاتبات السياسية والتجارية لا يكفي دليلاً . . . على ان اللسان الاشوري كان شائعاً في ظهراي الامة الفينيقية » الا ان في قوله لشططاً ولو تحقق نفوذ الامة البابلية في بلاد الشام منذ ثلاثة آلاف سنة قبل المسيح لما جحد ذلك (٣) والآثار المثبتة على مكان البابليين وكلمتهم الراجعة في هذه البلاد لعديدة حتى ان كثيرين

(١) راجع الفصل المعنون « الامم البائدة في لبنان » وفصل « انتشار الامة المارونية » الخ

(٢) راجع مقالنا « احوال لبنان في القرن الرابع هجر قبل المسيح » (في الجزء الاول

ص ٧١)

(٣) راجع المقالات الحسنة التي كتبها في هذا الصدد حضرة الاب دي لاتر اليسوعي

(P. Delattre : Le pays de Chanaan, province de l'ancien empire égyptien)

من العلماء المبرزين كفنكلر (١) وغيره يزعمون ان مملوك بابل استولوا على الشام في ذلك العهد العميد وان القبائل البابلية التي كانت على ضفة نهري الفرات ودجلة امتدت وانتشرت الى سواحل البحر المتوسط . وهو رأي راجح كان يجيز لنا بان ننظم البابليين بين اسم لبنان البائدة لولا رغبتنا في اقتصار الابحاث . وما لا يُنكر من آثار المعاملات بين بابل ولبنان المواد البنائية التي وجدت في اخربة بابل مما نقل من لبسان كالارز والرغام الابيض والحجارة . أفيسْتَعْرَب بعد ذلك كون اللغة البابلية انتشرت في ضواحي لبنان

والظاهر ان سيطرة اللغة البابلية في الشام امتدت الى نحو القرن الرابع عشر قبل المسيح ومن تبصر في مكاتبات تلّ العارنة وجد فيها الفاظاً وتعابير من اللغة الكنعانية وهذا ناتج عن استيطان قبائل الفينيقيين والكنعانيين قبل ذاك العهد سواحل الشام ولم يلبث الاراميون أن يتعمقوا آثارهم ويجمعوا بهم (٢)

واعلم ان اللغة الكنعانية (التي تشمل العبرانية والفينيقية) واللغة الآرامية متجاورتان حتى تغلبت الآرامية وصار لها السبق فكادت تكون هي اللغة الوحيدة بعد جلاء بابل . على ان بعض معاملات لبنان لاسيما ما كان منها مجاوراً للمراكز الفينيقية الكبرى ثبتت مدة بعد ذلك على استعمال اللغة الفينيقية

فمن ثم لا نشط اذا قلنا ان اللغة الآرامية ملكت دون منازع في لبنان مدة نيف والى سنة . قال المؤرخ مُنسن الشهير في تاريخ الشام على عهد الفتح الروماني « ان لبنان بخصر الكلام لم يغير قطّ عنصره (٣) » اعني انه بقي آرامياً جنساً ولغة الى نحو القرن الرابع عشر من تاريخ الميلاد

ولما صار الامر الى الفرس بعد البابليين بقيت السيطرة للغة الآرامية وكان ملوكها يتخذون هذه اللغة كاللغة الرسمية ليس فقط في بلادهم لكن ايضاً في

(١) راجع كتابه الاخير H. Winckler : *Keilinschriften und das alte Testament*,

1903

(٢) راجع كتاب فنكلر Winckler : *Die Voelker Vorderasiens*

(٣) راجع تاريخه (Roem. Gesch., V, 418)

الإقطار الخاضعة لهم كمصر وآسية الصغرى . والاكتشافات الأثرية في مصر تؤيد ذلك فإن العلماء وجدوا عدّة كتابات اصدرها ولاية الفرس باللغة الآرامية . وكذا فعل من بعدهم ملوك بني ساسان فإن رسائلهم كانت مكتوبة باللغة السريانية (١)

*

أمّا السلوقيون فإن نفوذهم في لبنان كان ضعيفاً لاسيما من حيث اللغة فإن اللبنانيين داوموا على استعمال اللغة الآرامية ممزوجة باللهجة الفينيقية . ومن عجيب الامور ان انتشار لغة الآراميين بلغ على عهد السلوقيين مبلغاً عظيماً فاضحت اللغة السائدة في كل آسية السامية اعني في سورية وما بين النهرين وبلاد الكلدان والعراق وجزيرة العرب (٢) الآن اللغة الرسمية بين عمال الدولة ولغة العلماء كانت اليونانية في كثير من تلك البلاد دون ان تشيع في عامتها (٣)

ثم تولى الايطوريون على لبنان (٤) فلم يغيروا شيئاً من لغتهم وكان الايطوريون عرباً واصلهم من حوران من الجهات المجاورة لجبل حرمون . ومع كون المؤرخين لم يصرحوا بأية لغة تكلمت قبائلهم لانكش في ان العربية او الآرامية كانت لغتهم الخاصة كما يُستدل على ذلك من اسمائهم وهي عربية او آرامية وان سلّمنا انهم تكلموا بالعربية لانزى بدأ من القول بانهم اتخذوا الآرامية كلغة معاملاتهم وذلك لان الطرق التجارية بسبب الحروب التي وقعت بين الملوك السلوقيين وملوك مصر اللاغيين كانت تحوّلت الى جهات جزيرة العرب بعد مرورها سابقاً في سورية الشمالية وسورية الوسطى فصار العرب وسطاً لهذه التجارة الواسعة . ولما لم يكن للعرب وقتئذ كتاباة خاصة اضطرهم الامر ان يتخذوا اللغة والكتابة الآرامية الشائعة في حدود بلادهم بين مجاورتهم الآراميين أمّا النبط وهم من اقارب الايطوريين وجيرتهم فإن لغتهم النبطية لم تكن سوى

(١) راجع مقالة كاترمار عن النبط. *Quatremère: Mém. sur les Nabatéens, 137.*

(٢) راجع المجلة الاسيوية الالمانية. *ZDMG, 1885 p. 333.*

(٣) راجع مقالة الدكتور شندا عن الآراميين. *Sanda: Die Aramaeer, 4, 23 etc.*

(٤) راجع الصفحة ٣٩

لهجة آرامية . وامتدَّت اللغة الآرامية في شمالي جزيرة العرب الى حدود الحجاز وذلك في القرون الاولى من تاريخ الميلاد الى القرن السابع منه . والادلة على ذلك كثيرة فان الكتابات التي وُجِدَت في كل تلك الانحاء انما هي بالآرامية ليست بالعربية (١) وما قلناه عن الشام وجزيرة العرب يصحُّ أيضاً عن شبه جزيرة طورسينا وفيها كتابات آرامية لا تُحصى ابقاها لنا عرب تلك الجهات

فن ثم نصادق تماماً على قول العلامة نلدك وقوله حجة في زماننا عند العلماء :
 « قد تناوبت في لبنان هذه اللغات الثلاث اعني الكنعانية ثم الآرامية ثم العربية » .
 وكان يمكن هذا المستشرق الشهير ان يقدم على هذه اللغات اللغة البابلية الا انه لما كتب هذه العبارة لم تُكتشف بعد مراسلات تل العارنة . أما اللغة الفينيقية فان الآرامية محت آثارها في لبنان كما في سورية كلها في قرون النصرانية الاولى (٢)
 أما اللغات الاخرى غير السامية فانها لم تنفُز قط بالسيطرة في لبنان . واذا خصصنا بالنظر اللغة اليونانية وجدنا ان اللبنانيين لم يتكلموا بها مطلقاً . وقد بيئنا في ما سبق ما معنى الكتابات اليونانية التي وجدت في لبنان (راجع الصفحة ٣٥) واثبتنا ان وجودها ليس بدليل على شيوع هذه اللغة بين العامة كما ان وجود الكتابات اللاتينية المتعددة فيه لا يدل على ان اهل لبنان تكلموا بهذه اللغة . وعندنا ان هذه الكتابات لم يفهمها غير العمال الذين آمروا بصنعها . ولا نستثني من هذا الحكم الصناع الذين حفرها فانهم كانوا ينقلونها ثقلاً ويصوروها دون ان يفقوا على فحواها

*

وقد زادت اللغة الآرامية شأناً بدخول الموارد في لبنان فاضحت في أظهرهم اللغة الوحيدة مدة اجيال متوالية . وتشهد على ذلك اعلام قري لبنان التي هي في الغالب

(١) راجع مقالة كاتر مار في التبط (١٣٣ و ١٣٤) وقال المسعودي في كتاب التنبيه (ص ٧٩) : « وكانت بلاد العرب اليوم وبرّها ومدنها اليمن وحماة والحجاز واليامة والعروض والبحرين والشجر وحضرموت وعمان وبرّها الذي يلي العراق وبرّها الذي يلي الشام . وهذه الجزيرة كلها . . . لسانها واحد سرياني » . راجع ايضاً مقالات نلدك ZDMG, 1871, 122 ومقالات فنكلر (H. Winckler: *Mitteil. vorderas. Gesel*, 1901; 130) وكراسة فيليب برجه (L'Arabie avant Mahomet, p. 9)

(٢) راجع Ad, Harnack: *Mission u. Ausbreit d. Christentums*, p. 430

مشتقة من اصل سرياني كما بيّنا ذلك سابقاً وسيأتي بيانه بنوع اجلي ولما ظهر المسلمون واستولوا على سواحل الشام اخذت العربية تنتشر شيئاً فشيئاً في جهات لبنان . وساعد على انتشارها ايضاً دخول الايطوريين كما سبق (الصفحة ٣٩) ثم دخول المتأولة والنصيريين من بعدهم (١) الا ان اللغة الآرامية دافعت عن حقوقها مدافعة جيدة ويؤخذ من كلام يعقوب دي فيتري من كتبة الحروب الصليبية ان العربية امتدت في الجبل اي امتداد (٢) ومع ذلك ان ابا الفرج ابن العبري (٣) كان يعتبر في القرن الثالث عشر السريانية كلغة اهل لبنان الا ان لغة العرب لم تزل في نمو وانتشار حتى غلبت السريانية شقيقتها في القرن الخامس عشر لكن هذه لم تتوار بالتمام الا تدريجاً وكان اهل بعض القرى الداخلية كبشري وحصر وجريرتها يتكلمون بها حتى في القرن السابع عشر (٤)

وبقي من آثار السريانية بعد دخولها ان كثيرين اتخذوها الكتابة المؤلفات العربية كما يظهر من كثرة الكتب المخطوطة بالكوشوني . هذا فضلاً عن عدة الفاظ وتعابير سريانية باقية في لهجة اللبنانيين (٥) تنبئ بما كان من السيطرة للغة الآرامية في لبنان بل قل في اكثر انحاء المعمور القديم . كيف لا ومن اقدم لهجاتها اللغة الاشورية التي وجد من آثارها كتابات راقية الى ٤٠٠٠ سنة قبل المسيح في اكثر اقطار آسية الغربية واضحت السريانية مدّة اعصار عديدة حتى بعد القرون المتوسطة لغة علماء الشرق كما كانت اللاتينية لغة علماء العرب وكان المسلمون ايضاً يدرسونها لكثرة فوائدها (٦) . وقد كتب بها الارمن مدّة قبل انتشار الارمنية وحروفها . وقد بلغ امتداد هذه اللغة الى اقاصي الشرق في الصين شمالاً وفي الاقطار الهندية جنوباً كما انها بلغت جنادل النيل . فلا نظن ان لغة اخرى حتى ولا اليونانية جارت السريانية في اتساعها اللهم الا الانكليزية في عهدنا

(١) راجع مقالتنا الافرنسية عن النصيرية في لبنان (مجلة الشرق المسيحي, 1902, ROC)

(٢) تاريخ القدس ف . ٧٧

(٣) راجع تاريخ مختصر الدول (ص ١٨)

(٤) راجع مقالتنا «فرا غريفون» في (السنة الاولى من المشرق (ص ٥٧)

(٥) راجع مقالة الاب پاريزو في المجلة الاسيوية الباريسية (١٨٩٨ ص ٢٨٦)

(٦) فيها (ص ٢٤١)

فترى شطوط القائلين بأن اللغة الآرامية كانت لغةً خاملة بربرية . وقد فند المشرق زعم الذين نسبوا الى اوريجانس مثل هذا القول . والارجح ان اوريجانس نفسه كان يعرف هذه اللغة . ويقتبس من انوارها . وكذلك اولئك الرجال العظام الذين شرفوا الشرق بهلومهم كواسابيوس القيصري . وتوادوريطوس ويوحنا الدمشقي واي قرّة . وغيرهم وفي ما سبق كفاية لتعريف شرف السريانية واتساع نطاقها في العالم

٧

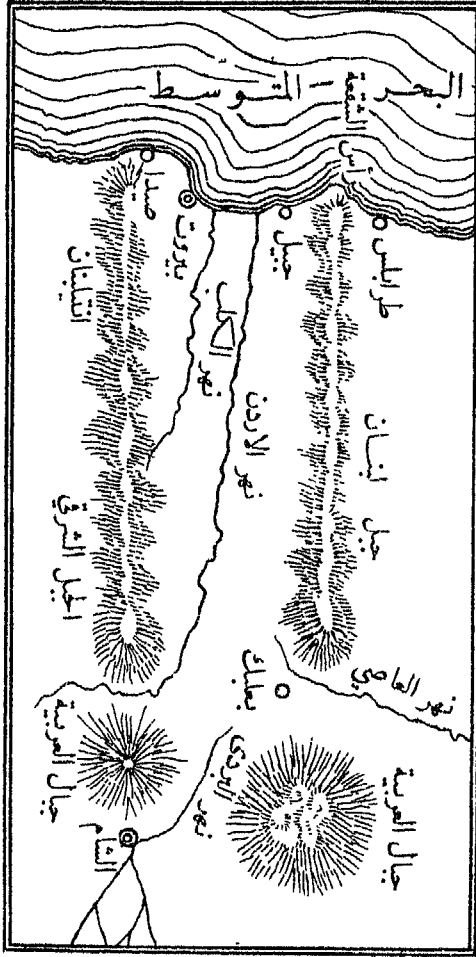
رسم خرائط لبنان

لا يجهل احد فائدة الخرائط في الدروس الجغرافية . فلولاها لضرب المدرسُ الريح وكتب على صفحات الماء . فيكون مثله مثل استاذ الطبيعيات لا يُثبت تعليمه بالعمليّات او مثل مدرس الرياضيات لا يقيد علمه بالتمرينات الحسابية . ولكن اين هذه الخرائط ؟ فانّ لبنان الذي عليه مدار دروسنا محصور الحدود وليس له خرائط خاصة به الاّ الازر القليل . اما خرائط سورية العامة فان مقياسها قصير حرج فلا تجد فيها للبنان مكاناً يُذكر مع انك لو اردت درس هذا الجبل لا ندحة لك من خرائط كبرى ذات مقياس واسع ومثل هذه الخرائط عزيزة الوجود

*

اول من وصف لبنان سترابون الجغرافي العظيم الاّ انه اخطأ في هذا الوصف وبخطائه كان سبباً لاوهام الذين اتوا بعده . وقد اثبتنا عند ذكرنا لبنان ووجهة امتداده وحدوده في كور الاجيال (راجع ص ٦) ما ارتأه هذا الكاتب الشهير في حق لبنان اذ بدل وجهته فظنّ انّ هذا الجبل والجبل الشرقي يتدآن من الغرب الى الشرق بدلاً من الجنوب الى الشمال . اعني انه كان يجعل احد طرفي هذين الجبلين عند بحر الشام والطرف الآخر عند دمشق كما ترى في الرسم الذي نثبتته في الصفحة التالية فلمعري انّ مثل هذا الوهم كان من شأنه ان يشوّه صورة لبنان كما تُشوّه صورة الانسان لو جعلت قدماه في رأسه ورأسه في قدميه . ومع سوء هذا التصور للبنان نال رأي سترابون الخطوة لدى كثيرين ولم يقدر بلينيوس الطبيعيّ وغيره ممن اصابوا الرمي في تعريف موقع لبنان ان يبطلوا هذا المزعّم

ثم جاء العرب ووصف كتبهم البلدان وفي جملتها لبنان ولا تراهم يجورون عن طريق الصواب في رسم وجهته إلا أنهم لم يحسنوا بيان حدوده فربما ادخلوا في لبنان جبلاً ليست منه . ثم أن تأليفهم بقيت مجهولة في أوربة الى القرن الثامن عشر فكان مصطنعو الخرائط يستندون الى اقوال سترايون فيرسمون لبنان كما تخيلته هذا الجغرافي . منهم العلامة بوشارت في كتابه « الجغرافية المقدسة » وسأريوس صاحب « العالم القديم » وكلاهما من مشاهير



موقع لبنان على رأي سترايون

صورة لبنان على زعم سترايون

الكتاب اذها في القرن السابع عشر

ومن اول الذين عاكسوا هذا الوهم الهولندي اديان ريبند (Reland) في كتابه عن فلسطين (١) . وكان اول امره يذهب في ذلك مذهب اسلافه الا انه لحسن حظه وقف على رحلة كتبها الانكليزي هنري موندل (Maundrell) كان وصف فيها

(١) عنوانه Palæstina ex monumentis veteribus illustrata

سفرًا بأشره في اواخر القرن السابع عشر من حلب الى اورشليم وأكثر فيه من التفاصيل الجغرافية . فبذء هذا التأليف افكار ريلند واستفاد من خريطة كان رسمها موندزل المذكور ولم ينشرها بعد

فكانت هذه اول خريطة للبنان وهي بالنسبة الى معارفنا اليوم محلاة من وجود عديدة كانها عمل تلميذ لا يُحسّن الرسم فلا تكاد تجد فيها سوى بعض اسماء الامكنة الواقعة على ساحل البحر دون مراعاة للمسافات التي بين الانهار ومواقع المحلات . اما جهات لبنان الداخلية فهي خاوية ليس فيها اسم بلد اللهم الا بحيرة اليثونة . ومع هذا ترى صاحبها قد اصاب في رسم وجهة لبنان والجبل الشرقي وجعل الجبلين موازيين مع الاشارة الى سهل البقاع المنبسط بينهما . وتلك نتائج حسنة بالنسبة الى ذلك الزمان لاسيما ان ريلند كان مهّد بهذا العمل الطريق لمن يأتي بعده وازال العقبات التي كانت تحول دون الترقى الجغرافي في درس لبنان

هكذا نشأت اول خريطة لجبلنا فكانت مع نقصها اساساً بنى عليه كتبة القرنين الثامن عشر والتاسع عشر فحسّنها وكمّأوها . وقد اشتهر بينهم الجغرافي الجرمني كرل ريتز (Ritter) الذي افرد لوصف لبنان قسماً كبيراً من المجلد السابع عشر من تأليفه العنون « الجغرافية المقابلة » وهو اوسع وصف يُعرف لهذا الجبل لم يقف شيئاً من محاسنه وفوائده بعد نصف قرن من عهد ظهوره

الا ان الخرائط اللبنانية في هذه المدة لم تحطُ كهذه الخطوات في سبيل التقدم بل بقيت على خللها . وانما كان اصحاب خرائط سورية يَحْصون لبنان بمكان صغير فيثبتون خريطة ريلند السابق وصفها مع شيء من التحسين في الدلالة على مصب الانهار ونتوءات الارض وقياس المسافات وكذلك ترى زيادة في اسماء القرى وذكراً لاقيسة عاو الآكام والقسم وقد امتازت بين هذه الخرائط خريطة فلسطين للرسم الالمانى الشهيد هنري كيبيرت (H. Kiepert) التي نُشرت في سنة ١٨٥٦ ادرج فيها صورة جبل لبنان ولكن هذه الخريطة كانت على مقياس $\frac{1}{1,000,000}$ فلم يمكن صاحبها لضيق المكان ان يتسع في ذكر هذا الجبل واعماله . ثم اعاد كيبيرت رسم خرائط سورية غير مرّة دون ان ينال لبنان حظاً اوفى من المرّة الاولى

وبعد سنتين لظهور خريطة كيبيرت ابرز سنة ١٨٥٨ الضابط الهولندي فان دي فلد

(Van de Velde) خريطة حسنة للاراضي المقدسة جعل حدودها الشمالية لبنان الى النهر الكبير . وكان مقياس هذه الخارطة $\frac{1}{210,000}$ اعني انها كانت نحو ضعف خارطة كبيرت فنال لبنان حظاً منها وهي تستحق ذكراً خصوصياً ليس فقط لِسَعَتِهَا لكن ايضاً لسَيْر صاحبها على طريقة علمية . فان راسمي الخرائط السابقة كانوا بنوا رسومهم على اقوال اهل الرّحل والمسافرين الذين دونوا ملاحظاتهم بدون آلات رصدية او بلا تدقيقٍ كافٍ في الرسوم او الحسابات التريغومترية . فاراد فان دي فلد ان يسد هذا الحلل فطاف جهات فلسطين لهذه الغاية امّا لبنان فانه لم يُجْر فيه غير رصد قليلة بنفسه لكنّه وجد في بعض زملائه ما اغناه نوعاً عن ذلك فانّ الاميركي روبرنصن وقنصل بروسيه في دمشق العالمة وتشتين كانا باشرا بعض هذه الرصد . وكذلك كان ضبّاط البحارة الانكليزية قاسوا سواحل لبنان والجهات المجاورة لها . فانتفع فان دي فلد من هذه المساعي العلمية الجليلة ورسم خارطته وفقاً لها فجاه عمله محكماً وافياً يُعدّ بروزه كمنقطة مهمّة في تاريخ خرائط لبنان (١) ثم زار فان دي فلد ثانية جبل لبنان وطبع خريطته بعد مدّة فزاد في تحسينها وتلافى شوائبها

هذا ومع فوائد الخرائط المذكورة لم يتفرغ الى ذلك العهد احد من العلماء لرسم خارطة خاصة بلبنان دون سواه حتى نهض لهذا العمل الجليل قومٌ من ضبّاط البعثة الفرنسية الى سورية فرسموا بعد الرصد واقيسة مواقع الامكنة خارطة للبنان تُعرف باسمهم مقياسها $\frac{1}{200,000}$ طولها ٨٩ سنتيمتراً في عرض ٦٧ اودعوها من اعلام الامكنة ما لم يسبقهم اليه غيرهم وهي تحتوي ليس فقط اسما معاملات لبنان بل تمتد ايضاً الى الجبل الشرقي والبتاع وبلاد بشارة

ومن محسنات هذه الخارطة ان اصحابها كروا اقيسة الارتفاعات التي قام بها سابقاً القنصل برتون الانكليزي مع غيره من العلماء الاميركان والانكليز والالمان وكتلوها . واصلحوا ايضاً اغلاطاً اخرى عديدة كما انهم اتقنوا تصوير لبنان في سلسلته الكبرى وفي الفروع المتشعبة منه مع حسن رسم الجاده ومشارفه ومنعطفاته ووجهة اوديته وكل حزونيه وبطونه فضلاً عن طرقه وعتباته . وكانت هذه الفوائد مدوّنة في الخارطة

على احسن هيئة واجود نظر
ولما ظهرت هذه الخارطة الفرنسية في غضون سنة ١٨٦٢ استحسنتها فان دي
فُلد لكتنه ودّ لو ألحقها اصحابها بشرح يرشد القراء الى بيان طرائقها والادوات
المستعملة لرسمها ومركز اقيسة مثلثاتها الى غير ذلك من الفوائد اللازمة لضبط الرسوم
وتحقيق صحتها. وقد انتقد غيره على هذه الخارطة فاخذوا عليها بعض المآخذ منها ان
اقيسة السواحل لا توافق الخرائط البحرية التي كان الانكليز يقومون برسمها آنسدر
تحت نظارة الكومندان منسيل . فمن اين يا ترى هذا الاختلاف واي الفريقين هو
الاحق او المحقوق ؟ فان الرسّام ريشرد كيبرت بن هنري كيبرت الشهير اعلن ان
اقيسة الضباط الانكليز لا تخلو من الخلل (١) وكذلك نرى كتبة الانكليز قد اثنوا
اطيب الثناء على الخارطة الفرنسية للبنان (٢) التي يوجب كون اصحابها استفادوا من
اعمال الضابط الفرنسي ديولين (Desmolins) في اقيسته الساحلية . وزد على ذلك
ان العلامة النمساوي دينر (Diener) من علماء الجيولوجية قد استصوب عمل
الخارطة نفسها

ومتى لم يستحسنها السيدة ايزابل برتون امرأة السائح الانكليزي الشهير (٣) بيد
ان رأيها ضعيف في رسوم الخرائط ولعلها ارادت بهذا الانتقاد ان تبين فضل خارطة
زوجها التي ليست بشيء على رأي كيبرت . وكذلك الدكتور پوست من اساتذة
الكلية الاميركية في بيروت فانه «وجد الخارطة الفرنسية قليلة الضبط في تعيين مواقع
الامكنة كثيرة الاغلاط في تدوين الاعلام العربية (٤) » ونحن وان كنا نسلّم بما فوط
في خارطة الضباط الفرنسيين من الاوهام في تعريف بعض مواقع الامكنة نرى ان
اغلاط الانكليز والاميركيين في الاعلام العربية اكثر وافظع كما اشار الى ذلك العلماء
الالمان كالعلامة سوسين (٥) فيصح فيهم المثل « أيها الطبيب اشف نفسك »

(١) راجع ملاحظاته في ملحق رحلة البارون فون اوبنيم الى خليج المعجم ج ٢
ص ٢٩٦ و ٤٠٥

(٢) راجع المجلة ٧٥، ١٨٦٥، PEF,

(٣) راجع الكتاب ٩٥، ١، Unexplored Syria

(٤) راجع ٢١٩، ١٨٩٢، PEF

(٥) راجع المجلة الفلسطينية الالمانية ٤٥، XIII، ٢٤٣، V، ٢٤٢، IV، ١٧٩، III، ZDPV،

والرأي الأرجح عندنا في خارطة لبنان التي رسمها الضباط الفرنسيون ما قاله فيها ريشرد كيسرت ابن الموما إليه « ان خارطة لبنان حسنة الرسم يروق العين النظر فيها ولكن الواصفين قد بالغوا في وصفها (١) ». فكأنه اراد بذلك ان هذه الخارطة مع ما فيها من المحاسن ليست تامة كاملة . وهو حكم صائب الا انها لما كانت الخارطة الوحيدة للبنان انما المرجع اليها في تقويم هذا الجبل . وعندنا ان اصحاب هذه الخارطة لم يطوفوا كل ناحية عكّار . اما جبل اكروم فقد تحققتنا في رحلتنا اليه سنة ١٨٩٩ ان الضباط الفرنسيين لم يدخاوه مطلقاً (٢) . على ان هذه الملاحظات عرضية لا تمس جوهر العمل الذي ادى للعلم ولا يزال خدماً مشكورة . ولا بد من الرجوع اليها والاستناد الى معلوماتها الفريدة في بابها حتى يقوم قوم من اهل الضلالة والخبرة فيتداركوا الخلل

ولهذه الخريطة رسم مصغر الحقة للسيورينان بكتابه « بعثة فينيقية » مياسه
 اصطنعها اصحاب الخارطة السابقة انفسهم الا ان الاعلام فيها قليلة لان المقصود منها انما كان فقط الدلالة على العاديات في لبنان

هذا وقد ورد انفاً ذكر خارطة الانكليزي منسل البحرية . وهي مفيدة لتعريف اقيسة عدة مواقع كما انها تصلح لبيان علو مشارف لبنان الداخلية . وعلى رأي ريشرد كيسرت لا يركن الى تعريفات هذه الخارطة الا في الخط الساحلي . اما جهات لبنان الداخلية وتحديد مواقع القرى واسماؤها ووصف الانهار والطرق ومنعطفات الجبل فان منسل تصرف فيها على حسب مخيلته (٣) . وقد اثني الجغرافي ديزر (٤) على ضبط اقيسة الانكليز في تعريف اعالي لبنان بينما ترى غيره كريسرد كيسرت وبلنكنهورن قد انتقدوا عليها في صححة ضبطها

*

(١) راجع رحلة اوپنيم السابق ذكرها

(٢) راجع مقالنا Notes topographiques sur l'Emésène

(٣) راجع رحلة البارون اوپنيم السابق ذكرها ج ٢ ص ٣٩٦ و ٤٠٥

(٤) راجع كتابه Libanon Grundlinien einer phys. Geogr. von

وفي سنة ١٨٨٤ نشر الدكتور لورته متقدم المكتب الطبي في ليون كتاباً اسمه «سورية كما هي اليوم» اتقن طبعه وزينه بالتصاوير البديعة وهو يحتوي على فوائد جمة في شأن الجغرافية وخصوصاً تاريخ بلادنا الطبيعي وقد اضاف اليه خريطة فلسطين ولبنان مقياسها ... استند فيها (على ما جاء في صدر الخارطة) الى اصدق الموارد واحدها عهداً دون ان يُطلعنا على طريقتيه في اصطناعها غير ان الذي يتصفّحها لا يجد فيها شيئاً جديداً والاحرى ان يقال انها دون خارطة البعثه الفرنسيه فمن ذلك ان نتوات الجبل ليست بواضحة فضلاً عن كونها غير صحيحة. ثم ان في اسماء الامكنة اغلاطاً عديدة. مثال ذلك انه يدعو بحيرة زينية «الجبية» وكذا دعاه مراراً في الكتاب. أما اقيسة العلو فلا توافق في الغالب اقيسة غيره من الكتبة ممن يوثق بهم. والظاهر من كلام المؤلف انه دون هذه الاقيسة تقلاً عن بعض الادوات الصغرى غير المضبوطة. وخلاصة القول يلوح من درس هذه الخارطة ان صاحبها لم يزد شيئاً على معلوماتنا السابقة وانما نقل ما اتى به الكتبة المتقدمون دون تروء كافٍ وبلا اجهاد ذهن. وهذه الخارطة مع قلّة ضبطها متقنة الطبع تُفيد الذين لا يطلبون الدقة في التفاصيل ويكتفون بنظر عام وهي بالخصوص تساعد على مطالعة كتابه

وهذا الانتقاد والتنقيح احقّ بخارطة الاميركان المطبوعة بالبرية على الحجر سنة ١٨٨٩. فانها ليست فقط كثيرة الخلل لكنّها ايضاً مبهمه لا تقرّ لنضارتها العين ولا يأنس بفوائدها العقل. والدليل على قلّة ضبطها ان اصحابها لم يذكروا لها مقياساً وانما يقيسون المسافات على مشية الخيل وهي لعمرى دلالة تناسب مجاهل افريقية وما شاكلها من الاقطار اما بلاد متمدنة كسورية فلا ترضى بها

ومن معايب هذه الخارطة ان نتوات الجبل وسلسلته الوسطى مدلول عليها ببعض الخطوط المخرشبة العمل اما تفرعاته وانجاده ومعاطفه واديتته فكل ذلك مُهمّل لا ذكر له. وقد أُشير فقط الى مجاري الانهار بعض الاشارة. وعندنا ان هذه الخارطة لا تصلح للمدارس ولعلها تؤدي بالاحداث الى الوهم والغلط. وزد على ذلك ان اسماء امكنة عديدة في هذه الخارطة لم تُذكر لضيق المحل. اما صورة الاسماء فهي مضبوطة في الغالب لجبل لبنان لكنّها محلّة لبقية انحاء الشام كما لحظ الامر العلامة المستشرق

فإن برقم في المجلة الاسيوية (JA, 1895, 490) وأما السبب في هذا النقص ان اصحاب هذه الخارطة لم يرسموها رسماً مستقلاً بل اتبعوا فيها الخرائط الانكليزية التي تكثر فيها مثل هذه الاغلاط ومن اوهامهم انهم جعلوا مديرية هرمل ملاصقة لبنان مع ان موقعها في ولاية سورية وان كانت تخص متصرفية الجبل . وكل هذه الشواهد تنزع عن الخارطة الاميركية صفتها العلمية ولذلك لا ترى احدًا من المستشرقين يرجع اليها في اوصافه . وحكمنا هذا مختص في قسمها اللبناني اما رسم بقية الخاء الشام فقد تعددت فيه الاغلاط وتوفرت اسباب المزلات ونشرت الاعلام لكثرتنا نجتزئ بالاشارة لتلا نخرج عن دائرة موضوعنا

ولا ندحه لنا من ذكر خارطة الدكتور النموسي دينر التي ترى في آخر كتابه عن لبنان المطبوع سنة ١٨٨٦ . والغاية من كليهما جيولوجية لبنان اي تعريف طبقات ارضه ويدخله ايضاً فوائدها جغرافية كوصف ارتفاع الجبال ووجهتها وانعطاف وديانها واقيسة معاليها . الا ان الاستاذ ريشرد كيبرت مراتب في صحة هذه الاقيسة الاخيرة لعدم وقوفه على اسلوب دينر في تدوينها . وكذلك تراه يذكر بالتحفظ اقيسة الارتفاع التي اجراها احد معلمي كلية بيروت الاميركية المعلم روبرت وست ونشرها في مجلة فلسطين الانكليزية (PEF) سنة ١٨٩١ (ص ١٤٧) و١٨٩٢ (ص ٢١٩) و١٨٩٦ (ص ١٦٥) . ولا غرو فان هذه الاقيسة لا تراعي درجات الحرارة وذلك امر واجب لضبط قياسات البارومتر . ثم انه اهمل في تدوين هذه الاقيسة رسم خارطة لبنان فينتهي القارئ متضعضعاً لا يميز النقط المقيسة من سواها . اما قياسات الدكتور پنت الاميركي فيرتأي ريشرد كيبرت (ص ٤٠٧) انما ليست ذات شأن . ومجمل القول ان العلماء حتى اليوم لم يضبطوا ضبطاً تاماً اقيسة مشارف لبنان فلا تزال على شك من صحتها هذا ولا يجهل احد من السياح دليل فلسطين رسومية المنسوب الى بيديكرو وهو كتاب كثير الفوائد وضعه عالمان المانيان شهيران سوتسين وبسنينغور واصحابه بخريطة للبنان مقياسها ... وهي قسمان يحتوي احدهما شمالي لبنان والاخر جنوبه الا انهما شمالاً لا تتجاوز خط طرابلس فلا تتضمن جبل عكار . وهذه الخريطة قد قام بعملها رجل واسع الخبرة في فن رسم الخرائط ألا وهو هنري كيبرت . ومع شهرة هذا العمل وكثرة محاسنه لا يسعنا السكوت عن بعض نقائصه منها ان اعلام القرى اقل

عددًا من الخريطة الفرنسية . ولعلّه اقتصر صاحبُه على هذه الاسماء رغبةً في توفير المكان ثم انّ الغاية من رسم هذه الخارطة ليست التعليم المدرسي فاكتمنى الراسم بذكر الاعلام التي فيها ما تهتمُّ المسافرين معرفته . أما ضبط الاسماء فيحتاج ايضاً الى اصلاح لئلا تزلّ به قدم المطالعين لاسيما ان دليل بيديكرد قد اتبع في نقل الاعلام العربية طريقة الحروف المفردة المنقطة الشائعة عند كبار العلماء الاجانب . ولو قصد بيديكرد لا مكنه سدّ هذا الحلل . ولعلّه فعل في طبعته الاخيرة التي لم نطلع عليها . لكن الطبعة الرابعة التي في يدنا تاريخها سنة ١٨٩٧ وهي غير مصلحة ومع هذه التقائص زى خريطة بيديكرد حسنة يُستفاد من مراجعتها وان لم تُعن عن الخريطة الفرنسية

وفي الدليل عينه خريطة اخرى مقياسها كخريطة البعثة الفرنسية ...
تتضمّن جهات بيروت على مسافة ٢٩ كيلومتراً طولاً في ١٩ ك عرضاً فيها كل ما يُرغب اليه من وصف الامكنة . وهي في هذا القسم أغنى من خريطة الضباط الفرنسيين

أما احسن ما وُضع من الخرائط للبنان فهي خريطة حديثة رسمها ريشرد كيبيرت الذي تكرّر الثناء على براعته في هذا الفن وألحقها بكتاب في جزئين ألفه البارون فون اوپنهم عنوانه : Vom Mittelmeer zum persischen Golf. Berlin, 1900 . فالخريطة تاريخها ١٨٩٣ غير أنّها لم تتمّ إلا بعد تلك السنة والدليل على قولنا انها تتضمّن عدّة فوائد من تاريخ سنة ١٨٩٨ . وهذه الخريطة مقياسها ...
وحدودها شمالاً مرعش الى خطّ الناصرة فيصري ومن ثم لا ترى فيها لبنان إلا مصغراً . وهي مع ذلك غاية الاتقان ومثال يُقتدى به من حيث رسم الجبل وتعريف عطفاته واوديته ومجاري انهاره وحسن ضبط اعلامه . وخلاصة القول لا نجد في هذه الخارطة غير محاسن اللهم إلا اقيسة قمم لبنان فأننا في ريب من صححتها لاختلافها عن الاقيسة المعهودة . مثال ذلك جبل صئين فانّ العلماء يحسبون علوه عادةً ٢٦٠٨ م وقياسه في هذه الخريطة ٢٧٥٠ متراً وكذلك اجمع العلماء سابقاً انّ اعلى قمم لبنان تتراوح بين ٣٠٦٠ متراً الى ٣١٠٠ م والعلامة كيبيرت في خريطته يزعم انّ المشارف التي تطلّ على وادي الارز يبلغ بعضها ٣٢١٥ متراً وغيرها

٣٣٦٠ م . ولم نعهد احداً من العلماء ذهب الى ذلك الا بُرتون الذي لا يوثق بكلامه من هذا القبيل

على ان العلامة كيمبرت يفيدنا في ملحقه انه اخذ هذه الاعداد عن خريطة مخطوطة للخوجا عبدالله طعمه . وعندنا ان العلماء لا يكتفون بهذا السند الوحيد وفي الحتام ان طلب احد رأينا في الخرائط اللبانية اشرفنا اليه ان يقتني خريطة البعثة الفرنسية سنة ١٨٦٠ مع خريطة ريشرد كيمبرت وبها غني عن غيرها الى ان يرسم لنا احد العلماء قريباً ان شاء الله خارطة جديدة تستوفي كل الشروط المرغوبة مستنداً الى الاعمال السابقة مع اصلاح شوائبها

٩

لبنان : بحث في انجاء واغواره

قد اظهرت البجائنا السابقة غير مرّة خطر لبنان وعظم شأنه في سورية . فان كان قول الكتاب الكريم عن بلاد الشام « بانها تدرّ لبناً وعسلًا » لا يزال صحيحاً في عهدنا كما صحّ سالفاً فليس ذلك الا من فضل الانهر التي تتروك في بطون لبنان ومن تأثير الجبال الشاهقة المكّلة بالثلوج الغراء في الهواء واحوال الجو . وعليه فانه من الواجب اللاب ان نبين خواص لبنان في وضعه وهيئته وبطونه وحزونه فلتشرحه تشريحاً لتقف على دقائمه وخفاياه . وذلك اقوى عامل لبيان مجاري مياهه وتفرع الانهار على جوانبه كما سيأتي بعيد هذا

*

قال اليزاي روكلو (E. Reclus : *Asie Antérieure*) في وصفه للبنان: « اذا ما ألقيت ببصرك من البحر الى سلسلة لبنان المستطية رأيت من هذا الجبل نظراً سهياً فيلوح لك ازرق او وردياً في الصيف ومشملاً في الشتاء والربيع مجلباب ثلجه الفضي . واذا تصاعدت الابخرة في الجو البست قمة النازحة ثوباً شفافاً هوائياً غاية في اللطف . وتراه مع عذوبة منظره لا يخلو من سطوة الصلابة والسّم فترى ذاك الجبار يتمطى بضلوعه الشديدة وينطح برأسه الشامخ لا يقوم في وجهه قائم . على ان النظر الى محاسن هذا الجبل عن كسب هي دون جماله عن بعد . فترى ظهره على طول ١٥٠

كيلومتراً (والاصح ١٨٠ كيلومتراً) اقهب اجرد لا تكسوه الخضره تجدد وديانه
متشابهة ومشارفهُ كأنها قُدَّت على قالب واحد «

هذا هو الوصف الذي خصَّه ذلك الجغرافي الشهير بلبنان . وان دَقَّقنا من بعده
في تعريف هذا الجبل قلنا : ان لبنان اشبه بجدار عظيم من الصخور وجهته من
الجنوب الغربي الى الشمال الشرقي . ومن الجهة الشرقية تراه ينقطع بغتة أما من جهة
الغرب فهو يتفرع فروعاً متعددة على هيئات شتى من آكام وبتون وسهول ورُبى
متسلسلة يدخل بعضها في بعض . واذا استثنين هذه التفرعات الثانوية والتجعدات
غير المنتسقة تحققت ان سلسلة لبنان العظمى قد وضعها الخالق على صورة نظامية
وجانب كبير من البساطة . ولذلك قلما ترى في لبنان تلك المناظر المتباينة التي تفرُّ
لها العين في سواه من الجبال وانما البصر يقع على حاجز كبير في حدود الافق يتواصل
على خط مستقيم لا تكاد قمه العليا تمتاز عن بقية اقسامه

ومن درس جغرافية سريرية ورأى نتواتها وأفرد لبنان ببجته لا يرى فيه تلك
الأطواد العجيبة التي تقوم في السهول المنبسطة او في وسط الأنجاد المرتفعة فتخلب
النظر بمشارفها وقرونها السامية كجبل فنتو (Ventoux) في فرنسة وجبل اتنا في
ايطالية وبركان تناريف في جزائر كناري وجبل الاقرع في جهات انطاكية او الالپ
في بروسة فان مثل هذه الجبال تأخذ بجامع القاب لتحليتها رووسها في الجو . أما
لبنان فلا اثر فيه لمثل هذه القرون الباسقة التي تنصب ضلوعها المهشمة بالادوية فوق
فقراتها الاصلية . وكذلك ليس في لبنان مثال لتلك القن الروسة المدعوة في بعض
البلاد الجبلية كبلاد الالپ والبيريناى بالمسلات والايبر والاسنان كما انه خالٍ من
القمم المخروطة الشكل او ذات المقاطيع المخروطية . ومجمل القول ان ظهر لبنان
ينبسط انبساطاً متساوياً على خط سوي يبلغ معدل علوه ٢١٢٠ متراً تركب فوقة
اهاضيب ورواب محدبة تختلط في هيئتها مع السلسلة الوسطى الاصلية

الا ان للبنان خواص اخرى تجعله من الجبال الممتازة بيئاتها فمن ذلك تقاطيعه
التي ترى في المتعطف الموازي للساحل . فهناك عددٌ وافر من الالودية والمهاوي
والشعاب والأهلاب الصعبة المرتقى والوهاد التي تفصل الجبل الى نشوز مختلفة كأنها
القلاع الحريزة . وذلك ما سهل لاهل لبنان ان يعيشوا في جبلهم في الامن والراحة .

وكذلك تعددت فيه الامم المختلفة التي التجأت اليه وتوطنته فاختلفت الانساب وتوفرت المشاكل في تعريف اصولها الشقي

١ اودية لبنان

وان انتقلنا الآن الى وصف اودية لبنان التي تنحط بها المجاري المائية وجدنا ان وضع هذه المنهبطات والبطون هو على خط عمودي بالنسبة الى ظهر الجبل بالعرض منه . ولما كان الجبل موازياً للبحر مجارياً لساحله تمددت منه السيول الى هذه الاودية فانصبّت في بحر الشام على اقرب طريق . والمياه قد فتحت لها مسيلاً على خط مستقيم بعد نفوذها في اعطاف الجبل وخرقها لفروعه الثانوية . ولو اردنا ذكر الاودية التي هي في لبنان على شكل خط عمودي معترض لتمدت الاسماء . فمن ذلك اكثر مجاري السيول كنهر بيروت ونهر الكلب ونهر ابراهيم وامثالها . واكثر وجود هذه الاودية المعارضة في شمالي لبنان اي في مشارفه العليا حيث تبلغ معظم قوتها

الآن ظهر الجبل عند بلوغه شمالاً رأس الشقعة يميل مسيلاً ظاهراً الى الشرق وتنتسح فروعه الغربية وتنحط منحدراؤه فترى الاودية اللاحقة به تميل معه فتتجه الى الشمال الغربي وهي لا تزال مع ذلك تابعة للخطوط العمودية الا ان زواياها بالنسبة الى الساحل اقل انفرجاً فتجري الى البحر من الجنوب الشرقي الى الشمال الغربي . واذا بلغت منتهى لبنان في الشمال الغربي رأيت ضلوع الجبل تتسع فيها الوديان على شكل المروحة نصابها ظهر لبنان المركزي

وفي لبنان ما خلا هذا الاودية العمومية او المعارضة اودية اخرى توازي طول الجبل وتجري معه على خط مستقيم مثال ذلك شمالي لبنان في جبل عكار نهر خالد وما ينصب فيه من الجداول والسيول . ومثل هذه الاودية الموازية للجبل كثير في لبنان الجنوبي على جهة طريق الشام الجنوبية فترى مسايل المياه تجاري في سيرها ظهر الجبل في اعاليه حتى اذا بلغت اسافله عطفت بغتة واعوجت على شكل الزاوية المنفرجة . وان اعتبرت اغلب الانهار الواقعة في تلك الجهات كالليطاني والزهراني والاولي والدامور وجدتها على هذا المثال فانها تجري اولاً من الشمال الشرقي الى الجنوب الغربي ثم تغير على فور وجهتها وتنفذ في مضائق تسيل منها الى البحر على خط عمودي معارض

وليس بين هذه الانهار ما يقطع ظهر لبنان الا الليطاني وحده فان رأسه على منعطف لبنان الشرقي وهو يصب في البحر منحدرًا الى منعطفه الغربي وذلك من عجائب الامور اذا اعتبرت عمق وادي هذا النهر وقابلت بينه وبين ضفتيه الجبل الذي تحترقه مياهه . ولعل ما ارتأه في هذا الامر العلامة ت . فيشر لا يخالو من الصواب وهو قوله بان الليطاني كان قديماً في اسفل مجراه نهراً متسرباً الى باطن الجبل فلم تزل مياهه تعمل في الصخور التي تخفيه عن النظر الى ان اخترقها وعليه فيكون الجسر الطبيعي الذي يرى حتى الآن في محور اثرًا لحالة النهر السابقة وبقيّة من المناظر الصخرية الطبيعية التي جرى تحتها النهر مدة احقاب عديدة

ومما يجدر بنا قوله ان الاودية اللبنانية وتغيرها الجسيم انما هو من فعل العوامل الطبيعية التي انجزتها . ألا وهي الثلوج والجليد والامطار والمياه الجارية وكلها قد تسلطت على صخور الجبل فتقرتها وحفرتها على شكل الوديان . وذلك امرٌ يسهل الوقوف عليه في الامكنة التي ينهبط المسيل بين جدران الجبل المركبة من طبقات صخور نظامية فهذه الطبقات ترى على الجهتين مناسبة لبعضها . وقتلما ترى في لبنان وادياً الا وتظن آثار المياه على جانبيه فتتعمق علو مجراها سابقاً ثم هبوطها على مدى الاعصار وهذا عمل المياه وجرفها للصخور يبدو للعيان في اخوار هلالية تختلف سعة وعمقاً حُفرت في اواسط الجبل وتتكون من مجموع شعابه ومن انخسافاته وتهوراته . واجمل ما يرى من هذه البطائح بطيحتان الواحدة في لحف صنين والاخرى تُحْتِيت المنيطرة . وعند افقا بطح آخر قليل الاتساع ككنة غاية في الحسن لما يُبدق به من المناظر البهيّة الآخذة بجماع الابصار

وهي المياه ايضاً حُفرت الألهاب اعني الصدوع التي تقوم في الجبل تجاه الناظر اليها كالحائط لا يُوتقى . فان السيول بقوتها قد تخللت الصخور ولم تزل تناصبها الحرب حتى غلبت صلاحيتها ودخلت في قلبها . فن ذلك وادي نهر ابراهيم في مسيله الاعلى نازلاً عن قرطبة ومضيق نهر الكلب وما يفضي اليه من الاودية كنه صليب . كذلك نهر باروك الاعلى مع ملحقاته ونهر الأوّلي بقرب جزين . واعظم هذه الالهاب نهر قاديشا فان عمقه لا يقل عن ٥٠٠ متر فيمثل نوعاً مضائق بلاد كولورادو في اميركة قنرى فيه المياه تهبط من اعطافه الى اعماقه مزبدة فتسيل متلوية في تلك القناة الطبيعية التي

خرقتها رغماً عن صخورها الصماء . وهو لعمرى منظر مهيب يزيد روعاً اذا قوبل بما يحفُّ به على جانبي الوادي من الاشجار المُسَّقة على شكل الدرج ومن الصخور المختلفة الالوان والبُنان شعابٌ تصل بين منعطفيه منها المناقب يتوقَّلهما المسافر فيجتاز وسط الجبلين او الربونين مشبَّهاً لمنعرجات الوادي ومنهما الشايا والعقبات تسير بين الجبلين المنتصبين على متون مرتفعة . مثال ذلك العقبة التي بين العاقورة وأفقا التي تُدعى ثنيةً النيطرة وتعدُّ من اقدم مسالك لبنان ومنافذه بيد ان مثل هذه الشايا قليلة في لبنان لاستواء خطِّ قسمه الاوسط في الارتفاع . فان السائر لا يتبطن العور بل كثيراً ما يجري على جانب الوادي او على ظهر الجبل . وفي بعض المجازات كمجاز الباروك وصتّين وجبل الارز الذي يبلغ علوه ٢٦٠٠ متر ليس فرقٌ يُذكر بين الجبل وطريق السابلة

٢ منطقة الثلوج المخدّدة في لبنان

ان اسم لبنان يُشعر ببياض قمه فانه مشتق من اصل سامي " لبن " ومعناه الجبل الابيض ليس كما زعم البعض لاجل صخوره الكلسية التي يتربّب منها بل لما يتوج رأسه من الثلوج الغراء . فان هذا المنظر في بلاد تتقدّ فيها وغرات القيط كان من شأنه ان يوثر في تحيئة الامم البائدة

ومع هذا ليس في لبنان رأس يبلغ منطقة الثلوج المخدّدة . وكذلك النتائج الجليدية المتجمّدة فلا اثر لها اليوم . وغاية ما يلقاه المسافر في اعالي جبل الارز مدى احواض في أمن من الشمس تتراكم فيها كميات وافرة من الثلج تبقى فيها حتى في معظم حرارة الصيف . وهذه المستودعات لا تُرى في قمة جبل المكمل الذي يبلغ ٣٠٠٠ متر لكن في منعطفاته المعتزلة عن اشعة الشمس . وكذلك في صتّين وفي جبل النيطرة بعض احواض مستديرة لا تعمل فيها الشمس لارتفاع الجبل لكن لكثافة الثلوج المتراكمة . وعلى رأي علماء الطبقات الارضية لا يتقص لبنان الا مئة متر ليبلغ علو الجبال الخالدة الثلوج التي لا يذوب ثلجها صيفاً مع شتاء لارتفاعها وقلة حرارتها

ومن تفرّع الجبل من الجنوب الى الشمال وجد الجبل يتزايد علواً وكذلك يتسع عرضاً . ولوتأمل الناظر من علو الجوّ عرض لبنان بين صيداء ومشغرة لوجده لا يزيد عن ٢٩ كيلومترًا وهو يبلغ بين بيروت وقبّ الياس ٣١ ك ومغظم اتساعه بين طرابلس وهرمل ٤٦ ك . فيكون لبنان على شكل مربع منفرج عن زاوية العليونين

٣ وصف قُصَم لبنان

ليس بوسعنا ان نصف كل قمم لبنان المختلفة وتفترعاته المتعددة وانما نذكر منها
 اخصها ليكون القراء على بصيرة من امرها
 يبتدى لبنان جنوباً عند الوادي العميق الذي فيه يسيل الليطاني وعليه تشرف
 قلعة الشقيف في علو ٦٧٠ متر من سطح البحر . ثم لا يزال في تصاعد حتى يبلغ ١٠٣٠
 متراً عند جبل جرمق ثم يتصل بجبل ريجان الذي به دُعيت احدى مديريات لبنان .
 واعلى قممه هناك ١٦٤٣ متراً . ثم يزيد علواً عند قرنين محديين يدعيان توأمات نيبعا
 (١٨٥٠ متراً) يراهما البحارة عن بعد وكانوا الى القرن الثامن عشر يستدلوا بهما على
 موقع صيداء (١)

ثم يرتض الجبل وينضم الى بعضه متواصلًا فيسير قطبه المركزي على خطٍ متساوٍ
 كأنه جدار اجد لا نبت عليه فذلك جبل باروك وفي آخره وهدة ظهر البيدر
 (١٥٤٢ م) تقطع لبنان الى نصفين وهي نقطة مهمة للمواصلات بين انحاء الشام
 وفيها تمر طريقي دمشق والسكة الحديدية التي جعلت لبيروت مقاماً راجحاً في سورية
 على انه اذا كان هذا المضيق يقسم لبنان الى قسمين متساويين على التقريب
 فان بين القسمين اختلافاً كبيراً في الهيئة فان القسم الشمالي يأخذ في الانبساط وتتسع
 انجاده حتى تبلغ عدة اميال . منها نجد جبل الكنيسة (٢٠٣٢ م) ونجد صتين
 (٢٦٠٨ م) الذي على شكل مثلث عظيم فيه الشرفات والاعوار والادوية يلوح لمن
 يرقبه من سهل البقاع كأنه بحر عجّاج . امّا من جهة بيروت فينتصب هذا الجبل مع
 قونيه الشاهقين فيخلب الابصار بحماسته ووفرة مناظره

وصتين في علوه ثالث جبال لبنان بعد جبل المنيطرة وجبال الارز . ويبعد عن
 هذه الاخيرة ٢٠ كيلومتراً بينهما جبل المنيطرة الممتاز بشعبته المستطيلة (٢٩١١ م)
 وفي منتهاها مجاز ظهر القضيبي يمر به السفر من وادي قاديشا الى بعلبك
 ثم تبتدى اعلى قمم لبنان ومجموع جبال الارز الذي يلوح للناظر من طرابلس او
 من البقاع كأنه سور منيع قائم كالعبود . وهو في الحقيقة نجد واسع مساحته ١٠٠
 كيلومتر مربع وفيه سلسلتان متوازيتان مختلفتان وجهتهما من الشمال الشرقي الى الجنوب

الغربي طولها نحو ١٥ كيلومتراً فيها شعوف ورؤوس متعددة لم يُضبط حتى اليوم قياس علوها كراس ظهر القضيبي وجبل المكمل والقرنة السوداء وتيارون فترى الجغرافيين يحددون هذه الشرفات حدساً فلا يتفقون بالقياسات كما ذكرنا سابقاً في بحثنا عن خرائط لبنان (راجع الصفحة ١٠٦) . وبيناً هناك سبب هذا الاختلاف كان القائد منسل والضباط الانكليز اقتاسوا علو هذه المشارف بطريقة الرسوم المثبتة . وتبعهم الضباط الفرنسيون سنة ١٨٦٠ في خارطة البعثة الفرنسية دون ان يفيدونا عن طريقة اقيستهم . ثم اورد الجغرافي ر. كيپرت في خارطته قياسات مخالفة للاقيسة الشائعة قبله اخذها عن خارطة الخواجاع . طعمه وافادنا عن سبب استناده اليه في رحلة البارون فون اوپنهم (٢ : ٤٠٦ و ٤٠٧) قال : « انه فضل هذه الاقيسة لان صاحبها نالها بواسطة ميزان البارومتر الزبقي وهي توافق اضبط الاقيسة دون ان نتحقق ما بينها من العلاقة » . وهو قول بين المدح والانتقاد يجعلنا في ريب عن صحة هذه الاقيسة واستئلاها . والحق يقال ان في خارطة الميسوكيپرت اوضاعاً غريبة كجعلها مثلاً حمّاناً فوق عين صوفر . وعليه فأننا نفضل مقاييس المهندسين الانكليز والفرنسيين اذ كانوا مجهزين بالادوات المضبوطة لاتخاذ هذه الاقيسة وهم يُجيدون استعمالها فدونك بعض امثلة لهذه القياسات لتعرف ما بين الجغرافيين من التباين : ١ توأمات نيحا . الحساب الشائع ان علوها ١٨٥٠ متراً اما دينر فانه يحسب علوها ١٧٨٠ م = ٢ المضيق بين جبل الكنيسة وصتين . تتراوح الاقيسة بين ١٧٥٧ م وهو عندنا الاصح و ١٥٠٠ م = ٣ صتين يجعل برتون علوه ٢٧١٢ م وكيپرت ٢٧٥٠ م . والباقون ٢٦٠٨ م وهو الارجح = ٤ جبل الارز اعلى شرفاته القرنة السوداء ٣٣٦٠ م (عن ر. كيپرت) ثم تيارون ٣٢١٥ (عنه) وهي اقيسة بالغة لم تجدها في غير خارطة كيپرت . وقد سبق ذكر سنده في روايته اما اصحاب الخرائط الاخرى فأنهم جعلوا ٣٠٦٦ متراً لقياس أعلى مشارف الارز وهي ايضاً ارفع قمم لبنان . الا ان برتون قد زاد شيئاً على قياس اسلافه وهو مع ذلك لم يبلغ قياس كيپرت وليس لدينا داعٍ يحملنا على نبذ قياسات الاولين . وبعد هذه الملاحظة في اقيسة مشارف لبنان فلنواصل وصف الجبل . فان جبل الارز شمالاً يهبط نحو ٨٠٠ م فتتصل به سلسلة جبل عكّار (٢١٣٩ م) وطولها ٤٠ كيلومتراً تنتهي شعبها الاخيرة عند وادي النهر الكبير الذي يحد لبنان في شماليه كما

يُحَدُّهُ اللبْطَانِي فِي شَرْقِهِ وَجَنُوبِهِ وَالْعَاصِي فِي شِمَالِهِ الْغَرْبِي وَالْبَحْرِي فِي غَرْبِهِ
 وَلِوَادِي النُّهْرِ الْكَبِيرِ شَأْنُ خَطِيرٍ فِي التَّارِيخِ وَالْاِقْتِصَادِ . فَانَّ الطَّبِيعَةَ نَفْسَهَا قَدْ
 اخْتَطَّتْ هَذِهِ الطَّرِيقَ فَانَّهَا الْوَحِيدَةُ مِنَ الْاِسْكَنْدَرُونَةِ اِلَى حَيْفَا حَيْثُ يُمْكِنُ قَطْعُ
 الْجَبَلِ بِسَهُولَةٍ . لِانَّ النُّهْرَ وَبَقِيَّةَ الْعَوَامِلِ الطَّبِيعِيَّةِ قَدْ بَسَطَتْ فِي هَذَا الْمَكَانِ وَاذِيَا
 مَنَسَمًا قَابِلِ الْاِخْتِزَاءِ لَا يَتَجَاوَزُ اَعْلَاهُ ٥١٠ امتاراً . وَفِي طَرَفِيهِ سَهْلَانِ احَدُهُمَا شَرْقِي وَهُوَ
 وَادِي الْعَاصِي يَنْغُذُ مِنْ شِمَالِ سُورِيَّةٍ اِلَى دِهَشَقِ اَوْ سَهْلِ الْبَقَاعِ وَالْآخَرُ غَرْبِي يَنْغُذُ اِلَى
 الْبَحْرِ . وَلِذَلِكَ قَدْ اَسْرَعَتْ الْاُمَمُ فَاثْبَتَتْ الْمَدْنَ الْعَامِرَةَ عَلَي طَرَفِي هَذِهِ الطَّرِيقِ الطَّبِيعِيَّةِ
 فَشَيَّدَتْ شَرْقًا حَمَصَ اَوْ مَدِينَةَ قَدَسِ الْقَدِيمَةِ الَّتِي خَلَقَتْهَا لِاَذْقِيَّةِ لُبْنَانَ . وَمِنْ جِهَةِ الْبَحْرِ
 بُيِّنَتْ سَبِيْرَةٌ الَّتِي تَعَدَّدَ ذِكْرُهَا فِي مَرَاثِلَاتِ قَلِّ الْعَارَنَةِ ثُمَّ عَرَقَةٌ وَاَرَوَادٌ فِي الْجَزِيْرَةِ
 الْمَعْرُوفَةِ بِاسْمِهَا وَاخِيْرًا طَرَابُلُسُ . وَقَدْ نَالَتْ كُلُّ هَذِهِ الْمَدْنَ مِنَ الْحَضَارَةِ سَهْمًا فَاتَّرَا
 لِانَّ طَرِيقَ التِّجَارَةِ كَانَتْ تَمُرُّ بِهَا مِنْذُ الْعَصُورِ الْحَالِيَةِ . وَانْ كَانَتْ طَرَابُلُسُ لَمْ تَزَلْ حَتَّى
 يَوْمِنَا هَذَا مَدِينَةً مَعْتَبَرَةً وَتُرِيدُ كُلَّ يَوْمٍ تَرْقِيًّا فَانَّ الْفَضْلَ فِي ذَلِكَ لِمَوَاعِمِهَا فِي طَرَفِ هَذِهِ
 الطَّرِيقِ التِّجَارِيَّةِ وَاِذَا مَا وَاصَلَتْهَا يَوْمًا السَّكَّةُ الْحَدِيدِيَّةُ بِدَاخِلِ الْبِلَادِ وَهُوَ اَمْرٌ قَرِيبٌ
 الْمُنَالِ كَمَا رَأَيْتَ اَضْحَتْ مُجَارِيَّةً لِبَيْرُوتَ تَبَارَتْهَا فِي تِجَارَتِهَا وَنَفُوذِهَا

*

هَذَا وَمِمَّا يَسْتَحِقُّ اِعْتِبَارًا فِي دَرَسِ هَيْئَةِ لُبْنَانَ وَاَحْوَالِ الْجُغْرَافِيَّةِ صَخُورُهُ الَّتِي
 يَتَرَكَّبُ مِنْهَا . فَانَّ هَذِهِ الصَّخُورَ كَمَا سَبَقَ الْقَوْلُ اِغْلِبُهَا مِنَ الْمُرَكَّبَاتِ الْكَلْسِيَّةِ . وَالْمَعْلُومُ
 اَنَّ الْحِجَارَةَ الْكَلْسِيَّةَ كَثِيْرَةٌ التَّنَفُّتْ تَعْمَلُ فِيهَا الْعَوَامِلُ الْجُويَّةُ فَتَحْلُلُهَا وَلِذَلِكَ تَرَاهَا
 مَشْخُورَةً مَتَقَطَّعَةً ذَاتَ نَخَارِيْبٍ وَثُقُوبٍ عَدِيْدَةٍ كَانَتْهَا الْغُرْبَالُ . وَبَعْضُ هَذِهِ الصَّخُورِ
 مَتَرَائِكَةٌ بَعْضُهَا فَوْقَ الْبَعْضِ فِيهَا الشَّقُوقُ وَالتَّخَارِيْمُ وَالشَّرَفَاتُ يَظُنُّهَا النَّاظِرُ مِنْ بَعِيْدٍ اَنَّهَا
 بَقَايَا اَبْنِيَّةٍ قَدِيْمَةٍ . وَاِذَا رَقِيْتَ اَعَالِي لُبْنَانَ مِنْ عُلُوِّ ١٠٠٠ مِتْرًا اِلَى ١٥٠٠ مِ وَجَدْتَ مِنْ
 هَذِهِ الصَّخُورِ الْغَرْبِيَّةِ ذَاتَ التَّخَارِيْمِ وَالشَّرَفَاتِ مَا يَزِيْدُكَ اِنْذَهَالًا اَخْصُوصًا قُرْبَ اَفْقَا
 وَرِيْفُونَ وَعَجَلْتُونَ وَمِزْرَعَةُ كَفْرَدِيَّانِ وَتَنْدُورِيْنَ . وَهِيَ قَابِلَةٌ تَحْتَ عُلُوِّ ١٠٠٠ مِ وَاِذَا فَرَعْتَ
 الْجَبَلَ فَوْقَ عُلُوِّ ٢٠٠٠ مِتْرًا لَا تَجِدُ مِنْهَا شَيْئًا لِانَّ الْبَرْدَ الَّذِي لَا يَزَالُ فِي اَكْثَرِ السَّنَةِ
 قِيَاسُهُ تَحْتَ الصُّفْرِ لَا يَجْلُلُ الصَّخْرَ بَلْ يَنْغُذُ فِي قَلْبِهَا وَيَشَقُّهَا شَقًّا قَاتِرًا قِطْعَها تَعْمَلُ كُلُّ
 قَمِ الْجَبَلِ حَتَّى اِنَّهَا فِي بَعْضِ الْاِمْكِنَةِ تَتَرَاكُمُ كَأَنَّ السَّائِرَ فِي وَسْطِهَا يَجْرِي فِي مَقْطَعِ

من الحجارة

وكذلك للمصاعقة في هذه الثمن فعلٌ لنوارد الانواء في اعالي الجبل . والصاعقة فضلاً عن ضرباتها وسحقها للصخور تحرك الرياح والهواء بتدويرها فتدوي لها الاودية وتتأثر منها جروف الجبال فتتخسف او تنساقط . واذا اضفت الى عمل الصواعق فعل الزلازل وفعل المياه في سيلانها فهتت كيف يندك الجبل اندكاً كما ويتقوض فتتهدر جنادله الى الاعماق جارفةً في مسيرها التربة والنبات

فكل هذه العوامل للخراب تقرب الى الفهم رأي العلامة ديزر في تركيب لبنان (١) حيث يقول انّ علو لبنان كان في الاعصار السامة السابقة لعهد التاريخ اعلى منه اليوم بنحو ٣٠٠ متر فلم تزل دواعي الدمار تسحوه وتجرف تربته الى السهول حتى صار على ما هو اليوم . وهذا امر محتمل فافترض انّ في كل جبل تجرف عوامل الطبيعة خمسة امتار من رأس الجبال فلا يابث ان يصحّ حساب ديزر . وان كان هذا القول صواباً ادركنا صحّة قول الأقدمين بان جبلنا كان سابقاً متوجّهاً بشارج مخلّدة فدعي لهذا السبب بلبنان اي الجبل الابيض

ومن مفاعيل هذه الجروف المائنة المغاور والكهوف التي يتأزها لبنان . فانّ الطبقات الكلسية الاقضية الشكل او المنحرفة انحرافاً خفيفاً كثيرة في الجبل يعترض بينها شقوق او اقسام مختلفة التركيب والصلابة بينها قطع سريعة التفتت وشبكة الانحلال . فاذا جاءت العوامل الخارجية جرفت الاقسام الضعيفة الباطنية وتركت الطبقة الكلسية العليا فاضحت الصخور على شبه السقف . وهكذا كانت قديماً تلك المساوي الاولى التي كان يسكن تحت ظلها السكّان الاقدمون . وبعض هذه المغاور قد احتفرتها عوامل الجو والمياه معاً اذ تسرّت الى باطن الصخور فأتكتلت قسماً منها وتركت وسطها خلواً على صور اغوار واسعة وكان للبعض منها مداخل طبيعية ضيقة فنبتت المياه من داخلها فوسعتها وجعلت لها دهاليز . كما ترى مغارة انطلياس العليا المعروفة بمغارة البلاني وكمغارتي نهر الكلب اللتين نضبت اليوم مياههما ولا يزال حتى الآن يظهر فيهما اثر الماء

وكثرة هذه المغاور القديمة مكّن قبائل عديدة من سكنى لبنان في الاعصار الحالية

كما اثبت ذلك الاب زُموفن في المشرق (١ : ٦٧ و ٣٥٣) . ومن هذه الكهوف الطبيعية ما اصلحه الناس وزادوا في توسيعه أما ليتخذوه مدافن لموتاهم وأما لياووا اليه مع قطعانهم او ليسكنوه زهداً كما ترى في مغاور الفرزل وعدلون وهرمل (راجع ج ١ ص ١٠٩) . وربما اضافوا اليه البنايات العظيمة فصارت هذه المغاور كقسم من اديار الرهبان كما ترى في قزحياً وفتنوين . ومنها ما زيد في تحصينه فاضحى كالقلاع المنيعه مثل قلعة نيجا الشهيرة في تاريخ القرون المتوسطة باسم شقيف تيرون . وهي عبارة عن صخر قائم عمودياً على علو ٣٠٠ متر . وفي وسطه كانت عدة كهوف وسعها البناؤون فسكنها الجند ولا يبلغ الصاعد هذه المغاور إلا برقى صعب الارتقا . وفي هذه القلعة تحصن الامير فخر الدين المعني في القرن السابع عشر كما ورد في تاريخ لبنان . وقد وجدنا في هذا المكان كتابة على اسم الملك الظاهر بيبرس بعد ان انتزعه من ايدي الفرنج

وكذلك تُنسب الى جرف المياها الجسور الطبيعية التي في لبنان . فان للمياه المتجمعة سورةً تكسبها من كل الحواجز التي تلقاها في سبيلها . لم تجد طريقاً اخرى لتجديد عنها . فتراها تصدم الصخور وتتجرها في اقسامها الاقل صلابة فتفتح لها مجرى يتسع يوماً بعد يوم حتى تجري في مسيل واسع وتبقى الصخور الصلبة فوقها على شبه جسر طبيعي . وطبقات هذه الجسور التحتانية كثيراً ما تسقط لضعف دعائمها التي تعرفها المياه وتسلط العوامل الجوية عليها . وهكذا ذهب الزمان بقسم من تلك المعابر الطبيعية التي كانت تجمع بين معاطف اودية لبنان وتجري فيها السيول الجارفة . وإنما بقي منها بعضها الآخر

فمن هذه الجسور معبر طبيعي ليس بمعتبر عند العاقورة وهو عبارة عن صخور ثقتبها سيول المياه على شبه القبة . واعظم منه شأناً الجسر القريب من نبع اللبن المعروف بجسر الحجر تراه فوق الميل كالقوس العظيمة وهو يجأت على علو ٦٠ متراً وطوله ٣٠ م في عرض خمسة امتار . ومن نظر اليه عدّه طرفه من طرف الدهر قد شادته الطبيعة وجمالته كآية من آياتها التي تسي القلب بعظمها وحسن صنعها . وفيه من التناسب والاحكام ما حمل بعض الكتبة على ان يزعموا بان ايدي البشر ساعدت على تركيبه . وهو قول بعيد

ثم يوجد جسر طبيعي ثالث على منعطف لبنان الشرقي يمتد فوق وادي الليطاني الزهبي وموقعه على بعد نصف الساعة غرباً من قرية يحمور في وسط الطريق بين جزين وحصياً وهو حتى اليوم معبر للسابلة بين القريتين. يدعونه جسر القوة ونهر الليطاني يسيل تحته على عمق نحو ١٠٠ قدم وطوله ٢٢ قدماً ومعظم عرضه ٦٨ قدماً ثم يضيق الى تسعة اقدام . وتعلو هذا الجسر طبقة من التربة تلبت فيها الاعشاب والدغل ولتختم هذا الباب بذكر النقطة التي عندها تنتهي المساكن . وهو خط يصعب تحديده لقلّة الاقيسة القانونية الدالة على علو الضياع والقرى . ثم ان هذا الخط يختلف مع اختلاف احوال الجو فان لبعض الامكنة موقعا حسنا يصونها من هبوب الريح فيمكنها ان تشاد في معالي الجبل ولولا احسن موقعها لما امكن الاهلين سكنائها . وفي اوربة قائمة السكّان الذين يبيتون في القرى فوق ١٢٠٠ متر لا تتجاوز ٣٠,٠٠٠ نسمة . اما لبنان فان القرى التي فوق هذا العلوّ متعدّدة كبسكنتا مثلاً (علوها ١٤٣٠ متر) وعين صوفر (١٣٠٠ م) والعاقورة (١٤٠٠ م) . واقل منها الضياع التي فوق ١٥٠٠ م وهي عيناتا (نحو ١٧٥٠ م) والبيونة (نحو ١٥٤٠ م) وعزرتة قرية صغيرة شمالي غربي زحلة (١٥٤٠ م) (١) . وفي الجبّة قرى عديدة علوها قريب من ١٥٠٠ م كاهدن وبشراي والحدث . اما فوق علو ١٨٠٠ متر فلا تجد الا آكواخاً ومآوي للرعاة وربما اختلف الكتابة في تعيين العلوّ لاختلاف مواقع اقيستهم في القرية نفسها . ومن المعلوم ان بعض القرى تشغل في الجبل نحو ١٠٠ م بين اسفل دورها واعلاها اما النقطة التي ينبت فيها النبات فهي كما لا يخفى اعلى من نقطة المساكن البشرية فان بعض مزارع لبنان موقعها على علو ١٨٠٠ م بل ٢٠٠٠ م الا ان هذه المزدردات الاخيرة لا تكون الا في الاودية والاغوار التي هي بمزل عن الرياح . وترى في هذا الارتفاع شجر البلوط العادي الكبير الائمّار وشجر البطم البري والشوح والخوخ البري . وبعض شجر العرعر ضخم عظيم وطول باسق . واشهر اشجار لبنان الارز الذي لموقعه على علو ١٩٢٥ م

(١) يزعم لورته في كتابه سورية الحالية (ص ٦٣٤) انّ علو عيناتا ١٨٠٠ م وعلو البيونة ١٦٥٠ م لكنّ هذه اقوال تخمينية لا يسند اليها . ويجعل كيرت علو عيناتا ١٦٨٠ م والبيونة ١٤٤٠ م وهذا دون القياسات المقبولة . (راجع مقالة للاستاذ الايركي وست West, l. c., PEF)

١٠

مياه لبنان ورسم مجاريها

ليس هذه المرّة الاولى نبحت عن مجاري المياه في لبنان . فأننا في كلامنا عن عين اققا (راجع ج ١ ص ٥٠) ألمعنا الى هذا الامر . لكنّ خطر الموضوع يجدو بنا الى ان نخصّص له فصلاً اوسع مهّد اليه العقول رَسْمُنَا لِأَنْجَادِ لِبْنَانَ وَاعْوَارِهِ . وليس بجشنا الحاضر جغرافياً محضاً بل عملياً ايضاً واقتصادياً . فان المياه في البلاد الحارّة من اعظم عوامل الاقتصاد كما سترى . ودرُسُنَا هَذَا لِمَا يَسَاعِدُ عَلَى بَيَانِ النِّظَامِ الْعَجِيبِ الَّذِي وَضَعَهُ تَعَالَى فِي الطَّبِيعَةِ لِوِازِنَةِ قَوَاهَا . ولولا ذلك لظنّ الناس انّ هذه الجبال الشاهقة ربّما كانت كحاجز يعوق المواصلات بين الاهلين او اعتبروا هذه مجاري المياه التي تندفع احياناً كسيول جارفة طامية حدوداً لنشاطهم ودماراً لاعمالهم . ولو تروّوا لأدركوا ان الجبال والمياه معاً أخرى بان تُنظّم بين العوامل المساعدة للحضارة اللهم اذا عرف ان يستخدمها لصالحه

وبجشنا هذا يتناول ثلاثة فصول : اولاً رسم عيون لبنان ثم رسم انهاره واخيراً رسم المياه والشواطىء البحرية

١ رسم عيون لبنان

نقسم هذا الفصل ايضاً الى ثلاثة ابواب فنبين كيف تكوّنت هذه العيون في لبنان ثم نعدّد صنوفها المختلفة ونختتم بذكر الجداول السارية في اسراب الجبل

١

كيف تكوّنت عيون لبنان

تصدر عيون لبنان من مياه السماء التي تجود بها الطبيعة على بلادنا فتغمرها بها اماً بهبوط الامطار الغزيرة واماّ مجزائن الثلوج المكتنزة في اعالي الجبل كما سبق . والارض ترتوي من هذه المياه الفائرة في كبدها فتتشرّبها لقابليّة ترسّحها ولولا ذلك لانحدرت هذه المياه زاخرة كالسيول الجاحفة في ابّان العواصف والامطار الغائضة ودفعت في مسيرها التربة بل سحقت الحصى واقتلعت الحجارة فقلبت البلاد ظهراً لبطن حتى انها

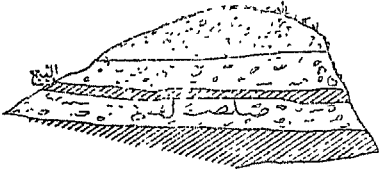


في بعض الاحيان تغير بزمن قليل صورة الامكنة ووضعها الجيولوجي . وليس كذلك والحمد لله عمل المياه الداخلة الى قلب الارض فانها اذا نفذت في باطن التربة صفت وتتأصت من كل الاجسام الغريبة التي اجتذبتها ثم تروق بالتدريج وتأخذ من الطبقات التي تتجاوزها حرارتها وتحلل ما تجد فيها من الاملاح القابلة التحليل ولا تزال تتحدّر وتنضب الى ان تبلغ طبقات الارض التي لا تخرقها المياه فتسيح فوقها حتى اذا وجدت لها منفذاً تبجست منه عيوناً

ونفوذ الامطار في بطن الارض يجري على طرائق شتى على اختلاف طبيعة التربة فاذا كانت الارض نباتية لا يبلغ الماء اعماقها لاسيما اذا سحّ المطر ونزل شائب وكان وجه الارض مع ذلك مائلاً بحيث يسهل السيولان . ومن عادة التربة الزراعية المتركبة من بقايا النبات والحويان ان تمتص كمية عظيمة من المياه لتغذي بها النبات . فترى من ثم عظم شأن التربة الزراعية في الفلاحة . ومما تغور فيه المياه بسهولة الطبقات الرملية المختلطة بالحصى . وليس الحواري والصالصال كذلك فان الماء لا يخرقها لأزرجتها وانضمام اقسامها فيجتمع فوقها أما في الاسراب او في المستنقعات على وجه الارض ويلحق بالنبات ضرراً لتراكمه في بعض الامكنة ونقصه في أخرى

أما النبات فقد دلّ المسير اليزاي وركلو على عمائه بالنسبة الى الندوة . فانه بعد اخذه نصيبه من الماء المنحدر من الغمام يساعد على نفوذ ما فضل عنه الى اعماق الارض . فاوراق الاشجار مثلاً تخفف وطأة سقوطه بان تصبه نقطة نقطة على الارض فتبتل به وتتشربه شيئاً فشيئاً بينما ينحدر قسم آخر من ماء المطر على ساق الشجرة وجذورها فيدخل تورا في اعماق الارض . وقد لحظ الطبيعيون ان الخلك واصناف النبات التي تنمو فوق الجبال اذا سقطت عليها الامطار او الثلوج رويت ندوة وانفتحت كالاسفنج فخرزت في مطاوي تجعداتها ماء كثيراً تنال منه التربة حظها بعد نزوب طراوتها . وفي بعض جبال اسكوسية وارلندة عدد لا يحصى من هذه النباتات يبلغ الماء المخزون في خلال اوراقها واغصانها آلاف الوف من طنات الماء (١) . ومن هنا تعلم سوء عتبي رعية العنز في الجبال فانها آفة للنبات وهي ليس فقط تجرداها من خضرتها التي ترينها ولكن تجرهما من الندى والرطوبة التي تحتاج اليها بلادنا الحارة

هذا والصخور عينها تمتصُ كالتربة العادية كميات من الماء تختلف على اختلاف شقوقها وتباعد دقائقها . لا يخرج عن هذا الحكم إلا حجر الصوان المانع وليس منه شيء في لبنان . وجبلنا على عكس ذلك يتركب اجمالاً من حجارة كلسية كثيرة الصخور والثقوب تنفذ فيها الامطار كما في غربال . وتحت هذه الصخور عادة طبقات



من الصلصال لا ينفذ فيها الماء سهلاً فاذا اجاز اليها الماء نض قليلاً ونشأ منه جداول تجري على حسب ميل طبقات الصلصال واختلاف هيئتها بعمل المياه الى

ان تجد منفذاً تسيل منه الى الخارج . والمياه التي تنحدر هكذا فوق الصخور الكلسية ومنها الى الاراضي الصلصالية هي اوفر بالاجمال من سواها لطول مسيرها في باطن الارض الذي ربما بلغ مئات من الاميال فتردّها على مدى سيرها المياه المتحلبة اليها . ومثال هذه الينابيع عين انطلياس وعين نهر الكلب في جمعيتنا فان اكثر مياه مديريّة القاطع تجري من الاولى كما ان معظم مياه كسروان الاسفل تجري من الثانية . ومن هذا الوجه يصح قول الجيولوجيين عن وفرة هاتين العينين وعن يبوسة المعاملات الواقعة تحتها

٢

اختلاف عيون لبنان

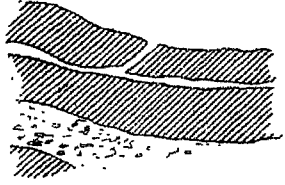
يختلف موقع هذه العيون حسب اختلاف الصخور التي تهبط عليها مياه الامطار . فترى بعضها بعيدة جداً من مهبط الغيوث والبعض الآخر ينبع تحت الامكنة التي نزلت فيها هذه المياه . ففي لبنان عيون لا تبعد سوى بضعة امتار من قمة الجبل او نجوده . وهي نزره المياه لتأمة المساحة التي تجمع ماءها وقصر مسيلها في بطن الارض اما العيون الغزيرة المياه فانها تلبس خصوصاً في الودية عند لحف الجبال او في وسط الاباطح الواقعة تحت سلسلة جبلية فمثال الاولى عيون العاصي الفاضة في سفح جبل هرمل وعيون نهر بيروت ونهر انطلياس ونهر الكلب السائلة في لحف لبنان اما مثال الثانية التي تنفجر في وسط السلسلة الجبلية عند واط المشارف الثانوية فالانهار الجارية في اوسط لبنان كنهـر قديشا تحت جبل الارز ونهر ابراهيم تحت جبل منيطرة

ونهر دامور تحت عين زحلنا وكهرَي الأوَلِي والزهرانيّ فإنّ كل هذه العيون تتبجس في سفوح الجبال اللاحقة بالسلسلة الاصلية التي يرتوي سطحها الكلسي من مياه الثلوج والامطار الشتوية فتضحي كغزّان لا تُنفد منه المياه التي تسيل الى ان تبلغ طبقة من الصخر الرملي الصلب يُدعى بُرْقة (grès) لا يمكنها اجتيازها فتفتح لها سبيلاً وتسيح على ظهر الارض (١٠) ومن اعتبر مساحة الجبل الذي يجز في صخورهِ وارضهِ القاحلة كلّ هذه الكمية من الندوة وهو اشبه بمصفاة واسعة الجوانب بعيدة الغور لا يكاد يتعجّب من وفرة المياه التي تجري بالعيون اللبنانية

فترى من هذا الوصف صدق ما كرّناه غير مرّة وهو انّ لبنان كحوض يكثر في احشائه تلك الانهار الكبيرة وخصوصاً العاصي التي تحيي مياههُ بلاد سورية وتغنيها بما تجديها من المرافق المتنوعة . ومع صحّة هذا القول تجد النحاء عديدة من لبنان في حاجة ماسّة الى المياه كجهات البترون والشوف مثلاً . وخصوصاً بعض المعاملات السفلى التي تقتقر الى الماء لا يشرب اهلها الآبار . والعيون في بعض هذه الايلات لا تتجاوز عدد الاصابع كما في جهات البترون والغرب التي لم تحظّ بنصيب صالح منها وان سأل القارئ وما سبب هذا الاختلاف اجبناه انه ناشى عن تركيب لبنان الاصيليّ فإنّ بين نواحي تئورين وحصرون وبشريّ واهدن المتركة من الصخور الكلسية وبين بقية القائمة المتركة من الصخور عينا قطعة مستطيلة من البرقة ذات الصخور الرملية الصلبة التي لا ينفذ فيها الماء فاذا بلغت المجاري فوجدت امامها هذا الحاجز اندحرت الى الجهات التي تعلوها فتنفجر فيها او نفذت في باطن الارض فتجري في اسرابها وتنصب في البحر كما سيأتي . وما نقوله عن هذه الجهات قد تحقّق بالبحث الجيولوجي وتراه مثبتاً بالمقابلة في نواحي الشوف حيث تجد ايضاً تحت قشرة الارض العليا طبقة من الصلصال والحواري لا تخرقها المياه (٢٠) وهي حالة يصعب اصلاحها ومن ثمّ فعلى اهل تلك النواحي ان لا يصدّقوا بسهولة اقوال بعض القناقن او بالاحرى المشوذين الذين يدعون بمعرفة المياه التي تحت الارض

(١) راجع كتاب العلامة دينر (Diener, p. 129) وخارطته الجيولوجية للبنان
 (٢) راجع الخارطة الجيولوجية التي رسمها الاب زوفن (السوي في كتابه المعنون « صفة لبنان الجيولوجية » (Esquisse géologique du Liban)

واعلم ان ما يمكن قوله اجمالاً ان كمية المياه الجارية من العين تختلف على اختلاف غزارة الامطار . بل ترى بعضها لا يظهر الا في فصول السنين الكثيرة الامطار
أما العينون الثابت جريها فان كمية مائها ليس بثابت . وكل يعلم ان لبعض



هذه العينون منافذ ثانوية (estavelles) متعددة هي فوق المنبع الاصلي بل تبعد عنه احياناً مسافة تُذكر وتفتتح عند تواتر الامطار واذا صار الصيف بقي المنبع الاصلي وحده فتكون هذه المنافذ كمصارع

تخفف سورة المياه على العين الاصلية كما ترى ذلك شتاء في وادي نهر انطلياس بين العين الحالية ومغارة البلائي

وما نقوله عن هذه المنافذ يمكن قوله عن بعض المغاور التي كانت المياه تجري فيها سابقاً كمغارة انطلياس مثلاً المعروفة بالبلائي التي موقعها نحو عشر دقائق فوق المنبع الكبير فان هذه المغارة راقية الى الطور السابق للتاريخ وآثار المياه فيها ظاهرة على حضيضها وجدرانها وبأ يري في وسطها من الحصى المصقولة باحتكاك المياه . والمرجح ان قسماً من الصخور في باطن المغارة انخسفت فسدت مؤخر الفوهة القديمة التي كانت تسيل منها المياه . وذلك في اعصار قديمة جداً لان هذه المغارة صارت بعدئذ مأوى لاهل لبنان الأولين كما اثبت ذلك حضرة الاب زئوفن في المشرق (١ : ٩٧) .
وكذلك مغارات نهر الكلب العليوين . واهل اجمل هذه الاغوار المائية مغارة نهر بيروت وهي على مسافة ساعة من منبع النهر الحالي . وعلو موقعها يصد عن التوقل اليها ولكن ترى عند مدخلها آثار المياه القديمة . والتقليد الشائع عند اهل تلك الجهات ان هذه قناة او سرب يتصل بدير القلعة وهو زعم مردود . وكذلك اخيراً مغارة افقا العليا فانها منفذ ثانوي تسيل منه المياه في وقت الفصول الكثيرة الامطار

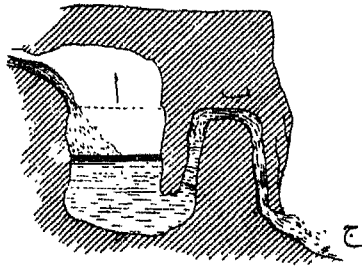
هذا وانّه ليصعب احياناً بيان العلاقة الموجودة بين العين الاصلية والمنافذ الثانوية التي تجري على مسافات تختلف عن بعضها بعداً . كما انه لا يسهل ادراك سر اتصال عينين احدهما متواصلة الماء والاخرى متقطعة

وقد ظهر في ما سبق ان كمية الماء التي تجري مع عينون لبنان لعظيمة جداً وقد قاس منها الجيولوجي فراس (Fraas) ما يبلغ في الثانية اربعين قدماً مكعباً . فعين

جزين التي يتجاوزها غيرها في غزارتها تصبُّ في الثانية ٣٩٠ ليترًا . ومن الامور المقررة ان بعض ينابيع لبنان كانت سابقاً اغزر منها اليوم . فالتاريخ يخبر عن عين العرعر قرب بعبدا انها في عهد الرومان كانت تفي بحاجات مباني دير القلعة وهيكله ولذلك قد ابتنوا لها قناة ترى آثارها الى زماننا مع انها في الوقت الحاضر نزرة المياه لا تحتاج الى قناة . امّا في القرون الوسطى فلم تزل كثيرة المياه حتى ان الدويهي يدعوها نهراً في تاريخ الطائفة المارونية (ص ٩٨) . وزعم صالح بن يحيى في تاريخ بيروت (ص ١٢) انها كانت تجري الى بيروت في قناة . وهو امر لا يمكن اثباته لكنه يبيّن غزارة هذه العين التي لا تكاد اليوم تحصى في عداد الينابيع اللبنانية

وان سألت الآن عن درجة حرارة العين في لبنان اجبتك ان العلماء لم يبحثوا في ذلك الا قليلاً . وما يقال اجمالاً ان حرارة المياه الجارية فوق علو الف متر هي دون حرارة الهواء المحقق بها (١) . والمياه على قدر طول مجراها تزيد درجة حرارتها الاصلية عند انبجاسها لانها في مسيرها في الاسراب الباطنة الدافئة تأخذ من حرارتها . ولذلك ترى بعض العينون الغزيرة كنبع انطلياس ونبع نهر بيروت قليلة البرودة . فهذه الينابيع وان كانت تتركب من تحلب ثلوج لبنان تنقص برودتها طول جريها في بطن الارض تحت سلسلة الجبل الى ان تغذ الى الهواء فوق سطح البحر بقابل فتصب فيه . وهذا عدل درجات الحرارة لبعض عينون لبنان بالنسبة الى المقياس المثوي : نبع جزين ١٣ . وكذلك نهر الكلب ١٣ . نبع الباروك ١٠ . نبع افقا ٨ . نبع اللان ٥ . نبع العسل ٤ .

وفي لبنان عينون كثيرة دورية كما مر في وصفنا لافقا وبحيرة اليثونة (راجع ج ١ ص ٤٦ و٤٩) . ومثلها نبع عرمتا في جبل الريحان ينقطع مراراً في السنة لاسيما في الربيع فتري مياهه تزيد وتنقص كل نصف الساعة وربما انقطع تماماً ثم عاد الى جريه وسبب انقطاع



المياه على هذه الصورة: ان المياه بعد نضوبها واجتيازها في طبقات الجبل تبلغ الى حوض داخلي ينفذ الى الخارج بمجرى على شكل المصّ (انظر الصورة ص ١٢٣) فاذا توقّرت امتلأ الحوض حتى يساوي سطح مائه الخطّ (١) ثم يزيد ارتفاعه في المجرى المعقّف على حسب قاعدة مساواة المائعات في الالوعية المتصلة الى ان يبلغ اعلى نقطة من المصّ في (ب) فتجري الى (ج) وهو النبع وتسيل حتى تنقص المياه فيسبب سطحها الى فم المصّ الداخلي وينقطع الماء بنقطة ويدوم انقطاعه طول المدّة اللازمة لارتفاع سطح الماء في الحوض الى (١) فتعود الى الجري وهلمّ جراً

ومن الينابيع ما يفور عند تفجّره كالنوفرة فيبلغ علواً مختلفاً في الهواء ونظن ان لبنان لا يخلو من مثل هذه العيون وان لم يجضرنا الآن مثل على ذلك . وفي نبع انطلياس تخرج المياه مزبدة بينها شبه فوارات تعلو نحو قدم فوق جملة المياه . وهذا يرى ايضاً في عيون نهر العاصي في لطف جبل هرمل

اما العيون الحارّة والمعدنيّة فانّ العلماء حتى اليوم لم يفرّدوا للبنان بحثاً فيها . وجملة ما يُقال انّ تركيبه الجيولوجي يدلّ على أنّها قليلة اللهمّ الا بعض العيون الداخل فيها كميات مختلفة من الحديد يمكن تمييزها بتلوين مجاريها لان المياه الحديدية تُسود مسيلها عند سيلائها بدقائق الحديد الداخل في تركيبها . أما الينابيع الكلسيّة فكثيرة يرسب كلسها حولها او في مسيلها فيتحصّر ولا يزال يزيد حجماً حتى انه في بعض الامكنة يسدّ المجرى تماماً

وهو السبب عينه الذي كوّن في بعض الكهوف والمغاور تلك الرسوبات الحجرية التي تُرى على شبه العمود . فانّ المياه بتحبّسها من سقف المغارة تترك بعض دقائقها الكلسيّة في الصخر فاذا تواتت هذه القطرات زمتاً مديداً زاد التحجّر على شبه اساطين (stalactites) ثم انّ قطرات المياه بسقوطها على الحضيض تترك قسماً آخر من كلسها الباقي فيتحصّر الكلس ويرتفع على شبه الشموع (stalagmites) ورّبما بلغ الاسطوان المتحدّر من علّ الشموع المرتفعة من اسفل فصار كلاهما كعمد متواصلة (١) . وفي مغارة نهر الكلب من هذه المتحصّرات كثير تُرى في الغور الذي يدخله عادة الزوّار

الأ أنها ابهى واجمل في قلب الجبل . وقد اخبر المهندسون الانكليز الذين نفذوا الى باطن مغارة جعيتا في ايلول من سنة ١٨٧٣ ثم سنة ١٨٩٦ أنهم عبروا مجازاً حرجاً طوله عشرون متراً فُضي عليهم اضيق المرّ ان ينبطحوا على بطونهم ثم اجتازوا في احواضٍ ومجاري متوالية حتى بلغوا شبه غرفة واسعة وجدوا سقفاً مزيناً بهذه الاساطين المتحجرة البديعة المنظر امّا الحضيض فكان مرصعاً باشكال العمدة الغريبة الصورة

٣

مجري المياه في الاسراب

تتمةً لكلامنا السابق في عيون لبنان نذكر هنا شيئاً عن جداول المياه في اسراب لبنان لا بين البعثين من العلاقة اذ ان العيون لا تنبجس عادةً الا بعد قطعها مسافةً في بطن الارض

سبق لنا القول عن وفرة مياه عيون لبنان . فان بعضها اذا برزت من مكانها جرت كأنهار قادرة على حمل القوارب . ويكون تنفجرها غالباً في امكنة قاحلة وادوية كثيرة الصخور لا ترى حولها سوى الجنادل العالية والحجارة الصلدة فيؤثر منظر مياهها الرائقة كالزلال في قلب الناظر اذا قابل بين صفاتها ووحشة المكان فتراها تنفجر عيوناً كأنها اسير حُطت قيوده فنشط بحركته وبرز من محبسهِ الى النور مسرعاً الى الشمس ليتجلد بضيائها . واذا سارت من منبعها اخضبت ضفتيها واحيت ما تمسهُ من التربة فينبت النبات وينور الزهر وتمتد الاشجار باغصانها النضرة

فهذا رأس النبع في بيروت ومياهه الغزيرة الا ان هذه المياه كما لا يخفى ليست بنات هذه الصخور الجامدة فلا بُدّ اذاً من البحث عن اصلها في اغوار الجبل الباطنة حيث تنفذ المياه المتجلبة من الاعالي فتجتاز في الطبقات الكلسية كما بيننا ثم تتجمع في الاحواض جارية . ومن الانهار ما يمد مسيله في قلب الجبال مسافات بعيدة تبلغ نيفاً و ٢٥ كيلومتراً منها مثلاً نهر سورغ (Sorgues) في فرنسة الذي ينفذ من حوض فوكلوز . وهكذا ايضاً جبل لبنان فان مياهه تسيل في المجاري الداخلية قبل بروزها الى النور كما ترى في نهري افقا والكلب المتفجرتين من كهفها

وما قلناه عن طول مجرى نهر الكلب يجوز تأويله أيضاً عن مغارة افقا التي منها خاصة يسيل نهر ابراهيم فان مدخلها في حلف صخور يبلغ ارتفاعها ٦٠٠ او ٧٠٠ متر لها منظر مهيب قل وجود مثله في العالم على قول رينان والدكتور لورته . وللمغارة شعب عديدة ودهاليز فرعية يصعب عبورها لسعة أحواضها وكثرة مياهها . ولا يبعد يكون اتصال بين هذه المغارة وبجيرة اليثونة وليس بمستحيل وجود سرب طبيعي كهذا طوله اثنا عشر كيلومتراً

ويلحق بقولنا عن المياه الجارية في بطن الجبل مظهر آخر وهو غرور بعض المياه في لبنان دون ان يبقى لها اثر والمرجح ان هذه المياه تتصل بالبحر فتنفذ فيه جارية بمجار باطنة ومنها ما هو على قدر انهار غزيرة . وهذا امر طالما لحظه الجيولوجيون في السواحل البحرية لاسيا التي تتركب من صخور كلسية

ومن تتبع ساحلنا الفينيقي وجد في بعض مواقع عيوناً تتبع على سواحل سطح البحر وقرب بيروت منها عين غريبة موقعها تحت كلية الاميركان لا يكتفي البعض من ان يشربوا من مائها بل يكرمونها ويوقدون فيها الشمع تديناً وينسبون اليها القوآت العجيبة وهي تدعى عين الرئيسة . ومنها عيون أخرى فوق الجون الصغير المعروف بالدور حيث تنبع المياه ولا تزال تحفر الركائز التي اقامها المهندسون لسند السكة الحديدية المتصلة بالرفأ

وبعض هذه العيون ترى آثارها في وسط البحر كمين ارواد الشهيرة التي ترى قريباً من جزيرة ارواد . واهل تلك البلدة اذا صعب عليهم الوصول الى البر استقروا منها لشربهم . ولا ريب ان مياهها جارية اليها من جبل النصيرية . ولو بحثنا لوجدنا غيرها في جوارنا اكثر منها عدداً لان مياه لبنان اغزر من مياه جبل النصيرية . ولدينا مثال قريب من عند محطة المعاملتين يزيد العين المدعوة نبع مار يعقوب ترى في البحر على بعد ٢٠٠ او ٣٠٠ متر من الساحل . واذا كان البحر هادياً لاحت فائرة في وسط النحر وتبقى مياهها مدة دون ان تمتزج بمياه البحر . ولو بحث المهندسون على وجهة هذه المياه لامكنهم ان يفتحوا لها منفذاً في البر فيغفروا بها الساحل ويستقوا بها المزروعات حيث تنقل المياه

ان قولنا السابق عن عيون لبنان ليس بمستوفراً الا انه ينبت القرا . ويستدعي

نظرهم الى البحث في هذا الامر الخطير فيجدون فيه كفهرس لمباحث عديدة جديدة بهمتهم . وليست هذه الابحاث نظرية فقط بل عملية ايضاً كما رأيت في قولنا عن الينابيع البحرية . ولو تفرغ اصحاب المرثة الى هذا الامر لوجدوا وسائل متعدّدة تمكنهم من مقاومة عدو بلادنا العظيم اعني جذب الارض والتجولة . فان حياة سورية متوقفة على كثرة مياهها وحسن تقسيمها . وهذا امر غاية في الخطر لترقي الاقطار في اسباب العمران والاقتصاد والثروة . ولو وجد الاهلون مياهاً غزيرة لزادت همتهم ونالوا من الغلال ضعف ما يحصلون عليه اليوم

كئنا نتأسف على قلّة العلماء الذين يتفرغون لدرس المياه اللبنانية . ولا ترى في اوربة بلداً الا وفيه كثير من الجيولوجيين الذين يحنّون المياه بنظرهم . وهذا عذرا لديهم ان وجدوا كلامنا قصيراً في هذه المادّة . وانما املنا ان مقالنا تستلقت انظار بعض الخواص فيعيرون بالآ هذا الامر الخطير بدلاً من سعيهم وراء امور اخرى لا طائل تحتها

١١

رسم المجاري النهرية في لبنان

١

افادات عمومية

باي اسم ندعو مجاري المياه في لبنان أندعوها انهاراً او جداول او سيوفاً فقط . ذلك ليس باسم سهل لولا ان العادة قد غلبت على السن القوم فيدعون بالنهر مسيل المياه عموماً فيقولون نهر بيروت بل يقولون نهر انطلياس مع ان مجراه لا يكاد يبلغ خمسة كيلومترات وسبب ذلك ان العرب لم يعرفوا في جزيرتهم الا المياه الجارية في بعض فصول السنة وخصوا اسم النهر بتلك الاودية والمياه الجارية جرياً متواصلاً بلا انقطاع سواء تبلغ البحر او تنصب في نهر آخر (١)

فا يبقى لنا سوى ان نجاري العادة المألوفة التي لا تخوم من سند كما اشار الى ذلك

(١) وقد افرز كتبة الصليبيين بين هذين الصنفين فان غليوسوس السوري يدعو باسم

« rivus » كوايدي المثلين وسمى الانهار كنه الكلب « fluvius »

اليزاي روكلو في كتابه عن الارض حيث قال (ص ٣٥١) : ان كمية المياه التي تجري في مسيل دون آخر لأم عرضي يختلف في قارة دون أخرى وفي بلد دون بلد على مقتضى خطر مجمل المجاري المائية فلو اعتبرت مثلاً بعض انهار اوربة وعارضتها بانهار اميركة كالامازون وما ينصب فيه من الاودية لما استحقت بان تدعى جداول . ثم ان كمية المياه ليست بثابتة بل تختلف على مدار السنة . وبعض الانهار التي كانت في سالف الازمنة على سعة نهر المسيسيبي قد صارت بعد التقلبات الطارئة على سيارتنا « انهاراً بلاما » لان للانهار كما للانسان حياة فتنشأ وتزخر ثم تنقص وتتلاشى . اه ولا ريب في ان الانهار اللبناية كانت في سالف الاعصار وعلى الاقل في الاطوار السابقة للتاريخ اعظم منها اليوم واكثر ماء . وكفى دليلاً على قولنا ان ننظر احواض هذه الانهر الفسيحة وسعة مسايلها القديعة . فانها تنبئ صريحاً باقتصار مجاري مياهها . وربما وجدت في اعالي الاودية مغاور يعلو بعضها البعض كانت المياه تتبجس منها فمن فحص هذه الاغوار وسعتها وآثارها الباقية تحق ان كمية المياه كانت اوفر منها اليوم وما يقال عن نقصان مياه الانهار اللبناية في الزمن السابق التاريخ يرجح ايضاً اثباته على رأينا للقرون التاريخية . والشاهد على صحة قولنا ما تراه من الحواجز وسدود الانهار التي تكونت عند مصابها في العهد التاريخي وكذلك السهول المجاورة لهذه المصاب فانها تاريخية العهد . وكانت هذه الانهر قديماً بعد خروجها من الوديان التي منها نبعت تبلغ البحر تواء . وكان لا بد لها لبلوغ البحر من كمية عظيمة من المياه ليمكنها ان تظفر بما تلقاه في وجهها من العوائق كمقاومة الامواج البحرية ومهب الرياح وركام الرمل الذي تنقله السواقي

ولدينا ادلة اوضح على كثرة مياه بعض المجاري المائية . ان قناة الرومانيين عند نبع نهر بيروت تسدل صريحاً على ان اصل هذا النبع كان ثمة في الاعصار الاولي لتاريخنا . وكذلك قد قاس العلماء كمية المياه التي كانت تجري منها فقدروها بما تم مكعب في الثانية وذلك دون ان يصيب الزدروعات اذى من قلة السقي . اما اليوم فلو استقى البيروتيون كمية كهذه من ذلك النبع لفقدت السهول المجاورة ريبها وجفت فلا بد اذن من القول بان مياه نهر ماغوراس وهو لقب نهر بيروت قديماً كانت اغزر منها اليوم

هذا ثم أننا اوردنا سابقاً (راجع ص ٩٨) قول اسطرابون بخصوص لبنان والجبل الشرقي وبيننا ان هذا الجغرافي الشهير وهم في تعيينه وجهة هذين الجبلين اذ زعم انها يسيران من الغرب الى الشرق بدلاً من الشمال الى الجنوب وبينهما سهول البقاع التي أوصلها بالبحر وكان يحسب ان الاردن ونهر الكلب يجريان فيها . وأدى به وهمه هذا الى ان ظنَّ بإمكان خوض نهر الكلب والسير عليه بالمراكب . ولعلَّه يوجد حجة لندافع بها عن قول اسطرابون وهي ان مياه نهر الكلب كانت في سالف الاعصار اوفر منها في زماننا . وهذا ممَّا يابح من الطرق التي تُرى في مضيق نهر الكلب راكبة بعضها فوق البعض واقدمها طريق المصريين والاشوريين تعاو فوق الطريق الحالية نحو ثلاثين متراً . ثم جاء الرومان ففتحوا طريقاً اخرى تحت الاولى ببضعة امتار كان السابلة يجرون فيها الى زمن تثير العربات وهي ايضاً فوق سطح البحر بنحو عشرين متراً كما ترى في صورتنا . فليت شعري كيف يقال ان القدماء اختاروا لهم طريقاً في هذا العلو لينقلوا اليها عددهم الحربية وامتعتهم بعد العناء لولا ان يقال ان مياه النهر كانت اغزر منها اليوم . وعليه فان كُنَّا لا نوافق اسطرابون في قوله عن خوض نهر الكلب (١) فلا بأس من القول بان طبقة مياه هذا النهر كانت اعلى منها في عهدنا وكميتها اوفر .

وزد على ذلك ان سطح البحر قد انخفض بتأدي الاجيال كما سترى

وخلاصة الكلام أننا لا نخالف الجمهور في تسمية مجاري المياه اللبنانية بالانهار وان شاء القراء امكناً ان نقسمها قسمين الانهار الساحلية والانهار البرية . فالساحلية ما كانت اوديتها محصورة قليلة الاتساع واكثر انهار لبنان من هذا الصنف الا النهر الليطاني والنهر الكبير فيدخلان في حيز الانهار البرية وهما ينبعان في اواسط البلاد ما وراء سلسلة لبنان العليا . ومن عاين خارطة لبنان تحقّق لاول وهه ان هذا الجبل لا يحتمل لسير مياهه مجاري كثيرة الاتساع طويلة المسافة . ولو نظر الناظر من عل لما قاس بين ضلع لبنان المركزي وساحل البحر اكثر من ثلاثين كيلومتراً وكذلك في حلف الجبل لا ترى سهولاً فسيحة رحبة الارحاء يمكن الانهار ان تنساب فيها وتأخذ مداها في التعريج والتوريب كما ان الاودية اللبنانية وكلها على خط متساو قائمة على

(١) راجع تاريخ الفينيقيين (ص ٥٠) حيث نند بيتشان رأي اسطرابون

قطب الجبل لا تتحمل اتساعاً كبيراً . وفي الواقع ان أكثر انهار لبنان سيول لا يتجاوز طولها بعض الاميال تندفع من اعالي الجبال دفعة واحدة الى البحر . وليس بينهما نهر واحد يمكن القوارب فضلاً عن المراكب الجري عليه . وذلك لكثرة الخدّار مسيلها او لا يتوسطها من الصخور وهذا ما منع الملاحين ان يخوضوا نهري الكبير والليطاني وكلاهما طويل المسير كثير الالتواء كانّ الطبيعة اعدتّهما ليوصلا بين جهات قاصية (١)

*

ربّما اعتاص على الجغرافيين في وصف مجاري مياه البلاد ان يعينوا لكل حوض النهر الاصلي الذي فيه تنصب بقية المجاري المائية كأنهار ثانوية . وليس في وصف انهار لبنان مشكل كهذا لما عرفنا من تركيب هذا الجبل ووجهته . والانهار اللبنانية تشبه اجهزة عصبية قليلة الاشتباك تجمع كما في قناة مركزية الرطوبة التي تأتيها بها في فصول الشتاء الجداول الصغيرة الواقعة على جانبيها . امّا النهر الكبير الذي يسيل في وادي متسع لا في مضيق كغيره من الانهار اللبنانية فله سواعد تنصب فيه اكبرها وادي خالد يكاد يساري النهر الكبير بكثرة مياهه حتى يبقى الناظر في ريب اي منهما هو الشعب الاعظم وعلى كل حال لا يُنكر ان نبع وادي خالد اقصى سواعد النهر الكبير جنوباً وابعدها من مصب هذا النهر في البحر . وكذلك نهر الليطاني فلأنه يسيل في وادي البقاع المتسع تجد سواعده الجارية اليه فسيحة اجراها وهي كلّها بالنسبة اليه كمجاري ثانوية اذ تنضم اليه في المسيل المركزي . غير ان بعض كتبة العرب قد جعلوا عين جار كتبع نهر الليطاني . وما لا يُنكر ان مياه نهر الزاعر الذي يجري من هذه العين اوفر من مياه الليطاني التي ينصب فيها . ولكن قد وهم هؤلاء الكتبة يجعلهم عين جار كاصل الليطاني لوفرة مياهها بدلاً من النبع الأقصى . فانّ الانهار لا تُحدّد بما يأتيها من السواعد بل بينايبها الاصلية القاصية . ولولا ذلك لعدّ نهر اليرموك كاصل نهر الاردن لزاردة مياهه وهو يصب فيه . وهذا

مذهب لا يسلم به احد

واذا اعتبرنا هيئة مجاري الانهار في مسيرها وجدنا ايضاً ان هذا منوط بتكوين

الجلب فانّ المياه تجري حسب وجهة الاديّة وتركيب الصخور . فلما كانت هذه الاديّة متساوية ومرجّبة من صخور كلسيّة لا تقوى على سورة المياه سارت الانهار فيها على خط مستقيم . واذا وجدتّ النهر يعرج في سيره فذلك دليل على اختلاف طبقات المكان الجيولوجيّة كما ترى في اكواع انهار لبنان الجنوبيّة كالدامور والاولي والزهراني فانّها بعد خروجها من بين الصخور الصلبة (grès cenomanien) تبلغ الجهات المرجّبة من الصخور الكلسيّة السهلة الانحلال فتعدل عن الجنوب مائلةً الى البحر . وهذا يظهر خصوصاً في نهر الاولي كما ستري

وهنا لا بدّ لنا من الفات الانظار الى النتائج الوخيمة التي ادى اليها تجريد لبنان من غاباته بحيث صار هذا الجبل اهلاً بالبوادي القاحلة المجذبة وهو حوي بان يكون في سوريّة بمنزلة جبال الالب في سويسرة . وذلك ان مياه الامطار والثلوج بدلاً من ان تغور في التربة وتنفذ في جذور الشجر صارت تنحدر مسرعةً الى اسافل البلاد وهي تجرف في سيرها ما امكنتها من التربة والحجارة والصخور وربما هبطت الى الاديّة قطع كبيرة من الروابي والجبال بقوة السيول والاعصارات . ثم توالت على الجبل آفة اخرى وهي آفة المعزى والمواشي التي تقطع النبات او تقلع جذوره ففقد الجبل كل تربته الزراعيّة وانتصبت صخوره المتجرّدة وانفتحت فيه الوهاد العميقة المحجرة التي صارت مجازاً لسيول جاحقة لم تُر سابقاً . واضحى الماء آفة للخواب بعد ان كان نعمةً يخصب التربة ويغذي جذور الاشجار بالأملح النافعة التي يجلها . وهكذا تُعطل تلك الاعاصير الهائلة التي تصيب في كل شتاء بعض اتسام الجبل فتفسد المردعات وتهدم البيوت والطواحين وتخرّب في يوم ما يُحصّل عليه بعد سنين من التعب . وذلك لان اصحاب الارزاق لم يحافظوا في جهلهم على الغابات وقطعوا اشجارها الشمينّة بغيةً في الربح فعاد عليهم طومهم وبالآ

فلما فاة هذه البوائق ليس من وسيلة النجح من نصب الاشجار فانه قد ثبت بالتجربة ان مياه الامطار الساقطة على الغابات لا يسيل منها الا ستة اعشارها فينفذ في الارض ويسيل منها سيلاً منظماً . وكذلك من الوسائط المستعملة للافاة اضرار الاعاصير ومياه الفيضان الاحواض والقنّوات لسقي الاراضي وتخرّبك الرحي

والآلات . فيصير بين الطبيعة والاعمال البشرية كتبادل في الحدم . وإنما كل ذلك يذهب سدًى بنجراب الغابات والأشجار
وكذلك يجب ان ننسب لتجريد لبنان من شجره اتساع مسيل بعض الانهار
لاسيما في الجهات القريبة من السهول كما ترى في نهر بيروت ونهر الجوز . فان المياه
عند خروجها من مضيق واديها اذا قوبلت باًتساع مسيل النهر لا تكاد تبلغ القسم
العشرين منه فلا ترى منها الاً جدولاً صغيراً يجري بين الصخور المحطمة وركام
الحصى والرمل . وإن ذلك الاً ما جرفه النهر من اعالي الجبل في أيام السيول
الشتوية . ولو كان الجبل مغروساً بالغابات كما سجا بهذه التربة ولا زحف امام هذه
الصخور بل لبقى في حدوده

وفي الانهار صخور قليلة الارتفاع تعترض المياه فتتحدرد هذه منها مزبدة فتلك
الجنادل . والظاهر ان هذه الصخور شلالات قديمة عملت فيها المياه حتى انتقصت
بالاحتكاك . وفي انهار لبنان منها كثير لتحدرد الاودية وميلها . اما الشلالات العالية
فقايدة اشهرها شلالة جزين علوها من سبعين الى ثمانين متراً . وتقل مياهها في الصيف
حتى لا يبقى نسبة بين ارتفاعها وقلة مائها . وفي نبع اللين شلالة أخرى ومن خواصها
الغريبة ان المياه باحتكاك سطحها الذي تهبط منه قد تقهقرت نوعاً الى نبعها (١) . وعلى
جانبي المياه جدران خرقتها المياه فيمكن بتقدير ارتفاعها قياس عمل المياه وتقهرها
مدة كور الاعصار . وهذا شبه ما جرى لشلالات نياغارا الشهيرة في اميركة

٢

المصاب والسدود النهرية

وان الانهار كما لا يخفى بقدر اقترابها من مصبها تنقص مياهها إماً بالتجر وإماً
بمضيها في قلب الارض فتبلغ البحر وكمية مياهها عنده اقل منها في مسيرها . وهذا
الغالب على انهار لبنان لاسيما نهر بيروت ونهر الجوز والزهراني . ومما ينقص مياه نهر
بيروت ما يؤخذ منها لاسيما التروعات في السهل . اما نهر الجوز فانه في الصيف ينقطع
جريه الى البحر

(١) راجع صورثا في كتاب ابرس وغوته (Ebers et Guthe : Palaestina, II, 20)

والانهار اللبنانية كلها اذا صبّت في البحر لا تتسع ضفافها عند مصبها بحيث يتركب منها خلجان او جُون بل لا ترى لها اخواراً صغيرة مستديرة . والسبب لذلك أولاً قلة مياهها ثم خصوصاً خلوّ البحر المتوسط من المد والجزر . والجون الواسعة تشكّون بعمل الانهار والبحار معاً وذلك في البحار المفتوحة والسواحل المتعرضة لقوة المد والانباء فهي نادرة على سواحل سورية لا تثور الا عند مهبّ الريح الشمالية . ومعروف ان كل مجاري مياه لبنان تصبّ في البحر غرباً فلا تجد الامواج البحرية قوة كافية لتوسيع مصبها وحفر قاعها

وليس عمل امواج البحر كعمل المجاري والمد في توسيع مصب الانهار . فان هذه الامواج تأتي من غمر البحر منفرجة وتصدّم الساحل على شكل زاوية حادة فتقتلع منه حطامه ثم تنقله الى مصب الانهار مع ما تأتي به الامواج من الرمل بسيرها المتوازي للساحل . فالجزى النهرى يميل بازاء هذه القوة العجيبة وينعطف شيئاً فشيئاً ثم يتراكم في عرض مسيله حاجز من الرمل مواز للجزى البحرى . وبعد مدة تتكوّن عند الساحل شبه جزيرة ترى في احد جوانبها الساحل البحرى وفي الجانب الآخر ضفة النهر يفصلان الماء المالح عن الماء الحلو على مسافة عدّة اميال وهي تارة تمتد وتارة تتشعب على حسب اختلاف الارياح والمجاري ومد البحر

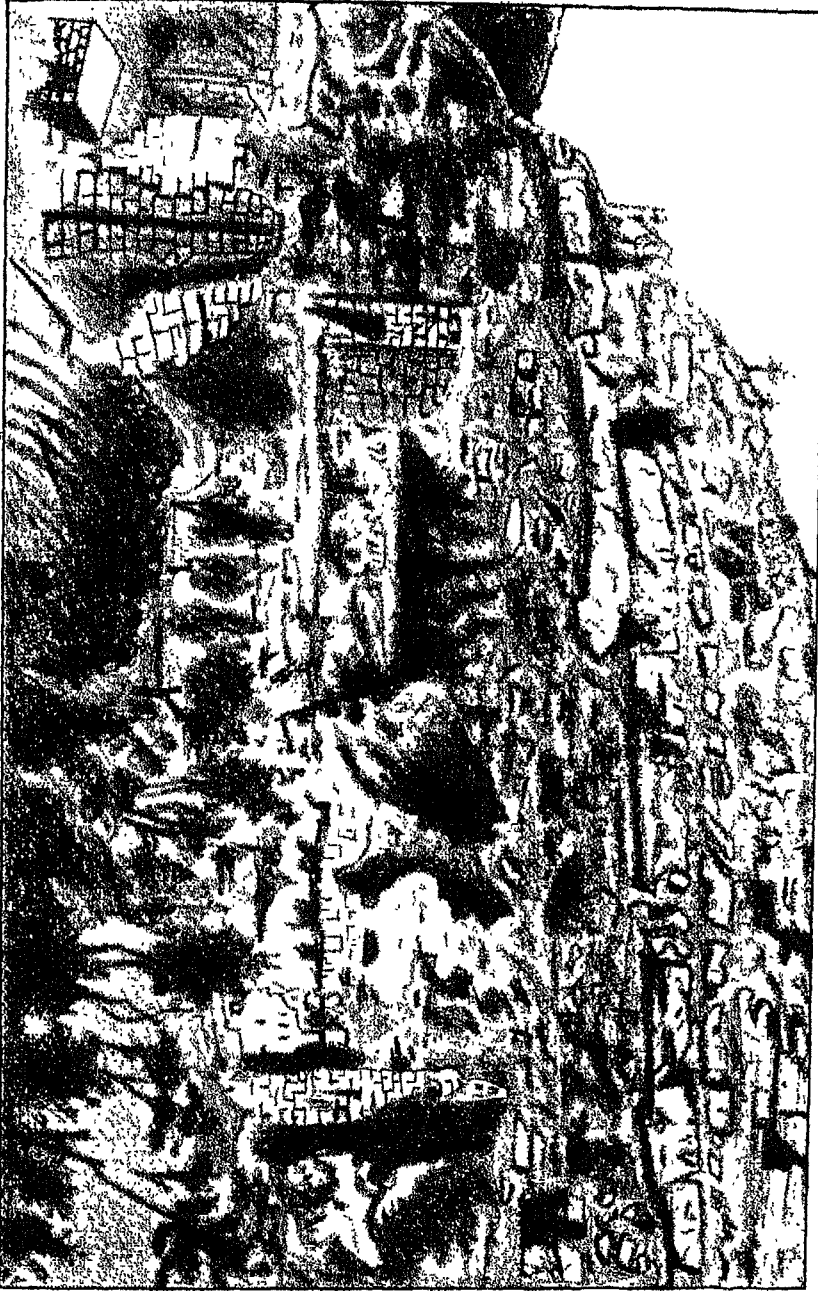
وهذا اصل الحواجز المختلفة العظم من الحصى والرمل التي ترى عند مصب الانهار اللبنانية . والنيل عند مصبه في البحر ينقل اليه الوف الوف من طنّات الرمل والطين فاذا صار فصل الشتاء نقلت الريح الغربية هذا المحمول الى السواحل فيتراكم عندها وتزيد بها فرجتها . اما الباقي فينتقل الى جهات الشمال وتستبدل ما رسب منها في طريقها بما تقتلعه الامواج من السواحل ثم تثور الياح الغربية التي تهب على سواحلنا نحو منتهي يوم في كل سنة فتنتقل هذه المواد الى مصاب الانهار وتدحرجها فيها ولولا ما كسوة قوة النهر المنحدر من مشارف الجبل لسدتها تماماً . على ان هذه القوة العاكسة هي دون قوة البحر الذي لا يزال يقيم سوره الربلي في وجه النهر ويقويه . وقد لحظ القدماء هذه المظاهر فحسبوها نتيجة القتال الذي انتشب بين اله النهر واله

البحر المدعو يوسيدون اذ تراجا بالحجارة . ويذهبون الى ان الحصى المتكوم عند مصب النهر هو كمشاهد على هذا القتال المزعوم . وكانوا يجامون خصوصاً موقع هذه الحرب عند مصب نهر الدامور حيث يُرى سدٌ غريب الشكل من صغير الحجارة . وربما ساعد البحر في عمله النهر نفسه بما يجرفه من الجبل من الطين وغيره . نعم ان هذه الحواجز غالباً لينة رخوة قليلة الثبات تعير هيئاتها السيول الشتوية وتقسها الى اقسام متعددة الا ان البحر الذي لا يزال سطحه ثابت العلو يقوي هذه السدود ويروضها حتى يحصل من اجتماعها جزائر مثثة الزوايا كما ترى في الليطاني

واكثر ما يظهر عمل البحر على مصب الانهار عند نهر ابراهيم . فانك تجد بين ساحل البحر والجسر القديم مسافة ٥٠٠ متر وفي هذه الفسحة آكام رملية عليها بعض نباتات من القصب وشجيرات نحيفة ضاوية تدل على ان الفسحة تريد متانة وثباتاً . ومن اعتبر تركيبها وقف على عمل البحر كما انه يتبين فعل النهر في معاكسته . وعندنا انه لمن المرجح كون البحر كان سابقاً يغمر الصخور التي فوقها بني الجسر العربي القديم . وبقية السهل التي بين الجسر المذكور والبحر تتركب من جرف مجاري النهر والبحر المتعاكسة ولا ريب عندنا ان مياه النهر كانت بعد خروجها من مضيق الوادي تنصب في البحر على خط مستقيم على مقتضى مياهها . اذ ليس ثمة حواجز صخرية او غير ذلك بما يعدل بها عن مسيرها والفسحة كلها مركبة من رمل وطين يسهل قطعها . الا ان الرياح الغربية حملت هناك كمية وافرة من الرمل اقامتها كربوة وعدت بمياه النهر نحو الجنوب فزاد مجرى نهر ابراهيم بتوالي الاعصار نحو الف متر . ولعله كان اطال مسيره جنوباً لولا ما يقوم في وجهه من الصخور المنتصبة على البحر التي تضطره ان يصب في الجون الذي هناك

اماً نهر الدامور فان جرف الرمال البحرية والطين النهري قد تكوم عند سده الجنوبي وارتفع هذا السد وتمكن حتى مال بالنهر الى الشمال

ووجود هذه الحواجز يعم كل الانهار اللبنانية حتى ان نهر الكلب نفسه لا يخلو منها رغمًا عن موقعه بين الصخور . وهذا النهر يصب تواء في البحر عند رأس شمالي . امأ الضفة الاخرى فلا تتسع اكثر من مئة متر لمجرى المياه . فكان ينبغي للنهر ان يبلغ الساحل بكل قوته بعد خروجه من مسيله الحرج فلا يميل يمينا او شمالاً ومع ذلك ترى



آثار القناتة الرومانية عند نهر ابراهيم.

عند مصبه سدّاً من الرمل متحدّباً من جهة البحر قائماً تحت الصخور الشماليّة متكبّراً من رسوب البحر وجوف النهر

٣

الانهار العاملة

انّ ما سبق وصفه عن نهر ابراهيم والسهل المتكوّن عند مصبه يقودنا الى الكلام عن « الانهار العاملة » كما سمّاها المؤرّخ هيرودوت متلطّفاً . ولا مشاحّة فان للمياه الجارية عملاً متضاعفاً فانّها اذا ما اخربت من جانب عمّرت من جانب آخر وما سحّته من احد الامكنة نقلته الى محلّ غيره حيث يرسب ويترام بقدر ما حفر وجرف في مسيره . وانّما جرف الانهار ودمارها اظهر للعيان ووقع في القلوب لانّ قسماً كبيراً من الموادّ الراسبة يخفى عن النظر في عمق البحار

والانهار اللبنانيّة من الانهار العاملة فانها استحقت هذا الاسم بما واصلته من العمل منذ قرون متعدّدة . كان البحر في الاجيال الغابرة يبلغ لحف الجبال فينطحها بامواجه المتلاطمة دون ان يتوسّط بينهما شيء من السهول بل لم يفصل بينهما حاجز من الرمل . فان تغيّرت هذه الحال فانما ذلك من فعل الانهار فهي هي التي اقتلعت من اعطاف الجبل ومنحدر الودية تربتها وصخورها فدحرتها الى الخللجان والاخوار البحرية التي كانت تُرى سابقاً عند لحف الروس الجبلية الداخلة في البحر فلم تزل تنقلها اليها حتى امتلأ قاعها . وكانت الرياح الغربية تهبّ في تلك الاثناء من جهة البحر فتهيج امواجه فكانت الامواج تندفع الى السواحل وهي حاملة موادّ ترابية وطينا من النيل المصريّ ورملاً فتلقّي احمالها في مدخل هذه الخللجان فاجتمع عمل الانهار والبحر معاً وتكوّنت بذلك بعد مئات من الاجيال تلك السدود المجدبة والآكام القليلة الارتفاع التي قامت بعدئذٍ في وجه البحر وردّت صدماته كما ترى في صورة نهر ابراهيم (انظر الصورة) الذي سبق عنه الكلام . ومن درس سهله الذي لا يزال على مرأى منّا يتّسع يوماً بعد يوم ادرك بالنظر ما جرى في سالف الزمان اذ كانت القوى الطبيعيّة مع العوامل الجوية اشدّ فعلاً منها اليوم . امّا الانهار فجعلت هذه

السدود كمنجنّ تعمل من ورائه عملاً متواصلًا ساحبةً من اعالي الجبال ما امكنها من الصخور والطين والحصى والتربة الزراعية مغنيةً بها السهول . فليت شعري أليس هذا عملاً متوازيًا يقوم مقام الخراب والعمران

فعلى هذا النوال تكوّنت شيئاً فشيئاً تلك المثلثات الساحلية التي تُرى عند مصبّ انهارنا والحقول الخصبة التي تمتدّ على ضفاف الانهار في جوار البحر . وهذا تاريخ السهول والحدائق التي تزين الساحل عند جوبيه وصيداء والدامور . والتي في صحنها قامت قديماً المدن الفينيقية العامرة مع ما يُجدق بها من البساتين . وعلى الخصوص ساحل بيروت فانه ثمة الانهار والسيول التي تجسّاز في اوديته كوادي الشويفات ووادي شحرور ونهر الموت ولاسيما نهر بيروت فانها كلها اجتمعت فأتت بموادها ووجدت في ضعف عملها ما يساعدها على اتمامه . اهاً سهل طرابلس فانه لسمته ورحب جوانبه كان يقتضي عملةً انشط واقدر تراطأوا على الشغل واحسنوا العمل نخصّ بالذكر وادي بطرّان ونهر ابي علي والنهر البارد ونهر عكّار والنهر الكبير وهو اعظمها . وكذلك الصخور حيث اليوم اسكّة طرابلس المعروفة بالمينا وما حولها من الاراضي فانّ هي الا سهل تركّب من مجرفات نهر قاديشا وصار لاحقاً بالبرّ وانما كان في سالف الدهر جزيرةً منفصلة عن سلسلة الجزر البحرية التي تسدّ اليوم مرفأ البلدة جنوباً (١)

وباجتماع هذه العوامل المائبة ومواصلة عملها على مدى الاجيال نشأت هذه الواحة العجيبة المجاورة لطرابلس . ومن اعتبار تركيبها من الصلصال والمواد الكلسية المنحدرة من الجبل ودقّ النظر في تربتها السوداء الزرجة وما تغلّه تلك الانحاء من الحبوب مع مزدراعتها الخصبة من الزيتون والنخل والتوت وقصب السكر ادرك عظم شأن هذه المدينة وحسن موقعها الاقتصادي كما انه لا يتعجّب ممّا كتبه في شأنها الكتبة الفرنج في القرون المتوسطة اذا اعتدوها كجنّات عدن

(١) راجع وصف لبنان لدينر : *Libanon*, p. 110 Diener ثمّ مقالة الاستاذ هول . Éd. Hull في المجلة الفلسطينية الانكليزية (PEF, 1885, p. 175) راجع ايضاً H. Prutz of the physical Geology of Palestine, p. 75 . برونس : *Aus Phœnizien*, IX

وهي العوامل عينها التي شددت ساعدها واحسنت العمل في جوار بيروت . فإن هذه المدينة كانت كطرابلس وصور وصيدا . جزيرة صخرية تعوم فوق المياه وكان البحر العجاج يبسط ملكه فوق البر الذي ترى فيه اليوم غابة الصنوبر . فلما تحدرت السيول اللبنانية وملاّت هذا الغور بما سحّته من لبنان وساقط مجاري البحر قسماً من تربة مصر الى سواحلنا امتلأ البوغاص الذي كان جنوبي غربي المدينة واتصلت الجزيرة بالبر . ولنا شاهد حسي على فعل البحر اعني التلعات الرملية التي جاءتنا من القارة الافريقية فنقلت على قول الشاعر لامرئين « الى لفح لبنان قطعة من صحراء مصر »

وهذه الظواهر الطبيعية انما هي نواميس مقررة استلقت اليها الانظار ارباب وصف البلدان منذ زمن مديد . وليس ما حدث في سواحلنا الفينيقية سوى مشال مصغر لما حدث في الاصقاع المصرية . فان مصر السفلى الى الثلث العظيم المعروف بالدلتا لم يكن في عالم الوجود في غابر الايام اذ كان مجرنا المتوسط يمد مياهه وسيطرته على اسافل تلك البلاد الى سفح جبل المقطم حيث شيدت بعدئذ القاهرة . ولنا في تركيب شط العرب مثال آخر أقرب عهداً في ازممنتنا التاريخية . فان العلماء بالآثار الاشورية يتفقون على ان اجتماع النهرين دجلة والفرات عند شط العرب انما هو حدث جرى على الأقل بعد الطور الاول من تاريخ بابل وان النهرين كانا يصبان في بحر العجم كل بمفرده لكن مياههما لم تزل تنقل الرواسب التي تراكمت فالت بسيرها الى ان التقيا في المسير وجرىا في مسيل واحد قبل ان ينصبا في البحر (١) . وحتى اليوم اذا نظرت الى الطين المنقول بمياههما تحققت ان ساحلها يزداد كيلومترياً اتساعاً بعد ثلاثة ارباع القرن . وقد ذكر اليزاي روكلو (الارض ج ١ ص ٤٧٧) خاجاناً من الماء المالح صارت سهولاً بعد مدة لا تتجاوز حياة الانسان وكذلك مسايل كان ينبت فيه الطحلب اضحت غابات فنواء

أجل ان سيول لبنان لا تشبه الأعدان البعد انهار افريقية وما بين النهرين لكن عملها ايضاً على قدر قوتها فتوآف سهولاً قليلة الاتساع بالنسبة الى وادي النيل وسهول

بلاد العراق (١) بيد أن العوامل واحدة والعمل واحد مع اختلاف سعته وعظمه بحيث يمكننا تكرار ما سبق قواه بان لبنان افاد سورياً كما افاد النيل ارض مصر .
ولذلك ترى كتيبة الاسفار المقدسة اذا ذكروا لبنان انطلق اسانهم على مدحه .
قال ريتز (٢) : ان بلاد فلسطين كلها تشخص بالنظر الى مشارف لبنان وجرمون المكحلة بالثلوج الغراء لان منها تأتي البركة والخصب واذا سمعت الفلاح كما الراعي والقوال كما النبي والمعلم كما الشاعر رأيتهم جميعاً يستميرون من هذه الجبال المباركة ابداع ما لديهم من التشابه واجمل ما عندهم من الرموز «

*

وقبل ختامنا هذا الفصل في انهار لبنان لا بد ان نبين بوجيز الكلام ما لبعضها من الخواص بصفة حدود المعاملات والايالات . فان منها وهو النادر ما يكون كثير المياه طويل المجرى كالنهر الكبير الذي يحد فينيقية ويفصلها عن سورياً بمعناها الحصري اعني بين سورياً بطالسة مصر وسورياً الساقين (٣) . ومثله الليطاني الذي يحد شمالاً بلاد فلسطين ويفصل بين نواحي صور وصيداء
ولكن اغلب الانهار اللبنانية التي تحد المعاملات انما هي مجار قليلة المياه وتجري في اودية عميقة تنتهي عند البحر بمضيق او رأس يقوم مقام القلعة . واحسن مثال على ذلك نهر الكلب فانه لم يكن حرياً بان يجعل من الحدود لتقصر مجراه وقلة عرضه الآن مصبة عند رأس تدافع عنه بسهولة شردمة من الجند فتزدد جيشاً عرمرماً جعل له خطراً عظيماً في كل الازمنة . وقد كان هذا النهر على عهد الفينيقيين حداً لاملاك بيروت في الشمال كما كان الدامور جنوباً يفصلها عن املاك صيداء (٤) . واليوم

(١) راجع ايضاً ما كتبه العلامة كلرمون غانو عن تقدم نهر الاردن الى الجنوب واتساع مصبه في بحيرة لوط (RAO, V, 277-280)

(٢) Erdkunde, XV, 16

(٣) اطاب بتلمان وهولشر . Palaestina in . Pietschmann, l. c. 40 ; Hoelscher :
der persischen und hellen Zeit, p.8

(٤) وكذا كان على عهد الصليبيين يفصل الدامور ولاية بيروت عن ولاية صيداء (راجع كتاب راي في المستعمرات الفرنجية 509 Rey : Colonies franques)

ايضاً نهر الكلب من حدود لبنان يفصل قائمقامية المتن عن كسروان . وقد كان على عهد رمسيس الثاني فاصلاً بين املاك المصريين في الشام واملاك الحثيين . والنصب الذي اقامه هذا الملك عند نهر الكلب انما هو ذكرٌ ودليلٌ معاً على حدود دولته (١) ويوجد مجرى آخر اصغر من الانهار السابقة مسيلاً واقل شأنًا يزيد به جدول المعاملتين الذي اتخذه القدماء ايضاً كأحد حدود البلاد . وفي عهد الفرنج كان الفاصل بين ايلة اورشليم وايلة طرابلس ٢١ والسبب ان ضفة الشمالية عند رأس حرج ضيق المجاز لم يمكن السير فيه الا بتقير الصخر لجواز الطريق الساحلية . وهناك اليرم برجٌ قديم دلالة على ما كان له من الاهمية العسكرية . وشمالى هذا الجدول تبتدى بلاد طرابلس اما جنوبه فيلحق ببيروت او بصيدا على حسب تقاليد الدهر اذ ينتقل مركز الولاية الى بيروت او الى صيدا . ومن هذا اشتق اسم المعاملتين الذي هو قديم في التاريخ كما يشهد على ذلك الكتابة العرب والرحالون (٣)

ولنا هنا ملاحظة أخرى وهو انك لا ترى على ضفة الانهار اللبنانية لا مدينة ولا قرية مهمة (ZDPV, XXVII, 114) مثال ذلك حواضر فينيقية كصور وصيدا وبيروت وجبيل والبتون فكان حقيقاً بها ألا تبعد عن هذه الانهار . ولعل السبب في ذلك ان في جوار هذه الانهار وعند مصبها تكثر الامراض الوبائية والحمايات ويفسد الهواء . ثم ان الفينيقيين كانوا تجاراً لا يُعتنون بالفلاحة والزراعة ومن ثم لم يُختاروا لمدينتهم السهول ومجاورة الانهار بل كانوا يفضون الرؤوس الداخلة في البحر والخلجان التي تصلح لمراعى سفنهم حيث يسهل عليهم في حصرتهم البحرية رد هجمات العدو وركوب البحر وتأمين سفنهم من الرياح وتراكم الرمل ويسهل وسعها بالبضائع . وكل ذلك اوفى بالرام عند الرؤوس الصخرية . وما يدل على انهم احسنوا اختيار مواقع هذه المدن انها لا تزال في مراكزها القديمة مع ما طرأ عليها من التقلبات العديدة وصروف الدهر . بل ترى بعضها تتقدم كل يوم في معارج الفلاح

W. M. Müller, *Asien u. Europa*, 222 ; Schrader - Winckler, *Keilinschriften*, 184

(٢) راجع المجلة الاسيوية (١٩٠٣ ج ١ ص ٢٩٧)

(٣) راجع اخبار الاميان (ص ١٨)

١٢

مياه لبنان البحرية

كان يجمل بنا بعد ذكرنا ينابيع لبنان ونهاره ان نفرد بحثاً ببحيراته . الآن البحيرات في لبنان غاية في الندرة . وقد سبق لنا وصف ما يرى منها اعني بركة اليثونة وبركة ثانية اصغر منها وهي بركة الزينية (١) وقد اطلعنا منذ زمن قريب على بركة ثالثة قريبة من الزينية لم نجد لها ذكراً في الخرائط اللبنانية تدعى رام الزينية ولعلها فاتت الجغرافيين لقربها منها او لتشابه اسميها

وان اردت ان ترورها فسير من بركة الزينية متوغلاً في الجبل نحو الجنوب فبعد ثلثي الساعة تبلغ الى وادٍ حرج لا منفذ له الا من شماله تحيط به الجبال العالية فهناك رام الزينية وهي على شكل دائرة اهلياجية طولها ١٢٠٠ متر في عرض ٤٠٠ م ومياهها كدرة مشرحة تتكون من ذوبان الثلوج المتوجهة للجبال التي تكثفها فلا تسيل منها لعدم وجود منحدر تجري منه لان الجهة الشمالية المتوجهة تملو قليلاً عن سطح المياه فتجمعها من السيالان . اما قعر البحيرة فيتركب من حجارة كلسية نخرة كطبقات لبنان العليا ولذلك لا يسك المياه . فاذا وفي شهر تموز نضبت البحيرة ونشفت تماماً . وليس سمك في هذه المياه وانما ترى فيها الضفادع النائة وبعض الحيات المائية

*

وتستعمل لدروسنا السابقة في مياه لبنان بقي علينا ان نبحث في مياه البحرية التي تمتد الى لطف هذا الجبل ونقسم كلامنا الى باين مدار الاول على المياه الساحلية وما يغلب عليها من الظواهر الطبيعية اما الثاني فنخصه بالساحل عينه وهيئاته اعلم ان البحار في كرتنا الارضية شأناً عظيماً لا يكاد يفي به الوصف وان

قصرنا النظر على مياه البحر وحدها وجدنا ما لها من الدور المهم في حياة سيارتنا فإن الاوقيانوس كحوضها العظيم وينبوعها الاول تتصاعد منه الابخرة فترطب البرر وتسهبها بمياه تمنعشها وتحيها وتجعل سكانها محتملاً بل لذيذاً ناعماً

كذلك سبق لنا وصف العوامل الجوية من انواء ورياح وامطار التي تصدم اطوادنا وقمم جبالنا فتحتك بها وتقطع صخورها وتجرف تربتها الى السهول والى مصب الانهار واعماق البحار . فكل ذلك من اعمال البحر ومن نتائج تحولات مياهه بالحرارة . فان السحب اذا تصاعدت من الاوقيانوس انعقدت في اعالي الجو وتساقطت على هيئة ثلوج تجمد فوق مشارف الجبل وفي اوديته وتعمل في صخوره فتحللها ثم تندفع تلك المثالج والصخور الى اسفل البلاد فتتحول الى تربة زراعية . ومن هذه المياه ما ينفذ في قلب الجبل فينخره وتتكون بذلك المغاور او تجري المياه فائرة بعد ان اجتذبت بسيرها المواد المعدنية التي كانت مكونة فتنبجس عيوناً معدنية ذات خواص عجيبة . وما قولنا الان بالانهار التي تستدفق في كل انحاء العالم وتنقل في جسم الارض الحصب والثروة كأنها الشرايين في جسم الانسان تحي كل اعضائه . أليست هذه من افضال البحار الراجعة الى اصلها بعد دوران عجيب وسقي الارض العطشى

نعم ان ما يرى على الارض من ظواهر الحياة في المواليذ النباتية والحيوانية بل في حياة البشر كل ذلك مصدره البحار وحركتها المتواصلة . وكذلك لا يشك احد في ما لنتوه الجبال وارتفاعها من التأثير في احوال الجو الآن هذا الاختلاف الطارى عليها بقوة سنن العناية الالهية انما تجريه بجانب عظيم حركات البحر ومظاهره . فان كان الشتاء على وجه الارض ألطف وحرارة الصيف اخف وحالات الجو من طرف الى آخر تجري بتدرج لتلأ يهلك الاحياء بتنقلها على فور فما ذلك الا لان المياه البحرية تخزن الحرارة فتندشرها في الشتاء كما انها تلطف شدة التيبظ في فصل الصيف . وكذلك في الاوقيانوس مجار تنقل المياه القطبية الى خط الاستواء ومياه خط الاستواء الى القطبين فتعتدل بذلك احوال الجو ولا ياتنقل الهواء من حالة الى اخرى الا تدريجياً . ومثله الهواء فانه لولا البحار لكان ناشقاً لا يمكن استنشاقه وانما ترطبه المياه البحرية التي تاشر رطوبتها حتى اقاصي الارض مع الرياح . فالاوقيانوس اذن يدمج الأهوية

و يجعل توازناً بين أنحاء الارض المختلفة ويبعث الحياة على الارض ويحفظها بعد ان عُنيَ
بتركيها اذ يهتّم برّيتها بواسطة المجرتة وعيونه وانهاره

١

المظاهر البحريّة العموميّة

تحت هذا العنوان نجمع كلّ المظاهر التي تلوّح في البحر المجاور لسواحلنا اللبنانية
فندون ما يختصّ به وان كانت هذه الملحوظات قليلة ليست ذات بال . والسبب انّ
بحرنا المتوسط احد الابجر الداخليّة المتقلّبة لا يتّصل بالاقيانوس الا ببوغاص حرج طوله
بضعة اميال يزيد بوغاص جبل طارق . ومن المعلوم انّ البحار الداخليّة لا تشارك
الاقيانوس الكبير باختلاف مظاهره ووفرة حركاته بل ترى كلّ شيء فيها على نظام
واحد وسذاجة عظيمة . وكذلك ليس مجال للكلام عمّا يحدث في البحار القطبيّة من
قُطع الجليد الطافية على وجه الماء لبعدها عن القطب كما انه ليس من اثر لجاري
المياه الحارّة (Gulf-stream) . امّا المدّ والجزر فلا يكاد يُشعر بهما

وزد على ذلك انّ العلماء الذين درسوا خواصّ مياه بحرنا المتوسط انّما اكتفوا
بجهاته الغربيّة المجاورة لايطالية وفرنسة امّا الجهات الشرقيّة منه اي الانحاء القريبة
منّا فانّ ابحاثهم عنها جرت بتسرع فتهيّئ لذلك قليلة التدقيق . وهذا هو السبب الذي
يصدنا عن تدوين النتائج المقرّرة والاعلامات الراهنة بهذا الخصوص . فانّ الاعداد
التي وجدناها من هذا القبيل غير مضبوطة اكثرها مبنيّ على التخمين ورُبّما كانت
غير موجودة

*

اعلم انّ اولّ ما يخطر على ذهن العامّة اذا نظروا الى البحر انه كهواية ليس لها
قعر ولا حدّ يحصرها . ثمّ يعقب التفكير فيردّي بصاحبه الى أنّ يجعل لهذا القعر قياساً
على التّريب لكنّ الاسباب المذكورة آنفاً تحول دون هذا التّحقيق ولاسيّما في جهات
البحر الذي تهتمنا معرفته المجاور لسواحلنا . وانّا يجوز القول بالاجمال انّ اقصى اعماق
هذا البحر المتوسط او بالبحري هذه البحيرة الداخليّة ليست هي الانحاء القريبة منّا .
والذين سبّروا القعر في البواحي المصريّة وجدوا فيه اعماقاً تزيد عن القبيّ ميتر

والاقيسة المنادرة التي اجراها العلماء في سواحل بلاد الشام بعيدة عن مثل هذا القعر العميق

ثم انّ الاعماق القاصية تكون عادةً عند النقط البحرية المجاورة للصخور العمودية التي تنغمس تواءً في البحر لاسيما عند الرؤوس الساحلية والمشارف الصخرية التي تطل على ثبح المياه فانّ الرياح الزعازع والانواء تثير الامواج وتعمل بلا انقطاع في اركان الصخور واصولها . اما اذا كانت السواحل تتركب من الرمال فتري قعر البحر لا يتحدّر الا تدريجاً حتى ان عمق المياه لا يزيد عن عشرين او خمسة وعشرين متراً على مسافة تختلف بين كيلومترين الى ثلاثة كيلومترات . وليس السبب خلوّ هذه الاماكن من الرياح والانواء التي تحفر اعماقها . انما يتلى الحفر بما تأتيه المجاري والرياح من الرمل اما من السواحل عند مهبّ الريح واما مجروف الانهار من اعالي الجبل

والذين فحصوا عن اعماق الحور المنسوب للخضر بقرب بيروت وجدوا ان معدّل قعر البحر في الكيلومتر الاول بين ثمانية ابواع الى عشرين باعاً انكليزياً (١) والباع الانكليزي متر و٨٢ سنتيمتراً اعني من ١٦ متراً الى ٣٦ م . اما غور جونية فأعمق فانّ قاع البحر على مسافة خمسمائة متر من الساحل يبلغ عشرة ابواع اي نحو ١٨ متراً كما ورد في خارطة الكومندان الانكليزي مونسيل التي سبق تعريفها في مقالنا عن خرائط لبنان وازاء هذا الخليج عينه على مسافة نحو ثلاث ساعات من الشاطئ قد وُجد أقصى غور سُبر بالمقياس في الساحل الفينيقي وهو يبلغ ١٠٨٤ متراً . واذا تهرّبت من الساحل بازاء برج محاش جنوبي جيبيل كانت نتيجة السبر ٤٣٠ باعاً انكليزياً . وكذلك الجهة التي هي بازاء مصب نهر الكلب فانها بعيدة القعر . ونذكر اننا قبل بضع سنوات اذ كنّا نتجول على الطراد الافرنسي سترزي لم يمكنه ان يرسو هناك لقصر سلاسله التي لم تبلغ القعر . وفي الواقع ترى الخرائط البحرية تجعل عمق هذا المكان ٢٧٠ باعاً انكليزياً . وبجلاف ذلك مينا طراباس وخورها المتسع فان عمقها قليل يتراوح بين ستة وثمانية ابواع . لم تَسر الى بُعد كيلومترين او ثلاثة

(١) راجع خارطة لبنان البحرية والارقام فيها بالابواع الانكليزية وهي تدل على اعماق

كيلومترات من الساحل وهذا ما يضطر السفن البخارية بان تبعد عن الشاطئ واذا ما اراد اهل الامر ان يجتفروا مرسى لهذه المدينة فلا بد لهذا المشروع من نفقات طائلة لقلّة هذا العمق كما سبق

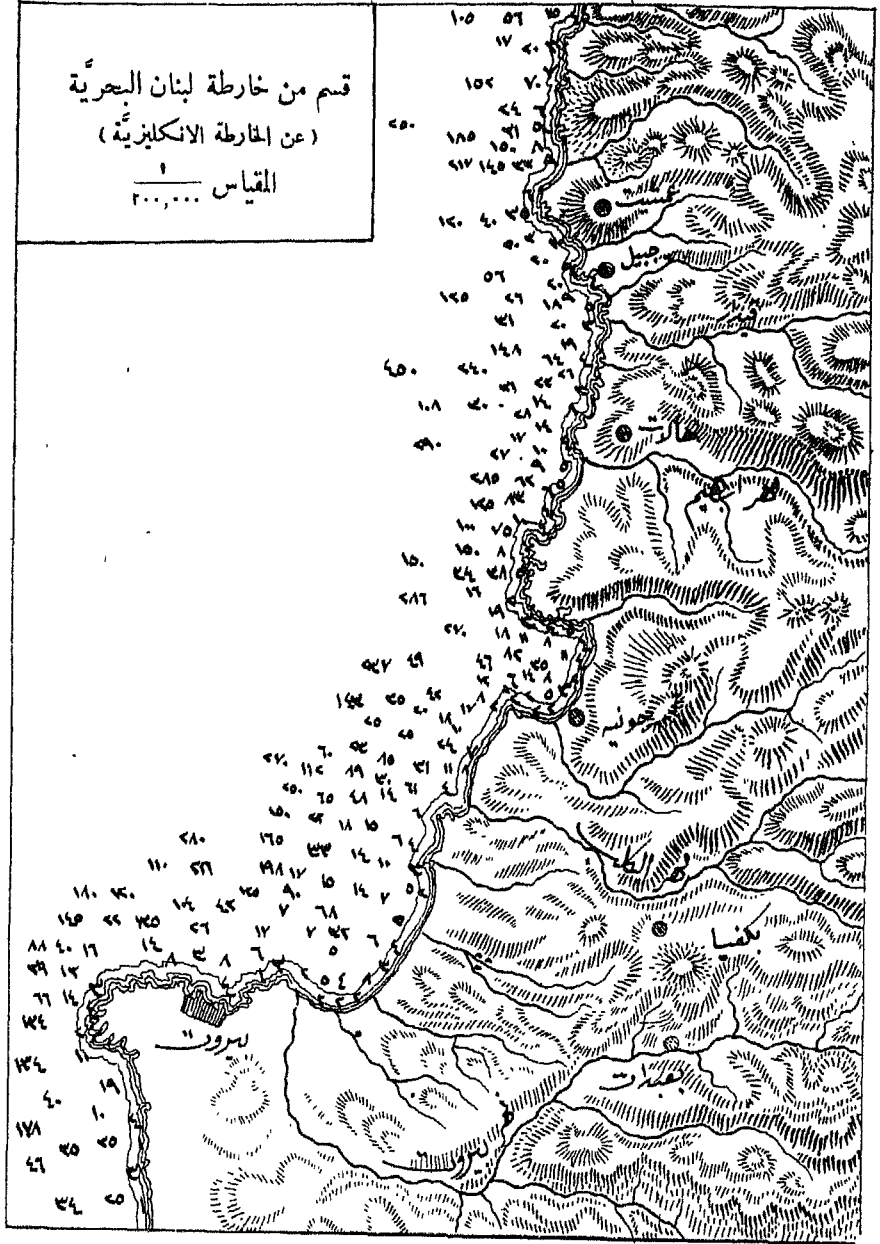
أما مدخل ميناء بيروت فقاع مياهه ١٥ متراً . وهذا العمق لا يُرى وراء السدّ الكبير الأعلى نحو مئة متر منه وان سرتّ شمالاً الى مسافة كيلومتر وجدت غرر البحر بالغاً ٢٩٠ باعاً بيننا العمق في جون الخضّر على الخطّ نفسه وعلى مثل بعده من الساحل لا يزيد على ٢٥ باعاً الى ٣٣ . وفي ذلك تأييد لقولنا عن الاعماق المختلفة التي تُرى عند الصخور الساحلية وعند السواحل الرملية

*

واعلم ان تبخر المياه في كلّ البحر المتوسّط سريع جداً . وهو على سواحل فرنسة وساحل جنوة لا يقلّ عن سنتيمتر كل يوم في فصل الصيف ومجمل ما يتبخر منه في اشهر الصيف الثلاثة ٦٠ سنتيمتراً . أما سواحل الشام فلا مرأ بان تبخر مياهها اعظم لارتفاع ميزان حرارتها . وقسم من هذا الماء الذي يفقدهُ بجرنا يُعاد اليه بالامطار النادرة التي يُجاد بها وبالانهار التي تجري اليه وهي بالنسبة الى ما يجسرهُ ثلث كميتته . ولولا اتصال بجرنا ببوغاص جبل طارق ومنه بالاقيانوس لقلّت مياهه الطلوة وزادت ملوحته واضحي كبحر لوط في طعمه الا انّ الاوقيانوس عدّه بياهه وهي اقلّ منه ملحاً ويعوض له خسائره فيتوازن البحران

واعلم انّ مياه الاوقيانوس تأتي بجرنا بجرى عظيم يمتدّ على وجه البحر المتوسّط الى مسافات بعيدة . وكذلك يحدث على طول السواحل مجار اخرى منها المجرى الذي ينقل الى سورية رمل مصر وطين نيلها (١) . وحتى الآن لم يُحسن العلماء معرفة خواصّ هذا المجرى ووجهته وقوته كما انّهم يجهلون اموراً كثيرة منوطة بالمجاري البحرية وعلاقات الاوقيانوس ببحرنا المتوسّط . ومأ افادنا بعضهم بخصوص المجرى الموازي لساحلنا انّ قوته تبلغ في كلّ ٢٤ ساعة عشرين كيلومتراً سيره من الجنوب الى الشمال . وهي افادة زويها

قسم من خارطة لبنان البحرية
(عن الخارطة الانكليزية)
المقياس $\frac{1}{200,000}$



على علّاتها اذ لم يمكننا تصحيحها . والمجاري البحرية في البحر المتوسط من الظواهر التي ليست ذات شأن عظيم كما هو الواقع في البحار الواسعة وذلك لحلوها من المد والجزر ومن الانهار الزاخرة والأخوار العميقة المتّصلة بالبوغيص الضيّقة (١)

ومن يفحص مياه بحرنا لم يجد فقط ثقلها النوعي اعظم من المياه العذبة بل تحمّتي ايضاً ان ثقلها وهو (١,٠٢٩) فوق ثقل الاوقيانوس (١,٠٢٨) بمأتر . والظاهر ان سبب ذلك حرارة الشمس التي تمتص من مياه بحرنا اكثر ممّا تأتي به الانهار . فما بقي من الماء يزيد ثقلاً لوفرة املاحه التي لا تتبخر . والامر في جهاتنا السورية اوضح لان انهارنا لا تُغني البحر بموادها لثدرة مياهها . وعليه فاننا نظن ان ملوحة بحر الشام تتجاوز ٣٨ مأترا وهو معدل بقيّة البحر المتوسط . وتعليله قلّة المياه النهرية العذبة كما سبق ثم ابتعاد جهاتنا عن بوغاص جبل طارق حيث يأتي من الاوقيانوس مجرى من المياه اقل ملوحة . ولعلّ قوّة هذا المجرى لا يظهر اثرها في جهاتنا السورية . ولنا على ذلك بعض التعويض بالكميات الوفرة من الماء العذب التي يصبها النيل في بحرنا فتأتينا بمجرى ساحلي مع ما يأتي من الرمل

قلنا ان المد والجزر قليلان لا يكاد يحسّ بهما الناظر . وسعتهما في سواحل الشام تختلف بين ثمانية وعشرة سنتيمترات . ولحظة المد والجزر نتيجة اشرا اليها في مقالاتنا عن مجاري الانهار في لبنان وهي انسداد هذه الانهار بما يتراكم في مصبها من الرمال فيضطرّ الاهلون بان ينقلوا مراسي مدنهم الى مسافة ابعد على الساحل كما ترى في مرسيية بالنسبة الى نهر الرّون وفي الاسكندرية بالنسبة الى النيل . وهذا مما حدا بالفينيقيين ان يبنوا مدنهم على مسافة من الانهار

*

قد قيل ان الحياة تظهر خصوصاً بالحرارة . وليس في الطبيعة كائن احيا من البحر . وحياته هذه تلوح بعلم غير منقطع لاسيما بتأثيره في البرور التي لا يزال يغير هيئاتها وذلك على نظر منا ويذكر القارى ما قناه سابقاً عن اعمال الانهار التي نسبنا

(١) راجع ما كتبه في المجاري الساحلية كلتبرونر - *Manuel du Voyeur* : Kaltbrunner
geur, 438 - 439)

لها خراباً وعمراً وهذا يصح أيضاً في البجار . ثم تشهد بعض النصوص التاريخية التي ألعنا إليها على وجود جُزُر صغيرة بازاء بيروت او على مقربة منها . والدليل على ذلك ما ورد في القرن الخامس للمسيح في قصائد الشاعر نونس المعروفة بالديونيزياك (Dionysiaques) فإنه وصف بيروت وصفاً يدل على نظر العيان وينعتها بالمدينة الجميلة الجزائر (Eὐνησος) . وكذلك جاء في تواريخ الفرنج ان ديراً أُقيم في احدى جزائر بيروت (ZDPV, X, 310) فوجود بناء كهذا لا يكون الا اذا اتسعت الجزيرة بعض الاتساع . ثم ان خرائط مرسومة في ذلك العهد تشهد ايضاً على وجود جزائر مجاورة لبيروت (ZDPV, XXI, 116) . فكل هذه الادلة تبين صحّة الامر بلا مجال . فترى كيف توارت هذه الجزائر ؟ أبا تخساف في الارض او زلزلة ؟ هذا ليس بعالم . ولعلها خربت فيما خرب في الزلازل الذي ذكره المقرئ في تاريخ المماليك (Ed. Quatremère, I, 1^{re} partie, 145) حيث قال « ان سبع جزائر من بلاد الفرنج في الساحل خسفت وتوارت في غمر البجار » . وقد بقي من هذه الجزائر صخور تعلقو سطح البحر اعظمها شأنًا جزائر الحمام في رأس بيروت وآثار المياه فيها ظاهرة وهناك معبر خرقته الامواج في وسط صخورها وهي لا تزال تعمل فيه ريثما يتم بها عمل المياه فتتوارى بقايا هذه الجزيرة في قاع البحر وما يقال في تدمير المياه أظهر للعيان في الرؤوس الصخرية فان اسافلها عرضة للمجاري المائية التي لا تزال تنخرها . وانما عمل البحر فيها يختلف في السرعة على حسب وجهة الامواج وتركيب الصخور وصلابتها . وبذلك يُعأل نتو الصخور الساحلية وهبتها المنقوسة كما ترى في رأس بيروت . وكذلك الاغوار والكهوف والحنايا المستديرة التي تحكم صنعها مياه البحر فيتمضي بحسبها العجب

٢

أكشبة الرمل

ومما ينوط بدرس المياه الساحلية في لبنان أكشبة الرمل التي تتراكم على الشواطئ بفعل البحر . وترى هذه الكشبان على سيف مجرنا المتوسط وهي قليلة الارتفاع لضيق دائرته وقلة ما يجري فيه من المد والجزر فلا تستطيع الرمال ان تجد مداها

من الحركة والانتشار . أمّا تكوُّنُها فيحدث عادةً في الشواطئ الرملية القليلة الانحناء فتتسبب الرياح دقائقها وتنقلها من مكان الى آخر حتى اذا وجدت في طريقها حاجزاً من صخر او نبات تجمعت حوله ولا تزال تنمو شيئاً فشيئاً الى ان تصير على شبه ربوة . ثمَّ تهبُّ الرياح وتلعب السواني في اعالي هذا الكتيب التي لا تمسُّها امواج البحر فتذري رمالها اليابسة وتنقلها الى ما وراء هذا التلّ فيتكوّن منها تلٌّ آخر وهلمَّ جرّاً . أمّا الامواج فتتأطح سفح الكتيب الاول وتنقل اليه رمالاً جديدة تعلو وتتكوّم فتعمل الرياح فيها كما فعلت سابقاً . وهكذا لا تزال هذه الهضاب الرملية في حركة دائمة تتقدّم الى الامام دون انقطاع . ويكون امتدادها بأن تجري الى حيث تجد نثوءاً من الارض او عائناً فتتجمّع حوله رُبيّ جديدة مستندة الى اعطاف الاكشبة السابقة . وهي لا تلبث بعد حين ان تولد آكاماً اخرى فتنتصب على شبه سلسلة من التلال المتحركة يفصل بينها ألهاب واودية ضيقة مستطيلة (١)

على ان الآكام الرملية التي تترى في سواحل بجرنا المقلّ الحالي من الجزر والمد ليست كأكشبة البحار الواسعة . كما انه لا اثر لهذه التلال في السواحل الوطية المترتبة من المواد الصلصالية او الصلبة التي لا تحركها الرياح والامواج بسهولة كعملها بالرمل وانما تتكوّن فيها سدود من الحصى التي تقلبها الامواج على بعضها الى ان تُصقل بالاحتكاك وربما تكوّمّت اكواماً دون التلال الرملية علواً واتساعاً

وان سرحنا البصر في سواحل بلادنا وجدنا مصداقاً على قولنا اذا لا يوجد من هذه النشور الرملية الا في بعض نقطه معاومة ترح فيها الامواج والرياح معاً كمثل اشباه جزائر صور وبيروت وطرابلس . وكثبان الرمل لا تتكوّن في كل هذه الجهات من جهة الشمال بل من الغرب حيث الشواطئ السفلى الرملية فتتسببها الرياح الغربية المتواصلة فتتراكم بفعلها . وهذا ممّا يلوح خصوصاً في نواحي بيروت فتتوارد الرمل الذي يوحف بجبله ورجله وينطلي سهولاً محصبة تغوص في وسطها بيوت واشجار لم ينظر الناظر غير اعاليها . وكذلك طرق العجلات فان الرمال تملؤها بحيث لا تعود تصلح للسير

(١) راجع ما كتبه روكلو في كيفية تكوُّن هذه الاكشبة في كتابه « الارض » (ج ٢

على ان لهذا الداء دواء اذ يمكن ان يُعمل حدٌ لعمل الرمال بالزراعة ونصب الاشجار التي وحدها تقوم بازاء هذا العدو الزاحف فتقوى على ذراته ودقاته . ومن العجيب العُجاب ان في هذه الرمال مع يبوستها قوةٌ محصية ومائيةٌ كافية لغذاء بعض النباتات التي لا تؤذيها الرياح البحرية المشبعة ملحاً بل تمتد جذورها الى اعماق بالغة لتمتص الرطوبة التي تحتاج اليها لحياتها . فمن ذلك بعض النباتات الزاحفة الطويلة الاغصان على شبه الجبال كاللوب قتراها تمتد على وجه الارض كشبكة تزينها يزورها واوراقها . ومن النباتات الرملية اشجار الميسوزا والصيبر وبعض الشجيرات المشوكة وكلها يرد غارات الرمل ويعنعه عن ان يتعدى طوره

لكن هذه الوسائط ربما قصرت عن ادراك الغاية او بطلت منافعها كما يجري كثير من النسات الغرض الذي يأكله الماعز . فلا بُد من اتخاذ احتياطات اعظم بنصب اشجار تقوى على السواقي وتسد الطريق في وجه الرمال . وهذا ما قامت به الدولة الفرنسية في احدى مقاطعاتها التي كثرت فيها الرمال وهي مقاطعة غسكونية المجاورة للاوقيانوس فان الرياح مع الامواج البحرية كانت تسفي عليها كمية من الرمال كادت تسجيبها كالكنف بعد ان غمرت قسماً من قراها . فارادت الحكومة تلافي هذا الامر فباشرت بنصب غابات الشجر منذ نصف قرن وهي لا تزال جارية في العمل وحتى تنجزه عملاً قليل فصارت كسبان الرمل في بلاد غسكونية مورداً للثروة بعد ان كانت آفة مثلفة . فان غابات تلك المعاملة الواقعة جنوبي غربي فرنسة تعتبر اليوم كمنى لها لما يستثمر منها من الخشب وما يُستخلص من الموائع الراتنجية وهي تساوي في السنة مئات الوف من الفرنكات . أما الغابات نفسها فيتمتها العارفون بخمسة وعشرين الى ثلاثين مليوناً . ومن القوائد التي احزمتها تلك الجهات بفضل الغابات اعشاب وافرة ينبتها الرمل الرطب وهي تصلح للمواشي . وكذلك قد تلاشت المستنقعات التي كانت في تلك الانحاء لان جذور الشجر امتصتها شيئاً فشيئاً الى ان يبست وصار الهواء بقائها نقياً طيباً واضحت الغابات على هذا النمط زينة وشفاء معاً

وهنا فليسبح لنا ارباب الامران نستلفت انظارهم الى رمال بيروت التي يمكنها ان تُنصب مدينتنا وتزينها اذا ما عملوا فيها ايدي الزراعة . واول ما ينبغي فعله ان لا يُرخص للبدوان وللرعيان ان يرعوا فيها مواشيتهم . فان رمال بيروت في الربيع تأتي

بشيء من الكلال وببعض الانبثة التي يمكنها ان تنمو وتزكو لولا يتجول فيها هو لا .
الرعاة بقطعانهم فيحولونها الى رمال جرداء تتلاعب بها الرياح وتناشرها على انحاء
المدينة في بعض فصول السنة بدلاً من ان تكون بقعة خضراء غضراء تروق العين
بنضارتها وتخصبها بثروتها

وانفع من ذلك ان تعرس انصاب الصنوبر فان هذا الشجر كما حَقَّقْتُهُ الاختبارات
المتوالية شرقاً وغرباً انجع دواء لهذا الداء واقوى عامل على رد غارات الرمال . ومن
ثم لا يواخذن الانسان غير نفسه ان تغاضى في استعمال هذه الوساطة القريبة المثال
التي من شأنها ان تصلح تها ملة وهو السبب الاوحد في ما يجري . من الخلل في توازن
قوى الطبيعة المنسمة وفقاً لنظام العناية الصمدانية

ويؤيد قولنا ما كتبه في هذا الصدد كل الذين يحشوا عن تكوّن الأكتيبة
الرمليّة فانهم يتفقون في القول بان هذه التلال حديثة النشأة وان في مكانها كانت
سابقاً تمتد الاحراج والغابات فلما قُطعت اشجارها استوات عليها الرمال . وهذا قول
عمومي يصح في السواحل الادريّة كما في شواطئ بجرنا . ومن تصفح التواريخ
اليونانية او اللاتينية لا يجد ذكراً لهذه الروابي الرملية الى عهد القرون الوسطى بل
تراهم على عكس ذلك يشيرون الى الغابات القائمة . مكانها او في عمارتها

ان في نصف الطريق الجارية بين صيدا . وبيروت في المحلّ المعروف بني يونس
بناية قديمة تراكت عليها الرمال فلم ير منها الا قبتها البيضاء . وهي بناية اسلامية بلا
شك تدل هيتها على اصلها وزمنها . فتكون الرمال تواردت عليها حتى كادت تعمرها
بظرف بضع مئات من السنين . وكذلك اذا سرت شمالاً الى نهر الغدير على مسافة
نصف ساعة جنوبي خلدة بلغت موضعاً يدعى القصر كان بقربه حلّة تغطيها الرمال في
عهدنا . والمرجح ان ذلك حدث بعد الاسلام فيكون عمل الرمل فيها حديثاً . وفي نقط
اخرى من الساحل عند رمال بيروت آثار تدل على عمران سابق وحدائة عهد الرمال

وقد زعم بعض الكتبة ان اصل بيروت من غابة صنوبرها وان معنى اسمها
الصنوبر . وهو قول ضعيف والرأي الأسد ان اشتقاق اسمها من البر ومعناها مدينة
الآبار . لكن في هذا الزعم نفسه دليلاً على قدم غابات صنوبر بيروت وقد افردنا لذلك
مقالة مستقلة (راجع المشرق ١ [١٨٩٨]: ٩٣٩-٩٤١) حيث اوردنا عدة شواهد على قولنا

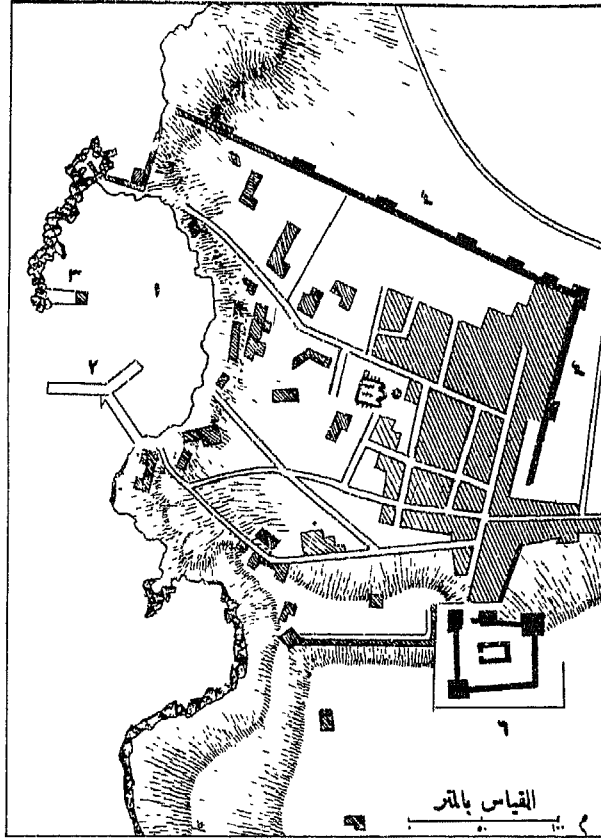
فلترأجع فانها تثبت انّ قسماً من شبه جزيرة بيروت كان مزداناً بغابة من الصنوبر وبقيت هذه الحال الى القرن الثالث عشر كما يشهد على ذلك الشريف الادريسيّ اذ قال ان « غابة صنوبر بيروت اثنا عشر ميلاً في التفسير تتصل الى تحت لبنان » وهذه المسافة الواسعة لا تدع مكاناً للرمال كما تُرى اليوم ما لم يُقل انّ هذه الغابة كانت تشغل السهول التي فيها اليوم مزارع الزيتون وهي المعروفة بصحراء الشويفات . وهو قول بعيد لانّ هذه المزارع كما يظهر قديمة ايضاً ورد ذكرها فيما لدينا من سجلّات وتواريخ القرون المتوسطة . ويكفي لردّ هذا المزعم ان القناة الرومانية المعروفة اليوم بقناطر زبيدة لم تُتخذ غالباً الا لستمي هذه المزارع الواقعة في ارباض البلدة . وبقيت غابة بيروت زاهرة غيباء بعد الادريسيّ فان صاحب تاريخ بيروت (ص ٥٢) ليس فقط يذكر ما كانت عليه سهول بيروت من الحُصْب والرَّيع بل يروي انّ اصحاب الامر ابتنوا من صنوبر المدينة عمارةً لمحاربة اسطول صاحب قبرس وقد وصفها بما حرقه : « قيل انه لم يُعهد قطّ عمارة مثلها عظماً وسرعةً وكثرة صنّاع وقوّة عزم » . ومع هذا الوصف البالغ للعمارة لم تنفد الغابة لانّ المسافرين الذين زاروا بلاد الشام في القرنين الخامس عشر والسادس عشر يذكرونها بيد انهم لم يجدوها في اتساعها السابق . وعندنا انّ الرمال اخذت منذ ذلك الحين اعني بعد تجهيز عمارة بيروت في اواخر القرن الرابع عشر ان تتعدى طورها . لانّ ما قُطع من الصنوبر لم يُعوض عنه بفرس اشجار غيرها وربما قطعوا منها غيرها بعد ذلك كما فعل محمّد الجزّار (١) . ومن ثمّ لم تجد الرمال ما يتعرّض لها في سيرها فتراكمت الى ان وصلت الى حدها المعروف في زماننا وهو امرٌ يوسّف له ونتمنى ان اصحاب المروّة يتلافون الامر وقد بينّا لهم ما وراء هذا الاصلاح من القوائد والارباح الطائلة مع ما ينجم منه من الزينة للبلد والتنظيف للهواء

٣

ارتفاع الساحل البحري

انّ ساحل فينيقية منذ ابتداء طرر العالم الرابع لم يزل يرتفع شيئاً فشيئاً الى الازمنة

المعروفة بالتاريخية . وهذه نتيجة اجاث جيولوجية مقررة اثبتتها حضرة الاب زموون في كتابه رسم لبنان الجيولوجي (١) نلخص هنا ادلته مع اضافة معلوماتنا الشخصية قد اتسعنا في مقلتنا عن مجاري لبنان النهرية في وصف السدود التي ترى في مصب كل انهار لبنان واثبتنا اصلها بفعل مياه البحر والانهار معاً . وهنا لا نرى بدا



رسم جبيل نقلاً عن المسيراي

١ المرفأ ٢ بناية المرسى ٣ بقايا برج ٤ سور البلد ٥ كنيسة مار يوحنا ٦ القلعة

من زيادة عامل ثالث لظهور هذه الحواجز ألا وهو اندحار المياه البحرية عند ارتفاع

(١) راجع Zumoffen : *Esquisse géologique du Liban*, 52-57

الساحل الذي يتوالي الاعصار تتأ تدريجاً وتساعد . ومن الشواهد على ذلك انك ترى على طول الساحل سلسلة من الصخور تطفو الآن فوق المياه البحرية طفوفاً يختلف تحديد ارتفاعه وهذه الصخور في اعلاها مسطحة دلالة على فعل الامواج فيها اذ كانت غائصة في المياه . وفي امكنة اخرى ترى كميات من الحصى المصقول باحتكاك المياه على بُعد من الامواج او على زشرز لا تبلغها حتى في الانواء الشديدة . فوقها دليل على ارتفاع السواحل مع ما يصعبه من تهقر المياه

وزد على هذه البينات العمومية دلائل اخرى تستفاد من فحص بعض السواحل اللبنانية . فن ذلك ان الصخور التي بُنيت عليها صيداء في سالف الاعصار قد ارتفعت كما يلوح ذلك من قلة المياه في مرسى تلك المدينة . وكذلك امام المدينة عينها جزائر وصخور يرى مثلها امام صور وطرابلس وكلها حديثة العهد متراكبة من الرمل المتلاصق المتصّب والمعجون بالاصداف البحرية وهي كانت سابقاً في قعر المياه فلما تحدرت المياه ظهرت هذه الصخور متصاعدة فوق سطح البحر

وانا شاهد آخر على قولنا في المراسي الفينيقية فان ما يرى فيها اليوم من الصخور ثم من تراكم الرمال انما سببه الاول ارتفاع الساحل . وان اعترض احد علينا بقوله ان السفن الفينيقية القديمة لم تكن لتحتاج الى غور عميق من المياه اذ يفيدنا التاريخ بانها كانت اشبه بقوارب كبيرة مسطحة كذهبيات مصر التي يمكنها ان تصعد النيل الى حدود الاقصر . اجبتا بأن الامر معلوم ولكن هيات ان تصدق اليوم اوصاف المؤرخين للمراسي الفينيقية القديمة وهم يباعدون في ذكر رحبها وأمنها للسفن اما اليوم فلا تكاد هذه المراسي تشمل اكثر من احدى سفننا التجارية كما انها لا تقي المراكب من الرياح وانواء البحر . وانما تلججى اليها فقط بعض السفن الشراعية الخفيفة . فلولا ارتفاع الساحل لما أمكن تعديل هذا الامر وان قيل ان هذه المراسي ملئت بالصخور والاطلال على عهد الامير فخر الدين المعني . قلنا ان هذا الواقع قد تناقله قوم من الكتبة المحدثين ولم يسندوه الى مؤرخ ثقة . فلو صح لما سكبت عنه كتبه زمانه او احد القناصل والتجار الاجانب الذين كانوا يتاجرون في بلادنا على عهد . والارجح عندنا ما قلنا وهو سبب طبيعي ثبت اليوم بالبحث الصحيح ومن ثم لا نرى سنداً لما تزويه العامة عن فخر الدين انه غمر مرسى صيداء بالاطلال والصخور

هذا وقد اشرنا غير مرة الى قول الجيولوجيين بان بيروت كانت في الاعصار الغابرة جزيرةً تحيط بها المياه بحيث كانت هذه المياه توصل خليج الحضر بوادي شحورر .
 أما اليوم فبين هذين الطرفين سهول مخصبة ليس لوجودها تعليل آخر إلا ارتفاع تلك الامكنة . وكذلك قد وُجدت في امكنة شتى صُبُرٌ من الحصى البحري المصقول والصدف منها على طريق الشام عند المطعم المعروف بلوكندة المطران ومثلها على منعطف الاسرفيسة عند مارديتري وهذه الامكنة تتراوح بين عشرة امتار الى ٤٠ متراً فوق سطح البحر فلا شك ان وجود هذه الآثار البحرية دليل على ان المياه كانت تغمر تلك المحلات ثم تحدرت بارتفاع تلك المواقع

وَمَا سبق لنا قوله في مقالتنا عن مجاري لبنان النهرية ان سطح المياه عند مصب نهر الكلب كان سابقاً اعلى منه اليوم وأيدنا رأينا بأثار السكك المصرية والاشورية والرومانية وكأها تُرى في تقط تعلق الطريق الحالية . ولانظن ان الامم القديمة فتحت هذه الطرق في تلك المشارف الصعبة لولا انها كانت مضطرة الى ذلك بما وجدته من العوائق الطبيعية في سيرها ولاسيما ارتفاع المياه البحرية والنهرية معاً . وهكذا يجوز شرح نص اسطرابون حيث قال ان نهر الكلب يمكن خوضه بالسفن وقد مرّ . وزد على ذلك ان في الطريق الرومانية التي هالك بقايا اصداف بحرية وحصى مدلوكة ملتصمة ببعضها . وهو دليل على بلوغ البحر الى تلك النشور في الازمنة السابقة للتاريخ . وعليه فتتفق الادلة على الطورين معاً . أما كون الطريقة المصرية فوق الطريق الرومانية والطريق الرومانية اعلى من الحالية ففي ذلك دليل ظاهر على ان تحدر المياه وارتفاع الساحل كان تدريجياً بمرور الدهور

وكذلك ترى بين نهر ابراهيم وجبيل وبين جبيل والبتون جُبي من الاصداف البحرية على علو عشرة امتار من سطح البحر حالياً . وذلك مما يُثبت ايضاً قولنا عن ارتفاع الساحل

ثم اتنا في مطاوي كلامنا عن أنفة (راجع الجزء الاول ص ١٤٦) ذكرنا لها خندقين عظيمين نُقرا في رأسها الذي بقربه موقع البلدة . واليوم اذا اعتبرت قعر هذين الخندقين اللذين يفصلان رأس انفة عن السبر وجدته يابساً لا تتصل اليه البحر . وعندنا ان الامر كان على خلاف ذلك في عهد الفينيقيين وهم الذين قاموا بهذا العمل

العظيم ونحتوا الخندقين ليملاهما ماء البحر ويردوا بهما غارات العدو من الجهة الشرقية عن المدينة التي كانت حصناً حصيناً فان يبوستها اليوم تدلُّ على انَّ الساحل ارتفع فلم تعد المياه البحرية تتصل بهذين الخندقين
 وكلُّ هذه الأدلة والآثار التي ذكرناها قد جمعناها من امكانه شتّى على الساحل الفينيقيّ مباشرةً من مصبّ نهر القاسميّة الى نهر ابي علي . وهي تبرهن على انَّ الساحل الفينيقيّ ليس فقط في الازمنة السابقة للتاريخ لكن بعدها ايضاً لم يزل على تصاعد متوالٍ والبحر على تقهقر وتحدُّر . وفي كل ذلك تتحقّق السنّة التي وضعها الخالق عزّ وجلّ فانّ البحر لما كان يطغي ويبغي فيدمر بياهه الساحل صار لذلك فعل انعكاس من جهة الساحل بأن ارتفع واعتلى فظهرت الحكمة الصمدانيّة التي جعلت للطبيعة سنّة توازن القوى لا تتعدّها . وفي درس الجغرافية ما يكشف لنا القناع عن هذه الحقائق والسّن التي فيها نظام الخليقة كلها

١٣

السواحل اللبنانية

ألعنا في خلال درسنا لرسم الجبال اللبنانية الى السواحل الفينيقيّة فقلنا انّ من خواصّها وحدة سياقها وجريها على خطّ مواز لجبل لبنان اللهمّ الآ رؤوس قليلة كراس بيروت ورأس الشقعة التي تشدّ نوعاً عن هذه الخطّة العموميّة . وهذا فصلٌ نفردهُ لدرس تلك السواحل مباشرةً بالشمال

*

فان اطلقنا رائد الطرف الى هذا القسم الشمالي وهو الواقع بين مصبّ النهر الكبير ورأس الشقعة وجدناه بالمقابلة انّه يخالف بقيّة الساحل في خطّه المتساوي . وما ذلك الا لسبب اختلاف يطرأ على وجهة الجبل كما سبقت اليه الاشارة في بحثنا عن رسم لبنان فترى الساحل يستدير على صورة هلال من حدّ مصبّ النهر الكبير الى الصغور المتواصلة التي تطفو فوق سطح البحر عند ميناء طرابلس وهو الجون المعروف بجون عكّار . ولا غرو انّ هذا الجون كان اضحى خليجاً كبيراً بعيد الغور بين جبل

النصيرية ولبنان لولا أنّ مياه النهر الكبير مع نهر عكار والنهر البارد حالت دون ذلك بما جرفته من التربة التي ملأت تلك البطحاء فلما لم تجد هذه العوامل القويّة كفراً يتصدى لها كبعض المجاري البحرية أو مدّ البحر وجزره فعلت فعلها وكومت جروفها في تلك الوهاد التي كانت جديرة بان تكون خليجاً ذات شأن اثير وفوائد اقتصادية جيّة . اذ انّ البحر كان يستطيع ان يتدّ الى داخل سورية ويصير لها بمثابة قناة مخرّية او كخليج قورنتس يقرب البلاد الداخلة لاسيّاً وادي العاصي المخصب الى المعاملات التجارية . وما أدراك انّ هذا الخليج لو وجد لم يوثر في تجارة بلاد آسية الغربية (١) فيجول الى طرابلس كل الحركة التجارية وينزع عن صيداء وصور سيطرتها البحرية

وجنوبيّ هذا الجون بين ميناء طرابلس وسفح الجبل سهولاً خصبة تكوّنت بما جوفه اليها من التربة نهر قاديشا على طول ممرّ الاجيال جارياً بذلك مجرى الانهار الثلاثة السابق ذكرها . وبنعله اتصلت بالبرّ الصخور التي بُنيت فوقها ميناء طرابلس وتحوّلت البقعة الى شبه جزيرة على شكل مربع غير متساوي الزوايا . والرمال قد سطت على الجانب الغربيّ من هذا المربع كفعلها في غربيّ بيروت والسبب واحد غير انّ رمال بيروت اوسع منها مجالاً واوفر كميةً

وان سرت جنوبي هذه شبه الجزيرة رأيت الساحل يقترّب من الجبل مستديراً على شكل جون آخر يحدّه جنوباً رأس الناطور . والدائرة الساحلية كلّها جبال متواصلة لا يفصلها عن البحر سوى قطعة ضيّقة من الرمال التي قذفتها الامواج . ثم يأتي ما وراء رأس الناطور خور صغير يليه رأس أنفة وهو دون رأس الناطور ككبراً لكنّه اغرب منه صورة . وهو عبارة عن قطعة ارض مستطيلة طولها ٤٠٠ متر في عرض عشرة امتار فقط يفصلها عن البرّ خندق نقره في الصخر الاصم على ما يظهر قدماء الفينيقيين . وذلك انّ الفينيقيين كما لا يخفى كانوا من ارباب البحر فوجدوا في هذا الرأس ما يرغبون فيه لنقابتهم البحرية اعني مرفأين تلتجى اليهما جنوباً وشمالاً سفنهم فتأمن من الانواء مع قربهما من الجون الشمالي ومن الخليج الجنوبي الذي بدؤه عند رأس أنفة منتهياً الى رأس الشقعة

وفي وسط هذا الخليج الجنوبي المستدير على شكل نصف دائرة غير منتظمة سهول تكوَّنت من جوف الانهار لا يقل عرضها عن كيلومترين إلا ان المياه المنحدرة من الاودية المجاورة قد استنقعت في قسم منها لما تجده في مصبها من الرمال المتركة الحاجزة بينها وبين البحر . وأما ترقى الفلاحة في تلك الانحاء قد زاحم منذ امد قريب تلك المستنقعات فحصرها ولعلها يبيدها ويلاشيها لان الزراعة تجدد في تلك التربة المتركة من المواد الصلصالية والكلسية ما يصلح لنسوتها ووفرة مآثيها . وعلى ظننا ان ناحية شكَّا سوف تُضحي من اخصب جهات لبنان وقد فُتحت لها حديثاً طريق مسلوكة تصلها بناحية البترون والقائمات الجنوبية ربما تبلغها السكك الحديدية ويحدُّ هذا السهل في جنوبه ذلك الرأس المستطيل المرتفع على شبه جدار هائل يزيد رأس الشقعة الذي يشرف على البحر بعلو ٢٠٠ متر ونيّف . ومن نظر الى هذا الجبل الشاهق من جهته الشمالية اخذه الاندھال من غرابة صورته فيحسبه كدارعة عظيمة راسية في الرفا مجّهزة في مقدمها بمها ضخمة كأنها على وشك الخروج لتسخر عباب البحر . وعند جنوبي غربي هذه الدارعة الغربية من جهة نهر الجوز سهل حتّوش يفصلها عن البحر بمسافة لا يتجاوز عرضها نصف كيلومتر وتربة هذا السهل جيدة لولا ان قلّة الماء لا تسمح بتوفير مزرعاتها كسهل شكَّا . أما من جهة الجنوب فإن رأس الشقعة يشرف على وادي نهر الجوز ولا يفصله عن هضاب لبنان الشرقية الا اخاديد عميقة خُدت في تربة متركة من الحواري وقطع الصوان شأن الجبال التي تتوسط بين ناحية الكورة والبحر . وبين تلك الاخاديد مسلك يُعدّ من اصعب مسالك لبنان واشدها خطراً لانه كثير التراب تغوص الرجل في ارضه الوعثة صيفاً وتزليج في طينه اللزج شتاء

فترى ممّا تقدّم ان رأس الشقعة كمكعب مرتفع معتزل من كل جهاته قريب من الشكل المربع المستطيل طوله مسير ساعة وعرضه نصف ساعة ومعدّل علوه ٢٥٠ متراً تُرى في قمته قرية حامات البالغة ٣٠٠ م . ومساحتها في اعلاه مستوية ذات آكام قليلة الارتفاع وهو ينحني انحناء خفيفاً من الشرق الى الغرب مع بعض الاودية غير العميقة من تلك الجهة يُعرف اكبرها بوادي العرب . ومياه الشتاء تجري في فصل الامطار منحدرة من تلك الاودية الى البحر . وليس ثمة ينابيع ماء والتربة قليلة

الخصب كثيرة الحجارة اللهم إلا بعض البطائح قريباً من دير النورية حيث الثرى قد خصب بما تساقط فيه من اوراق الشجر وبقايا النبات وليس رأس الشقعة متفرداً بما خص به من الهبة الغربية فقط بل به تنوط مسألة أخرى تاريخية يقتضى حلُّ مشكلها مزيد تعيين الطريق الرومانية التي كانت تمر هناك وتتصل بطرابلس . وهي طريق لاشك في وجودها وقد وجدنا منها آثاراً باقية فوق حوش على رأس الشقعة . فترى من اي جهة كانت هذه الطريق تنحدر الى سهل شكاً ؟ ومخاً لا يُنكر ان منعطف هذا الرأس من جهتيه الشمالية والجنوبية لا يحتمل طرقات مساوكة لوعورتها . أما عقبة المسيلحة فانها كما سبق غير مطروقة شتاء وصعبة المسلك في بقية فصول السنة . فهل يأتري قد درست آثار الطريق القديمة بطوازي الحدان لاسيا بفعل الزلزلة التي حدثت على عهد يوستنيانوس فذلك . رأي نرتيه ولا نعلم ما فيه من الصحة . وانما عرضناه لنظر العلماء دون بت الحكم فيه

أما اسم رأس الشقعة عند الاقدمين فهو كما ألمنا اليه سابقاً « ثيوروسويون » ومعناه باليونانية وجه الله . ودعي ايضاً « ليشوروسويون » اي « وجه الحجر » وفي هذين الاسمين على الريح اشارت الى اسم الاله الفينيقي القديم . وفي جنوبيه الغربي قرية صغيرة تدعى حتى الان وجه الحجر وناهيك به اشارة الى اسمها السابق . والحجارة كما لا يُخفى كانت من معبودات الاقدمين . ولنا في صور مثال على ذلك لأن معنى الصور الصخرة كما هو معلوم وصور ايضاً من آلهة السوريين (١) وما هو اصرح من ذلك ان عرب الجاهلية كانوا يعبدون الها باسم الحجر . فيكون مدلول ثيوروسويون وليشوروسويون ووجه الحجر اعني الاله الحجري . وقد كتنا في ما مر ارتأينا ان هذا الرأس هو ما دعاه الاشوريون « بعل الرأس » أما فُنكار فقد زعم ان بعل الرأس هو مضيق نهر الكاب ولا نعلم على اي سند يؤيد زعمه . وابعد من ذلك زعم حضرة الاب لاكزنج في كتابه عن الديانات السامية ان بعل الرأس هو رأس الدامور . والوطنيون يدعونه رأس الشقعة وكان بحارة الفرنج يعرفونه باسم « رأس وجه » فصحفوه ودعوه كابوج (Capouge) وكابوني (Caponie) وكاب بُنج

(١) راجع كتاب فُنكلر في الكتابات الاشورية ص ٣٥٨ و ٤٧٧

(Cap ponge) وكاب روج (Cap rouge) كما اشرنا الى ذلك سابقاً . وزعم رينان انه دُعي باسم كاب مادون (Cap-Madonne) . فيكون في هذا الاسم اشارة الى دير سيّدة النوريّة . وكان المسّاحون يهابون هذا الجبل يتخوفون الرياح التي تهبُّ في جواره . ولذلك ترى في دير النوريّة نذوراً للمسّاحين نذروا بها عند الانواء وقاموا بوفائها . وقد اختبرنا نحن ايضاً غير مرّة في اسفارنا قوّة الرياح في هذه الجهات بحيث كانت مراكبتنا البخاريّة نفسها تشعر بفعالها فاذا ما اقتربت منها تحركت بحركة غير مألوفة

*

ووجهة الساحل من مصبّ نهر الجوز وناحية البترون تعود الى خطّ الجنوب الغربيّ تابعة في سيرها ووجهة قطب الجبل الاصليّ بكلّ دقّة كما يتحصّل من مجرد النظر الى خارطة جبل لبنان . أمّا تركيب الساحل فيتراوح بين الصخور والقطّيع الرملية المختلفة السعة

وإذا جاوز الساحل مدينة جبيل استدار على صورة خليج واسع قريب القعر مركزه عند نهر ابراهيم ونهاية استدارته عند رأس المعاملتين (١) وهذه استدارة الساحل توازي استدارة قطب الجبل الاصليّ وتقعيره عند جبل المنيطرة وذلك بمقتضى قاعدة راهنة اثبتناها سابقاً في رسم جبل لبنان . وكذلك خور جونية فإنّ استدارته توازي ما حصل لقطب الجبل من الاتزواء بين المنيطرة وصنين شرقاً . وصنين يبرز هناك على صورة مثلث له على الساحل زاويتان وهما رأس صربا ورأس نهر الكلب . وهو يؤثر في وجهة الساحل الذي يعدل عن الجنوب مائلاً الى الجنوب الغربيّ

ورأس نهر الكلب احرى به ان يُعدّ كدعامة للبنان وهو يحدّد النهر جنوباً ويدخل في البحر . وان اعتبرته في جهته الغربيّة من جهة البحر وفي جهته الشماليّة من صوب النهر وجدته منتصباً كجدار قطع عمودياً والامواج تلاطم اسفله . وصخوره تلامس البحر وهي كثيرة النخاريب متقطعة منخورة مقعرة وذلك بلا شك من عمل

(١) وهناك ما دعاه الشريف الادريسي بسفحة السلام والصواب سفحة سلان

البحر فيها في الازمنة الغابرة اذ كانت مياه البحر المتوسط تغمرها لعلو سطحه فوقها .
ولما هبطت المياه وصارت الصخور بارزة عملت فيها العوامل الجوية مواصلة لعمل
المياه . ثم كان لا بد من نحت هذه الصخور لتسير فيها طرق الساجم ، فنُقرت طرق
متعددة . منها طريق العجلات التي تجري قريباً من البحر وهي تدور حول رأس النهر
وفوقها السكة اللبنانية الحديدية تجري على خط مواز لطريق العجلات . واذا
رقيت الى نحو ٣٠ متراً فوق سطح البحر وجدت الطريق الرومانية متقورة في الصخر
على عهد مرقس اوريليوس تشهد عليها كتابة جميلة تُرى حتى يومنا عند الجسر الحديث
وهذه الطريق يوصل اليها بدرج منحوت في الصخر وهي تستدير مع عطفات
الجلب . وفي ذروة هذه الصخور اقدم الطرقات الساحلية وهي التي سلكها الاشوريون
والمصريون مجنودهم تدلُّ عليها أنصاب عديدة فيها كتابات مسمارية وهيروغليبية .
وقد مرَّ ذكرها

ثم تجد في لبنان وادياً منسماً بين جبلي صنين والكنيسة يوازيه خليج مار
جرجس او خور الحضر . وبُعيد هذا الوادي حدة مستديرة شرقاً يجاريها أكبر
الروثوس الفينيقية وارحبها اعني رأس بيروت . وقياس جهة هذا الرأس الشمالية مباشرة
بالصخور القائمة فوقها المسالخ الى الربوة التي تعلوها المنارة لا يقل عن ستة كيلومترات
وثلاثا هذه المسافة تشغلها البنايات البيروتية . فيكون مقام هذا الرأس ممّا يجدي
خصوصاً بيروتنا حسناً ويجعل وضعها من ابداع مواقع المدن الساحلية . وطبقات هذا
الرأس السفلى تتركب من صنف من الطباشير كثير التفتت يجمع اقسامها ملاط من
الظّرآن . وامواج البحر قد نفذت الى هذه الصخور واثكلت اوساطها وتركزت سقوفها
بلا دعائم تسندها . ولذلك ربّما تداعت هذه الصخور وهبطت وانحسفت بفعل تلك
العوامل الخسافاً لا يكاد يصدق به من لم يعاينه . وممّا يشهد على ذلك صخور ترى في
وسط البحر وليست هي الأبقايا جزائر فصلتها هذه العوامل الشديدة عن الساحل .
ولنا شاهد حسي على قولنا في جزيرة الحمام جنوبي رأس بيروت . وهناك ايضاً
كهفان شهيران تكوّنوا على هذا النمط عينه . ولا شك ان سقفها يسقط عمّا قليل كما
جى للكهوف المجاورة التي تُرى اليوم على شكل نصف دوائر على صورة جسور
طبيعية الى غير ذلك من الهيئات الغريبة التي سبق لنا الكلام فيها

وفي جنوبي غربي هذا الرأس تمتد رمال بيروت التي يباع معظم طولها سبعة كيلومترات في عرض كيلومتر ونصف . وقد بيّنا في ما مرّ تركيبها واصلها البحري وهي ترحف على بيروت من الجهة التي تنتهي عندها الصخور ولعلها تعمر بفراغاتها حدائق المدينة لولا أنّ غابة الصنوبر تردّ قسماً منها

وجنوبي شبه جزيرة بيروت يعود الخطّ الساحلي الى استقامته المملّة لا يخالفها سوى بعض ركام الصخور تلتصّب من مسافة الى اخرى اخصها رأس الدامور عند نهر الدامور ثم رأس جدرة في وسط الطريق بين نهري الدامور والأولي ثم رأس الرميصة بمقربة من الأولي ولهذه الرؤوس الثلاثة جُرن تجاورها وفي اثرها اخيراً رأس صرفند بين صيداء والديطاني على نحو نصف الطريق بينهما وبعد هذا الرأس لا يخالف الساحل الخطّ المستوي الى نهر القاسمية

*

قد لحظ قرأونا في ما سبق لنا من وصف الساحل الفينيقي أنّنا لم نأتِ بذكر الجزر وعدم وجودها ثمّ يزيد في وحدة اتساق هذا الساحل . على انه في مرفأ طرابلس من جهتها الجنوبية الغربية عدّة جزر تدعى اكبرها النخلة وهي تبلغ نحو مئتي متر بلنّيف وقد فكرت الحكومة السنيّة غير مرّة بنقل الجزر الصحي والبضائع المربوطة اليها ومع قلّة الجزر في سواحلنا قد توفرت الصخور البحرية وهي كانت سابقاً متصلة بالساحل لاسيّاً بالرؤوس البحرية . وكثير منها لا تطفو فوق المياه وفي مصادمتها خطر متواصل للسفن التي تلامس نواحيننا وخصوصاً اذا جرت قريباً من الرؤوس المذكورة

ومما سبق يلوح جهاراً بأنّ السواحل الفينيقيّة لم تعدّها الطبيعة لتجارة السلاط ولسكنى قوم من البحّارين اذ لا تكاد تجد عندها مرفأً صالحاً كما انه ليس فيها نهر داخليّ يمكن خوضه . هذا فضلاً الى استقامة خطها الساحلي الذي تكاثرت فيه الرؤوس والصخور دون خلجان او اخوار تأوي اليها المراكب ودون جزيرة تستلقت اليها انظار البحّارين

ومع كل ذلك ترى التاريخ يشهد لعظم تجارة الفينيقيين واتساع نفوذهم ووفرة مقايضاتهم . أفليست مناقضة بين هذين الامرين ؟ لا لعمري لانّ لفينيقية موقعاً خصّت

به دون غيرها وذلك لتوسطها بين جهات الممالك الشاهانية ووقوعها في طرف آسية غرباً فتجمع بين الشرق والغرب . وان قيل انَّ جبل لبنان حاجز شاهق يحول دونها اجبتنا انَّ لهذا الجبل في شماليه وادياً عميقاً وهو وادي النهر الكبير يمكن القوافل ان تسير في بطائحه فلم يسهُ الفينيقيون عن طريقه مع ما طُبعوا عليه من التفان في ترويض الصنائع التجارية . فان اهل فينيقية ادركوا ما خصَّ الله به من حسن الموقع موطنهم فكثروا وجدوا لتحسين شؤونها والتعويض عما ينقصها . ولذلك جروا في مسالكها الطبيعيَّة وفتحوا لها مرافق صنائيَّة كافية لسفن تلك الاعصار وهي زوارق مسطحة قليلة العمق كان يكفيها ما لا يكفي في زماننا للسفن المتوسطة الكبر

ومن فحص المدن الفينيقيَّة وتبحَّر في وضعها السابق استدلَّ على انَّ اصحابها كانوا من مهرة البحَّارين كما نعرف قوَّة اجنحة الطائر بماوَ طيرانه وسرعة جريه . وما لا ريب فيه انَّ البحر كان موطن الفينيقيِّ وكان لا يرى في البرِّ الاً مقاماً مؤقتاً يبني فيه كالتائر عشَّه لتأوي اليه حيناً فراخه ثمَّ يعود ذاك البحَّار فيخوض مجاري البحر بارتياح كما تجد السمكة راحتها في غمر المياه

وهذا ما حمل الفينيقيين على ان يستخيروا لسكناهم الالسنه والرووس الداخلة في البحر وان قلَّ ماؤها الشَّروب او بعدت عن مصب الانهار اللهمَّ الاً بعض مستعمراتهم كبيروت التي توفَّرت المياه في آبارها فاشتتت منها اسمها . واستوطنوا بعض جُزر كصور وصيداء اللتين كانتا سابقاً في جزيرتين . امَّا الغاب على المدن الفينيقيَّة فبناؤها على الرووس البحريَّة وذلك لسببين يهمان البحَّارة عادة الاوَّل انَّ السُّفن تكون وراء هذه الرووس في مأمن من ترامم الرمال الذي يحصل قريباً من مصب الانهار والثاني انَّ المياه تكون ثمة ابعده غوراً من امكنة سواها . والدليل على حسن اختيارهم لهذه المواقع انَّ مقام المدن الساحلية لم يتغيَّر منذ نحو اربعة آلاف سنة ولم تنشئ الشعوب التي خلفت الفينيقيين مدناً غير ما سبقهم اليها الفينيقيون وان كان بعض المدن القديمة قد انحطَّ شأنها انحطاطاً كبيراً

*

هذا وقد بقي علينا البحث عن امر آخر له علاقة مع وصفنا السابق لسواحل

لبنان . نزيد الكلام عن المرفأء التي تفتح للمدن الساحلية مسالك تجارية مع باطن البلاد وتقرّب الوسائل لمواصلة الاطراف القاصية والجمع بين الاهلين وان اعتبرنا اول مدينة من فينيقية الشمالية اعني طرابلس الشام وجدناها خالية من المرفأء مع ان الطبيعة قد خصت طرابلس بما يجعلها من امهات المدن . فان موقعها قريباً من وادي نهر الكبير ومركزها المتوسط بالنسبة الى جهات سورية لاسيا قريبا من وادي العاصي واتصالها بالبقاع وانحاء دمشق لما يمتد بينهما من السهول الجامعة بين اقصيها فان بُني لها مرفأء واتصلت بها اسلاك السكك الحديدية اوضحت احدي حواضر بلاد الشام بل جاز ان تكون مرفأء حلب وهي اخرى بذلك من بيروت والحائل الكبير دون ابتناء ذلك المرفأء في طرابلس لا تكون الامر مستحيلاً بل لما يقتضيه من النفقات الباهظة . ومأ لا ينكر ان الصخور الطافية على وجه البحر من جهة الغرب يسهل استخدامها لصيانة هذا المرفأء من الريح الغربية التي يكثر هبوبها في سواحلنا . وكذلك يمكن ان يُسند الى هذه الصخور شمالاً حاجز يقوم في وجه الامواج الشمالية . لولا ان ابتداءه يقتضي مبالغ عظيمة لبعد قعر البحر من جهة الشمال وهو يبلغ ضعف عمق بيروت اعني ثلاثين متراً ثم ان شاطئ البحر على طول كياومتر بنيف قليل الماء فيستلزم لاصطناع مرفأء اعمالاً ترابية مهمة . وقد فكرت الحكومة السنية غير مرة باصلاح مرفأء طرابلس . فمن ذلك ان صاحب الدولة فحفي حسن باشا وزير الخارجية وضع للحكومة السنية تقريراً بين فيه ضرورة ابتناء مرفأء طرابلس وقدر النفقات لهذا المشروع بنحو ١,٥٠٠,٠٠٠ فرنك . وعادت احدي الشركات الوطنية الى النظر في هذا الامر سنة ١٨٨٩ وبجئت عنه وعن السكة الحديدية بين طرابلس ومحض ما بين المشروعين من العلاقة اللازمة فكانت نتيجة البحث انه يلزم لذلك ١٤ مليوناً من الفرنكات ولعلّ ضعف هذا المبلغ لا يفي بالمرغوب وان نظرنا الى البترون وجدنا ان وضعها الجغرافي لا يناسب فتح مرفأء فيها لوقوعها قريباً من رأس الشقعة وفي سفح مشارف لبنان الشاهقة . وزد على ذلك ان سطحها كثير الصخور . وان صحّ قول المؤرخ مالالا ان الزلزلة التي حدثت على عهد يستيان اجدت البترون مرفأءً فذلك قول لا يمكن بيان صحته اذ لا نجد اليوم له اثرأ بل تستحيل الدلالة على مكانه

ولجبل مرفأ صغير طوله مئتا متر في عرض مئة متر (١) وليس من حاجة الى توسيع نطاقه لقلّة الحركة التجارية فيه ولعدم اتصاله بالاراضي الداخلية امّا جونية فقد مرّ الكلام عنها سابقاً فلا نعود اليه . وكذلك نضرب الصفح عن بيروت ولها المرفأ المعروف الحديث النشأة الكافي لتجارتها الحالية . فلم يبق لنا لتام هذا الفصل سوى البحث عن مرفأ لصيداء

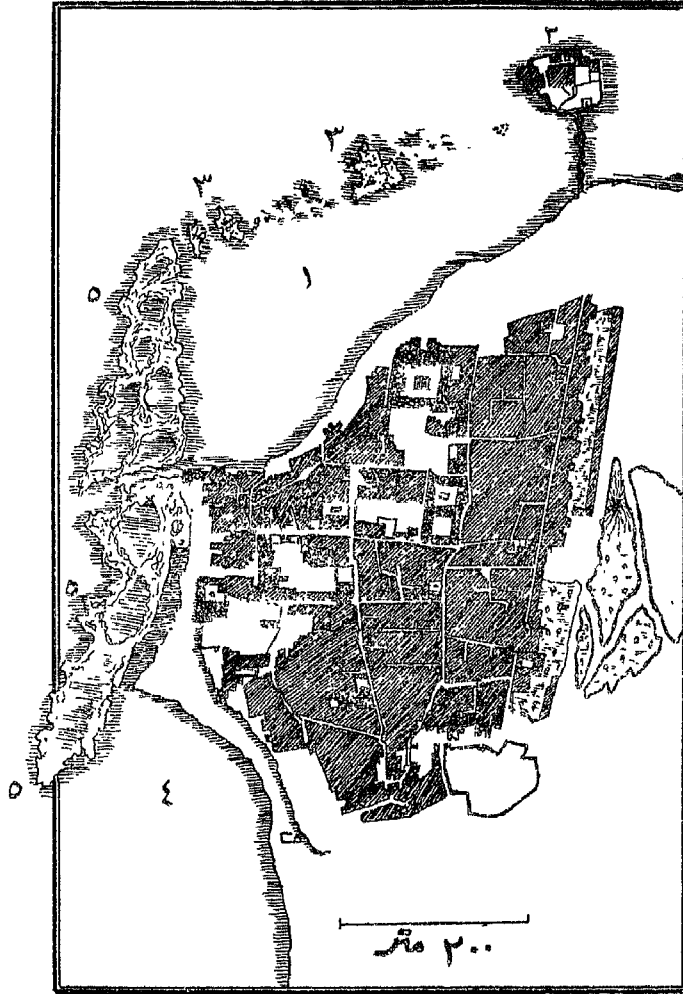
يلوح انّ مدينة صيذاء القديمة كانت جزيرة كما كانت صور رصيقتها وكان لها مرفأان احدهما في جنوبها والآخر في شمالها . وكان الاول يُدعى بالمرفأ المصري وقد تراكمت فيه الرمال التي سقتها الرياح الجنوبية الغربية من جرف النيل فانسدت بحيث لا يمكن استعماله . امّا المرفأ الشمالي فاحسن وضعاً تصونه صيانة كافية الصخور التي تمتد حوله . الا انه صغير طوله ٦٠٠ متر وعرضه مئتان ولا تدخله الا المراكب الشراعية ولما عاد الى صيذاء قسم من حياتها التجارية في القرن السادس عشر كانت السفن ترسو شمالي هذا المرفأ في نوع من الميناء مفتوح من الطرفين ووراء جزيرة صغيرة من الصخور التي فوقها كان بُني قصر قديم . وكانت السفن في مأمن من الريح الصرصر التي تهب من الجنوب الغربي الا انها كانت معرضة للرياح الشمالية وليست هي دونها خطراً . والرسو في هذا المكان صعب جداً لانّ قعر البحر هناك صخري لا تنشب فيه المراسي فضلاً عن انّ القلوس كانت تفتى بالاحتكاك . الا انّ هذا المرفأ كانت تحميه قلعة مبنية على صخر يجري بازاء البلدة وهي متصلة بالبرّ بجسر متعدّد القناطر (٢) . امّا اليوم فليس هذا المرفأ بكافٍ للسفن البخارية لقلّة عمقه ولذلك ترسو بعيداً من الشاطئ

وبقي هذا المرفأ مع خله الى غاية القرن الثامن عشر مورداً تتقاطر اليه السفن التجارية . وكانت تجارة دمشق تنصرف اليه . ثم بطل بفعل الزمان وعندنا ان هذا المرفأ قد سدته العوامل الطبيعية . وان قيل انّ لصيذاء مرفأ داخلياً يمكن اصلاحه

(١) راجع رسمه ص ١٥١

(٢) راجع كتاب المسير ماسون (Masson) عن التجارة الفرنسية في البلاد الشرقية

اجبتنا ان الامر ليس بسهل مهما قاله المسير لورته في كتابه عن سورية (ص ٩٨).
 اما المرفأ الشمالي السابق وصفه والمصون بقلعة البحر والجسر ذي القناطر فان اراد احد
 اصلاحه عجز عن ذلك ان لم يضع حجروية موازية للشاطئ يبلغ عرضها ٦٠٠ متر ليكون



صورة مرفأ صيدا

١ المرفأ الشمالي ٢ قلعة البحر ٣ بقايا الرصيف القديم ٤ المرفأ الجنوبي • جزر صخرية

ثمة عمق المياه ستة امتار ثم يقتضي ابتناء سد يستند الى القلعة ومع كل ذلك يكون هذا المرفأ عرضة للرياح الشمالية . وعليه فأننا نرى مع الانكليزي لوث كامرون (Lovett Cameron) ان هذا المرفأ لا يكون موافقاً للتجارة ما لم تُنشق عليه النفقات الطائلة (١) . اما البلاد الداخلية المتصلة بصيداء فقليلة الحصب . ولا أمل في جعل هذا المرفأ فرضة لدمشق اذ ان بين صيداء ودمشق حواجز من الجبال كما بين دمشق ويبروت . وعندنا ان هذه النفقات لو صرفت على طرابلس لكان الريح اوسع والنفع اعم والله اعلم

١٤

لمحة اقتصادية

في مجاري المياه اللبنانية

قد ذكرنا غير مرة في ما سبق من كتابنا ان مجاري المياه في لبنان عوائد جيئة ودوراً مهماً في اقتصاد الاهلين . الا ان كلامنا هذا كان منبثاً في مطاوي الجمانا السابقة وامله لم يستلفت اليه انظار القراء . فرأينا العود الى هذا الموضوع احمد لعظم شأنه ولذلك افردنا له فصلاً مفرداً نبين فيه ما تحويه هذه المياه من الكنوز الدفينة التي جعلتها العناية الالهية في ايدي الوطنيين ومن ثم نبحت اولاً عن المبادئ العمومية التي يستند اليها هذا البحث ثم نتبّع مجاري المياه فرداً فرداً لنرى ما يستفاد من كل منها وذلك خصوصاً على ثلاثة وجوه : إماً بالري لتسقى المزدريات التي تيسر دون الماء . وإماً بتحريك ادوات المعامل بدلاً من النجم واصناف الوقود . وإماً بنقل الماء الشروب الى المدن الكبرى المحتاجة الى مناهل يستقي منها السكان

١

المبادئ العمومية

قد اتاح الله لبلاد سورية قوى طبيعية عجيبة لو استفاد منها الاهلون لوجدوا فيها موارد ربح لا تفتى لولا ان هذه القوى تذهب سدًى وتتلاشى دون فائدة بحيث يصح القول انه ليست الطبيعة تقصر عن خدمة الانسان وانما الانسان هو المقصر في استخدام قوى الطبيعة مع قرب مناخها . والحق يقال ان مجاري المياه اللبنانية كافية لان تحوّل بلادنا الى بقع زاهية بسعي شركات زراعية او تغنيها بالمعامل الصناعية فيقتات من ارباحها الوف من السكان الا انها تنحدر في الغالب الى البحر بلا فائدة او تستنقع في البطاح الوبشة لا يُستثنى من هذا الحكم الا نهر او نهران يستنزف اللبنانيون مياههما لريّ المزدروعات . اما نتيجة هذا التهامل فبئست النتيجة اذ ترى الارض في فصل الشتاء مغمورة بالمياه المفرطة المضرّة بالزراعة وبالصحّة العمومية معاً وفي الصيف تنقص المياه وتنضب الى ان تيبس البقول ويتلف اهل بعض المعاملات عطشاً مع قطعانهم

وفائدة المياه ظاهرة في الزراعة لا يجمل ضرورتها احد . بيد ان قليلين يدركون

علة ذلك وباي طريقة تعمل المياه في النبات

ان عمل المياه في الفلاحة يكون خاصة على وجهين مختلفين : الاول يزودته والثاني بتركيبه الكيموي . وذلك ان الماء اذا نفذ في الارض لطب حراتها وابطأ نمو النبات ولولا السقي لركا قبل اوانه ويبس دون ان ينال من الغذاء ما هو ضروري لنموه الثانوي . ويصيبه ما يصيب الولد اذا نشأ وكبر قبل السن الطبيعي فربما اذاه نموه الى ان يمته . فكذلك النبات لا يأتي بشمره او يكون ثمرة قليلاً تافهاً . وقد ادرك العامة هذه الحقيقة في بعض امثالهم الشائعة فقالوا عن البذور النامية بسرعة وافراط « طويل بلا علة » لعلمهم بان الزكاء الظاهر ليس بدليل على كثرة الامثار

اما كون الماء يفيد النبات بتركيبه الكيموي وجوهره فذلك لانه يساعد النبات على تحليل المواد المغذية وتركيب منها اجزاءه الكربونية وعلى امتصاص الاملاح المعدنية من الارض بما يجديده للنبات من الرطوبة . ولعل فعلة اشد اقوى بما يجرفه في

سيده من التربة ويسحب من بقايا النبات والاجرام المختلفة . وهذه المواد المجروفة تحتوي عناصر محضبة اذا ما رسبت واختلطت بالتربة الزراعية اصلحتها وصارت لها بمنزلة السماد وربما بلغت كمية هذه التربة التي تجرفها الانهار الوف الوف من الطنات . قال اليزاي وركلو في جغرافيته (ج ٢ ص ٦٧٨) : ان نهر دورانس احد انهار فرنسا الجنوبية يجري في السنة نحو ١٨,٠٠٠,٠٠٠ طن من التربة المجروفة وذلك ما يساوي مكعباً جهاته ٢٢٠ متراً رسبت على سطح متساو في طبقة سمكها سنتيمتر واحد لكان متسع الارض التي يخصبها في السنة مئة الف هكتار . وهذه التربة المجروفة معدة احسن اعداد لنمو النبات تستخلص جذوره منها كمية من الازوت المغذي اكثر من كمية ١٠٠,٠٠٠ طن من سماد العوانو المعروف بخصبه . فلا غرو اذا كررنا مع الطبيعي الشير طوريشلي : « ان الطين الذي تجرفه المياه اثن من رمل الذهب » . ولعل ذلك ما دعا قدماء السوريين بان يسموا « نهر الذهب » (*Xpυσορροιας*) بعض الانهار التي تجري في بلادهم كنه بردى في دمشق ونهر جرش ما وراء الاردن والنهر الذي كان يجري بجوار مدينة لوقاس (وهي مدينة لم يُجدد موقعها حتى اليوم) فليت شعري من يمكنه ان يثمن ما اتت به كل هذه المياه من الكنوز الزراعية منذ مئتين من السنين . أفليست هي حقيقة اثن من معادن الذهب التي تنفى كنوزها بعد مدة قليلة ؟

ولنا في النيل مثال قريب عن منافع هذه الجروف التي تسحبها الانهار فان هذا النهر العظيم في فصل الفيضان يدحو كل يوم ما ينيف عن الف الف كيلوم من المواد النطرونية ويصبها في البحر وهو مع ذلك يُخصب في طريقه مسافات قدرها ملايين من الفدادين . ومع اننا لا نعلم بالضبط بطريق التحليل الكيومي ما تحتويه المياه السوربية من الثروة المعدنية الا انه لا مر مقرر انها غنية بها وكفاك دليلاً ما يُستفاد بالمقابلة . فان الاختبارات الجيولوجية في اوربة بينت ان معدل ما يدخل من نترات البوطاس في متر مكعب من مياه الهيون والانهار الجارية في الجبال المركبة من الطباشير يبالغ ١٣ غراماً اما النسبة فتختلف بين ستة غرامات الى ستين غراماً ومعلوم ان عنصر الطباشير هو الغالب على جبالنا فلا بد ان تكون نسبة نترات البوطاس في مياهنا اقرب الى ستين غراماً لارتفاع درجة الحرارة عندنا فتري من ذلك ما تكسبه السهول المركبة عادة من الصلصال اذا اختلطت فيها هذه المواد الطباشيرية لان الصلصال

أما نخصبه العناصر الكلسية التي تحللها المياه . ومن ثم ينبغي على الاهلين ألا يفقدوا شيئاً من هذه الكنوز ولا يدعوها تستنقع في البطائح او تنصب في البحر دون فائدة هذا واننا نعلم ان كل المياه لا تصلح لتدسيم التربة لأن ذلك منوط بتركيبها ألا انها كلها تلطف الحرارة بطراوتها وتفيدها نداوة وتريدها خفة وتسهل فلاحتها للناس والبهائم ثم تحلل العناصر الخصبه فتنفذها في بطن الارض وتقسّمها اقساماً متساوية وتزيد مرافقها وغلاتها على قدر ارتفاع درجة الحرارة حتى ان التربة يمكنها ان تأتي في السنة الواحدة بغلتين متواليتين بدلاً من غلة واحدة غير مستوفاة في الاراضي اليابسة وذلك رغماً عما يطرأ على الهواء من التقلبات الجوية . فهذا لعمرى نفع جليل لا يوازيه آخر فكم رأينا من الزروع المقودة أما لقلّة الامطار او لتأخر وقوعها بعد ان امتصت حرارة الصيف نداوة الثرى . وخلاصة القول ان السقي المنظم هو الذي يُزي المزروعات ويبرد لظى القيظ بطراوة مناسبة لكل قطر ويُفي التربة بالمعاد مجّاناً ويخلط العناصر فيخصبها بلا نفقات ويكثر غلاتها بلا تعب ويأتي اخيراً بالثروة والراحة (١)

ولهذه الانهار في غير بلادنا نفع آخر لم نحصل نحن عليه وهو خوض هذه الانهار وركوبها بحيث تصير كطريقة للمواصلات التجارية . وقد حُرّمنا ذلك لاسباب منها قلّة مياه هذه الانهار او بالاحرى هذه الجداول واختلاف كميتها في فصول السنة . اجل ان بعض هذه المجاري كالنهر الكبير والليطاني كثيرة المياه في يثايعها ورووس عيونها إلا انها تجري في المضائق وبين الجنادل والصخور التي تعيق مسيرها فلا يمكن ان تجوّل الى مجاري مستقيمة السير متساوية العمق مستوفية لشروط الملاحة وقد شهها الاقدمون بضواري السباع الشرسة الطباع من اسد وذئب (٢) اشدّة جريها واندفاع مياهها فبعد هذه المقدمة هلمّ نبحث عن كل نهر بانفراده لنستدلّ بوضعه عن القوائد التي يمكن نوالها من مياهه من حيث الوجوه الثلاثة التي سبق ذكرها اعني الريّ وتجرّيك المعامل وترويد المدن بالمياه

(١) راجع كتاب الاديّب ودبع مدوّر العنرون سوريّة الزراعيّة (La Syrie agricole) P. 74, 84-85)

(٢) دعا الاقدمون نهر الكلب باسم نهر الذئب (Λύκος) والليطاني نهر الاسد (Λέωντος ποταμός) راجع كلامنا السابق (ص ٢١)

كيفية الانتفاع من الانهار اللبنانية

فلنباشرن بالانهار الجنوبية وارثا (الليطاني) وبما ان هذا النهر يجري باديء
 بده في السهل فلنبحثن عن جريه في البقاع وخصوصاً عن ضفته الغربية لان الضفة
 الشرقية لاحقة بالجبل الشرقي ثم ننبهه الى مصبه في البحر
 ليس نهر الليطاني قبل بلوغه المعلقة الا مسيلاً قليل المياه بطي السير لا يفيد
 الزراعة افادة تذكر فيستتبع في السهل وانما يضحى مجراه حيثما ما وراء معلقة زحلة
 حيث ينصب فيه البردوني والبردوني نهر غزير لا تقطع مياهه صيفاً وشتاء تمدّه الثلوج
 الغراء المتجمعة في قم صتين وهو كافٍ ليس فقط لان يحرك الطواحين التي ترى اليوم



منظر الليطاني قريباً من قرية برغش

في طريقه ولكن يمكنه إذا بُنيت له قناة حسنة ان يزود بالماء الشروب كل مدينة زحلة ومعلقتها اعني ٢٥,٠٠٠ نفس . وهو على خلاف ذلك لا يُستعمل الا كمجري لاوساخ المدينة فترى مياهه الزلالية عند معينها تنصب متعكرة سرداء في الليطاني . فيا ليت شعري أهكذا تُفقد كنوز هذا النهر الذي لا يقل طول مسيره عن ٢٤ كيلومتراً ؟

وإذا سرت ونهر الليطاني جنوباً وجدته يزداد ويقوى بما يجري اليه على ضفتيه من السواعد كشتورا وفهر عين جار ومياه قبّ الياس وعين قلعة المضيق الى غير ذلك من الجداول الصافية المتحدرة من لبنان ومن الجبل الشرقي الغنية بالمواد الكاسية . وهذه المياه لو اتخذت لسقي سهل البقاع لنعمت تربته الصلصالية واصلحته لولا ان هذا النهر يبلغ حينئذ في طرف السهل الجنوبي الغربي مضيقاً بعيد الغور مرتفع الضفتين بحيث لا يمكن الاستفادة منه لا للزراعة ولا للصناعة . وبعد اجتيازه في هذا الغور العميق يندفع بقوة عظيمة وهو عند مخرجه يُدعى بالقاسية ثم لا يزال جارياً حتى ينفذ في البحر ولو سعى بعض اهل الهمة لامكنهم ان يستفيدوا من مجراه فيسقوا الضواحي القاحلة التي بين صور ومصب هذا النهر فيكسبوا الزراعة مساحة تبلغ ستة كيلومترات طولاً في عرض كيلومتر بنيف ويجولوها الى بقعة كثيرة المرافق طيبة الاثمار كبقعة صيداء المشهورة بخصبها وهي اوسع منها خمسة او ستة اضعاف . وما خلا السقي يجوز ايضاً استعمال هذه المياه للمعامل الصناعية بان تُحصّر وتُجعل على شبه شلالات متحدرة

*

(الزهراني) هو من اطول الانهار اللبنانية مسيلاً ومياهه قليلة لاسيما في فصل الصيف . واذا بلغ الجهات السفلى اذار نحو ثلاثين طاحوناً وسقى بعض الحقول . لكن كثيراً من مياهه لا تأتي بفائدة فلو استعملت لسقي السهل المنبسط عند مصبه لأضحت حدائق صيداء ثلاثة اضعاف ما هي اليوم وزادت ارض الفلاحة نحو الف هكتار بدلاً من الارض البوار التي ترى هنالك قاحلة يابسة لا يؤكو فيها زرع اللهم الاً بقعاً قليلة السعة تأتي بغلات ضاوية

واعلم ان مسيل الزهراني عند اقترابه من البحر هو دون سهل صيداء فاذا عول

الاهلون على استخدام مياهه ينبغي لهم ان يبنتوا لها قناة في علو الوادي فيقتسمونها على مقتضى حاجات ارباب الفلاحة . وحري بهذه المياه وان كانت اقل من مياه الاولي ألا تُترك سدّي ولا تُهمل فتتجمّع في مستنقعات وبيئة . وكان الرومان قد ادركوا نفعها فوضعوا للزهراي قناة عند عينه تراها منقورة في الصخر وهي تتصل بقناة أخرى مبنية بالحجارة المأطلة تتبع الوادي وتدور حول الجبل متواصلة بصيداء . ومن المرجح ان اهل صيداء قديماً كانوا يشربون من مياه هذا النهر فيضاوتها على مياه الاولي ولذلك لم يأنقروا من كثرة النقعات جلبها من معينها (١)

(الاولي) من الانهار التي يقدر نفعها الاهلون . كيف لا وهو غزير المياه يستأثرت اليه الانظار بوفرة مادته . وقد عرف الشيخ بشير جنبلاط في اوائل القرن التاسع عشر ما لهذا النهر من الجدوى فاتخذ له قناة جعلها عند نبعه الباروك فجلب الماء الى المختارة وقسمها من ثم بين القرى المجاورة فاحالها الى جئات غناء تشبه غور دمشق الشهير بخصبها . وفي وادي بسري قناة اخرى قديمة تجمع المياه لمنفعة اهل صيداء فيستخدمونها لسقي البساتين وشرب السكّان . ثم نفذت في قناة تحت الارض وتسيل الى البلد حيث يستفيد منها الصيداويون لخدمة نحو ٨٠ بناية عمومية من مساجد وكنائس وسحمامات وتقيم الى ٩٢ مأسورة فتسقي كل احياء البلدة . واذا اضفت الى ذلك عدّة طواحين تديرها المياه عرفت غاية ما يناله الاهلون من الاولي . ألا ان هذه المنافع بالنسبة الى غزارة النهر قليلة اذ لا يستفيدون الا من ثلث مياهه فيضيع منه ثلثان في البحر . ولو شاء الصيداويون لا يمكنهم ان يربحوا من هذا النهر فوائد جمّة بنقعات قليلة فيتخذوا المياه المفقودة لمعامل شتى وتوسيع نطاق بسايتهم التي هي مورد ثروتهم

(الدامر) يصح فيه قولنا عن الاولي . فان هذا النهر كثير المياه غير ان معظم مياهه تنصب في البحر بلا نفع . وان اعنت النظر في الخدم التي يؤديها وجدتها قليلة بالنسبة الى وفرة مادته فانه في سيره الاعلى وعلى مقربة من مصبه يدير عدداً من الطواحين . أما بين هذين الطرفين اي من جسر القاضي الى السهل فانه يسير في وادٍ

عميق ضيق لا يمكن تجهيز الطواحين عنده . وقد كان الامير بشير عمر الشهابي ابني قنّاة من نهر الصفا احد سواعد الدامور وجرّ ماءه الى بيت الدين فانتفع به اهلها واهل دير القمر . وهذه القناة لا تزال حتى اليوم تواصل خدماتها لسكّان تلك الناحية . ثم ان مياه الدامور تسقي ايضاً مزارع التوت في جهات المعلّقة وتجعل أرباضها كرياض فيحاء وحدائق غناء يندر مثلها في بلاد الشام . على ان كل ذلك قليل بالنسبة الى ما يُمكن تحصيله من هذا النهر فاو وسّعت قنواته لاستطاع اصحاب المعامل (الكراخين) ان يولدوا من تحدر مياهه قوّة كهربائية كافية لتدوير دولابهم وان يستقوا السهول الرحبة التي بين المعلقة وخلّدة . وقد زادت اليوم منافع المياه منذ نجحت طريق العجلات بين بيروت وصيدا فاختد عدد السكّان ينمو وهم يحاولون الارتفاق بالزراعة الا ان مساعيهم سوف تجبّط اذا لم تتوفر كمية المياه التي يحتاجون اليها

(نهر بيروت) يأتي بالمنافع المنتظرة منه فانه يحرك الطواحين العديدة ويسقي السهل كله ولذلك ترى مسيله يابساً في وقت الصيف من الجسر الذي بنىه المرحوم رستم باشا . واذا بلغ الى البحر منه شيء . فذلك من فضلات التي بعد سقي المزروعات وهذه القنوات غير محكمة تسيل منها المياه وتنسبط في سهل بيروت وانطلياس ولا تلبث ان تتحوّل الى مستنقعات تنبعث منها الجراثيم الوبيئة المسببة للحمّيات المalarية . ولو بُنيت هذه القنيّ بيلة كافية لتحدّرت الى البحر . هذا ولا يُنكر ان المزارع في هذه السنين الاخيرة قد اتّسعت فتحسّنت بذلك احوال الجوّ وقلّت الحمّيات نوعاً . وأمّلنا ان الزارعين يفرغون الجهود ويضاعفون العناية في اصلاح ما بقي من الحقل لتزيد بذلك ارباحهم ويتلاشى كل خطر على الصحة العموميّة

وفي القسم الاول من كتابنا « تسريح الابصار » (ص ٢٨ - ٢٩) وصفنا القناة التي عُني ببنائها القدماء لسقي سهل بيروت وجلب المياه العذبة للبلدة . ومن اعتبر مشروعهم هذا اخذه العجب من حسن نظرهم واصابة رأيهم وكفاهم فضلاً ان مياههم كانت تجري الى بيروت بقناة مغطّاة بصفائح الحجارة فتأتيها صافية باردة يتهنأ بشرها السكان دون خطر من الجراثيم المعدية

(نهر انطلياس) استفاد منه مدةً احد افاضل الوطنيين لانشاء معمل ورق اضطرّته الظروف الى تركه ومياهه تدير بعض الطواحين الا ان تسعة اعشارها لا

تجدي نفعاً فتذهب سدّي وتنصبُ في البحر بعد قطعها مسافةً قليلة

*

(نهر الكلب) ان مياه هذا النهر تؤدي خدماً عديدة كسقي الزدراعات وتدوير الطواحين . الأنا فائدتها العظمى ريّ بيروت وتزويد اهله بالمياه الطيبة بفضل شركة المياه المعروفة التي ذكرناها غير مرّة في مطاوي ابحاثنا السابقة . ومياه نهر الكلب تُخزّن ليس بعيداً من منبعها فتجري في قناة مكشوفة فتتبع تعريج الوادي وتوريبه حتى تقرب الى نحو عشر دقائق من مصبّ النهر في البحر فتتخذ في القلّة التي يعاها دير مار يوسف البرج وتجري المياه في سرب يؤدي بها الى الضيعة . وقد جعلت من مسافة اخرى كُوي نُقرت في عطف الجبل لرحض القناة اذا دعت اليه الحاجة ومن الضيعة ترى القناة مكشوفة حتى تبلغ اخيراً معمل الشركة حيث ادواتها الدافعة ومصافيا قريباً من محطة الضيعة وفي المعمل رُفاس مائي يدفع الماء في القساطل التي تجلبه الى بيروت . واذا قُلّت المياه في فصل الصيف اتخذوا آلة بخارية جهّزوها منذ بضع سنوات لوقت الحاجة . ولهذه المياه احواض عديدة في تلّ مار متري تتجمّع قبل ان تُقسم على احياء المدينة . وامتياز هذه الشركة كانت الدولة العليّة منجته للمهندس الفرنسي المسيو تفتين الذي نال ايضاً من تعطفاتها امتياز ابنية الرفأ سنة ١٨٨٢ ثمّ تشكّلت شركة المياه كما هي اليوم سنة ١٨٧٦ وأنجزت بعد مدّة الاعمال التي بوشر بها قبل ذلك المهدي سنة وعُرفت منذ ذلك بشركة مياه بيروت - Beyrouth Water works Company limited ولمّا انتهى حديثاً زمن الامتياز الممنوح لهذه الشركة جددته على شروط اشترطتها عليها الحكومة السنيّة منها ان تُخفض اجورها وان تمتح مجاناً كل يوم ٢٥٠ متراً مكعباً من الماء وان تنقص قسط البلدية الى ١٥٠٠٠ فرنك واذا استهلكت ديونها مع دفع الفائدة يكون ثلث الارباح لبلدية بيروت هذا وان الاطلاع على احوال هذه الشركة لأمرٌ صعب جداً فلا يمكننا ان نعلم عن مدخولاتها ومصاريها الا شيئاً قليلاً استفدناه من تقرير بعض الانكاي . من ذاك ان الشركة كانت ربحت في سنة ١٨٨٤ ١٤٣٢٨٧ فرنكاً وان عدد المشتركين كان ١٥٦٣ وليس لدينا تفاصيل لما قبل هذه السنة . ودونك جدولاً اخذناه ايضاً من مصادر انكليزية يبيّن اجمالاً حالة اعمال الشركة من السنة ١٨٩٠ الى ١٨٩٦

السنة	المدخول	المصروف	الربح الخالص	الاشتراكات	اشتراكات السقي
١٨٩٠	٣٠٢,٦١٥ ف	٠٧٨,٦٧٤ ف	٢٢٤,٠١٧ ف	١٩٨٢	١٢٧
١٨٩١	٣١٢,٤١١	٠٨١,٧٥١	٢٣٠,٦٦٠	٢١٢٠	١٢٥
١٨٩٢	٣١٤,٨٦١	٠٨٧,٨٠٤	٢٢٧,٠٥٧	٢١٤٦	١٤٢
١٨٩٣	٣٢٢,١٦١	٠٩٦,٥٢٤	٢٢٥,٦٣٦	٢٢٢٢	١٤٢
١٨٩٤	٣٤٣,٠٦٢	٠٩٦,٢٦٢	٢٤٦,٨٠٠	٢٤٨٠	١٥٠
١٨٩٥	٣٥٢,٣٤٧	١٢١,٥٦٤	٢٣٠,٨٨٢	٢٨١١	١٢٧
١٨٩٦	٣٥٠,٢٨٠	١٢٠,٦٦٠	٢٢٩,٦٢٠	٢٨٩٦	١٥١

والشركة رأس مال قدره: ١٤٤٠٠ ليرة انكليزية ويظهر من ترقى اعمالها وزيادة عدد مستحقيها واسراعها في تجديد الامتياز الممنوح لها ان امورها على قدم من النجاح هذا فضلاً عن ارتفاع اسعار الاقساط . على ان الشركة قد تحمّلت نفقات في جلب المياه خصوصاً لاجرة العملة التي حُسبت في اليوم كما تُحسب للعامل في لندن (٦ شلينات) ولثب السرب في تل دير مار يوسف البرج الذي بلغ الاربعين في المئة من مجموع النفقات . وزد على ذلك ما صرفته في عدة دعاوي

والشركة تستطيع ان تسلم في بيروت متراً مكعباً من الماء في الثانية والاشتراكات تتزايد يوماً فيوماً الا ان كثيراً منها لا تتجاوز ربع المتر المكعب فليس من ورائها ربح يُذكر . وفي بيروت الان ثلاثة احواض قريباً من تل مار متري اقدمها الحوض الاسفل محتواه ٢٨٠٠ متر مكعب وقد بُني حوض آخر قريباً منه مضمونه ٣٠٠٠ متر مكعب والحوض الثالث هو الاعلى مسموله ٢١٠٠ متر والشركة تفكر في ابناء حوض رابع فيكون للشركة عند قطع المياه ما يكفي لتأمين البلد مدة ٤٨ ساعة . واعلم ان الآلة البخارية التي جُهزت في الضيعة وكثرت نفقاتها يبلغ معدل شغلها في السنة نحو ٢٠ يوماً فقط عند نقص المياه

وفي الضيعة ثلاثة ارباع الماء الذي يحرك الرفاس تنصب في البحر . أما الماء المستعمل لري السهول المجاورة فرجحه لا يُعبأ به لان الزراعة هناك ليست بخصبة وذلك ان الريح البحرية لا توافق زراعة التوت والليمون فلا يبقى الاقصب السكر واليقول . واعلم ان المياه في الضيعة تسقط من علو ١٨ متراً فقوتها كافية لتحريك الآلات اللازمة لتوفير بيروت بالكهرباء

ومجمل القول ان مياه نهر الكلاب تنفع خصوصاً اهل بيروت وهي ايضاً تُدير طواحين عديدة وتسقي بقنيتها البساتين الواقعة شمالي النهر . ومع ذلك ينصب منها في البحر نحو نصفها فتذهب فائدته

*

(نهر ابراهيم) هو نهر غزير المياه ومع ذلك ما كنتنا نراه يفيد شيئاً الا انهُ يدير بعض الطواحين ويستقي بعض الحقول . ومن ثمّ تجتهد الافكار الى عقد شركة لاستخدام هذه القوة الضائعة . وقصدها ان تسقي البقع الواقعة شمالي النهر وجنوبه وان تجلب الماء الشروب لجبيل وعمشيت وما يليهما والمأمول انها تنجز العمل قريباً . وكان في حسابها اتخاذ القناة القديمة التي كان الرومان يجلبون بها مياه النهر الى جبيل . الا ان هذه القناة التي تُعدّ من اعمال الهندسة الخطيرة كقناة بيروت قد استولت عليها يدُ الخراب بحيث يصعب الانتفاع منها

ويؤخذ من بحث سابق للمشروع المارّ ذكره ان مياه النهر في معظم فصل القيظ لا تقلّ عن ٢٤,٠٠٠ متر مكعب في اليوم اعني مترين واربعه سنتيمترات في الثانية . وبمّا تقصده الشركة فتح قناة كافية لجلب ٢١٥,٠٠٠ متر مكعب كل يوم لتسقي بها ما بيانه :

المجموع

١	٦٠٠ هكتار من التوت يقتضي لكل هكتار في اليوم ٤٨ مترًا مكعبًا من الماء	٢٨,٨٠٠
٢	١٥٠ هكتارًا اخرى لسقي حقول من التوت ومزروعات يلزمها في اليوم لكل هكتار ٩٠ مترًا مكعبًا	١٣,٥٠٠
٣	١٠٠ ه. لسقي مزروعات البقول والخضرة تحتاج في كل يوم لكل هكتار ١٣٢ مترًا مكعبًا	١٤,٥٢٠
٤	٤٠ ه. من مزروعات قصب السكر ينبغي لها لكل هكتار ١٨٠ م مكعبًا	٧,٢٠٠
٥	تموين جبيل وعمشيت بالماء وقطعتات آخر	٥,٩٨٠
٦	استخدام كمية من الماء لتوليد القوة المحركة عند مصب النهر	١٤٥,٠٠٠
		٢١٥,٠٠٠

وصاحب البحث الذي اخذنا عنه هذا الحساب يرى ان مدخول السقي في السنة يبلغ نحو ٢٠٠,٠٠٠ فرنك . ومأموله ان يكون مهبط المياه عند مصب النهر من علو ستين مترًا فتنشأ قوة كافية لدفع ١٤٥,٠٠٠ متر مكعب من الماء كل يوم وهي قوة

توازي الف حصان بخاري . وزد على ذلك شيئاً آخر غير متواصل يُستعمل في اوان السقي تكون قوّة المحدثه ٢٥٠ حصاناً بخارياً . فاذا بيع محصول كل حصان بخاري متداوم بمبلغ ١٥٠ فرنكاً ومحصول الحصان البخاري غير المتواصل بشمن ٧٥ فرنكاً اناف الربح على ١٥٠,٠٠٠ ف . ومن ثمّ يزيد مدخول هذا المشروع اجمالاً على ٤٥٠,٠٠٠ ف وذلك فضلاً عن مدخول الماء المجلوب لجبيل وعمشيت وهو مبلغ زهيد لا يُعبأ به

اما نفقات هذا العمل فيشتمها المثلثون نحواً من ١,٧٠٠,٠٠٠ فرنك ولعلها تبلغ ٢,٠٠٠,٠٠٠ اذا حسبت المصاريف الطارئة . اما النفقات السنوية لاستثمار هذا العمل فتكون بالتقريب ٥٠,٠٠٠ ف في السنة . فلو افترض انّ الربح لا يتجاوز نصف الوئمل اعني ٢٠٠,٠٠٠ فقط بدلاً من ٤٥٠,٠٠٠ فيكون الربح الخالص عشرة في المئة (١) تكنّ هذا التقرير نظري . افتراه ينطبق مع الواقع ؟ لا نظنّ وذلك لاسباب اولها ما سبق الاشارة اليه انّ جانب المياه الى جبيل وعمشيت ليس من ورائه ربحٌ يُذكر لقلّة سكّان تلك النواحي . فيبقى سقي المزروعات المصاحبة لمصبّ النهر . فانّ صاحب التقرير المذكور آنفاً يحسب نحو الف هكتار من التربة الجيدة المقصود سقيها فلمعري هذه مساحة كبيرة لا نعلم اين رآها . فاذا ابتعدت قليلاً عن ضفتي النهر وجدت الاراضي لا تصلح للزراعة وهي محجرة متقطّعة بالاوادية وليس ثمة بقعة منبسطة ولا سهل ذو تربة زراعية وانما تُلقى فقط قطعاً منها متفرقة قليلة السعة . فاذا أنشئت قناة في تلك الجهات ذات الحزون والبطون بلغت النفقات مبالغ جسيمة . وعلاوة على ذلك انّ كثيراً من ارباب الفلاحة يأبون الاشتراك ويستقلون مصروفه . وعندنا انّ الاولى انّ تُتخذ القنيّ البسيطة القليلة النفقات فتُجلب المياه الى البُقع اليابسة الواقعة جنوبيّ النهر . وقد بلغنا انّ الشركة الجديدة المعقودة مهمّة حتّى افندي البويري وامين افندي عبد النور مهندس لبنان جرت على هذه الطريقة فانشأت قناة عرضها متر واحد في عمق ٥٠ سنتمتراً وقد نُجز منها الى جهة بيروت ٨٠٠ متر

ولا ننكر انّ القوّة المحركة البالغة ١٢٥٠ حصاناً بخارياً ذات بال جديرة بالاعتبار

(١) راجع تقريراً في استخدام خر ابراهيم تاريخه (٢) ك ١ سنة ١٨٩٢ وضمه المهندس

ألا أنها لسوء الطالع لا تأتي بفائدة كبيرة لبعدها مقامها واو كانت هذه القوة على جوار مدينة كبيرة مثل بيروت لا يمكن استخدامها للتزوير الكهربائي . وكذلك تصلح هذه القوة لتسيير عجلات الترامواي اللبناني بالكهرباء . الآن شركة الترامواي لم تفكر في هذا الامر حتى الآن ولعلها ان تفعل قبل سنين طويلة . وخلاصة القول يصعب الان الاستفادة من نهر ابراهيم لما يحول دون ذلك من العقبات

وقد اتسعنا قليلاً في البحث عن نهري الكلب و ابراهيم لتبين بمثل الاول ما فازت به المهمم وبمثل الثاني ما يمكن فعله قليلاً يكون للانهار التي هي احسن موقعاً من نهر ابراهيم فان للمياه شروطه جغرافية لا بد ان تستوفىها لفائدة الانتفاع بها ولذلك ترى عيوناً غزيرة في لبنان تجري دون عائدة لوقوعها في وسط الجبال وبعيداً عن المراكز المأهولة . وهذا ما عّلل الاضراب عن ذكرها في هذه العجالة عن مجاري لبنان (نهر الجوز) هذا النهر ربما نضبت مياهه صيفاً عند مصبه . وعليه فلا نظن

انه يمكن استعماله في غير سقي البساتين وتحريك الطواحين كما يفعل به اليوم وليس الامر كذلك في نهر قاديشا (ابو علي) فانه كافٍ ليس لسقي سهول طرابلس فقط بل لتشغيل عدة معامل صناعية لو اراد ذلك ارباب الصناعة . ومما يسهل هذا المشروع قرب النهر من مدينة كبيرة غنية بالمحاصيل الأولية ولديها الوسائط الكافية بتصرف بضائعها ومحصولاتها

ثم يأتي بعد نهر قاديشا (نهر البارد) و (نهر عكار) ولا ينبغي عليهما امل كبير وذلك لقلة مياه الاول ولوقوع الثاني في مسيل عميق ضيق . اما النهر (الكبير) فانه خطير الشأن كما رأينا . فان تحققت امانتنا وعاد لواديه مكانه من الاقتصاد ازدهرت تلك السهول المخصبة واغنى السكان بارباحه الطائلة

واعلم ان السواحل الفينيقيّة لم تكن فقط في القرون الغابرة مراكز لتجارة العالم بل ايضاً مواقع مهمة لمرافق الزراعة واعمال الصناعة . فنال القدماء بهذه الموارد الثلاثة ارباحاً طائلة . وعندنا ان هذه الثروة لا تعود الى ايدي ابنائهم اذا حاولوا احياء الزراعة والفنون الا بشرط استخدام القوى الطبيعية التي قسمها الخالق على بلادهم لاسياً انكونز المائيّة المخزونة في جبالهم . ويا حبذا لو استطعنا بهذه السطور ان نستلمت الحواطر الى هذه الامور النافعة او حررنا المهتم لمباشرة بعض هذه الاعمال الشريفة

الاحوال الجوية في لبنان

هذا بحثٌ يصعب الخوض في غماره على طريقة علمية بالضبط والتدقيق وسببه انه ليس لدينا أرساد تفني بالمرام . اجل اننا لعالمون بان ميازين الحرارة ومقاييس ثقل الهواء صارت شائعة في بعض انحاء لبنان لكن اصحابها يكتفون في الغالب بالنظر اليها عند الحاجة وليس من احد يفكر في تدوين درجات الترمومتر او البارومتر واذا باشر احد في ذلك لم يُعَنَ بضبط العمل او يمهله بعد حين بحيث تضيع الفائدة العلمية . وغاية ما لدينا من ذلك قوائم رصدية دُوِّنت في بعض الاماكن وهي لا تتجاوز الستين او الثلاث سنوات وكلها مقصورة على رصد واحد في اليوم بدلاً من ثلاثة رصد فضلًا عن انها لا تدلُّ على معظم درجات الحرارة او اقصى درجات هبوط الميزان (١) فينتج من ذلك انه لمستحيل تعريف معدل الحركات الجوية وبيان درجاتها مضبوطة

وعلاوة على ذلك ان احوال الهواء في لبنان تختلف اختلافًا عظيمًا لِمَا في تركيبه وموقعه من التباين . فانه من حيث العلو يُقسم الى ثلاثة اقسام الساحل والوسط والجرد . فالساحل يشبه في آثاره الجوية البلاد الحارة . وهواء الوسط معتدل . امّا الجرد فاشبهه بجبال الالپ وبرده كبردها . ويُقسم لبنان من حيث وجهته الى منعطف شرقي يتحدّر الى البقاع والى منعطف غربي يوازي بجر الشام فانّ هواء المنعطف البحري ثابت في الغالب معتدل نوعاً . امّا الوجهة الشرقية فعلى خلاف ذلك فانها في تقلبات هوانها من حرارة ورطوبة اقرب الى داخلية البلاد في آسية المتقدمة .

(١) لو اراد احد قرّائنا ان يد هذا الخال ويدون على طريقة نظامية رصد حركات الجو لخدم العلم بذلك خدمة طيبة . ونحن نوكد له ان « المشرق » ينشر قوائمه شاكراً وأكثر ما تفيد هذه الارصاد في بشراي مثلاً لبلاد الجرد وفي بكفياً لمنطقة لبنان الوسطى وفي زحلة لمنعطف الشرقي . ولا بدّ هنا ان نذكر بالشكر مرصد ديرنا في البقاع المنشأ في كسار منذ سبع سنين فننشر لملاحظاته الجوية شهراً بعد شهر بكل تدقيق في مطبعتنا . امّا ساحل لبنان فلا تختلف درجات حرارته عن بيروت حيث تُدوّن هذه الملاحظات

تري من ثمّ صحّة قول القائل بان المسافر الذي يرتقي في سورّية من ساحل البحر الى غابات الارز في مشارف لبنان يلقي في يوم واحد من اختلاف حالات الجوّ ما لقيه مسافر آخر يرحل من ضفّة النيل الى شواطئ البحر الشمالي المعروف بالابيض واذا سننينا حمارة قيظ بلاد خطّ الاستواء وصبارة اقاصي الانحاء الشماليّة وجدنا في جهاتنا ما يتوسّط بين هذين الطرفين من المظاهر الجويّة
وعليه ليس بامر سهل مع هذا التفاوت البعيد ان تحصّص الوجوه التي تشمل كل جهات لبنان فحسبنا ان ثبت هنا بعض ماحوزات عموميّة مؤجلين التفاصيل الى فرصة اخرى عند ما نبحث عن احوال الجوّ في سورّية فنضيف اليها ما يختصّ بلبنان

*

سواء تعتبر طبقات لبنان الثلاث او منعطفيه الشرقي والغربي لا تكاد تجد له في حصر المعنى الا فصلين وهما الشتاء والصيف او قُل بالحري فصل الامطار وفصل اليبوسة . ولعلّ الرائي الى مشارف الجبل يشعر بالفصلين الاوسطين اعني الخريف والربيع شعوراً اوفر على قدر توقّله في الطبقات العليا وذلك لتخلف زمن الحرارة وتأخر غوّ الزروع . الا ان هذه الاختلافات ليست بكافية لتمنع لبنان ذينك الفصلين المعروفين بالربيع والخريف . وعليه يمكننا القول اجمالاً بانّ احوال لبنان فيما يخصّ فصول السنة متساوية متشابهة في كل طبقاته

اما اذا صرفت النظر الى الامطار فتجد اختلافاً يُذكر بين اقسام الجبل من حيث طول الشتاء فانّ الوجه البحري يُجاد قبل المنعطف الشرقي الذي تتأخر فيه الامطار وهو في ذلك اشبه بجهات سورّية الداخليّة فيبتدى زمن امطاره بعد المنعطف البحري وينتهي قبله . ولكن هل تكون مياه المطر اوفر في الجبل منها في السواحل ذلك امرٌ ذهب اليه البعض ولا يبعد قولهم من الصواب فانّ السماء ربما امطرت لبنان دون ان تخصّ الساحل بقطرة من سحجها . وقد يجري الامر على عكس ذلك الاّ انه اندر وقوعاً . اما معدّل المطر فاننا لا نظنّ انه يختلف كثيراً بين لبنان والساحل ولعلّ هذا الفرق لا يتجاوز عشرة سنتيمترات الى خمسة عشر س . وما قولنا الاّ على الحدس والتخمين اذ ليست لدينا قائمة نستند اليها

ومما ثبت بالامتحان ان الامطار تتقسم بين شهور السنة على قدر ابتعاد البلدان عن خط الاستواء فيتقارب فصلا اليبوسة والرطوبة . فانَّ معدّل الامطار من ايار الى ايلول (وهو فصل اليبوسة في سورّيّة) يبلغ :

في رومية	٢٥	في المئة بالنسبة الى مجمل مطر السنة
في برلين	٥٢	="
في بطرسبرج	٦٧	="

وهو امرٌ مقررٌ ايضاً في نواحي الشام . ففي اسكندرونه مثلاً حيث الحرارة اشدّ من بيروت بكثير ليست الامطار نادرةً في شهري تموز وآب . وكذلك بلاد قيليقية المجاورة اسكندرونه فانّ حرارتها فوق حرارة سواحل الشام ومع ذلك تهطل في صيفها الامطار بمعدّل ستة في المئة فان قابلت ذلك بالشام وفلسطين وجدت من هذا القبيل فرقاً عظيماً اذ لا يبلغ معدّل المطر الصيفي عندنا الاّ سدس المئة فقط . وكذلك قد لحظ الاهاون في شمالي غربيّ الشام من السنة ١٨٩١ الى السنة ١٩٠٠ ثلاثة اطوار فقط من اليبوسة دام كلّ منها مئة يوم . امّا لبنان فايّ طبقة رقيت منه تجد انقطاع المياه في صيفه يدوم اربعة اشهر بل خمسة وكذا قلّ عن بقية بلاد الشام وفلسطين

وكذلك اذا اعتبرنا جبل لبنان بين الليطاني جنوباً ونهر الكبير شمالاً وهو طول يبلغ ١٨٠ كيلومتراً نجد فرقاً بين امطار الجهة الشماليّة والجهة الجنوبيّة صيفاً . والمياه المنهمة في جبال عكّار ووادي النهر الكبير من ايار الى ايلول تقلّ عن مطر بلاد الشقيف وعلى ضفّتي القاسميّة (١) . فيمكن اذن القول عموماً بان كميّة الامطار في المنعطف البحري على طولهِ متساوية كما ان الزمن الفاصل بين اشهر القحولة واشهر المطر لا يكاد يختلف

وليس الامر كذلك في الضباب فانه في لبنان اوفر جداً منه في الساحل وهذا يصحّ ايضاً في البرد . امّا تعليل كثرة الضباب فن طبيعة الجبل اذ انّ لبنان كجدار صخري عظيم يقوم كحاجز في وجه الانجرة المتصاعدة في البحر مدفوعة الى داخل البلاد

بقوة الرياح الغربية . وعند هذا الجدار تتكاثف الغيوم التي تُرى في اعالي الجبل بين ٨٠٠ متر و ٢٠٠٠ م علواً . وفي بعض جهات لبنان يتكاثر الضباب حتى انه يتصاعد اليها كل يوم مدة ثمانية اشهر من السنة وليس سببه علوها فقط بل موقعها ايضاً بالنسبة الى الجبل والى الاودية المحدقة بها فان كل ذلك لمّا يساعد على تراكم الضباب ولا نرى هنا داعياً للكلام عن حرارة لبنان فانه غني عن القول بان الحرارة تختلف مع اختلاف علو الامكنة ثم اتنا ذكرنا سابقاً ما يختص بالثلوج اللبنانية (١) امّا نقاوة الهواء وصلاحيته للصحة في لبنان فذلك امر مشهور لا يحتاج الى وصف فان كل هذا الجبل قد خص بهواء جيد منعش للثوى اللهم الا الامكنة الواقعة بجوار مصب الانهار وفيها الحميمات . وكذلك لبعض القرى سمعة سيئة من هذا القبيل وهو امر مستغرب لاسيما ان اكثرها واقع في بلاد يابسة لا تستنقع فيها المياه . فنطلب الى اطباء الذين في تلك الجهات ان يفيّدونا عن سبب تفشي الامراض في الامكنة المذكورة . امّا بقية لبنان فان صفاء جوّه وجودة مياهه يقويان هيكل الجسم ويجعلان سكانه اشداء . واللبنانيون في الغالب متوسطو القامة مفتولو الاعصاب محكمو البنية والفضل في ذلك لعيشتهم في الهواء الطيب وعدم ارتقايمهم بالصناعات المضحكة ولهذا ايضاً لا تجد بينهم الا امراضاً بسيطة . واذا عاوت المشارف ربّما وجدت منهم من هو ناصع اللون ابيضه . وقد مرّ لنا كلام في ما يخص الشعوب اللبنانية واختلافها في الصورة والهئية الى غير ذلك ممّا لا فائدة في تكراره

١٦

الفلاحة والاحراج اللبنانية

لا يستطيع اهل لبنان ان يرتقوا بالصناعة وحدها فهذا حكم رهن ابرزناه غير مرّة في اجائنا السابقة والسبب ظاهر لانّ الصناعة تحتاج الى المعادن ولاسيما الى مناجم الفحم وكل ذلك نزر قليل في لبنان . ومن ثمّ ينبغي لاهل لبنان ان يسعوا في فلاحة الجبل وزراعته وعليها يتوقف مستقبل لبنان لتفي غلاته بمعاشهم . وممّا

يضطروهم الى السعي وراء ذلك وفرة السكّان ونموهم سنة بعد سنة فانهم يجدون في ارضهم موارد رزق اوفر ممّا يظنون . وها نحن ذائنين لهم ذلك في الاسطر التالية وليست غايتنا ان نكتب كتاباً مسهباً في احوال الزراعة اللبنانية وانّا ندون فقط ما يثبتنا به تاريخ الجبل فان الماضي عبرة للمستقبل . ونقسم كلامنا في هذا الباب الى قسمين نخصّ التعمم الاوّل بالغابات والثاني بانواع المزرعات التي يمكن اللبنانيين ان يستدروا منها ارباحاً جزئية

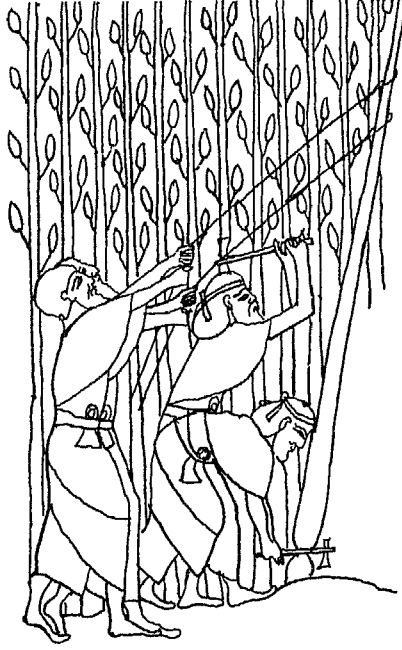
١

الغابات اللبنانية سابقاً وحاضراً

قد اطرا الكتبة لبنان وأفاضوا في مدح غاباته الباسقة منذ الاجيال الغابرة العريقة في القدم . كما اثبتنا الامر في مقالتنا المعنونة جبال الالب ولبنان (المشرق ١ : ٧٢١) وشفعنا ذلك بمقالة ثانية (١) عن ارز لبنان فروينا ما كان لغاباته من الشأن الخطير حتى ان كل الشعوب القديمة في الشرق لاسيّاً البابليين والفراعنة كانوا يجدون فيها حاجتهم من الخشب لابنيتهم الفاخرة . وعن الآثار الهيروغليفيّة ادلّة واضحة على ان المصريين كانوا يعتبرون جبل لبنان كغابة منسّعة كثيرة الاشجار متكاثفة الاغصان لا يري السائر فيها اديم السماء اظلمها الوارف (٢) وكان الغرباء لا يتجوّلون في هذه الاحراج لأنهم يتوجّسون منها خوفاً لما يروى فيها من ضواري الوحوش كالاسود والتمورة والدبّيسة . وكان الاهلون قليلين وهم يرتزقون بما يقطعونها من الاخشاب كما ترى في صورتنا المنقولة عن بعض الآثار المصريّة القديمة . أمّا الاشوريون والبابليون فلم يشاؤوا ان تبقى هذه الكنوز في ايدي اخصامهم المصريين فلذلك نظروا اصحاب العاديّات البابليّة يفتخرون بما جلبوه من اخشاب لبنان لمبانيهم العظيمة كما ان نقوشهم المنقورة في الصخور تنطق

(١) راجع الجزء الاوّل (ص ١٢٩)

(٢) اطلب : Chabas : Voyage d'un Egyptien en Syrie, p. 312 — W M. Müller : Asien und Europa, p. 197-198 — Joret : Les Plantes dans l'antiquité.



قدماء اللبنانيين يقطعون الشجر

بأثرهم في صيد كواسر لبنان . مثال ذلك صورة توفقتنا باكتشافها في جبل اكروم شمالي
هرمل فوصفتها في بعض تأليفنا (١)

أمّا قدماء اليونان فلم يجسروا ان يتزغّلوا في هذه الغابات التي كان البابلينيون
والفراعنة نالوا من اطرافها فقط حتى قام الرومان تحت امرة يوميوس فتعقبوا فيها
المتلصّصين من الايطوريين (٢) وضربوا على ايديهم ومنذ ذلك العهد ساد الامن واتخذ
السكّان لهم منازل ثابتة فجعلوا يقطعون تلك الاحراج لحاجتهم الى المزدريات (٣)
وصار عدد القرى ينمو شيئاً فشيئاً وغرس الاهلون الكروم واهتموا بزراعة الزيتون
فتوفرت وانتشرت وتحوّفت اصحاب الامر من ان تتلف الغابات فوضعوا الرسوم لقطعها

(١) راجع Notes épigraphiques et topographiques sur l'Emésène, p. 50

(٢) راجع (ص ٤٩) والمشرق (٥ : ٨٢٥)

(٣) راجع (ص ٢٥)

واستثنوا منها بعضها . غير ان لبنان لم يُيسر جبلاً حافلاً بالسكان الأعداء انتشار الموارنة كما اثبتنا ذلك سابقاً (١) فكانت الغابات تنقص على قدر ما كان ينمو عدد القطين . وفي ذلك العهد احتاج الخليفة معاوية الى عمارة فيجهر سفنها من خشب لبنان في عكاً وصور وطرابلس كما ورد في فتوح البلدان للبلاذري (ص ١٥٣) وفي تاريخ تافانوس وتاريخ البطريرك ميخائيل الكبير (ed. Chabot. II, 445) . وكانت هذه الاساطيل تتركب من عدد وافر من السفن بلغ مجموع بعضها ١٧٠٠ سفينة شراعية . وكان اذا ذهبت الانواء بقسم منها اسرع فيجهر غيرها بدلاً منها لانه لم يشاء ان يكون اسطولها اقل من ٥٠٠ مركب . وهو امر عديد بالغ يشهد بلسان حاله على غنى لبنان بالأحراج والغابات كما انه دليل واضح على ما فقده بتوالي الاعصار من هذه الكنوز الخشبية . ودونك اسباباً اخرى قد سوت انتقاص هذه الغابات ما عدا توفر السكان الذي سبق ذكرهم

سيأتي الكلام في فصل آخر عن معادن لبنان في القرون الوسطى . وهناك ترى ان استخراج الحديد كان شائعاً في لبنان وكانوا يعدنون هذا المعدن على الطريقة المنسوبة للكيتلان وهي طريقة تقتضي احراق الخشب الكثير . وكذلك استحضار الكلس فقد اتسع نطاقه في لبنان لكثرة حجراته الكلسية والكلس لا يتهيأ الا بايقاد نار شديدة فذهب بذلك قسم من غابات الجبل ثم انتشرت في لبنان تربية القز فشغلت اشجار التوت قسماً من مكان الغابات . وزد على ذلك رعية المعزى واصطشاع الفحم الخشبي وقلة اكلات الاهلين لنصب اغراس جديدة فكانت هذه الاسباب كلها داعية الى تلف الغابات فاصبح الجبل اليوم اجرد اصلع لا تقر لناظره عين بما كان يزينه سابقاً من خضرة احراجه وارزه الشهير الذي انشدت في محاسنه الاسفار الالهية

وان قيل ان اهل لبنان اصابوا بدلاً من هذه الغابات مرافق اخرى استعاضوا بها اجبتنا ان هذه الخيرات التي حظي بها القوم انما كانت مقصورة على منافع وقتية ولو فطنوا وادركوا كنه الامور لامكنهم ان ينالوا هذه الخيور دون ان يخسروا هذه

الحسائر الجسيمة . ومن المعلوم أنّ اعمال الحشَب تترقّى يوماً بعد يوم مع ترقّي المدنيّة فتتعدّد منافعه لغايات لا يضبطها احصاء وكأها فوائد جليّة . لأنّ منه يُتخذ الاثاث وامتعة البيت وادواته المختلفة ومنه يُستحضر اليوم ورق الكتابة وثمنه يتصاعد كل يوم . حتى ان بعض المتولين اعمال السكك الحديدية يرون أنّ الحديد ارخص منه في عوارض هذه السكك . وكذلك ترى الكهرباء بترقيها وانتشار استعمالها تقوم اليوم مقام الفحم كما ان غاز البترول ينوب ايضاً عنه في اعمال صناعية عديدة فيستخدم في تحريك الآلات في المعامل والمراكب والسكك الحديدية بل في طبخ الاطعمة . وبينما ترى بقيّة المواد تنقص قيمتها او يتهاود سعرها تجد الحشَب بخلاف ذلك يرقى سأم الصناعات ولا يُستغنى عنه بحيث يمكن القول أنّ حرفة الحطّاب كحرفة الفسّاح اقدم ما عُني به المرء في بداية كونه وستبقى الى آخر انكون . فترى من ثمّ جهل الذين عبثوا بهذه الثروة فضحّوها مع أنّ قسماً من لبنان لا يصلح في الغالب لما سوى ذلك . وقد جرّ خراب هذه الغابات آفات اخرى نشأت عن قطعها . فمن ذلك فقد قسم كبير من التربة الزراعية التي تجرفها كلّ عام امطار الشتاء . ومنها نضوب عيون معينة انقطعت مياهها او قاتت . وكذلك تافت الحواجز التي كانت كسدود في وجوه الانهار عند طغيانها واستنقعت المياه في البطائح فانبعثت منها الجراثيم الويئة وذلك بدلاً من الروائح العطرة التي تنفوح من اشجار الارز والصنوبر والشربين . فانّ الخائق كان اقام لبنان ليجمعه كبيارستان للمرضى وكمستشفى يمالج به اهل العاهات اسقامهم ويجددون فيه كما في جبال سويسرة صحّتهم بعد ان انهكتها الالاعاب او تناقلت عليها اعباء القبط فينعمشوا قواهم بصفاء جوّه وطيب هوائه وشذا عطوره وازهاره . ولا غرو أنّ الزوار كانوا يتواردون اليه تترى ليسرّحوا انظارهم في مشاهد القنّانة وآثاره الفريدة المجسّلة بتناظر الطبيعة كما انّ المرضى منهم كانوا يستطيعون ان يتعالجوا بالمعالجات الطبيعية التي اختبر نفعها اطباء زماننا كالعلاج بالهواء والاستحمام بالماء والنور والتطّيب باللبن والعنب وترويض الجسم بالرياضات القويّة . ففي لبنان صلاحية لكل هذه الاسباب الصحيّة التي لا يثاها الاوربيون في جبال سويسرة مع كثرة ضبابها وكدورة سائتها الا بان يتعرضوا لامراض شتّى كوجع المفاصل والصداع . وكان امكن اهل لبنان مع هذه الخيرات العسيمة ان يوسعوا مصادر ارتقايم ببناء الفنادق

للعرباء وانشاء الشركات لتقل المسافرين وغير ذلك مما يجلب اسويسرة ارباحاً فاحشة .
وقد فُقدت هذه العوائد كأنها وخسر لبنان كل هذه المكاسب منذ جرد الاهلون قممهُ
عن غاباته بل قل عن موارد سعادتهم

✱

اعلم ان تجارة الحطب قد صارت اليوم في ايدي اهل اوربة فيكسبون منها
مبالغ طائلة . مع ان تربة تلك البلاد لا تصلح كثرة لبنان لنمو الشجر وذلك ان
شجرة من الصنوبر مثلاً لا تبلغ في بلاد اسوج وزوج عشرين متراً طولاً في دائرة متر
ونصف الا بعد ١٥٠ الى ٢٠٠ سنة أما في جنوبي فرنسة فان نمو هذه الاشجار
اسرع من ذلك باربعة اضعاف ولا نشك انها في لبنان تنمو بزمن اقل من ذلك
بسته اضعاف لحسن وقوع هذا الجبل واعتدال هوائه . فترى من ثم ان اللبنانيين
او ارادوا امكنهم ان يزاحموا اهل شمالي اوربة في هذه التجارة الراجحة بدلاً من ان
يدفعوا لهم ما لهم جلب اخشابهم

وهذا وان تغافل السكّان والحمد لله لم يفن تماماً هذه الغابات فان في لبنان حتى
الان امكنة تظلها الاحراج وتشهد على غناها القديم . وقد تكلمنا في خلال بحثنا
عن ارز لبنان في المراكز الثلاثة التي تزهر فيها غابات هذا الشجر الثمين واستلقتنا
انظار اللبنانيين الى ما يتهدّد غابة الباروك من عوامل الفساد

أما بقية الاشجار غير الارز فان طلبنا لها غابات كبيرة ليس غياضاً صغيرة لا نكاد
نجد منها الا في بعض الامكنة السحيقة كجبل اكروم شمالي شرقي لبنان وهذا الجبل من
ملحقات جبل عكار تراه موازياً لبحيرة حمص وهو قبايل السكّان وفيه غابة واسعة من
السديان الباسق الافنان . بيد ان اهل تلك الانحاء يضطرون منها الفجهم فلا تلبث
بعد مدة ان تتلف كما تلفت اخواتها في لبنان . وياليت هولاء الحطّابين يكتفون بقطعها
فيبقى امل لان تعود فتنبو بعد سنين الا انهم تخفيفاً للعمل يلقون النار في اصول اكبر
اشجارها فتجف مائيتها وتلف دون ان يرجى لها اخضرار فيضحي مثل هولاء كمثل
المرأة التي لم تمنع ببيضة من ذهب كانت تبيضها لها كل يوم دجاجتها فلما طعمت بما
هو اوفر فقدت رزقها . وكان قدما اللبنانيين اوفر عملاً كما ترى في الصورة التي اثبتناها
آنفاً (ص ١٨٣) فانهم كانوا يتفعمون بخشب غاباتهم دون ان يستأصلوا شأفتها

وكذلك مقاطعة الهرمل فانها كثيرة الاحراج ينمو فيها خصوصاً ناعم الشجر وذلك على مساحة نحو ٢٥٠٠٠ هكتار . ومع كثرة النبات ترى ايضاً امكثة عديدة خالية منه . واشجار معاملة الهرمل دون جبل اكروم في بسوقها وحسنها وهذا مما يبغض شيئاً من قدرها . والفحّامون يعيشون ايضاً في هذه الاحراج كميث رصفانهم في احراج اكروم غير انهم لا يحرقون الشجر من اصله كما يفعل اولئك

وترى في مقاطعة الضنية وفي منطف لبنان الشرقي بين الهرمل وعيناتا بعض الغابات الحسنة واشجارها في الغالب متوسطة الكبر ليست متواصلة . ومن اشجارها الحاصّة بها الشوح (*abies cilicia*) وهو شجر جبلي نادر الوجود في الاصقاع الشامية لا يُعرف في غير جبال اسكندرونة ومديرية الضنية ويستحقّ ان يُفرض في نواحي لبنان لحسنه فانه ينمو الى علو ١٥ متراً وينبت في مشارف الجبال بين ١٥٠٠ الى ٢٠٠٠ متر وفي غير هذه الحال لا تجد الغابات الا في بعض الاودية المعتزلة او على جوانب بعض السيول ومنحدرات الغياض يمتاز بينها الصوبر والسرو . اما غابات السنديان التي كانت تزيّن منطف جبال جزين عند تومات نيجا فانها صارت اثراً بعد عين . وترى بدلاً منها بقعاً سوداء تشهد على مساوى الفحّامين . ونذكر هنا بعض الغياض لا لاتساعها بل تنشيطاً لمن غرسها واستلغافاً لنظر الاهلين منها احراج بيت مري وعين زحلثا وبكاسين وبكفياً . فياليت اللبنانيين يأتسون بهذه الامثال فيعيدون لجلهم زينته السابقة

ومما يجدر بنا ذكره مزارع الزيتون . وهي كثيرة في بعض الجهات حتى ان الذي يراها يحسبها آجماً وغابات . منها مزارع الكورة التي تمتد على طول خمسة كيلومترات في عرض الف متر . واوسع منها مغارس المختارة وعمّطور الا ان بينها صنوفاً اخرى كالتوت والاشجار المشمرة وقد استوقفنا ابصار قرّاننا على تلك الغياض البديعة المنظر التي تجاري في خصبها غوطة دمشق واجمل مواقع سورية . الا ان السهم الافوز بين مزارع الزيتون هو للشويفات فان صحراءها تبلغ سبعة كيلومترات طولاً في عرض يختلف بين كيلومتر وثلاثة كيلومترات وهي دون اغراس المختارة طولاً لكنها مرصوصة متواصلة لا يدخل فيها صنف آخر من الاشجار . ومن نظر اليها من علّ خالها بجيرة كبيرة من الحضرة لتلاحم اشجارها وكلها في علو واحد نُصب اكثرها

قبل ستين سنة . وكذلك مزارع قصبه زغرنا العامرة فانها واسعة جميلة وان تكن اصغر من المغارس السابق ذكرها وتختلط بما سوى الزيتون ويهيم اللبنانيين ان يوسعوا نطاق هذه المزارع لما وراءها من الارياح التي تبلغ اربعة اضعاف ربح الغلات . لان معدّل ما يُستغلّ من زيتونة واحدة يساوي في السنة بين ١٥ الى ٢٠ فرنكاً ولو بيع الزيت في الخارج لاتي بمكاسب طيبة لحاجة كثير من البلاد الاجنبية اليه فان فرنسة مثلاً تحتاج الى ٢٥,٠٠٠ طن من الزيت فضلاً عما تجده في مقاطعاتها . فيأتيها من مستعمراتها ٨٠٠٠ طن لسدّ هذا النقص فيبقى ١٧,٠٠٠ طن يمكن اللبنانيين ان يزودوها بها . وانما ذلك على شرط واحد وهو ان يتخذ الزارعون الطرائق المستحدثة لعصر الزيتون فان الزيت الطيب المستحب لا يُنال الا بالادوات الخصوصية التي شاعت اليوم في اوربة (١)

٢

مزروعات شتّى

نكرّر هنا ما سبق لنا قوله ان الغاية من بحثنا الحاضر ليست تأليفاً في الفلاحة او في ضروب التبات التي تزين لبنان . والمواليد النباتية متوفرة فيه لما خصّ به هذا الجبل من الدوائر المنطقية والطبقات المتباينة واختلاف التركيب الجيولوجي والمواقع من قمم واودية وغير ذلك (٢) . والقصد من هذه النبذة ان ندور، بعض الملحوظات المفيدة نسندها الى تعاليم التاريخ والى نتائج علم الجغرافية اننا لا ننكر ما اصاب لبنان من الخسائر بتجرده عن غاباته القديمة الا انه لا يجوز القول بان الجبل فقد خصه وثرته الارضية بدعوى ان الزراعة اليوم لا تأتي بالارباح المأمولة . والحق يُقال ان بعض العيون قد نضبت وان السيول وغيرها من دواعي الحراب سحبت بسم كبير من التربة الزراعية وبرزت صخوراً جرداء لا يمكن فلاحتها .

(١) اطلب كتاب الفاضل ودبع افندي مدور في الفلاحة السورية (Syrie agricole, pp.

206, 212)

(٢) فإيراجع كتاب المسيو جوره في النباتات القديمة وله فصل في نبات بلاد الشام عموماً

ونبات لبنان خصوصاً (ص ٢٢٤-٢٢٦)

اكنّ الجبل في ما سوى هذه الامكنة لا يزال طيب الثرى صالحاً للزراعة . ألا ترى مثلاً ما يناله لبنان من حاصلات الكرم والتوت والتبغ الذي تعود على اهله بالمكاسب الطائلة وقد كانت مدة من مرافق الجبل الخاصّة به . وان كانت هذه موارد الثروة قد خفّت فلا تثرى على الارض اللبنانية وانما تعثرت فقط احوال سوقها التجارية ولعلّ ارباب الزراعة في لبنان لم يصرفوا نظرهم الى تحسين طرق زراعتها على الاساليب المستحدثة . مثال ذلك زراعة الكرم فانّ لبنان يوافقها اي موافقة وترى اليوم اصحاب الشركات الاسرائيلية والالمانية في جهات فلسطين قد سبقت اللبنانيين في استثمارها

ولا غرو فانّ عصرنا هذا عصر التقدم وقد اصاب الفلاحة من ذلك نصيب كبير فلا بدّ اذن من استعمال الاساليب التي اختبر العلماء منافعها لئلا يذهب شغلنا سدّي بزاحمة النير . فما قولك مثلاً في جند اليابان لو نزلوا ميدان الوغى وفي ايديهم القوس والنشاب لمحاربة الروس المتسلحين بالبنادق وهم يطلقون عليهم المدافع . فكذلك الفلاحة فانّ لها اليوم ادوات تسهل طرائقها وتوفر غلاتها اضعافاً كثيرة ومع هذا ترى الاهلين لا يسعون في اتخاذها ويجرون على آثار اجدادهم في اساليبهم الختّة التي شاعت بينهم قبل الفين او ثلاثة الاف سنة . مثال ذلك عصر الزيت فانّ اللبنانيين يستخرجونها في معاصرهم كما فعل الفينيقيون . أليس هذا شططاً وكيف يستطيع الاهلون بعد ذلك ان يلوموا الزراعة ويشكوا قلة ارباحها

هذا ويؤخذ من دروسنا السابقة انّ لبنان منذ الطور التاريخي لم يختلف في هوائه اختلافاً يذكر وان امطاره لم تكن اذ ذاك باوفر منها في عهدنا مهما زعم الزاعم اثبت خلاف ذلك

وغاية ما يمكن التسليم به انّ الامطار مع اتساع الاحراج قديماً كانت مقسمة على كل الحياء لبنان تقسيماً نظامياً يعمّ فصول السنة فيدوم زمانها اكثر دون ان تتوفر بذلك كمية مياهها . وهذا ايضاً ضرب من الحدس لا يمكن ان نحكم بصحته قطعياً وعليه يسوغ القول بان النبات اللبناني هو اليوم كما كان سابقاً الاجناساً قليلة . فمن ذلك البردي (papyrus) الذي ينبت بوفرة حتى اليوم على مقربة من بحيرة الحولة . وعلى رأينا انه كان ينبت في الاجيال العابرة في اودية الجبل الحارة الكثيرة

المياه وعلى ضفاف الانهار ومصابها وذلك لما كانت غابات لبنان باسقة تشرح فيها سباع الحيوان كالأسود والفيلة وتمرح في انهارها التامسح كما سيأتي (١) ومن النباتات المنسوبة الى لبنان شجرة اللبان او الكندر وهذا الرأي تراه مكرراً في اسفار الكتبة من اهل القرون الوسطى لكنه بلاسند وإنما هو مبني على وهم لغوي فزعموا ان لبنان معناه اللبان لتوافق اسمها في اليونانية (Δίβανος) كلاً لم يثبت لبنان قط شجيرة اللبان التي هي من خواص اليمن وضواحيه . على ان هذا الجبل غني بغيره من أخرى وأشجار نقلت اليه فضائلها بعد تاريخ الميلاد على ما نظن . منها المشمش المعروف بالبرقوق (٢) والبرتقال وقصب السكر . وما جاءنا من امركة التبغ والصبير . وقد دخل أيضاً لبنان نباتات حديثة العهد مختلفة الاجناس إلا ان كثيراً منها بعد برهة من الدسر تضعف وتفقد خواصها الاصلية لاختلاف التربة عاينها او بالحري لجهل الاهلين بتربيتها . وما يصح قوله اجمالاً ان لبنان يصلح لنمو اكثر النباتات والاشجار بحيث يضحى كحدائق غناء وبساتين فيحاء جامعة لشتات نبات المعمور . والسبب في ذلك اختلاف طبقات الجبل وتباين مواقعها . وهذه لعمرى منحة فريدة تكرم بها الخالق على لبنان فلو انتفع بها الاهلون لأغنتهم عن شكواهم من عقم الجبل وضوولة غلاته

*

وقد ذكرنا آنفاً الصبير او التين الشوكي . وغاية ما ينتفع به الناس انهم يتخذونه كسباح لبيوتهم او يأكلون ثمره التمه . ولو دروا لامكنهم ان يستعملوه لقوائد أخرى اعظم واجل . وما نقوله عن هذه الشجرة يصح في كثير غيرها . فمن ذلك انه يؤخذ على الفلاحة البنانية قلة اهتمام اصحابها بتربية المواشي ومن المعلوم ان الجبال انسب الى ذلك من سواها لاسيما انه يلحق برعية المواشي اعمال اخرى يرتفون بها كبيع اللحم واصطناع الجبن والحليب والزبدة واللبن . وما السبب في قلة تهامل اهل لبنان لتربية المواشي ألا قلة الراعي والاعشاب فان بعض

(١) راجع الكتاب السابق ذكره (ص ٣٩٠)

(٢) ويدل على ذلك اشتقاقه من اللاتينية

الامكنة قاحلة جدا لا تجد فيها الطرش لما ظاً طول السنة وفي غيرها تمحل التربة في فصل القيط وتيس المرامي . فلاي سبب لا يُزرع الصببر الذي ينبت في اي تربة كانت وهو يشبت على اشتداد الحر

وكي يمكن الانتفاع بهذا الثبات لا بُدَّ من نزع شوكة عنه . والاولى ان يُغرس ضرب آخر منه لا شوك له . واعلم ان ثمره ولاسيا اوراقه (الواه) الضخمة المكتنزة من احسن ما يُعلم به الحيوان . وبعض الزراعين يرونه شبيهاً بالجزر بل افضل منه لقوت المواشي . والجزر كما لا يخفى يُتخذ في اوربة كملوفة الانعام . والصببر اذا غرس وطلع يقصَّب في سته الثالثة او في الرابعة وهو انب . فاذا آتى على غرسه ست سنوات اتى بشمره وبقي نامياً الى السنة الاربعين فيحينذ تشدب ساقه فيعود وينمو جديداً . وجموع ما يُستغل منه كل سنتين بين ٣٠,٠٠٠ الى ٣٥,٠٠٠ كيلوغرام من العلف في كل هكتار

وليس الرأي هنا ان تزرع الاراضي الطيبة باتين الشوكي بل الاراضي البور فقط التي لا تصلح لغير ذلك من المزرعات وان يُغرس منه ثلاثة او اربعة صفوف حول البساتين والاملاك الواسعة بدلاً من اكوام الحجارة التي تقوم في وجه السابلة واذا احتاج الناس الى علف الهاشية في بعض السنين التجأوا الى هذه المونة القريبة المنال (١) ويوجد غير ذلك من الاشجار التي تؤدي لاصحابها خدماً مشكورة منها شجرة الخروب الذي ينبت من نفسه في لبنان (٢) وكان هذا الشجر كثيراً في لبنان حتى ان اقليم الخروب دعي به (٣) امّا اليوم فلا يرى منه في لبنان الا اشجار متفرقة قليلة البسوق مع انه شجر كثير المنافع في تلك الجهات . وما يقال عن اقليم الخروب يصح في بقية اقليم لبنان فان مديرية البترون كما يشهد على ذلك المعمرون من الشيوخ كانت غنية بهذا الشجر قبل نصف القرن واكثره اليوم قد قطع وتلف فلم يسع الاهلين ان يستبدلوا تلك الاراضي البائرة باغراس غيره . وهذا المشل يبين للقراء ان الفلاحة

(١) راجع كتاب الاديب ودع مدور في فلاحه سوربة (ص ٢٦٤)

(٢) كتاب جوره (ص ٢٥١)

(٣) وهو اسم قديم ورد ذكره في كتاب شمس الدين الدمشقي (ص ٢٠٠) وفي تاريخ

بيروت لصالح بن يحيى (ص ٨٨)

اللبنانية اذا ما قصرت في بعض الاحيان عن الترتي والتجسين ربما سهت ايضاً عن امثال الاقدمين وعدلت عن آثارهم المحموده . وكان اجدادنا يعرفون فضل الخرنوب ويقدرونه قدره كما يؤخذ من هذا النص الذي سطره الشريف الادريسي في كتابه عن الناعمة التي هي اليوم قرية حقايرة قال (١) :

« والناعمة مدينة حسنة وأكثر نبات ارضها الخرنوب الذي لا يعرف في معمر الارض مثله قدراً ولا طيباً ومنها يُجهز به الى الشام والى ديار مصر واليهما يُنسب الخرنوب الشامي امأ وان كان في الشام كثيراً وطيباً فهو بالناعمة أكثر واطب »

فهذا الكلام شاهد لامع على ان الخرنوب كان متوفراً في الاقليم الذي دعي باسمه وان زراعته كانت معدودة كاحد مرافق لبنان الجنوبي . فيا رعاك الله ماذا يمنع من ان يعود الاهلون الى توفير اغراسه لاسيما انه يأتي عفواً في كل الامكنة القاحلة ولا يحتاج الى عناية خاصة كما ان قلة الامطار او كثرتها لا تؤثر فيه واللبنانيون بغرس هذا الشجر لا يعيدون فقط جلبهم بعض نضارته بل يرتفون ايضاً بمحاصيله كما كان الامر في عهد الادريسي

ومما يزيد الخرنوب نفعا ان ثمره سكري وقد اثبت الذين يعتمرون بنظارة المواشي ان العلف انفع للانعام اذا دخل فيه السكر . وقد عرف قدماء العبرانيين منفعة فاطمونه الخنازير (راجع انجيل القديس لوقا ١٥ : ٦ وكتاب التلمود) وغيرها من الراعية . وبه ايضاً علف اليونان والرومان مواشيتهم . واليوم يدخل فرنسة في كل سنة ١٩,٠٠٠ طن من الخرنوب لحاجتها وهذه الكمية تتسوقه فرنسة من بلاد شتى ولا تفيدها الجزائر منه سوى الف الى الفين طن . ومحمول الخرنوب يختلف على حسب عمر الشجرة وحسنها ومداراتها فيجني من الشجرة سنوياً بين ٢٥٠ كيلوغراماً الى ١٠٠٠ ك من الشجر يساوي ثمنها من ١٠ فرنكات الى ٤٠ ف . وفي هذه الاعداد دليل ظاهر على فوائد غرس هذه الشجرة التي لا تطلب عناء كبيراً . وان لم يقصد الاهلون منها الربح يبيع ثمرها الا انهم يجدون فيها منافع غيرها كرمية المراشي . وثمرها كما سبق افضل علف الدواب يقوم مقام غيره من التّجوع الذي يندر في بعض المواطن . وقد لحظ الاجانب فضله فصاروا

(١) راجع وصف بلاد الشام للادريسي (ص ١٦ ed. Gildemeister)

يقبلون عليه اقبالاً يزيد مع الاعوام وهم يستعملونه في الصباغة وفي عمل السكر ويملفون به انعامهم . والبعض منهم يحمّصون حبوبه فيجملونها بدلاً من القهوة (١) . وكذلك خشبه صلب مسطّ يصبر على الزمان دهرًا طويلاً فيُرغَب فيه . لذلك . وغاية ما يؤخذ على الخرنوب انه كالزيتون لا يأتي بشمره قبل سنته العاشرة . لكن هذه الصعوبة ليس من شأنها ان تمنع من غرسه . ومن نظر الى الربح العاجل فقدّ المكسب الطائفة الآجلة (٢)

ويوجد غير ذلك من النباتات التي تصلح للاراضي اليابسة نذكر منها شجر التين واللوز . ومن المعلوم ان ١٠٠ كيلو من التين اليابس ربما يبعث بائة فرنك اللهم اذا كان التين من الجنس الحسن وجعل في علب مكبوساً كما يصنع اهل ازمبر وهو من اكبر موارد الرزق لديهم (راجع المشرق ٧ : ١٠٦٠) فلو صرفنا النظر الى اثارنا لتجسين اجناسها وتهيئتها لزادت الرغبة فيها وأجدت باعتمها نقماً عظيماً

اماً اللوز فهو من الاشجار الوطنية (٣) التي لا يُنكر فضلها . وزراعتها اسهل من سواها في لبنان لأن شجر اللوز كازيتون واكثر منه ينمو في الاراضي القاحلة والتربة الكلسية ومعظم لبنان تركيبه من هذا الصنف . ثم ان الشجر لا يقتضي عناية خصوصية وثمره يبلاغ في الشجرة من ١٥ كيلوغراماً الى ١٠٠ ك ويباع باسعار حسنة فان مئة كيلومتره يُدفع فيها من ٤٠ الى ١٢٠ فرنكاً على حسب اختلاف الاجناس فيكون . مدّل محصول الشجرة بين ستة فرنكات وستين فرنكاً . وهذا ما ساق الشركات الاسرائيلية في سواحل يافا الى ان تُكثر من انصاف اللوز فيقوم منه غابات في بعض حدائقها . ومن خواص ثمر اللوز انّ تهيهته لا تستدعي شغلاً لنقله وهو يبقى زمناً طويلاً

وليس الامر كذلك في زراعة اشجار غيرها التي تسارع بعض الاهلين الى غرسها كالليمون مثلاً (٤) فكل يعرف فضل ليمون صيدا على البرتقال الياقوي وكثرة مائته

(١) راجع مجمع التوراة للاب فيكورو على لفظه « خرنوب » (ج ٢ ص ٢٠٨)
(٢) ومن اراد غير ذلك في هذا الصدد فليدرك كتاب الاديب ودع مدور (ص ٢١٣ و ٢٦٥ و ٤٢٢)

(٣) طالع كتاب جوريه (ص ٢٩٥)

(٤) راجع في المشرق (٦ : ٢٨٩) مقالة الاديب توما اندي كيال في برتقال صيدا

وطيب طعمه إلا أن يرتقال يافا اروج سوقاً عند الانكليز . والسبب ان ثمر يافا اغلظ قشرة فيبلغ انكاثرة وهو على حسن حالته بخلاف الليمون الصيداوي الذي يفسد في الطريق فيذهب رونقه . ولعل لهذا الداء دواء وهو ان يخصص الصيداويون قسماً من جناتهم الغناء للشكل اليافوي فيصددون هذا الصنف للبلاد الاجنبية . أما البلاد المجاورة او المتصلة بخطوط نظامية كمصر وسواحل الشام والاستانة العليسة وجنوبي روسية فيزودونها بشكاهم الوطنية . الطيبة لاسيما ان تربة صيداء تصلح لكل ضروب البرتقال ولاجناسه المختلفة . والمهم أن لايجري الاهلون على مألوف عاداتهم المخلة لان ملازمة الطريقة الواحدة تؤدي بهم الى خسائر جسيمة . ألا ترى مثلاً ان بعض المراكب قطعت سيرها الى صيداء وكانت قبل اربع سنوات في فصل الثمار تمر بها لنقل محصولاتها . فلما رأت كساد سوق ليدونها كفت عن المجيء اليها

ومن الزراعات النافعة الخطيرة الشأن شجر الشمس واشهر اصنافه صنفان معتبران هما الشمس الكلايبي تكون نواته مرة والشمس اللوزي حلو النواة . وهذا الصنف هو الافخر والالذ والفرق بينهما من حيث الثمن بعيد جداً إلا ان رغبة الفلاحين في الصنف الاول اعظم . وما هو ياترى سبب ذلك ؟ قلّة انتشار الشمس اللوزي . ولو اراد الزراع لامكنهم توفير الجنس الفاخر بعمليّة صغيرة سهلة جداً

*

ومحمل القول ان الفلاحة اللبنانية لم تنهض حتى الآن من خمولها . وكثيراً ما نحمل الشكاوى على الطبيعة او تركيب التربة او العناية الصمدانية ولو كنا من ذوي الانصاف لشكونا سهونا وغفلتنا . نعم انه لا يمكن استغلال الحبوب والبزور من اراضى محجرة او ماحلة . ولكن ما لنا لا نوجه هممتنا الى اصناف شتى . ترى أكثر اهل لبنان لا يهتمون إلا بالتوت ويكتفون بفرسه فقط كأنهم لا يجدون في سواه من الاشجار ما يقوم بجاجاتهم او لا يُرجمهم ارباحاً مثله واوفر منه لاسيما ان بعضها لا يقتضي كالتوت فلاحه كبيرة ولا ايتناء . سافات وسطوح تراب فاذا كان لدى الاهلين اصناف محتلفة زادت ايضاً ماتتهم وآمالهم . وعلى فرض ان صنفاً منها في بعض السنين لم يأت بالارباح المأمولة استعاضوا عنها بما يجدونه في غيره . وعلى هذه الصورة يقسم الفلاحون شغلهم على كل فصول السنة ولا يدعون قطعة من ارزاقهم دون فائدة

هذا وان قولنا السابق مبني ككُله على العلوم التاريخية والجغرافية والاقتصادية وذلك لا يمنع صرف النظر الى خبرة ارباب الزراعة ومراجعة الكتب الخاصة التي صنّفها العلماء في هذا الشأن مكرّرين الشناء خصوصاً على التأليف الذي وضعه الكتاب الضليع وديبع افندي مدور وقد استفدنا منه لتسطير هذا النظر في الفلاحة السورية . ونتمنى ان يعرّب قريباً لفوائده

١٧

ما فُقد في لبنان من قديم الحيوان

قد لحظ العلماء الباحثون عن طبائع الحيوان في الشرق انّ البلاد السورية غنيّة باصناف الحيوان بحيث ترى في القطر السوري مع قلّة اتساعه من سباع الحيوان والمواشي والدواب ما تجده متفرّقاً في اقطار عديدة ومناطق مختلفة من العلوّ . وهذا لعسري من المشاهد النادرة التي لا تكاد ترى لها شبيهاً اللهمّ الا في المنعطف الجنوبي من جبل حملايا اعظم جبال الهند بل اعظم اطواد المعمور . وانّما نجد تعليلاً لهذا الامر في موقع سورية وتركيبها الجغرافي فانك اذا استئذيت غور نهر الشريعة الذي هو اسفل من سطح البحر المتوسط باربعماية متر (وذلك امرٌ فريد ليس لمثله ثانياً في الارض) ثمّ نظرت فقط الى هيئة لبنان تذكّرت ما سبق لنا بيانه من ان هذا الجبل جامعٌ لخواصّ بلدان شتى متباينة كلّ تباين ومن ثمّ يصلح لان يكون مأوى لمواليده الحيوان المختلفة

على انّ غايتنا في هذه المقالة ان نقتصر على حيوان لبنان فقط وفي كثرة حيوانه ما يغنيننا عن ذكر بقية البلاد الشامية . لاسيّاً اذا اعتبرنا لبنان في ايامه القديمة اذ كانت ترّين قمره غاباً ثمة الكثيفة قبل ان تُقطع اشجاره وتُستبدل بالمزارع . فرأينا من ثمّ ان نوسط الكلام في قديم حيوان لبنان فنستقري الاصناف الحيوانية التي خلا منها الجبل مستندين في ذلك الى شواهد التاريخ الصادقة

*

الاسد ملك السباع فله السبق وبه نفتتح كلامنا . لم ينكر احد وجوده في بلاد

الشام وإنما ادعى المسيو ستايفر في كتابه المعنون «فلسطين في زمن المسيح» (ص ٢٢٥) انه لم يبقَ له من اثر في اوائل تاريخ الميلاد . وكذلك الدكتور هـ . پروتس (H. Prutz) قد زعم ان روايات كتبة الفرنج في القرون الوسطى عن الاسود من الاساطير التي لا يوثق بها (١) ويوافقه في هذا رأي الرحالة الشهير سيتسن (Seetzen II, 228) فان اعتبرنا بلاد الشام اجمالاً عثرنا على نصوص تثبت وجود الاسد فيها حتى في اوائل القرن السابق (٢) بل لا يُستبعد وجوده حتى اليوم في بادية تدمر (٣)

اماً لبنان الذي يهْمُنَا الآن اعتبره فان الشواهد على وجود الاسد فيه عديدة على اختلاف اطوار تاريخه . لا بل قد وجدت قبل طور التاريخ في آثار هياكل اسود كانت تأوي الى الكهوف (٤) . ومن شواهد الازمان التاريخية ما ورد ذكره في سفر نشيد الاناشيد حيث أُشير الى أسد لبنان عموماً وحرمون خصوصاً قال (٤ : ٨) : « انظري من رأس امانة من رأس سنير وحرمون من مرايض الاسود من جبال الثمور » وحيثما جاء في الكتابات الهيروغليفيّة قبل ذلك العهد ذكر « لنبانا » وهو جبل لبنان فان كاتبها يثبته كجبل ذي احراج متكاثفة لم يُمتنن بالتقطع تتجول فيها الضباع والذئبة والاسود . وكان الفراعنة اذا خرجوا الى مضاد سباع البهائم والاسد قصدوا لبنان او لحفه في سهول البقاع او سهول حمص ووادي العاصي حيثما كانوا يتصيدون الفيلة كما سترى

وكذلك ملوك بابل واشور فانهم بعد الفراعنة بقرون كانوا يجاولون قنص الاسود في لبنان . لنا على ذلك دليل محسوس في نصب اكتشفناه قبل بضع سنوات جنوبي غربي حمص على مسافة نحو عشر ساعات منها في سلسلة جبال متفرعة من لبنان يفصل بينها وادي خالد واسم الجبل أكروم . والنصب في وادي حرج حيث يسيل جدول ماء

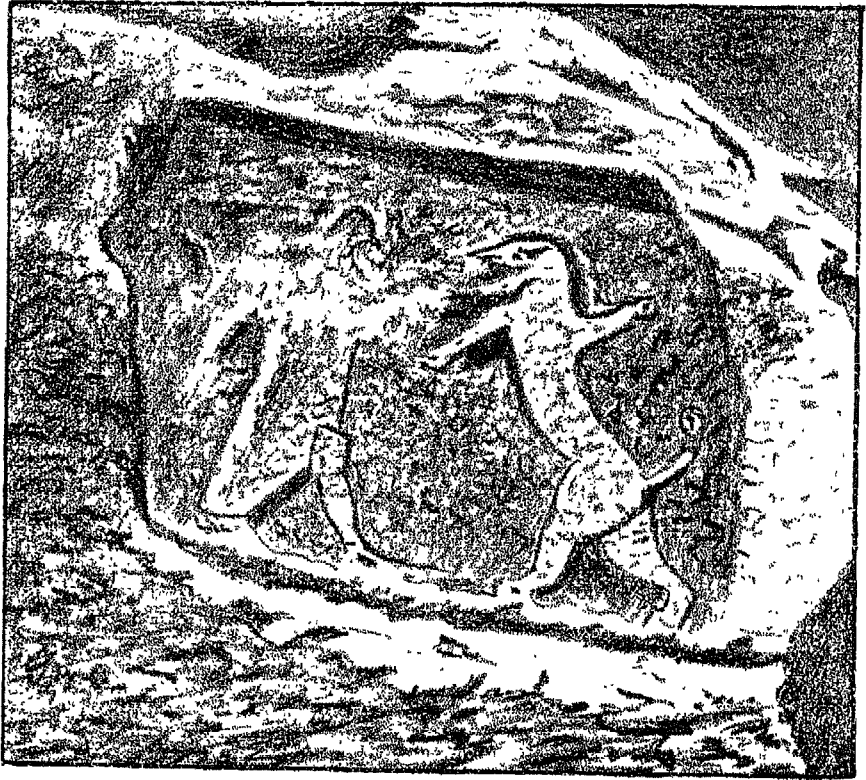
(١) راجع كتابه Kulturgeschichte der Kreuzzuge, p. 332

(٢) راجع الكتاب The City and the Land, 83 - وكذلك ورد في كتاب صبيح الاعشى للفاشندي ان الاسد كان موجوداً في القطر الشامي في عهد المؤلف اي في اوائل القرن الخامس عشر (راجع النسخة المخطوطة التي في خزنة كتبتنا الشرقية) (ص ١١٢٣)

(٣) راجع مجلة المالمين 11 Juillet 1897, p. 403 Revue des 2 Mondes,

(٤) راجع كتاب الاب زوفون اليسوعي (Esquisse géolog. du Liban, p. 65)

يُدعى نهر السبع شكله مربع تقريباً يبلغ قياس كل جانب من جوانبه مترين ونصف ترى فيه صورة أسدٍ يصارعُ رجلٌ (انظر الصورة) والمصارع منتصبٌ حافي الرجلين تراه يُقبض بيده شديدة فكَّ الأسد الواسع المنقر بينما هذا ينصب قائمته ليهجم عليه . وصورة الرجل مهمّسة ولا يُرى السلاح الذي كان في يده والمرجح أنه كان يسكّه باليمنى ومع خلو هذا الاثر من كتابة لا شك في أنه من مآثر الاشوريين (١)



صورة نصب أكروم

وقد اكتُشف ليس بعيداً من هذا النصب أثرٌ آخر يبيّن معناه والواقف عليه

(١) راجع كتابنا الذي عنوانه Notes épigraph. et topogr. sur l'Emésène, p. 49 etc. وللاب س. رنزال بحث في هذا الاثر الجليل نشره في المجلة الكتابية, (R. B.,

1903, p. 600-604)

هو المسيو پونيون فنصل فرنسة سابقاً في حلب وجده منذ نحو عشرين سنة في وادي بريسمة على مسافة نحو ساعتين من الهرمل في شمالها اعني في وسط لبنان . هذا الاثر عبارة عن صفيحتين نصبهما ملك بابل نبوكدنصر الثاني وعليهما كتابات مسمارية وضمن احدى هاتين الصفيحتين صورة كصورة نصب جبل اكروم تمثل صراع رجل واسد . وليس الرجل سوى ملك اشور بعينه كما يلوح من مضمون الكتابة . وذلك ان نبوكدنصر سكن برهة من الدهر في ربة وهي قريبة من الهرمل ومن جبل اكروم فلا عجب ان تكون الآثار المكتشفة في تلك الجهات ممثلة لبعض وقائع الصيد التي تولأها الملك الاشوري على مقربة من مقام عسكريه . وهذا دليل باهر على وجود الاسد في لبنان في القرن السادس قبل المسيح

وان تتبنا سياق الاجيال من بعد نبوكدنصر لان نجد شواهد واضحة على صدق مقالنا والسبب ان الكتبة اليرثان والرومان لم يرووا عن لبنان الا التزر القليل فلا غرو ان سكتوا عن مثل هذه الحقائق . ولا يتقنا مع هذا بعض الدلائل المشيرة اليها فمن ذلك اسم « اللبوة » وهي قرية شمالي بعلبك على مسافة اربع ساعات منها واسمها القديم كما في العربية لبوا (Liboa) يشبه اسم قرية بيت لبوت (بيت ذباوا) في فلسطين (١) وناهيك بهذا الاسم شاهداً على وجود الاسد في تلك الجهات عند سفح لبنان . ومثل هذا اسم مدينة ليونتوبوليس (Leontopolis) اي مدينة الاسود واسم نهر الاسد (Λέοντος ποταμός) وكلاهما على سواحل لبنان وان لم يتبين العلماء بضبط نقطة موقعهما . ولا بأس اذا قيل بان في اسميهما دليلاً على وجود الاسد بجوارهما في لبنان

وزد على ذلك نصوصاً وردت في كتاب فتوح البلدان (ص ١٦٧) للبلاذري تنبئ بوجود الاسد قريباً من انطاكية . وكذلك جاء في كتاب الاعتبار ان اسامة ابن مئذ كان يصيد الاسود في نواحي شير . ومن غريب الشواهد ما اثبتته فرسان الهيكل في قانونهم انه لا يجوز لهم الخروج الى الصيد ما خلا الاسود . وكان لهؤلاء الرهبان كما هو معلوم مراكز عديدة في لبنان (٢)

وما لا يترك شبهة في الامر خبر رواه صالح بن يحيى في كتابه تاريخ بيروت عن

(١) راجع معجم الكتاب المقدم في باب الاسد

(٢) راجع G. Schnürer: Die ursprüngliche Templerregel, p. 146, n° 46

بعض امراء العرب في القرن الرابع عشر للميلاد في قرية عرمون الداخلة اليوم في مديرية الغرب الاقصى من عمل الشوف. قال ما حرفة (ص ١١٣ من طبعتنا) :
 « ومن جملة مكابدهم معه (١) ان احدهم رأى اسداً قد تطرّق اب بعض الاماكن القريبة فحضر عند زين الدين بن علي وقال له ان دباً مجاوراً للمكان الفلاني (يريد مكان الاسد . وكان توجهه بالدب عن الاسد غروراً بزین الدين وطعماً ان يحدث له الاسد حادثاً) فتوجه زين الدين ليلاً الى المكان الذي قيل له انه ولم يصحب معه احداً ومعه قوسه فكمن هناك فلما مر به الاسد علم انه مغرور بالقول الذي قيل له ورى الاسد بسهم واحد معتمداً على بيت القلب فمات الاسد منه . وعاد زين الدين الى منزله وعند الصبح ارسل الى من اخبره انه دب يقول له : اذهب واثت بالدب الذي قلت عنه فانه مقتول بالمكان الذي ذكرته . قال ذلك متحكماً »

وهذه بيّنة واضحة تدل على وجود الاسود في جهات الغرب في القرن الرابع عشر وعلى الاقل بعض الافراد منها . وانما توارت الليوث بقطع الاحراج من الجبل وانتشار زرع التوت لصناعة الحرير
 اما الاسد السوري فكان جنسه قائماً بذاته وكان اصغر قامة من اسد افريقية واضعف منه قوّة وكانت لبدته صهباء يخالطها شعر ارم (٢) وهو كالنوع الفارسي (leo persicus)

*

قال حضرة الاب زموفن (٣) : ليس لفيثية انهار وسهل كافية لمراعي كبار الحيوان ذوي الجلد الغليظ (pachydermes) ومن ثم لا يُنتظر وجود هياكل حيوانات خيطومية قديمة . « لكن الكاتب عينه قد اردف هذه الاسطر بقوله انه وجدت في الكهوف السابقة اطوار التاريخ في لبنان بقايا عديدة من هياكل الكركدن (rhinocéros) الذي يجانس نوعاً آخر قديماً يدعى تيكورينوس (tichorhinus) كان يرافق جبار الحيوانات المعروف بالتموث »
 وفي مقالاتنا السابقة عن مياه لبنان (راجع ص ١٢٣ و ١٢٥ و ١٢٨) اثبتنا

(١) يريد بني ابي الجيش المادين لزين الدين بن علي امير العرب
 (٢) طالع ، Dictionnaire de la Bible ، 78 ; *Hebraeische Archeologie* ، Nowack :
 art. Lion
 (٣) راجع كتابه ، *Esquisse géologique* ، 65

بعض الدلائل التي يمكن ان يُستدلّ بها على وفرة المياه الجارية سابقاً من عيون لبنان وانهارها. وكان ينتج عن هذه المياه الحجرية تساعد على نموّ المزارع وخصب المراعي التي تحتاج اليها هذه الحيوانات لاسباب معاشها ووجود الفيل في لبنان امرٌ ليس تحتَهُ ريب تُقرّر صحته الدروسُ الشرقية. روى المسيو مسيرو في تاريخ الشعوب الشرقية القديمة (ك ٢ ص ٢٦٥) انّ الفرعون تحوتس الثالث لما عاد ظافراً من ضفة الفرات نزل في نِي (Nii) التي نظّمها افامية الموافقة للضيق حيث تستمتع مياه العاصي في سهول واسعة كثيرة الادغال كثيفة الاعشاب. وكان هناك فيلة عديدة فاراد الفرعون ان يلتهي بصيدها فوكل الى جنوده بان يجدقوا بالسهل لئلا تغلت الفيلة من الصيد فكان عدد القتلى ١٢٠ فيلاً نقل عاجها الى مصر (١) فكفى بهذا العدد دليلاً على وفرة ذوي الخرطوم في سورية

ثم انّ في الآثار الاشورية ما يزيد على هذا دليلاً. قيل انّ العاج كان من جملة الجزية التي اداها الملوك نينوى اهل بيت عديني وباطناي وهو يوصف كمحصول بلدي. اما موقع هذين البلدين فانه كان في شمالي سورية في ما يوافق حالياً ولاية حلب. وكذلك يفتخر المكان الاشوريان تغلات فلاسر الاول واشور بانيبال بانها قتلا في تلك الجهات عدداً عديداً من الفيلة واسرا منها بعضها فنقلها الى حاضرة مآكها وكل ذلك دليل لامع على وجود الفيلة مهملّة وحشية في بلاد سورية (٢)

اما داخل لبنان فليس لدينا شهادة جليّة على كيان الفيلة فيه اللهمّ الا بعض الاسماء كسنّ الفيل لقرية بجوار بيروت وخرطوم لضبعة في بلاد الشقيف لكنّ اشتقاق هذين الاسمين يمكن شرحه على غير طريقة. وعلى كل حال لما كان وادي «ني» اي افامية السابق ذكره ملاصقاً للبنان يمكن القول بانّ فيلته كانت تصعد الى رأس العاصي في البقاع. فانه لمعلوم انّ الفيل الوحشيّ يقطع المسافات البعيدة انتجاعاً الحراعي. وكانت حالة بلاد البقاع في ذلك العصر كحالة بلاد افامية. وكانت السهول المتوسطة بين لبنان والجليل الشرقي يتغلب عليها البحيرات والمستنقعات وتكثر فيها

(١) راجع ايضاً تاريخ مسيرو في الصفحة ١٨ ومعجم الكتاب المقدّس في مادة «فيل»

(٢) راجع كتاب حضرة الاب ديلاتر اليسوعي L'Asie occidentale dans les

المروج الحصبية . ولا شك ان بعض هذه الحيوانات كانت تتردد الى جهات بحيرة حمص وعيون العاصي المتبعة قريباً من هرمل فكانت تتوغل في الغابات الكثيفة النامية في منعطف لبنان الشرقي لا سيّما عندما اخذ عدد السكّان ينمو في وادي العاصي فاضطرتّ الفيلة ان تهرب وتطلب لها مأوي هادية امينة

اما منعطف لبنان الغربي فلتوفر سكّانه كانت احواله قليلة المناسبة لعاش هذه الحيوانات المحبّة للعزلة الا في القرون الغابرة قبل منشأ المدن الفينيقية الكبرى كطرابلس وبيروت وصيدا . اذ كانت السواحل مقاماً لبعض اكواخ الصيادين . فلا بأس ان يقال انّ الفيلة كانت تطوف وقتئذ غابات لبنان الساحلية قريباً من الاسود والدببة وانّ بعضاً منها قدمت من وادي العاصي فتبعت وادي النهر الكبير وجاءت ترعى عند شواطئ البحر وترح في نهر ادونيس وفي نهر بيروت والدامور اذ كانت مياه هذه الانهار اوفر منها في عهدنا تتدفق في السهول القريبة من مصبها وتخصبها بمساقطها . بيد انّ نمو السكّان لم يلبث ان يلجئها الى الهرب من وجه الانسان طلباً للامنة الموفرة في شمالي سورية او بلادها المتوسطة

ثم زادت عليها المخاطر في تلك الاقنار ايضاً كما رأيت في ذكر صيد تحوتس الثالث ومنه يستنتج ان الفيلة توارت بزمن قليل وباد جنسها في بلاد الشام . واذا تصفحنا تاريخ ملوك اسرائيل في عهد سليمان لم نجد ذكراً للفيلة الوحشية . واعلمها كانت تناءت الى جهات الشمال حتى بلغت وادي الفرات وسواعده وهناك كان يتصيدها ملوك اشور اذا ارادوا صيد الفيلة كما اولعوا بصيد اسود لبنان وفقاً للشواهد الواردة في انصاب وادي نهر السبع ووادي بريس

وتما وجد ايضاً في لبنان من الوحوش المفقودة البقر الوحشي (aurochs) تعيده الملك الاشوري تغلات فلاسر الاول في القرن السابق لعهد داود (١) كما ورد في الكتابات السامرية . ووجوده في لبنان مقرر ثابت . لانه لا احد ينكر وجوده في بقية جهات سورية وعيشته بين احراج لبنان انسب لطبائه

ان وجود حيوانات كبيرة كالاسد والفيل في لبنان كان من شأنه ان يجعل لغاباته

هيئة غير مألوفة ولا مألوفة ومن ثم نفهم لماذا كان يشمل الرعب عند قطعها قدماء المصريين الذين كان يسوقهم الدهر او طلب الارتاق الى المرور بها . فكان الرجل من وادي النيل أليف الاماكن المنبسطة والمناظر المنكشنة في بلاده اذا قصد الاقطار الشامية يوصي بماله لاهليه لحزفه من السباع (١) فلم تكن سوربة في عينه سوى غابة سوداء اجتمعت بها افواجا وزرافات اصناف الحيوان الضارية كالاسد والنمر والفيل واشباهها

*

ولم يكن مشهد الحيوان في مياه الانهر والبحيرات باضعف حركة منها في الصحراء والجبال فكان يلعب فيها فرس الماء ويعبث التمساح وقد وُصف ذلك في سفر ايوب وصفاً بديعاً فائضاً في الشعر بالغاً في التأثير فنها بهموت ولويانان في نص المؤلف الالهي (٢) وقد ارتأى قومٌ من مفسري الكتاب المقدس ان واضع سفر ايوب اخذ معلوماته عن مصادر مصرية في وصف هذه الحيوانات المشتركة العيشة بين البرّ والماء . واما نحن فعندنا وجه اسهل لحلّ هذه المسألة فلم يكن من حاجة لأيوب ان يتعد عن سوربة لوصفها اذ كانت هذه الحيوانات موجودة فيها منذ ذلك الحين البعيد العهد

واعلم ان وادي الاردن من غريب ما شوهد على سطح الكرة بوضعه الطبيعي وتركيبه الجغرافي بحيث يتمثل العين المنخفضة يبلغ عمقه عند منتهاه (عند بحر لوط) زهاء ٤٠٠ متر دون البحر المتوسط ففي هذا الغور الذي لا مثيل له في الدنيا يسود حرٌ شديد ابتداءه في اوائل ايار فيتراوح وقتئذٍ ميزان الحرارة في النهار بين ٤٠ و ٥٠ درجة من ميزان سنتغراد وينشأ في تربة ذلك الوادي الحارة نبات اشبه بنبات خطّ الاستواء في افريقية لا يشبه نبات سوربة و فاسطين بشي

فعلى شواطئ بحيرة الحولة تنمو طاقات البردي الحضره حتى يومنا والبردي نبات كان قديماً زينة مصر ومجدها ولا يرى منه الان في كل وادي النيل اللهم الا في بلاد السودان الجنوبية . واي عجب اذا وجدنا بارض تشبه ارض افريقية بتربتها الحارة

(١) راجع Maspéro : *Histoire ancienne*, II, ١٧

(٢) سفر ايوب (ف ٤٠ و ٤٢)

ونباتها الخاص ما نجده من الحيوان في قارة افريقية . وهذا ما كان بلا ريب في عهد ايوب فتمتخيل عهدئذٍ بحيرة الحولة تحرك مياهها التماسيح والافراس النهرية وهي ترح بين غياض البردي فايوب حسب التقاليد قطن حوران وتساكن ناحية جولان فلا غروا اذا ما شاهد من اعالي شرفات هذا النجد المطل على الحولة والاردن حيوانات البر والبحر العظيمة ووقف على احوالها دون ان ينحدر الى مصر . على ان فرس الماء في الوقت الحاضر قد خلت منه نواحي الشام ولم يزل فيها التماسح وهالك البرهان :

ذكر بطليموس وبلين واسطرابيون مدينة بجانب الكرمل اسمها مدينة التماسح (Crocodilopolis) (١) وقد اتى باين (٢) فوق ذلك على ذكر نهر بهذا الاسم في تلك الحدود وهذا النهر العميق الماء الحامد الحركة يُظنُّ به عموماً انه نهر الزرقاء المجاور قيصرية شمالي هذه المدينة وهناك يتكوّن منه مستنقع غريب المنظر ويدعى حتى اليوم باسم يعبر عن حقيقة حاله اي مستنقع التماسح وعلى حافته تنمو بكثرة غياض البردي وغيره من الشجيرات فاسم المدينة واسم النهر يسوّغان لنا ان نحكم بوجود تلك الزخافات فيهما في غابر الزمن على الاقل فضلاً عمّا لدينا من الشهادات الحجة قديمة وحديثة تبين نفس الشيء باستفاضة لا تبقي في العقل شكاً . . .

ففي الجليل الحادي عشر ذكر الجوّالة الفارسي نصري خسرو جنوبي الكرمل وادي التماسيح (٣) . وشهد على مثل ذلك في الجليلين الثالث عشر والرابع عشر مارين سانوتو وجاك دي فيتري . فالثاني يقول : التماسح موجود في نهر قيصرية وهو يفترس الانسان والحيوان وطوله في الغالب قدر عشرين ذراعاً (٤) ولأ تزل ريكاردوس قلب الاسد ملك انكلترا عند نهر الزرقاء افترس التماسح اثنين من جنوده (٥) . ويقول برخارد الصهيوني المنتمي الى رهبنة مار عبد الاحد والذي تجرّول في سورية في اواخر الجليل الثالث عشر : ان التماسيح كثيرة في بحيرة قيصرية وانه لم يفلت هو من شرها الا باعجوبة

(١) راجع Strabon : Geogr. XVI

(٢) Plin. : Hist. natur. V, XVII

(٣) راجع الترجمة الفرنسية لشيفر (Schefer)

(٤) راجع Gesta Dei per Francos (ص ١١٠٣)

(٥) راجع Histoire de la guerre sainte (éd. Paris) ص ٥٢٦

وقد قال قوائمه من بعده كثير غيره من زوّار الارض المقدّسة غير أنّنا لا نورد
اسماءهم لانهم رُوّاة يروون ما سمعوا وليسوا شهود عين يحكون ما نظروا اللهمّ ألا
بوكوك الانكليزي سنة ١٧٧٣

*

هذه شواهد الماضي وأما في الحاضر فلدينا اصرح الادلّة واصدق الشهود عن وجود
التمساح في الزرقاء بل وفي غيره من مياه فلسطين
فالاحاديث المقلّبة والاسانيد الرويّة عن نهر الزرقاء يبلغ عددها الى ما لا يحصى
ينتهي وأولهم المرسل الاميّركاني تومسون الذي كتب سنة ١٨٥٧ (١) ثمّ العلامة
بياروتي (Pierotti) مهندس ولاية القدس وقد عثر في سيره نحو منبع الزرقاء على
بقايا سلخ تمساح اخضها بقايا الرأس (٢) وفي سنة ١٨٧٧ قبض الالمانيون في حيفا
بالموضع نفسه على انثى التمساح (٣) وقد تعدّد مثل هذه الاكتشافات في السنين
الخمس والعشرين الاخيرة. وفي سنة ١٨٩٣ وجدوا فيه هيكل تمساح وست بيضات
فخشي الهيكل بالتين وأرسل الى القدس
وأما البيض ففقتت واحدة منها وأرسلت واحدة الى العلامة صموئيل ميريل
قنصل اميركة في اورشليم وبُعث بالأخر الى باريس (٤) فهذه الاكتشافات المتعدّدة تدلّ
على أنّ التمساح يعيش ويتناسل في بطاح نهر الزرقاء. وغدرايه إلا انه ليس بكثير
التناسل لأنّ سطح الارض الذي تنعمره الاغدره لا يباغ عشرة هكتارات
وهذه الزخافات موجودة في غير اماكن من فلسطين ففي السهل الكثير الرمل
المدقع ذي الكثبان المتعدّدة الممتد بين حيفا وعكّا مصب نهر المقطع المعروف عند
الاقدمين باسم قيسون فهذا النهر تغزر مياهه عند آخر حدوده على مسافة ثلاثة الاف

(١) راجع The Land and the Book (ص ٤٩٧) . ثمّ ZDPV, XIII, 340

(٢) راجع مقالة التماسيح في فلسطين للاب دي سنت ايزان (de St Aignan) ص ١٠

(٣) اطلب دليل بيدكر الطبعة الرابعة الالمانية (ص ٢٦٥) ولورته (Syrie d'aujourd'hui ص ١٧٤)

(٤) راجع المجلة الفلسطينية الانكليزية (PEF) سنة ١٨٩٣ (ص ١٨٣ و ٢٦٠)

عن البحر لأنه لا يصادف هناك الحداراً كافياً وتنتصب في وجهه الرمال المتكونة - مصبه فتتحول الحواجز بينه وبين البحر فيستنقع السهل وتتسع مستنقعاته وينبت بها النباتات وتنمو فتتشبك سبلها ففي سنة ١٨٦٩ ارتاد الجوّالة الانكليزي مالك يكتور على زورق غدران نهر المقطع ومجراه الاوطأ فطلع عليه بغتة من الماء تمسح اذ يقرب الزورق فاذهله ما اتفق له مما لم يكن في الحسبان فرغاً بقاربه الى الشاطئ صر عليه آثار تماسيح متعدّدة - وقد التقي مرة ثانية في تلك النواحي بهذا الحيوان ثل الذي لم يعد من سبيل اللارتياب بوجوده في نهر المقطع (١٠) وحتى اليوم لم تكشفوا على شيء منه في بحيرة الحولة ولا في بحيرة طبرية وفي حكمنا انه كان مهما قديماً ونزج وجوده في نهر الشريعة اليوم

ومما يجعلنا على هذا الترجيح ما جاء في رحل الزوّار الاقدمين من القصص لاختبار عن نكبات بعض السواح ممن ذهب بهم التماسح عند استجمامهم في اردن

وبعض حوادث اقرب عهداً تريدنا في الامر صدقاً الى اليوم ليس من حادث اكتشاف في الاردن كما في الزرقاء والمقطع مما يأنزه الحقيقة عن كل ريب وذلك أتت عن عمر سبر الاردن في مجراه الاسفل (٢) ولعل التماسح موجود في النهر خضر جنوبي قيصارية كما وفي غيره من مياه تلك الناحية . وفي رأي العلامة لورته بي فحص تمساحاً محشواً (مصبراً) ان تمساح فلسطين يختلف نوعاً عن تمساح يل (٣) ومن المقرر الثابت ان تماسيح فلسطين اصغر جداً ولا يزيد طولها على متر صف ولا بأس منها الا على المواشي فتفتك بها احياناً

*

وانما الصعب في هذا بيان طريق وصول هذه الزحافات الى الاقطار الشامية . بي اصابة ووطنية ام نقلت من خارج . فالرأي الاول قريب من الصحة على ما نرى

(١) راجع كتاب « ماك كريكور » المعلنون (The Rob Roy on the Jordan, 398)

(٢) راجع مقالة الاب دي سنت ايان (السابق ذكرها

(٣) راجع كتاب الدكتور لورته (Syrie d'aujourd'hui)

وهو رأي العلامة لورته الذي ينكر كون اصلها من مصر . فالواضع التي ثبت بها وجود هذا الحيوان في فلسطين تشبه مصر بنوع نباتها فان كانت الوردات واحوال الجو والهواء واحدة في القطرين فلم لا يتشابهان ايضاً بنوع الحيوان . فلا شيء اذن يحول دون وجود التمساح بل كل شيء يدعو اليه . على ان بعض العلماء يستصوبون القول بنقل هذا الحيوان الى فلسطين ورأيهم ان المصريين نقلوه اليها . ونحن نعلم ان فلسطين كانت جيلاً طويلاً في حكم الفراعنة فلا يبعد ان يكون من اقام في هذه البلاد من المصريين قد احبوا جوار هذا الحيوان الذي هو من معبوداتهم فاستصوبوه

ومما نعلمه ايضاً ان رمسيس الثالث بعث بالتامسيح وافراس الماء هدية الى تغلات فلاسر ملك اشور (١) وربما وصل التمساح الى فلسطين لحادث نظير هذا وهما يكن من امر هذه التأريلات والايصاحات فقد تقرر لدينا وجود هذه الزخافات في كثير من مياه فلسطين الشمالية وكل شيء يحلمانا على التسليم بانها كانت اوفر عدداً في الازمنة العريقة في القدم وسواء كانت اصلية ام منقولة فقد توالدت وانتشرت على وجه القطر

ولا يصعب علينا القول انه في عهد ما كان الفيل محبوب احراج لبنان كان التمساح يعبت في مياه الجبل ومستنقعاته كالميطاني القريب من بحيرة الحولة والاردن وقد كان بلا ريب وافر العدد فيهما قديماً على عهد ايوب البار . انما غوى العمران واتساع الزراعة وامتداد المساكن اصبحت بعد ذلك ضربة قاضية على وجودها في تلك النواحي الندية . ولم يكن للفينيقيين حاجة في عبادتها كالمصريين ولا بد انهم بذلوا المجهود في استئصال شافة تلك الجيرة المؤذية او في حملها على المهاجرة الى جهات اعرق في الجنوب حيث نجد منها بقايا في أيامنا

المعادن في لبنان

نقسم كلامنا في المعادن اللبنانية الى قسمين . فاننا نبحث أولاً عن احوالها
الحاضرة ثم نستقري الشواهد التاريخية

١

حالة المعادن حاضراً

كلامنا في هذا القسم عن ثلاثة امور : اصناف الوُوقود ثم المناجم المعدنية ثم
الحجارة وانواعها

اولاً الووقود

١ فلنباشرن بالفحم الحجري الذي نال في علم المعادن واعمال الصناعة مقاماً
راجحاً لا يحتاج الى بيان . ان الذين بحثوا في بلادنا عن طبقات الارض وتركيبها
مجمعون بان سورية خالية من الفحم الحجري (houille) ولا يخرج لبنان عن هذا
الحكم العمومي . على ان في هذا الجبل طبقات من القِصَّة (grès) تتضمَّن
مستودعات عديدة من الفحم الحشبي المتحجر (lignite) غير كامل التفحم لكنها
بلغت في نموها ما هو كافٍ لاستثمارها

وهذه الاخشاب المتحجرة على ضربين . فمنها ما تظهر فيه تقاطيع الحشب وهو
الحشب الحُمري . ومنها ما استفحم الى ان فقد تماماً أثر النسيج النباتي . وهذا
الصنف الثاني يكون فحمه اسود كالقير لامعاً وقريباً من الفحم الحجري . واغلب
المناجم التي تُرى فيها هذه الاخشاب المنحجرة ينتج فيها البيريت (pyrites)
الابيض (وهو مزيج الكبريت بالحديد) مع الصلصال ويصعب فصلها عنه وهما
يجملان هذا الووقود غير صالح لاعمال الصناعة . وزد على ذلك ان فحمها اذا تكسَّف
للهواء لا يلبث ان يتثقت وتعلوه قشرة من عنصر الشب . ومستودعات هذا

الحشب المتحجر في الجبل هي في الغالب قليلة الاتساع لا يتجاوز عمقها مترين . أما مواقعها في لبنان فدونك ما يستحق منها الذكر مباشرة بنواحي الجبل الشمالية شاع ان في قائماتية البترون قريباً من بشرأي منجماً من المستحجرات الحشبية . وليس لدينا شيء من الاعلام الدقيقة في هذا الخصوص فنكتفي بالإشارة . أما جهات لبنان الجنوبية فعندنا من الايضاحات ما هو اوفى بالمرام فان في المقاطعة الكسروانية في قرطبة وميروبا والمنيطرة مناجم متعددة من الحجر الحشبي كان يهتم باستخراجها اصحاب العامل الحريرية ولعلمهم يستثمرونها حتى اليوم . أما منجم ميروبا فلولا بعده عن المراكز الكبرى لصلح للحاجات البيئية وناب مناب ضروب الوقود

واشهر طبقات الفحم الحشبي المتحجر في قرنايل من مقاطعة المتن وقد صار الاعتناء باستخراجه من سنة ١٨٣٥ الى ١٨٣٨ تكن قيمة هذا الفحم كانت ارفع من فحم انكارتة بعد نقله الى بيروت . وكانت علّة هذه الاسعار الفاحشة قلّة وجود اسباب المواصلات فيحتاج الى الدواب لنقل ما يُستخرج من المناجم . ولولا هذه الصعوبة لاضحى هذا العمل رابحاً لأن اربعين معدناً فقط كانوا يستخرجون من هذا المنجم مئة قطار في اليوم . والفحم جيد رغماً عن انقطاع طبقاته وتجدداتها . وهذا المنجم قليل السعة وسكك لا يتجاوز متراً

وفي المتن الاعلى مناجم فحمية أخرى متعددة يستفيد من بعضها ارباب العامل الحريرية المجاورة . منها منجم مار يوحنا الا ان اختلاط فحمه بالكبريت والحديد يصد عن استعماله . وفي فالوغا منجم آخر يوجد فيه جذور شجر تحولت الى هذه العناصر الغريبة فاذا انكشفت للهواء صارت فتاتاً بعد قليل . وفي بزبدين منجم ثالث ليس بندي شأن

وهذه المناجم الفحمية يصعب استثمارها لقلّة اسباب المواصلة ولبعدها عن المراكز الكبيرة فضلاً عن كونها قليلة العمق ضيقة النطاق تكثُر فيها المواد الغريبة التي لا يمكن إفرازها الا بعد النفقات الباهظة . فهذه العوائق كلها تقوم في وجه العمل وتريد في صعوبته وتقلل ارباحه المأمولة

وخلاصة القول ان طبقات الفحم المتحجر السابق وصفها لا يمكن تعدينها وإنما

يجوز استخدامها للمعامل الصناعية الصغيرة والحاجات البيئية بشرط ان يُختار منها
أجودها وتُنقى تنقية حسنة من موادها الغريبة

*

وان اعتبرنا قائماتية جزين وجدنا مناخها الفصحية في حالة اصلح وان عدت
ايضاً الوسائل الجامعة بينها وبين المراكز الكبرى حيث يمكن بيعها . نعم ان صيداء
اقرب الى جزين من قرنايل الى بيروت ببعض كيلومترات لكن صيداء مركز قليل
الشان فتكون قطعيتها لهذا الفحم زهيدة

وهاك ما يُعرف من طبقات الفحم الخشبي المتحجر في قائماتية جزين :

اذا خرجت من صيداء في وجهة الجبل رأيت بازاك على حدود الافق من جهة
الشرق جبلين تنتصب قتهما على شبه المخروط مع استدارة قليلة كان ارباب البحر
لغرابة شكلهما يستدلون بهما الى موقع صيداء قبل شيوع السفن البخارية . والقمتان
قريبتان لا يفصل بينهما الا مهبط قليل العمق فدُعيتا لهذا السبب بتومات نيحا او
بالتوامات . وكان الاولى بان تُدعى بتومات جزين لوقوع جزين عند سفحها . فان
غلب اسم نيحا فذلك على رأينا دليل على خطر قرية نيحا قديماً . ومن زار هذه
القرية تحمق صحة هذا القول لاسيما اذا رأى على مقربة منها تلك القلعة المنقورة في
الصخر الشهيرة بشقيف طيرون او بقلعة نيحا وقد سبق لنا وصفها (١)

ويتشعب من تومات نيحا غرباً من جهة البحر شعب تُرى فوقها جنوبي جزين
مناجم من مستحجرات الفحم الخشبي يزيد هنا وصفها . ولا يخرج من دائرة الجبل
الغربي سوى منجم واحد يُرى على وجه الارض طوله ٥٠٠ متر وارتفاعه ٨٠٠ م بين
قريتي مشعرة ونيحا اعني في منجدر تومات نيحا الشرقي

فان اعتبرنا اذن المنعطف البحري وجدنا موقع اول منجم فحمي على مسافة ١٣
كيلومتراً فقط من صيداء . وفحمه شديد الحلكة لامع ذو قطع جامدة يكسر كسراً
ولا يتفتت وهو على وجه الارض يعاينه الناظر في وادٍ صغير قرب المراح في علو يختلف
بين ٧٥٠ الى ٨٠٠ م وهو يتصل بعين الثغرا فوق الوادي الى حد ٩٠٠ متر . وان سرت

من ثمّ الى جهة الجنوب امكنك ان تتبّع آثاره متواصلةً بين قريتي خرنياً وزحلماً على طول ١٢٠٠ متر وهناك لا يعود يُرى على وجه الارض غير انّ الصاصل المختلط بموادّ فحميّة ويشستية (schiste) يدلّ على وجوده في مسافة نحو كيلومتر . وفي بعض الانحاء قد استخراج منه الاهاون بعض القناطير ولم يحفروا في عمق . يتجاوز سبعة امتار .
 امّا سمك هذه المناجم فيتراوح بين ٥٠ سنتيمتراً و ١,٦٠ . وهذا ممّا يدلّ على قلّتها
 وعلى مسافة نحو ٣٠٠ متر شمالاً من عين الثغرا حجارة من الشست حجريّة تمتدّ
 بين طبقتين من الحجارة الكلسية وتحتهما طبقة من الفحم الحشبي المتحجّر . سمكها
 يختلف بين ٧٠ سنتيمتراً الى ثلاثة امتار ونصف وامتدادها يبلغ زهاء . الف متر
 وكذلك قرب الطريق المؤدية من حيطورة الى جزين طبقات أخرى من الشست
 المزوج بالحجر يراها الراي على طول امتدادها تقريباً ثمّ تتوارى تحت قرية
 زحلماً وعمقها في بعض المواقع يبلغ من اربعة الى خمسة امتار . ومعدّل ثخانتها اربعة
 امتار واستخراجها لا يستدعي شغلاً كبيراً . وهذا المنجم لا يغطيه سوى غشاء خفيف
 من التراب ويمكن تعدينه من الخارج دون فتح اسراب . وصلاحيته في الغالب
 استخراج غاز التنوير منه

من المقرّر ان اهمّ مستودعات الفحم الحشبي المتحجّر في قائمقامية جزين واقع
 جنوبي غربي حيطورة على مسافة عشرين دقيقة منها وصاحب امتياز المنجم سعادة
 المركز موسى دي فريج ومسافة ارض الامتياز زهاء . مائتي هكتار
 فمن التفاصيل التي نوردتها وابجائنا السابقة تعرف ما يمكن استثماره من
 مستحجرات لبنان الحشبية . فالمنجم القريب من حيطورة لا تظهر آثاره على وجه
 الارض الا في بعض الانحاء . ومستودع الفحم محصور فيه عادةً بين طبقتين من صلصال
 صلب خشن قليل السمك ويختلف سمكه بين ٦٠ سنتيمتراً وثلاثة امتار فيلزم قبل
 تعدينه إزالة ربع التربة او ثلثها لاحتوائها على مواد غريبة غير صالحة كتقاطع
 الشست الاسود الصلصالي المزوج بالحديد والمحتوي على قليل من الفحم
 وبعد هذا العمل الاستعدادي يتوصل الى الفحم الحشبي الحقيقي وهذا الفحم
 يختلف نوع تركيبه فهو سريع العطب في بعض الانحاء فيتفتت بسهولة وفي غيرها
 حالك لامع كيف وكلا النوعين من الوقود الجيد

أما طبقة الناحية الغربية فانها تتخذ خواص البيريت لقرابها من مستودعات هذا المعدن وفتحها محطط بتقاطيع البيريت الذي يبلغ سسكته بعض مليمترات ولهذا السبب لا بد من تنقيته تنقية حسنة واطراح كمية وافرة منه مع انه من نوع الوقود الجيد - فكل ما اوردها يستلزم زيادة النفقة في استخراجها

ومما يلزم تلافيه في هذه الناحية تطاير روح الزاج المتكاثر والسبب عن ضغط طبقات الردم المعرّضة لحرارة الشمس الا انه يمكن ملافاة الامر ذلك بتشييد الاتاتين في معامل التعدين

على ان مناجم حيطورة بل اكثر مستودعات الفحم الخشبي المتحجر في لبنان تتضمّن شيئاً من العنبر المعدني الذي يتولد من صمغ الصنوبر والسرو واشباها . فهذا العنبر اصفر كالشمس لامع ومكسره زجاجي شفاف واذا تكشفت كسره للهواء تفتتت

أما طرق استثمارها فالطريقة المستعملة الى اليوم في منجم حيطورة هي الحفيرة ولا بد من فتح اسراب معها فهذه الطريقة تمكن مع بعض ضربات في اللغم من البلوغ الى عمق ٥ امتار وفي استعمالها ربح لان نفقة الاستخراج لا تتجاوز فرنكاً و ٥٠ س في الطن . ولولا ارتفاع اجرة النقل لكانت زيادة التعميق في الحفر تزيد في الربح

غير ان المنجم في الجملة يسهل طرق الاستثمار بواسطة الاسراب او الدهاليز فالمعدن بالاجمال قليل الانحاء فتنبص منه المياه اذ ذاك في الدهاليز وهذه تصبها في المسيل المجاور ولا يحتاج لتجديد الهواء وجلبه الى القوّات المحركة وبما ان ليس فيه من الصخور الصماء الصلدة فلا حاجة الى استعمال قوّة خارقة كالديناميت . فبعض دفعات من البارود في اللغم تكفي لرفع الطبقة الخرفية الموجود فيها الفحم المطاوب ولا يلزم لهذا الفحم الا استعمال الآلات المعتادة كالحفر والمعل فلا يقتضي اذن لهذا العمل نقابون مخصوصون وكل هذا ممّا يخفف النفقة في استخراجها

*

فبقي علينا ان نبحت عن المحصول . فبحساب بسيط يمكننا ان نقدر بالتقريب مقدار المنجم جملة اعني مقدار المحصول الصالح للوقود الممكن الانتفاع منه مباشرة وهذا امر ذو اهمية كبرى وبدونه لا يكون لتفاصيلنا السابقة الا فائدة نظرية . فتحت

موقع المنجم مباشرةً ببعض امتار عن سطح الارض ترى طبقة بسبك ثلاثة امتار ونحن نكتفي بتعديل مترين وتزيد على ذلك بان طرح مسترًا آخر وهذا كثير — بسبب انكسب العقيم والفحم المزوج بالمواد الغريبة التي تقلل صلاحيتها للاستعمال ومن بعد تنقية المستخرجات الحجرية وطرح العناصر الغريبة اذا قدرنا مساحة المنجم الصالح للمدين ١٠٠ متر فقط يمكن استخراج حجم من الفحم قدره ١,٠٠٣,٩١٦ مترًا مكعب والحال قد شوهد في العمل ان المتر المكعب من الفحم الحشبي المتحجر وزنه زهاء الطن فتكون كامل الكمية بوزن ١,٠٠٣,٩١٦ طنًا فلو فرضنا استخلاص ١٠,٠٠٠ طن في السنة فيدوم عمل التعدين ٨٠٠ سنة

فاذا كان الى الان لم يُبذل الجهد في استخراج منجم حيطورة مع وجود الظروف الموافقة فسبب ذلك بلا شك العوائق التي اتينا على ذكرها مرارًا والتي تحول زمانًا طويلًا دون الانتفاع من كنوز لبنان المعدنية التي على قلتها لا يسوغ لنا ان نستخف بها وزد على ما ذكرنا المبارة الاجنبية التي يبقى اثرها الى احيال عديدة فيلزم ان نضيف الى مناجم اوربة والعالم الجديد التي كانت دائمًا وتبقى زمانًا طويلًا في الاستعمال مناجم الفحم الحجري الصينية التي لم تُعدن لحد الآن وهي وحدها تكفي وقودًا للعالم باسره مدّة الوف من الدهور وفي الممالك المحروسة سيما في برّ الاناضول (١) مناجم

حسنة لا بدّ من استنارها مع اكتشاف غيرها من المستودعات المرّجح وجودها (٢) فلو فرضنا انّ الفحم اللبناني يعادل بجودته الفحم الانكليزي وفحم هيرقله العثماني فانه يقتصر عنهما بالرواج في السوق السوري . فمناجم هيرقله وبلاد الغال يجديها قربها من البحر فائدة كبرى فانها تُنقل تواءً من المنجم الى مراكب الشحن ولا يجهد احدٌ رخص اجرة النقل في البحر (٣) فمن هيرقله ومن كديف (انكلتره) الى بيروت

- (١) قد اكتشفوا في بلجكة على مناجم فحم حجري عظيمة وقد حسب دخلها لالوف من (السنين) (٢) راجع كتاب (Verney et Dallmann) والمشرق ١٩٠٢ ص ٧٧٢ (٣) وحقيقة ذلك تظهر بثل نوره — فطريقة ابصال الخنطة من روسية الى سويسرة على وجهين الاول على طريق مرسليا او جنوا ومنهما بالسكة الحديدية والثاني على طريق انقرس او روتردام ومنهما بالنهر . فبالطريق البحري وهو اطول من طريق البر بثلاثة اضعاف يبلغ الاقتصاد نحو خمسين فرنكًا في كل عجلة من القطار فهاك السنة المتبوعة في التجارة الحاضرة : أكثر ما يمكن على طريق البحر واقل ما يمكن على طريق البر

لا تزيد نفقات النقل على نفقات الفحم المنقول إليها من داخل لبنان على متن البغال والجمال . فتأمل

٢ الحُمر

يُستدلّ عند اول وهلة على ان هذا المعدن كثيرٌ في لبنان . ففي الشرق والجنوب تحيط بالجبل اراضٍ يُشاهد فيها الحُمر بكثرة ففي بلاد بشارة يُرى الحمر في عينبل وحريقة وفي غير مواضع من قائمقامية صور . غير ان اشهر مستودعات الحُمر في قضاء مرجعيون واغناها منجم حاصبياً الذي هو من املاك الحضرة السلطانية . وكفاه وصفاً ان يُقال انه قد كان يُستخرج منه في اليوم ٨٠ صندوقاً وزن كل منها ١٠٠ كيلو فمع ذلك ليس لبنان على شيء من غنى الاقضية المجاورة له ولا نعرف في الجبل الاً منجماً واحداً وهو منجم ملبخ في قائمقامية جزين غير انه قليل المادّة . ولذلك عدلوا عنه بعد ان باسروا باستثماره لقلّة دخله لان نفقات الاستخراج باهظة والمحصول طفيف لذلك لا سبيل للمباراة مع منجم حاصبياً . أما في قضاء البترون فآثار الحمر دون ذلك فلا يُعتدُّ بها ولا نتيجة لها ترغّب باستثمارها . أما غير ما ذكر من اصناف الوقود المعدنية كالبترول فلا اثر له في تربة لبنان

*

ثانياً المواد والمناجم المعدنية

ليس للبحث في هذا الموضوع مجالٌ واسع وما نوردُه في هذا الفصل دون ما قدّمناه في فصل الوقود

فلنباشرنّ بالحديد ولولا مخافة الالتباس لسَمّيناهُ سيّد المعادن بدلاً من الذهب الذي حُصّ بهذه التسمية على غير حق . نعم ان الحديد من حيث اللعان الظاهر والقيمة المجرّدة اقلّ قدرًا من بقية المعادن كالذهب والفضة والنحاس والزئبق وغيرها لكنه اكثر منها انتشاراً في الكون واعظم منها فائدةً للانسانية ولا يضاهاه في ذلك الاً الفحم الحجري الذي يشبهه بسواد لونه وقلة نضارته

ولقد يتبادر الى الذهن ان اغنى البلاد مالا ووسعها تجاراً واقدرها صناعةً هي

البلاد التي توفرت فيها معادن الذهب ومناجم الألماس والصحيح ان اغنى بلاد الله هي ما كثر فيها معادن الحديد ومناجم الفحم الحجري فالمعادن الثمينة انما ينتفع منها بعض الخاصة المنعم بها عليهم فتفيدهم زهواً وتريدهم لهواً وان توارت عن وجه المعمور فلا يلتحق بالانسان ضررٌ كبيرٌ بل يتخلص من اكبر مهيج للاهواء البشرية . اماً فقد الحديد فيحدث في الهيئة الاجتماعية اضطراباً شديداً وفي اعمال الصناعة اختلالاً عظيماً ويكفي لاثبات ذلك ان الزراعة التي هي اهم الحرف واوجب الصناعات لا قيام لها بدونها

فان كان حق التقدم لمستحقه بما يؤذون من الحدم الجليلة فليس بين المعادن من يستحق التقدم والسيادة نظير الحديد

ولقد اعتاد شعراء اليونان واللاتين الاقدمين ان يختصروا تاريخ العالم ويقسمونه الى ثلاثة اطوار ملهين كل طور باسم معدن فيدعون الاول والاقدم بالعصر الذهبي والثاني بالفضي والثالث بالحديدي فلم يؤيد الاختبار تمام التأييد اعتقاد الشعراء ولا حقق التاريخ امانتهم لاسترسالهم الى مخيلتهم الساعية وراء الصور اللامعة والتشابه الساطعة غير مبالين بتطبيقها تطبيقاً كاملاً على الحقيقة الراهنة

على اننا لو نظرنا الى استعمال الحديد المتعدد وقوة التواصل الى حد انه كاد يقوم مقام كثير من المواد كالخشب والحجر لتجرأنا ان نسمي عصرنا العصر الحديدي ومن هذا الوجه يكون قد سبق الشعراء فعرفوا المستقبل وهم لا يدرون . لكنهم لم يدركوا ان الحديد يمشي مع التمدن قدماً على قدم ويسير كثفاً لكثف مع النجاح الذي لا يكون بسواه . وما لا يُنكر ان اكثر الاشياء استعمالاً واعظمها نجاحاً الحديد والورق فالورق وهو ارق الاشياء والحديد وهو اصلها كانا العاملين العظيمين المساعدين على التقدم والنجاح ادبياً ومادياً — نعني النجاح بالنسبة والتقييم لا على الاطلاق يزيد النجاح الذي احتج عليه الشعراء الاقدمون كما يفعله اليوم اصحاب الفنون الجميلة وطالبو الحسن المعقول . ثم ان للحديد شهاً بالعصر العملي الذي بنا به نموه الغريب اي كثرة الفوائد على قلته المحاسن . فحيثما اعتدى الحديد على الخشب والحجر وجرهما حثهما ما امكنه ان يقوم مقامهما في مقامات الفنون الجميلة فهو الخادم الذي لا بُد منه وان قلت ظرافته بازاء الجاذب الفتان وهو انما يُحب لغائده لا للملاحة

على ان في عصرنا الحاضر لا يحل شي محلّ الفائدة . فحجب الانتفاع عمل على انتشار الحديد ونمو الصناعة والتجارة وهذان الفرعان قد اصبحا من اعظم العوامل في انفاذ الحديد . فن قبل مائة سنة لم تكن المراكب والآلات والسكك الحديدية ولوازم الطوبجية فان كل هذه لم يكن يُعتمدُ بها بالنسبة الى العصر الحاضر ثم اصبحت آخر الزراعة وصناعة البناء من اعظم « أكلة » هذا المعدن . وقصارى الكلام انه ليس علينا ان نعدّد حاجاتنا الى الحديد من ان نبيّن الحد الذي تقف عنده تلك الحاجات . فهذه التفاصيل توضح لنا على الاقل عظم شأنه فترى اننا لم نُعبرها التفاتنا عبثاً

*

أما معدن الحديد فهو لحسن الحظ كثير في قَرض لبنان وأتربته ويشاهد في طبقات تتركب من حبات متازجة كبيض السمك أو كالعُدس أو الحمص المتحجر . وقد يُرى احياناً مختلطاً ومحسوراً في كتل كلسية ملبّدة او في مواد معدنية معروفة باسم سپاث (Spath) . وهذه المواد غنية بمعدنها غزيرة (١) لأن كمية الحديد فيها من ٥٠ الى ٦٠ بالمائة ومن هذا الوجه لا يدانيه الامعدن « مقطوع الحديد » في جزائر الغرب اذ تصل كمية الحديد فيه الى ٦٥ بالمائة

وهذا المعدن ينتشر في اكثر انحاء لبنان وعلى سطح الجبال وفي بطن الوديان سيما في اقصية البترون وكسروان والمثن وقد استثمر منذ الازمنة الغريقة في القدم كما ثبته فيما بعد وكما يابح من عرم الحَبثِ والفَسالة المنتثرة في كثير من انحاء الجبل . ونخص بالذكر جهات عكّار ودوما وبيت شباب والمشغرة والفرزل وادوية المجاري النهرية مثل نهر الكلب ونهر ابرهيم . فمن هذه المعادن كانت تؤخذ مواد المسابك والمعامل الحديدية القائمة في تلك الانحاء ولبثت هذه المعامل مستعملة الى اوائل العصر المنصرم وحمّا يزيد اهمية المعادن اللبنانية فضلاً عن غزارتها وغنائها جودة مادتها فانها تعطي اجود الحديد الذي يُتخذ منه افضل الفولاذ واصلحه لادق الاعمال وارقتها كالآلات والمدافع وتصفيح المراكب وقد اشتهر حديد لبنان بلدونته ومرورته ولا يبعد ان منه كانت تعمل اسلحة دمشق الطائفة الشهرة كالسيوف الشامية التي طالما

(١) ان معدن الحديد يُعتبر غنياً اذا كانت كمية الحديد فيه تتجاوز ٤٠ في المائة

أُغرم بها العارفون واثني عليها المولعون وقد فُقد اليوم سرّ اصطناعها . ولَمَّا دخل الحديد الغريب الى لبنان في الجبل الماضي كانت الافضليّة للحديد اللبناني في عمل أنعال الدوابّ وصناعة المسامير وما شاكل ذلك

على ان معادن لبنان مع غزارة مادّتها وجودتها لا تُجدي نفعاً معتبراً لثقلّة الذرائع في استئجارها اذ ليس من وقود لتشغيل المسابك وقد مرّ بك آنفاً ان لا وجود للفحم الحجري في لبنان غير أنّه يمكن الاستعاضة عنه بالحطب كما كانوا يصنعون قديماً وذلك كان من اعظم البواعث على اتلاف الاحراج في لبنان وهالك بيانه :

فقديماً وقبل اكتشاف الفحم الحجري كانت تُعالج معادن الحديد بالحطب في لبنان كما في اوربّة . فانهم كانوا يوقدون الحطب في المواقد المعدّة لتذويب الحديد وصيه . وبعد الحساب وجدوا انه يلزم مائة كيلو من الحطب للحصول على ١٧ كيلو من فحم الحطب ويجب احراق مائة كيلو من الفحم لسبك ٣٤ كيلو من الحديد وذلك كثايرة عن اتلاف ١٧٠٠ كيلو من الحطب لاستغلال ١٠٠ كيلو من الحديد . وكان المسبك الواحد يستغرق من الحطب ما تعلّهُ سنوياً مساحة ٢٠٠٠ هكتار من الاحراج (١) فعلى ذلك لم تكن لتكفي اوسع الاملاك . الا ان حركة المعامل كانت اذ ذاك خفيفة لان الحاجة الى الحديد لم تكن شيئاً بالنسبة الى العصر الحاضر فانكور القديم كان يصبّ من ١٠٠٠ الى ١,٥٠٠ كيلو يومياً امّا الان فانه يُسبك في اليوم زهاء ١٢٥,٠٠٠ كيلو وفي بعض المعامل ثمانية او تسعة اكرار . فاذا اتّضح ذلك ظهر جلياً الضرر الجسيم اللاحق بشجر لبنان والناجم عن مسابك الحديد القديمة وعرفت ان لا سبيل للانتفاع من معادن الجبل الحديدية على كثرتها ووفرة مادّتها

ولا سبيل ايضاً لصبّ هذه المعادن والاعتناء بها بنفقات قليلة الا باستحضار الذرائع الموجودة في اعظم البلاد الصناعية نظير انكلترة وبلجيكا . اعني بوجود مناجم فحم حجري قريباً من معادن الحديد وقد عرفت ممّا مرّ بك أنّ لا وجود لهذه المناجم في لبنان ولا يسدّ هذا الخلل استغلال الفحم الحجري من الخارج لما يستلزم من النفقات الباهظة

(١) راجع كتاب *Vicomte G. d'Avenel : Le mécanisme de la vie moderne*

فعلية لا يستطيع لبنان مباراة البلاد الاجنبية في معادن الحديد مع سهولة استخراجها وجودة صفتها . لذلك نرى مسبك لبنان الوحيد في بيت شباب مضطراً الى استعمال الحديد الاجنبي . ولا مناص من هذا الاضطرار الا باستعمال المياه كقوة محرّكة في معالجة المعادن ولا يمكن ذلك الا حيث المعادن قريبة من مجاري المياه والينابيع القوية كما في وادي نهر الكلب وفي جوار ميروبا فهناك المعادن الجيدة ومما يزيد الاسف ان لبنان لا يمكن ان يستعاض عن استثمار الحديد باستخراج غيره من المعادن اذ لا وجود لها . فاننا لانتكلم عن الذهب والفضة اللذين ذكرهما بعض الكتبة ممن لا يتروون في الامور ولا يتقنون في المباحث فقد اكدوا وجودها في لبنان بجانب غيرها من المعادن كالتحاس والتوتيا (١)

فلا حاجة لنا بنقض هذه الزاعم التي لا صحة لها ولا سند . ولقد تباهى غيرهم باكتشاف مناجم الزبيق في لبنان (٢) فازبيق معدن ثمين (٣) واستثماره يعود على الجبل بفائدة عظيمة الا ان هنا ايضاً تغلب الوهم على الحقيقة فبهرت الاعين بدلائل وهمية كاذبة . فازبيق المكتشف وجد بكمية زهيدة في موضعين بجانب السكة الحديدية من بيروت الى الشام اعني في عين صوفر وعين مشرح فقد كان ذلك بلا ريب مرضع العامل القديمة ايام سد السكة وما الزبيق المكتشف الا كيميآت وقعت من آلات المهندسين . ولقد سمعنا باكتشاف معدن نحاس في المن الاعلى فهذه الاكتشافات لا تستلفت الانظار لعدم كفاءة اصحابها فعليتنا ان نتنظر حكم رجال الخبرة وفحص المساطر . ونحن نتمنى ان يكون ذلك صحيحاً وليتنا نستطيع تكذيب الدكتور لورته (٤) القائل ان ليس في لبنان من المعادن ما يُعول عليه

*

ثالثاً الحجارة ولوازم البناء

ان الحجارة كثيرة في لبنان ويمكن استثمارها طويلاً ونقلها الى البلاد الاجنبية

(١) راجع كتاب فضل الله فارس الى حلقه : جغرافية سوريا وفلسطين (ص ٢٢١)

(٢) راجع الرسالة المبعوثة الى البشير (في ٢٣ ايلول سنة ١٩٠١)

(٣) راجع المشرق (٤ : ٨٨٧-٨٩١)

(٤) راجع كتاب - الدول الاجنبية - المقدمة ص ١٩

ولقد تأخذ الدهشة الغريب اذ يطوف لبنان ويسرح نظره في حجارة ابنته فهذه الحجارة الجميلة سواء كانت منحوتة او غير منحوتة تجمل لأبسط المساكن هيئة جليلة لا يألفها السائح الا في قصور وطنه . فباعثنا قليل يستحکم البناء ويحصل له هيئة صلابة ومكانة تزدري بمرور الاجيال . ولحسن الحظ ليست الصلابة بالظاهر فقط بل بالحقيقة ايضا فقلما نرى على سطح المعمور بلداً فيه ما في لبنان من لوازم البناء بكثرتها وحسنها وصلابتها . فلا طاقة الرطوبة ولعوامل الجو الاخرى على إتلافها . فهذه الحجارة الكاسية لها تقاطيع زجاجية في المواضع المنحوتة حديثاً ولونها ايض كآمد وقد يتحول على مرور الزمان بفعل اشعة الشمس الى شيء من الصفرة الذهبية أما في منحدرات الجبل السفلى وعلى الشواطىء البحرية فتكثر مقالع الحجارة الرملية وهذا الصنف لونه اصفر وحجره جيد صالح للبنان وكل المحلات العامرة والاماكن الآهة بالسكان من صور الى طرابلس مبنية بحجره . ومن خواصه انه سريع التفتت سهل النحت لذي خروجه من الملقع فيتصلب في الهواء ويصلح للملاط اكثر من الحجارة الكاسية الجميلة المتقلعة داخل الجبل

والحجر الرولي مثقوب غالباً بثقب طويلة اسطوانية ضيقة على شكل لولب كانها صنع المخرز وربما كان ذلك من قرض الهوام الحجرية (١) مدة الاطوار الاولى الجيولوجية . وقد فات هذا الشرح فهم رينان فذهب فيه مذهباً غريباً فان اكثر مدافن جبيل محفورة في هذا الحجر ففما كان رينان يفحصها شاهد ثقوباً اسطوانية في قبة القبور القديمة فتوهم تعليلاً لوجودها أن الاقدمين كانوا يلجأون قبل حفر المدافن الى سبر الحجر لقصد امتحانه (٢)

على انه ليس بوسعنا ان نعدد بالتفاصيل كل ما في لبنان من مواد البناء على وفرة اصنافها ولا يسمنا الا ان نذكر انواع الحجارة الجميلة المتنازة بكثافتها وصلابتها فانها تستعمل للاعمدة وللدرج وعتبات الابواب واسكفاتها الى غير ذلك من الاعمال المعتبرة كصيف المرافي اذ ان امتداد طرق العربات في لبنان يسهل نقلها الى البحر . ومن اصناف الحجر الجيد ما يستخرج من المقالع الموجودة في اسفل

(١) راجع Dawson : *Egypt and Syria*, 79

(٢) راجع الجزء الاول ص ٦٥ و ٦٦

قرنة شهبان وبيت مري بالقرب من دير مار روكس وفي غير مواضع وايناسرت من الجبل ترى من الحجارة الصالحة للتبليط والتلبس وحجارة لعمل الكلس والرحى أما البلور فهو كثير في لبنان . وبمعكس ذلك الرخام فهو نادر الوجود في الجبل وليس من الصنف الجيد اللهم اذا استثنينا بلاد الجبّة فإنّ فيها مقالع رخام صالحة للصقل والحلي الحسن ونذكر اننا شاهدنا امثلة منها في بعض بيوت اهدن القديمة وكذلك في الديان في الكرسي البطريركي الحديد . ومما يستحق الذكر مقالع الرخام الموجودة في جمهور ودير القلعة فرخامها ذو عروق حمراء (١) وفي دير القلعة ايضاً حجر صلب معتبر وفي تحوم في قضاء البترون وبعض انحاء البقاع مقالع حجرها صلب لونه ابيض يجعله الصقل لامعاً كالرخام ويؤخذ منه البلاط المصقول والاعمدة الصغيرة اللامعة (شمعات) . أما الرخام الابيض الجميل من صنف رخام ايطالية والرخام السماقي وحجر الصوان فلا وجود لها في لبنان . وما يشاهد في المدن الفينيقية القديمة من اعمدة الصوان مثل جبيل الخاوية على عدد وافر منها فانها منقولة من مصر

على أنّ حجارة لبنان لم تكن تستعمل الى السنين الاخيرة إلا في محلهما والمدن المجاورة نظير بيروت وقد راجت السوق فيها رواجاً عظيماً ومن بضع سنوات باشرت مصر بأخذ لوازم البناء من لبنان لندرة الحجر فيها وقلة صلاحيته كما ان الامر جارٍ في مقالع لبنان القريبة من البحر مثل نهر الكلب والماملتين فإنّ المراكب تستطيع ان تصل اليها وتشحنها بأقل نفقة أمّا المقالع البعيدة فالوسيلة لنقل صادراتها ان تكون من الصنف الاعلى كمقالع قرنة شهبان ومار روكس ودير القلعة وغيرها فانها تطلب الى البلاد الاجنبية وما من مانع يحول دون اتساع تجارتها اذ ان امتداد طرقات العربات في لبنان يسهل كثيراً طرائق ايصالها الى البحر . وقد أخذت شركة ترعة السويس على ما نظن حجارة من لبنان لتوسيع احواض بورسعيد فكان العمل مرضياً والاقتصاد حسناً

فهذا كله يدعو الى التنشيط ويحمل على مواصلة العمل الانتفاع من حجارة

(١) فمن مقلع دير القلعة اعمدة الكاتدرائية المارونية وكنيسة كليتنا

لبنان ولا يخامرنا ريب أن مقال لبنان لم تُكتشف جميعها سيما مقال الحجر الحسني والرخام العادي فاذا اتسع نطاق هذه الصنعة عادت بالفائدة على الكثيرين من الفعالة كعملة المقالع والنحاتين فتسد مسد المعادن المفقودة من لبنان

٢

معادن لبنان القديمة

لقد انجزنا الكلام عن غنى لبنان المعدني والحق اولى ان يُقال ليس لبنان من هذا الوجه ذا ثروة طائلة وغنى وافر . فلوازم البناء متوفرة فيه إلا انها ليست من اعلى درجة في الجودة . ومعادن الحديد كثيرة الانتشار في الجبل إلا انها قليلة لعدم وجود الوقود لتشغيل المسابك والمعامل . وكذلك الفحم الحشبي المتحجر فان في لبنان منه شيئاً . فاذا شئنا ان نعرف ما لهذا الوقود من الشأن والاعتبار في نفس مركزه يكفي ان نردد في ذهننا ان اصحاب المعامل الحريية المجاورة لمستودعاته عدت عنه تبعاً الى الفحم الاجنبي . فوالحالة هذه ليس لاهل لبنان ان يبنوا الآمال على استحضار المعادن ولا يُمتنوا النفس بتحسين مستقبل البلاد بسببها

لكن هنا يجثم آخر ترى هل كانت هذه الحال حال لبنان القديمة ؟ ألم يتفق للبنان ما اتفق لاراض كثيرة كانت مخصبة غنية ففرغت على توالي الاجيال واصبحت عقيمة ؟ أو لم تنزع من اعماق لبنان كموزه المعدنية القديمة ؟ فلهذا السؤال محل ومجال لأن ارباب البحث والاقتصاديين منذ الان قد وجدوا بعد الحساب ان اغنى مناجم الفحم الحجري في اوربة لا بد ان تنفذ يوماً ولا يمر على بعضها جيلان او ثلاثة حتى تكون قد نفذت فلم لا يصح ذلك في لبنان وقد ظهرت فيه آثار العمران وحركة الاشغال من نحو ٤٠٠٠ سنة والادلة على ذلك صحيحة راهنة فهذه المدّة الطويلة تكفي كل الكفاءة لتعليل ما حدث في حال معادنها من التغير والانقلاب

ومأ يزيد في ارجحية هذا الرأي كون لبنان قسماً من فينيقية والحال ان بلاد

فينيقية كانت من اقدم الازمان كنقطة للاشغال المعدنية وكمحور للاعمال الصناعية (١) فقد وجدوا الوفأ من آثار هذه الصناعة القديمة وضروبها المتنوعة كآنية فضة ونحاس وقلزّ وحليّ من كل الاصناف واشكال الاسلحة وادوات زجاجية وغيرها . فهذه التُحف مَلأت المتاحف التي غصّت بها وضافت عن ان تسعها ومع ذلك لم تُصرف العناية الى جمعها ورضعها في المتاحف إلا من نحو نصف قرن ولم من تحفر غيرها بادت او لم تزل مدفونة في بطون المدن الفينيقية وهي تتوقّع يوماً من الدهر لتظهر للعيان

على انّ هذه الحال من نموّ الصنائع وانتشار الاشغال المعدنية لم تكن خاصةً بعهد الفينيقيين بل بقيت بعدهم اجيالاً عديدة واستمرت الى اواخر الاعصر المتوسطة . ولم تبطل هذه الاشغال في المدن المتمدّنة على طول الشواطىء البحرية من عكا الى اللاذقية فكانت العمّال من نحو خمسة او ستة اجيال متكبّنة على العمل وكانت تصنع مصنوعات عظيمة وتُصدر صادرات وافرة . ففي اواسط الجيل الرابع للميلاد يذكر يونيور (Junior) الفيلسوف اللاتيني « مدينتي طرابلس وجبيل الصناعيتين ومدن صيدا و صرْفند وعكا الزاهرات وخصاً من بين هذه المدن اللاذقية وجبيل وصور وبيروت بانها ترسل انسجتها الى جميع الارض وتلشر صرفند فوق ذلك ارجوانها » (٢) ولنا في الجيل العاشر شهادة المقدسي الجغرافي العربي وبما انه سوري النشأة فتكون لشهادته قوة كبرى فانه يعدّد بين صادرات سورية المحمولة الى الخارج عن مرافئ البحر من قيصرية الى السويدية النسجة الحرير والصابون والمرايا والزجاج والابر والسُرُج وآنية النحاس والحُرُض او الأسنان والحديد والكبريت والملح والرّخام (٣) . وفي الاعصر التابعة يصف الادريسي والدمشقي وابن بطوطة حركة الاشغال الصناعية

(١) راجع كتاب بيرار 367 ; 306-307 ; 307 (Bérard : *Les Phéniciens et l'Odyssee*, I, 306-307; 367

376 ; 409, 414, etc. Benzinger : *Hebraeische Archeologie*, 253)

(٢) وهذا نصّه بحرفه : Tripolis et Byblus, ipsæ civitates industriosæ sunt : iterum optimæ civitates Sidon, Sarepta, Ptolemais . . . Laodicia, Byblus, Tyrus, Beritus omni mundo linteamen emittunt, Sarepta vero purpuram præstat.

(٣) راجع في تأليفه « احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم » وصف سورية (ص ١٥١ - ١٨١)

في مدن سورية والسيّاح الغربيون الذين ساحوا في سورية في ذلك العصر يؤدون الشهادة نفسها (١)

*

والحال هل يخطر على بال ان هذه الصناعة وفيها المعادن حظّ صالح تتخذ لوازمها الأولية وموادها الضرورية من الخارج لا غير. أما نحن فلا نخال ذلك لان في مثل هذه الحال لا تأتي المصنوعات بارباح طائلة الى حدّ انها تُحمل الى جميع الجهات. فالاعمال المعدنية في فرنسة مع ما هي عليه من جودة الطرق وكمال الاساليب لا تستطيع مجارة اشغال البلاد المجاورة لها وعلة ذلك انها مضطرة الى ان تستجلب من الخارج قسماً من معادنها. فنستنتج اذن ان الصناعة الفيئيقية وهي اقدم الصنائع كانت تتخذ مواد اشغالها من محالها وجبال بلادها وبغير عبارة تقول انه يلزم التسليم بان مستودعات معادن لبنان كانت قديماً اوفر عدداً واغزر مادةً واكثر نوعاً ممّا هي اليوم. وليت شعري هل يمكن اثبات هذه النتيجة بشواهد تاريخية

أما ايضاح ذلك عن الحديد فايسرشي. عندنا بل لا حاجة الى ذلك وقد اثبتنا وجوده في ايامنا فهذا لا نفيض في ايراد الشهادات بل نقتصر على بعضها. على ان بين هذه الشهادات شهادة هي اعظمها اهمية واشدها اعتباراً تدلّ على ما كان لتجارة الحديد من الشئوع والشأن في قديم الزمن. ففي الجيل السابع قبل الميلاد كانت العبارة «با ان برت» تستعمل في اللغة المصرية للدلالة على الحديد (٢) ومعنى هذه الكلمة حرفياً «بضاعة بيروت» فيستنتج اذن من استعمال هذه الكلمة ان شغل الحديد كان شائعاً في بيروت وانه كان مجوار هذه المدينة معادن يُستخرج منها الحديد بكثرة وكما انه من لفظة «بضائع باريس» سوف يستدلّ المؤرخون في المستقبل ان بضائع الزينة والتبرج كانت تُصنع في باريس. فهكذا قلّ عن الكلمة المصرية التي اوردها فانها تشير الى أنّ وادي النيل وذلك لا اقلّ من ٨٠٠ سنة قبل المسيح

(١) راجع كتاب راي (Rey: *Colonies francaes*, 211) واما عن بيروت فراجع هيد (Heyd) تاريخ تجارة المشرق. الترجمة الفرنسية ص ٤٥٦ و ٤٥٩ و ٤٣٠ و ٤٨٨ الخ
(٢) راجع المجلة الاسيوية (66 - 155, I, 1904. *Journal asiatique*)

ألف الحديد اللبناني المحمول اليه من مرفأ بيروت الى حد أن اهله لم يميزوا بين اللفظين اعني « الحديد » و « صناعة بيروت » . وكمثل ذلك جرى في اللغة العربية الفصحى للهندي والمشرقي فانها اصبحا مرادفين للسيف وقد كانا في الاصل يدلان على السيف المصنوعة في الهند وفي « مشارف » البلقاء شرقي بحيرة لوط . وقد كان زمام تجارة الادوات البيئية وآنية الحديد والقنز والنجاس في الجيل التاسع قبل المسيح بايدي الفينيقيين في سوق مصر عيته (١) . والمقدسي (٢) يأتي على ذكر معادن الحديد في بيروت الموجودة في عصره . وبعده جيلين يقول الشريف الادريسي اثناء كلامه عن بيروت : « وبقرية منها جبل فيه معدن حديد طيب جيد القطع يُستخرج منه الكثير ويُجمل الى بلاد الشام (٣) » . وقال ابن بطوطة (٤) : « ان الحديد يُجمل من بيروت الى مصر » فهذه الشهادات معتبرة فانها تدلنا على نمو صناعة الحديد في لبنان حتى اواخر الجيل الرابع عشر . واما ما قدمنا من تفاصيل نقل الحديد وحمله الى الخارج فيدل ليس فقط على رواجه في سوق مصر بل يرجح ايضاً على ان اساحة دمشق كانت تُصنع من معادن لبنان كما اوردنا آنفاً

واقْد يُشتَف من وراء هذه الشهادات ما التحق باحراج لبنان من الضرر الجسيم بسبب تلك الصناعة التي نستطيع ان نتبع حركتها مدة الف سنة . فموارد المسابك كانت بمثابة لجة التهمت غابات الارز العظيمة

*

على انه ليس بعد الحديد معدن شاع ذكره بين صادرات الصناعة الفينيقية القديمة نظير النحاس . والعجب في ذلك ان هذا المعدن لم يبق له اليوم أقل اثر في لبنان كما سبق لنا ذكره ففني هذا سر غامض على المؤرخين ويستلقت أنظار الجيولوجيين الذين يحولون ابصارهم عن كل شهادة لا يجدونها مسطرة في بطون الارض فلنباشر بايراد التوراة شهادة اوّلا : فانه مذكور في سفر الملوك الثاني (٨ : ٥ - ٨)

(١) راجع كتاب مولر (W. M. Müller : *Asien und Europa*, 306)

(٢) في كتابه السابق ذكره (ص ١٧٤)

(٣) I. 133, (٤)

طبعة جيلديستر

ان داود اخذ من ملك صوبة نحاساً كثيراً جداً . فاين محلُّ صوبة المذكورة ؟ من المرجَّح انها كانت قائمة في سهل البقاع وذهب بعض علماء عصرنا على انها نفس المدينة المدعوَّة « مات نحاسي » في كتابات تلّ العمارنة (١٥٠٠ قبل المسيح) ثم سماها اليونان (١) فيما بعد كلسيس . فما اغرب هذا الاتفااق فلغظة كلسيس معناها في اليوناني نحاس وفي مات نحاسي كلُّ يرى كلمة نحاس . وعليه اذا صحَّ ان صوبة وكلسيس ومات نحاسي ما هي الأثثة اسما لمسمّى واحد فيكون المقصود بها المحل المشهور بمعادنه القائم في جوار لبنان

غير ان الآراء متضاربة في تعيين موضع كلسيس فقال بعضهم انها معلّقة — زحلة ورجح غيرهم ونحن من رأيهم (٢) انها عين جار في اسفل الجبل الشرقي المقابل للبنان (٣) — فعلى كل حال ليست المسافة بين الموقعين بعيدةً انما على حلّ هذا المشكل الجغرافي يتوقّف تخصيص معادن النحاس القديمة بلبنان او بالجبل الشرقي الذي يقابله

ثم اننا نرى الكتابات المصرية والكتابات الاشورية قبل التوراة تشير الى وجود كميات عظيمة من النحاس في لبنان او في ما يجاوره ومنها ٨٤,٠٠٠ كيلو من النحاس اخذها رمانيار الثالث ملك الاشوريين من ملك دمشق فهذه الكميّة الوافرة الموجودة في محلّ واحد تدلّ على انها من صادرات المحلّ وليست من الخارج واننا نجد فضلاً عن ذلك في كتابة تحوتس الثالث ذكر « نحاس اسوي اتي به فرعون مصر من بلاد راتانو بجزر وانتصار (٤) » وراتانو كما هو الشائع في كتابتها الان هي الناحية التي يسميها الليطاني وقد سبق لنا تفصيل ذلك (٥)

على أنّ هذا النهر ينبغي ان يُعتبر تابعاً للبنان لانه يجري على شواطئه او يمرّ في اراضيه — أمّا العلامة ينسن (Jensen) فانه لا يقف عند هذا الحد بل يزعم ان

(١) راجع كتاب Buhl : *Geogr. des alt. Palaestina*, p. 115

(٢) راجع (الصفحة ٤٠)

(٣) Pauly - Wissowa. *Encyclop.*, III 2091

(٤) راجع كتاب Müller : *Asien und Europa*. 126, 127

(٥) راجع (ص ٢٢ و ٢٣)

راتانو اولاتانو من اسامي لبنان نفسه اولا اقل من ان تدلّ على ناحية البيطاني (١) وفضلاً عن ذلك فانكتابات المصرية تسمي عادة فينيقية باسم « ذاهي » وتجعل بين صادرات هذه البلاد ليس فقط الزيت والعسل والخمر ممّا لا يندهل له انسان بل ايضاً النحاس والرصاص واصناف الحجارة المتنوعة الخ (٢) وفي غير موضع تذكر آنية الحديد والنحاس كصناعة مختصة فينيقية (٣) ومن المعلوم انها كانت ممّلاً منها اسواق اشور وبابل (٤) واسواق بلاد اليونان في اوربة واسية . افلا يسوغ لنا بعد هذا كله ان نستنتج وجود معادن النحاس في جبال فينيقية ؟ ورويدك ايها القارئ فلا تعجلنّ باستنتاج النتائج لنّلا تبدي حكماً عن غير تروّ كافٍ . ومن المحتمل ان الفينيقيين كانوا يستخرجون النحاس من املاكهم في جزيرة قبرس او من « الاسيا » (٥) الشهيرة بمعادنها النحاسية والمظنون موقعها على مصبّ نهر العاصي ولعلّ اسم النحاس العربي مأخوذ عن اللفظة الاشورية « الاسيا » كما ترى . وزعم غيرهم انها قبرس استناداً على وجود معادن النحاس فيها وعلى رأيهم أنّ منها كان يؤخذ النحاس لتشغيل معامل فينيقية . فليست المسألة اذن جلية كما يُظنّ . أمّا نحن فنرجح رأياً متوسطاً

فاننا نعلم مع كثير من العلماء الذين اوردنا شهاداتهم وغيرهم نظير كيبيرت (٦) ويُنسين وغيرهما (٧) بوجود معادن نحاس في لبنان لكنها قليلة . لذلك اضطرّ الفينيقيون ان يستجلبوا من الخارج ما كان ينقصهم في لبنان . ولهذا السبب نفسه نفذت هذه المعادن وفرغت بجمالتها حتى لم يبق لها اثر على حدّ ما نراه في جزيرة البسا في البحر المتوسط فمعادنها الحديدية التي لا يكاد يُصدّق غناها الغريب لا يزال

(١) Zeitsch. f. Assyriologie, 1895, 345-346

(٢) راجع مولتر (ص ١٨٢)

(٣) مولتر (ص ٢٠٦)

(٤) Zeitsch. für Assyriologie, 1887, p. 36, 37 ومنها هذه العبارة الواردة مراراً في شعر

هوميروس « صيدا الفينة بالنحاس »

(٥) وكانت تسمى ايضاً اصيا Zeitsch. f. Assyriologie, 1895, 262

(٦) راجع تأليفه H. Kiepert : *Alte Geographie*, 167

(٧) Zeitsch. für Assyriologie, 1895, 363, 365

يُستخرج حديدها منذ الفي عام (١٠٠١). أما النحاس الذي كان من اعظم صادرات هذه الجزيرة في اقدم الازمان فان ذكره قد باد منها فيما بعد

فعلية إما ان نعدّ الشهادات المختلفة التي اوردناها اوهاماً محتائمة وأما ان نسلّم بوجود معادن غير الحديد في لبنان ومنها النحاس فلولا هذه المعادن لما كانت وُجدت صنائع الفينيقية بن المعدنية ولما كانت انتشرت انتشارها الغريب

فهو رائدة مع ما هي عليه من النشاط والاستعداد الفطري للتجارة والملاحة لا تنال الفوز بشغل المعادن نظير انكلاثة وذلك لخلوها من المعادن لان نجاح الملة يتوقف على النواميس الطبيعية التي مع كل قوتها تعجز عن مقاومة النفوذ الخارجي. وهذا مما يزيد فضل الجغرافية التاريخية فانها تطلعا على بعض هذه النواميس

فاذا اتبعتا درس لبنان وطبقاته الجيولوجية سوف نجد بلا محالة براهين طبيعية وادلة مادية تثبت غنى لبنان الاعظم في قديم الزمان (٢)

أما الحجارة ولوازم البناء فاننا لا نعلم عنها شيئاً الا ان غوديا ملك بابل كان يستجلب لابنته من لبنان قبل المسيح بثلاثة آلاف سنة ليس فقط اخشاب الارز بل ايضاً الرخام الابيض وغيره من الحجارة وما زالت مارك اشور تحذو حذوه الى الجبل الثامن قبل الميلاد . على انه لم يذكر شيء عن صنف الحجارة المنقولة مع الرخام ولا عن طبيعتها إلا ان ما يقتضيه نقلها الى البلاد الباليية من المشقة والنقمة لبعده المسافة يسوغ لنا ان نستنتج انها لم تكن من الحجارة العادية بل من اصناف الرخام الجيد وانواع الحجر العالي الثمن . فعلى هذا يتضح ان لبنان كان من هذا القبيل ايضاً اغنى مما هو اليوم

لكن لا بد من ابداء ملاحظة هنا كما فعلنا اثناء كلامنا عن النحاس : ان الكتابات الاشورية والبابلية البالغة حدّ الايجاز والمتصلة باقدم الازمان ليست بغاية الضبط والتدقيق بنوع انه لا يتيسر لنا الحكم الفصل فيما اذا كان الكلام عن لبنان

(١) Eliséc Reclus : *Europe Méridionale* 432 - 433

(٢) ففي سنة ١٢٣٦ يوكد السائح كرانجه الفرنسي وجود معادن نحاس يشوها فليل من الفضة بين عجائون والعاقورة . . فهذه التعليقات المهمة تدل على ان السائح نقل ما سمعه ولم يفحص بنفسه . وإلا لكان حدّد موضع هذه المعادن

الشرقي او الغربي وبعبارة اخرى عن لبنان الحقيقي او عن الجبل الذي يقابله .
فبخصوص هذه المباحثة الثانوية فلتراجع التأليف التي اوردنا ذكرها في هذا الصدد .
فيستطيع القارئ ان يتمّ اجائز الشخصيّة ويقابل بين التعليقات التاريخية التي جمعناها
عن غنى لبنان المعدني في الزمن القديم

١٩

النتائج التاريخية

من درس اعلام الاماكن اللبنانية

ليس بين المطلعين على اساليب علم التاريخ في عصرنا من مجهل فائدة البحث عن
درس اسماء الاماكن فنتأذن قبل الخوض في الموضوع بتعداد منافعها بما امكن من
الايجاز لنذكر معناه الحقيقي وارتباطه الجوهري بتاريخ لبنان وجغرافيته . فبوصفنا
لهذه الفوائد نستدرك ما لعله يطرأ على بال القارئ من سوء التفاهم . ليس غرضنا
في هذه المقالة لغويًا لكن تاريخيًا محضًا وجغرافيًا صرفًا اذ لا نقصد البحث عن اسماء
المواضع اللبنانية من حيث تركيبها اللغوي ومعناها الاصيل بل جل ما تتوخاه ان
نستنتج من درس هذه الاسماء ومن سياقها وتقسّمها على سطح الجبل نتائج تؤدي
بنا الى معرفة ماضي لبنان

١

١ اعلم ان درس اصل الاسماء المكانية اعظم ظهير واكبر نصير للتاريخ لان
اعلام المكان ترجع الى اقدم اصول اللغة اذ المتبادر الى الذهن ان الرجل اول ما
يبدأ به تسمية محل اقامته باسم يعرفه ويميّزه . لذلك نرى اعلام المواضع اقبلت لنا
ذكر حوادث ومواقع لا نجد لها اثرًا في اعظم التواريخ اسهابًا واكثرها

تفصيلاً (١) . وقد يتفق ان اعلام المكان وحدها تذكرنا بما جرى لبعض الشعوب من الحروب وما طرأ عليها من الحوادث السياسية والدينية . فهكذا كل موضع دخل في تركيبه اسم دير وقصر وبرج ومجدل (٢) يدل على انه كان ثمة ديراً او قلعة ولو كانت غير الدهر قد درست ذلك البناء ولم يُبق له لا طلالاً ولا رسماً وربما كنا لا ندرى اصل الاماكن اللبانية ولا نعرف قدم عهدها فاذا ما عثرنا على اعلام فينيقية او آرامية استطعنا ان نستدل على ان اصل تلك المواضع يتصل بالمهد الذي كانت فيه تلك اللغة شائعة في لبنان . واذا وجدنا موضعاً مدعواً باسم احد الآلهة القديمة كنعانية كانت او بابلية فلنا ان نستنتج انه سبق التاريخ المسيحي وانه وجد في عهد كان الاهلون يعبدون تلك الالهة . وعليه فدرس اعلام المكان يقوم مقام ما اغفلته الادلة الكتابية ويدعم التقاليد المحلية وبدونه لا نستطيع سبيلاً الى تحقق النصوصات المهمة الحالية من الحجة والعارية عن البرهان فضلاً عن انه يجدينا علماً عن اقدم الآثار التاريخية وافضل الاسانيد ويسوغ لنا ان ناسب تلك الدلائل الى قرون سبقت اختراع الكتابة وتحديد اللغات على خط علمي منظم . فمن المعلوم ان الانسان سبق الى تطلق قبل الكتابة واول ما استعمل في كلامه تسمية المواضع التي تكتنفه باسماء النابها . وقد فقد شيء كثير من تلك الاسماء الاولية وهذا مما يجتئنا على بذل الجهد وصرف العناية الى جمع ما بقي من تلك الاعلام والاستفادة منها ما امكن فسواء كانت تلك الاسماء لمستيات دائرة او وضعية فانها تعين على احياء الحوادث الجغرافية التي باد ذكرها

٢ وتساعد اعلام المكان على معرفة آثار الشعوب الذين عبروا البلاد وخلفوا اسماءهم في بعض الاماكن . ومما بينا في اجائنا المتقدمة عن اصل الامم اللبنانية القديمة ان اللغة التي تسمت بها الامكنة هي اشد دلالة واوضح برهاناً على الاحوال السالفة من الكتابات عينها . فالكتابات باللغة اللاتينية وقس عليها اليونانية انما تدل على ان تلك اللغة التي كانت هي المعول عليها في الاحكام الشرعية وليست اللغة الشائعة

(١) ان بروتز (Prutz : *Kulturgesch. der Kreuzzüge*, 397) يبدي مثل هذه الملاحظة عند الكلام على الالفاظ العربية الداخلة في اللغات الاوروبية اثناء القرون المتوسطة

(٢) مع فروعها « مجدل ومجدليون ومجدليا »

بين الشعب . وعلى عكس ذلك اسماء المواضع فان الشعب لا يضعها الا في لغة يفهم معناها . فينتقي في لغته اسماً يطابق المسمى بدلالاته على مميزات ذلك المكان المأهول حديثاً . وقد يتفق ان يخلف شعباً شعباً آخر فيغير الاسم القديم باسم احدث يدرك معناه . مثال ذلك جبل قريب من جزين يستى « جبل طوراً » وهو مركب من اسمين عربي فسرياني وكلاهما الجبل فمثل هذه التسمية المكررة تدل على وجود شعبين (١)

٣ نظامنا اعلام المكان على نظمات الشعوب وعبادتها وعوائدها القديمة كالاسماء التي تضاف مثلاً الى سوق وجسر . وذلك بعد ان تكون السنون والدهور طوت الحوادث التي دعت الى تلك التسمية مثل « سوق الغرب » في قضاء الشوف ولس الان هناك سوق

٤ تسوخ لنا ان نقف على حالة الارض السالفة ونطلع على العوارض الجغرافية من مناجم وغابات وغدران بادت حتى لم يبق لها اثر لا طراً عليها من التقلبات الجيولوجية والاقتصادية والاجتماعية . ولسنا نرى حاجة الى ايراد امثلة على ذلك

٥ وبما ان جميع الاعلام المكتوبة إلا ما قل كانت في الاصل اسماء جنس لا اسماء علم فيكون درسها جزءاً مكتملاً لمعجم اللغات القديمة ومساعداً على احيائها فمن هذا القبيل تكون اسماء المواضع احسن طريقة في دراسة اللغات وافضل وسيلة للتوصل الى ابعدها

٦ تبين لنا ما كان في اقدم الازمان للاحوال الجغرافية والطبيعية من التأثير في عقول اجدادنا (٢) وتكفي وحدها للدلالة على اهمية الينابيع والانهر لاسيما في الشرق حيث الماء من الشروط التي لا بد منها لترقي العمران . فاول ما استوطن البشر مجوار الينابيع وضواحي الانهر واقدم المدن عهداً مدينة نشأت على مجرى المياه . فما مدينتنا بيروت الا مدينة الينابيع والآبار كما يتخذ من مدلول اسمها الفينيقي

٧ تظهر لنا ما كان للجبال من التأثير في الرجال الارابن حتى عبدوها في الاصل

(١) وفي صفة جبل إتنا (Etna) يدعى احياناً « جبل جبل » (mont Gibel) بتكرار اسمين اعجمي فعرابي ومعنى كليهما الجبل
(٢) راجع مجلته الشركة الالمانية في فلسطين (ZDPV, 1904, p. 95)

كأهله على حد ما حدث في لبنان وجبل حرمون (جبل الشيخ) ورأس الشقعة والكرمل والجبل الاقرع كما سبق لنا بيانه
 بقي علينا ان نكرّر التنبيه بان بحثنا الحالي يكون جغرافياً محضاً اي اننا نقتصر على ان نتخذ من اسماء الاماكن في لبنان أدلةً تكشف لنا عن جغرافية لبنان التاريخية في الزمن القديم . واما ما تعاقب بالمباحث اللغوية كالتغيرات التي توالى على اسماء الاماكن: فاننا نجمل القراء الى الكتاب الذي ألفه الدكتور كيمبير (Kampff) (meyer) في هذا الموضوع وعنوانه « الاسماء القديمة في سورية وفلسطين الحالية » (١) حيث يبحث عن هذه المشاكل بدقّة وحداقة وسعة اطلاع كما هو دأبه في كل تأليفه

*

ولكي يمكننا ان نجنى من هذا البحث جميع الثمار التي نستهبها ونحصل على جميع الفوائد التي يتضمنها كان لا بدّ ان نحصل على لوائح كاملة لجميع اسماء الاماكن الموجودة الان في لبنان مع الردوم وتقاسيم المقاطعات والاحراج والينابيع والودية . وفوق ذلك كان ينبغي لنا ان نبّحث في الكتابات القديمة عن الاسماء المكنية التي فقدت وقصارى الكلام كان يازم ان يكون لدينا فهرس تتضمن اسماء المواضع فقط كاللائحة التي وردت في مجلّة الحفريات الفلسطينية (P E F) (٢) لبلاد فلسطين بل مجموع شامل لاصناف لبنان ورسومه على غط المجموعات الكتابية المؤلفة لجميع الكتابات القديمة (٣) . فلا حاجة الى القول انه لا يوجد نظير هذه اللوائح والفهارس للبنان امّا لائحة روبنسون وعالي سميث فلا تخاور من فائدة (٤) إلا انها غير محكمة الوضع فضلاً عن انها ناقصة . فالذي يسعى بعمل لائحة تقي بالمطوب يخدم العلم خدمة جليلة ويمكنه ان يبني جداول على تقسيم قائمات الجبل ومديرياته مُتبعاً التعليمات التي ألغنا اليها قبل الآن ثمّ يجمع التقاليد والاسانيد المحيطة التي تتعاقب باسماء الاماكن . والمشرق مستعدّ

(١) راجع المجلة ذاتها (ZDPV, XV et XVI)

(٢) المشروع حسن الا انه غير كامل ولا يمكن ان نعتد دائماً على روايات المؤلفين الانكليز

(٣) راجع مقالة العلامة جوليان التي عنوانها « الحاجة الى مجموع الأعلام المكنية في العالم

القديم » (Beitrage z. alt. Gesch. 1902, II, p. I)

(٤) وهي منشورة في (Biblical researches in Palestine, vol. III)

لنشر هذه اللائحة مع الشكر لمن يتفضل عليه بها . وكنا نودّ لو نُشرت سالنامة لجبل لبنان تودع فيها اسماء الاعلام المكانيّة . فيُتخذ لهذه الغاية كمثل « دليل لبنان » المنشور في ادارة جريدة لبنان فانّ فيه لائحة لمجلات الجبل الحاليّة الا انه ينبغي ان يكتمل ما فيه من النقص مع التمييز والتفريق بين القرى والمزارع واطرافها بعض دلائل ونحن لم نقف على كتاب في هذا الموضوع جامع للفوائد نظير تاريخ بيروت الذي نشره في المشرق حضرة الاب لويس شيخو ثم طبعه على حدة . فهذا التأليف الجليل لم يقابلها اداء الجبل بالمقابلة التي هو حقيق بها لاسيما من يهتمهم تاريخ لبنان وجغرافيته . فانه قد يسدّ خلل اللوائح الوصفية الى حدّ ما . وأخص فوائد هذا الكتاب بل اهمّها ما يتضمّنه من الايضاحات قائمة في وفرة اسماء لبنان الجغرافية المذكورة فيه كاسماء القرى والاملاك وايضاحات عن حدود المقاطعات القديمة وغير ذلك ممّا لم يرد ذكره الا في هذا الكتاب . فاننا لا نجد التواريخ الكبيرة تكثرت كثيراً للبنان كما اهملته تأليف الجغرافيين الكبار فاذا اتوا على ذكر هذا الجبل فانهم يذكرونه عرضاً دون اسهاب ولا تفصيل . ثم ان كثيراً من المحلّات القديمة بادت برمتها ولم يبق من آثارها الا اسمها الذي لم يزل منسوباً الى حقل او خربة لا شأن لها ولا اعتبار . ففي تاريخ بيروت نجد كثيراً من هذه الاسماء المندثرة كاسم « رمطون » مثلاً . وكأنة الصكّ الاول الشاهد لوجود عدد من قرى لبنان إن لم يجز القول بانّ فيه قد دون تاريخ ميلادها . فيجدر بنا اذ ذلك ان نثني اطيب الثناء على ناشره ولا يسعنا الا ان نحضّ طلاب العلوم التاريخية والجغرافية على الامعان في مطالعته ونحن نتعهد لهم باللذة والفائدة معاً فقد جنينا منه فوائد شتى ولا تزال نواظب على مطالعته استزادة لجدواه

٢

واوّل ما نجد في بحثنا عن اسماء المواضع في لبنان تغلب اللغتين السريانيّة والعربية عليها . أمّا العربيّة فانها تدلّ على حداثة عهد المساكن والمنازل لأنّ هذه اللغة خلقت اللغة الآرامية من عهد قريب كما اشرنا اليه في بحثنا عن لغات لبنان القديمة (١)

وفي أوّل وهلة تستحوذ علينا الدهشة ويشملنا العجب لقلة ما نشاهد من الاسماء الكنعانية او الفينيقية البحتة مع ان اهمّ الالهة التي استوطنت لبنان واقدمها كانت تنطق بهذه اللغة . وليس الكلام عن اسماء مدن الساحل نظير صيدا وبيروت وجبيل وغيرها اذ لا مشاحة في ان اصلها بالفينيقية وتسميتها كالفنة لان تطلعنا على حالة الفينيقيين الاولى (١) وأمّا ما كان منها في داخل لبنان فمثل مجدل وفروعها مجدل ومجدلياً (٢) ثم البيرة (٣) وعرامون (٤) وغيرها ممّا يأتي ذكره

فهذه الاسماء لقدم عهدا عانت مشقة عظيمة في صبرها على صروف الدهر . ولو امكنا تجريدنا من قشرتها الارامية او العربية التي تحجب صورتها فتجعلها مجهولة لوجدناها اوفر عدداً واقرب الى المعرفة ومثال ذلك البيرة التي مرّ ذكرها فانها تظهر لاول وهلة انها كلمة عربية لشبهها بالفظ البئر وهكذا قل عن كثير من الاسماء التي اولها عين او بيت او كفر . فهذه الالفاظ لا تختلف بالبرانية والارامية والفينيقية وقد نقلت كما هي الى العربية (٥) . فلشدة الشبه بين اللغات الثلاث يحصل غالباً القلب والتبديل في صيغ الكلمات فيصعب اذ ذاك معرفة الصيغة الفينيقية الاصلية كما في كفر تنبث بجانب النبطية حيث نجد اسم تنبث الطائر الشهيرة في تاريخ فينيقية . وفي شمالي بيروت جدول ماء كان يدعى باسم الاله «موت» وهو اله الجحيم بلوتون (Pluton) عند الفينيقيين . فلما أُنيت فيما بعد الديانة الفينيقية وأهملت اساطيرها وأغفلت اسماء آلهتها أُبدل موت بموت وأضيف اليها اداة التعريف فقالوا «نهر الموت» وزاد الشعب على ذلك فاخترق حكاية حرب هائلة جرت فيها الدماء مداراً . فهذه سنة العوام في اشتقاق الكلمات فانهم يفسدون صورها شيئاً فشيئاً ثم يجدون لها معنى في لغتهم فيخدعون انفسهم ويخترقون قصصاً وحكايات لتفسير الوهم الذي توهموه وسوف نورد امثلة جديدة في سياق كلامنا على هذا النحو . لكننا نأسف على ان بعض المؤرخين

(١) راجع تاريخ الفينيقين (Pietschmann: *Geschichte der Phœnicier*, 129)

(٢) اطلب المجلة الاسيوية الالمانية (ZDMG; 1875, p. 442)

(٣) راجع (Kampffmeyer, ZDPV, XVI, 20)

(٤) راجع كتاب العلامة كلرمون غانو (Recueil d'Arch. Or., VI, 70)

(٥) راجع كتاب الآثار العبرية للعلامة نواك (Nowack)

ينخدعون لهذه الترهات فيقدّمون لنا كأدلة حقيقة اختلاقات الشعب الوهميّة
 اما بقية اللغات كال يونانيّة واللاتينيّة فانها قليلة في اسماء المواضع اللبنانية فليس
 في هذا ما يُدهشنا بعد النتائج التي توصلنا اليها باجرائنا عن اشتقاق الالفاظ في لبنان
 ولا يصعب التسام بهذه الملاحظات اذا سرّحنا الطرف في خريطة لبنان شمالاً ووسطاً
 وجنوباً في المنخفضات البحريّة والمنحدرات الجبلية فيستفرّنا الانذهال لما نرى من كثرة
 الاسماء السريانيّة صرفاً مثل كُفّر وكفور وشير وتصغيرها العربي سُوير بمعنى الصخر
 وغيرها ممّا لا يُحصى عدده مثل نيجا وشقيف وكفرحتاً ودارياً ورشعين وكل كلمة
 تألقت من « راس » كناية عن راس ومن « طور » اي الجبل الخ . والاسماء التي
 تنتهي بصيغ او اخر الكلمات السريانيّة مثل آيا (آيا) وآتا (آتا) واون (اون)
 علامات الجمع والتصغير . وكفى بهذا المجموع وحده شاهداً على ان لبنان ارض
 ارامية ان لم يشهد بذلك التاريخ . فهذا الموضوع لا يكاد يُبلغ كنهه او يُسبّر
 غوره اذا اردنا التوغل فيه . فهناك بعض امثلة زيادة على ما اوردنا فعين طورا هي
 حَمُّ لُوهُوا (عين الجبل) ورشمياً وُلُعا حَمُّل (راس الماء) ودير قرقفة وهو
 اليوم دير للملكيين هو دير الجمجمة (حَمَمُحَل) وبيت مري (حَمَمُ حَمَم)
 بيت السيّد وترعون (كَلُوحَل) الابواب وجزين (كَلُحَل) انكروز
 وبين هذه الاسماء السريانيّة ما يستلقت نظراً خاصاً وهي الاسماء الكثيرة في
 لبنان المبتدئة بحرف ب (ح) اختصار (حَمَم) بيت وهو اختصار قديم مختص
 بلغات سورّيّة . وقد ورد نظير هذا الاختصار في اللغة الفينيقية وفي التلمود وفي اسماء
 قريبا من الفلستينية المذكورة في التوراة ومنها بيشان בישן = בישן التي تُرى
 حتى اليوم قريبا من نهر الاردن جنوبي بحيرة طبريّة (١)

وذكر كتبة اليونان مدينة في جزيرة العرب قريبة من البحر الاحمر باسم
 Βαλαμψα) وغني عن البيان انها بيت شمس حَمَم حَمَم ويكتبونها ايضاً (٢)

(١) راجع المجلة الاسويّة الالمانية (ZDMG, 1860, 651 ; 1873, 325) ثم كتاب بعنة
 فينيقيّة (Mission de Phénicie, 853) ومقالة الدكتور كمبفاير (G. Kampffmeyer
 ZDPV, XV, 87, 111) ورحلة فتشئين الى حوران (Wetzstein : Reisebericht
 über Hauran, 110) (٢) راجع ZDMG, XXVII, 325

(Βαίτσαμφοα) وهذا يوئيد كلامنا . اما امثال ذلك في لبنان فكثيرة نورد منها بكفياً (حَمَه كَافُلاً) اي البيت الصخري وهي مركبة من حَمَه و كَافُلاً صخر ومثلها بكيفا في اقليم الحروب وبجدون وبياقوت اي بيت حمدون وبيت ياقوت (١) وقس على ذلك برمانا وبرمار وبتاتر وغيرها مما سوف يرد ذكره

وقد يسوغ لنا ان نحكم على الفور والبديهي ان بلداً نظير لبنان غزير الينابيع ومناخه يقتضي وجود المياه لا بد من ان يكون لعنصر الماء دخل في تركيب اعلامه . وصحة هذا الحكم تظهر بالمشاهدة فقد استمال افكارنا اسم قرية ميوميه (وليس « ميه وميه » كما يكتبها دليل لبنان) قريباً من صيداء في اقليم التفاح فاعتقدنا ان الكلمة الفينيقية الدالة على الماء داخلة في تركيب هذا الاسم ويقابلها في العبراني « מים » فحكمتنا بقد عهد القرية وبوجود ينبوع ماء مشهور كان سبب تسميتها بهذا الاسم - غير ان الاعلامات كانت في اول الامر سليمة . فلما جلنا متأخرًا في نواحي صيدا لم نعثر على عين ماء في وسط ميوميه اكننا شاهدنا في سفح القرية ينبوعاً من اجود ينابيع تلك الاطراف القاحلة واعذبها . ففي حين مرورنا كان جميع الاهلين في قلق واضطراب لان بعض اصحاب المطاعم سعوا بحكر المياه التي يستقي منها الناس والحداثق المجاورة فعند تأملنا تلك المياه الحسنة الخارجة من بطن الارض ادركنا سبب تسمية ميوميه بهذا الاسم الفينيقي

ثم في لفظة ميروبا الماء الغزير ورشماً رأس الماء تظهر للعيان كلمة حَمَه السريانية أما الاسماء التي تبدأ بكلمة عين فهي أكثر من ان تُحصر (٢) وهذا دليل آخر على تأثير المياه وفضلها في تعمير المساكن والاماكن . وهما تُبدي نفس الملاحظة التي ابدتها على الباء المختصرة من « بيت » وذلك ان عين تُختصر احياناً فتُلَافِظ عَنْ فعين طوراً تُلَافِظ « عنطورا » وعين دارا « عندارا » واليونان يسمونها عنديس (Andaris) . وهذا مما يدل على أن عادة ابدال عَيْنَ بَعْنِ هي قديمة وأما هل ان عنديس من لبنان فراجع الجزء الاول (١١٢) وكذلك قرية عنبال (٣) في ناحية الشوفين فاصلها عين بال .

(١) نسبة الى حمدون وياقوت ولا يُعلمنا التاريخ من اخبارها شيئاً

(٢) اتنا نُضَمَل ذكر الاسماء التي تبدأ بساقية وغدير

(٣) يظهر ان عنبال وعينبل في بلاد بشاره من اصل واحد وفي البشير ١٢ كانون الاول

وقس عليها مواضع اخرى من سورتي نحر ونبجار « عين جار » في البقاع وعندقت « عين دقت » في عكار وعين دور في فلسطين وهي تلفظ وتكتب اليوم « اندور » (١) . وقد تدغم النون بالحرف الذي يليه نحو عماطور واصلها « عين ماطور » (٢)

*

اماً الاسماء العربية المحضة فهي كثيرة ومعروفة ولا حاجة الى ايراد امثلة عليها ويكفيها ايراد اسم « الجديسة » لكثرة انتشاره . والاسماء التي تتألف من « راس وظهر ووادي ودير ودوير » واشباهها وكثيراً ما يتفق ان اللغتين تشتركان بالاسماء اللبنانية كما رأينا في الامثلة المتقدمة فتختلطان وتتجان امتراج الماء بالراح بحيث تشترك الكلمة العربية بالسريانية او تتصق صيغة الجمع والتصغير العربية بكلمة من صيغة ارامية ويسهل تحقق ذلك من الامثلة التي سبق لنا ايرادها . وفي بعض الاسماء كما في « انفه » يتعدر الفصل بين اللغتين فلا نعرف اسريانية هي ام عربية وقد اقبلت لنا اعلام الاماكن آثاراً شتى تدل على مرور العرب والآراميين بلبنان بخلاف بقية الشعوب التي ورد ذكرها في الفصل الذي بحثنا فيه عن سكن لبنان من الامم القديمة فنرد الى القراء ليطالعوا خاصة المقالة التي دار الكلام فيها على الحثيين فاننا اتينا فيها على ذكر اسمين جغرافيين يتصل عهدهما بهذا الشعب على ما نظن . اماً الفراعنة فع طول عهد استيلائهم على فينيقية لم يهتسوا باستعمارها ولم يعنوا باقامة الآثار فيها لكنهم كانوا يعمدون تدبير شؤونها الى عمال وطنيين مكنتين بوضع مراقبين عليها (٣) . اماً جنودهم فيها فكانت قليلة وكانوا من المتطوعين (٤) فضلاً عن ان قسماً كبيراً من لبنان لم يدخل تحت حكمهم زمناً طويلاً . لاننا نعلم ان املاك الفراعنة في فينيقية ايام رمسيس الثاني كانت تنتهي عند نهر الكلب اماً الرومان فلانستطيع ان نعزو الى لغتهم إلا اسم غوسطا التي عورضت

١٩٠٤ يذكر مراسل من عينل ان الرسائل المبعوثة الى قريته ترسلها ادارة البريد غالباً الى عينال

(١) راجع Kampffmeyer, ZDPV, XVI, 55

(٢) راجع تاريخ بيروت (ص ٨٨) والمجلة الفلسطينية ZDPV, XV, III

(٣) راجع الجزء الاول (ص ٧١) كتابات تل العمارة

(٤) راجع كتاب مكس مولر W. Max Müller, : Die Aegyptier als Eroberer

بأغوستا (Augusta) نسبةً الى اغوستس ونحن نسلم بهذا الاشتقاق لكن باحتراز .
وبين غسطا وميروبا مزرعة صغيرة تُدعى طبرية فهل يا ترى تشتق من اسم طيباريوس
نظير طبرية الجليل الشهيرة ؟ وان صحَّ هذا التأويل فمن يكون طيباريوس هذا ؟
قد زعم حضرة الخوري غبريل صاحب تاريخ الموارنة (ص ٥٧٦) أنه الامبراطور
طيباريوس البيزنطي لكن هذه الشهادة ليست بكافية اذ لم يذكر ذلك احد من
المؤرخين الاقدمين

ثم اننا لا نعدُّ من اصل لاتيني اسم «اسطبل» في اقليم التفاح ولا المحلات العديدة
التي تبدأ بقصر وبرج فان هذه الاسماء وان كانت في الاصل مشتقة من اللاتيني الا
انها قد دخلت في اللغة العربية من عهد بعيد حتى اصبحت كأنها اصلية ومثلها
الكورة اسم احد الاقضية في لبنان فأصلها يوناني «χώρα» اي الناحية . والمري
قريباً من شكناً فلا يبعد من انها تشتق من الكلمة اليونانية «ὄρεον» ومثلها اللاتينية
horreum وكلاهما بمعنى المري والمخزن ومن الاسماء التي يمكن نسبتها الى اللغة
اليونانية طبرجا وجربتا (١٠٠١) أما طاميش فلعلها من ارطاميش «Ἀρταμισ» وهي إلهة
الوثنيين كما ان جونبة يُحتمل اشتقاقها من اليوناني «γυνίξ» اي الزاوية . وأما البترون
والقلمون جنوبي طرابلس فانهما من الاسماء السامية صحَّفهما اليونان في لغتهم وجعلوها
منها كما صيروا جبيل «بيبلوس» وكذلك دفته في كسروان يشبه لفظها «δάρφνη»
وهي شجرة الغار كما ان ناووس (قريباً من كسبا وشبطين) هي «ναός» . لكن
رنان يتساهل كثيراً فيرى الاصل اليوناني في عدَّة اعلام لبنانية نظير دلبتسا وريفون
وعجلتون مع أن أصلها السرياني لا شبهة فيه . وفي رأيه ان كلَّ الاسماء اللبنانية
المنتهية في إين وأون وأوش مثل غرفين وريفون وحنوش هي يونانية الاصل (٢) فهذا
الزعم لا يستحق ان نعيره التفاتاً . وبالجملة ليس في لبنان أكثر من عشرة أعلام

(١) راجع الجزء الاول (ص ٢ و ٥٨ و ٦٩) ما قلناه عن انطلياس فانَّ اشتقاقها من
اليوناني هو من الامور المشككة . وقد ذكر الشريف الادريسي شمالي صيدا بلدة باسم قلمون
لم نعرف من امرها شيئاً ولماها تحريف «علان» القريبة من نحر الاولي . وكذلك قلمون
الرسمية على الخريطة الفرنساوية شرقي البترون هي تصحيف قزنون

(٢) راجع كتابه بعثة فينيقية (Mission de Phénicie 141, 246, 229 238)

مكانية يمكن ردها الى اصل يوناني فهذا العدد اليسير لا يكاد يُعبأ له بالنسبة الى الاعلام اللبنانية المتعددة التي ثبتت ساميتها

اما اكثر الاسماء توغلاً في الابهام فهو اسم كسروان فمن المعلوم اننا نستخلص منه بلا عناه اسم العالم كسرى ولكن كيف نفسره؟ ومن هو كسرى هذا؟ وكيف وقع اسمه على هذه المقاطعة اللبنانية؟ يقول قائل انه اسم احد متقدمي المردة وليس ذلك جواباً شافياً لأن المردة كما افاد التاريخ نزحوا عن لبنان ولم يخافوا فيه سلاطهم . وكذلك لا نسأهم بالتقليد الذي يرد « قب لياس » (في البقاع) الى قبر لياس . وهو زعيم اخر من زعماء المردة في قولهم . وليس قب لياس في رأينا اشد وضوحاً او بالحري اقل ابهاماً من انطلياس (١) والمسيو غورناتيس في تأليف حديث له (٢) يساهم برأي من يرجع هذه الاسماء الى المردة ويؤمن بانهم اتوا الى لبنان من بلاد الفرس لكن قبل العهد الذي يذكره تالوفان المورخ اليوناني وهم الذين دعوا كسروان باسم أتوا به من بلادهم . لكن التاريخ لا يذكر شيئاً من امرهم ما خلا تالوفان وهذا المورخ اليوناني يخاف كل المخافة رأي غورناتيس في عهد دخولهم لبنان . امّا نحن فلا يسعنا الا ان نشاطر سيادة المطران يوسف دريان رأيه ويأوح لنا أنه دحض بسديد براهينه زعم العالم الايطالي دحضاً مفجعاً . وعندنا ان اشتقاق اسم كسروان مشكل لم يجأه احد الى الان

اماً اللغة الفرنجية فلم يبق منها في لبنان الا ما قلّ ونذر فكانوا يسمون المنيطرة (Le Monestre) ويطلقون اسم (Franche-garde) على قلعة يُقال لها الان المنطرة وهي بجوار صيدا . ويدعون قلعة نيجا القريبة من جزين (Cavea de Tiron) ويسمونها قلعة الشقيف جنوبي النبطية (Beaufort) . ولم يبق من هذه الاسماء الا الاسم الاول الذي صحفوه ونقلوه الى اللغة الفرنساوية وكذلك اسم دير

(١) قرأنا في ذخائر لبنان لجناب ابراهيم بك الاسود: «كلمة اعلياس لا تخلو ان تكون منحوتة اما من انطون وايلياس واما من انطس ايلياس واما من ايقونة لياس وهذا الاخير هو الارجح» (كذا)

(٢) راجع *Gubernatis : Rassegna Nazionale, Mardaiti e Maroniti*, 16 Juillet, 1903

البلمند فهو منقول عن كلمة (Belmont) كما اثبتنا ذلك في موضعه (١) وقد رأى حضرة الاب ابراهيم حروفش في « خربة السويس » تلميحاً الى الشعب السويسري (٢) فنحن لا نحال التسليم بهذا التفسير ممكناً لان السويسريين لم يُعرفوا في اقطارنا فضلاً عن ان اطلاق اسم السويس على الشعب السويسري كان بعد ذلك العهد . ومن المحتمل ان اسم « روس الفرنج » (في قضاء جزين) و « جوف الفرنج » بجوار تنورين من آثار ذلك العصر غير اننا لا نستطيع ان نبت بهذا المعنى حكماً جازماً

واماً اسم جرمق (بناحية جبل الريحان) الذي ورد ذكره اثناء كلامنا عن الجراجمة فانه يُخلد اسم الجرامقة وهو شعب ارامي (٣) تذكره كتيبة العرب وهم لا يفرقون احياناً بين الجراجمة والجرامقة فهولاء الجراجمة ليس لهم اثر في اسماء المواضع اللبنانية وذلك دليل على انهم اجتازوا لبنان اجتيازاً ولم ترسخ فيه اقدمهم ومن الاسماء التركية اسم الزوق وهذا الاسم من الاعلام المكانية الموجودة معاً في كسروان وفي عكار (٤)

أما النتيجة التي نستمدّها مما قدّمناه في هذا الفصل فهي عجز اللغات غير السامية وقصورها عن التأثير في تسمية الامكنة اللبنانية العجيبة بوحدة نوعها . وهذا مما لا نشاهده الا فيما قل من البلاد أما اوربة فانك تجر في اسماء مساكنها اشكالاً والواناً

(١) تسريح الابصار (١: ١٤٩)

(٢) المشرق (٥: ٢٩٨)

(٣) او فرقة من الاشوريين الاقدمين او « هم اهل الموصل في الزمان القديم » (القلقشندي

١: ٢٣٠) راجع Chwolson: Die Ssabier, II. 697 وياقوت في معجم البلدان (٣: ٦٤)

يوسى الى وادي جرمق على مقربة من صيدا وهو وادي جبل الريحان . ثم قابل بين نصي ابن الفقيه الهمداني قال الاول (ص ٧٧ سطر ٢٠) : « الروم ملكانية يقرأون الانجيل بالجرمقانية » وقال الثاني (ص ١٢٦ سطر ١٦) وشرح قوله اصعب لان الكلام فيه عن روم اروبة : « الروم كلهم ملكانية يقرأون الانجيل بالجرمقانية ». فمن يتقدم الينا بشرح معنى الجرمقانية يقلدنا فضلاً وجسلاً ومن المقرّر انه ليس المراد بها السريانية اذ ان الجرمقانية على قول ابن الفقيه لغة روم اروبة الطقسية

(٤) Robinson : op. cit. 183

*

اننا قد بيننا في سياق الكلام عن دخول النصرانية الى لبنان قبل الهجرة بثلاثمائة سنة ما عانت من المكاره ولاقت من المصاعب حتى استتب لها الامر وتوطدت دعائمها (١) ولم يتم انتصار النصرانية على الوثنية قبل اواخر القرن السادس واولئ السابغ وذلك بفضل الشعب الماروني واسماء المساكن تؤيد هذه النتيجة التي لا سند لها الا الادلة التاريخية

انه لامر شائع في جميع البلاد النصرانية ان تُسمى المساكن باسماء القديسين فشيوع هذه العادة يظهر ما لعبادة القديسين من الشأن والاعتبار عند بني جلدتهم ويبين لنا اهمية الابنية الدينية التي نشأت حولها المدن الحظيرة . فن هذه المدن سانت اتيان في فرنسة وسان لويس في المالك المتحدة وسان باولو في البرازيل . فمما يقضي بالعجب ان الاسماء المكانية التي تنسب الى اسم قديس قليلة جداً في لبنان نعرف منها مار شيتا في الزاوية ومار ماما في بلاد البترون اما في بلاد عكار فان روبنسن يذكر في لوائحه (٢) مار لياً وهو اليوم خربة . وتزيد عليه اسم مزرعة مار توما (٣)

اما الاسماء التي تتألف من دير ودير فهي اكثر شيوعاً اقل مما ينبغي ان تكون في بلد اغلب سكانه نصارى . وعلة ذلك على ما نظن انحصار الطائفة المارونية زمنناً طويلاً في شمال لبنان فانها لم تجاوز حدود نهر ابراهيم كما اثبتنا في جملة مراضع الآ في القرنين الخامس عشر والسادس عشر . ونحن نعلم ان كثيرين يرضون حتى الان التسليم برأينا . فما علينا الا ان نوضح للمناظر ان تسمية الاعلام الموضوعية لا تقضي لهم ولا تتناول رأيهم . فقد ظهر من الابحاث التي نشرها حضرة الاب ابراهيم حروفش في المشرق عن اديرة كسروان القديمة انها متأخرة عن الجيل الخامس عشر . فاي تفسير لهذا الشذوذ غير تفسيرنا . ثم علينا ان نعتبر ان الاديرة الكبيرة كانت قديماً

(١) ترويج الابصار (١٧٥٩-١١١٢)

(٢) راجع تأليفه (ص ١٨٣)

(٣) وهذا الاسم مذكور في لائحة نفعّل علينا بها حضرة الخوري بولس طعمه وقال ان اهله اليوم مسلمون

نادرة في لبنان لأن العيشة الرهبانية فيه كانت في بادئ أمرها تقوم في الخلوّة والعزلة شأن النساك والرّهّاد فأكثّر الاديّة الكبيرة سيما جنوبي نهر ابراهيم بُنيت بعد تأسيس الرهبنة البلدية . وهذه بعض الاسماء التي تبدأ بدير : دير القمر ودير قوبل ودير بابا ودير دوريت وقد ورد ذكر جميعها في تواريخ الفرنج في القرون الوسطى (١) وفي تاريخ بيروت (١٩٢-٢٨٢) . فهذه القرى سبقت عهد القرن الحادي عشر واماها قامت على انقراض اديرة مبنية قبل الاسلام . وما يحملنا على هذا الاستدلال وجود تلك الاديرة بناحية لم يستوطنها غير الدرّوز قبل القرن السابع عشر . وقد يعنّ لنا أنّ في هذه الناحية موضع الدير الذي اقامه في لبنان القديس ربّولا وقد ورد ذكر هذا القديس في كلامنا عن ابتداء النصرانية في الجبل (٢) . وهما نحن نورد بعض اسماء ممّا يبدأ بدير غير ما ذكرنا . ففي منحى لبنان الشرقي دير الاحمر (شمال غربي بعلبك) ودير طحنيش على منحدر جبل الباروك المشرف على البقاع ودير دارم ودير جانين في بلاد عكار (٣) ودير الزهراني في وادي النهر المذكور

ولقد تبين لنا من اجائنا المتقدمة عن العاديّات اللبنانية أنّ لبنان بلد تأصلت فيه العبادات الوثنية ورسخت اصولها وانتشرت فيها الهياكل والابنية التي تحيي ذكر الديانات الساميّة . فاسماء الاماكن تدعّم شهادة العاديّات وتوضحها على منوالها (٤) فبفضلها ندرك جلياً امر تلك الانقراض الدارسة وغايتها وبفضلها نكمل نقص التاريخ ولايضاح ذلك نتخذ بعض امثلة ممّا يحضر الحاضر على سبيل الاتفاق :

فان كنا نجعل انتشار عبادة الإلهة الفينيقية ثابت في لبنان فالاعلام المكانية تُطلعنا عليها فمن تلك الاعلام كفر تانيث الواردة في تاريخ بيروت (٥) وعقبتيت جنوبي

- (١) راجع المجلة الفلسطينية (ZDPV, X, 276, 277) اما تفسير اسم دير القمر في كتاب اخبار الاعيان (ص٢٩) فهو الى العرابية اقرب منه الى المكائنة والسداد على ما لاح لنا
- (٢) راجع الجزء الاول (ص١١٢-١١٤)
- (٣) وغيرها في تلك الناحية . راجع روبنسون (183-190)
- (٤) راجع اجاث غلدسيير (Goldziher : Mohamm, Studien, II 334 336)
- (٥) لصالح بن يحيى (ص٢٢١)

شرقي صيدا، ١٦ وعيتايت على منحني لبنان الشرقي على سفح تومات نيجا الى الشرق .
 وليست تانيت وحدها الإلهة السامية التي عاش ذكرها في الجبل
 كُنَّا الى اليوم نشته بوجود إلهة كان الاراميون يؤذون لها اكراماً خصوصياً
 ويدعونها شيئا . وقد استلفت اليها الانظار بمقالاته حضرة الاب سبستيان رتزال (٢) فقد
 اكتشف بجذقه المعروف اسم هذه الإلهة في « كفرشيا » قريبا من بيروت « وبيت
 شاما » (على طريق زحلة الى بعلبك) « وشامات » في بلاد جبيل ونحن نضيف الى ما
 تقدم اسم « بعلشميه » (في المتن الاعلى) فهذا الاسم الذي يبدأ بعل هو عندنا من
 اغرب الاسماء الاولية والاصلية في لبنان (٣ . فكل يعلم أن الآلهة كانت تُعبد في
 المياكل السامية ازواجاً فكل من الآلهة كان بازائه ما يقابله ذكراً كان أو أنثى وحتى
 اليوم لم يكن مقابل شيئا لها . معروفاً وان كان يسوغ الاستدلال على وجوده بالاستقراء .
 اما الان فقد اكتشفت حديثاً كتابة يونانية شمالي سورية فيها ذكر الاله (Σέμιος) (٤)
 فهذا الاله لا نخاله إلا زوج شيئا الذكر لأن بعلشميه لا تعني إلا بعل شيئا اعني
 مُقابلها الذكر لأن لفظ البعل عند الساميين اذا جاء منفرداً كان يدل على كبير الالهة
 ويشير الى اله محلي او خصوصي اذا اضيفت اليه صفة كما نراه واقعا
 ثم ان قرية درب السين (وعلى الاصح دربسين (٥) شرقي صيدا بقربة منها
 تذكرنا باله آخر هو الاله سين او القمر المكرم خاصة في بلاد بابل وما بين النهرين
 وكان له في حران هيكل مشهور ومنها امتدت عبادته الى سورية لان حران كانت
 مبنية على طريق القوافل التي كانت تتعاطى الاتجار في تلك الاصقاع
 وفي سورية الشمالية مواضع يدل اسمها على انتشار عبادة القمر . فمن ذلك
 كفر باسين في جبل سحمان (غربي حلب) وبقوار افامية القديمة موضع آخر يدعى بهذا
 الاسم . فلفظة باسين تتركب من با وسين : والتأويل بيت سين اي مسكن او هيكل

- (١) راجع Guérin, *Gallilée*, II, 516 وقد أهملت هذه البادة في الخريطة الفرنسية
 للبنان وهي غير كاملة في الجنوب (٢) راجع المشرق (٧: ٢٢١ - ٢٢٥)
 (٣) وقد ظن بعضهم انه تصحيف « بعل شمين » اي بعل السماوات وهذه التسمية شائعة
 عند بني سام راجع اخبار الاعيان (ص ٢٦)
 (٤) راجع Bullet. corresp. hellénique, 1902, p. 182
 (٥) ZDPV, VII, 115

الاله سين . وكان العرب في الجاهلية يعبدونه ايضاً (١) وامل هذه العبادة نقلتها عنهم الى لبنان قبياة الايطوريين وهي عشيرة من عشائر العرب سكنت قديماً في لبنان كما سبق لنا اثباته

وثرى ايضاً في لفظة «كفر قاهل» شمالي الكورة اسم قاهل ومعناه القدير وهو من اسماء الجلالة عند العرب الاقدمين (٢)

وما نبهنا اليه في بعلميه ودرسين يتطابق ايضاً على اسم دار بعشتار. فهذه اللفظة كما سبق شرحها في غير موضع (الجزء الاول ص ١٣٧) ما هي الا بيت عشتار اي هيكل عشتروت . وعشتروت هذه من معبودات اللبنانيين الخاصة ولذلك كان اليونان ينسبونها الى لبنان فدعوا «*Λιβανίτις*» (٣) فالجزء الاول من الكلمة جرى عليه من الإبدال ما جرى في لفظة دربين التي كانت في الاصل داربين فحوّلها الشعب الى درب السين (٤) ولم ينتبه الى أن الباء الابتدائية هي اختصار بيت ثم قدم على بعشتار لفظة دار ومدلواها البيت ولا عجب في هذا إذ أن في العامة ميلاً فطرياً يحملهم على وضع معنى للالفاظ القديمة التي يقوتهم ادراك سرها . وبناء على هذا المبدأ كتب العامة «مجد البعنا» (٥) (ضيعة في الجرد الشمالي) وكان حقها ان تُكتب مجدل بعنا. وهكذا قل عن «مجد العوش» والصحيح «مجدل معوش» وجرى الشعب على هذه الطريقة لانه لم يكن يعرف ان مجدل هي لفظة كنعانية قديمة ومعناها قلعة فنقلها الى لفظ عربي متشابه

ومن المرجح ان اسم بزيزا المجاورة لدار بعشتار هو ادغام بيت عزيز. وعزيز هذا كان الهاً عند الساميين تتصل عبادته بعبادة الشمس (٦) وكان له مزيد الاكرام في

(١) قابل ايضاً اسم جبل طورينا 29-31, Grimme : *Mohammed*,

(٢) راجع Grimme, 39, *op. cit.*

(٣) راجع الجزء الاول ص ٤٥ وتجد هناك صورة عشتروت ص ٤٦) Clermont-

Ganneau : *Rec. Archéol. Orient.*, III, 188

(٤) اما رنان (Mission de Phénicie, 512) فيريد ان تحذف الباء ويكتب الاسم دير السين. غير انه من الضرورة ابقاء الباء كما يستدل من اسم كفر باسين الشائع في شمال سورية

(٥) وهكذا كتبها صاحب دليل لبنان

(٦) راجع (Revue Archéol., 1903, p. 129-130)

الرها وفي حصص كما يُستدل من الكتابات اليونانية العديدة التي قرأنا فيها اسم « Ἄγκυρος » ١)

أما الاعلام المركبة التي اول جزءها « عبد » فثانيتها اسم الهي عادةً ولذلك لقبوا هذه الطائفة من الالفاظ بالاسماء الالهية . وعندنا ان عبدلي (من بلاد البترون) تتضمن اسم الله ولعلهُ بصيغته اللطفة يلبو في اللغة البابلية او في العبرانية بدلاً من الصيغة السريانية او العربية المشبعة والمفحمة . ومما يؤيد هذا التأويل هو انها لا تلفظ عبد الله بالفتح والاشباع بل عبدلي **حججك** بكسر الدال اللطفة او بالاشمام

واقدم اطاعتنا كتابات تل العمارنة على شدة نفوذ بلاد بابل في اقطارنا الشامية . فلا عجب اذن ان وجدنا شيئاً من آثار الديانة البابلية في سورية وقد شاهدنا مثلاً على ذلك في ادخال عبادة الاله سين . وقس عليه الاله البابلي نبو (وفي العربي نبا) فاننا نجد اسمه في « قصر نبا » شمالي زحلة على منحني لبنان الشرقي (٢) . ولا بدع ان اوردا كتدكار بابلي اسم « كفر غرود » في بلاد جبيل وهي خربة وقد ذكرها عدة من علماء الافرنج (٣) ونحن لم نشاهد هذا المحل كما اننا لم نشاهد « قلعة تدمر » . فلذلك نكتفي بالاشارة اليها ولا نزيد على اسميها تأويلاً . على اننا نرى قري كثيرة ومزارع عديدة تسمى باسماء الالهة القديمة فمن هذه القرى بدادون (في الغرب الشمالي) فانها تتركب من ب = يت والصيغة السريانية أون المزيده في اواخر الاسماء . اما داد فإله قديم لبني سام ونجدته في لفظة دده (الكورة الشماليّة) كما نجد في عفصديق (الكورة الوسطى) اسم الاله صدق (٤) . وفي « مراح كيون » في اقليم التفاح يظهر اسم زحل احد معبودات الشعوب السامية وقد كان معروفاً عندهم باسم كيون (٥) . قال ابو العلاء المعري :
اذا عظّموا كيونَ عظّمتُ واحداً فكان له كيونُ اولَ ساجدٍ

(١) راجع تأليفنا في آثار حصص *Notes sur l'Émèse*, passim

(٢) ونراها « كفر نبا » في جبل سمان غربي حلب . وحاء في « ذخائر لبنان » (ص

١٣٥) ان نبا اسم امير عربي . وهو تفسير قصي

(٣) راجع بمئة فينيقية (ص ٢٠٢)

(٤) راجع 473, 483 *Winckler, op. cit.*

(٥) راجع 409 *Winckler, op. cit.*

الآن أكثر الالهة شيوعاً عند الكنعانيين والفينيقيين هو البعل فلم يكن ممكناً ان يُفعل اسمه في تسمية الاماكن اللبناية ولنا دليل في اسم بعلاشميه ومثله شلبعل في بلاد الشثيف (١) . وكبعل قريباً من الغينة (كسروان) . وكفروبال في وادي فيدار . وسبعل وبسبعل (٢) شمالي قضاء البترون . وعنبال بدلاً من عين بعل (٣) في الشوف . فهذه الاسماء لا تزال محافظة على اسم زعيم الالهة الفينيقيين امماً صالحاً فلعلها الكلمة الكنعانية «لذلا» وهذه الكلمة ليس معناها صورة وضمن فقط بل هي اسم احد الالهة السامية المسماة صاليم (٤) فيكون اذن معنى بصاليم (في المتن) بيت صاليم اي بيت الصنم او هيكل الاله صاليم ومن العبادات التي شاعت كثيراً في سورية هي عبادة الشمس والى هذه العبادة ينتسب اسم «عين الاسد والشمس» في اقليم الحروب . وما يزيد هذا الاسم اهمية هو تضمينه لاسم اله آخر وهو الاله الاسد الذي اظهرت وجوده للعيان كتابةً اُكتشفت حديثاً في جبل سمعان (٥) يُقرأ منها اسم الاله الاسد باليوناني (Λέων) . وفي بعابك كان الاله جنابوس «Γενναίος» يُعبد بصورة اسد . وتمثيل الالهة بصورة اسد كانت عادة شائعة في سورية (٦) . وقد تحدثنا النفس بان نعزو الى تلك العبادة الاسدية (٧) اسم مدينة الاسد (Λεοντόπολις) ونهر الاسد (Λέοντος ποταμός) وكلاهما على منحدر لبنان الشرقي (٨) بين نهر الليطاني ونهر الكباب لكن مركزهما لم يُعرف تماماً (٩)

(١) راجع V. Guérin, *Gablie*, II, 530, 541

(٢) ولغظها الحالي لا يناقض رأينا في شيء فالعادة جارية في جميع البلدان على الاعلام التي لا يفهم معناها الوضحي بان يحدث تبديل في لغظها اولاً ثم في كتابتها

(٣) راجع اخبار الاعيان (ص ٣١)

(٤) راجع Winckler, 473

(٥) راجع Bullet. corresp. hellénique, 1902, p. 182

(٦) راجع مجموع الآباء اليونان لمن (Migne, PP. GG., CIII, c. 1292)

(٧) راجع مقالة الاب رونزقال هذا المصوح : (١٩٠٥, 48 - 53) *Revue Archéol.*

(٨) وكان اللبنايون الوثنيون يذرون لآلهتهم تقديماً صور الاسد (Mission de

Phénicie, 397)

(٩) راجع مقالتنا عن اسماء اخضر لبنان القديمة

واماً ما يتعلّق بعبادة الشمس فقابل « بيت شمس » وهو من الاعلام الكثيرة الشيع في فلسطين (١)

ومثها العبادة للاله رمّان (٢) التي شاعت في طَرَفِي العالم الساميّ في بلاد اشور كما في بلاد العرب وفي جميع البلدان المتوسطة بينهما . فمن تلك العبادة دُعيت اماكن عديدة باسماء تدخل في تركيبها لفظة رمّان نحو عين الرّانة وبرمّانا ولعلّها بيت الاله رمّان . ولَمَّا أُغفل على مدى الزمان اسم هذا الاله حُسبت هذه التسمية نسبةً الى شجر الرمان وايس له وجود في تلك القصبه وقد يتفق ان يكون ذلك في بعض الاماكن بشرط ان لا تكون في مواقع باردة لا يعيش فيها الرّمان . وليس لنا ان نهمل اسم « كفرعمي » الغريب وقد يمكن ان يكون اسماً الهياً لان « عم » من صفات الالهة عند بني سام الاقدمين (٣)

فهذه هي الآثار المهمّة التي ابقتها العبادات الوثنيّة في اعلام المساكن البنانية وهي كلّها عبادات سامية وهذا طبيعي في اراضٍ سكّانها ساميون . واما ما اخصّ بالعبادات اليونانية والرومانية فيدلّ عليها اسماء بلّوني وطاميش ولعلّها مشتقان من اسمي ابولون وارطاميس او ديّانة (Diane) . لكنّ هذا الاشتقاق لا يتجاوز حدود التخمين وقد يمكن ان نقابل بطاميش دير ارطاميس (ومنه ~~وَأُولَى هَدَمَص~~) في حوران وهو مذكور في كتابه سرّانية من الجليل السادس (٤) . وظنّ البعض انه ورد لابولون ذكر آخر في لبنان وهو اسم مغارة بالقرب من صيدا يدعونها مغارة « ابولون » وهذا الاسم مصحّف والصواب « مغارة طبلون » وهو اسم مكانيّ نجهد اصاه اكتبنا لا نظنّه متعلّقاً بعبادة ابولون اله الرومان . ولقد اردنا في الجزء الاول (ص ١٤١) اسماً غريباً في بابِه وهو اسم « وجه الله » الذي كانت تسمي به اليونان رأس الشّعسة وكذلك اسم ضيعة « وجه الحجر » القائمة على ذلك الرأس فاسم وجه الحجر من آثار عبادة قديمة والمكان يُدعى باليونانية (Θεουπρόσωπον) او (Λιθοπρόσωπον)

(١) راجع معاجم اتورا و Winckler, 369

(٢) راجع كتاب حضرة الاب لاكرانج (Lagrange) في الديانات السامية (ص ٩٢-٩٣)

(٣) Winckler, 480

(٤) ZDMG, 1875, 436

وكلاهما ترجمة الاسم العربي فقد كان بين طواغيت العرب صنم اسمه حجر وكان للايطوريين مركز على هذا الرأس من اهم مراكزهم يقال له جيجارتا فلعلهم هم الذين ادخلوا تلك العبادة الى لبنان (١)

وفي بعض كتابات دير القاعة ذكر اله يدعى (Apeuθnvoç) وقد استلقت هذه الكتابة انظار المستشرقين اي استلقت قسائلوا عما عساه ان يكون ذلك الاله المجهول الى هذا الحين واين هيكله . فاذا حذفنا آخر الكلمة « nvoç » الدالة في اللغة اليونانية على النسبة بقي « Apeuθ » وبهذه الطريقة نحصل على اسم المحل المنسوب اليه هذا الاله . وقد بحثنا عن حقيقة هذا العلم فعن على فكرنا بادىء بدء اسم رمطون التي ورد ذكرها مراراً في تاريخ بيروت (٢) لصالح بن يحيى وهي قرية من كفرمتى بينها وبين نهر الدامور . فرمطون هي اليوم خربة ولا ريب انها كانت قديماً ذات بال وشأن كما يستدل من نسبة الرمطوني الذي عرف به كثيرون من امرء الغرب فهذا الاسم يشابه الاسم اليوناني ولا فرق بينهما سوى ان ال التعريف داخلة على الاسم اليوناني بخلاف العلم العربي الحالي منه

الآن في الاسماء اللبنانية المكانية اسماً آخر يوافق كل الموافقة حل هذا المشكل وهو اسم القرية عرمتى او عرمتى في ناحية جبل الريحان (٣) وبقرية منها مزار ابي ركاب الذي تبلغ في اكرامه وتاولة الناحية وما هو الا الاله المعبود قديماً في عرمتى والاله (Apeuθnvoç) المذكور في كتابة دير القاعة

فسمّاً مرّبك من التفاصيل يتبين عظم قدر العبادات الوثنية في لبنان والمصاعب الكثيرة التي ناصبتها النصرانية حتى توصلت الى نصر الحق على الباطل وبها تدرك معنى كثرة الابنية الوثنية في لبنان . فدرس الاعلام المكانية يطلعنا على ان العبادات الوثنية كانت مع الابنية المختصة بها اوفر عدداً في قديم الزمن وانه لم يبق من اثرها الا اسما . بعض المواضع فاذا ما حصلنا على لوائح وصفية وافية بالمطوب امكننا ان نضيف زيادات كثيرة على ما قدمنا

(١) اطلب بعثة فينيقية لبنان (Mission, 402)

(٢) راجع مثلاً الصفحات ٧٦ و ٨١ و ١٢٢ و ١٢٧ و ١٢٩ و ١٨٠ و ١٨٥

(٣) و يوجد موضع آخر يدعى عرمتى في جبل (النصيرية)

*

واعلم انَّ فائدة درس اعلام الاماكن لا تنحصر في معرفة عبادات المشركين فقط فانَّ الجغرافية والتاريخ يجنيان منه اعظم جدوى . فمثال ذلك « خربة صيدون » في قائمقامية جزين تُحبي وتُحفظ ذكر صيدون وهي صيدا وتدلُّ على انَّ نفوذ ام المدن القينيَّة امتدَّ الى داخل الجبل وقد نبه بعضهم الى انَّ فريديس وهي كلمة فارسيَّة شائعة الاستعمال في سورِّيَّة تدلُّ عموماً على حظائر صيد قديمة للملك الفرس (١) وهي عادةً مواضع تكثُر فيها المياه ومن ثمَّ الغابات والطراند شيثان يستلزم احدهما الاخر . وما من موضع احقُّ بهذا الاسم من فريديس الباروك فهناك سهل بهيج تسقيه ينابيع الباروك الغزيرة يشبه في تنظيمه وترصيفه حظيرة صيد كبيرة وعلى اكتافه ارز الباروك (٢) هو بقيَّة من الغابات القديمة التي كانت تحتلف اليها حيوانات متنوعة

وفي بطرآن من قضاء الكورة آثار عديدة من قبور واحواض كبيرة كلها منحوتة بالصخر قد وجدنا بينها اخربة تدعى اشمونيت زجاج كونها انقراض هيكل اشمون الاله القينيقي (٣) الذي ينطبق على الاله اسكولاب اله الطب عند اليونان . وكان النصارى القديما ارادوا تقديس ذلك المكان فاقاموا هناك معبداً باسم القديسة اشموني اضحى اليوم خراباً والاهل يكرمونه وقد اعتادت النساء اللواتي يشعرنَّ بألم في الصدر ان يسجنَّ موضع الوجع بماء مصبوب على حجر من حجارة المعبد القديم . واشموني عند الشرقيين ام السبعة القتية الشهداء المذكورين في سفر المكابيين لكنَّ الكتاب المقدس لا يذكرها اسماً ولعلَّ الشرقيين اشتقُّوا اسمها اشموني من العبرانية שמונה اي الثامنة لانها قُتلت بعد اولادها السبعة

*

قد ابنا غير مرة انَّ لبنان يمتاز بنباته الراخ وغاباته الملتفة . اما اليوم فمن يسرح الطرف في ذرى هذا الجبل ويراه اجرد في اكثر اماكنه قليل الاحراج والاشجار نسب

(١) راجع الجزء الاول (ص ١٣٤)

(٢) اطلب المشرق (١ : ٢٧٧)

(٣) راجع المجلة الاسيويَّة الالمانية (ZDMG, 1905, 459 etc.)

الينا التحمّس والمباغة وارتاب بصدق ما روينا من الأدلة القديمة . غير أنّ تسمية الاماكن تشهد بكثرة الاشجار والنبات في لبنان قديماً . ومن ذلك المساكن المسماة « غابة » او « غابات » والتي يدخل في تركيبها اسم شجرة كالاعلام الآتي ذكرها : « سندیانة وبلوط وصفصافة وجوز وحور ودلبة ودلبتا وزعرور ورمانة وخروب ولوز ولويزة وبطم ومشش وزيتون » مع اشتقاق هذه الاسماء وفروقها وتصغيرها وضاقتها الخ . فاسم نهر الدامور او كما يدعوه اليونان تاميراس يتضمّن اسم النخل الذي يقال له بالفينيقية تاير (تمر) ويدلّ على قدم هذا الشجر في لبنان (١) . وبعض هذه الاشجار كانت بالنة في الكثرة حتى تسمت بها المقاطعات والاقاليم على نحو : « جبل الريحان واقليم التفاح واقليم الخروب » كما بيّنّا ذلك فيما سبق من مقالاتنا عن الزراعة والاحراج في لبنان

ومما يتضي بالعجب هو اننا لا نرى في جملة النباتات الداخلة في الاعلام اللبنيّة اسم الارز سيد الاشجار في لبنان . فعلة ذلك أنّ الاهلين بادروا في اول امرهم الى قطع غابات الارز واستثمار اخشابه باثمان غالية حتى تجاوزوا في عملهم كل حدود التروي والفظنة كما سبق لنا ايضاحه (٢) فالارباح الفاحشة هي التي عرضت اشجار الارز الى العيث بها وخرابها حتى لم يبق منها الا القليل وهذا القليل لم يسلم من تعدي الانسان الا بفضل القمم المنيرة التي نبت عليها مع ان الارز يؤثر المواضع العالية المعتدلة الهواء فلا يكاد ينبت في موضع ينقص ارتفاعه عن ثمانائة او سبعمائة متر والمراكز المأهولة نجد اكثرها قائماً في الوسط . على ان الشرائع الرومانية (٣) المختصة بالاحراج كانت تلاشت او كادت حينما شرع العمران يتأصل حقيقة في لبنان اي في عهد وصول الموارنة اليه وقد كان اقتلاع الاشجار بلغ مبلغاً عظيماً حتى لم تبق احراج تستحق الاعتبار الا في الصرود العالية . فمجرد وجود هذه الشرائع والكتابات

(١) راجع غراطيق اللغة الفينيقية الملامة شرودر فنصل عام الدولة الالمانية سابقاً في بيروت (P. Schroeder : *Phœnix. Sprache*, 135) وكتاب جوره (Ch. Joret : *Les* ; 369) *Plantes dans l'antiquité* ; 328) (Clermont-Ganneau : *Rec. arch. orient.*, v, 328)

(٢) راجع الجزء الاول (ص ١٢٩)

(٣) راجع الجزء الاول (٢٢-٢٣)

العديدة المنصوصة فيها وهي تُربي على المائة أماً يوضح لنا جلياً الحاجة الماسة الى تلك الوسائل لوقاية الاشجار وبما أنّ هذه الكتابات ليس لها وجود إلا في لبنان فيسوغ لنا ان نستنتج أنّ غايتها انفا كانت حماية ارز ذلك الجبل

وهما كان من الامر فكثرة المواضع اللبنانية التي تُسمّى باسماء الاشجار او بما يُرجع اليها من الحرف والمهن كعصرة ومعاصر دليل على أنّ لبنان كان ارضاً سادت فيها الزراعة بخلاف سواها من الصنائع كشمغل المعادن مثلاً . فالاسماء العلمية لها اهمية كبرى من هذا القبيل فانها تؤيد نتائج بحثنا السابق . فاننا لانكاد نصادف في جميع لبنان اسماً يلتصق الى تلك الصنائع إلا اسم « معادن » في ناحية المنيطرة و« الفرزل » على السفح الشرقي وهي لفظة سريانية معناها مسبك او معمل حديد

وهذه الملاحظة نفسها تتناول الينابيع المعدنية او الحارّة فكثيراً ما نجد في اسماء الاماكن لفظة عين . اما اسم حمام او ما هو بمعناها فلا وجود له البتة . ويؤيد ذلك علم طبقات الارض فانه يبين لنا ان الطبيعة لم تجد على لبنان بوفرة المعادن كما ضنت عليه بالينابيع المعدنية والمياه الحمة اذ ليس فيه صخور بركانية

واما ما يدل على وجود الحيوان من اسماء المواضع اللبنانية . فليس بالواضح الصريح فاعل اسمي « مدينة الاسد » و « نهر الاسد » المار ذكرهما يشيران عند جغرافي اليونان الى وجود الاسد قديماً . واليوم لا نعرف من الاعلام الحاضرة المشتقة من اسم الحيوان إلا اسم بنمرة اي بيت غرة وكفرنيس : اما سن الفيل قريباً من بيروت وخرطوم في بلاد الشقيف فلا يكفيان للدلالة على ان الفيل وجد قديماً في لبنان لو لم تكن عندنا غير ذلك من الادلة التي اوردناها في الجائنا السابقة (١)

ولعله يحظر على بال كثيرين من القراء اننا اسهبنا في هذا الموضوع . ويقول قائل : ما الفائدة من جميع هذه الافتراضات الوهمية ومن هذا التشريح اللغوي وما المنفعة من هذا الدرس بالمكروسكوب والتنقيب عن البقايا المتحجرة في بطن النعّة

(١) راجع مقالنا المنونة : « ما فُقد لبنان من قديم الحيوان »

والتاريخ التي لا سبيل الى احيائها ؟ فلقد اجبنا على هذا الاعتراض في افتتاح مقالتنا وفي سياق كلامنا ونجيب عليه الان لآخر مرة

ان كل من تروى في مطالعة المقالات التي ادرجناها منذ ظهور المشرق عن احوال لبنان القديمة وتاريخه وجغرافيته لا بد له من ان يكون لاحظ ما لاحظناه ونحن انفسنا وهو اننا نعرف ماضي لبنان بشس المعرفة اذا لم نعلم إلا على الشهادات والادلة الكتابية التي تومى اليه لاسيما اذا كان مدار الكلام على ما تقدم عهد . فبالحقيقة ان هذه الشهادات جميعها من كتابات مرسومة على الحجارة وادلة في كتب المؤرخين والجغرافيين وآيات من مؤلفي الكتب المقدسة او غيرهم من الكتبة بلغات الشرق والغرب لا تتناول إلا بعض صفحات

لكن ما قولنا عن بقايا الابنية القديمة المنفرقة على سطح الجبل ؟ فانها عجايب بكما لا تتطرق ببنت شفة ومن النادر ان نجد بين انقاضها جزءا من كتابة او عبارة ضائعة في كتاب تفصح عن تاريخ بنائها واسمها والغرض منها . ومن طالع الجزء الاول من « تسريح الابصار » عرف ذلك حق المعرفة

فاذا ندري وماذا نعلم عن مساكن لبنان القديمة ؟ لعمرى ان ذلك يكاد ان لا يكون شيئا . فلو استثنينا مدن الساحل فاننا لانجد ذكرا للموضع مأهول في لبنان قبل التاريخ المسيحي . ومن بعد التاريخ المسيحي لا نصادف كتابا يصف اماكن لبنان قبل القرنين الحادي عشر والثاني عشر . فجل قصدنا كان اذن ان نعوض بعض التعويض عن سكوت التاريخ ونسد بهلاحظاتنا المتقدمة ذلك الخلل فاذا لم نتوفى الى سده جميعه فلا اقل من ان نسد بعضه وما لا يعلم كانه لا يترك جأه فان العلم بالبعض خير من الجهل بالكثرة

فكم من موضع في الجبل ليس له ذكر في كتاب وليس فيه شيء من العاديات حتى ولا لحد منقور في صخر يدل على مرور الانسان فيه . فهذا مما يحضنا على ان نلتبس من اشتقاق اسمه اثرا لماضيه وان نستمد من دراسة اصول اللغات الفوائد التي ضن علينا بها التاريخ والنصوص المكتوبة . فان كان العلم يونانيا او لاتينيا فيسوع لنا ان نستدل من ذلك على ان الموضع الذي يدعى بهذا الاسم يتصل تاريخه لهده شيوخ هاتين اللغتين في سورية وان كان الاسم يدل على عبادة وثنية فترجح أنه

من عهد انتشار تلك العبادات في الجبل اعني في الاربعة الاجيال الاولى للمسيح او قبل ذلك لاسيما ان كانت تلك الاسماء ترجع الى عبادة فينيقية او آرامية او اشورية . فتلك نتيجة البجائنا وهي على ما نظن من الاهمية بكان ان تمهد طريقاً لمعرفة تاريخ نشأة الساكن وهي في بيان الحقيقة بمثابة لا تقل كثيراً عن الادلة الكتابية اما اولئك الذين لا يعرفون الأعلى الاثار المكتوبة فيمتي عليهم ان يستنتجوا انه لم يكن في داخل الجبل من مراكز مأهولة قبل التاريخ المسيحي الا ما ندر لان التواريخ لا تذكر قبل الجبل العاشر الا ثلاثة اسماء مسماة صريحاً باسمائها اوردها اسطرابون (١) وهي جيجارتا وبوروما وصنان

فلا ننكر ان العمران لم يبدأ حقيقة في لبنان قبل عهد الرومانيين غير انه من المعلوم ايضاً انه كان في لبنان اكثر من ثلاث قرى قبل التاريخ المسيحي فمن اراد الوقوف على الحقيقة فيطالع ما كتبه في مقالاتنا عن كيفية استعمار لبنان وعن سكانه الاقدمين الا اننا في عرض هذه الابحاث لم نتوصل حينئذ الا الى نتائج بعيدة وادلة غير وافية بالمرام . اما الدليل الصريح على ان لبنان لم يكن خالياً من السكان في قديم الزمان كما يوهمه سكوت التاريخ والكتابات فاننا نجد خاصة في اعلام المواضع التي لخصناها وبيننا ان بعضها فينيقية وبالتالي متقدمة على التاريخ المسيحي بزمن طويل

على ان هذه النتائج وغيرها من الدلائل التي لا حاجة الى العود اليها تحتج عناً ان كان من حاجة وتعذرنا فيما اذا كنا نوقفنا طويلاً واسهبنا كثيراً في مثل هذا الموضوع الذي مع عظمته له فضل الحداثة والابتكار فيما يختص بلبنان على الاقل وغاية ما نتمناه ان يستنهض بجئنا هذا الضعيف المهتم العالية لاجبات حديثة فمنهني اذ ذلك نفسنا لاننا باستطرا السابقة مهّداً السبيل الى ذلك وفتحنا باباً يطرقه بعدنا من هو اقدر منا .

خاتمة الكتاب

فهنا وعند هذه الامنية نقف بعد استئذان القراء الافاضل الذين بكل لطف
وجاملة رافقونا في سياحاتنا الطويلة في ماضي لبنان . على اننا لا ندعي اننا في مقالاتنا
المتقدمة وفينا بالطلوب او استنفدنا المادة واستفرغنا الموضوع فاننا نناذر لبنان ونحن
نعلم ان مسائل كثيرة فالتنا دون ان نتعرض لها ومشاكل شتى تركناها او لم نحلها
حلاً مرضياً

وعسى ان يأتي بعدنا من هو اسعد منا فيتخذها ويحكم فيها حكماً نهائياً او
يوضحها احسن مما اوضحنا - ونحن نتمنى في الختام ان ما بدناه من الجِدِّ والكِدِّ
يرفع طرفاً من النقاب الذي يجيب عنّا ماضي لبنان ويبحث ذوي الفضل واهل العلم
على ان يحدوا حدودنا ويكملوا ما بدأنا به فيُظهروا للعيان فضل هذا الجبل الشهير
الذي اذاعت مديحة الكتب المقدسة وهو لا يزال من ابداع محاسن واجمل مشاعد
سورية الحالية .

فهرس

تسريح الابصار في ما يحتوي لبنان من الآثار

الجزء الثاني

صفحة		
٣	اسم لبنان وسعة نطاقه في التاريخ	الفصل الاول
٤	في التوراة = =	
٧	عند اليونان والرومان = =	
٨	ككتبة العرب = =	
١٠	ما تستفيد سوربة من لبنان	الفصل الثاني
١١	المنافع الهدروغرافية	
١٢	في الملك النباتي =	
١٣	اعتدال الجوّ	
١٥	انهار لبنان : منافعها واسماؤها	الفصل الثالث
=	منافع انهار لبنان جغرافياً واقتصادياً	
١٩	اسماء انهار لبنان قديماً وحديثاً	
٢٣	سكنى لبنان في قديم الزمان	الفصل الرابع
٢٩	الأمم البائدة في لبنان	الفصل الخامس
=	الخبثيون	
٣٤	اليونان	
٣٩	الايطوريون	
٤٠	الرومانيون	
٤١	المردة	
٤٥	الجراجمة	
٤٨	العجم	
٤٩	انتشار الامة المارونية في لبنان	الفصل السادس
٥٠	الموارنة قبل دخولهم لبنان	

صفحة		
٥٢	مهاجرة الموارنة الى لبنان	
٥٧	الموارنة في لبنان بعد الحيل الخامس عشر	
٥٨	بحث جغرافي في سيرة القديس مارون الناسك	الفصل السابع
٥٩	وصف مقاطعة كوناخية والقورسية	
٦٣	مدينة قرس	
٨٠	دير مارمارون	
٩٣	في لغات لبنان القديمة	الفصل الثامن
٩٨	رسم خرائط لبنان	الفصل التاسع
١٠٧	بحث في أنبياد وأغوار لبنان	الفصل العاشر
١٠٩	اودية لبنان	
١١١	منطقة اثاوج المخلدة في لبنان	
١١٢	وذف قُسم لبنان	
١١٥	الغاور والجسور الطبيعية	
١١٧	النقطة التي عندما تنتهي المساكن والنبات	
١١٨	مياه لبنان ورسم مجاريها	الفصل الحادي عشر
=	رسم عيون لبنان	
=	كيف تكوّنت عيون لبنان	
١٢٠	اختلاف عيون لبنان	
١٢٥	مجارى المياه في الاسراب	
١٢٧	رسم المجاري النهرية في لبنان	الفصل الثاني عشر
=	افادات عمومية	
١٣٢	الاصاب والسدود النهرية	
١٣٥	الانحار العاملة	
١٣٨	الانحار وحدود المقاطعات	
١٤٠	مياه لبنان البحرية	الفصل الثالث عشر
١٤٢	المظاهر البحرية العمومية	
١٤٣	اعناق البحر في الشواطئ اللبنانية	
١٤٦	جزر قديمة بازاء بيروت	
=	اكتبة الرمل	
١٥٠	ارتفاع الساحل البحري	

صفحة		
١٥٤	السواحل اللبنانية	الفصل الرابع عشر
١٥٧	سهل شكّا	
≡	وصف رأس الشقعة	
١٥٨	رأس نهر الكلب	
١٦٠	حسن مركز المدن الفينيقية	
١٦٢	المرايا الفينيقية : طرابلس والبنرون وجبيل وصيدا	
١٦٥	لمحة اقتصادية في مجاري المياه اللبنانية	الفصل الخامس عشر
١٦٦	المبادئ العمومية	
	كيفية الانتفاع من الاثمار اللبنانية : اللطاني والزهراني	
	والاولي والدامور ونهر بيروت ونهر الكلب ونهر ابراهيم	
١٦٩	ونهر الجوز وابي عليّ والبارد ونهر عكار والنهر الكبير	
١٧٣	شركة مياه نهر الكلب	
١٧٥	مشروع مياه نهر ابراهيم	
١٧٨	الاحوال الجوية في لبنان	الفصل السادس عشر
١٨١	الفلاحة والاحراج اللبنانية	الفصل السابع عشر
١٨٣	الغابات اللبنانية سابقاً وحاضراً	
١٨٨	مزروعات شتى	
١٩٥	ما فقد في لبنان من قديم الحيوان	الفصل الثامن عشر
١٩٦	السيح في لبنان	
١٩٩	الفيل	
٢٠٢	التمساح	
٢٠٧	المعادن في لبنان	الفصل التاسع عشر
≡	حالة المعادن حاضراً	
≡	أولاً : الوقود . الفحم الحجري	
٢١٣	الحُسر	
≡	ثانياً : المواد والمناجم المعدنية	
≡	الحديد	
٢١٧	ثالثاً : الحجارة ولوازم البناء	
٢٢٠	معادن لبنان القديمة	
٢٢٢	الحديد	

صفحة		
٢٢٣	النحاس	
٢٢٧	النتائج التاريخية من درس اعلام الاماكن اللبنانية	الفصل العشرون
=	منافع هذا البحث	
٢٣١	الاعلام السريانية	
٢٣٣	تفسير حرف الباء الداخلة على الاعلام اللبنانية	
٢٣٥	الاعلام العربية	
٢٣٦	= اليونانية واللاتينية	
٢٣٧	= الفرنجية	
٢٣٩	= النصرانية	
٢٤٠	= وشيوع العبادات الوثنية في لبنان	
٢٤٧	= والملك النباتي في لبنان	
٢٤٩	= = المعدني في لبنان	
٢٥٢	خاتمة الكتاب	

فهرس الاعلام والمواد

التي وردت في جزئي كتاب تسريح الابصار على ترتيب حروف المعجم .
فالحروف الرفيعة تدلُّ على صفحات الجزء الاول ما لم يتقدّمها عدد ٢ الاسود الدال
على الجزء الثاني مع ما يتبعه من الاعداد الرفيعة

- اسكندر ساويروس ومآثره في لبنان ١٠٢
اشجار لبنان ٢: ١٨٢-١٩٥
الاشوريون وآثارهم في لبنان ١٠-١٢ لغتهم
٧٣-٨١ ; ٢: ٩٣-٩٤
الاعلام المكانية في لبنان وفوائدها التاريخية
٢: ٢٢٧-٢٥١ الاعلام الآرامية ٢٢٢-٢٢٥
العريضة ٢٣٥ اللاتينية واليونانية ٢٢٦-٢٣٥
الفرنجية ٢٣٧ الاعلام النصرانية ٢٣٩-٢٤٠
الاعلام الدالة على الوثنية وآلفها ٢٤٠-٢٤٧
اغريبا ومآثره في بيروت ٢٥-٢٦
أفقا وهيكلا وآثارها ٤٩-٥١, ١٠٨, ١١٣-
١١٣ ; ٢: ٣٨
افيان او أمغيان الشهيد احد طلبة بيروت ١٠٧
أكويلينا شهيدة جيل ١٠٥
الأمم البائدة في لبنان ٢: ٢٩-٤٩
أمونير البيروتي في عهد القراعة ٧٩
اميا الفينيقية ٧٦ ; ٢: ٥٢
امينوفيس الثالث وامينوفيس الرابع وعملها في
لبنان ٧٣-٨١
اميون ٧٦ آثارها ١٤٤
انطلياس ٤-٥ نهر انطلياس ٤ ; ٢: ١٧٢
أنفة ١٥١-١٥٢
اهدن وكنيستها مسار جرجس ٨٢, ٨٥, ٩٣
- * —
الآراميون في لبنان ٢: ٢٩, ٢٨ في القورسية
٦٠-٦١, ٦٧-٧١ لغتهم ٢٨, ٩٤-٩٦
١١٥ الاعلام الآرامية في لبنان ٢٢٢-
٢٣٥
ابراهيم (نهر) نهر ادونيس ٦-٧ ; ٥٨-
٥٩ ; ٢: ١٧٥-١٧٧
اثنودورس القديس في بيروت ١٠٦
الاجراس والنوابس في لبنان ٩١
الاحراج والغابات اللبنانية ٢: ١٨١-١٩٥
الاحوال الجوية في لبنان ٢: ١٧٨-١٨٢
ادريانوس القيصر وآثاره في لبنان ١٧
١٠٢,
اده (البثرون) وكنيستها ٨٤ و ٨٨
اده (جبل) وآثارها ٦٨-٦٩ و ٨٤
كنيستها ٩٠
ادونيس او تموز وعبادته في لبنان ٢٨-٤١, ٤٣,
و ٤٩, ٥٥, ٥٨-٥٩, ١١٢
ارز لبنان ١٣, ١٣٤-١٤٢
إرسسس العابد اللبناني ١٠٦, ١٠٩
الاسد في لبنان ٢: ١٩٥-١٩٩
الأسراب اللبنانية ومياها ٢: ١٢٥-١٢٧
اسماء الامكنة اللبنانية وفوائدها (التاريخية) ٢:
٢٢٧-٢٥١

- تَمُوز (اطلب ادونيس)
توفيل الماروني ٣ : ٥٥
تولا وكنيستها ٩٠, ٩١, ٩٢
تومات نيحا وقلعتها ٢ : ٢٠٩, ٢٣٧
- *** ث ***
الثالوث الوثني في لبنان ٤٥
ثاودوسوس الكبير ولبنان ١١١, ١١٣
- *** ج ***
جبة بشرأي ١٣١ : ٥٢
الجليل الشرقي او جبل الشيخ وجبل حرمون
٢ : ٥-٧, ٢٣٠
جُبَيْل وآثارها القديمة ٢٨, ٦٠-٦٣ مدافنها
٦٣-٦٦ نواويسها ٦٦-٦٧ بلاد جيبيل ٦٧-
٧٢ جيبيل في عهد الفراعنة ٧٤-٧٩ دخول
النصرانية فيها ١٠١-١٠٢, ١٠٥ جيبيل
المتيقة او باليبيلوس ٧-٨, ١٤
الجراجمه اصلهم وسكناهم في لبنان وحروجهم
٢ : ٤٥-٤٨
جرَبْتَا وآثارها ٧٠
جرجس (القديس) وكرامته في لبنان ٨
جرمق والجرامقة ٢ : ٢٢٨
جزين ومناجم فحمها ٢ : ٢١٠
جون عكَّار ٢ : ١٥٤-١٥٥
جونيه وصربا ٥-٨ اقوال العرب في جونيه ٦
جيجرتا او جيفرتا (القلعة اللبنايية) ٢٣
١٤٩-١٥١ : ٢ : ٢٥
- *** ح ***
حاصبياً وحُصْرُها ٢ : ٢١٢
الحثيون في لبنان ٢ : ٢٩-٣٣
الحجارة اللبنايية ومقاطعها ٢ : ٢١٧-٢٢٠
٢٢٦,
- حدتون وكنيستها وآثارها ٨٦-٨٧, ٨٩-
٩٠, ٩٠
حدَّث الحبيبة وكنيستها ٨٤, ١٣٣
الحديد ومناجمه في لبنان ٢ : ٢١٢-٢١٧
٢٢٢, ٢٢٣
حرمون (جبل) ٢٤ : ٢ : ٥, ٢٣٠
حصن سليمان ١٥
حماة وآثارها الحثيية ٣٠-٣١ : ٤
الحُصْر ومناجمه اللبنايية ٢ : ٢١٣
حُدُوش ١٤٩-١٥٠
حيطورة ومنجم فحمها ٢ : ٢١٠-٢١٢
الحيون وما فُقد منه في لبنان ٢ : ١٩٥-
٢٠٦
- *** خ ***
خرائط لبنان واتقادها ٣ : ٩٨-١٠٧
الخُرُوب في لبنان ٢ : ١٩١-١٩٣
الخشب المتحجّر ومناجم الفحم في لبنان ٢ :
٢٠٧-٢١٣
- *** د ***
دار بشتار وآثارها ١٤٢ اسمها ٢ : ٢٤٢
داعل وكنيستها ٨٤
الدامور ونصرها ٢ : ٢٠, ١٧١-١٧٢
درب السين واسمها ٢ : ٢٤١
دفنة ٢٨
دوما وآثارها ١٠٧, ١٢٧-١٢٨
دير القلعة وآثاره وهياكله ١٣-٢١
دير مار مارون ١١٠ شهداؤه ١١٨-١١٩
- *** ر ***
رأس الشقمة (جبل) ١٤٥-١٤٨ : ٢ : ١٥٦-
١٥٨
رشكيدا وكنيستها القديمة ٨٥, ٩١
رشمياً واسمها القديم ٢ : ٢٣٤

ش

- شامات وذكرها ٢ : ٢٤١
شبطين وكنيستها ٨٨
شط العرب ٢ : ١٢٧
شفور وشاغور ٢ : ٢٢٣
الشقيق (قلعة) ٢ : ٢٢٧
شكاً ٢ : ١٥٦
الشمس وعبادتها في لبنان ٢ : ٢٤٤

ص

- الصبيير او اللبن الشوكي ٢ : ١١٠-١١١
صربا وجونية ٥-٨
صغار وكنيستها ٨٥, ٩٠
الصليبيون وآثارهم في لبنان ١٢, ٩٧, ١٢٣
و ١٢٤, ١٥٢, ١٥٤ - ١٥٦
صنبن (جبل) ٢٤ - ٢٥
صور وصيداء في عهد الفراعنة ٧٥-٨١
صُور : مقارة ونبع انطلياس ٤ مدخل مقارة
انطلياس ٦ جسر الماملتين ٨ مدخل مقارة
جمعتا ومنبع نهر الكلب ١٠ باطن مقارة
جميتا ١٢ رسم هيكل البهل في دير القلعة
وآثاره ١٦ قناة نهر بيروت ٢٨ قلعة
معراب ٢٧ اثار غنية والمشنقة ٢٨ الزهرة
اللبنانية ٤٤ قلعة فقرا ٥٤ برجا ٥٩
مسكوكات بويوند السابع ١٥٥ صورة احد
غزاة الحثيين ٢ : ٢٢٣ صورة المشتري
البلعكي في دير القلعة ٢٧ خارطة اسطرابون
٩٩ رسوم لمجري المياه ١٢٠ - ١٢٣ السد
عند مصب نهر ابراهيم ١٢٤ خارطة لبنان
البحرية ١٤٤ رسم جبيل ١٥٠ صورة مرفأ
صيدا ١٦٤ منظر الليطاني قريبا من قرية
برغش ١٦٩ صورة نصب اكروم ١٩٧

- الرهبانية واول ظهورها في لبنان ١٠٩ في
القورسية ٧٤-٧٨
الرومان : سكنتهم الساحلية ٥, ٩ آثارهم
في لبنان ١٠, ١٥, ١٨, ٢١, ٢٤, ٤٩,
٥٦, ٦٥, ١٢٣, ١٤٩ ; ٢ : ٢٦ - ٢٨
و ٤٠ - ٤١
ريب ادى وابنه ازيرو الفينيقيان في عهد
القراعة ٧٥ - ٧٩

ز

- زبيدة (قناطرها) ٢٩
زفرتا ١٥٠
الزهرا في (نصر) ٢ : ١٧٠-١٧١
الزهرة وعبادتها في لبنان (اطلب عشترت)
هيكل الزهرة في افنا ٥٠ - ٥١ و ١٠٨
الزيتون ومزارعه في لبنان ٢ : ١٨٧-١٨٨
الزبينة (بحيرة) ٤٨

س

- ساحل علما ٢٦
ساحل لبنان البحري ٢ : ١٥٠-١٥٤ السواحل
اللبنانية ١٥٤-١٦٥
سئاب الاله في لبنان ٧١-٧٢
السريانية (اللغة) في لبنان ١١٥ في بلاد قورس
٢ : ٦٧-٧١ ; ٩٤ ٩٨
سلماتا ١٤٧
السلوقيون وآثارهم في لبنان ١٠, ١٢, ٢٢
; ٢ : ٢٤, ٦٠
سمر جبيل وكنيستها ٩١ آثارها ١٢٢-١٢٥
سمعان العمودي القديس ولبنان ١١٦
سن الفيل ٤ : ٢ : ٣٠٠
سنان (القلعة اللبنانية ٢٢, ٢٤ ; ٢ : ٢٥
سنير (جبل) ٢٤-٢٥
سورية : فتح الرومان لها ٢٢-٢٦ ما تستفيده
من لبنان ٢ : ١٠ - ١٥

- اخبار لبنان جغرافياً واقتصادياً ١٥-١٩
سكنى لبنان في قديم الزمان ٢٢-٢٩ الامم
البائدة في لبنان ٢٩-٤٩ الحثيون ٢٩
اليونان ٣٤ الايطوريون ٣٩ الرومانيون ٤٠
المرددة ٤١ الجراجمة ٤٥ المعجم ٤٨ الموارد
٤٩-٥٨ لغات لبنان القديمة ٩٣-٩٨ رسم
خرائط لبنان ٩٨-١٠٧ بحث في انجاده
واغواره ١٠٧-١١٧ اوديته ١٠٩-١١١
منطقة ثلوجه القراء ١١١ اقسمة واقسة علوها
١١٢-١١٣ مغاوره ١١٥-١١٦ جسوره
الطبيعية ١١٦-١١٧ مياه لبنان ومجارها
١١٨-١٢٩ مجاري مياه لبنان في الاسراب
١٢٥-١٢٧ مياهه البحرية ١٤٠-١٥٤ لمحة
اقتصادية في مجاري المياه اللبنانية ١٦٢
الاحوال الجوية في لبنان ١٧٨-١٨١
الفلاحة والاحراج اللبنانية ١٨١-١٩٥ ما
فقد لبنان من قديم الحيوان ١٩٥-٢٠٦
المعادن في لبنان حاضراً وسابقاً ٢٠٧-
٢٢٦ النتائج التاريخية من درس اعلام
الاماكن اللبنانية ٢٢٧-٢٥١
لغات لبنان القديمة ٢: ٩٣-٩٨
لمحة اقتصادية في مجاري المياه اللبنانية ٢:
١٦٥-١٧٧
اللوز اللبناني ٢: ١٩٣
اوسوس الشهيد في لبنان ١٠٥-١٠٦
البيطاني (نهر) ٩: ١٨: ٢, ١٩-٢١, ٢٢-
١٣٠
الليمون في لبنان ٢: ١٩٣-١٩٤
* م *
- ماحوز (عين) ٥٨
مارون (مار) (ناسك: بحث جغرافي في سيرته
٢: ٥٨-٩٣ مولده ونشأته ومكان تنسكه
وموتيه ٧٦-٧٩ مقام دير الشهيد وما جرى
- كفرحي وكنيستها ٨٤ آثارها ومدرستها
١٢٨-١٣١
كفرشليمان وآثارها ٨٨-٨٩, ٩٢, ٩٧,
١١٩
كفرشيشا واسمها ٢: ٢٤١
الكلب (نهر لوكوس) ٨-١٢, ٥٢, ٢:
١٢٨-١٣٩ جسور نهر الكلب وعادياتها
١: ٨-١٣ رأسه ٢: ١٥٨-١٥٩, ١٧٣-
١٧٥
كلميسكس (جبل لبنان) ٧
كنائس لبنان (القديمة وخرابها الهندسية ٨١-
٩٩ تنظيم الكنائس في لبنان ١١٥
الكنعانيون في فينيقية ٧٤: ٢, ٩٤:
الكورة وآثارها ١٤٢ اسمها ٢: ٢٣٦
كوماجينة وموقعها في سورية ٥٩-٦٣
كويرت (هنري ورشرد): خريطتهما
لبنان ١٠٠, ١٠٦, ١١٣
* ل *
- اللاتينية (اللغة) في بلاد الشام ٢٤-٢٥, ٢٧,
لاونتوبوليس (مدينة فينيقية) ٥
لبنان واحواله في القرن الرابع عشر قبل المسيح
وفقاً لمراسلات تلم العارثة ١٢-٨١ كنائس
لبنان القديمة ٨١-٩٩ دخول النصرانية في
١٠٠ اول مبشريه ١٠٠ نزاع النصرانية
والوثنية في لبنان ١٠٤ مبادئ العيشة
الرهانية في لبنان ١٠٩ ترقى النصرانية في
القرن الرابع ١١٢ تنظيم الكنائس في لبنان
١١٤ انتصار النصرانية نهائياً على الوثنية
في لبنان ١١٦ لبنان وارزقه ١٣, ١٣٤-١٤٢
اسم لبنان وسعة نطاقه في التاريخ ٢: ٣-
١٠ لبنان الشرقي ولبنان الغربي ٥-٧
فوائد لبنان لبلاد الشام ١٠-١٥ منافع

✳ ن ✳

ناوس وهيكلاها ١٤٣ اسمها ٣ : ٢٣٥
 النحاس في لبنان ٣ : ٢٢٣-٢٢٦
 (النصيرية في لبنان ٣ : ٤٨ - ٤٩ ; ٥٧ جبل
 النصيرية (برجيلوس) ٣ : ٨-٩
 النورية (السيدة في رأس الشقعة) ١٤٥-١٤٦
 نوهرا (الشهيد) ١٠٥ - ١٠٦
 نهر - انهار لبنان : نهر بيروت (ماغوراس)
 ٤ و ٥٣ ; ٣ و ٢٠, ١٧٢ نهر انطلياس ٤ : ١
 ١٧٢ نهر الكلب (اطلب الكلب) ٠ نهر
 ادونيس او نهر ابراهيم (اطلب ابراهيم) نهر
 الاسد او الليطاني (اطلب الليطاني) ٠ نهر
 القاسمية ٩ : ٣ ; ١ و ٢١ نهر العاصي ونبعه
 ٥٢ نهر الاولي (اطلب الاولي) . منافع انهار
 لبنان جغرافياً واقتصادياً ٣ : ١٥-١٩ رسم
 المجاري النهرية في لبنان ١٢٧ - ١٢٢
 المصاب والسدود النهرية ١٢٢ انهار لبنان
 العاملة ١٣٥-١٤٢ لمحطة اقتصادية في الانهار
 اللبنانية ١٦٥ - ١٧٧ الزهرا في ١٧٠ الاولي
 ١٧١ الدامور ١٧١ نهر بيروت ١٧٢ نهر
 الموت ٢٢٢ نهر انطلياس ١٧٢ نهر الكلب
 ١٧٣ نهر ابراهيم ١٧٥ نهر الجوز ١٧٧ نهر
 قاديشا (ابو علي) ١٧٧
 نيجا وقاعتها ٢ : ٢٢٧

✳ ه ✳

الهرمل ٣ : ٢٦
 هيرودس الكبير في بيروت ٢٨
 هيلانة (القديسة) وماثرها ١٠٨

✳ و ✳

وادي جرمق ٣ : ٢٢٨
 وادي قزحياً ٩٢ و ١١١

فيو ٨٠-٩٢ : نازعات اليعاقبة والموارنة ٢ :
 ٥١-٥٢
 ماغوراس (نهر بيروت) ٢ : ٤٠, ٢٠, ١٧٢
 المتولة في لبنان ٣ : ٤٨ - ٤٩, ٥٧
 المرافئ اللبنانية ٣ : ١٦٣-١٦٥
 المردة في لبنان واصلمهم ٢ : ٤١-٤٥
 مسرح وكنيستها ١٨٩ آثارها ١٢٢
 المسيح (السيد) في لبنان ١٠٠-١٠١
 المسيلحة وآثارها ١٤٤
 المشتري (الاله) في لبنان ١٦, ١٨ و ٧٠
 المشتري البعلبكي في لبنان ٣٧-٣٨
 الشمس في لبنان ٢ : ١٩٠, ١٩٤
 المشقة وآثارها ٣٩-٤١
 المصاب والسدود النهرية في لبنان ٣ : ١٢٢
 المصريون وآثارهم في لبنان ١١-١٢
 معاد وآثارها ٧١-٧٢ كنيستها ٨٥, ٨٧
 المعاملتين ٧, ٢٨ ; ٣ : ١٣٩
 معراب وقلعتها ٢٧-٣٨
 مغارة الراهب عند العاصي ١١٠-١١١
 الملكيون في لبنان ٣ : ٥٤
 منبج ٣ : ٦٢, ٧١
 المنيطرة ٣ : ٢٢٧
 الموارنة اصلهم وانتشار اسمتهم في لبنان ٣ :
 ٤٩-٥٨ مناصبتهم لليعاقبة ٥١ - ٥٢ الموارنة
 والصليبيون ٥٥-٥٦
 موسى الحبشي ١١٢-١١٣
 المونوتليون في وادي العاصي ١٢٠
 المياه اللبنانية ومجاريها ٥١-٥٣ ; ٢ : ١١٨ -
 ١٢٩ منافعها ٨, ١٥ - ١٩ مياه لبنان
 البحرية ١٤٠ - ١٥٤ لمحطة اقتصادية في
 مجاري المياه اللبنانية ١٦٥-١٧٧
 ميروبا واسمها ٣ : ٢٣٤
 ميه وميه ٣ : ٢٣٤

يوحنا فم الذهب ولبنان ١١٥	وادي فميق ١٤٧, ١٥٠
يوثيان الملك واثره ١١٢	وادي النهر الكبير ٢: ١١٢-١١٤, ١٣٠
يوليوس قيصر في الشام ٢٥	وجه الحجر وقلعتها ٢٣, ١٤٦; ٢: ١٥٧
اليونان وآثارهم في لبنان ١١, ٦٥, ٦٨, ٧١	ي
٢٩-٣٤: ٢; ١٤٧, ١٢٧,	(المقوية) البدعة) في لبنان ١١٧-١١٨; ٢:
اليونانية (اللغة) في (شام) ٢٤ - ٢٥; ٢:	٥١ - ٥٢
١١٥	اليمونة بجيرتها وآثارها ٤٦ - ٤٩; ٢:
	١١٧



